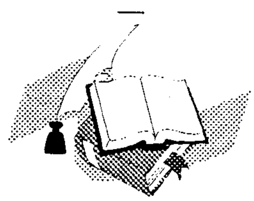
جامعة تونس الأولى

كلية العلوم الانسانية والاجتماعية بتونس

قسم التاريخ



﴿ شهادة الدكتوراه في التاريخ الوسيط الإسلامي ﴾

ولاية الجزيرة : التحولات الإجتماعية والسياسية من بداية القرن الثاني هجري (الثامن ميلادي) إلى نهاية حكم المعتصم (227 هـ الموافق لـ 841م)

إنجاز : رضا بن حسين

تحت إشراف : الدكتور راضي دغفوس

السنة الجامعية 1999 – 2000

المقدّمة العامّة

تناول المؤرّخون التاريخ العربي الإسلامي من زوايا متعدّدة وكثيرا ما اعتنوا بتاريخ العرب من منظور عامّ. كما أنّهم جدّوا في البحث والكشف عن الجوانب الإقتصاديّة والاجتماعية والسياسية والعسكرية والثقافية والدينيّة من حياة العرب منذ ظهور الإسلام. لكن مجالات البحث في هذا التاريخ على أهميّة الدّراسات والأبحاث المنجزة ماتزال مفتوحة لبقاء أركان منه مظلمة وزوايا لم تدرس بعد. ثم إن دراسة هذا التّاريخ من كل الجوانب دراسة تستوعب المناهج والأدوات التحليليّة العلميّة المستحدثة في مجال التاريخ لضمان أكثر النتائج الموضوعيّة ماتزال في خطواتها الأولى بربوعنا.

ولا يمكن لأحد أن ينكر ما للدّراسات المونوغرافيّة لولايات الخلافة الإسلاميّة الشاسعة من أهميّة خاصّة سواءا منها الولايات المركزيّة أو ولايات الأطراف.

وإنّ اختيار ولاية الجزيرة مجدي لأنها حازت في فترة بحثنا بدور سياسي وعسكري شديد الأهميّة، جعلها في قلب الأحداث سواءا فيما يرتبط بالحركة التّوسعيّة للمسلمين نحو الأراضي البيزنطيّة والمجال الشمالي وما تبعه من بروز نظام الثغور وما لعبته المجموعات القبليّة المستوطنة بها من دور هامّ في صياغة تلك الأحداث.

الإمارة الحمدانية بها.

ويمكن تقسيم هذه الفترة إلي مرحلتين رئيسيّتين وتهمّ المرحلة الأولى فترة نهاية الحكم الأموي عندما أصبحت هذه الولاية منذ حكم هشام بن عبد الملك ولاية محوريّة في منظومة الخلافة وتهمّ المرحلة الثانيـة العصر العبّاسي الأوّل عندما بدأت الحركات الانفصاليّة تبرز وتتقوّى بها رغم مساعي الخلافة العبّاسيّة للسيطرة على هذه الولاية.

واختيار هذه الفترة له تبريراته، إذ أن غايتنا في هذا البحث هو مواصلة دارسة هذه الولاية بعد أن درسناها في شهادة الكفاءة في البحث من بداية الفتح الإسلامي إلى نهاية الحكم الأموي ونتناولها في أطروحتنا في فترة إزدهار وقوّة ولاية الجزيرة في عصر الولاّة حيث انتقلت الخلافة مرّتين إليها زمن خلافة مروان بن محمّد الأموي وهارون الرّشيد العبّاسي.

ومن جهة أخرى، نلاحظ أنّه منذ بداية القرن الثالث هجري بدأ حضور الدّولة العبّاسيّة يضعف بها مع ظهور حركات ثوريّة وقوى إنفصاليّة ذات منزع سياسي أو قبلي، جعل هذه الولاية تبدأ في الإنفصال تدريجيا عن الخلافة مع بروز زعامات محليّة لها النّفوذ الفعلي علي نواحيها وتواصل هذا الوضع إلى ظهور الإمارة الحمدانيّة ونهاية عصر الولاّة في نهاية القرن الثالث الهجري.

وتتمثّل الإشكاليّة المزمع دراستها في هذا الموضوع بالبحث والتعمّق في دراسة التحوّلات الإجتماعيّة والسيّاسيّة ووضع الشبكة الحضريّة بها في ظلّ بحث

مونوغرافي يشمل أهمّ خصائص هذه الولاية.

وتعلّق الجزء الأوّل من إشكاليّة الموضوع بالبحث في التحوّلات الاجتماعيّة من خلال دراسة الظّاهرة القبليّة من مختلف جوانبها ثم دراسة المجموعات المستقرّة بها سواءا منهم مجموعات المزارعين أو الحضريين ودراسة الواقع الدّيني بالولاية عبر تحليل الظّاهرة المسيحيّة وشبكة الكنائس والنّظر في الأقليّات الدّينيّة الأخرى ولم نركّز على دراسة الإسلام لتناوله بالبحث كظاهرة دينيّة شاملة في مختلف أركان البحث.

أمّا الجزء الثاني فيتعلّق بدارسة التحوّلات السيّاسيّة بعد أن حلّلنا القاعدة الإجتماعيّة في مختلف جوانبها والتي ستقوم عليها الأحداث وقمنا في هذا الجزء بمتابعة تطوّر الأوضاع السّياسيّة بها بين نهاية الحكم الأموي وبداية الحكم العبّاسي ثم قمنا بدراسة تطوّر الوضع القانوني للولاية ونظام الثغور بها في العصر العبّاسي الأوّل قبل خلافة هارون الرّشيد وقمنا بتحليل أسباب ومظاهر تراجع حضور الدّولة بهذه الولاية خصوصا في بداية القرن الثالث هجري.

وأنهينا هذا الجزء بدراستنا تطوّر الظّاهرة الخارجيّة والحركة الانفصاليّة لنصر بن شبث العقيلي بها.

أمّا الجزء الثالث والأخير من هذا العمل فتناولنا فيه تحليل الظّاهرة الحضريّة بهذه الولاية من خلال وصف للشبكة الحضريّة وتطوّرها ثمّ قمنا بعرض

أهمّ حواضرها وتطوّرها في نهاية العصر الأموي إلى العصر العبّاسي الأوّل تحت تأثير التحوّلات الإجتماعيّة والسياسيّة التي حدثت في تلك الفترة.

وإذ نتطرّق لدراسة ولاية الجزيرة، فنحن أمام مسألة مستجدّة ولسنا أمام موضوع وقعت دراسته بصفة مستفيضة بل أنّ الدّارس يواجه صعوبات تتعلّق بجمع مادّة دراسته التّاريخيّة. فالحديث عن ولاية الجزيرة يكاد يقتصر على كتب الجغرافيين العرب في فترة متقدّمة عن بحثنا، بينما تكتفي المصادر التّاريخيّة الهامّة بالإشارة إليها ضمن التّاريخ العامّ أو تاريخ من إستوطنها من العلماء والتّابعين. ويوجد جزءا من المادّة مكتوبة في المصادر السّريانيّة والتي تكاد تقتصر في حديثها عن أوضاع النّصارى بها.

ولا يسعنا هنا إلاّ أن نشير إلى المصادر الكبرى ككتاب تاريخ الأمم والملوك للطّبري أو كتاب الكامل في التّاريخ لابن الأثير وهو وإن كان مصدرا متأخّرا فإنّ صاحبه جزريّا له إطّلاع على مصادر محليّة مفقودة الآن لا نجد لها أثرا. كما نشير إلى غني مادة كتاب الأغاني للأصفهاني وبعض كتب التّراجم والطّبقات وهذا كلّه تطلّب جمعه منّا جلدا وصبرا على جمع الأخبار المبعثرة والرّبط بين بعضها لتكوين مادّة مستقلّة تبتعد عن التوظيف الدّيني أو القبلي لهذه المصادر.

وهكذا فقد تمّ هذا العمل إستنادا إلى المصادر الإسلاميّة والسّريانيّة فالمصادر الإسلاميّة هي مستندنا الرّئيسي، خاصة بالنّسبة إلى عمل الولاة وقرارات الخلافة التي تخصّ الجزيرة.

وزوّدتنا المصادر السّريانيّة بمعلومات قيّمة عن حضور المسيحيّة الهامّ بهذه الولاية والتعسّف الجبائي الحاصل على أهالي الولاية مع إشارات إلى الحركات الإجتماعيّة والدّينيّة التي لم تتناولها المصادر الإسلاميّة.

وتوفّرت لدينا من مصادر الطّبقات والتّاريخ العامّ ودواوين الشعر معلومات تتعلّق بالقبائل وأشرافها وعلماء وفقهاء هذه المنطقة.

كما مدّتنا الكتب الجغرافيّة بأخبار دقيقة عن الشبكة الحضريّة بالجزيرة وأهمّ المسالك العابرة بها وأحيانا أخرى التّوزيع الجغرافي للقبائل والعشائر بها.

وإذ كنّا اهتممنا بما ورد في هذه المصادر من أخبار فإنّ ذلك عرّضنا لصعوبات منهجيّة حتّمت علينا إلتزام الحذر عند قراءة تلك الآخبار واستغلال الرّوايات وتبيّن غثّها من سمينها والتّمييز بين العرض الموضوعي وبين الاراء والآخبار التي تعكس أهواء أصحابها ومذاهبهم وما يمليه تعصّبهم لطائفة أو مجموعة معيّنة.

واستقرّ رأينا بعد تفحّصها ونقدها على اختيار أكثرها موضوعيّة ومقارنة الرّوايات ونقدها.

وترجع هذه الصّعوبات في أنّ بعض المصادر المحليّة الهامّة لتاريخ الموصل لآبي زكرياء الآزدي هو أقرب إلى تاريخ يمنيّة الموصل من أن يكون تاريخ تلك النّاحية. كما أن تاريخ الرّقّة للقشيري هو تاريخ تراجم من نزلها من التابعين والعلماء بها.

بينما إهتمّت المصادر العامّة ببعض الأحداث الهامّة واكتنف الولاية النّسيان في معظم مراحلها التّاريخيّة. أمّا المصادر السّريانيّة فإنّ مؤلفيها من رجال الدّين اصطبغت مؤلفاتهم بالإنحياز الكليّ لكنيستهم ومذهبهم جعلها أقرب إلى تاريخ طوائفهم من أن يكون تاريخ عامّ واتبعوا منهجا تيولوجيا حرّفوا به الأحداث وفق نظرتهم الدّينيّة الضيّقة.

غير أن جميع هذه المصادر ليست فيها الكفاية لإخراج مادّة تاريخيّة متماسكة جعلنا نلتجأ إلي نتائج بعض الحفريات القليلة التي قامت بها بعض البعثات الاستكشافيّة الغربيّة أو مديريّات الآثار بتلك المنطقة.

وأخيرا لابدّ من ذكر أنّ الصّعوبات المنهجيّة لم تكن الوحيدة التي اعترضتنا في التّعامل مع المصادر والمراجع. فقد كان لزاما علينا قبل كلّ شيء، توفير تلك المصادر والمراجع الممكنة والحال أنّ العديد منها ليس في المتناول ممّا حتّم علينا البحث عنها مباشرة في بعض المكتبات الأجنبيّة كمكتبات القاهرة في مصر واقتناء بعضها من الدّول العربيّة الشقيقة.

وفي النّهاية لا يسعنا ونحن نقدّم هذا العمل إلاّ الإشادة بفضل أستاذنا راضي دغفوس وبقيّة من آزرنا لإنجاز الأطروحة.

الباب الأوّل

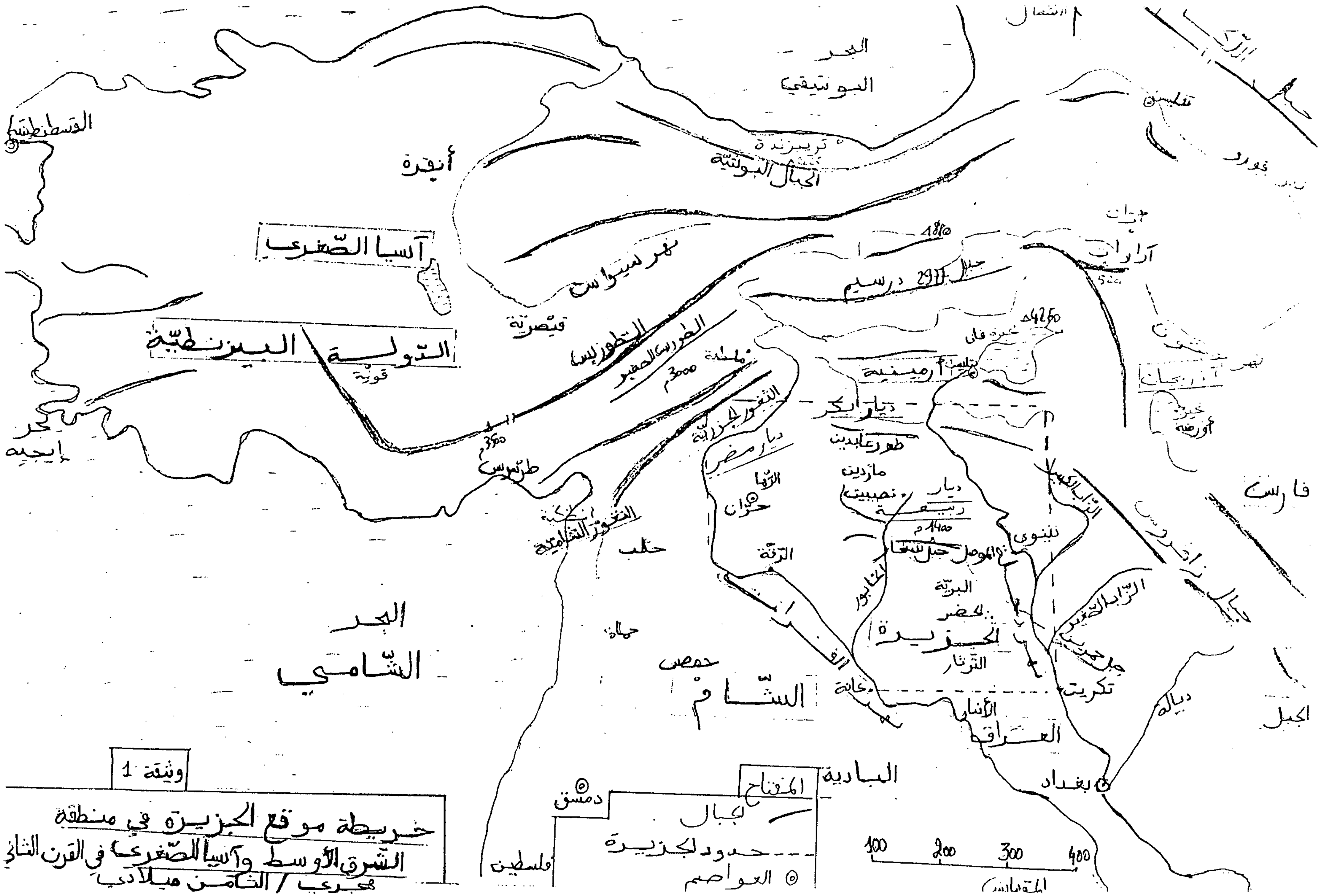
التحوّلات الإجتماعيّة بالجزيرة

مقــدّمــة

الفصل الأوّل : الحضور القبلي بالجزيرة

الفصل الثاني : المجموعات المستقرّة : بين الحفاظ على هويّتها والإندماج في المنظومة الإسلاميّة

خــاتمــة



وثيقة 1

خريطة موقع الجزيرة في منطقة الشرق الأوسط وآسيا الصغرى في القرن الثاني الهجري / الثامن ميلادي

الباب الأوّل :
التحوّلات الإجتماعيّة بالجزيرة

مقدّمة :

إنّ تحليل التحوّلات الإجتماعيّة بالجزيرة، يتطلّب منّا الانطلاق من الخطوط العامّة لهذه التحوّلات في نطاق نظرة شاملة للمجتمعات الوسيطة مع خصوصيّة المجتمعات الشرقية ذات التّراث الحضاري القديم والتي تأثرت بالمنظومة الثقافيّة الإسلاميّة إمّا مباشرة بالنّسبة للجماعات الإسلاميّة أو بطريقة غير مباشرة بالنّسبة للأقليّاتِ التي تعيش داخل هذا المجال. ومن أبرز هذه السّمات المميّزة الوضع الديمغرافي حيث أنّ الجزيرة تتميّز بفراغ سكّاني ونظام ديمغرافي تقليدي أدّيا إلى : سكن مشتت في مجال شاسع.

إنّ عدد سكّان الجزيرة بين القرن الثاني والثالث هجري كان متقلّصا في مساحة شاسعة تمثّل شمال بلاد الرّافدين ذات الوسط الطّبيعيّ المتميّز عن المجالات الجنوبيّة المجدبة عموما. وأسباب هذا النقص الدّيمغرافي يتمحور في بعض العوامل وهي :

-هجمة الأمراض الوبائيّة : فرغم الدّيناميكيّة السّكانيّة بسبب توافد أدفاق الهجرة باستمرار على المنطقة منذ أقدم العصور، فإنّ عمل الأوبئة، جعل الوضع الدّيمغرافي في هشّا ونجد في الأدبيّات السريانية والاسلامية ربط الحدوث هذه الأوبئة بالغضب الإلاهي بسبب معاصي البشر.

وهذا المجال الموبوء، لا يرجع فقط إلى نقص الإجراءات الصحيّة والنّظافة والعلاج الطبيّ لأنّها قاسما مشتركا بين شعوب ذلك العصر، لكن يرجع أساسا إلى تعاقب هجمات الأوبئة عليها دوريّا مع المجال الشامي والعراق بسبب موقع المنطقة الاستراتيجي وانفتاحها على الحركات البشريّة كحركة الهجرة ورحلات الحجاج والقوافل التجارية والسّفن النّهرية التي تجلب معها الأمراض القاتلة كالطّاعون وحمّى المستنقعات وغيرها من الأوبئة.

---

(1) انظر : حوليّات دنيس التلمحري : الترجمة الفرنسيّة لـ E.J.Chabot. 4è partie - Fas. 112 - Paris 1892 حيث يذكر الطّاعون في نطاق نظرة أبوكاليبتيّة وشواهد من التوراة والإنجيل في كامل الكتاب :

كذلك : نجد في كتاب كايتاني : Chronographia Islamica تأليفا للرّوايات السّريانيّة التي تتحدّث عن الفواجع التي تعرّضت لها الجزيرة خصوصا في أحداث 125 هـ إلى سقوط الحكم الأموي: ج7 ص 1573 - 1682.

وهي تبدأ عادة في المدن والمحطّات التجاريّة، لتنتشر بعد ذلك في الأرياف لتقوم بعملها المدمّر ضي السّكان.

وحسب الشهادات التاريخيّة لدنيس التلمحري، فإنّها تنقسم بين أوبئة تمسّ السّكان وأخرى تهمّ الماشيّة (2).

وأبرز الأوبئة التي ضربت الجزيرة وكـامل المنطقة طاعون 127 هـ و157 هـ وما لحق منها السّكان من قتلى وتأثيرات سلبيّة على الوضع الدّيمغرافيّ بها (3).

أمّا الصّنف الثّاني من الأزمات الدّيمغرافيّة فهي الفواجع الطّبيعيّة سواءا كانت المواسم الجافّة في مجال يعتمد على مياه الأمطار والسّيلان بالنسبة للفلاحة البعليّة أو السّقويّة أو الفيضانات العنيفة التي تؤدّي الى أضرار بشريّة ومادّيّة كبيرة على ضفاف الأنهار. أمّا الجفاف، فإنّ تأثيراته السّلبيّة تبرز في ارتفاع أسعار الخبز وبروز المجاعات بين سكّان الأرياف لتمتدّ إثر ذلك إلى سكّان المدن، ويبرز التلمحري شواهد النزوح أهل الرّيف للمدن هروبا من الجوع وتضييقهم على الحضريّين في العيش وأثر ذلك في حدوث الإنفلات الأمني، وحيرة الرّهبان في إيواء وتغذية جموع المتشرّدين. لكن أهمّ نتيجة للجفاف هي انتشار الأوبئة التي تجد في الأجسام الهزيلة القدرة على الفتك بالسّكان (4).

(2) التلمحري. نفس المصدر ص 30 وص 67.

(3) نفس المصدر ص 30 إلى ص 42 وفي ص 177 إلى 180 وفيها وصف دقيق للتأثيرات السّلبية للوباء على السكّان بالإضافة إلى مرجع Caetani : Chronographia Islamica ج V يقدّم كرنلوجيّة وباء الطّاعون منذ سنة 125 هـ إلى 131 هـ بين ص 1573 ـ 1682.

(4) حوليّات التلمحري ص 177 و 178.

وبالنّسبة للفيضانات، فلنا شواهد تاريخيّة لفيضان دجلة وتدميره لمدن كاملة وقتل أعداد رهيبة من السّكّان كالموصل في سنة 232 هـ. وكذلك الفرات الذي اشتهر بفيضاناته الطّوفانيّة على سهل الجزيرة وتدميره لمدنها كمدينة الرّها في فترات عدّة من تاريخها (5).

وهذا التحليل، يبيّن لنا هشاشة الأوضاع المعيشيّة للجماعات القرويّة والمجموعات القبليّة، حيث تمرّ دوريّا بفترات نقص غذائي ومجاعات لعدم قدرتها على تكوين مدّخرات غذائيّة في ظلّ تعاقب السّنوات الجافّة وفرض الضّرائب العينيّة من قبل السّلطة ممّا يؤدّي إلى هشاشة الوضع الدّيمغرافي وشعور المؤرّخ بوجود فراغ ديمغرافي، وتحلّل في نطاق النّظام الدّيمغرافي التقليدي في طور ما قبل الانتقال الدّيمغرافي.

فالأزمات الدّيمغرافية تجعل من إمكانيّة تعويض الجيل القديم صعبة ولا تتم إلاّ بنسق إنجابي مرتفع وجلب أعداد وافرة من العبيد والأسرى كقوّة عمل ضرورية والحاجة المستمرّة إلى أعداد هامّة من المهاجرين القادمين من الجزيرة العربيّة أو جبال كردستان وهضاب أرمينيّة. ورغم ذلك فإنّنا نجد شواهد لوجود مناطق قفار تمثّل مجال الحياة البريّة والحيوانات المفترسة (6).

---

(5) الرّجوع إلى دمار الموصل في 232 هـ في ابن الآثير : الكامل في التاريخ دار صادر بيروت 1965 ج VII ص180 ودمار الرّها في فيضانات سنة 107 هـ : كايتاني ج V ص 1350.

(6) حوليّات التلمحري : فيها وصف لمهاجمة السّباع للقرى في شمال الجزيرة

وحتّى في الفترات التي لا تحدث فيها أزمات ديمغرافية، فإنّ الصّراعات القبليّة والانفلات الأمني والحملات الأمنيّة التي تقوم بها السّلطة تساهم عرضا في الحدّ من تطوّر عدد السّكّان.

وهذا المعطى الدّيمغرافي يساهم في توضيح أحد الخاصيّات الرّئيسيّة للجزيرة وهي انفتاحها على الهجرة البشريّة عبر العصور ممّا خلق ديناميكيّة سكّانيّة مميّزة لها تأثيرات على تغيّر التوازنات القبليّة بالمنطقة وديناميكيّة المدن سواءا منها المحدثة أو العريقة.

كما ساهم هذا الوضع الدّيمغرافي في التّأثير سلبا على الانسان الذي يمثّل أهمّ عنصر للإنتاج والإستهلاك وتميّز بندرته، فقلّة السّكّان، لا تسمح بإحداث ديناميكيّة اقتصاديّة متواصلة بالجزيرة وتحكم على كلّ عمل بشريّ بها بالهشاشة والزّوال!

الفصل الأوّل : الحضور القبلي بالجزيرة

I / الظاهرة الإنقساميّة والصّراع على الأرض والنّفوذ بين القبائل العربيّة.

1) الظاهرة الإنقساميّة بالجزيرة

ترتبط الظاهرة الإنقساميّة بالجزيرة لانفتاحها جنوبا على المجال البدوي جنوبا بالجزيرة العربيّة وبادية الشام، فكانت أحد الأوطان الكبرى للبدو، يرجع حضورهم المحقق إلى الألفيّة الثانيّة قبل الميلاد تبرز في أحد نصوص مدينة ماري الرّافديّة بالجزيرة* والتي تنصّ على مهاجمة أبناء الصّحراء لمدن المنطقة (7). وحسب دراسة ديليمان الذي عايش في فترة الحماية الفرنسيّة لسوريا قبيلة شمّار التي كانت تقدم من الجزيرة العربيّة نحو سهل الجزيرة الفسيح للمرعى صيفا في قسمه الشمالي ويطلقون عليه تسمية «المعمورة» فيحصل اللّقاء مع المزارعين إمّا سلميّا أو عبر الغزو. فالجزيرة بالنسبة لديليمان في لقاء مباشر مع الجنوب الصّحراوي، فهي في حالة إحتلال متواصل من قبل البدو القادمين من المناطق

(*) ماري : تقع في تلّ الحريري على نهر الفرات وفي محافظة دير الزّور السّوريّة.

(7) GABRIELI (F) : L'antica societa bédouina p. 36-375 .

العربيّة الأخرى منذ أقدم العصور (8).

كما يوجد في الجزيرة مجالا شبه صحراوي جنوب منطقة سنجار في البريّة بين الخابور ونهر دجلة تشتّي فيه القبائل ثمّ تنتقل صيفا إلى المعمورة، فبرزت منذ مرحلة ما قبل الإسلام قبائل عربيّة مستوطنة للجزيرة ومقيمة فيها كامل الفصول كمجموعة قضاعة وسليح وإياد وتغلب. ويؤكّد ديليمان أن القلاع والحصون التي بنيت بها مع الإمبراطور البيزنطي أنستاز وجوستينيان في القرن VI م ليست لمنع العرب من الترحّل بل لمراقبة تحرّكاتهم أثناء فترة رعيهم بالمعمورة صيفا. وهذه القلاع بنيت لهذه الغاية أكثر منها لمراقبة العدوّ الساساني (9).

ومن خلال رسالتنا في شهادة الكفاءة للبحث، أبرزنا قدم هجرة هذه القبائل العربيّة إلى الجزيرة قبل الإسلام وساهمت في إعطاء المنطقة طابعا ساميّا، وبرزت من صلب القبائل شعوب مستقرّة كالآراميّن والأنباط الذين إنتقلوا من حياة البداوة الى ممارسة الزّراعة والتحضّر وارتبط ذلك بعراقة

---

(8) DILLEMAN : La Hte Mesopotamie orientale et les pays adjacents p. 69-176. Institut Française d'archéologie de Beyrouth TLXXII - Paris 1962.

حـــول الإنقسامـــيّة في المجتمع البدوي العربـــي : الـــرجوع إلى كتاب BONTE (P) et CONTE (F) : Al. Ansâb : La quête des origines, Anthropologie historique de la société tribale arabe, avec Bibliographie détaillé sur ce thème.

(9) ديليمان : نفس المرجع ص 77 و 78.

المراكز الحضاريّة بها التي استوعبتهم ضمن الحضارة الرّافديّة القديمة (10).

وأبرزنا من خلال مخطوط الرّاهب يسوع العمودي والذي يرجع إلى بداية القرن VI م الآثر المدمّر لعمل البدو في منطقة الرّها في ظرفية الصّراع الفارسي البيزنطي وما ألحقه هؤلاء للسّكان من خسائر في الأرواح وفي أرزاقهم (11).

وهذه الهجرة العنيفة التي برزت في القرن VI م والتي حضيت بدراسات عديدة، تبرز أنّ اقليم الجزيرة، شهد حركة تعريب للسّكان مع بقاء الثقافة السّريانية حيّة في المراكز الحضريّة بالمنطقة (12).

وحركة التعريب تتجاوز ما حدث في العراق والشّام، إذ كان معظم المجال الرّيفي بمنطقة الرّها وبيت عربايه والقسم الجنوبي من المنطقة تحت نفوذ القبائل العربيّة ويبرز نفوذ عرب الضّواحي بها (13) كما أنّ الصّراع السّاساني - البيزنطي، أدّى إلى تراجع الأنشطة الزراعيّة والحضريّة لصالح النشاط الرّعوي، ولم يمثّل الفتح الإسلاميّ مرحلة انتصار البداوة بل تواصلا مع الوضع السّابق. مع

---

(10) رضا بن حسين : الجزيرة وعلاقتها بالأمصار والخلافة : ش.ك.ب. جامعة تونس 1990: ص 15 - 20.

(11) نفس الرّسالة : ص 28.

(12) حول تعريب المنطقة قبل الإسلام الرّجوع إلى مقال نعيم فرح : العلاقات الإقتصاديّة والإجتماعيّة في منطقة ما بين النّهرين السّوريّة في القرنين V و VI م، مجلة دراسات تاريخيّة: عدد 3 و4 ص 103 و 138 واعتمد في بحثه على الأطروحة الرّوسيّة لـ : Pigelvskaïa (N.V.) : Mesopotamia i n V ad VI centuries.

(13) الرّجوع إلى البلاذري : فتوح البلدان ط. ليدن : ص 115 إلى 125 وخبر فتح الجزيرة ص 173 - 183.

تعزيز حضور البدو والجمّالة كقيس عيلان وبعض العشائر المضريّة كبني أسد وتميم وكان لها السّبق في فتح الجزيرة (14). كما تعزّز حضور المجموعة الرّبيعيّة ذات الحضور القديم ببطون جديدة كعشائر بكر بن وائل، وشهدت أخرى انقراضها كإياد بينما بقيت تغلب تتمتّع بحضورها القويّ وتحصّلت على وضع خاصّ يسمح لها بالحفاظ على نصرانيّتها دون دفع الجزية (15).

أ / تجذّر الظّاهرة الإنقساميّة في مجتمع الجزيرة

وإنّ هذا الوضع الإجتماعي المتميّز بقوّة حضور البداوة، يحتّم علينا تناول بحث هذه الظّاهرة لكن بأيّ آليّات ومنهجيّة ؟

إذ يمكننا تناول البحث وفق الطّريقة الكلاسيكيّة لتحليل الظاهرة القبليّة بالجزيرة بمنهج وصفي يتناول حضورها بالمنطقة ووصف عشائرها وحروبها التي خاصتها فيما بينها لكن هذا المنهج لا يجعلنا نلمّ بهذه الظاهرة من مختلف أوجهها أو يوصلنا إلى استنتاجات مفيدة. كما يمكن لنا تناول البحث وفق المنظور الخلدوني بتحليل هذه الظاهرة من وجهة العصبيّة القبليّة. أو الاعتماد على النّظريّة الإنقساميّة لفهم ظاهرة التشتّت والتجزّء لمجتمع الجزيرة في مختلف إثنيّاته. ويطرح هذا التمشّي، التحكم الكامل في المصادر لتعويض الدّراسات الميدانيّة التي تتطلّبها النّظريّة الإنقساميّة في البحث.

---

(14) نفس المصدر : ص 176 ـ 184.

(15) نفس المصدر : ص 184 ـ 187.

ويوجد إشكال آخر، هل يتمّ تناول الظّاهرة القبليّة من منظور بداوة مناقضة للنّشاط الزّراعي أم بداوة مكمّلة لهذا النّشاط ؟

أم يتمّ تناول هذه الظّاهرة في نطاق أشمل، تندرج ضمن التنظيميّة القبليّة التي تمثل الرّحل أو النصف الرّحل وحتّى المزارعين والتساؤل هل أنّها شاملة لمجتمع الجزيرة ؟

كما يمكن أن يندرج تحليلنا في دراسة الظّاهرة القبليّة كظاهرة اجتماعيّة والمتمثّلة في طبيعة تنظيم القبيلة أو كظاهرة معيشيّة إقتصاديّة والمتمثّلة في الانتجاع أو نصف الانتجاع، أو كظاهرة سياسيّة عسكريّة تبرز في ظاهرة الأشراف وبيوتات القبائل التي كانت لها طموحات سياسيّة على المستوى المحلّي.

ويندرج تحليلنا كذلك في علاقة هذا المجتمع الإنقسامي المتجزّء إلى فسيفساء من الإثنيّات ومن الوحدات القبليّة مع هياكل الدّولة. هل كانت مجرّد علاقة جبائيّة فتكون علاقة ميزان قوى بين طرفين متصارعين، أو أنّه تبرز فيها مستويات متعدّدة من العلاقات الهرميّة تؤدّي الى تصنيف القبائل العربيّة حسب درجة إرتباطها وخدمتها للدّولة وتخلق تصنيف إجتماعيّ مميّز ؟

ويوجد إشكال آخر يرتبط بالظّاهرة الإنقساميّة هل أنّها شاملة لكافّة مكوّنات مجتمع الجزيرة أم أنّها خاصّة بالمجموعات العربيّة ؟

إنّ تحليلنا يندرج ضمن تحليل الآليات التي تنشط فيها مختلف مكوّنات هذا المجتمع الذي يبرز كما قلنا كفسيفساء من الإثنيّات مع هيمنة واضحة للمجموعات العربيّة.

ويوجد إشكالا يتمثّل في التّسائل هل أنّ الظّاهرة الإنقساميّة وظاهرة البداوة هما مستجدّتان بالجزيرة بعد الفتح الإسلامي بسبب الإستيطان العربي بها، أم أنّها ظاهرة قديمة ملازمة لمجتمعنا ؟

إنّ ظاهرة البداوة والإنقساميّة هي ظاهرة قديمة لازمت مجتمع الجزيرة كما حلّلنا سابقا حيث نجد ذلك التناقض الأزلي بين البدوي والمستقرّ.

وبين البداوة والتمدّن، كان مجتمع الجزيرة يتأرجح بينهما ولازم الحياة العامّة منذ عصور ما قبل الإسلام، حيث إندسّ البدوي بصفة مستمرّة في البنية الإجتماعيّة، واستغلّ هياكله الحربيّة ونفوذه ليستقطع قسطا من الإنتاج الزّراعي لصالحه، ووظّف لمصلحته النشاط التجاري كطرف فيه أو كخافر للقوافل التّجاريّة أو كقاطع طريق !

وبما أنّ التجارة في حاجة ماسّة إلى الأمن والإستقرار، والزّراعة في حاجة بدورها إلى حماية أجهزة الدّولة ضدّ توسّعيّة الرّعاة، فإنّ غزوات البدو المستمرّة وحروبها فيما بينها، جعلت الأحوال العامّة تسوء قبل الفتح الإسلامي بسبب ضعف حضور الدّولة.

وبما أنّ البنية الإجتماعيّة للمجموعات العربيّة تحكمها العصبيّة القبليّة، فإنّ الظّاهرة الإنقساميّة هي أحسن أداة لفهم الآليّات التي تسيّر هذه المجموعات. وهذه الظّاهرة يتمّ تناولها في نطاق أرياف الجزيرة أساسا وجزءيا في المجال الحضري.

وكما هو معلوم فإنّ النّظريّة الإنقساميّة تبرز أهميّة ظاهرة النّسب لدى

هذه المجموعات وخضوعها إلى ميثلوجيّة الاب المؤسّس والزّمن المؤسّس. حيث ترجع أصول هذه القبائل إلى الجزيرة العربيّة، وكانت هذه القبائل تتفاخر في نسبها إلى انتماءها إلى أحد الجذوع لشجرة النّسب العربيّة، حيث حافظت على أساطيرها المؤسسة وعلى ذكرى جدّها المؤسّس وحروبها القديمة بنجد أو الحجاز أو اليمن كحرب البسوس بين تغلب وبكر التي أدّت إلى هجرة المجموعة الاولى إلى الجزيرة الفراتيّة إثر هذه الحرب وكأنّ تاريخ تغلب وتكوّن عشائرها توقّف مع هذه الحرب بالجزيرة العربيّة ممّا يعطي إنطباعا أنّه لم تحدث تحوّلات ونشأة عشائر جديدة لها مع انتقالها للجزيرة وهو ما يضفي طابع لا تاريخي لأساطيرها لا يخضع لمنطق الزّمن والتحوّل التاريخي.

والملاحظ أن جلّ هذه القبائل التي هاجرت للجزيرة، تنبني على نفس النّموذج الاسطوري وهي نشأة وهجرة واستقرار للجدّ المؤسّس وتوسّع لذرّيته من بعده.

وبالنّسبة لقبائل الجزيرة، فكلّها ترجع أصولها إلى مكان ما من الجزيرة العربيّة وإلى نفس تقسيمات بقيّة القبائل العربيّة ونفس الاصول إن كان حقّا أو أسطوريّا وتصنّف إمّا إلى الصفّ اليمني أو القيسي أو الرّبعي. وكانت مضر والقيسيّة بالجزيرة ترتبط في صفّ واحد يصعب التمييز بينهما. وكلّ أقسام المجموعات العربيّة، تخضع عموما إلى نفس النّظرة الاسطوريّة، حيث أنّ الفرد لا ينظر إليه إلاّ في نطاق نسبه إلى أحد القبائل.

ويمثّل المجتمع تجمّعا لشبكة من السّلالات المختلفة. فالقيمة الإجتماعية للفرد لا معنى لها دون نسب واضح. والهرميّة الإجتماعيّة عند عرب الجزيرة

خضعت إلى هذه البنية إمّا داخل هذه المنظومة النسبيّة أصلا أو موالاة فيكون ضمن المجموعة العربيّة أوبلا نسب له وهي بقيّة المجموعات غير العربيّة الخاضعة للمجموعة الأولى وهي بالنسبة للعرب ليس لها تاريخ لأنّها دون نسب. وتتحدّد العلاقات الإجتماعيّة وفق هذا التصوّر.

ب / تأثير الظّاهرة الإنقساميّة على التحوّلات الإجتماعيّة بالجزيرة :

وهذه النّظريّة كما رأينا تنبني على رؤية أسطوريّة ولا تقوم على واقع تاريخي يغيب فيها العمق الزّمنيّ وتحوّله. إذ أنّ التّاريخ يبدأ مع الجدّ المؤسّس ولا يقاس زمنيّا. فالتّاريخ يرتبط بالنّسب قبل كلّ شيء. إذ أنّ تاريخهم يبدأ مع هجرة هذه القبائل الى الجزيرة أو زمن الفتح الإسلاميّ الذي أضفى لحضورها بالمنطقة شرعيّة حضورها وشرفها بين بقيّة المجموعات التي قدمت قبلها أو التي هاجرت إليها لاحقا على غرار المجموعة القيسيّة وكأنّ الجزيرة لم يكن لها قبل تاريخ هذه الهجرة تاريخا. ويبرز ذلك مثلا في تاريخ الموصل للأزدي الذي هو تاريخ قدوم القبائل العربيّة إليها (16).

وحتّى الأطراف التي تمثّل الدّولة جهويّا والتي من المفروض أن تكون خارج البنية الإنقساميّة من الولاة إلى قادة الحاميات العسكريّة إلى العمّال والمسؤولين عن الخراج وصدقات الزّكاة، كان لهم كلّ أمتيازات السّلطان في مناطقهم.

---

(16) الأزدي : تاريخ الموصل تحقيق علي حبيبة القاهرة 1967 : أحداث 129 هـ بين ص 80 ـ 101.

وهذا النّفوذ قد أصبح فعليّا بتحالفهم مع الزّعامات القبليّة التي توفّر لهم القدرة على قيادة المنطقة والحضور القويّ بها وتوفّر لهم نوع من الإستقلاليّة على الدّولة ويؤدّي ذلك إلى تحوّلهم إلى أسياد بها وإنشاء نوع من السّلالة الحاكمة محليّا كما برز في القرن III هـ لكن في نفس الوقت إنتقلت إليها الإنقساميّة والصّراع بين البيوتات العربية في صلبها نتيجة لارتباطها العضوي مع الزّعامات القبليّة فانتقلت الإنقساميّة إلى صلب الجهاز الجهويّ للخلافة ويضفي هذا التّفسير أضواءا على الصّراع السّياسي بالجزيرة خصوصا في بداية القرن III هـ .

وفي نطاق هذه النّظرية يوجد إشكالا هل أنّ أفراد القبيلة يمثّلون صنفا اجتماعيا خاصّا وهم المحاربون والأهالي القوى الشّغيلة ؟

يتميّز المجال الإسلامي، بأنّ كلّ مسلم هو نظريّا مجاهدا في سبيل الله خصوصا في ولاية ثغر على حدود بيزنطة. فكلّ مسلم سواءا من المقاتلة العرب أو ممّن أسلم من أهالي الجزيرة قادرا على حمل السّلاح له الحقّ في التحوّل إلى فئة المقاتلين إمّا في جيش الخلافة النّظامي أو ضمن المتطوّعة من أفراد القبائل أو من الحضريّين الذين يرغبون في الجهاد.

ويبرز فعلا أنّ فئة المحاربين كان معظمها من المقاتلة العرب حتّى في بداية العصر العبّاسي وكانوا يهيمنون على هذا النّشاط، ولم تكن الفئات الآراميّة والنّبطيّة لها دورا ذا بال في هذا النّطاق. لكن في نفس الوقت كان المحارب منتجا حيث يعمل في أرض القبيلة في النشاط الرّعوي خارج أوقات الحرب أو القيام بالأنشطة التجاريّة وأحيانا يشرف على النّشاط الزّراعي في إقطاعاته أو يقوم

بوظائف إداريّة مع عمله في أجهزة الدّولة ومن كان له جاه ونسب في القبائل لم تكن له وظيفة إنتاجيّة ولا يعني ذلك أنّه من أصحاب الثروات، نظر إلى عدم إستقرار نفوذهم وصراعات أقسام الأسرة الواحدة الذي يعطّل بروزمجتمع طبقي داخل الوحدات القبليّة.

وإنّ دراستنا لمجتمع إنقسامي، لا يعني عدم وجود طبقات، لأنّ الجماعات العربيّة كانت في أعلى هرم المجتمع ومثّلت الطّبقة النّافذة التي سيّرت المجتمع وعملت على خدمة مصالحها بخدمتها للدّولة سواءا الأمويّة منها أو العبّاسيّة.

كما يوجد إشكالا آخرا، يتمثّل في تأثير التحوّلات الإقتصاديّة خصوصا في العصر العبّاسي على البنية الإنقساميّة. فهل أنّ التحوّلات الإقتصاديّة ساهمت في دمج الاقتصاد الرّعوي للبدو في الإقتصاد العبّاسي وأخراجه من تقوقعه ؟ إنّنا نلاحظ أنّ تربية الماشية التي تقوم به المجموعات المختلفة كان له دورا اقتصاديّا هامّا في الجريرة وساهم في بروز ثروات بين أفراد هذه القبائل وارتبط بالتبادل التجاري بين الرّيف والمدن بالمنطقة.

وبالنّسبة للقاعدة السّكانيّة، فإنّها تعاملت مع القبائل العربيّة إمّا بالإندماج في صلبها عبر الموالات مع أسلمتها والذي تكثّف في العصر العبّاسي. وحركة الولاء والأسلمة، خلقت ديناميكية إجتماعيّة، ساهمت في تقوية نفوذ القبائل العربيّة حيث تعزّزت بأعداد هامّة من الموالي، مثّلت عنصر إنتاج ومحاربين جدد داخل المنظومة القبليّة عزّز دورها بالمنطقة.

في نطاق البنية الإنقساميّة كيف تعاملت الدّولة المركزيّة مع تدخّلها في هذا المجتمع الإنقسامي؟ لقد حاولت الدّولة الأمويّة والعبّاسية خلق منظومة تدخّل لفرض أطراف إجتماعيّة تعمل لصالحها. وإنّ نفوذها في مجتمع فسيفسائي يقوم على مزاعم تفضي شرعيّة لسلطتهم كانتماء العبّاسيين لآل البيت أو شرعيّة الجهاد والتوسّعيّة بالنّسبة للأمويين. وتعتمد كذلك على حضورها العسكري لتمارس بها نفوذها في مجتمع تهزّه النّزعات الإنفصاليّة ورفض مؤسّسات الدّولة.

وتمارس هذا النّفوذ لاقتطاع جزءا من الإنتاج لصالحها عبر الجباية ومغانم الحرب في الثغور الجزريّة. وعملها الجبائي جلب إليها بعض القوى الاجتماعية من فئة المحاربين من قبائل المنطقة أو النّخبة الحضريّة بالنّسبة للكتبة وهذه الأطراف هي بدورها تقتطع جزءا من فائض الإنتاج لصالحها ومثّلوا بذلك أصحاب الإمتيازات في هذا المجتمع وحلقة الوصل بين الدّولة والمجتمع. وهي الفئة التي سعت لدمج هذا المجتمع الإنقسامي في منظومة الدّولة لخدمة مصالحها.

ويتقوّى حضور الدّولة بالجزيرة كلّما إتّسعت دوائر الذين يرتبطون بها. مع هذا المجتمع.

2) هجرة القبائل العربيّة إلى الجزيرة وصراعها على الأرض :

لقد حلّلنا البنية الأسطوريّة لتاريخ هجرة القبائل إلى الجزيرة. وتصنّف هذه القبائل حسب أقدميّة هجرتها للمنطقة. لكنّ هذا التّصنيف يجعلنا ننزل في

خطأ التّحليل للأسباب التاليّة وهي :

- الغموض الذي يحيط بهجرة هذه المجموعات، نظرا للطّابع الأسطوريّ التي تتميّز به الرّوايات (17)

- إنّ هجرة هذه المجموعات لا يرتبط بدفق واحد بل أنّه تمّ بمراحل في عدّة هجرات وترتبط هذه الهجرة لأسباب موضوعيّة ترتبط بجذب صحراء شبه الجزيرة العربيّة والجاذبيّة التي تمثّلها سباسب ومياه الجزيرة في نطاق مجال الهلال الخصيب لمجموعات الرّحّل منذ أقدم العصور. فالضّغط الدّيمغرافي وتدهور الظّروف المعيشيّة بالمجال الأوّل يدفعها للهجرة.

وأبرز هذه الهجرات كانت في القرن V م و VI م مع قدوم تغلب وإيّاد والنّمر لهذه المنطقة في نطاق خدمتها لآل كندة عندما توغّلوا في بلاد الرّافدين ووجدت بالجزيرة مجموعة قضاعة التي كانت أقدم حضورا منها وتركت المجموعة الأخيرة ممالك عربيّة شهيرة كمملكة الحضر التي انقرضت في القرن II م أو مملكة الزّبّاء على نهر الفرات. وعلى عكس قضاعة فلقد حافظت هذه المجموعات الرّبعيّة على طابعها البدوي باستثناء بعض العشائر التي إستقرّت بتكريت أو الحيرة بالعراق والذين كانوا يعملون لمملكة المناذرة.

---

(17) لمزيد التفاصيل الطّبري تاريخ الأمم والملوك : ط. دار الفكر بيروت : ج II ص 182 إلى ص 197 وص 300 إلى ص 305 حول أسطورة مملكة الحضر وخبر هجرة إياد وتغلب والنّمر. وابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان ص 129 ـ 131. ط ليدن 1967

وحفاظا على بداوتها، جعلها تحافظ على هويّتها العربيّة ولا تندمج مع المجموعات المحليّة رغم إعتناقهم للنّصرانيّة (18).

ومع الفتح الإسلامي، انفتحت الجزيرة للهجرة العربيّة إنطلاقا من العراق أو بادية الشام لكن بأقل كثافة مما حدث في العراق والشّام وبقيت مرتبطة بأمصار العراق وأجناد الشام أكثر من ارتباطها بالجزيرة العربيّة الذي شحّ منها تيّار الهجرة ولن ترجع هذه الهجرة بكثافة إليها إلاّ مع القرن X م مع هجرة أسد وطيء منها.

ولم تكن هذه الهجرة لغاية السّيطرة على التّجارة القوافليّة كما قامت به مجموعة قضاعة في القرن I وII م فيما يعرف بمملكة الحضر العريقة (19) لأنّ الحرب السّاسانية البيزنطيّة عطّلت التجارة العالميّة التي كانت تمرّ ببلاد الرّافدين. فكانت هجرة الرّبابعة غايتها الهيمنة على الأرض والعمل في الخفارة لمملكة المناذرة منذ القرن V م وفي جيش الخلافة مع الفتح الإسلامي ولا يعني أنّ هجرتهم كانت فقط لاستغلال مراعي الجزيرة لأنّهم اعتنوا بالأنشطة الزّراعيّة والتجاريّة لكنّ في النّطاق المحلّي يبرز ذلك مع مجموعة تغلب المستقرّة بتكريت أو

(18) مقال : «عرب» في Encyclopédie de l'Islam - Nouvelle Edition Ej Brill. ج I ص 543 . ل W. Caskel . وكتابَ سلوى العايب : المسيحية العربية وتطوّراتها - بيروت دار الطليعة 1997 من ص 15 إلى ص 61.

(19) مقال : «الحضر». E.I₂. ج III ص 52 إلى 53 ياقوت : معجم البلدان دار صادر بيروت 1957 ج II ص 267 و 268.

في قرى الخابور حيث كانت بعض بطونها تتعاطى الزّراعة والتجارة النّهريّة والبريّة طوال فترة الفتح إلى الحكم المرواني (20).

وهذه القبائل الرّيفيّة كتغلب والنّمر وإياد فقدت حضورها بالجزيرة العربيّة، حيث انتقلت جلّ بطونها إلى الجزيرة وما بقي منها إمّا اندثر أو استوعبتها قبائل أخرى وآخر صلة لها بالجزيرة العربيّة كانت مع حملة سجاح التميميّة مع حلفائها الرّبعيين سنة 11 هـ (21).

ونجد على النّقيض من المجموعة الأولى : جموع قيس ومُضر التي حافظت إثر الفتح الإسلامي على صلتها بنجد والحجاز وبادية الشام والتي كانت تمدّها مع هجرتها للجزيرة بالمحاربين وبقيت صلتهما وثيقة ببطون قيس البصرة، حيث أنّ حركة النواقل الذين توافدوا على الجزيرة لتعزيز مكانة القيسيّين من الجيل الأوّل للفاتحين وكان هؤلاء النّواقل الذين توافدوا على الجزيرة لتعزيز مكانة القيسيين من الجيل الأول الفاتحين وكان هؤلاء النّواقل من الجيل الثاني بدأ وفودهم منذ ولاية معاوية بن سفيان وخلافته، وإلى فترة بحثنا ومن خلال أحداث الفتنة الثالثة إلى سقوط الدّولة الأمويّة، بقيت قيس الجزيرة لها صلة مع بقية القيسيّة التي كانت تمدّها بالمقاتلين وتحالفها في حروبها ويبرز ذلك من خلال ولاية يزيد بن

---

(20) البلاذري : فتوح ص 184 ـ 186 وأنساب الأشراف ج V ص 305 إلى 319.

(21) الطّبري : تاريخ الامم والملوك ج III ص أحداث 11 هـ. من ص 87 إلى ص 95.

عمر بن هبيرة على العراق واستقراره بواسط حيث حالفته قيس العراق ضدّ القوى اليمنيّة ولا ننسى أن يزيد لم يكن من قيس الجزيرة لأنّ أبيه عمر بن هبيرة كان ممّن هاجر من بادية الشّام بعد الفتنة الثانيّة وعمل للمروانيّين بالجزيرة ليقود قيسيّة الجزيرة مع ولايته عليها سنة 101 هـ وانتقلت الزّعامة إلى إبنه يزيد في خلافة مروان بن محمّد (22).

وهذه الصّلة نجدها حاضرة في المجموعات اليمنية التي استقرّت بمنطقة الموصل حيث حافظت على صلات وثيقة مع اليمنية في العراق واليمن والشام، فأزد عمان الذين هاجروا في الأوّل إلى البصرة انتقلوا تدريجيا إلى الموصل، وإلى الحكم العبّاسي بقي أزد الموصل تحت تأثير أزد البصرة على المستوى السّياسي كما يبرز في ثورة يزيد بن المهلب في بداية القرن II هـ أو على المستوى الدّيني والعلمي كما يبرز في العصر العبّاسي مع النّخبة العلميّة لأزد الموصل ولنا إشارات تدلّ أنّ أزد الموصل بقوا على علاقة مع أزد عمان في خبر فرار بعض الثائرين إلى اليمن بعد قدوم هارون الرّشيد إلى الموصل لقمع الثورة سنة 180 هـ (23).

وكانت أوّل هجرة للقبائل العربيّة نحو الجزيرة بعد الفتح في علاقة بفتح العراق أساسا منذ سنة 17 هـ وارتبطت بمصر الكوفة التي كانت تشرف على

(22) نفس المصدر ج VIII من ص 210 إلى ص 362.

(23) توجد هذه الإشارات في الأزدي : تاريخ الموصل : حول هجرة الأزد للموصل من ص 81 ـ 101 وحول يزيد بن المهلّب ص 8 ـ 12 وكذلك في حدث فرار عبد العزيز بن معاوية الأزدي من أعوان الرّشيد إلى اليمن (ص 292).

شرق الجزيرة وفتحتها لهجرة العرب بينما كان جند حمص بالشّام يشرف على بقيّة الجزيرة لكن لم تنفتح على الهجرة المكثّفة (24).

وتشير المصادر أنّ المجموعة القيسيّة هي التي تولّت فتح منطقة الموصل سنة 20 هـ وكان لها دورا فاعــلا في فتح الجزيرة وكان هرثمة بن عرفجة البارقي الوالي الثّاني للموصل قام بتمصــير الحديثة والموصل فأصبحتا «مفازا للعرب» (25) لكن منذ العصر الأمويّ تنوّعت الهجرة إلى هذين المصرين من نواقل العراق الربيعيّين واليمنيّة خصوصا من الأزد وتوسّعت هذه المجموعات على أذربيجان وأرمينية وبقيّة الجزيرة فكانت فسيفساءا من القبائل مع خلافة معاوية يبرز في قول النّسابة ابن الكوّاء لمعاوية حول منطقة الموصل فقال : «قلادة أمة فيها من كلّ خرزة» (27).

وسبب إقبال هذه القبائل على شرق الجزيرة يرجع إلى أنّها فتحت عنوة والذي يسمح بأن تكون الهجرة ذات طابع إستيطاني يختلف نوعيّا عن الهجرة الى بقيّة الجزيرة التي فتحت صلحا، فبقيت تغلب وحلفاءها محافظة على نفوذها بها. ولقد لاحظ الوالي معاوية بن سفيان سنة 25 هـ الفراغ السّكّاني لهذه المنطقة،

---

(24) لمزيد من التفاصيل الرّجوع إلى رسالتي : ص 19 ـ 24.

(25) البلاذري : فتوح ص 331 ـ 333.

(26) نفس المصدر ص 178 إلى 184.

(27) ابن فقيه الهمداني : كتاب البلدان ليدن. المكتبة الجغرافيّة ج 5 ط 1967 ص 130.

فقرّر فتحها للهجرة لنواقل العراق من القيسيّة بين أسد وتميم وشيبان من بكر بن وائل وأقامتهم في أماكن نائية عن المدن وبعيدا عن أوطان تغلب على غرار منطقة رأس العين التي جلى كثير من أهلها بعد الفتح بالإضافة إلى الأراضي الموات وما اصطفته الخلافة من الإقطاعات البيزنطيّة شمال وغرب الجزيرة (28).

ولم تؤثّر هذه الهجرة في الأوّل على التّوازن القبلي، لتوفّر الأرض وضعف الحضور العددي للمهاجرين واستخدام الخلافة لمحاربيهم في العمل الحربي بالثّغور رغم أنّم حرموا من العطايا كشرطا لهجرتهم إلى الجزيرة (29).

ومع خلافة معاوية، تواصل نقل بعض القبائل من العراق كشيبان وبعض العشائر البكرية بسبب تشيّعها السّابق لعلي بن أبي طالب فوصف لامنس الجزيرة بـ «مستوطنة سجن» ويوافقه في هذا الرّأي كايتاني الذي يصفها كذلك بالمنفى الجماعي» (30).

لكن مع الفتنة الثانية وإثر هزيمة القيسيّة بالشام في مرج راهط فلقد اتخذت القيسيّة بقيادة زفر بن عاصم الكلابي من الجزيرة وطنا جديدا بسبب نفوذ القيسية من الجيل الأوّل بها وشرعيّتهم المتأتية من دورهم الحاسم في الفتح وكان زفر قد تحصّل من والي المختار الثقفي ابراهيم ابن الأشتر على صفقة حسب رواية

(28) البلاذري : نفس المصدر ص 178.

(29) البلاذري : نفس المصدر ص 178 وكايتاني Annali del Islam ج II ص 264.

(30) كايتاني : Annali del Islam : ج II ص 364. وإبن الأثير : الكامل ج III ص 25 الذي يقول «وكان أهل الجزيرة والموصل يومئذ ناقلة».

الهيثم بن عديّ للحصول على النّفوذ الفعلي على الجزيرة حيث أعطى لزفر منطقة قرقيسيا وحاتم بن النّعمان الباهلي حرّان والرّهاء وسميساط وعمير بن الحباب كفرتوثا وطور عابدين (31).

ليوافق عليها مصعب بن الزّبير مع توليه العراق وهو ما أعطي لقيس السّيادة على غرب الجزيرة والتي ستعرف بعد ذلك بديار مضر في مختلف المصـادر (32).

ومع الحكم المرواني اضطرّ عبد الملك للموافقة على سيادتهم بها على حساب تغلب التي تعرّضت في تلك الفترة إلى حروب توسّعيّة من القيسيّة لفرض حضورها على الأرض إلى ولاية محمد بن مروان على الجزيرة الذي أجبر الطّرفين على الصّلح سنة 71 هـ (33).

أمّا شرقا ففي هذه الفترة، عزّزت اليمنيّة حضورها بمنطقة الموصل وما تبعها من أذربيجان وأرمينية أثناء ولاية بعض اليمنيّة كالمهلّب بن أبي صفرة وإبراهيم إبن الأشتر فهاجر الأزد وهمدان وحمير وعشائر أخرى يمنيّة إلى الجهة وكانت مستوطنة قبل ذلك العراق (34).

---

(31) البلاذري : أنساب الاشراف : تحقيق قويتن القدس 1936 ج V ص 301 إلى 303 في خبر زفر بن عاصم وص 136 في خبز مرج راهط وابن الأثير نفس المصدر ج V ص 309. 312

(32) الرّجوع إلى المصادر الجغرافيّة التي تتحدّث عن ديار مضر ومقال : ديار مضر لكاهين E.I.2. ج II ص 357-358.

(33) البلاذري : أنساب ج 5 ص 251.

(34) الأزدي : نفس المصدر ص 95 و96 والبلاذري : نفس المصدر ج V ص 267 إلى 250 وص 296 و297.

ومع فترة بحثنا، أصبح هؤلاء المهاجرين الجدد يعملون للدّولة الأمويّة في العمل الحربي والأمني، حيث أن أبناء زفر بن عاصم كانوا يتزعّمون قيسا ويعملون لمسلمة بن عبد الملك الذي كان مصاهرا لهم وكذلك للوالي محمد بن مروان (35) وبقيّة زعماء قيس هم أنفسهم الذين قدّموا بعد مرج راهط للجزيرة كأبناء حاتم بن نعمان الباهلي أو أبناء مسلم بن عقيل (36) فمثلوا جيلا جديدا من الأشراف ساهموا في فرض زعامتهم بالمنطقة والعمل لجهاز الحكم بالمنطقة (37).

بينما يبرز من خلال بعض الرّوايات أنّ جموع تغلب وربيعة حافظت على حضورها القويّ في منطقة الفرات الأوسط وديار ربيعة والتي تمثّل وسط الجزيرة مع بعض الأقسام الشّمالية في بداية القرن II هـ.

ورغم هذا الحضور القويّ، فإنّها كانت في وضع هامشيّ سياسيّا جعلها تقبل بحضور جموع مهاجري قيس دون القدرة على قتالهم، ونجد إشارة عندما فرض عبد الملك على تغلب الصّلح مع قيس وسبق أن استفسر أحد زعماء ربيعة بالكوفة التغالبة سبب قبولهم حضور قيس بالجزيرة فكان ردّ أحدهم «إنّا حيّ فينا ما قد علمت من النّصرانيّة ومضر وأيّ السّلطانيين غلب فهو مع قيس ! ...» (38).

---

(35) البلاذري : نفس المصدر : ج V ص 303 و 304 و 307.

(36) عبد الحي شعبان : التاريخ الإسلامي في تفسير جديد ترجمة عبد الحميد قيسي دار الدراسات الخليجية أبو ظبي 273 ص.

(37) البلاذري : أنساب ج V ص 300 ـ 320.

(38) نفس المصدر ج V ص 318 ويعني بالسّلطانين عبد الله بن الزّبير بالحجاز وعبد الملك بن مروان في الشام.

وهذا القول يصحّ أكثر مع بداية القرن II هـ، حيث تمتّعت قيس مع الحكم المرواني بالمناصب العليا في الجزيرة وتعزّز مقامهم في حكم هشام بن عبد الملك حيث ولّى مروان بن محمّد سنة 114هـ/732م بكامل المنطقة من الجزيرة إلى أرمينية وأذربيجان من رجالهم فكوّن جيشا جزريا تحت قيادة زعماء قيس مع ميله لهذه المجموعة كما سنحلله في الباب الثاني (39) ولقد ورث مروان من عمّه مسلمة قيادة جموع القيسيّة واستعملهم في تسيير المنطقة ممّا أضفى على الجزيرة طابع إقليم تحت تصرّف القيسيّة.

وبعيدا عن التّحليل السّياسي فإنّ هذا الحضور القويّ أدّى حتما إلى تعزّز هجرة القيسية من بادية الشّام والعراق إلى الجزيرة في بداية القرن II هـ للعمل كمحاربين لدى زعماء قيس من الجيل الثاني الذين قدموا إليها مع الفتنة الثانيّة من أبرزهم أبناء زفر بن عاصم الكلابي وهما الهذيل وأسيد وكوثر الذين استغلوا مصاهرتهم لمسلمة بن عبد الملك للارتقاء في سلّم القيادة العسكريّة بالثغور وتكوين إقطاعات غرب الجزيرة وشمال الشّام في جهة منبج وبالس وكانت لهم أراضي ملجئة حول قرية زفر ! (40).

كما برز بيت ثان من القيسيّة وهم آل مسلم بن عقيل الذي قدم المنطقة بعد مرج راهط مع زفر إلى قرقيساء. وبرزت هذه الأسرة في الأول بعملها لآل زفر ثمّ تعزّز دورها مع إنشاء الجيش الجزري فدخلت في خدمة مروان بن محمّد مع كلّ

---

(39) الطّبري : نفس المصدر ج VIII ص 99.

(40) البلاذري : أنساب ج V ص 292 و 320 - ص 331.

من إسحاق وبكارّ وعيسى أبناء عقيل الذين شاركوا هذا الأمير الأمويّ في حروبه ضدّ الخزر وأصبح إسحاق زعيم قيس في خلافة مروان بن محمّد وتولّى خطط كثيرة كنائب مروان في أرمينية والثغور. وزعامته لقيس لا ترجع إلى انتمائه لأحد العشائر القويّة لقيس حيث أن بني عقيل لم يكن لهم حضورا يذكر بالجزيرة في هذه الفترة بل لخدمته الطّويلة للحكم الأمويّ التي أهّلته للرّئاسة (41).

كما برز في قيس عمر بن هبيرة الفزاري الذي قدم مع قومه للجزيرة لخدمة الأمويين بعد الفتنة الثانيّة لاستغلال مكانة القيسيّة في جيش مسلمة بن عبد الملك وارتقى هذا القائد سلّم القيادة ليصبح نائب مسلمة في حملته الشهيرة على القسطنطينية من 98 هـ إلى 100 هـ، ثمّ أصبح والي الجزيرة في خلافة عمر بن عبد العزيز ويزيد II وكانت جموع قيس تعمل تحت إمرته في هذه الفترة ثمّ انتقل ولاءها بعد وفاته إلى إبنه يزيد بن عمر الذي عمل في خـــدمة الخليفة مروان الثاني وكان أحد أبرز القادة القيسية في نهاية الحكم الأمويّ وعرف بخطّته كوالي العراق ومقاومته للعبّاسيين بواسط مع انهيار الحكم الأموي ونكتشف من خلال حصاره في واسط الأطراف القيسية التي عملت في الجيش الجزري (42).

---

(41) [illegible] نفس المصدر ج V ص 33 بالنسبة لمسلم بن عقيل وإسحاق بن بكار : الطّبري ج VIII من ص 183 الى ص 350 والأزدي : نفس المصدر ص 61.

(42) حول عمر بن هبيرة : الأزدي : نفس المصدر ص . أمّا يزيد بن عمر بن هبيرة : الطّبري نفس المصدرج VIII من ص 354 إلى ص 360.

ومن الزّعامات القيسيّة الآخرى عبد العزيز بن حاتم بن نعمان الباهلي، ولم يكن لباهلة حضورا هامّا بالجزيرة، لكن بسبب مشاركة أبوه حاتم في نصرة عمير بن الحُباب ضدّ المروانيين فلقد تحصّل كما رأينا على عمالة حرّان وسميساط والرّها وهي من أهمّ المناطق الاستراتيجيّة للجزيرة تشرف على الثغور وفيها عاصمة الولاية حرّان ولقد انتقل ولاء ابنه لعبد الملك ليتولّى مناصب عسكريّة متعدّدة إلى بداية القرن II هـ (43).

كما توجد إشارات إلى زعماء قيسيين كان لهم حضورا قويّا بين قومهم وتولّوا خططا عليا في صلب الحكم الاموي من بداية القرن II هـ إلى سقوط هذا الحكم كعامر بن ضبارة المريّ الذي كان أحد قادة يزيد بن عمر بن هبيرة (44) ونباتة بن حنضلة الكلابي (45) ومجزئة بن الكوثر بن زفر ويقال له أبو الورد وهو من قوّاد مروان (46) ونجد قائمة في قادة يزيد بن عمر بن هبيرة من قيس بواسط وهم من قيس الجزيرة وقنسرين كمحمد بن نباتة وحوثرة بن سهيل وطارق بن قدامة وزياد بن سويد وأبو بكر بن كعب العقيلي وجعفر بن حنظلة وهزان بن سعد وأبو علاقة وهشام الفزاريّان (47).

---

(43) البلاذري : أنساب ج V ص 261 وص 297 + ديوان الاخطل شرح السّكري تحقيق : فخرالدين قباوة - دار الاصمعي حلب ط. 2 ج II ص 457 وص 474.

(44) الطّبري : ج VIII من ص 300 إلى ص 303.

(45) نفس المصدر ج VIII ص 242.

(46) نفس المصدر ج VIII ص 346 و347.

(47) نفس المصدر ج VIII من ص 354 الى ص 357.

هؤلاء القادة القيسيّة الذي تمّ ذكرهم منذ خلافة هشام مثّلوا نتاج تحالف هذا الصفّ القبلي مع مروان بن محمد منذ أن كان واليا على الجزيرة وعلى حرب الخزر. ولقد شعر الخليفة هشام بتنامي وزن القيسيّة وحرصا منه على حفظ التّوازن القبلي بالمنطقة، فلقد بدأ في فتح باب الهجرة من الجزيرة إلى مصر، حيث كلّف عبيد الله بن الحبجاب السّلولي بحمل 3000 قيسي معه عندما كلّف بهذه الولاية وكان من أشراف قيس الموصل وصاحب مسؤوليّات إداريّة بها وكان لبني حبجاب خطّة في أحد أحياء الموصل ولهم مجموعة من الأشراف والاداريين بها ويبدوا أنهم كانوا من الجيل القيسي الأوّل الذي استوطنها بعد الفتح (48).

أمّا اليمنيّة، فلقد كثّفت حضورها بشرق الجزيرة في عمالة الموصل بعد الفتنة الثانية وخصوصا جموع أزد عمان الذين كانوا بالبصرة والكوفة وقدّمت مع الأزد همدان الكوفة وجموع حمير (49) ويرجع استيطانها منطقة الموصل إلى تبعيّتها السّابقة لهذا المصر، فكانت «مفازا» لقبائلها جعل جموع اليمنية بالعراق تخيّر استطان منطقة الموصل.

وتتميّز هذه المجموعة عن قيس الجزيرة بأنّها تمثّل جموع العرب الحضّر الذين استوطنوا مدن وقرى منطقة الموصل ولم يكونوا من البدو، وتأثّروا بالحياة العلميّة والنّمط الحضري لأمصار العراق السّائد في القرن I هـ ويتميّزون بعمق

(48) الأزدي : نفس المصدر ص 30 إلى 31.

(49) نفس المصدر من ص 87 الى ص 101.

الشعور الدّيني وتأثرهم بالتيّارات السيّاسيّة الدّينيّة السّائدة في العراق ولذلك ساهموا في تطوير الحركة العلميّة وفي ظهور طبقة من المحدّثين بمدن المنطقة خصوصا في الموصل ومجموعة من الدّعاة الذين نشّطوا حركة الأسلمة بين أهالي المنطقة وساهموا في تكثيف الحركة الإندماجيّة للسكّان في المنظومة الإسلاميّة. كما كوّن أشرافهم إقطاعات خصوصا في شرق نهر دجلة مقابل خدمتهم للدّولة الأمويّة وطوّروا النشاط الزّراعي بمدّ الزّراعة السقويّة شرق الموصل على مثال سواد العراق لتصبح الموصل الامتداد الشمالي لهذه المنطقة الخصبة واعتمدوا على الجموع القرويّة من الأنباط النّصارى لتطوير النشاط الزّراعي. ونظرا لرطوبة المنطقة خصوصا في شرق الموصل مع توفّر الموارد المائيّة على السّفوح الغربيّة لسلسلة جبال زاقروس، فلقد نجحوا في تطوير النشاط الزّراعي وتنمية ثروات ماليّة وشبكة من الحصون المحليّة تشرف على مزارعهم وهو يشبه المشهد الرّيفي باليمن. فكان كلّ حصن يتبع أحد العشائر اليمنية كحصن حبتون وسوق الأحد وحصن السّلق وكلّها في شرق الموصل على السفوح الغربيّة لجبال زاقروس (50).

فكان الصفّ اليمني بالجزيرة مع سياسة دمج الأهالي وتطوير الإقتصاد المحليّ خدمة لمصالحهم وكان موقفهم شبيه بيمنية العراق والشام الذين سعوا إلى إنهاء العمل التوسّعي وسعوا لدفع الحركة الإندماجية لأهالي المناطق المفتوحة وهو ما يتناقض مع مصالح القيسيّة في ولاية كان فيها العمل الحربي هو أهمّ نشاط تقوم به الدّولة وكان لها شبكة لحلفاءها من القبائل العربية. وكانت مداخيل

(50) الأزدي : نفس المصدر ص 296 ـ 298.

الولاية موجّهة في معظمها للعمل الحربي. فكانت القيسيّة بحكم عقليّتها البدويّة وحفاظها على نشاط إقتصادي رعوي أساسا، تتصرّف مع السّكّان المحليين بالجزيرة كشعب مغلوب وترى من مصلحتها دعم توسّعيّة الدّولة وربط أشرافها مصالحهم مع العمل الحربي في الثغور. فكانت نتيجته تناقض التصوّرين على المستوى الاجتماعي يبرز في نقص عدد الموالي لدى القيسيّين وانحصارهم في موالي الأسر وهم من قدماء أسرى الحرب الذين جلبوا من أراضي الثغور للعمل في خدمة القيسيّين مع انحصار حركة الأسلمة بين الأهالي في مناطق نفوذهم في تلك الفترة. بينما نجد أنّ الموالي في شرق الجزيرة التابعين لليمنية هم أكثر عددا ويشملون أساسا «موالي الطّاعة» من أهالي المنطقة ويبرز بوضوح في تركيبة أهل الموصل في بداية الحكم العبّاسي، فعدد الموالي كان ضخما يتجاوزون عدد السّكّان العرب رغم أنّها مصرا عربيّا إسلاميّا (51). كما يبرز انتشار الإسلام بينهم بأعداد هامّة يدلّ على نجاح سياسة اليمنيّة في الانفتاح ودمج أهالي المنطقة في صفوف الأمّة الإسلاميّة.

وهذا التناقض انفجر إلى صراع بين الصفّ اليمني والقيسي مع انتصار الإيديلوجية التوسّعيّة وإرادة التوسّع اللاّمتناهي التي توخّاها مروان بن محمّد حيث مثّل حكمه كما سنحلّله انتصارا للحزب القيسي.

---

(51) نفس المصدر : أحداث 133 هـ من ص 145 الى ص 155 .

أمّا مجموعة ربيعة فلقد بقيت في بداية القرن II هـ أهمّ مجموعة قبليّة لكنّها تتميّز بعدم تجانسها ووحدتها بسبب انقسامها بين مجموعات أصيلة البلاد ترأسها قبيلة تغلب ومعها النمر بن قاسط وأعدادا قليلة من إياد وبعض العشائر، فإنّهم يمثّلون المهاجرون الجدد الذي قدموا للجزيرة بعد الفتح الإسلامي على غرار عشائر بكر بن وائل ومن بينها الشيبانيّون وبنو يشكر وبنو ثعلبة وهي من القبائل التي هاجرت إلى العراق في الأوّل وتوسّعت تدريجيا نحو الجزيرة خصوصا بعد الفتنة الثانية وتميّزت هذه المجموعة بتحالفها مع ربابعة الجزيرة فكان قدومها في الأوّل سلميّا إذ نجد أنّ الشيبانيين برئاسة المجشّر بن الحارث حالفت تغلب في حروبها ضد قيس (52).

ومن خلال حديث المصادر عن ثورة شبيب الخارجي الذي كان أصيل الكوفة يتبيّن أن الشيبانيّين بدأوا في الهجرة إلى منطقة الزّابين التّابعة للموصل وإلى أراضي ديار بكر شمال الجزيرة وكذلك في منطقة رأس العين، ويبدو أنّ الشيبانيين الذين استوطنوا هذه المنطقة كان حضورهم أقدم يرجع إلى بداية الحكم الأمويّ (53).

(52) البلاذري : أنساب ج ص 317.

(53) البلاذري : فتوح : ص 145 ـ 152 ومقال : شبيب في E.I2. ج IX ص 169 ـ 171 لروبنسون Robinson .

وتميّزت هذه المجموعة الشيبانيّة بحفاظها على طابعها البدوي، حيث كانت تتنقل بجمالها وماشيتها على مساحات شاملة تمتدّ بكامل بلاد ما بين النّهرين إذ أنّها تشتّي بالعراق وتصعد صيفا بماشيتها إلى شرق الجزيرة وأذربيجان على مشارف بلاد الأكراد. وتميّزت هذه القبيلة بحفاظها على ذاكرة مجدها القديم في محاربة الفرس قبل الإسلام من خلال معركة ذي القار سنة 610م ودورها الجليّ في فتح العراق مع حملات المثنى بن حارثة وكذلك ساهمت من خلال جند الكوفة في فتح الجزيرة، وهو ما أضفى عليها طابع الأرستقراطيّة بين جموع ربيعة ولا ترتبط مباشرة بالجزيرة لأن حضورها بها موسميّا. لكنّها بالمقابل تميّزت في بداية القرن II هـ ببقاءها بعيدة عن أيدي السلطان ترعى في أطراف العراق والجزيرة ومحافظة على طابعها البدوي، كما تتميّز بعلاقتها العدوانيّة مع أهالي الجزيرة لذلك حرص الخوارج منذ إمامة صالح بن مسّرح على كسب تأييدهم. فدعّم الخوارج بالجزيرة حضورهم بها بفصل كسبهم للشيبانيين وبعض العشائر البكريّة لإيديلوجيّتهم فكان معظم زعماء الخوارج من هذه المجموعة (54).

ولم يكن حضورها بالجزيرة دون صدام مع ربابعة الجزيرة إذ نجد صدى ذلك في شعر الأخطل عن حروب تغلب ضدّ الشيبانيين (55) وإن لم يوضّح طبيعة هذا الصّراع فهو من الواضح أنّه صراع على الأرض بين أصيلي المنطقة والغزاة.

---

(54) الأزدي : نفس المصدر بين ص 7 ـ 8 وص 69 ـ 73 مع الرّجوع إلى الباب II من أطروحتي في تحليلنا لحركة الخوارج بالجزيرة.

(55) ديوان الأخطل ج II من ص 770 الى ص 774.

ولقد استغلت الجموع البكريّة إعتناقها المذهب الخارجي لتسيطر على بعض النّواحي من الجزيرة، خصوصافيشمال شرقيّها والتي ستعرف في العصر العباسي بديار بكر إذ أنّ ثورة الضحّاك الخارجي والخيبري وشيبان ساهمت في تمتين حضور قومهم بالمنطقة في حلف مع تغلب الجزيرة. ونجد صدى لغزوات الشيبانيّين في حوليّات التّلمحري الذي يذكرهم باسم عرب ميّافارقين، حيث اجتاحوا في سنوات سقوط الحكم الاموي المنطقة على حساب المجموعات القرويّة في هضاب وجبال ميافارقين وتعدّوا على المجال الزّراعي وفرضوا نفوذهم بالقوّة على هذه المجموعات وهذا الحضور سيتدعّم في العصر العبّاسي رغم سعي هذه السّلطة في الأوّل إلى كبح جماحهم وفرض نفوذها بينهم لحفظ الأمن بالجزيرة وحماية الجموع القروية من تعدّيات الأعراب (56).

وما يهمّنا في هجرات جموع بكر للجزيرة انها ساهمت في نشر الإسلام بين التغالبة وجموع ربيعة وتكوين صفّ قبلي مع الضحّاك الشيباني ضدّ الصفّ القيسي الذي يمثّله الخليفة مروان بن محمّد. فكانت حروبهم ضدّ مروان ليست مجرّد معارضة للامويّين بل معارضة للقيسيّة مع إستقرار مروان II في حرّان وسط جموع قيس. فكانت هذه الحرب ضدّه تعبيرا عن مخاوفها من تنامي نفوذ القيسيّة بالجزيرة على حسابهم وأن تعاد حرب التوسّع ضدّ ربيعة التي حدثت مع

---

(56) التلمحري نفس المصدر ص 55 ـ 56.

الفتنة الثانية، فكان تحالفهم مع الخوارج يهدف إلى إيجاد قوّة مضادة تحدّ من نفوذ القيسيّة لكن لا يمنع ذلك من وجود حلفاء للأمويين من ضمن هذه المجموعة وهي تنتمي لجيش الجزيرة الذي كوّنه هذا الخليفة، فارتبطوا بالولاء الشخصي للخليفة أكثر من ولاءهم للقبيلة لكن مثلوا أقليّة في قومهم غير قادرة على التأثير الواضح بين المحاربين لكسب ولائهم للدّولة.

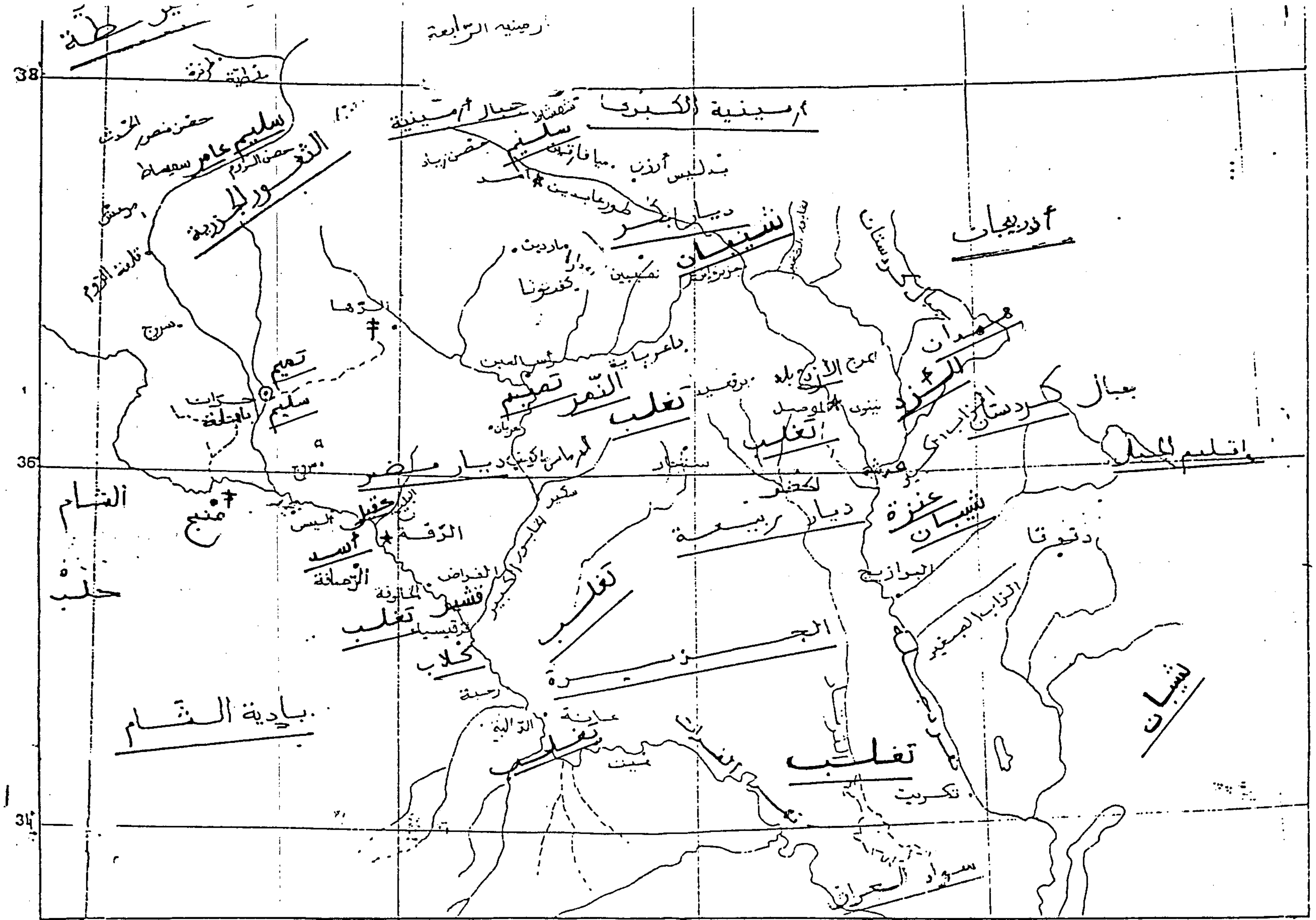
ومثلوا قوّاتا محترفة عملت للدّولة على غرار القطران بن أكمه الشيباني الذي تولّى الموصل سنة 128 هـ فحمل بعض من قومه بها ويقول الأزدي «أنه رجل من أهل الجـــزيرة، في عدّة يسيرة من قـــومه وأهل بيته فقتله الضـــحّاك...» (57).

وخبر قتله من قبل الخوارج، يبرز ضعف تأثير حلفاء الحكم في بني شيبان ولم يجد الدّعم حتّى من قومه المقيمين بالموصل. كما أنّ هذه الرّواية تبرز انتماءه مع قومه الى شيبانيي الجزيرة الذي وجد من بينهم الحكم بعض المحاربين للعمل في جيش الجزيرة وخبر قتله كذلك يبرز ضعف ولاء ربيعة لمروان بن محمّد.

وما يهمنا في الفتنة الثانية الى السّنوات الأولى من الحكم العبّاسي على المستوى الإجتماعي، استغلال المجموعات القبليّة المختلفة لدعم حضورها في مجال الجزيرة مستغلة حالة الاضطراب والانفلات الأمني.

والظّاهرة التي تبرز في بداية العصر العبّاسي توضّح تقسيم هذا المجال إلى أربعة أقسام رئيسية وفق المنظور القبليّ وهي :

(57) الأزدي : نفس المصدر ص 68 و69.



350.000:1 مقياس الرسم

وثيقة رقم 2

خريطة مواطن القبائل العربية بالجزيرة

ـ ديار ربيعة : وهي ممتدّة بين نهر الخابور ودجلة شمالا الى السّفوح الجنوبيّة لطور عابيدين وجنوبا تمتدّ إلي مدينة تكربت وترجع هذه التّسميّة الى الحضور الهامّ لمجموعات ربيعة بهذه المنطقة وأساسا بني تغلب ويمكن إطلاق تسمية ديار تغلب على هذا القسم بسبب أهميّة حضور هذه القبيلة بهذا المجال خصوصا في سباسب البريّة وباعربابة (58).

ـ ديار بكر : وتمثّل المجال الشمالي للجزيرة وهي كذلك تحت نفوذ جموع ربيعة مع هيمنة واضحة لجموع بكر بن وائل وبروز المجموعة الشيبانيّة بحضورها القويّ خصوصا منذ القرن III هـ. وأدّت إلى ظهور سلطة محليّة تمثّل آل عيسى بن الشيخ لكن في فترة بحثنا كان لبني تغلب حضورا هاما بهذه المنطقة مع المجموعة البكريّة (59).

ـ ديار مضر : وتضمّ القسم الغربي من الجزيرة بين الخابور ونهر الفرات وتمتدّ شمالا إلى أعالي الفرات بثغور الجزيرة وهي مجال القبائل القيسيّة رغم وجود بعض المجموعات من تغلب والنمر بن قاسط (60).

ـ منطقة الموصل : وتضمّ القسم الشرقي من الجزيرة حيث يختلط هذا القسم غربا مع ديار ربيعة وأمتدادها الرّئيسيّ هو شرق نهر دجلة إلى سفوح

---

(58) مقال لكاهين E.I.2 ج II ص 357 ـ 358.

(59) نفس المرجع ـ مقال موكرمين E.I.2 ج II ص 357 ـ 358.

(60) نفس المرجع : مقال كاهين E.I.2 ج II ص 357 ـ 358.

جبال زاقروس وأذربيجان ويمكن تسميتها بديار اليمنيّة خصوصا منهم الآزد وفي درجة ثانية همدان وحمير وبعض من طيء وتعزّز نفوذهم بها مع الفترة العبّاسيّة. لكن تجاورها في هذا القسم جموع ربيعة خصوصا من تغلب وشيبان وعنزة (61).

وهذا التقسيم كما رأينا لم يكن مكتملا في نهاية العصر الاموي إذ أن القبائل اليمنيّة والقيسيّة بدأت في السّيطرة على أطراف الجزيرة غربا وشرقا وبقي القسم الاوسط في يد الرّبابعة خصوصا جموع تغلب.

ونجد مقطعا هامّا في الآزدي يبرز فيه هجرة جموع اليمنية إليها في نهاية الحكم الامويّ وبداية الحكم العبّاسي ولنا رجوع إلى هذا التحليل.

وأمام تعزّز نفوذ القبائل في فترة الاضطراب منذ بداية الفتنة الثانية، بدأ العبّاسيون في ولاية أبو جعفر على الجزيرة حملة عسكريّة لضرب نفوذهم عن طريق القضاء على قادة الثورة على غرار بريكة الذي قاد جموع ربيعة وكان خارجيا وواجهه أبو جعفر وقاد حملة للحدّ من غزوات الشيبانيّين على «ديار بكر» وتحطيم سلسلة الحصون القبليّة الكثيرة المتواجدة أساسا بشرق الموصل في يد اليمنيّة وبديار مضر.

(61) الآزدي نفس المصدر : ص 313 ـ 316 في أحداث 193 هـ وواقعة الميدان في 198 هـ ص 332 ـ 333.

وكانت بيد القيسيّة، مع تحطيم أسوار معظم المدن التي استوطنها العرب لكسر شوكتهم واخضاعهم لنفوذ العبّاسيين ويبرز ذلك في حصار سميساط الذي اتّخذها اسحاق بن مسلم العقيلي كمعقل للثائرين وتحطيم أسوارها وكذلك تخريب أسوار قرقيسا، والرّها والموصل بعد المقتلة التي استهدفت أساس العرب (62).

وما ذكرته المصادر من حملات أمنيّة لا يعطينا فكرة واضحة باستثناء الموصل عن حجم الخسائر والقتلى التي تعرّض لها محاربي هذه القبائل من المتعاطفين من الحكم الاموي ممن استوطن الجزيرة وقنسرين أو ممّن قتل إثر حصار واسط والتي كانت تجمع جيش الجزيرة بقيادة يزيد بن عمر بن هبيرة. لكن من الواضح أنّ الحكم الجديد نجح في كسر شوكتها واثناءها على أي نشاط معارض أو انفصالي.

وعلى المستوى الاجتماعي أدّت حملات القمع والقتل إلى إحداث فراغ سكّاني بالموصل بين جموع اليمنية والرّبيعيّة، دفعت باليمنيّة في العراق إلى الهجرة بين قومهم لتعويض هذا النقص ويبرز الآزدي تعطّل الآسواق وفراغ المدينة طيلة سنوات إلى أن عمّرت من جديد في حكم المنصور (63).

كما أنّ رجوع المقاتلين وعشائرهم من الثغور الجزرية بعد أن أجلاهم البيزنطيون عنها سنة 139 هـ عوّض النقص السكّاني بين هذه القبائل التي

(62) حوليّات التلمحري ص 47 ـ 54 والآزدي: نفس المصدر ص 145 و 146.

(63) الآزدي نفس المصدر: بين ص 152 ـ 167.

تناقصت أعدادها في فترة الفتنة الثالثة والاضطرابات التي صاحبت قدوم العبّاسييّن للجزيرة.

ولقد خلق الحضور العبّاسي وضعيّة جديدة لهذه القبائل فمنها من تضرّر من الحكم الجديد خصوصا جموع القيسيّة التي عملت في الجيش الجزري وبعض العشائر الرّبيعيّة حيث فقد محاربوها الامتيازات والعطايا التي كانت تدرّ عليهم الأعمال الحربيّة في الثغور والعمل للخلافة. فتراجع نفوذهم ووضعهم الإجتماعي المتميّز مع الحكم الجديد وبالمقابل نجحت فئات أخرى من الأشراف في الحصول على رضا الحكم الجديد والانخراط في العمل الحربي للعبّاسيين مع دخولها في الطّاعة على غرار بني عقيل الذين رأسوا الثورة ضدّ العبّاسيّين ثم نجح إسحاق بن مسلم في الحصول على رضا أبو جعفر والعمل لصالحه ونجح في استقطاب بعض ما تبقّى من جيش الجزيرة للعمل لصالح الدّولة الجديدة مع الجيش الخراساني سواءا مع أبو جعفر أو مع عمّه عبد الله بن علي (64).

ومن أشراف قيس الذي قدم مع قومه للجزيرة والذين دخلوا في خدمة العبّاسيّين آل عبد الله بن يزيد الهلالي قدموا في الفتنة الثّانية وارتقى ابنه عاصم في خطّة والي خراسان سنة 107 هـ والعمل في جيش مروان بن محمّد. وأخذ زفر بن

(64) الطّبري : نفس المصدر ج VIII ص 351 و384 و 541 وص 618. وابن الكلبي : جمهرة النّسب ص 342.

(65) ابن الكلبي : نفس المصدر ص 369 والأزدي : نفس المصدر ص 243 و 244 والطّبري نفس المصدر. ج VIII ص 619 وص 731.

عاصم الهلالي خطط أبيه فعمل في الثّغور مع العبّاسيين منذ خلافة المنصور والمهدي وتولّى الجزيرة سنة 163 هـ وقنسرين في العديد من المرّات كما تولّى قيادة بعض الحملات العسكريّة على أراض بيزنطا في هذه الفترة (65).

ومع رجوع الحملات العسكريّة على البيزنطيّين منذ سنة 139 هـ، فلقد فتح العبّاسيّون باب الانتداب لمقاتلي قبائل الجزيرة للعمل في الثغور والإقامة في حصونها فسمح لهم باستيطان هذه المناطق وتعميرها، فظهرت موجة جديدة للهجرة نحو شمال الجزيرة إستفادت منها خصوصا القيسية وجموع بكر بن وائل (66).

لكن أصبح دورهم ثانويا بالمقارنة مع الجيش الخراساني الذي مثّل الجيش النّظامي بينما أصبح المقاتلة العرب يقومون بأدوار ثانويّة في هذا الجيش سواءا على مستوى القيادة العسكريّة أو العمل في الصّوائف.

أمّا المعطى الجديد الذي دفع بالعبّاسيين الى الاعتماد على المقاتلة العرب فهي رجوع العمل الحربي للخوارج بالجزيرة، وتبيّن منذ حكم المنصور أنّ القوى الخراسانيّة لوحدها غير قادرة على اخماد ثوراتهم فتمّ انتداب المقاتلين العرب الذين كانت لهم تجربة سابقة في محاربة الخوارج منذ العصر الاموي وكان معظمهم في رابطة الموصل من اليمنية كالصّقر بن نجدة الازدي الذي تولّى خطّة

(66) البلاذري : فتوح من ص 91 - 96.

حرب الخوارج وكان أبوه نجدة على هذه الخطّة زمن الأمويين (67) وكذلك الحسن بن صالح بن عبادة الهمداني وبلال القيسي من الذين كانوا من مقاتلي الموصل (68).

بينما بقي على رابطة حرّان المقاتلة القيسيّين الذين تولّوا حرب الخوارج ببقيّة الجزيرة وأدّى عمل هؤلاء المحاربين العرب في الخطط العسكريّة والإداريّة إلى ظهور طبقة من الأشراف العرب والمقاتلين المحترفين حيث يذكر الأزدي في ولاية موسى بن مصعب الثانية سنة 159 هـ اعتماده على الأزد وخصوصا الخولانيّين منهم حيث يقول «وكان أكثر الخولانيين عمّاله قادوا وتقدموا ...» (69).

واستعمل الأمراء العبّاسيّون وقادة الدّولة هذه القوى القبليّة خارج مجال الجزيرة لخدمتهم ويذكر الأزدي أن موسى بن مصعب عندما ولّي مصر سنة 168 هـ انتدب ألف مقاتل موصلي معظمهم من اليمنيّة عملوا معه بتلك الولاية وآزروه عند ثورة عرب مصر وقتلوا مع مقتله فسوّدت بالموصل ألف دارا (70).

كما حمل هشام بن بسطام التغلبي قوّة من تغلب إلى ولاية السند فاستوطنوا بها (71).

---

(67) الأزدي : نفس المصدر ص 7.

(68) نفس المصدر ص 204 ـ 206.

(69) نفس المصدر ص 249.

(70) الأزدي : نفس المصدر ص 253 ولنا رجوع الى بني بسطام في قسم آخر.

(71) البلاذري : فتوح ص 624 والطّبري ج VIII ص 607 إلى 609.

وأبرز التحوّلات التي ظهرت مع الحكم العبّاسي، نهاية تحالف ربيعة واليمنية بالجزيرة مع تعزّز حضور المجموعة الثانية بمنطقة الموصل، حيث كان استيطانها وتوسّعها على حساب تغلب وقبائل ربيعة، فسعت جموع ربيعة الى تكوين صفّ نزاري مع القيسيّة لمواجهة طموحات اليمنيّة التي وجدت منذ الحكم المنصور الدّعم من قبل الخلافة وتحصّلت على عدّة إقطاعات بالمنطقة وخطط سامية في إدارة الولاية، ويمثل يزيد بن مزيد أحد أبرز وجوه الرّبعيّين الذين سعوا إلى تكوين صفّ نزاري في خلافة المهدي، حيث كلّف منذ 163 هـ بالثغور فكوّن فرق من المقاتلة من تغلب وجموع بكر وقومه الشيبانيّين بالعراق والجزيرة وتتحدّث المصادر أنّهم كانوا ضمن جيش يعدّ 100 ألف مقاتل ! (72) واستغل خططه الحربيّة الى عصر الرّشيد لحمل قومه للهجرة إلى الجزيرة بأعداد مكثّفة وانتدابهم في العمل في جيشه، كما تقرّب لتغلب وقوى ربيعة بالجزيرة وأشركها في جيشه فتدفّقت أعدادهم إلى ديار بكر وأرمنيّة عندما ولّي عليها سنة 170 هـ عندما كلّف بإخماد ثورات الأرمن بها استغلها لتعرير حضور قومه بها (73).

ويبرز هذا التحالف مع ربيعة الجزيرة في حربه ضد الوليد بن طريف الخارجي، حيث وجد الدّعم من تغلب بسبب أعمـــال القتل التي إستهدفتها مع حملة هذا الخارجي على نصيبين فنجح في هزمـــه ودعم حلفـــاءه في تغلب سنة

---

(72) ابن الأثير : الكامل ج VI ص 66.

(73) الدّينوري : الأخبار الطوال مطبعة السعادة القاهرة 1330 هـ ج 2 ص 390 والأزدي : نفس المصدر ص 269.

180 هـ (74).

ويبدو أنّ يزيد وسّع من تحالفه إلى أطراف من القيسية بالجهة لتكوّن هذا الصف النّزاري.

وكانت الظّروف المحليّة مواتيّة لظهور هذا الحلف ضدّ اليمنيّة. بسبب تعسّفهم على قبائل المنطقة مع خدمتهم للدّولة العبّاسيّة يبرز في نيابة روح بن صالح الهمداني الموصل من الوالي إسحاق بن محمّد سنة 171 هـ، حيث استغلّ خطّة صدقات تغلب ليقوم بأعمال الغزو على عشائرها بالبريّة وهو ما أجبر حاتم بن صاح أنطلاقا من أعماله بالخابور لشنّ الحرب على تغلب واستهداف قراهم ومدنهم في حملات دمويّة، حيث قتل خلقا كثيرا منهم (75).

ويشير الأزدي، الى أنّ هذا العمل، أدّى إلى خروج النّزارية من الموصل وطلب المؤازرة من قومهم بالجزيرة لمواجهة اليمنيّة.

واستغل يزيد بن مزيد هذا العامل لمواجهتهم عندما ولّي الموصل شرق الموصل في حروب متعدّدة، أجبرت اليمنية بقيادة حاتم بن صالح الخضوع للدّولة وقبول التعايش مع التغالبة والقيسيّة بالمنطقة (76).

---

(74) الأغاني : ج 12 ص 95 والأزدي : نفس المصدر 282 وتاريخ ابن خيّاط ص 722.

(75) الأزدي : نفس المصدر ص 267 و 268.

(76) نفس المصدر : أحداث 184 هـ ص 297 - 299.

وتواصلت هذه المواجهة بأكثر حدّة مع أزمة الخلافة أثناء صراع الأمين المأمون في ما يعرف بواقعة الميدان سنة 198 هـ.

لكنّ، أثناء خلافة الرّشيد، نجح يزيد بن مزيد في إنهاء الخلاف مع اليمنية حيث سعى لتقريب حاتم بن صالح الهمداني للبلاط العبّاسـي بالرّقة ونجح في ذلك (77).

ويفسّر ذلك إلى سعي هذا الوالي الى إنهاء الصّراع بين الصّف اليمني والنّزاري لانقضاء سنوات المواجهة بعد تحقيق هذا القائد الشّيباني الغايات التي كان يسعى لها وهي تعزيز حضور قومه شمال الجزيرة وأرمينية. ولقد توّج عمله، بتوليته ولاية أذربيجان وارمينية إثر نجاحه في إنهاء الخطر الخزري بالمنطقة واخضاع اليمنة لنفوذ العبّاسيين بالمنطقة، فاتّخذ برذعة من أعمال أرّان بأذربيجان كمقرّ لولايته وحمل معه جموع شيبان وربيعة في أعداد هامّة ومعه أبناءه أسد ومحمد وأبناء عمّه معن وهم عبد الله وشراحيل وجسّاس وزائدة وذلك سنة 184 هـ، حيث وطّنهم بالمنطقة لإضعاف الحضور اليمني القويّ بها، وكان موته سنة 188 هـ قد ترك تأثيرات سلبيّة على مكانة ربيعة بالمنطقة رغم خلافة إبنه أسد في خططه (78).

---

(77) نفس المصدر ص 299.

(78) الطّبري : نفس المصدر ج IX ص 120 والأزدي : نفس المصدر : ص 301.

حيث رجع الشيبانيّون والتّغالبة وبقيّة عشائر ربيعة إلى أعمال الغزو والتعدّي على المجموعات القروية بالجزيرة ممّا أجبر الخليفة الرّشيد إلى تجريد السّيف في ربيعة، منذ سنة 186 هـ إلى تاريخ وفاته (79).

إذ أنّ الإشارات التي يبرزها الأصفهاني تشير إلى قيامهم بأعمال القتل وقطع الطّرق خصوصا في منطقة نصيبين التي يمرّ بها الطّريق الرّئيسي للتجارة القوافليّة وبريد الخليفة، فكلّف أحد القادة للقيام بأعمال أمنيّة على هذه المجموعة وهو ما يفهم منه تدخّل الشّاعر المنصور النّمري الذي كان من تيم الله بن النّمر بن قاسط لمناشدة الرّشيد وقف أعمال القتل وتدخّل العتّاب التغلبي لنفس الأغراض.

وترجع أعمال القتل في محاربي ربيعة إلى السّنوات الأولى لاقامة الرّشيد بالرّقة في خبر أخوين من فزارة يخفران قرية بين آمد وسميساط تسمّى تل حوم قتل أحدهما بعض صعاليك ربيعة فشكى الثّاني الوالي عبد الملك بن صالح في حدود سنة 181 هـ، فكلّف قائده أبو عصمة ليجرّد السّيف فيهم إلى أن مدحه الشّاعر العتّابي التّغلبي وتدخّل لوقف قتل قومه (80).

وإنّ القوّات العسكريّة التي حملها الرّشيد إلى الرّافقة وطبيعة التحصينات والقلاع التي بناها في الجهة تبرز أنّه كان يستهدف من إقامته

(79) الأغاني ج ص 118 و119 و149.

(80) نفس المصدر ج XIII ص 121 الى 123.

بالرّافقة إلى كسر شوكة هذه القبائل وإجبارها للخضوع الى الدّولة كما سنحلله في الباب الثاني.

ويبدو أن أعمال القتل تكثّفت منذ سنة 189 هـ إلى وفاة الرّشيد. ولا تبرز أسباب قساوة معاملة السّلطة لهذه المجموعات واضحا. لكن يفهم من خلال الرّوايات التي ذكرتها، أنّ إقامة الرّشيد بالجزيرة، جعلت السّلطة لا يمكنها أنّ تتغاضى على تعدّيات هذه المجموعات على الجموع القرويّة ولا تقبل بأن تقطع الطّرق كما كان يحدث في السّابق نظرا إلى تحول في الجزيرة إلى مركز الخلافة.

وترتبط نزعة هذه القبائل للتّمرّد على منظومة الدّولة لحفاظها على بداوتها والطّابع الحربي لتنظيمها. فلا يمكن لها أن تقبل بالحملات العسكريّة الدّوريّة التي تقوم بها السّلطة لإجبارها على دفع الضّرائب كما يبرز في عمل أصحاب الصّدقات بين رابطة الموصل وحرّان. وبحكم بداوتها، كانت تعيش على نظام رعوي يجعلها تتنقّل بين مروج الجزيرة وبادية الشّام ومنطقة الزّابين لتصعد الى حدود أذربيجان. وتتنقّل بأعداد وافرة من المحاربين لهم القدرة على مواجهة روابط الجزيرة.

وتبرز لنا من خلال كتاب الأزدي، أنّه كلّما توجّهت رابطة الموصل إلى هذه القبائل لإرغامها على دفع أموال الضّرائب إلاّ وتعرّضت الى المقاومة عند شعورها بضعف الطّرف الثّاني، ولقد رأينا مقتل روح بن صالح في محلّة الموصل سنة

171هـ/787م وتكرّر هذا الحادث ثانية مع أخيه الحسن بن صالح الهمداني سنة 193هـ/809م عندما كلّفه الرّشيد بقيادة رابطة الموصل لإرغام مجموعة عنزة المستقرّة شرق الموصل على دفع الأموال للدّولة والكفّ عن تعدّياتها ضدّ المجموعات القرويّة، فاجتمعت عنزة مع حلفاءها الشيبانيين المقيمين بين الزّابين للتصدّي إلى هذه الرّابطة وقتل الحسن (81) وتوجد قراءتان لهذه الحادثة وهما :

. **القراءة الأولى** : تندرج ضمن رفض البدو لسلطة الدّولة والاعتداد بقدراتها الحربيّة لمقاومة الحملات العسكريّة للخلافة.

. **القراءة الثانية** : ترتبط بصراع الصّف النّزاري ضدّ الصفّ اليمنيّ ولم يكن عمل تمرّدي ضدّ الدّولة بل أنّهم رفضوا أن يتولاّهم يمنيّا وخصوصا من آل عبادة الهمدانيين الذين تورّطوا في أعمال التقتيل ضدّ تغلب سنة 171 هـ. واعتبروا أنّ طلب الحسن لصدقات الأعراب إنّما يندرج ضمن خطّة اليمنيّة لبسط نفوذها على كلّ منطقة الزّابين أين كانت عنزة وشيبان تصارع جموع الأزد واليمنية. وهو ما يفهم منه دعم شيبان لعنزة في التخلص من الحسن بن صالح.

لكن القراءة الثانية تقبل جزءيا، لأنّ هذا العمل كان بطلب من السّلطة، ولم يكن عملا منفردا، حيث تذكر أحد روايات الأزدي أنّ علي بن الحسن عندما أراد الثأر من اليمنية لقتل أبيه لم يجد الدّعم من عمّه حاتم بن صالح الذي تعلّل

(81) الأزدي : نفس المصدر : ص 315.

بالقول «... ليس لي خلاف السّلطان، بعد الذي كان، وإنّ أباك قتل في طاعة السّلطان ! فإنّ أمرني أن أسير إلى القوم سرت وإلا فلا» (82).

وتوجد رواية ثانية لحادثة قتل الحسن نستبعدها وتذكر أنّ الحسن عندما طلب صدقات عنزة لاحقهم إلى الجوز فنزل على نهر باجليا جنوب غربي الجزيرة فاجتمعت عنزة وشيبان لقتله هناك (83).

وأستبعادنا لهذه الرّواية، ترجع إلى أن الشيبانيّين لا يتواجدون غربي الجزيرة رغم وجود بعض العشائر من عنزة في تلك المنطقة مع منطقة الزّابين. وهي كذلك لا تتبع رابطة الموصل ليقوم الحسن بحملته بها.

وجاءت هذه الحادثة في ظرفية موت الرّشيد وما تبعها من حرب أهليّة بين الأمين والمأمون وانفلات أمني بالجزيرة، حيث رجعت أعمال الثأر بين الصفّ اليمني والنّزاري بأكثر حدّة، وطفحت الضغائن القديمة إلى السّطح ويبرز بوضوح في طلب علي بن الحسن الهمداني أخذ ثأر أبيه.

وسيرة هذا السّيّد اليمني لا تدفعنا إلى اعتباره أنّه كان قبل ذلك متمسكا بالعصبيّة القبليّة، حيث مثّل نموذجا لرجال اليمنيّة الذين اندمجوا في الحياة

(82) نفس المصدر ص 315.

(83) نفس المصدر ص 313.

الحضريّة واكتسب ثقافة حضريّة راقية بالموصل وكان متشبّعا بالثقافة الإسلاميّة. وتأثّر مع قسم من الأتقياء والعبّاد بالموصل بحركة التنسّك والصّوفيّة التي ظهرت في العراق مع سفيان الثوري وأتباعه بالموصل وكان علي يعيش مع مجموعة من الأتقياء اليمنيّة حياة النّسك والرّوحانيّات في مسجد بني عبادة. وكان النّسك بالنّسبة له منظومة ثقافية جديدة تتجاوز المنظومة الإنقساميّة السّائدة في المنطقة. فقضى السّنوات في التعبّد مع رفاقه وقراءة القرآن منعزلا عن صخب العالم الخارجي ويذكر الأزدي «... أنّه أدخل رأسه في جبّة صوف كانت عليه لا يكلّم أحدًا...» (84).

لكن عندما أعلم بقتل أبيه، أراد في الأوّل أن يصبّر نفسه بالقول «إنّي أرضى بقضاء اللّه وأصبر عليه ...» (85).

لكنّه لم يقدر مسك نفسه ففي رواية أخرى ذكر الأزدي أنّه أخذ بلحيته وجذبها وقال : «بقتل أبي ! واللّه لأوردنّها النّارّ...» وفي الرّواية الثانيّة رفض مواعيض مقرئه أبو قحطان، حيث اظلم بصره وقبض لحيته وقال «إذا خلق اللّه هذه اللّحية لجهنّم فما عسى أن تصنع...» (86).

---

(84) نفس المصدر ص 313 و 314.

(85) نفس المصدر ص 314.

(86) نفس المصدر ص 314.

و الرّواياتان، تبرزان التناقض والصّراع في شخصيّته، إذ كان منجذبا بين ثقافته الإسلاميّة وتصّوفه الذي يمنعه من التورّط في أعمال الثأر وسفك الدّماء ومن جهة ثانية كان الموروث القبلي الذي يحمله في أعماقه يدفعه دفعا للطّلب بالثأر وأنّ لحية التّصوّف الطّويلة لن تثنيه عن قدره المحتوم ولو بمعصيّة خالقه والتّنكر لمبادئه، لأنّ شرف بيته أصبح بين يديه. ونجد أنّ رفاقه العشرة من المتصوّفة اليمنية آزروه في مسعاه ومثلوا النّواة الأولى التي كوّنها من أجل جمع اليمنية للثأر من النّزاريّة، وكانوا في الأوّل مجرّدين من كلّ تجهيزات المحاربين ومن الدّواب ولم يثنيه ذلك على طلب الدّعم من عمّه حاتم بن صالح فوجد منه الرّفض، لكن تحصّل على الدّعم من ابن عمّه الحصين بن زبيّر ويشير الأزدي أنّ سبب الرّفض الحقيقي من عمّه ليس طاعة السّلطان، بل لأصول أخيه الحسن الوضيعة لأنّه ابن أمة على غرار الحصين وهذا ما يفهم من دعم الحصين لعلي بن الحسن. وتحصّل علي على تجهيزات المحاربين والدّواب والأموال من بني تليد الأزديين في حصن حبتون حيث زوّده أنس بن عمرو التليدي الذي كان من أعوان الدّولة منذ خلافة الرّشيد بحاجياته التي ذكرتها مع بعض العبيد والخدم للقيام بشؤونه مع رفاقه.

ونجح الحصين في جمع اليمنيّة بولاية الجبل من أزد دينور وكذلك آزرته يمنيّة الموصل بـ 2000 مقاتل برئاسة تميم بن إياس الطّمثاني ويذكر الأزدي أنّ فيهم العديد من الصعاليك (87) وهم من المحاربين الشبّان الذين لم يتمّ إنتدابهم

(87) نفس المصدر ص 314 ـ 316 وفيها كلّ روايات سيرة علي بن الحسن وسبب رئاسته اليمنية بالموصل.

في رابطة الموصل فخيّروا المغامرة مع كلّ شريف يسعى للحصول على النّفوذ والجاه بين قومه لعلّهم يحصلون معه على الوجاهة والثراء بالمشاركة في أعمال الثأر والغزو على أعدائهم فكان الصفّ اليمني الذي قاده علي بن الحسن نجح في هزم جموع عنزة وشيبان وجرت بينهم معركة فاصلة على الزّاب الصّغير شرق العراق وكانت الغلبة للطّرف الأول (88).

وفي رواية أخرى، يذكر الأزدي أنّ الحصين صار إلى بلد عنزة، فقتل خلقا منهم دون الإشارة إلى هذه المعركة (89).

وكان أهمّ دعم لعلي بن الحسن جاء من بني طمثان الأزديّين، حيث قدم معه 300 محاربا من الموصل بقيادة تميم بن إياس وسبب تحمّسه للحرب يرجع إلى سعيه للثأر من النّزاريّة التي قتلت أخاه مع الحسن بن صالح، فكان الطّمثانيّون أشدّ فتكا في جموع عنزة وشيبان (90).

وينهي الأزدي رواياته أن بعد انتصار علي بن الحسن على النّزارية رجع إلى الموصل عزيزا وكانت بداية رياسته لليمنيّة منذ ذلك التاريخ (91).

---

(88) نفس المصدر ص-315 و 316.

(89) نفس المصدر ص 313.

(90) نفس المصدر ص 316.

(91) نفس المصدر ص 316.

وهذه الحادثة تبرز بوضوح هشاشة منظومة الدّولة في مجتمع إنقسامي. إذ أنّ أوّل مغامر طالبا لثأر أبيه كان كافيا لإرجاع الضّغائن القديمة بين القبائل وتلتحق به جموع من المقاتلة النّظاميّين من رابطة الموصل وتورّطهم في أعمال القتل دون إذن السّلطة. وبرز ذلك في تجاوز اليمنيّة سلطة حاتم بن صالح الشاجب لهذا العمل ونقل ولاءهم لابن أخيه علي بن الحسن الذي لم يكن لن ماضي حربي أو وجاهة بين اليمنية فرجعت إلى مسرح الاحداث الظّاهرة الإنقساميّة بأكثر حدّة مع رجوع الصّراع القبلي بين عرب الجزيرة. وأصبح علي بن الحسن الذي لم يكن له في الأوّل القدرة على توفير أدنى التجهيزات للحرب ولرفاقه العشرة الى رئيس اليمنية دون الزّعامات الأخرى التي كانت ذات حظوة لدى الدّولة وبين قومها وحضور سياسي قديم بالموصل.

وبعد سنتين ومنذ سنة 195 هـ، أصبح علي بن الحسن صاحب السّلطة الحقيقيّة بالموصل في ظرفيّة إحتداد الصّراع بين الأمين والمأمون (92).

وخارج التحليل السّياسي لظرفيّة الحرب الأهليّة بالجزيرة، فإنّه يمكن النّظر إلى هذه الأحداث من منظور أنتروبلوجي كانتصار للنّزعة الإنقساميّة بين القبائل العربيّة. إذ أنّ العمل الإندماجي التي قامت به الدّولة لصهر هذه المجموعات ضمن المنظومة الإجتماعية الخاضعة للدّولة وخلق جيل من القادة

(92) نفس المصدر ص324 - 326.

العسكريين والاداريّيين من هؤلاء المحاربين الذين ربطوا مصالحهم بالدّولة والذين ساهموا في فرض الإنضباط والخضوع لقبائلهم قد إنهار مع الحرب الأهليّة إذ إنّ نزعة التمرّد والانفصال لكلّ مجموعة قد احتدّت وبرزت طموحات كلّ مجموعة للهيمنة والتّوسّع على هذه المنطقة وتطوّر الصّراع بين الصّفّ اليمني والنّزاري إلى حرب مفتوحة.

فكان الصّفّ اليمني مع المأمون والصفّ النّزاري مع الأمين. ويبرز هذا المعطى مع توليه الحسن بن عمر التغلبي الموصل ونصر بن شبث العقيلي الجزيرة سنة 197هـ/812م من قبل الأمين ويذكر الأزدي، أنّ يمنيّة الموصل رفضت ولاية الحسن بن عمر التغلبي وقالوا «... لا يلينا ربعي !» ويدّعي الأزدي أنّ الحسن طمأنهم عن حسن نواياهم وأنّه تاركا لهم النّفوذ الحقيقي بالمنطقة «فأذنوا له بدخول المدينة !» (93).

بينما الواقع أن التغالبة كان لهم القدرة على فرض نفوذهم بالقوّة على الموصل لكن خيّر الحسن الحصول على رضى اليمنيّة تجنّبا للفتنة !.

أمّا في غرب الجزيرة، فإنّ مشروع القيسيّة والشيبانيين لدعم سلطة الأمين قد فشل مع هزيمتهم أمام الأبناء بالرّافقة سنة 196هـ/811م وأدّى إلى إضعاف الصفّ النزاري وانتصار الصفّ اليمني مع سيطرة المأمون على الخلافة. وهذا ما نفهمه من خلال توجّه نصر للثورة على المأمون، وما يهمّنا على المستوى الإجتماعي

---

(93) نفس المصدر ص 326 ـ 327.

هو نجاح القيسيّة في دعم نفوذهم بغرب الجزيرة حيث أجبر طاهر بن الحسين وابنه عبد الله على قبول تسلّطهم على نواحيهم فتوضّحت مع بداية القون III هـ ديار مضر ... التي يتحدّث عنها الجغرافيّون العرب في القرن III و IV هـ. وثورة نصر بن شبث تناولتها في أطروحتي من خلال فصل في باب التحوّلات السّياسيّة لأنّ الحركة الإنفصالية لنصر تتجاوز إطار العصبيّة القبليّة إلى غايات سياسيّة حيث عاضده العرب من الصّفّ النّزاري في الجزيرة والثغور والشّام لعداءه سلطة الاعاجم الدّاعمة للمأمون ومقاومته التي تواصلت إلى 210 هـ/825م (94).

وكان قسما من ربيعة وخصوصا من تغلب، رفضت الدّخول كطرف في الحرب الأهليّة يبرز في موقف طوق بن مالك التغلبي الذي عمل للرّشيد كما سيحلّله إذ خاطبه أحد التغالبة ليؤازر نص والقيسية في معركة الرّافقة ضده الأبناء سنة 196هـ/811م وقال له «إلى ترى ما لقيت العرب من هؤلاء ؟ انهض فإنّ مثلك لا يقعد عن هذا الأمر، قد مدّ أهل الجزيرة أعينهم إليك وأملوا عونك ونصرك...» فقال طوق : «والله ما أنا من قيسها ولايمنها، ولا كنت في أوّل الأمر لأشهد آخره، وإنّي لأشدّ إبقاءا على قومي، وانظر لعشيرتي من أن أعرضهم للهلاك بسبب هؤلاء السّفهاء من الجند وجهّال قيس...» (95).

وهذا الموقف يبرز مدى إحتداد الصّراع بين الصّف النزاري بقيادة

---

(94) ابن الاثير : الكامل ج VI ص 308.

(95) تاريخ اليعقوبي : ج II ص 444.

القيسيّة واتّبعهم في ذلك بعض تغالبة الشمال والصفّ اليمني ووجد في المأمون وقائده اليمني طاهر بن الحسين خير دعم ضدّ طموحات النّزارية في التوسّع على مجال اليمنيّة بمنطقة الموصل ودعم حضور «الاعاجم» بالجزيرة.

وكانت آثار هذه الحرب الاهليّة سلبيّة على التّوازن القبلي السّابق لانّها كما رأينا دعمت نفوذ القيسيّة بغرب الجزيرة على حساب المجموعات القبليّة الاخرى وأجبرت الدّولة مع صلح عبد اللّه بن علي مع القيسيّة لقبول نفوذهم وأبقت على امتيازات المقاتلة القيسيّة بالثغور(96).

وبرزت الآثار السلبيّة على وضع أهالي الجزيرة خصوصا على المجموعات القرويّة والحضريّة حيث تعرّضت إلى غزو جموع قيس وإلى أعمال النّهب والتقتيل، حيث هدّمت عدّة بيع وكنائس بسبب طمع القبائل في ثرواتها وتمّ نهب القوافل التجاريّة وتغريم أهالي المدن بمبالغ مالية مجحفة مقابل سلامتهم. ويبرز ابن العبري من خلال رواية دنيس التلمحري المعاصر لهذه الإحداث، ما تعرّض له أهل الرّها ومدن ديار مضر من حصار وهدم للأسوار من قبل القيّسيّة ولم تقدر الحاميات الخراسانيّة على حمايتهم من غزوات القبائل الثائرة، فمثّلت بالنّسبة للمصادر السّريانيّة سنوات حالكة، فقد فيها أهالي الجزيرة جزءا من مزارعهم وأراضيهم وثرواتهم لصالح الجموع القبليّة(97).

---

(96) ابن الأثير : نفس المصدر : ج VI ص 389 إلى 391.

(97) ابن العبري : تاريخ الزّمان من ص 21 ـ 26.

ونستنتج بذلك أنه مع بداية القرن III هـ ، تغلّبت النّزعة الانفصاليّة ونفوذ البدو على سلطة الدّولة ومؤسّساتها الجهويّة. فبرزت نزعة أشراف القبائل للإستئثار بنواحيهم وهو ما دفع بالسّلطة مع المأمون للإعتراف الضّمني بنفوذ المتسلّطين على نواحيهم كما ذكره الأزدي في أحداث سنة 195 هـ (98).

فمثلت مرحلة مواتية لبروز طموحات القبائل العربيّة لتحقيق مكاسب ميدانيّة وتعزيز مكانتها بالجزيرة وأدّى ذلك إلى تهميش الزّعامات التي عملت للدّولة لصالح جيل جديد من الزّعماء الذين اكتسبوا نفوذهم في قبيلتهم عبر أعمالهم الحربيّة ضدّ المجموعات القبليّة المنافسة لهم ورأينا ذلك مع علي بن الحسن الهمداني الذي إكتسب الزّعامة بين اليمنيّة على حساب عمّه حاتم بن صالح. ورغم حفاظ بعض الأسر القبليّة العاملة للخلافة على نفوذها كآل طوق وآل عمر بن الخطّاب في تغلب فإنّها أصبحت تلاقي معارضة متصاعدة بين قومها الذين يرفضون الإنصياع لأوامر وطاعة السّلطان. كما نلاحظ تراجع دور آل يزيد بن مزيد بعد حرب الأمين والمأمون بين قومهم الشيبانيين لصالح زعامات شيبانيّة جديدة في القرن III هـ . أو حادثة مقتل والي الموصل السيّد بن أنس التليدي الأزدي من قبل زريق بن صدقة من أزد اذربيجان متحالفا مع بعض زعماء أزد الموصل سنة 211 هـ بسبب رفضهم الإنصياع لسلطة المأمون وواليه السيّد بن أنس (99) ولنا رجوع إلى ذلك في الباب الثاني من الأطروحة. لكن ما يهمّنا على المستوى

(98) الأزدي : نفس المصدر ص 324.

(99) نفس المصدر من ص 373 إلى 378.

الإجتماعي هو تأكد النّزعة الإنقساميّة بين عرب الجزيرة الجليّة بين الصفّ النّزاري واليمني وحتّى داخل نفس الصفّ كما يبرز في صراع يمنيّة الموصل للإستئثار بالحكم كقتل السيّد بن أنس لآل عبادة الهمدانيين سنة 202 هـ أو قتل زريق للسيّد في 211 هـ وتواصل ذلك الصّراع إلى حكم المعتصم (100).

وهي نفس الوضعيّة بين القيسيّة في غرب الجزيرة في تلك الفترة.

ونجد مقطعا متميّزا في كتاب الأزدي يتحدّث فيه على أخبار بني الحسن الهمدانيين سنة 199 هـ حيث ذكر حربا حدثت بين بني سامة من بطون أسد النّزاريّة وبني ثعلبة الأزديين وكان بنو سامة حلفاء تغلب في جهة الموصل وثعلبة حلفاء يمنية الموصل فالتجأ الثعالبة إلى محمد بن الحسن أخ الوالي فأنزلهم درب بني الهذيل في الموصل وكان بنو سامة قد ترصّدوا لهم خارج الموصل بـ 1000 محارب بقيادة «الفيل» وهو أحد أبطالهم. لكن أصرّ محمد بن الحسن على توليتهم السياحة في البريّة وهي سباسب تمتدّ كما رأينا غرب الموصل ويعني بالسّياحة في البريّة حقّ الرّعي بتلك المنطقة فخرج شيخهم سحنون الثعلبي في بعض المقاتلين إلى البريّة وأقام في قرية العوجاء وهي من قرى الموصل لكن لاحقتهم بنو سامة ففرّوا إلى قصر عريب المحصّن فحاصروهم به ورفضوا أن يكون الثعالبة عتقائهم مقابل حلّ تحالفهم مع بني الحسن. فالتجأ أحد المحاربين الصّغار من ثعلبة للفرار من القصر إلى الموصل وطلب النجدة من بني الحسن فنجحت يمنيّة الموصل

---

(100) نفس المصدر ص 246 ومن ص 373 إلى ص 378.

في فكّ الحصار على الثعالبة وهزم بني سامة وقتل عددا هامّا من محاربيها وسجن البقيّة إلى أن قدم أحمد بن عمر بن الخطّاب الذي كان حليف بني سامة فخلّصهم من السّجن بعد تفاوضه مع محمد بن الحسن الهمداني حول ديّات القتلى بين الطّرفين وما يهمّنا في حديثهما ما قاله أحمد بن عمر «... قد جرى بيننا وبينكم ما لا أحبّه فجميع من قتل منكم في هذه الحرب وغيرها فعلى القود والدّية، وكذلك ما أخذ من بلدكم، وجميع من قتل منّا ومنكم أخذ منّا الدّماء فيه هدر والأموال تترك... فقال محمّد «ما تفعل شيئا إلاّ فعلنا مثله وزدْنا أهدرنا كلّ دم، وحلّلنا من كلّ مال» وكان مع أحمد بن عمر خلق كثير من تغلب على مشارف الموصل (101).

وتبرز هذه الرّواية طبيعة العلاقة بين القبائل التي تقوم على علاقات القوّة حيث نجد ظاهرة الإجارة من قبل تغلب لبني سامة وإجارة يمنيّة الموصل لبني ثعلبة وتشمل هذه الاجارة المجموعات الصّغيرة من قبل القبائل الكبيرة في حالة تعرّضها لخطر الإفناء من قبل المجموعة المعادية لها ففي حالة بني ثعلبة أجارها محمد بن الحسن بالموصل وأخذ ديّاتهم من تغلب. بينما أجار أحمد بن عمر التغلبي بنو سامة بعد انهزامهم في قصر عريب وأخذ دياتهم من يمنية الموصل.

كما نجد ظاهرة ثانية وهي العتق حيث ذكر في الرّواية قول سعنون التّغلبي لبني سامة: «يا بني سامة أعطونا الأمان فنعترف لكم أنّا عتقاكم وتكون

---

(101) [illegible] الأزدي: نفس المصدر في رواية لمحمد بن إسحاق الموصلي عن أشياخه في ص 336 ـ 338.

المنّة لكم علينا، ونرحل» فالإعتراف بأنّهم عتقائهم يتبعه الرّضى بسيادة المجموعة المنتصرة عليهم ويتعهدّون بعدم معاداتهم والتّحالف مع أعدائهم. والعتق هنا يختلف عن عتق العبيد الذين يصبحون موالي لأسيادهم القدامى بينما العتق الأوّل لا ينجرّ عنه تحوّل العتقاء الى موالي حيث يحافظون على حرّيتهم الكاملة وعلى نسبهم فهو في هذه الحالة إعتراف ضمني بتفوّق المجموعة المنتصرة.

وتوجد مصطلحات أخرى غامضة في مفاوضات أحمد بن عمرو محمد بن الحسن حول الصّلح بين الطّرفين على غرار هدر الدّم وإحلال المال. حيث يبرز من سياق الكلام أنّ هدر الدّم لا يعني في هذه الحالة الموافقة على قتل من تورّط في أعمال الثأر بل تعني هدر دم من قتل أي العفو عن الثّأر والقبول بالدّية ! وإحلال المال تعني كما ذكره أحمد بن عمر ترك المطالبة بالأموال التي نهبت في الحروب التي دارت بين الصّفين.

كما نجد مصطلحين هما القود والديّة ويبدو أنهما في نفس المعنى وهي التّعويض المالي لكلّ قتيل بين المجموعتين المتصالحتين وكانت الدّية في الموصل محدّدة من قبل السّلطة يبرز من بداية القرن II هـ مع ولاية يحيى الغسّاني تحدّد حسب الوضع المادّي لكلّ قاتل (103).

وهذه الرّواية تلقي أضواءا على منظومة العلاقات بين القبائل التي تخضع للظّاهرة الإنقساميّة التي تفرز علاقات بين المجموعات المختلفة تمرّبين

(102) نفس المصدر ص 336.

(103) نفس المصدر ص 3.

الصّراع والصّلح والصّلح تفرضه المجموعة التي حقّقت في الحرب حضورها على المجموعة الثّانية ويتمّ الصّلح بعد التفاوض بين زعيمي المجموعتين حول المسائل العالقة بينهما كديّة القتلى وما أخذ في الحرب من أراضي وأموال إلى أن يصلا إلى الرّضى. وفي حالة الصّلح بين التّغالبة ويمنية الموصل لم تكن حول الحرب بين بنو سامة وبنو ثعلبة فقط بل كلّ ما وقع بينهما منذ واقعة الميدان في 198 هـ وما عقبها من حروب بين الطّرفين. وما نلاحظه في هذا الصّلح أنّه لم يتمّ بين ممثلي الخلافة في المنطقة وهما علي بن الحسن الذي كان نائب طاهر بن الحسين في الموصل والحسن بن عمر بن الخطّاب وهو عامل طاهر في شمال الموصل (104) بل كان بين محمد بن الحسن من الطرف اليمني وأحمد بن عمر من الطّرف النّزاري بسبب حرص الطّرفين ظاهريا على عدم زجّ السّلطة وممثّليها في الحرب القبليّة التي جرت بالموصل فكان الإتّفاق بين طرفين متحاربين يعملان رسميّا في نفس جهاز السّلطة !. وهي مفارقة بين التّصور الرّسمي للعلاقات القائمة بالمنطقة وبين الواقع الإنقسامي. إذ أنّ الأطراف التي تعمل في نفس جهاز الحكم كانت في حالة صراع مسلّح وهو ما يفهم منه عدم إقامة الصّلح من قبل الزّعماء الحقيقيين للصّفين في المنطقة بل من قبل إخوتهم.

كما تبرز في روايات الأزدي الوضع المادي للقبائل اليمنية بالمنطقة من خلال ثورة بابك بأذربيجان التي ترتبط حسب عبد الحيّ شعبان بأطماع عرب

(104) نفس المصدر : ص 332 و 333 وتاريخ اليعقوبي : ج II ص 445 - 447.

الموصل في خيرات المنطقة والتي دفعت أهالي أذربيجان لمساندة الخرميّة في ثورتها منذ سنة 200 هـ (105) ورغم أنّ نشاط عرب الموصل يتجاوز إطار الجزيرة إلى أذربيجان، فإنّه يبرز من خلال احتواءهم للأراضي الفلاحيّة والمناجم الجبليّة ويتصرّفهم في 40 معدنا منها معادن ثمينة كالذّهب وأخرى ذات أهميّة في الميدان الحرفي كالحديد والرّصاص وهذا الإستحواذ قامت بها خصوصا القبائل اليمنيّة أبرزها الهمدانيّون والأزد (106).

وكان إستغلالهم لأذربيجان على المستوى الفلاحي والمنجمي، وفّر للمجموعة اليمنيّة القدرة على تسيير الموصل على حساب النّزارية بسبب ثراءهم المادي وقدرتهم على تجنيد أعدادا هائلة من المقاتلين يبدو أنّ زريق بن صدقة كان يغير على منطقة الموصل ضدّ خصمه السّيّد بن أنس والي الموصل بأكثر من 30 ألف مقاتل ممّا أغرى الخليفة المأمون لتوليته حرب بابك سنة 205 هـ لكنّ كان عدم انضباطه ووعيه بحقيقة الخطر الخرمي جعله يخذل الخليفة ولا يؤدّي مهمته ويرجع إلى تمرّده ضدّ الخلافة (107).

وما يهمّنا في عمل زريق وحسب رواية السيّد للمأمون سبب تمرّده أنّ

---

(105) عبد الحيّ شعبان: الدولة العبّاسية والفاطميّون: بيروت: الأهلية للنشر 1981 ص 75 - 82

(106) الأزدي: نفس المصدر ص 356.

(107) نفس المصدر ص 356 و 357 ويذكر الأزدي هنا مصطلح عرب الجبال كمجموعة متمرّدة على السّلطة ويقدّمها هذا المصدر ضمن فئة الصّعاليك وحول الصّعاليك: مقال لأرازي: صعلوك ج XI ج E.I.2 ص 899 - 904 والذي يشير إلى عرب الجبال.

بعض عرب الموصل وأذربيجان استغلّوا صراع الأمين والمأمون وبعد أذربيجان عن أيدي الخلافة للإستحواذ على خيراتها التي كانت في الأصل تحت تصرّف الدّولة وكان مقاتلة الموصل وأذربيجان يعملون لصالح السّلطة لكن أغزتهم حالة الفوضى والحرب في صلب الخلافة لمؤازرة زريق بن صدقة الذي كان ثائرا على الخلافة منذ حكم الرّشيد فقوي أمره وغلب على جبال المنطقة والضيّاع بين أذربيجان وأرمينة وشرق الموصل (108).

وما يلفت الإنتباه في تمرّد يمنية شرق الموصل وأذربيجان أنّه تمّ من قبل مجموعة عرفت بعملها للخلافة وتطويرها للحركة الإندماجيّة مع أهالي المنطقة كما رأينا سابقا، فأصبحت بعض عشائرها تقوم بالغزو على المجموعات القرويّة بالمنطقة وحرمت أهاليها من خيرات أراضيهم واستقطعت أخصب الضياع لصالحها واستحوذت على مناجم المنطقة وهي بذلك أصبحت تتصرّف على نمط الشيبانيين والقيسيّة. ومن الفرضيّات التي تدفعنا لتفسير هذا التصرّف هي المعارضة السّياسيّة للحكم العبّاسي حيث ذكر السّيّد للمأمون أنّ معارضة عرب الجبال ترجع إلى أيّام الرّشيد عندما كان صدقة أبو زريق معارضا للرّشيد وقتل والده أحمد بين يحيى الحرشي الوالي على أذربيجان (109).

---

(108) نفس المصدر ص 358.

(109) نفس المصدر ص 358.

وهذا الوالي اشتهر أبوه كما سنرى ذلك بتعسّفه على يمنية الموصل وتخريبه لقراهم بعد أن قام الرّشيد سنة 180 هـ بحملة على مدينة الموصل كاد فيه أن يقتل أهلها ويبدو، أنّ إبنه أحمد واصل عمل أبيه في تعسّفه على عرب الجبال من اليمنيّة وهو ما دفعهم للثورة والاستحواذ على كور الجبال وأذربيجان وطرد عمّال الخلافة منها (110) لكنّ كان لتمرّد عرب الجبال تأثيرات خطيرة على المنطقة تمثّلت في إستفحال ثورة الخرميّة بقيادة بابك بسبب تعاطف أهالي المنطقة معهم نظرا لرفضهم استغلال العرب لهم واستحواذهم على موارد المنطقة.

وأدّى صراع عرب المنطقة ضدّ الخرميّة طيلة أكثر من 20 سنة أي بين 200 و 220 هـ إلى موت خلق كثير من العرب في تلك المنطقة ممّن إستوطن فيها بعد الفتح الإسلامي ويتحدّث الطّبري عن أرقام مفجعة لمن قتلتهم الخرميّة (111) جعل حضور عرب الجزيرة يتراجع بها ويتقلّص دورهم في القرن III هـ. ويبدو أنّ أعمال القتل التي قامت بها الخرميّة، دفعت ببعض العشائر اليمنيّة المحالفة لزريق إلى الرّجوع للجزيرة والضّغط العسكري على عرب الموصل لفرض حضورهم بالمنطقة يبرز في الحروب التي خاضها زريق ضدّ السيّد في الأوّل وحروب الهمدانيّين الذين استقرّوا في شرق الموصل وأذربيجان ضدّ أزد الموصل (112) حيث لم يقم عرب أذربيجان وأرمينية قبل حروبهم مع بابك بمهاجمة أراضي

(110) نفس المصدر من ص 287 إلى 288 و من ص 297 إلى ص 299.

(111) الطّبري ج IX ص 588.

(112) الأزدي : نفس المصدر ص 373 و 374 وص 422 و 423.

الجزيرة وهو ما يؤكّد أنّ عمل الخرميّة ضدّهم، دفعهم للهجرة إلى الجزيرة وفرض حضورهم واستيطانهم بها بعد جلاءهم من أذربيجان وأرمينية ولم يكن عربها فقط قد جلوا من أراضيهم للجزيرة بل كذلك عرب الثّغور الجزريّة الذين تعرّضوا إلى حملات دمويّة من قبل الإمبراطور البيزنطي تيوفيل أبرزها ما تعرّض له حصن زبطرة حيث أجبروا على الجلاء من هذه الأراضي نحو الجزيرة ويبرز الأزدي رواية في سنة 222 هـ لابن حكيم من رواية يتناقلها أهل الثغور ذكرها يحيى بن عبيد الله بن عمر بن عبيد الله الملطي وهو من نسل عبيد الله الأقطع من أشراف قيس الثغور وأبطال العرب أن أبيه عبيد الله جلّى مع رجال الثغور فوفدوا على المعتصم فخاطب أحدهم الخليفة بالقول «يا أمير المؤمنين نحن من وراء الدّروب وليس بيننا وبين القسطنطينيّة جبل ولا شجر يمنع منّا، فأن أعنتنا وإلاّ فأعنّا على الرّحيل» (113).

وتشير المصادر الأخرى كالطّبري عن الجزع الذي لحق عرب الثغور وجلاءهم إلى أرض الجزيرة. وهذه الهجرة المضادة أدّت إلى تهديد التّوازن القبلي السّابق وظهور حروب قبليّة جديدة شملت حتّى نفس العشائر بين المستوطنين القدامى والهاجرين الذين فرّوا من الحروب في الثغور وأبرزنا حروب يمنيّة

(113) نفس المصدر ص 242 و 425.

أذربيجان مع يمنية الموصل التي شملت نفس العشائر كحروب الأزد أوحرب همدان والأزد.

II) تغلب : بين الحفاظ على هويّتها والإندماج في المنظومة الإسلاميّة

1) حضور تغلب بالجزيرة :

من خلال تحليلنا في القسم الأوّل حول لإستيطان القبلي للعرب بالجزيرة، تبيّن لنا المكانة الهامّة التي تحضى بها قبيلة تغلب بين القبائل الأخرى وخصوصيّتها على مستويين :

- حضورها القويّ بالجزيرة سواءا قبل الفتح الإسلامي أو بعده، ورغم تعاقب الهجرات العربيّة إلى هذه المنطقة، فلقد بقيت تغلب إلى نهاية القرن III هـ أهمّ مجموعة قبليّة مهيمنة على الجزيرة حيث ذكر الجغرافي ابن الفقيه بان الجزيرة معظمها لبني تغلب(1). ورغم بعض المبالغة في هذا القول، فإنّ تركّز معظم عشائرها بهذا المجال، وفّر لها حضورا قبليّا ونفوذا هامّا بها بالمقارنة مع بقيّة القبائل العربيّة.

- الخصوصيّة الدّينيّة لهذه القبيلة لحفاظها بعد الفتح الإسلامي على نصرانيّتها. ورغم اعتناق معظم القبائل العربيّة للإسلام على غرار عشائر بكر بن وائل وتنوخ وسليم فلقد حافظت معظم عشائر تغلب إلى حدود القرن IV هـ على

---

(1) ابن الفقيه : كتاب البلدان ص 28.

نصرانيّتها. وهذه الخصوصيّة الدّينيّة انجرّ عنها خصوصيّة إجتماعيّة تنفرد بها ضمن العرب النّصارى وأهل الكتاب، حيث حظيت بخصوصيّة على المستوى الفقهي ترجع إلى عصر عمر بن الخطّاب كما رأينا وتتمثّل في عدم دفع الجزية على غرار أهل الكتاب بل ضعف الصّدقات ومن أسباب إفراد هذا الخليفة لتغلب بهذا الإجراء، هو حرصه على عدم جلاءهم إلى أراضي بيزنطا في ظرفيّة ترصّد البيزنطيّين للمسلمين من أجل إسترجاع الأراضي المفتوحة في الجزيرة والشام. فأقرّ لهم هذا الوضع الخاصّ (2).

أ) نسب تغلب

أمّا حول نسب هذه القبيلة، فهي ترتبط بمجموعة ربيعة وكانت قبل هجرتها للجزيرة مقيمة بصحراء نجد مع بكر بن وائل (3) وحافظت تغلب على بداوتها لأن أصولها كما ذكرت هي من وسط صحراوي وهي ضمن القبائل الجمّالة الكبرى وحسب ابن حزم، فإنّ تغلب تعدّ من رضفات العرب. والرّضف هو الحجر المحمي بالنّار والشّمس ومعها في هذا الوصف شيبان وبهراء وإياد (4).

---

(2) البلاذري : فتوح البلدان : ص 184 إلى 186.

(3) ابن الكلبي : جمهرة النّسب ص 564 - 576.

(4) ابن حزم : جمهرة الأنساب ط. القاهرة دار المعارف ط 5 - 1980 : ص 486،

وحسب المصادر المذكورة، فإنّ تغلب تعدّ من أقدم القبائل الرّبيعيّة مع بكر بن وائل وحسب أسطورتهم فإنّ جدّهم دثار هو الذي أطلق تسميتهم تغلب عندما بشّر بالنّصر. لكنّ مع الرّجوع إلى الأصل السّامي للكلمة فهو اسم مؤنّث وكأنّ هذا الاسم له أصول أقدم من الأسطورة وهو ما يدفعنا إلى القول أنّ هذا الإسم هو صفة لكلّ القبيلة بمعنى أنّها الغالبة والمنتصرة ويذكر البلاذري في هذا المعنى شعرا يبدو أنّه كان للأخطل في حرب قومه ضدّ القيسيّة أثناء الفتنة الثانيّة«أما تعلمون أن تغلب تغلب»وذكر كذلك في نفس السّياق شعرا لإمرأة تغلبيّة تقول فيه:

إيهـــا بنـــي تغلـــب إيهــــا *** نحن بنو الحرب نشأنا فيها (5)

وهذا المعنى يبرز وصفهم بتغلب وبني الحرب وهو ما يؤكّد هذه الفرضيّة وكانت القبائل القريبة إلى نسبها النّمر بن قاسط وإيّاد وجموع بكر بن وائل وهذه المجموعة الأخيرة هي التي خاضت ضدّها حرب البسوس الشهيرة ورحلت تغلب إثرها إلى بلاد ما بين النّهرين.

وتنقسم تغلب إلى ثلاثة بطون كبرى وهي غنم والأوس وعمران. وأبرزها غنم التي انبثقت منها أبرز عشائرها منها معاوية ولمعاوية أربعة أبناء يسمّون الختّاقون وأبرز عشائر معاوية بكر بن حبيب، وكان له ستّة أبناء يعرفون بتسمية الأراقم وحسب المصادر فهي تعني أنّ لهم عيون شبيهة بنوع من الحيّات !. وما

(5) البلاذري : انساب الأشراف ج V ص 324 و 325.

يهمّنا في الاراقم، أنّهم يمثّلون أهمّ عشائر تغلب التي تتواجد بالجزيرة. وهم جشم ومالك وعمرو وثعلبة ومعاوية والحارث.

وأبرزها بنو جشم بن بكر ومالك ابن بكر، وهاتين العشيرتين كانتا لهما اعظم بيوتات تغلب ولهم الشرف في قومهم (6).

ويوجد إشكالا حول إندثار وتراجع حضور العشائر الآخرى على غرار بني الآوس وبني العمران أو بعض العشائر الآخرى من بني غنم. ومن أهمّ الفرضيّات، ما ترتبط بما حدث زمن الفتح الإسلامي، حيث استهدفت حملات خالد بن الوليد والمثنّى بن حارثة الشيباني منذ سنة 12 هـ جموع تغلب بسبب مؤازرتهم لسجاح المتنبّئة في حملتها على دولة المدينة ومؤازرتهم للفرس في العراق على غرار ما حدث في واقعة عين التّمر، وهذا ما جعل خالد يقوم بحملات على أراضيهم لإبادتهم وقتل في أحد الحملات زعيمهم عقّة بن عقّة، وللثأر من حملات خالد فلقد تحالفت تغلب من جديد مع الفرس تحت قيادة الهذيل بن عمران، لكن نجح خالد في مهاجمتهم بثلاثة فرق وقام بإبادة مقاتليها. وهزم إثر ذلك حلفا تقوده تغلب بزعامة ربيعة بن بُجير كما فاجئهم في موطنهم بالزّميل وكان الشيبانيون وجموع بكر التي حاربت مع خالد وبن الحارثة قد أكثرت من القتل في صفوف تغلب بسبب ما جرى بينهم في حرب البسوس السّابقة !. وقد فرّ أحد قادتهم وهو هلال بن عقّة من

(6) ابن الكلبي : جمهرة النّسب : ص 565،

يوم الرّزاب الذي هزم فيه المسلمون تغلب. ومع تقدّم خالد نحو نهر الفرات تحالفت تغلب مع العرب النّصارى من إيّاد والنّمر والفرس والبيزنطيّين لمواجهة الفاتحين لكن هزم خالد هذا الحلف وتقول المصادر أنّه قتل 100 ألف مقاتلا جزءا منهم من تغلب كما قام المثنّى بن حارثة الشيباني بحملات أخرى في الآنبار وصفيّين ضدّ النّمر وتغلب (7) وهذه الآحداث تفسّر شروع تغلب وإياد في الهجرة إلى أراضي بيزنطا قبل فتح الجزيرة. ولان أنهت إياد جلاءها من الجزيرة، فإنّ تغلب لم تكمل جلاءها لقبول الخليفة عمر ضعف الصّدقات عن الجزية، فأبطلت ما شرعت فيه ويقول البلاذري : «أنّ عمر بن الخطّاب أراد أن يأخذ الجزية من نصارى بني تغلب فانطلقوا هاربين ولحقت طائفة منهم ببعد من الآراض، فقال النّعمان بن زرعة، أنشدك اللّه في بني تغلب، فإنّهم قوم من العرب نائفون من الجزية، وهم قوم شديدة نكايتهم، فلا يعنّ عدوّك عليك بهم ... (8) فقبل عمر ضعف الصّدقة عليهم وهذه الرّواية تذكر فقط أنّهم قوم نائفون من الجزية، ويوضّح البلاذري كذلك أنّهم أصحاب عزّة ولا يريدون أن يكونوا كالآعلاج.

لكن يحتمل أن يكون السّبب الحقيقي هو معارضتهم الخضوع للمسلمين، حيث كانوا الطّرف الآساسي في مقاومة الفتح ببلاد الرّافدين (العراق والجزيرة)

---

(7) أحداث الفتح بالعراق : الطّبري ج III 298 حوادث 13 هـ والبلاذري : فتوح البلدان السّواد

(8) البلاذري : نفس المصدر ص 181 وفي ص 182 و 183 يقدّم روايات أخرى لإقرار عمر الصّدقات عليهم والآدبيّات الفقهية المتعلّقة بذلك

وكان الفتح الإسلامي هو إيذانا باضطهادهم وشرع بالقيام به خالد بن الوليد وأدّى إلي إفتقادهم أعدادا هائلة من مقاتليهم. وهو ما يدفعنا الى الاعتقاد أنّ عشائر كاملة من تغلب تقلّصت وكادت تغلب أن تفنى كما حدث لإياد إثر جلاءها لبيزنطا ثم رجوعهم من جديد للجزيرة والعراق فلم يبقى منهم إلاّ عدداً قليلاً وتشتتت إثر ذلك هذه القبيلة (9).

أمّا تغلب، فإنّ الإتّفاق مع عمر والدّور الهام الذي قام به الوليد بن عقبة في خططه على صدقات عرب الجزيرة وتقريبه لاشرافها جعل هذه القبيلة تسترجع مكانتها وحضورها بالجزيرة طيلة الخلافة الرّاشدة وأثناء الحكم الاموي. حيث تبرز سياسة الوليد بن عقبة أو الامراء الامويين في فترة الخلافة الاموية متّسمة بالتّسامح وتقريب وجوه تغلب للبلاط الاموي ومجالس اللّهو مع عدم وجود سياسة قمعيّة بسبب نصرانيّتهم رغم محاولة بعض الخلفاء الامويين قبل فترة بحثنا نشر الإسلام في صفوفهم.

وتوجد فرضيّة ثانيّة حول انحصار عدد عشائر تغلب، هي تعمّد المصادر الإسلاميّة الصّمت للعشائر التغلبيّة التي بقيت على نصرانيّتها يقابله تركيز الرّوايات على العشائر التغلبيّة التي أسلمت وبرز منهم أشراف مسلمون ذكرتهم المصادر.

---

(9) حول إيّاد الرّجوع إلى البلاذري : فتوح : ص 181 ـ 183.

لكن نرجّح الفرضيّة الاولى، حيث يبرز من خلال أحداث الفتنة الثانية في ما يعرف بحرب قيس وتغلب (بين 68 هـ و72 هـ) أنّ تغلب فقدت قدراتها الحربيّة التي كانت عليها زمن الفتح، حيث نجحت جموع قيس في إلحاق هزائم متتاليّة على تغلب في يوم الكحيل والفدين والسّكير ويوم البشر، حيث تعرّضت تغلب لأعمال قتل جماعيّة طالت النّساء والأطفال وجعلت أحد أشراف الكوفة من الرّبابعة يتهكّم منهم ويصفهم بالانباط ! (10).

وهذا ما جعل تغلب في بداية القرن II هـ تتميّز بانحصار عدد عشائرها وتراجع نفوذها القبلي بغرب الجزيرة. ومن العشائر التي حافظت على حضورها بنو بكر بن حبيب وهم من الاراقم كما رأينا ومن بكر بن حبيب بنو جشم بن بكر وفيهم بنو زهير بن جشم وهي أحد العشائر التي قطنت جهة الفرات الأوسط ودخل بعض أشرافها الدّين الإسلامي تاركين النّصرانيّة في بداية القرن II هـ واتّجه بعضهم إلى اتّباع المذهب الخارجي الذي انتشر بين العشائر المسلمة في ربيعة ويقول عنهم الهمداني «هم شراة بني تغلب» (11) وتفتخر هذه العشيرة بأنّهم من نسل عمرو بن كلثوم، صاحب أحد المعلّقات السّبعة في الجاهليّة ومن أبرز زعمائها مالك بن طوق التي كانت له الرّحبة قبالة قرقيسياء وتولّى خطّة والي الموصل في بداية القرن III هـ (12).

---

(10) البلاذري : أنساب : ج ٧ ص 318

(11) الهمداني : صفة جزيرة العرب ص 133.

(12) الأزدي : نفس المصدر : ص404 - 406.

ومن كعب بن زهير، بنو بُسطام، وهم تغالبة الموصل ولهم أحياءهم في جهة نصيبين وابرز زعماءهم هشام بن عمرو التغلبي الذي كان واليا للموصل زمن خلافة مروان بن محمد وتولّى مع اخوته مناصب عديدة في حكم المنصور العبّاسي، وكانت لهم الرّئاسة في تغلب بمنطقة نصيبين (13).

ومن بني الفدوكس من نسل بني مالك بن جشم اشتهر في صفوفهم الشاعر الأخطل وكان قومهم قاطنين بين الفرات الأوسط وبادية الشام وقريّات الخابور (14).

ومن جشم بن بكر، نعمان بن نجوان بن الحارث ويعرف بأشعى بني تغلب وهو شاعر شهير في بداية القرن II هـ وحسب كتاب الاغاني، فإنّ قومه كانوا قاطنين بالبريّة بديار ربيعة وهي صحراء ممتدّة بين سنجار والحضر ومنهم من كان قاطنا بالموصل (15).

أمّا بنو مالك بن بكر فمنهم شعيب بن مليل وكانوا من مهاجرة تغلب إلى أذربيجان، وعاضدوا قومهم ضدّ قيس في الفتنة الثانية، ويبدو أنّهم كانوا قبل هجرتهم في منطقة الخابور (16).

---

(13) ابن الكلبي : جمهرة النسب ص 566 + الازدي : تاريخ الموصل : ص 75 .

(14) ابن الكلبي : جمهرة النسب ص 568 + الازدي : تاريخ الموصل ص 406 و407 في أحداث 216 هـ.

(15) أبو فرج الاصفهاني : كتاب الاغاني تحقيق علي محمد البجاوي مؤسسة جمال للطّباعة والنشر بيروت.

(16) ابن أثير : نفس المصدر ج IV ص 572.

ومن بني عمرو بن بكر : الوليد بن طريف ابن عامر الشاري الذي كان من بني صفيّ ويطلق عليهم تسمية أضراس الكلاب، ويقطنون بين نصيبين وقرى الخابور، ومنهم من هاجر إلى أرمينية على غرار آل الوليد بن طريف، ولقد انتشر المذهب الخارجي في صفوفهم في العصر العبّاسي وانتسبوا إليه (17).

وضمن بني عمرو بن بكر، نجد بني زيد الله، وهم حسب الأخطل أقدام صغار أي من العشائر المستضعفة في تغلب، وكانوا على نقيض التغالبة يمارسون الفلاحة كما يبرز في شعره (18) ويحتمل أن يكونوا من الموالي إلتحق نسبهم ببني عمرو.

أمّا العشائر التي لم تعد تذكر في المصادر إمّا قصدا لحفاظها على نصرانيّتها أو لاندثارها بسبب الحروب، فهم بنو عمران ومنهم بنو عوف وبو تيم وأسامة. وكذلك بني الأوس ومنهم وائل ومالك ويعلى وعوف (19).

كما كانت لبكر بن حبيب حلفا من الجاهليّة مع قبيلة النّمر بن قاسط وهي قبيلة ربيعيّة صاحبت تغلب منذ أن هاجرت إلى الجزيرة وعملت معها لصالح المملكة اللّخميّة، وحاربت معها الفاتحين المسلمين وبقيت قبل الإسلام على نصرانيّتها مع تغلب (20). لكن يبدو أن حركة الأسلمة كانت أهمّ في صفوفها من تغلب.

---

(17) الأزدي : نفس المصدر ص 283 و 284.

(18) ابن الكلبي : نفس المصدر ص 575 وديوان الأخطل ج I ص 705.

(19) ابن الكلبي نفس المصدر ص 575.

(20) البلاذري : أنساب الأشراف ج V ص 303 - 315 : حرب قيس وتغلب.

وكانت تغلب، تضمّ أعدادا من القبائل الصّغار التي دخلت معها في الموالات أو اندمجت في صلبها، حيث يذكر السّكري في شرحه لشعر الآخطل عند حديثه عن صراع قيس وتغلب وجود الآبناء في صفوف تغلب كمحصن بن جبير بن جنحود الآبناوي ويفسّر السّكري أن كلّ قبيلة كبيرة كانت تضمّ قبائل صغار تسمّى عناصرها بالآبناء ! (21).

فإذا حلّلنا من هذا المنظور قبيلة تغلب مع ربطه بها نعرفه من النّظريّة الإنقساميّة، يبدو أنّها منذ الفترة السّابقة للفتح الإسلامي، نجحت في دمج قبائل عربيّة صغيرة إلى صفوفها ممّن ضعفت مكانتها وحضورها بالمنطقة كبني سليح أو مجموعات قضاعة أو بعض العشائر اليمنية التي كان لها ماضي تليد في الجزيرة كطيء، فكانوا يعرفون بعد الفتح بالآبناء. ويمكن أن تكون فرضيّة ثانية، أن الآبناء هم مجموعات من الارامیّين كانوا مجاورين لتغلب كأراميّ منطقة الخابور أو نصيبين والذين دخلوا في الولاء ضمن تغلب كما يحتمل أن يكونوا من العناصر المحليّة المتصاهرة مع تغلب فكان أبناءهم يعرفون بتسمية الآبناء مثل ما حدث في اليمن بين الفرس والعرب.

ويبقى أهمّ طرف متحالف مع تغلب كما ذكرنا قبيلة النّمر بن قاسط التي بقيت حليفتها لكن لم تندمج في صلبها.

وهذا التحليل يدفعنا إلى الاعتقاد أن تغلب نجد في فترة حرب البسوس ليست نفسها تغلب الجزيرة إذ تغيّرت تركيبتها لكي تتأقلم مع محيطها الجديد،

(21) ديوان الآخطل : شرح السكري ج I ص 75.

فكان نفوذها بالجزيرة على بقيّة المجموعات العربيّة الأخرى، جعلها بعد الفتح، تدمج في صفوفها أطرافا قبليّة أخرى، بالإندماج الكلّي على غرار النّمر وبعض بطون بكر بن وائل. ويبرز هذا التّحالف واضحا في حربها ضدّ قيس كما رأينا إذ كانت بعض الزّعامات لا يعرف بالضّبط أصولها كشعيث بن مليل هل كان نمريّا أم تغلبيّا أو المجشر بن الحارث الشيباني الذي كان محالفا لتغلب في حربها ضدّ قيس (22).

وكانتّ معظم بطونها بالجزيرة في بداية فترة بحثنا تعيش في بادية الجزيرة ويذكر السكري في رواية يبدو أنّها ترجع إلى المدائني في شرحه لشعر الأخطل أنّ تغلب بدوا بالجزيرة لا حاضر لها إلاّ قليل بالكوفة ...» (23) ومعنى ذلك أنّ هذه القبيلة لم تستوطن حواضر الجزيرة في بداية الحكم المرواني ويرجع ذلك إلى حفاظ هذه القبيلة على طابعها البدوي حيث يذكر السّكري في نفس الرّواية قول لعمير يستحثّ فيه المحاربين للقتال بالقول «إنّ تغلب حيّ بدو وقد اجتمعوا لقتالكم ...» (24).

وحول الإشارة إلى استيطان بعض من تغلب الكوفة، فإنّه يرجع إلى فترة الفتح الإسلامي مع تمصيرها من قبل سعد بن وقّاص، حيث أقام بعض بن أسلم من تغلب وخلفاءهم من النمر وإياد من النّصارى في هذا المصر يرأسهم عبد الله بن

---

(22) نفس المصدر :.ص 75 حيث يشير السّكري إلى عدّة أطراف حاربت مع تغلب كحلفاء أو كمندمجين ضمن مجموعتهم.

(23) ديوان الأخطل ج I ص 72 في رواية ليوم الثرثار بين تغلب وقبس التي حدث في حدود 69 هـ.

(24) نفس المصدر ج I ص 74 ، 75.

المعتّم الذي كان قد شفع لهم عند عمر لتعويض الجزية بضعف الصّدقة (25).

ومثلت هذه المدينة أوّل نواة لأسلمة التّغالبة والذين ساهموا في نشر الدّين الجديد بن عشائرهم في الجزيرة.

ب) منازل تغلب بالجزيرة :

أمّا منازل تغلب بالجزيرة، فإنّ المصادر العامّة ذكرتها في أحداث قليلة أبرزها زمن الفتح الإسلامي للمنطقة أو أثناء الصّراع القيسي التغلبي في فترة الفتنة الثانية، ويبقى أهمّ مصدر ديوان الأخطل الذي ألّف القصائد في أمجاد قبيلته ومنازلها ونمط حياتها.

ومن خلال كلّ هذه المصادر تبرز لنا ثلاثة مجالات لتغلب الجنوب في الجزيرة يرتبط كلّ واحدة منها بمجموعة من عشائرها وهي :

* منطقة الخابور : وسط الجزيرة : وتبدأ منازل تغلب من سكير عبّاس جنوبا إلى قرية تنانير شمالا في مدخل منطقة باعربابة وتضمّ هذه المنطقة قرى عديدة لتغلب وهي تنانير - المطريّة - عربان - الشّمسينيّة - الحسنين-السّوار - الفدين - ماكسين-سكير عبّاس وواسط الجزيرة (26) وهذه القرى التّابعة لتغلب

(25)تاريخ الطّبري ج IV ص 40 والبلاذري : فتوح ص 182 و 183.

(26)ديوان الأخطل ج ص 84 وص 328 + البلاذري : أنساب الأشراف ج V ص 305 إلى 320 وخريطة الجزيرة في الملحق.

كانت متألّفة من مجموعات قرويّة من الآراميين التي تتبع بالولاء هذه القبيلة وتسكنها بعض العروش التغلبيّة في العصر العبّاسي مع تخلّي بعضها على النّمط البدوي الذي كان سائدا زمن الفتح الإسلامي والعصر الأمويّ ويبرز هذا التّغيير في خبر حملة حاتم بن صالح بن عبادة على مدن تغلب ويعني به قرى تغلب على الخابور إنتقاما لقتل هذه القبيلة أخيه روح فاستهدف مدينة بني أسيــــد التي كانت لتغلب (27) رغم أنّ هذه المدينة لا تبرز في المصادر الجغرافيّة بمنطقة الخابور.

ويبدو أنّ هذه القرى الآراميّة وجدت الحماية من قبل هذه القبيلة المحاربة التي حافظت على نصرانيّتها بعمليّة الولاء ضدّ أطماع المجموعات البدويّة الوافدة على الجزيرة كما يبرز في حرب قيس وتغلب أو الإشارات التي يقدّمها الأخطل لحروبهم في المنطقة ضدّ توسّع الشّيبانيين من العراق نحو منطقة الخابور (28).

ولعبت تغلب في المنطقة دورا إقتصاديا يبرز في ربط الإقتصاد الرّعوي بالإقتصاد الزّراعي عبر إشرافها على النّشاط التجاري بالمنطقة وتشير بعض المصادر إلى وجود سوقا بمنطقة الخابور يسمى بسق دوغان كان لتغلب ينظّم مرّة كلّ شهر تجتمع فيه قبائل تغلب بمنطقة الخابور مع المجموعات القرويّة والحضريّة لتبادل البضائع حيث تبيع عشائر تغلب مواشيها وإبلها وما جلبته من بضائع من الأقاليم الجزريّة أو من العراق والشام. وتشتري من القرويين حاجيّاتها من

(27) الأزدي في أحداث 171 هـ : تاريخ الموصل ص 268 و 269.

(28) ديوان الأخطل ج I وج II تتعدد الإشارات إلى حروب تغلب مع المجموعتين في شعره.

الحبوب والخمر والمنتوجات الحرفيّة ولقد ذكر الأخطل في شعره هذه السّوق عند إجتماع النّساء والرّجال لأخذ العطايا من ثابت وهو أحد عمّال والي الجزيرة ويبدوا أنّ النّساء كنّ من الحضريّات لطبيعة لباسهنّ من الخزّ والحرير فطالبهنّ بالسّفور لأخذ العطاء وهو ما أغضب رجال تغلب وجعلهم يقتلونه ! (29).

كما ذكرت المصادر مجموعة من الأراضي التابعة لهذه القبيلة ترتبط معظمها بنهر الخابور أو بآبار وبرك ماء تجتمع فيها تغلب مع إبلها وماشيتها للإرتواء ومن أبرزها الرّحوب كانت لبني الفدوكس وهم قوم الأخطل مع عشائر أخرى من بني جشم بن بكر بن حبيب ولقد ذكر الأخطل الرّحوب في واقعة البشر عندما هاجمهم الجحّاف السّلمي مع جموع قيس وأبادهم بهذا الموقع من الرّحوب (30).

كما ذكر الأخطل واد وعر لبني عمرو وواد الأراغب لبني الفدوكس وجبل مرد يشرف على نهر الخابور. أمّا ما عرف في المصادر بسكير عبّاس في العصر العبّاسي فلقد ذكره الأخطل باسم السّكران ولم يكن في ذلك الموقع إلاّ قرية صغيرة. كما ذكر منطقة المعرسانيّات ترعي في أرضها عشائر تغلب إبلها وكذلك الشّعب والنّاعور وكوكب وتقعان على رابية تشرف على الخابور وذكر موقع المقسم وهي أرض تتوفّر فيها بئر ترتوي منها إبل تغلب (31).

---

(29) ديوان الأخطل ج II ص 714.

(30) نفس المصدر ج I ص 281 الى ص 284.

(31) نفس المصدر ج I ص 31 ، 255 وص 299 و 328 و 206.

* أمّا المجال الثاني لتغلب فهي منطقة الفرات الأوسط : وتمثّل الأراضي المحاذية للفرات وهي تتّبع الجزيرة في الضفّة اليمنة من النّهر وتمتدّ من عانة جنوبا إلى الرّقّة شمالا واستوطنتها تغلب الجنوب وهي تمثّل نفس العشائر التي تعيش في منطقة الخابور. وتتبع تغلب منذ زمن الفتح الإسلامي مجموعة من القرى وهي قرى نهر البليخ وكان أحد روافد الفرات تصبّ مياهه في الفرات جنوب الرّقة ويربط منطقة الخابور بالفرات الأوسط كما توجد قرى أخرى تمتدّ على ضفاف الفرات كقرية المبارك ورحبة مالك بن طوق أسّسها أبوه طوق في عهد الرّشيد بترميم حصن آشوري قديم وبناءه مساكن قرية وكانت قصبة تغلب بالمنطقة أشرف فيها طوق بين مالك على عمالة الفرات الأوسط (32) وتوجد قرى أخرى وهي الدّالية والفرضة وخصوصا عانة وقراها. وكانت مدينة عانة المركز الدّيني لتغلب وكان القساوسة اليعاقبة بأديرة عانة اختصّوا في تأطير البدو من تغلب، وكانت عانة قد إشتهرت في شعر الأخطل بخمرها الذين كان يتزوّد منه التّغالبة (33).

أمّا أراضيها بهذه المنطقة فإنّها ترتبط بتصيّفها على ضفاف الفرات عندما تجدب بادية الشّام ومنطقة البريّة من الجزيرة، فتنزل بها عشائر تغلب خصوصا منهم بنو حشم بن بكر وبنو كعب بن زهير وبني الفدوكس بإبلها

---

(32) نفس المصدر ج I ص 383 يذكر إقبال تغلب على خمر عانة رغم أسعارها المرتفعة وحول دور عانة الدّيني : H.LAMMENS : Etudes sur le siècle des Ommeyades p. 236. وحول عانة والرحبة , كتاب العشّ : حضارة الفرات الأوسط إعداد وليد مشوح : الأهالي سوريا ط 1 من ص 12 الى ص 103.

(33) نفس المصدر ج I ص 310.

وماشيتها في ذلك الفصل ولقد أطنب الأخطل في ذكر نهر الفرات وفيضانه ويصفه بالمزبد ويعني بذلك أنّه ذو أمواج تعلوها الزّبد ويصف أضراره على كانة وجزر النّهر التي بنيت عليها القرى، وعادّة ما تكون هذه الفيضانات في الرّبيع مع ذوبان الثلوج الجبليّة.

ويبدو أنّ طائفة من الملاّحين كانت تتولّى بقواربها، شقّ الفرات ببدو تغلب حيث يطنب الأخطل في وصف هلعه من عبور النّهر (34).

وذكرت في بعض المصادر بعض أراضي تغلب بالمنطقة كوادي السّباع والنحيّة وخينف الذي كان واد بشرق الفرات (35) ولقد نازعت قيس تغلب منطقة الفرات الأوسط بين نهر البليخ وقرقيسياء. ولقد رأينا قدوم قيس بعد مرج راهط إلى قرقيسياء بزعامة زفر بن الحارث وسيطرتها على هذه المدينة بعد أن كانت تتبع نفوذ تغلب ثمّ نازعتها أراضي البليخ وقراها بقيادة عمير بن الحباب السّلمي وأرادت إجلاء تغلب على الأراضي الممتدّة من قرقيسياء جنوبا إلى البليخ شمالا وقامت بحرب إبادة على عشائر تغلب، وكانت أوّل حرب بأرض البليخ (36).

---

(34) نفس المصدر ج I ص 310.

(35) نفس المصدر ج I ص 387 وص 300 وص 84.

(36) البلاذري : أنساب الأشراف ج I ص 303 ـ 314 وديوان الأخطل ج I ص 84 وشرح يوم الشرعبية ص 129 وابن أثير : الكامل في التّاريخ ج V ص 309 - 312 ويحلّل نزول عمير أرض بليخ وحروبه ضدّ تغلب.

* أمّا المجال الثالث لتغلب الجنوب فهي أرض البريّة وهي سباسب الجزيرة التي تمتدّ من الموصل شمالا إلى تكريت جنوبا(37). ومن غرب دجلة شرقا إلى نهر الخابور غربا. ولتغلب بهذه المنطقة عدّة أراضي أبرزها على نهر الثرثار الذي يبتدأ من العراق جنوبا ويتفرّع شمال آثار الحضر إلى أربعة فروع تضيع مياهها في سباسب البريّة. وكانت لهم قرى بالجهة أبرزها المحلبيّة والحضر التي لم يبقى منها إلى المساكن الرّيفيّة والكحيل والشرعبيّة ورازان وتلّ أعفر ومرج جهينة التي كانت على ضفاف دجلة وغيرها من القرى (38) وبين الثرثار ونهر الخابور تمتدّ أراضي سباسبيّة شاسعة يسمّيها الأخطل بالفلاة تبرز في شعره كأرض قفراء لا يسكنها أحدا تتميّز بثراءها بالحيوانات البريّة والسّباع كالبقر الوحشي والأحمرة الوحشيّة والذّئاب ذكرت في شعره وهي مجالا مناسبا لرعي الإبل بين الخريف والشتاء حيث تكثر بها برك الماء والنّباتات الطّبيعيّة (39).

وتتميّز في منطقة البريّة أرض سنجار بمدينتها الشهيرة وقراها وكانت تحت نفوذ تغلب وكانت قرية النجديّة من أرض سنجار تابعة لها حسب الأزدي (40).

---

(37) الأزدي : تاريخ الموصل ص 268.

(38) الأخطل نفس المصدر : ص 48 و73 و129 والازدي : نفس المصدر ص 268.

(39) نفس المصدر ص 152 و 357 .

(40) نفس المصدر ص 268.

ويبرز تميّز سنجار بامتداد أراضي جبلية تقل عن 1000 م. مثّلت المرتفعات الوحيدة على الأراضي السّهليّة للبريّة فكانت ملجئا للبدو للإحتماء من تعدّيات أعوان الدّولة أو القبائل المعادية لها ومن أبرز العشائر التي سكنت أرض سنجار بنو زيد الله. أما بقيّة البريّة فكانت لبني زهير الذين كانت لهم الحضر وكذلك بنو بكر بن حبيب (41).

أمّا الأراضي المتواجدة شرق دجلة، فلقد هاجرت إليها منذ العصر الأموي بعض العشائر إلى منطقة الزّابيين ومروج نينوى ولقد وصلت بعض منها إلى أذربيجان مع بقيّة المهاجرين العرب لكن لم يأخذ حضورهم طابعا مكثّفا فبقيت هذه المنطقة تحت نفوذ اليمنيّة في بداية القرن II هـ وتوجد إشارة في حرب تغلب وقيس لقدوم شعيب بن مليل مع تغلب والنّمر في ألفي مقاتل أثناء الحرب ولقد قتل معظم هؤلاء. وتذكر رواية لأبي عبيدة قدومه في ألفي مقاتل وفي رواية ثانية في شرح الأخطل ذكر أنّ تغلب أرسلت إلى مهاجرتها بأذربيجان، فأتاهم منها شعيث بن مليل في ألفي فارس وهو نمريّ (42).

أمّا تغلب الشمال فكان لهم مجالين كبيرين كانا تحت نفوذهم وهما :

* شمال الموصل إلى جبل الجودي بديار بكر وهي تمتدّ شرقا من الضّفاف الغربية لنهر دجلة وغربا إلى حدود منطقة نصيبين وتتبع تغلب في هذه المنطقة

---

(41) ديوان الأخطل : ج I ص 213 وج II ص 743.

(42) نفس المصدر ج I ص 72 والبلاذري : أنساب ج V ص 316.

عدّة مدن في العصر العبّاسي منها من تقع على ضفاف نهر دجلة كمدينة بلد وكانت تعتبر من قصباتهم واشتهرت بأنّها أحد مدن العدويين من آل عمر بن الخطّاب العدوي حيث كان ابنه أيّوب وحفيده إسحاق يملكون هذه المدينة منذ نهاية القرن II هـ (43).

وفي اتّجاه الشمال، ساهمت أسرة عمر بن الخطّاب العدوي في بناء مدينة جديدة وهي جزيرة ابن عمر وكانت قبلها قرية تدعى بازبدي ويبدو أن منشئها الحسن بن عمربن الخطّاب زمن المأمون عندما كان يعمل للخلافة في تلك المنطقة وهي قريبة من جبل الجودي و كان لها تاريخ زاهر منذ القرن III هـ (44).

ونحو الغرب فمن أبرز مدنهم برقعيد التي كانت قصبة تغلب في منطقة باعرباية الشهيرة وهي أحدالمجالات الرّئيسيّة لتنقل البدو بالجزيرة. واشتهرت برقعيد بأنّها قصبة آل عمر بن الخطّاب العدوي منذ عصر هارون الرّشيد وكانت لهم الزّعامة في تغالبة الشمال (45). بالإضافة إلى تلّ أعفر وباعيناثة.

وفي هذه المنطقة تتوفّر عدّة أراضي لتغلب أبرزها أراضي باعرباية وهي مجال ترحال قديم للعرب وتمتدّ نحو الشرق في أراضي فيسابور ومنطقة بازبدي

---

(43) الأزدي ص 328 و 350 وكتاب غندور : تاريخ جزيرة ابن عمر.

(44) كتاب غندور : تاريخ جزيرة ابن عمر تقديم جون موريس فياي - بيروت 1990 ص 59 ـ ص 61 وياقوت : معجم ج II ص 138 ويقدّم تاريخا متأخّرا عما ذكره غندور.

(45) الأزدي : نفس المصدر ص 326 و 327 و 350.

في غرب دجلة وباقردي شرق دجلة الى جبل الجودي ونهر الخابور الذي كان أحد روافد دجلة.

* **منطقة نصيبين وباعربابة** : وتمتدّ هذه الأراضي من برقعيد شرقا إلى مدينة رأس العين شرقا وتحدّها شمالا ديار بكر وهي كما رأينا منطقة ترحّل البدو تتميّز بسباسبها الممتدّة والتي تأتيها البدو في موسم الرّبيع للرعي. وتتميّز منطقة نصيبين والتي تمثل المنطقة الشماليّة لباعربابة بتوفّر المياه بها لوجود نهر الهرماس الذي ينزل من مرتفعات هضبة طور عابدين مع جداول كثيرة ومائدة جوفيّة هامّة توفّر للبدو القدرة على التصّيف بها مع جدب الجزيرة يبرز خصوصا في رأس العين حيث تتواجد فيها بحيرة عميقة ومنابع عيون متعدّدة ونفس الأمر يتوفّر في الأراضي الشماليّة بنصيبين (46).

وتعتبر نصيبين أهمّ مدينة لتغلب في الجزيرة سكنتها عشائر عديدة منهم في المدينة والقرى المجاورة لها. وسكنها أشرافهم والعشائر المسلمة حيث يذكر الأزدي في خبر ثورة الوليد بن طريف التغلبي الشاري أن لتغلب أعدادا وفيرة بالمدينة ويتبعون آل هشام بن عمرو من بني بسطام من بني زهير ويوجد بها بنو عمرو (47) ويسيطر التغالبة على قرى وأرياف نصيبين حيث كان العديد من

(46) DILLEMAN: Hte Mesopotamie orientale المقدّمة: وحول تغلب في منطقة نصيبين : الأزدي : نفس المصدر ص 282.

(47) الأزدي : نفس المصدر من ص 280 إلى 282.

الموالي الآراميّين يتبعون بالولاء هذه القبيلة كما يبرز في أحداث ثورة الوليد. ومن بين المدن والقرى التي توجد تحت نفوذ التغالبة أذرمة وتلّ فراسة ودارا شمالا ودُنيسير وكفرتوثا التي توجد على الطّريق الشهير بين الموصل ونصيبين ومنبج واعتبرت طيلة هذه الفترة قصبة الخوارج من ربيعة وتغلب وكذلك رأس العين وكانت تتقاسم فيها السيطرة تغلب مع تميم وبعض مجموعات ربيعة خصوصا من شيبان وتمثّل رأس العين بأراضيها وينابيع مياهها الغزيرة أحد نقاط المياه الرّئيسيّة للبدو والقوافل التجاريّة المتّجهة إلى العراق أو الشام كما كان لتغلب بعض حصون المنطقة كحصن ماردون أو ماردين شمال نصيبين (48).

وهذا التواجد في قرى ومدن المنطقة كان متأخّرا، حيث أدّت أسلمة بعض عشائرها الى انتقالها للمدن لخدمة الدّولة والدّخول في الأنشطة التجاريّة المربحة بها لما تتواجد فيها من أسواق وحركيّة تجاريّة كما يبرز من خلال موقع نصيبين وبلد ورأس العين على الطّريق الرّئيسي الذي يربط الشرق بالشام. بينما بقيت معظم العشائر التّغلبية خصوصا منها النّصرانيّة بدوية مقيمة في أرياف منطقة باعربابة لكن تدين بالولاء لأشرافها المقيمين في هذه المدن. واعتمد هؤلاء الأشراف على مجموعتهم البدويّة لممارسة نفوذهم على المجموعات الحضريّة بالجزيرة والعمل

(48) حول هذه المدن والقرى ... ابن حوقل : معجم ياقوت الحموي والأزدي وكفرتوثا ص 70 ورأس العين ص 70 و 196 وص 338 ودنيسير ص 251 ودارا ص 70 و 275 وماردين ص 84 و 275.

للسّلطة بفضل القوّة الحربيّة التي تمثّلها قبيلتهم.

2) أشراف تغلب وبروز الزّعامات المحليّة:

تبرز الجزيرة في المصادر العربيّة الإسلاميّة في بداية القرن IV هـ كمجال لزعامة تغلب مع بروز الإمارة الحمدانيّة التي تنتهي لهذه القبيلة. لكن سبق نشأة هذه الإمارة التغلبيّة مجموعة من الزّعامات المحليّة ترجع لهذه القبيلة مثّلت في فترة بحثنا أحد السّمات الرّئيسيّة للوضع الإجتماعي بالمنطقة.

والملاحظ أنّ الزّعامة في تغلب بقيت في الخلافة الأموية بين الأشراف المسيحيّين حيث تذكر في رواية لقيسيّي الرّقّة في حربهم ضدّ تغلب أنّ ما هاج تغلب على قيس هو سخريتهم من مشايخهم من النّصارى فهاج ذلك بينهم شرّا (49).

وفي حرب قيس يبدو أنّ كلّ المجموعات كانت تدين لأشرافها المسيحيّين وحتّى من أسلم منها كشعيث بن مليل الذي كان خارجيّا لم يمنعه ذلك أن يحارب مع قومه تحت إمرة النّصارى وكان زعيمهم عبد يسوع بن حرب وهو سيّد تغلب زمن عبد الملك (50).

---

(49) البلاذري : أنساب ج V ص 314.

(50) نفس المصدر ج V من ص 314 إلى 318 وابن الكلبي : نفس المصدر ص 567 و 568.

ويرجع سبب بقاء النصرانيّة بين أشراف تغلب إلى تسامح الأمويّين مع تغلب التي كانت في خدمتهم خصوصا في عهد عبد الملك الذي كان يرحّب بالأخطل وزعماء تغلب ويكرمهم وكان هذا الشّاعر يدخل عليه مخمورا وحاملا الصّليب دون أن يمنعه من ذلك (51).

وباستثناء بعض التشدّد على رؤسائهم من قبل الوليد بن عبد الملك أو أخوه اليزيد فإنّ الزّعامة بقيت بين النّصارى في هذه الفترة.

لكن مع نهاية الحكم الأموي وخصوصا مع الخلافة العبّاسيّة ونتيجة للتشدّد على الأشراف المسيحيّين من تغلب، اتّجه اهتمام الخلفاء الى الأسر الإسلامية من بني تغلب والتي كان معظمها ضمن المجموعات الحضريّة التي تأثّرت بالدّعوة الإسلاميّة واستغلّت أسلمتها لأخذ الزّعامة في قومها وتأطير مجموعتها وخدمة الدّولة.

وإنّنا خيّرنا تحليل ثلاثة بيوتات تغلبيّة، مثّلت أهمّ الزّعامات في الجزيرة وهم بنو بسطام والعدويين وبني العتّاب.

بنو بسطام : وهي أسرة تغلبيّة من بني كعب بن زهير ويرجع أصلهم الى السّفاح بن خالد. وكان جرّارا للجيوش في الجاهليّة، وكانوا مقيمين بين نصيبين والموصل ويبدو أن بني بسطام الموصليين هم الذّين برزوا في الأوّل في نهاية

(51) الأصفهاني : الأغاني ج VII ص 150 وديوان الأخطل فيه مدح لعبد الملك في عدّة أشعار.

الحكم الأموي ويبدو أنّهم أسلموا بالموصل وقادوا تغلب هذه المدينة والمجموعة النّزاريّة بها مع هشام بن عمرو بن بسطام والذي أحرز ثقة الخليفة مروان بن محمّد وأصبح والي الموصل بعد إنهاء الحضور الخارجي بها سنة 129 هـ وكان على الخراج بشر بن خزيمة الأزدي ولم تمنع خدمته للدّولة الأمويّة ليحرز على ثقة العبّاسيين بسبب تسويده بعد هزيمة مروان ودخوله في خدمة الدّولة العبّاسيّة مع ولاية أبو جعفر على المنطقة مع إخوته ولقد كلّف المنصور صاحب رواية هذه الحرب هشام بن عمرو التغلبي بمحاربة عبد الله بن علي مع أبي مسلم وله رواية هذه الحرب (52).

ولم يكن هشام وحده يعمل للمنصور، بل كذلك أخوته كمعاوية الذي كان له قصرا في الموصل ويحضى بنفوذ بين قومه بها وسفنّج وبسطام (53) وكوفىء هشام لخدمة المنصور بأنّ ولاّه الموصل كنائب لابنه جعفر سنة 145 هـ ثمّ تولّى خطة والي السّند سنة 151هـ ، حيث ذكر الطّبري رواية طريفة تبرز مكانة هشام في حاشية المنصور. حيث عرض هشام على الخليفة أخته ليتزوّجها لكن رفض هذا العرض خوفا من أن يعيّر بالزّواج من تغلبيّة وذكر بيتا متداولا بين العرب :

لا تطلبنّ خؤولة في تغلب **** فالزّنج أكرم منهم أخوالا

(52) الطّبري : نفس المصدر : ج VIII ص384 و 385.

(53) الأزدي : نفس المصدر ص 76 والبلاذري : فتوح ص 421 و 433 وابن الأثير : الكامل ج ٧ ص 57 و 61 وابن الكلبي : نفس المصدر ص 571.

وبالمقابل عرض عليه ولاية السّند ترضية له. فخرج مع قومه إلى السّند يصاحبه أخوه سفنّج ليتولّى خطّته إلى سنة 157 هـ (54).

وبقي بنو بسطام يعملون للخلافة في الجزيرة لكن دون ذكرهم في خطط رئيسية وبارزة حيث ذكر الاصفهاني في خبر الشاعر العتّابي التغلبي أنّه هجى عبد الله بن هشام بن بسطام الذي كان يعمل للسّلطان عندما جرّد السّيف في ربيعة وذكر في رواية للأزدي أنّ ابنه جعفر اشترى من الخوارج نصيبين بعد أن أباحوها وأكثروا فيها قتل التغالبة (55) وما بين الرّوايتين تفترضان أن يكون آل بسطام بقوا في خدمة الدّولة وحافظوا على نفوذهم بين تغالبة الشمال جعلت جعفر يتفاوض باسمهم مع الخوارج للانسحاب من نصيبين لكن بالمقابل أدّى عملهم للعبّاسيين في ظرفيّة صراع هذه الدّولة ضدّ بني تغلب وشيبان أثناء إقامة الرّشيد بالجزيرة وتجريدهم السّيف في هذه المجموعة الرّبيعيّة أن أضعف من مكانتهم بين قومهم وجعلهم محلّ انتقاد من قبيلتهم نجد لها صدى في شعر العتّابي. ولذلك لا نجد منذ عصر المأمون حديثا عن آل بسطام لظهور بيوتات أخرى تزاحمهم في زعامة تغلب وأبرزها بيت العدويين.

يمثّل آل عمر بن الخطّاب العدوي البيت الثاني الذي سنحلله، حيث برزوا في خدمة السّلطان منذ عصر الرّشيد في ظرفيّة صراعه ضدّ يمنية الموصل ورغبته

(54) الطّبري حول ولاية السند : نفس المصدر ج VIII من ص 609 إلى 611 وص 628 وحول نيابته لولاية الموصل : تاريخ اليعقوبي ج II ص 384.

في الإعتماد على زعامات نزارية كالشيبانيين وآل عمر بن الخطّاب التغلبيين وكان آل الخطاب العدويّين مقيمين ببرقعيد وهي من المدن المجاورة للموصل كما رأينا ولهم حُلفاءهم بين أكراد شمال شرقي الجزيرة والزّعامة بين تغالبة الشمال وأول من دخل في خدمة الدّولة العبّاسيّة، كان يزيد بن الخطّاب العدوي قبل أن يبرز عمر بن الخطّاب في العمل للعبّاسيّين وكان مقيما بحرّان. وإقامته بها تفترض أن يكون يعمل لوالي الجزيرة منذ مدّة وهو الذي ساهم في إدخال العدويّين في خدمة الولاة العبّاسيين على غرار ابنه عبد الحميد وأخوه عمر بن الخطّاب. ولقد كلّف الرّشيد حفيده عبد الكبير بن عبد الحميد بن يزيد بن الخطّاب بولاية أرمينية خلفا ليزيد بن مزيد فحمل إليها «جماعة من أهل ديار مضر» ولم يحدّد اليعقوبي من أيّ قبائل لكن يبدو أنّهم خليط من الرّبابعة والقيسيّة وحسب رواية اليعقوبي فإنّ ما قام به بن مزيد وعبد الحميد ساهم في دعم النّزاريّة بأرمينية على حساب اليمنية (56).

ومع خلافة الأمين وفي ظرفيّة دعم يمنية الموصل للمأمون سعى هذا الخليفة الى تولية الحسن بن عمر بن الخطاب في خطّة والي الموصل سنة 197 هـ وخلافا للرّوايات اليمنية التي تدّعي إنكاره لنسبه النّزاري وتملّقه لليمنيّة فإنّه يبرز صاحب نفوذ قويّ بشرق الجزيرة جعلته يتولّى هذا الخطّة لكن دون أن يحاول مواجهة اليمنيّة مدّة ولايته ثمّ أصبح يعمل للخليفة المأمون كعامل لطاهر بن

(55) حول هجاء العتّابي : الأصفهاني الأغاني : ج XIII ص 118 و119 وحول جعفر بن عبد الله الأزدي : نفس المصدر ص 282 وتاريخ ابن خيّاط تحقيق أكرم ضياد العمري المجمع العلمي العراقي ط 19671 ج I ص 485 إلى 487.

(56) تاريخ اليعقوبي دار صادر بيروت 2 ج 1960:ج II ص 426 و 427.

الحسين مع إخوته (57) ويساهم العدويّون بنفوذهم الذي يبرز في قيادتهم لآلاف المقاتلين من تغلب والأكراد في فضّ النّزاعات القبليّة خصوصا في الموصل وحفظ الأمن.

وكانوا أربعة إخوة لهم مسؤوليّات مختلفة في صلب الخلافة وهم :

- أحمد بن عمر بن الخطّاب كان صاحب حصن حبتون في جبال كردستان وله حلف مع جعفر بن فراهيد الكردي ويقيم أحيانا في الموصل وبرز بحصاره للموصل من دير الأعلى وفرض على اليمنيّة الصّلح مع نزاريّة المنطقة في 202 هـ (58).

- الحسن بن عمر بن الخطّاب : ذكرنا أنّه كان والي الموصل ثم أصبح عاملا لطاهر بن الحسين في شمال شرقي الجزيرة وهو صاحب النفوذ بين العدويّين مصاهرا لمالك بن طوق التغلبي الذي كان يترأّس تغالبة الجنوب فجمع النّفوذ بين كلّ عشائر تغلب وبقي الشّرف والنّفوذ بين نسله حيث أن حفيده هيثم بن عبد الله بن الحسن أصبح والي الموصل سنة 248 هـ وهو كذلك الذي أنشأ مدينة جزيرة ابن عمر على اسمه أثناء عمله للمأمون بمنطقة بازبدي وباقردي وكان له حلفاءه الأكراد المقيمين على مشارف جبل الجودي (59).

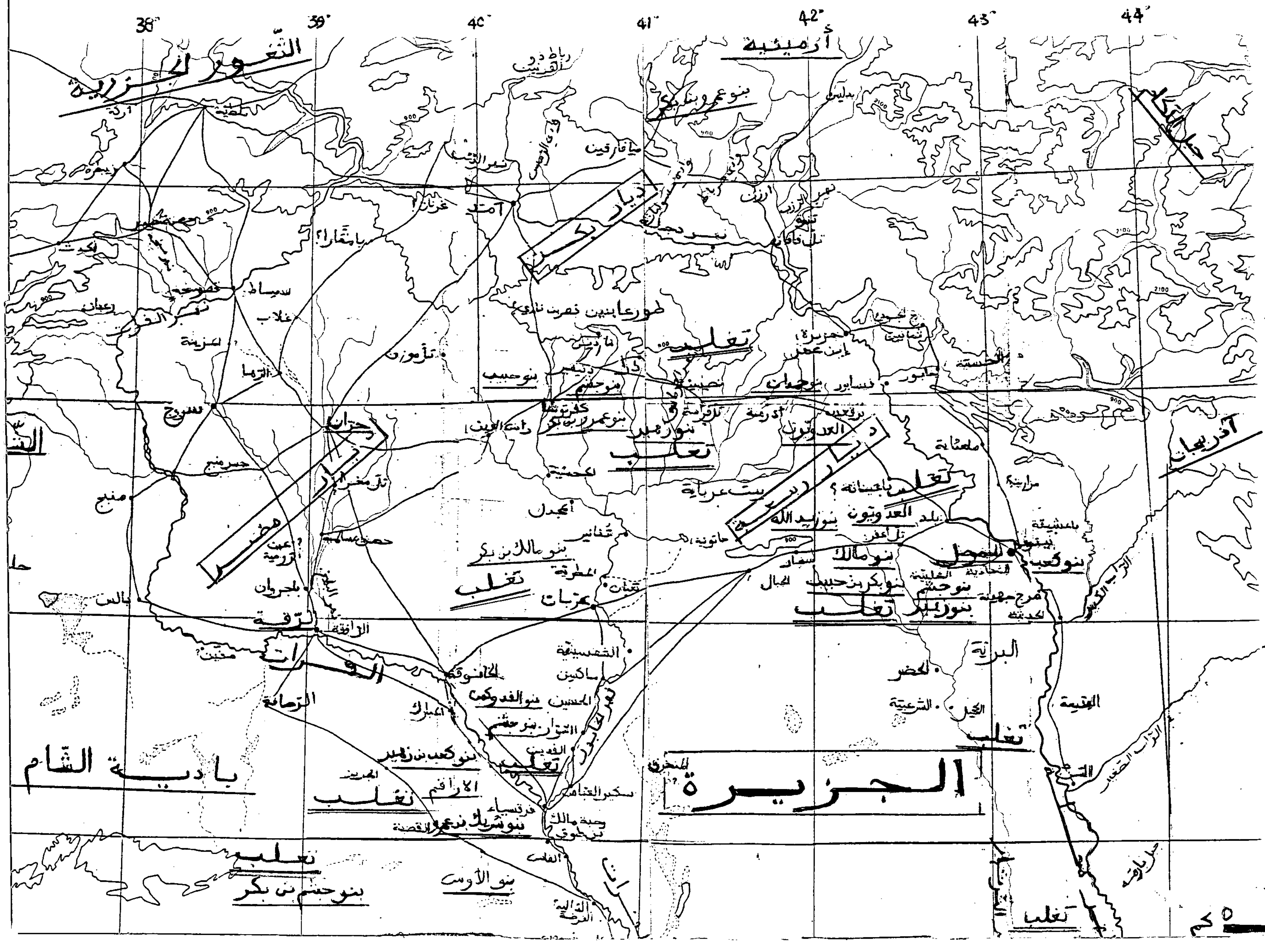
---

(57) الأزدي : نفس المصدر ص 236 و327 وص 366 وابن عبد ربّه العقد الفريد تحقيق أحمد أمين القاهرة 1940 ج I ص 50 وابن خلكان : وفيات الأعيان تحقيق إحسان عبّاس - دار صادر بيروت 1971 - ج III ص 349 و 350.

(58) الأزدي : نفس المصدر ص 366.

(59) نفس المصدر ص 326 و 327 وص 350 وكتاب غندور : نفس المرجع ص 59 - 61.

خريطة مواطن عشائر تغلب بالجزيرة في بداية القرن الثالث هـ



المرجع : بتصرف
Cornu : Atlas du monde
Arabo-islamique à
l'époque classique
Carte de Djezira

المقياس
0 50 100 150 200 كم

- عبد العزيز بن عمر بن الخطّاب : كان مقيما ببر قعيد ويبدو أنّه تولّى المدينــة ونواحيها بعد انتقـــال الحسن الى مدينة جزيرة ابن عمر وكان له النفوذ بها (60).

- أيّوب بن عمر بن الخطّاب : كان يشرف على مدينة بلد ونواحيها والتي توجد على غرب نهر دجلة وكانت أحد المحطّات الرّئيسيّة للقوافل التجاريّة حيث كان عاملا لأخيه الحسن عليها وكان له حلفا مع بني الهرّاز الأكراد إستغلّه إبنه إسحاق ليكون له النّفوذ بالمنطقة في منتصف القرن III هـ (61).

أمّا البيت الثالث فهم بنو شريك بن عمرو التّغالبة : ولقد برز هذا البيت مع طوق بن مالك أثناء خلافة الرّشيد، حيث أختار هذا الخليفة أثناء إقامته بالرّقة وهو أحد أشراف تغالبة الجنوب المقيم بالرّحبة من حيّ بني عمرو لتولّي خطّة طريق الفرات والذي يربط الرّقّة بعانة والعراق عبر الانبار وهي خطّة هامّة تدلّ على ثقة الخليفة فيه ولم يمرّ ذلك التّعيين دون حزازت من أشراف تغلب والذين عارضوه لقبوله هذه الخطّة في ظرفيّة تجريد الخلافة السّيف في ربيعة ويبرز ذلك في مخاطبة طوق للشاعر العتّابي «أما ترى عشيرتك ؟ كيف تدلّ عليّ، وتتمرّغ وتستطيل، وأنا أصبر عليهم، فقال العتّابي أيّها الأمير، إنّ عشيرتك من أحسن عشرتك ...» (62) وكلّف كذلك بمحاربة الخوارج برازان (63).

---

(60) ابن خلكان نفس المصدر ج III ص 349 و 350.

(61) الأزدي نفس المصدر ص 88.

(62) الأغاني : ج XIII ص 116 إلى 117.

(63) الأزدي : نفس المصدر ص 311.

وحول نسب طوق بن مالك، فلقد أبرزنا سابقا أنّه من بني عمرو بن كلثوم الشاعر الجاهلي ومدح طوق وابنه مالك على هذا النّسب وكان أحد أشراف بني عتّاب بن زهير بن جشم من الأراقم.

وكان يتولّى خطّته من الرّحبة التي كانت أحد قرى قرقيسياء فيها قصبة أشوريّة قديمة جدّدها طوق أو ابنه مالك وبقي يمارس خطّته على طريق الفرات مدّة تتجاوز 25 سنة إلى أن عزل عنها زمن المأمون بسبب ظلمه وتعدّيه على أحد الأسر العربيّة بها سنة 216 هـ وتوفّي في نفس السّنة (64).

ولم يمنع ذلك من بقاء النّفوذ في بني عتّاب حيث برز مالك ابن طوق في خدمته للعبّاسيين وكان في الأوّل يعمل مع أبيه طوق في الحملات على الخوارج وفي خطّة عامل على طريق الفرات ثمّ أصبح سنة 214 هـ والي الموصل للمأمون ورغم انتمائه لتغالبة الجنوب فانّه تولّى هذه الخطّة في مجال تغالبة الشمال بسبب مصاهرته للحسن بن عمر العدوي زعيم تغلب الشمال وكان متزوّجا لأخته منذ أن كان في الرّحبة وإثرها رجع إلى خطّة أبيه على طريق الفرات مع وفاته سنة 216 هـ وبقي بها مدّة طويلة إلى منتصف القرن III هـ وحسب الرّوايات المتعدّدة التي تناولت سيرة مالك بن طوق فإنّه كان نبيلا وجليلا وأحد أبرز أشراف العرب في عصره لكنّه بالمقابل تعرّض إلى معارضة شديدة من بعض العشائر التغلبيّة ومن المضريّة يبرز ذلك في قصائد الهجاء النّابية للشاعر

(64) نفس المصدر ص 406 و ص 407.

المضري دعبل بن علي والتي أدّت إلى اغتياله من قبل أحد رجال مالك بن طوق ! (65).

وبعد التّحليل لهذه الأسر التغلبيّة التي حالفت العبّاسيين يحقّ لنا القول أنّ بروز ظاهرة الأشراف المسلمين قي بني تغلب بين أعظم عشائرها تدلّ على تطوّر ظاهرة الإندماج الإجتماعي لهذه المجموعة بعد أن عانت التهميش والاحتقار .

كما أبرزناه في بعض الأقوال وأبيات الشعر بسبب نصرانيّتها. فارتأى أشرافها أن يدخلوا إلى الإسلام وفي خدمة الحكم القائم منذ نهاية العصر الأموي وخصوصا في العصر العبّاسي للحفاظ على مكانة قومهم بالجزيرة ونفوذهم الذي بدأ يتراجع مع تطوّر طموحات القبائل العربيّة المهاجرة للجزيرة.

فكانت استراتيجيّة أشراف تغلب تهدف عبر تبنّي الايديولوجية الإسلاميّة والعمل للسّلطة الى الحفاظ على مواقعها وتكوين زعامات محليّة ستتطوّر في نهاية القرن III هـ إلى نشأة إمارة تغلبيّة وهي الإمارة الحمدانية.

ويمكن كذلك الاستنتاج أنّ اشراف تغلب لم يعتمدوا على أبناء قبيلتهم فقط لممارسة نفوذهم بالمنطقة بل تحالفوا مع المجموعات الرّبيعيّة وخصوصا من

(65) الأزدي : نفس المصدر ص 395 إلى 399 وص 406 إلى 407 والأغاني : ج XX في أخبار دعبل ص 184 إلى ص 189.

التّمر بن قاسط التي بقيت حليفة تغلب عبر العصور وبعض العشائر البكريّة وفي بعض الحالات بعض المجموعات المضرية. لكن بقي أهمّ حلفاءهم العشائر الكرديّة المجاورة لتغلب في شمال شرقي الجزيرة الذين دخلوا عبر الموالاة في خدمة هؤلاء الأشراف وتطوّر هذا التّحالف بعد ذلك مع العدويّين في الأوّل ثم مع الحمدانيّين لإنشاء حكم محلّي ونفوذ قويّ بالمنطقة مقابل تعزيز حضور الأكراد بالجزيرة التي تحوّلت تدريجيّا بعد ذلك إلى مجال نفوذ يتقاسمه العرب مع الأكراد.

لكن هذا التحليل لا ينفي بقاء بعض عشائر تغلب وفيّة للمسيحيّة كما أبرزته الباحثة سلوى العايب، حيث حافظت الى حدود القرن ٧ هـ على تميّزها الدّيني رغم تعزّز حضور الإسلام بينهم (66).

ونجد إشارة في الأزدي تؤكّد بقاء بعض الأشراف على المسيحيّة وتزعّم قومهم في العصر العبّاسي عندما ذكر قتل روح بن صالح صاحب خراج الموصل وصاحب صدقات بني تغلب من قبل عشائرها المسيحيّة بقيادة حرقل بن محجن من بني مالك في البريّة سنة 171 هـ (67) لكن لا نجد أثرا في بقيّة المصادر سواءا منهم النسّابين أو المؤرّخين ذكرا لبني محجن، ممّا يدلّ على تهميش السّلطة

(66) أطروحة سلوى العايب : تغلب بين المسيحيّة والإسلام. جامعة تونس ش.د.ب 1988

(67) الأزدي : نفس المصدر ص 267 و 268.

للأشراف المسيحيّين وعدم إستعمالهم في الخطط الإداريّة والعسكريّة وهو ما أضعف مكانتهم بين قومهم وجعل حضورهم في مسرح الأحداث هامشيّا.

أمّا الإستنتاج الآخر فإن المصادر ذكرت أنّ قبيلة تغلب عرفت تراجعا لنفوذها في الجزيرة مع بداية القرن III هـ تسبب في اضعافها وتراجع حضورها في بعض نواحي الجزيرة كمنطقة ماردين وسنجار وبلد بسبب الحرب الخطيرة التي حدثت بين عشائرها أو ضدّ بعض القبائل الربيعيّة تواصلت الى عصر المتوكّل يشير إليها البحتري في شعره (68).

من نتائجها تراجع حضور تغلب من بعض النّواحي بالجزيرة لصالح مجموعات قبليّة منافسة وظهور تيّار معارض داخل القبيلة لحمل بعض زعاماتها في أجهزة الدّولة كما برز لنا من خلال تحليل شخصيّة مالك بن طوق وبرز هذا التيّار المعارض في صراع بعض عشائرها في منطقة قرقيسياء ضدّ حلفاء مالك. كما برز هذا التيّار المعارض في تورّط بعض عشائر تغلب في دعم الحركة الخارجيّة في القرن III هـ مع جموع ربيعة ومشاركتها هذه الثورات الكبرى الخارجية بالجزيرة منذ النّصف الثاني من القرن III هـ.

---

(68) ديوان البحتري: 1963 . ج II ص 1296 . 1301 تحقيق وشرح حسن كامل الصّيرفي دار المعارف 3 ج القاهرة وكتاب MARIUS CANARD : Histoire des Hamdanides des Djazira et de Syrie . - Université d'Alger 1951.

3) المميّزات الحضارية لتغلب :

برزت من خلال المصادر الاسلامية تميّز تغلب الحضاري عن بقية القبائل العربيّة بالجزيرة ويرجع هذا التميّز أساسا الى :

- نصرانيتها حيث أثرت المسيحية في سلوكيات أفرادها وتميزهم عن بقية العرب المسلمين.

- إقامتها الطويلة في الجزيرة بعيدا عن موطنها الاصلي لشبه الجزيرة العربية جعلها تغيّر نمط حياتها الاجتماعي والاقتصادي .

وأخبرتنا المصادر ان بني تغلب حافظوا على نشاطهم الرعوي مع اقامتهم بالجزيرة وتعلموا بها ممارسة النشاط الزراعي والتجارة واستوطنوا بها بعض المدن في الفترة الاسلامية.

ولقد ذكرنا سابقا ان بني تغلب كانوا بدوا عند هجرتهم للجزيرة وأهمّ أنشطتهم هي :

الرّعي : برزت من خلال ديوان الاخطل وبعض المصادر التاريخة حفاظ تغلب على نشاطها الرعوي وتميّز التغالبة بتربية أنواع من الابل خاصة بهذه القبيلة وكانت معظم عشائرها قد بقيت بدوية راعية للإبل في السباسب الجزرية الشاسعة بمنطقة باعربايةَ والبرية والفرات الاوسط وفي رواية للسكري ترجع الى المدائني في شرحه لشعر الاخطل ذكر ان تغلب بدوا بالجزيرة لا حاضر لها الا قليل بالكوفة [69] وهي رواية ترجع الى فترة الفتنة الثانية عندما كان هذا النشاط

69- ديوان الاخطل ج I ص 72

أساسيا لهذه القبيلة.

كما يطنب الاخطل في وصف أنواع الجمال التي ربّتها تغلب وتميّزها عن الأنواع الأخرى من الجمال العربية ويذكر الاخطل في احد اشعاره :

أراعك بالخابور نوق وأجمال *** ودار اعفّتها الريح بعدي بأذيال [70]

ويبدو ان حفاظها على نشاط رعي الإبل يرجع الى تعلقها باصولها العربية وشرفها بانتماءها الى القبائل الكبرى العربية بالاضافة الى الدور الاقتصادي الذي لعبته الإبل في التجارة القوافلية بالهلال الخصيب وما كانت تجنيه تغلب من مشاركتها فيه بالاضافة الى بيعها المواشي في أسواق المنطقة.

ويبدو ان تغلب اصبحت ترعى بالجزيرة الماعز والغنم.

ولقد ذكر الاصفهاني ان قوم الاخطل كانوا يرعون الماعز [71].

وتميّزت تغلب في فترة بحثنا بتربيتها الخيل العربي الاصيل حين ذكر المستشرق الفرنسي كانار ان قوم حمدان بن حمدون جد بني حمدان في بر قعيد وسط الجزيرة اشتهروا قبل منتصف القرن الثالث هجري بتربية الخيل باعداد كبيرة والمتاجرة بها وأدى ذلك الى اثراءهم الفاحش بالمنطقة [72].

ويبدو ان تربية الخيل تطورت في الفترة الاسلامية لأهمية الحاجيات

70- الأغاني : ج 7ص 178 وديوان الاخطل حيث تتعدد الاشارات لذلك منها في ج I ص 152و 357

71- الاغاني : ج 7 ص 170

72- كانار : نفس المرجع ص 290

العسكرية لجند الخلافة في حروبهم ضد البيزنطيين وكانت سباسب الجزيرة الشاسعة مجال رعي ممتاز للخيل فكانت تربية الخيل تدر على قبيلة تغلب مداخيل هامة تبيعها في اسواق الجزيرة للمقاتلين وهي توفر لتغلب قدرات حربية متميزة جعلت هذه القبيلة تلعب دورا سياسيا هاما في الجزيرة ولها القدرة على التصدي للقبائل العربية الكبرى كشيبان وقيس للحفاظ على وجودها بارض الجزيرة .

وكل هذه الاشارات تدل على أهميّة النشاط الرعوي في اقتصاد هذه القبيلة لكنه ليس النشاط الوحيد.

ب) النشاط الزراعي :

نظرا لانتشار تغلب على ضفاف الانهار الكبرى وروافدها الهامة منهم الثرثار ونهر الخابور كما رأينا في المنطقة أو بيت عرباية ونصيبين الغنية بالقيون وضفاف الفرات والضفة اليسرى لدجلة جعلت تغلب بعد اقامتها بالجزيرة تتجه لممارسة الزراعة وبيرز ذلك واضحا في قول زرعة بن النعمان التغلبي عند وصفه لعمر بقوله « انهم اصحاب حروث ومواشي [73] وذكرنا ان بني زيد كانوا مزارعين .

كما وصف الاخطل جودة كروم عانة التي كانت لتغلب حيث كانت تعطي اجود الخمور في الجزيرة والعراق [74] وتباع خمرها في العراق والجزيرة والشام.

73 - البلاذري : فتوح ص 187

74 - ديوان الاخطل ج I ص 310

ج) التجارة والملاحة :

كانت تغلب مستوطنة لمنطقة تشقها اهم الطرقات الرابطة للشرق بالمجال المتوسطي وشاركت تغلب في التجارة القوافلية والنمرية اذ كانت تقوم بالملاحة النهرية لنقل بضائع ارمينية والجزيرة والشام الى العراق عن طريق الفرات وأساسا دجلة ويصف الاخطل الملاحة النهرية على الفرات [75]. ولعبت بذلك تغلب دورا تجاريا هاما في ربط الاقتصاد الرعوي بالاقتصاد الزراعي ورأينا في اشارة سابقة الى سوق دوغان الذي كل لتغلب بمنطقة الخابور وكذلك كانت بمدينة الموصل ونصيبين اسواقا تقوم فيها تغلب ببيع ماشيتها والبضائع التي كانت تجلبها من الشام والعراق ويبدو ان زعماء عشائرها استفادوا من ذلك وكانوا اصحاب ثروات كبيرة حيث ذكر الازدي ان جعفر بن عبد الله بن هشام بن عمرو التغلبي تدخل لدى الوليد بن طريف الشاري لفدية اهالي نصيبين لينسحبوا منها [76] كما ذكر كانار الثروة والنفوذ لأسرة حمدان بن حمدون ببرقعيد نتيجة لمتاجرتها في الماشية وضيعاتهم المتعددة [77] .

د- عاداتهم الاجتماعية :

تميزت العروش المسيحية من تغلب بممارسة الطقوس الدينية للمسيحيين ، حيث كانوا يحملون صلبانا من ذهب وكانوا يحجون سنويا الى الرصافة حيث قبر

75- نفس المصدر : ج I ص 310

76- الأزدي : نفس المصدر : ص 299

77- كانار : نفس المرجع : ص 290

سرجيوس الذي اعتبرته وليها وقديسها وتحمل رايته في معاركها [78] وتميّزوا بتحرر نساءهم وكذلك باكلهم للحم الخنزير وشرب الخمر رجالا ونساءا لذلك كانوا يعيرون بالاعلاج ووصفهم بنبيط تكريت [79] .وظهرت احكاما فقهية تحرم اكل ذبائحهم وعدم نكاح نسائهم [80].

أمّا العشائر الاسلامية من تغلب فيبدو انها تخلت عن هذه العادات النصرانية واتبعت العادات والسلوكيات الاسلامية وابرزنا من خلال تحليل اشراف تغلب تاقلمهم بسرعة في المنظومة الاسلامية رغم حداثة دخول عشائرهم للاسلام لما يجمعهم مع بقية العرب من قواسم لغوية وحبهم للشعر وتميزهم في ذلك وحفاظهم رغم نصرانيتهم على أخلاق البدو والنزعة الحربية لديهم والجود والكرم كما برز لنا من خلال تحليلنا لأسرة آل طوق بن مالك والعدويين ولقد ذكر كانار ان الحارث اب حمدان بن حمدون الذي عاش في النصف الاوّل من القرن الثالث هجري كان يدفع دية القتلى في الحروب الطاحنة التي وقعت بين عشائر تغلب وخصص لذلك مبالغ هائلة [81] كما ذكرت المصادر ومن بينها الازدي شغف مالك بن طوق بالشعر وجلبه للشعراء من مختلف الاقطار لمدحه [82].

لكن أدى انتشار الاسلام بين بعض عشائرها الى تفكك وحدتها حيث أصبحت

78- البلاذري انساب ج 5 ص 319
79- نفس المصدر ج 5 ص 318
80- البلاذري : نفس المصدر ص 164
81- كانار نفس المرجع ص 290
82- الازدي : تاريخ الموصل ص 395-399

العلاقة بين العشائر المسلمة والمسيحية متوترة بينهم لعدم مساندة الاولى لنصارى تغلب عندما تعرضوا الى القتل من قبل يمنية الموصل سنة 171 هـ [83].

وكذلك في المقتلة الكبيرة التي قام بها خوارج تغلب بقيادة الوليد بن طريف ضد تغلب النصارى في نصيبين. ويرجع هذا التوتر الى اتباع العشائر التي اسلمت في معظمها للمذهب الخارجي. بينما اتبعت بعض العشائر الاخرى المذهب السني كعشيرة مالك ابن طوق. وأشرنا الى الخلافات الحادة التي شهدتها تغلب مع بداية القرن الثالث هجري. والتي أدت الى اضعافها وتراجع نفوذها على بعض مناطق الجزيرة . ففقدت هذه القبيلة تجانسها الديني ووحدتها عما كانت عليه زمن الفتح الاسلامي.

83-نفس المصدر ص 268-269

III) حضور الأكراد والأرمن بالجزيرة : مجموعات الأطراف :

1) الأكراد وبوادر التأسيس لهويتهم بالجزيرة :

تعتبر منطقة الجزيرة حاليا بلاد الأكراد أساسا خصوصا في قسمها الشرقي التّابع للعراق والقسم الشمالي التّابع لتركيا ويسميّها الأكراد «كردستان» أي بلاد الأكراد.

ولم يكون الوضع السكّاني في القرن II و III هـ على تلك الحالة. لأنّ الحضور الكردي كان في أطراف المنطقة الشرقية للجزيرة ولم يكن لهم حضورا مكثّفا إلاّ في عمالة شهرزور وعمالة باقردي. وكانوا قبائل جبليّة على مشارف منطقة سهليّة يعيشون على هامش التّاريخ لكن لا يعني ذلك أنّهم كانوا شعبا أجنبيّا عن الجزيرة لأنّ حضورهم حسب دراسات مينورسكي المختصّ في تاريخهم يرجع إلى أقدم العصور إستوطنوا المنطقة على سفوح جبال زاقروس (1) وهم إثنيّا يختلفون عن أهالي الجزيرة السّاميّين لأنّهم من العناصر الفارسيّة على المستوى اللّغوي والتّاريخيّ وقدموا إلى الجزيرة من فارس شرقا في موجات متتاليّة ليستوطنوا جبال الجزيرة وذكروا في مصادر مختلفة بتسميّات مختلفة منها ما ذكره كزينوفون في IV ق م ان أحد القبائل الفارسيّة المقيمة شمال الجزيرة تسمّى بكردوكي وأصبحت تسمية لمنطقة غرب دجلة قرب جبل الجودي عرفت عند الآراميّين بعد ذلك ببيت كردو... وفي المصادر الإسلاميّة بباقردي

وتعني وطن الأكراد وكان موقع جزيرة ابن عمر قبل بناءها تعرف بجزيرة الأكراد (2) ويبدو أنّ الفاتحين المسلمين أجروا هذه التّسمية لأحد القبائل الفارسيّة على كلّ الشعب الجبلي باسم الأكراد والذي يمتدّ حضورهم بين أقاليم الجبل وهمدان واذربيجان وأرمينية والجزيرة (3).

ويبرز مينورسكي النّقاش الذي جرى بين المؤرّخين حول الأصول الإثنيّة لهذا الشعب مبرزا أنهم من القبائل الفارسيّة الرّحّل اتّخذوا إسم أحد قبائلهم وهي قبيلة «كردو» ولا يعني ذلك أنهم بقوا على ذلك إذ أنّهم اختلطوا مع العناصر الجبليّة المحليّة ومع الأرمن والسّاميّين خصوصا البدو العرب، وهذا ما جعل بعض المصادر الإسلاميّة ترجعهم إلى أصل عربي ! حيث اعتبر المسعودي أنّ بعض الأكراد يدّعون أنهم من بني ربيعة بن نزار ويذكر الفارقي أن لهم أصولا مضريّة (4).

لكن يبدو أنّ هذه المصادر خلطت بين تجاورهم ومصاهرتهم لمجموعات من القبائل العربيّة لتحشرها في نسبها كما فعلت مع البربر ببلاد المغرب عندما

EI2

(1) ال... مقال: «كرد» لمينورسكي ج V ص 441 - 467 ويقدّم بيبليوغرافيا ضافية لمختلف الدّراسات التي تناولت بالبحث تاريخ الأكراد.

(2) ... غندور: تاريخ جزيرة ابن عمر ص 228.

(3) غندور: نفس المرجع ص 227 و228 يقدّم ما روته المصادر العربيّة عن أصول الأكراد بالإضافة إلى Dilleman: Hł Mesopotamie Orientale p. 91-92.

(4) المسعودي: مروج الذّهب ومصادر الجوهر تحقيق شارل ببلا بيروت 6 أجزاء ط 1: ص وكانار نفس المرجع ص 132 و 133.

حشر نسبهم بالعرب اليمنيّة ومن المحتمل كذلك أنّ بعض العشائر الكرديّة المأسلمة ربطت نسبها بالعرب للحصول على الوجاهة والحضوة بين أهالي المنطقة.

وخلاصة القول، أنّ الهويّة الكرديّة، لم تبرز بوضوح في هذه الفترة رغم ذكرهم في المصادر منذ الفتح الإسلامي حيث برزوا كشعب جبلي لهم حضوة في شرق الجزيرة من تكريت جنوبا إلى أرمنية شمالا.

وكان لابن حوقل الفضل في ذكر أكراد الجزيرة حيث أبرز أنّ أحياء الأكراد كالهذبانيّة والحميديّة واللاّريّة كانت تشتوافي مشاتي الموصل وتصيف في مصائفها (5) لكنهم لا يمثّلون إلاّ أقليّة بين الأكراد الذي يمتدّ حضورهم في الجبال شرقا كما رأينا.

وكان أكثرهم يسكنون قرى تتوسّطها قلاع حصينة مثلت مركز نفوذ أشرافهم كقلاع الزّوزان بين جزيرة ابن عمـــرو الموصل (6) وقلعة حبتــون والسّلق (7) وامتدّ حضورهم شرقا إلى إقليم شهرزور الذي بقي تابعا للموصل إلى حكم الرّشيد تاريخ فصلها عنها وإلحاقها بإقليم الجبل وسكنتها جموع أكراد دينور (8).

---

(5) ابن حوقل: صورة الأرض: ص 195 - 196

(6) ابن الأثير: نفس المصدر ج 11 ص 519.

(7) الأزدي: تاريخ الموصل ص 268 و310 و 327 و 423.

(8) البلاذري: فتوح: ص 446 و 447.

وكانت هذه القلاع تشرف على المخانق الجبليّة جعلت بعض أشراف الاكراد لهم القدرة على إغلاق المنافذ على جبالهم في حالة صراعهم مع السّلطة أو السّلط الجهويّة بالجزيرة (9) وهذا ما دفع بأشراف العرب للتحالف مع أسياد الاكراد من أجل سيطرتهم على الأقاليم الجبليّة كما يبرز في بداية القرن III هـ (10).

ويتمثّل الحضور الكردي بالجزيرة في معظمه إلى تنقّل العشائر الكرديّة موسميّا من الأقاليم الجبليّة الباردة شتاءا إلى سهل الجزيرة للتشتّي فيها مع ماشيتهم ثمّ الرّجوع الى جبالهم المخضرّة مع ذوبان الثلوج في الرّبيع والصّيف وتخصّ هذه الهجرة العشائر الرّحّل ونصف الرّحّل الذين كانوا يسكنون خيام سوداء من شعر الماعز تختلف عن خيام العرب وكانوا يهاجرون من قارمشير (أي البلاد الباردة) لجارمشير أي البلاد السّاخنة (11) لكنّ توجد عشائر كرديّة أخرى تتعاطى الزّراعة ضمن الجماعات القرويّة المقيمة شرق الموصل بين أربيل وسليمانيّة الحاليّة وعلى سفوح جبل الجودي شمالا وكانت معتنقة النّصرانيّة ومختلطة بالمجموعات الآراميّة وتميّزوا بمستوى حضاري أكثر رقيّا (12) لكنّنا لا

(9) الأزدي : نفس المصدر : ص431

(10) نفس المصدر من ص 328 إلى ص 431. بالإضافة إلى مقال : «كرد» لمينورسكي EI2 ج V ص 465.

(11) ديليمان : نفس المرجع ك المقدّمة.

(12) J.M. FIEY : Assyrie chrétienne.

نجد في المصادر لمجموعات حضريّة بين الأكراد في مدن الجزيرة. ولا يعني ذلك انعدام حضورهم في المدن ويبدو أنهم كانوا ملحقين بصنف الموالي التّابعين للمجموعات العربيّة بالموصل وبلد وبرقعيد وجزيرة ابن عمر.

ويتميّز الأكراد بانقسامهم إلى عشائر ذكرنا أبرزها بالجزيرة، وتنقسم العشيرة إلى بيوت لأنّ البيت يمثّل الوحدة الرّئيسيّة ويبرز ذلك مع عشيرة الهذبانية التي كانت تجمع 5000 بيت مقيمين بجبل السّلوّ وبلد حزّة وتشرف على شهرزور (13) وتنقسم اللّغة الكرديّة إلى عدّة لهجات والتي تبرز إنعدام وجود لغة قوميّة تجمعهم حيث يقول المسعودي «وهم أنواع ولكلّ نوع لغة لهم بالكرديّة (14).

ويبرز إشكالا حول علاقة الأكراد بالسّلطة الإسلاميّة هل أن الفتح الإسلامي ساهم في إجلاء الأكراد عن الجزيرة وحصرهم في الأقاليم الجبليّة ؟

إذ يرى مينورسكي في مقاله حول الأكراد أنّ قبل الفتح الإسلامي امتدّ حضور الأكراد إلى جبل سنجار غربا وفي أقاليم تقع غرب نهر دجلة كاقليم باقردي وبازبدي لكن العرب حصروهم في منطقة الجبال (15).

(13) ابن الأثير نفس المصدر ج 7 ص 238 ذكر ذلك في نهاية القرن III هـ.

(14) المسعودي : مروج : ج III ص 213.

(15) مينورسكي : نفس المقال E.I.2, V, pp. 441-442 .

لكن المتتبّع لأحداث الفتح في المصادر الإسلاميّة تبرز أنّ أوّل إتّصال للعرب المسلمين بالأكراد كان مع سعد بن وقّاص عند حملته على تكريت حيث قام إثرها بحملة على شرق الموصل بمنطقة المرج وباحضرة وحصن حبتون وداسن وأكمل فتح أراضيهم بالجزيرة عتبة بن فرقد، حيث اعترف بسلطة المسلمين بطريق زوزن سنة 19 هـ ويبدو أنّه مسيحيّا حيث كان يدفع الجزية والخراج على أكراد المنطقة (16) لكن يبدو أنّ بطريق زوزن لم يكن يحكم إلاّ في المجموعات القرويّة للأكراد بينما بقي أكراد الجبال خارج نفوذ الدّولة الإسلاميّة وهذا ما يدلّ على بقاء الأكراد في مناطق حضورهم دون جلاءهم عنها لكن لا نعلم إن كان فعلا قد عطّل المسلمون توسّع الأكراد في الجزيرة وحصروهم في الجبال لعدم وجود إشارات تؤكّد هذه الفرضيّة.

إذ لا يعني أن تكون عمالة الموصل ذات طابع إستيطاني للعرب بأن تحول دون إقامة الأكراد بالجزيرة، لأنّ الحضور الكردي بها لا يعرقل استيطان العرب لعدم وجود تنافس وصراع على الأرض بين المجموعتين، لأنّ العشائر الكرديّة كانت تهاجر للجزيرة (المعمورة) التي تسمّى عندهم جارمشير في فصل الشتاء في موسم مغادرة القبائل البدويّة العربيّة لشمال الجزيرة نحو الجنوب الدّافئ ولا يحدث إلتقاء المجموعتين إلاّ في فصل الرّبيع عندما يكون شرق وشمال الجزيرة مخضرّا مع ذوبان الثّلوج وامتداد المراعي ومصادر المياه فيتوفّر الكلا والماء للجميع

(16) ابن الأثير : نفس المصدر ج III ص 38.

خصوصا في السّفوح الغربيّة لزاقروس الخصبة. فكان التجاور سلميّا ساهم في ربط علاقات متينة بين القبائل العربيّة والأكراد منذ العصر الأمويّ وانتشار الإسلام في صفوفهم ولكن اخذ هذا الإسلام منزعا خارجيا بسبب مجاورتهم للمجموعة الشيبانيّة والرّبابعة يبرز منذ مشاركة الأكراد الثورة الخارجيّة لشبيب في 76 هـ وتواصلت مشاركتهم الخوارج في ثوراتهم بالجزيرة طيلة العهد الأمويّ والعبّاسي.

وأبرز معطى في هذا التّحالف مع المجموعتين هو تطوّر الموالات بين الأكراد مع عرب المنطقة خصوصا في العصر العبّاسي. ورغم تجاهل معظم المصادر للحديث عن هذه الظّاهرة. فإنّه تبرز من خلال الأحداث إشارات إلى حصول بعض الأشراف العرب على نفوذ بالمنطقة يمتدّ شرقا إلى أذربيجان لا يوافق حجم عشائرهم بالجزيرة خصوصا بين المجموعات اليمنيّة.

فلا غرابة أن معظم الأشراف الذين برزوا بين نهاية القرن II هـ وبداية القرن III هـ بحكم عملهم للسّلطة العبّاسيّة منذ خلافة المنصور جعلتهم يربطون تحالفات مع الأكراد عبر عمليّة الموالات كآل عبادة الهمدانيين إذ كانت قصبتهم في حصن السّلق الذي كان حصنا كرديّا في منطقة تقطنها عشيرة الهذبانيّين (17) ولا يفسّر ذلك إلاّ بتحالفهم مع الأكراد. ولقد إتّبعوا في ذلك ما قام به همدانيّي أذربيجان بتحالفهم مع الأكراد بها للسّيطرة على بعض الكور الجبليّة.

---

(17) الأزدي : نفس المصدر ص 268 و 356.

أما بنو تليد الأزديين فكانوا حلفاء اليحامد المقيمين بجبال شرق الموصل قرب منطقة المرج حيث كان بنو تليد مقيمين في أحد قلاع اليحامد وهي حصن حبتون الذي أصبح مركز نفوذ السّيّد بن أنس ويرجع هذا التّحالف إلى فترة عمالة أبيه على هذه المنطقة فبحكم خطّته جعله يكسب ولاء اليحامد، استغلها أبنه السّيّد وبنو تليد للسّيطرة على الموصل في مطلع القرن III هـ ولقد كسب السّيد بن أنس تحالف مع أحد أشاف الأكراد يعرف بجعفر بن فهراجيس حسب ابن أثير وجعفر بن مرخوش حسب الأزدي ويصفه ابن الأثير : «أنه من مقدّمي الأكراد ولقد صاهر إسحاق أخو السّيّد جعفر بن فهراجيس لكسب ولاءهم (18).

كما ربط بنوتليد حلفا مع أحد أشراف اليحامد وهو دلويه بن مرزوق من ملاعب اليحمدي وذكر في حرب السّيد أنس وزريق بن صدقة من أزد أذربيجان فأسر دلويه وجيء به الى صدقة فقال له : «إيه يا دلويه، سنة عفص وسنة بلّوط ! وأراد قتله لكن شفع له آل سليمان بن عمران من أزد الموصل فخلّي سبيله (19).

وما يهمّنا في هذه الحادثة أنّ زريق كان يعيب على دلويه عدم إستقراره على الولاء إذ يبدو أنه حالف قبل ذلك لزريق يبرز قوله سنة عفص وسنة بلّوط ! وفي الحادثة ذكر لعدم تعمّق الإسلام بين الأكراد إذ عاب صدقة على دلويه

(18) ابن أثير : الكامل ج 6 ص 507 والأزدي : ذكر جعفر سنة 197 هـ - ص 327 و 325 وفي ص 224 في ثورته على المعتصم ص 430 و431.

(19) الأزدي : نفس المصدر من ص 357 إلى ص 360.

عندما أراد الصّلاة قبل قتله أنّه كان غير متوضئا بينما كان العرب المسلمون يحاربون متوضّئين ! ورواية حلف بني تليد مع بني ملاعب والرّوايات التي ذكرها الآزدي حول هذا الحلف تبرز الفكرة السّائدة في المصادر الإسلاميّة أنّ الكردي سمته الغدر وهو مزاجيّا يغيّر ولاءه السّياسي حسب ما تقتضيه مصالحه فهو دون مبدأ وهو شعب ينقصه الواعز الدّيني وينظر إليهم كخطر محتمل على أهل الجزيرة لكثرة انتفاضاتهم وغزواتهم الدّمويّة على المجموعات القرويّة شرق الجزيرة. وهذه الرّوايات بدأت تؤسس لانتربلوجيّة خاصّة للأكراد كمجموعة هامشيّة تحشر ضمن أمم البرابرة !

واقترن ذكرهم عند الآزدي وابن الآثير في أوّل إشارة لهم في العصر العبّاسي بانتفاضهم في أرض الموصل وانتشارهم بها (20) وهي إشارة إلى غزوهم لهذه المنطقة قصد السّلب والنّهب حيث كانت المناطق الجبليّة الوعرة وقليلة الموارد تدفعهم إلى مهاجمة الآراضي السّهليّة الخصبة دون البحث عن إستيطانها.

لكن منذ بداية القرن III هـ. وفي ظرفيّة ضعف حضور السّلطة المركزيّة بالجزيرة وانزعاج الآكراد في الآقاليم الجبليّة من تكثّف حضور العرب بها والذين استغلّوا الخيرات المنجميّة والزّراعيّة للمنطقة، جعلتهم يدخلون في ثورات شاملة على الدّولة العبّاسيّة والمجموعات العربيّة.

---

(20) ابن أثير : الكامل ج 6 ص 15.

أمّا أكراد أذربيجان والجبال وأرمينية فمنهم من تحالف مع بابك وحارب مع الخرميّة خصوصا بين العشائر التي لم تسلم (21) بينما قام أكراد الجزيرة بثورات محليّة يقودها بعض أشرافهم وتبدو ثوراتهم مرتبطة بأسباب إقتصاديّة بحتة رغم أخذها طابعا دينيّا بالنسبة للثّورة حدثت في 825 م الموافق لسنة 210 أو 211 هـ. حيث يذكر ابن العبري من خلال روايات سريانيّة انتفاض اكراد مسلمين على العرب زاعمين أنّه قد بعث الله بينهم. المهدي المنتظر وكان زعيم الثورة يدّعي أنّه روح القدس وكان مقنّعا وأنه جاء لخلاص قومه وتحصّن في جبال الموصل مع أتباعه زمن عمالة الحسن بن عمر التغلبي على شمال شرقي الجزيرة فحصر الثوّار في هضبة طور عابدين عندما كانوا ينهبون دير قرتمين فتغلّب على الأكراد وفرّ المهدي وأصحابه الى أرمينية في عمالة كانت تابعة لإسحاق بن أحمد الأرمني الذي نجح في قتل مهدي الأكراد وأعانه الأرمن في هزم الأكراد الذي فرّ بعضهم إلى أرض بيزنطا (22).

وما يقدّمه ابن العبري هي ثورة ذات طابع مسياني موجّهة ضدّ العرب ومن الواضح أنّها تزامنت مع ثورة الخرميّة في اذربيجان وصراع عرب الموصل بالمنطقة فبرزت إلى سطح الأحداث ضغائن الأكراد على العرب بسبب أطماع القبائل العربيّة على أراضيهم وخيراتهم وبرزت معها بوادر طموحات الأكراد

(21) الطبري : ج IX . من ص 542 إلى ص 588.

(22) ابن العبري : تاريخ الزّمان تقديم فياي بيروت دار المشرق. 1986. ص 27 ويذكر أنّ هذا المهدي كان يحمل قناعا على وجهه وحسب ابن العبري فإنّه كان يدّعي أنّ المسيح المبعوث لقومه بينما ذكر قبل ذلك أنّه من الأكراد المسلمين والأقرب أنّه إدّعى بكونه المهدي المنتظر !.

للتوسّع في شرق الجزيرة أمّا الثّورة الثّانية فكانت أكثر خطورة وارتبطت بشخصية جعفر بن فهراجيس أو ابن مرخوس وهو ما كما قلنا من اليحامد ومن مقدّمي الأكراد أي من أشرافهم وحدثت هذه الثورة سنة 224 هـ أثناء خلافة المعتصم سنة بعد قضاءه على الخطر الخرمي وأطماع بيزنطا على ثغور الجزيرة مع حملة عمّوريّة النّاجحة ويقول ابن الاثير «أنّ جعفر - هو إنسان من مقدّمي الأكراد إسمه جعفر بن فهرجس وتبعه خلق من الأكراد وغيرهم ممّن يريد الفساد ...» (23) وهذه الرّواية تبرز أهميّة أعداد الثوار الأكراد الذين خرجوا مع جعفر وتبعتهم عناصر أخرى لم يذكرها تريد الغزو ومشاركة الأكراد في الثورة دون توضيح هوّيتها أمّا حول قوله من مقدّمي الأكراد فلقد سبق أنّنا ذكرنا تحالفه مع بني تليد وعمله في صفوفهم منذ سنة 197 هـ ويمكن أن يكون حتّى قبل ذلك فهو من قدماء أشراف الأكراد ومواليا للخلافة العبّاسيّة، فما الذي دفعه للثورة ؟

يبدو؛ أنّ الإجابة ترتبط بتدهور الأوضاع بين يمنيّة الموصل حيث إحتدّ الخلاف بين الأزد والهمدانيّين ومن المحتمل أنّه دفع الأكراد إلى انتهاز هذا الصّراع بين العرب لإحكام نفوذهم على مناطقهم ولم يتردّد جعفر في محاربة أصهاره بني تليد بزعامة عبد الله بن السّيّد بن أنس وقتله وإعدام صهره جعفر بن أنس وأخيه إسماعيل وقتل أكثر من كان مع عبد لله بن السيّد في بَبِيشْدّناس وهي مخنق جبلي في داسن شمال الموصل (24).

(23) ابن الاثير الكامل ج 6 ص 506.
(24) نفس المصدر ج 6 ص 506 و507 والأزدي : ص 430 ، 431.

والرّوايتين التي ذكرهما الازدي وابن الاثير : كأنّهما توحيان أنّ تشقّي الأكراد في بني تليد ورابطة الموصل وعدم تورّع جعفر في قتل أصهاره وحلفاءه بالأمس ترجع إلى طبيعة الأكراد ونزعتهم إلى الغدر وسفك الدّماء. بينما ما يبرز في روايات الأزدي حول عرب الموصل واستيطانهم العنيف في الأقاليم الجبليّة والإجحاف الذي لحق الأكراد على غرار ما قام به علي بن صدقة وابنه زريق بين خلافة الرّشيد والمأمون (25) تدفعنا إلى ربط ثورة جعفر إلى أسباب أكثر موضوعيّة وهذه الثورة دامت أكثر من سنة إمتدّت على شرق الجزيرة وغرب أذربيجان بين 224 و 225 هـ وأنّه ألحق بأهل الموصل الشرّ والأذى وهو ما دفع بالمعتصم بعد قتل عبد الله بن السيّد إلى تكليف مرتزقته بقيادة إيتاخ لإنهاء ثورة الأكراد فقتل جعفر وأكثر القتل في الأكراد وأستباح أموالهم وقام بحشر الأسرى ونساءهم وأموالهم إلى تكريت (26).

ويتبيّن لنا من خلال تكثّف ثورات الأكراد في بداية القرن III هـ. وتنامي حضورهم بالجزيرة، أنّ هذا الشعب بدأ ينموا بينهم وعيا بضرورة حفظ مصالحهم في ظرفية تراجع حضور الدّولة بالمنطقة وتعدّي العرب على مناطقهم.

وهذه الثّورات التي كانت موجّهة ضدّ المجموعات العربيّة لم يواجهها محاربي هذه القبائل أساسا بل القوّات النّظاميّة للدّولة العبّاسيّة وهو ما يدفعنا الى الحديث عن الوضع الهامشي لهذه المجموعة لدى الدّولة التي كانت تحمي

---

(25) الأزدي : نفس المصدر ص 358.
(26) ابن الأثير : نفس المصدر ج 6 ص 507 و 508.

مصالح المجموعات العربيّة على حساب الأكراد ولا نتردّد بعد ثورة جعفر في فهراجيس في سبيهم وبيعهم في أسواق الجزيرة رغم أنّهم من الأكراد المسلمين لكن لم تمنع هذه المواجهة من تواصل تحالف بعض العشائر الكرديّة مع العرب. حيث يبرز لنا من خلال تحليل بيوتات تغلب التي كان لها الشرف في الجزيرة أنّ العدوتين من آل عمر بن الخطّاب التغلبيين أنشأوا زعامة محليّة بفضل قومهم التغالبة وكذلك تحالفهم مع الأكراد حيث سبق لأحمد أخو الحسن بن عمر أن حالف جعفر بن فهراجيس الكردي مع مجاورته للأكراد بجبل السّلق مع بني تليد وكذلك الحسن بن عمر الذي كان محالفا لأكراد جبل الجودي كما رأينا ولم يمنعه ذلك من محاربة جعفر والقضاء على ثورته وكذلك كان لأخيه أيوب بن عمر حلفا مع بني هرّار في منطقة بلد. وهذا التّحالف كان مستجدّا وبدأ يتمتّن مع خلافة المعتصم وساهم في دعم نفوذ العدويّين بالجزيرة في منتصف القرن III هـ انطلاقا من مدينتهم جزيرة ابن عمر. ولا ننسى أنّ من العدويّين سيبرز حمدان بن حمدون في النّصف الثاني من القرن الثالث هجري ويكوّن أبناءه الإمارة الحمدانية معتمدين على تحالفهم مع الأكراد لدعم نفوذهم بالجزيرة.

لكن إلى نهاية حكم المعتصم، لعب الأكراد دورا ثانويا في الأحداث وبقوا مجموعة مهمّشة بين سكان الجزيرة. لكن بدأت تبرز بوادر لدخولهم مسرح الأحداث مع بداية تحالفهم مع عرب الجزيرة أحيانا وثورتهم على السلطة العبّاسيّة وأعوانها أحيانا أخرى.

أمّا الإستنتاج الثاني لتحليل الجماعات الكرديّة بالجزيرة فأنّها تخضع لنفس البيئة الإنقساميّة للبدو العرب، حيث تخضع علاقاتهم الإجتماعيّة للرّوابط

الدّمويّة وتسودهم علاقة الصّراع والاندماج كما أنّ نمط معاشهم كان رعويّا مع هيمنة نمط التّرحل ونصف الترحّل ومعظم العشائر محاربة تقوم بعمليّة الغزو والنّهب ضدّ المجموعات المستقرّة ويحكمهم بعض الاشراف والذين مثّلوا الوسيط بينهم وبين السّلطة وأعوانهم بالمنطقة. وهذا ما يدفعنا إلى اعتبار أنّ النّمط الإنقسامي لم يكن خاصّا بالبداوة العربيّة بل يمتدّ إلى الجماعات الإثنيّة الاخرى مع فوارق نسبيّة بين كلّ مجموعة.

أمّا الإستنتاج الاخير فيخصّ أسلمة الاكراد. حيث أنّ إسلامهم كان سطحيّا حيث أن جموع الاكراد لم تكن مأطّرة دينيّا من قبل فقهاء المنطقة ومعظمهم لا يفهمون ولو كلمة واحدة ممّا يدعونهم إليه لجهلهم اللّغة العربيّة على نقيض المجموعات الآراميّة التي إندمجت بأكثر سرعة في الحضارة العربيّة الإسلاميّة نظرا إلى إنتماءهم للجنس السّامي وتقارب اللّغة الآرامية باللّغة العربيّة.

2) الأرمن : شعب يعيش في أطراف الجزيرة :

مثّل الارمن أحد شعوب الجزيرة الذين سكنوها منذ أقدم العصور. وارتبط حضورهم بها لامتداد بلادهم الارمينية شمال الجزيرة. حيث تمثّل هضبة طور عابدين بالجزيرة الإمتداد الجنوبي لهضبة أرمينية IV . فكان توسّع الارمن إتّجه نحو الشرق أرمينية الاولى وجنوبا نحو الجزيرة.

ولا ينتمي الارمن إلى العنصر السّامي الغالب على الجزيرة بل أنّهم خليطًا من العناصر القوقازيّة والآريّة التي سكنت مناطق جنوب القوقاز إلى حدود هضاب الاناضول غربا واختلطت مع عناصـــر سكانّية مختلفة منهم آراميي الجزيرة (27).

ولا يتجاوز الجزيرة من بلاد أرمينية الشاسعة إلّا قسمها الغربي وهي أرمينية IV حيث اعتبرت مناطق شمال نهر دجلة الاعلى تابعة لارمينية رغم تبعيتها لديار بكر واعتبرها الارمن جزءا من بلادهم بالإضافة إلى أعالي الفرات حيث كان جزءا آخر تابعا لارمينية. ومن أهمّ مراكز الارمن بأرمينية IV شمشاط وخلاط وقاليقلا وأرجش وباجنيس (28).

ونظرا إلى هذه المعطيات الطّبيعيّة، فلقد استوطن الارمن هضبة طور عابدين وشمال شرقي الجزيرة، حيث ان حضورهم كثيفا مع العناصر الارامية سواءا في الارياف أو في القرى أو في مدن المنطقة كميافارقين وأرزن وآمد وتلّ فافان (29).

---

(27) مقال أرمينية : في2 E.I. ص 660 - 666 لمينورسكي

.Dilleman: Ht. Mesopotamie orientale et pays adjacents: l'introduction

(28) ابن خرداذبة : المسالك والممالك ص 122 والبلاذري : فـــتوح ص 272 وخريطـة أرمينية لـ

. Cornu; Atlas du monde Arabo-islamique à l'époque classique édit. C.N.R.S. - Paris 1983.

(29) خريطة المنطقة.

كما كانوا مجاورين للأكراد في نواحي جبل الجودي وضفاف دجلة العليا. كما كان لهم حضورا هامّا في منطقة أعالي الفرات. حيث أنّ مدن وحصون ثغور الجزيرة، كانت تسكنها عناصر أرمينيّة كامل السّنة كمطية وقراها المجاورة وسميساط ومرعش وزيبطرة ويسيطر الأرمن على جزء من الأراضـــي الزّراعيّة بها (30).

وتمثّل هذه المجالات مجال سكن دائم لهذه العناصر التي بقيت بها رغم وضعيّة الحرب الدّائمة بين المسلمين والبيزنطيين وما يفرضه ذلك من عدم استقرار لأوضاعهم وصعوبة تحديد ولاءهم لأحد الأطراف. فمثّلوا أحد العناصر الحدوديّة بالجزيرة يصعب علينا من خلال الإشارات القليلة حصر الملامح الرّئيسيّة لأوضاعهم بهذه المنطقة. وبالإضافة إلى هذا الإستيطان الدّائم للأرمن، فإنّ حضورهم بالجزيرة، أخذ طابعا ظرفيا وأخذ أحيانا طابع هجرات جماعيّة تحدث في فترات الجدب والمجاعة بأرمينية IV فيقوم الأرمن بالنزول نحو سهل الجزيرة جنوبا بأعداد مكثّفة. ونجد صدى لهذه الهجرة في حوليّات التلمحري الذي ذكر قدوم الأرمن سنة 133هـ/750م فذكر بقوله «وكأنّ كلّ أرمينية هاجرت نحو الجنوب، فاجتاحوا القرى والمدن والحقول وحملوا معهم الأمراض المعدية (31).

ولا يبرز هذا الحادث عرضيّا لأنّ هذه الهجرة ترتبط بأوضاع مناخيّة دوريّة تجعل من الجزيرة مجالا جاذبا. وهذه الهجرة كما أبرزها التلمحري، كانت تخلق

(30) البلاذري : نفس المصدر ص 185 و186.
(31) حوليّات التلمحري : تعريب بتصرّف ص 54.

المشاكل للأهالي والسّلطة القائمة في العصر الأموي والعبّاسي كما تتسبّب في التضييق على أرزاق السكّان وما يتبعها من إنفلات أمني، حيث يصاحب هذه الهجرة بعض الأمراء الأرمن مع محاربيهم فيقومون في سنوات الجدب بأراضيهم باجتياح أراضي الجزيرة الشّماليّة ويقومون بنهب المحاصيل وجمع الغنائم من المجموعات القرويّة. كما يبرز في حوليّات التلمحري (32).

كما تأخذ هذه الهجرة طابعا موسميّا أحيانا، حيث تقوم القبائل الأرمينية عندما تشتدّ البرودة في الشتاء وتكتسح الثّلوج هضاب وجبال أرمينية، بالتشتّي في سهل الجزيرة والصّعود إلى هضبتهم في فصل الرّبيع والصّيف ويتشابهون في ذلك بالقبائل الكرديّة.

وهذا الحضور الأرمني بأنواعه، ساهم في خلق علاقات قديمة مع المجموعات الآرامية في المقام الأوّل بسبب وحدة الدّين والمذهب. إذ ينتمي الأرمن في معظمهم إلى النّصرانيّة ومذهب الطّبيعة الواحدة الذي هو مذهب جموع نصارى الجزيرة. وهذه الوحدة في العقيدة والمذهب وتقارب الكنيسة الأرمينية بكنيسة أنطاكية التي يتبعها نصارى الجزيرة، جعل النّخب الكنيسيّة والتي تمثّل النّخب المثقفة في المجالين تساهمان في نشر الثّقافة السّريانيّة عبر شبكة الأديرة والكنائس الممتدّة بين هضبة طور عابدين وأرمينية. وهو ما ساهم في تقارب الآراميين بالأرمن على المستوى اللّغوي والحضاري طيلة القرون الوسطى (33).

(32) نفس المصدر ص 54 و 55 وص 57 عندما يتحدّث عن حملة الأمير كوشان ونهبه لشمال الجزيرة في 133 هـ. 750م

(33) مقال أرمينية لكانار في E.I.2 ص 660 و 666 .

وشمل الأرمن على غرار الآراميّين ظاهرة التّعريب منذ العصر العبّاسي بسبب تعزّز حضور القبائل العربيّة في أرمينية IV والأراضي الشماليّة للجزيرة، لكن لم يصحب ذلك إنتشار الإسلام بينهم مثل ما حدث في الجزيرة نظرا إلى تجذّر الدّيانة النّصرانيّة في هذا الشّعب وحسن تأطير الكنيسة الأرمينية لرعاياها. فكانت النّصرانيّة وكنيستهم جزءا من هويّتهم الوطنيّة.

وأخذ الحضور الأرمني بالمناطق الشمالية طابعا مكثّفا في هضبة طور عبادين والفرات الأعلى مع جموع الآراميين، حيث كانوا يعيشون ضمن مجموعات مختلطة بسبب اشعا هم الدّيني والحضاري في أرياف المنطقة وقراها ومدنها وتوجد إشارات لدى البلاذري حول سكان ثغور الجزيرة، فعندما ذكر ملطية وطرندة ذكر أنه سكنها أناس من أهل الذمّة من الأرمن وغيرهم (34).

ويعني البلاذري بالأنباط جموع الآراميّين. ولقد ارتبط الأرمن بجبال الجزيرة عبر ممارستهم للنشاط التّجاري ، حيث مثّلوا المجموعة الاثنيّة الوحيدة تقريبا التي ربطت المجال البيزنطي بالمجال الإسلامي منذ العصر الأموي. حيث كانوا ينتقلون بين سواحل البحر الأسود انطلاقا من ميناء تريبزندة إلى الجزيرة عبر الأراضي الأرمينيّة والبيزنطيّة ولم يعرقل العداء البيزنطي الإسلامي من مواصلة نشاطهم التجاري، حيث ربطوا الصّلة مع القوافل التجاريّة التي تصعد من العراق إلى الجزيرة في طريقها إلى الشّام عبر طريق الموصل نحو نصيبين والفرات. فكانوا يشترون منها المنتوجات الحرفيّة للمجال الإسلامي مقابل بيعهم

(34) البلاذري : نفس المصدر ص 261 و 262.

منتوجات الشمال الاوروبي من الفرو والعنبر والمنتوجات المختلفة للبيزنطيين.

كما استفادوا من غابات المنطقة الأرمينية لتصدير الخشب إلى الجزيرة والعراق عبر نهر دجلة. حيث يتمّ ربط الأغصان في شكل قوارب ليحملها النّهر نحو الجنوب وهي تسمّى الكلاك. كما كانوا يصدّرون السّجّاد الارمني والبغال وبعض المنتوجات المعدنيّة المحليّة. وامتدّ نشاطهم نحو المجال القوقازي وبحر الخزر شرقا حيث تعاملوا تجاريّا مع الأكراد والخزر والشعوب المختلفة للمنطقة (35).

وما يهمّنا في هذا النّشاط التجاري، هو انفتاح فئة من الأرمن على الحضارة الإسلاميّة وربط مصالحها مع سلطة الخلافة، من نتائجه حذق التجّار الأرمن للغة العربيّة وساهم ذلك في بداية تعريب الأرمن والذي ، تواصل طيلة القرون الوسطى. رغم حفاظ الكنيسة الأرمينيّة في بداية العصر العبّاسي على الموروث اللّغوي والثّقافي الأرمني وحفاظ أرياف أرمينية على لهجاتها المحليّة.كما أنّ الوزن الاقتصادي المتصاعد للأرمن في اقتصاد الجزيرة، ساهم في طموحات بعض القبائل العربيّة للسّيطرة على هذا النشاط والمسالك التجاريّة لشمال الجزيرة وأرمينية.

كما نلاحظ انّه على الرّغم من غيرة الأرمن على هويّتهم الدّينيّة والحضاريّة، فلم يمنعهم ذلك من خدمتهم للسّلط الجهويّة منذ العصر الأموي.

(35) Lombard: L'Islam dans sa première grandeur ومقال أرمينية لماريوس كنار E.I.2, II, pp. 660-666.

وارتبط ذلك بتبعيّة أرمينية للجزيرة في عدّة فترات، حيث كان مقاتلة الجزيرة يقومون بدور لحماية وحراسة الثغور التي تمتدّ بأرمينية وإشرافها على أراضي بيزنطة غربا. ونظرا إلى تبعيّة هذه الثّغور إلى الجزيرة، فكان أمراء الجزيرة منذ بداية الحكم الاموي يشرفون على أرمينية وعملوا على كسب أمراء الأرمن إلى سلطة الخلافة حيث كان نصّ الصّلح يفرض عليهم تقديم المؤونة والعون للمسلمين(36).

ويبدو أنّ والي الجزيرة وأرمينية محمّد بن مروان منذ سنة 73 هـ، كان يغزوا منها وأدخل في خدمته محاربي الأرمن بعد أن أخضع أمراءها في حملات متعدّدة لنفوذها وخافه أهلها(37) وكان وراء إنهاء ثورات الأرمن ودخولهم في خدمة الخلافة حيث مهّد لابنه مرون الثاني الأوضاع ليجد بين الأرمن عند تولّيه الجزيرة وأرمنية وأذربيجان حليفا رئيسيا عند محاربته للخزر. وكان الأرمن يطلقون عليه تسمية مروان كرو أي مروان الأطرش ! حيث تقرّب لأمراءها وأكرم أمير الأرمن أشوط الباقرادوني ونصره على الأسر المنافسة لنفوذه كآل ماميكونيان وأجرى عليه راتبا سنويّا وساهم هذا الأمير في جمع الأرمن لمروان الثاني لمحاربة العدوّ المشترك المتمثّل في الخزر(38) فكسبت الخلافة ولاء

---

(36) نصوص الصّلح : في البلاذري : فتوح ص 282 و 283.
(37) ابن الاثير الكامل ج ص 361 .

(38) Caetani : chronographia Volume IV p 861-1108 et p. 116 ، وكذلك عمر أبو النّصر : الايّام الاخيرة للدّولة الامويّة - المكتبة الأهليّة بيروت ط 1 - 1962 - ص 158،

بعض الأمراء وعند تولّي مروان الثاني الخلافة كان ضمن حيش الجزيرة وحدات الخيّالة الأرمن تكوّنت منذ حروبه على الخزر وتواصل ولاء الأرمن لمروان الثاني الى سقوط الخلافة(39).

ويبدو أنّ الولاء لهذا الخليفة الأموي، لم يمنع الأرمن من إستغلال ضعف الخلافة الأمويّة لقتل نائب مروان II على أرمينية وهو عاصم بن عبد الله الهلالي في 127هـ/744م ومحاولة الإنفصال عن الخلافة الإسلاميّة مع عزل حلفاءها كأميرهم أشوط باقردوني وقتله (40) وما يهمّنا في هذه التحوّلات، رجوع طموحات الأرمن في استغلال سقوط الخلافة الأموية من أجل السّيطرة على شمال الجزيرة منذ سنة 133هـ/750م في ظرفيّة هجوم بيزنطي شامل على ثغور الجزيرة وحصون أرمينية IV . وتتحدّث حوليّات دنيس التّلمحري عن قيام أحد أمراء الأرمن الذي يبدو أنّه كان حليفا للبيزنطيين وكان يسمّى كوشان بحملات على هضبة طور عابدين ومناطق الفرات الأعلى وإلحاق الهزائم المتكرّرة للحاميات الخراسانيّة تحت إشراف مقاتل بن حكيم العكّي وهو نائب أبو جعفر على حرّان. وفي حملة ثانية كلّف مقاتل إبنه بقيادة حملة على أرمينية ضدّ كوشان جمعت الخراسانية ومقاتلة الجزيرة كانت نتيجتها هزيمة منكرة لجيشه وقتل إبنه (41).

---

(39) Grousset : L'histoire de l'arménie p 315-328. ، لكن يذكر كايتاني ج VV ص 1615 إلى ص 1703 أنّ الأرمن منذ سنة 127 هـ بدأوا في الثّورة على الأمويّين.

(40) كايتاني : نفس المرجع ج V ص 1615-1616.

(41) حوليات دنيس التلمحري : ص 54 - 57.

ولقد تعرّض الارمن إثر ذلك في ولاية يزيد بن أسيّد إلى أعمال انتقاميّة امتدّت إلى شمال الجزيرة من نتائجها نزوح 12 ألف أرميني إلى أراضي بيزنطا ويبدو أنّ أعمال التّقتيل التي شملت عرب الجزيرة إمتدّت الى الارمن خصوصا منهم المحاربون الذين عملوا لمروان بن محمّد (42).

ورغم بقاء الارمن خاضعين لنفوذ العبّاسيين، فلقد بقي ولاءهم محلّ ريبة حيث اعتبر بعض الخلفاء العبّاسيين أن التجّار الارمن والمقيمون منهم في ثغور الجزيرة يقومون بأعمال الجوسسة لصالح البيزنطيّين بسبب الولاء الدّيني. كما أنّ الكنيسة الارمينية لم يكن لها ولاءا واضحا للخلافة الإسلاميّة حيث كانت تتخوّف من نشاط دعاة المسلمين واستيطانهم بأرمينية وامتداد مجال نفوذهم بالجزيرة ولذلك تبرز في أدبيّاتهم نوعا من التّعاطف مع البيزنطيّين رغم الإختلاف المذهبي وهذا ما دفع الخلافة الإسلاميّة إلى إحكام مراقبتها على أرمن الثغور وتعرّضهم إلى حملات قمعيّة بالنّسبة لامراءهم ورجال كنيستهم. ومن أهمّ الإجراءات قيام هارون الرّشيد أثناء خلافته بتدمير الكنائس والبيع بالثغور 191هـ/806م وكان بعضها يتبع الكنيسة الارمينيّة (43).

وتبرز من خلال الرّوايات التي يقدّمها البلاذري حول فتوح أرمينية الشكّ في ولاءهم وتبرير سياسة التشدّد على الارمن وأمراءهم ويقول حول الارمن «فإن

(42) Grousset : نفس الرجع ص 328 - 332 و كايتاني : نفس المرجع ج V ص 1703.

(43) الطّبري : تاريخ الامم والملوك ج 9 ص 178.

رأوا منه عفّة وصرامة وكان في قوّة وعدّة أدّوا إليه الخارج وأذعنوا له الطّاعة وإلاّ اغترّوا فيه واستخفّوا بأمره ...» (44).

ويوجد إشكالا حول أرمن الجزيرة، هل أنّهم كانوا خاضعين للكنيسة الارامية ونفوذ السّلط المحليّة أم أنهم كانوا يتّبعون نفوذ أمراءهم الارمن والكنيسة الارمينية. ويبدو أنّ وجود هؤلاء الارمن على الحدود الجنوبيّة لارمينية جعلهم يتّبعون بطارقة أو أمراء هذه المنطقة ويبدو أنّ شبكة الكنائس الارمينيّة كانت تمتدّ إلى شمال الجزيرة مع الكنيسة الآراميّة رغم الوحدة المذهبيّة.

(44) البلاذري: فتوح ص 296.

خـــاتمـــة

شهدت الجزيرة مع بداية القرن III هـ إحتداد الصّراع القبلي بين الصفّ النّزاري واليمني وشمل هذا الصّراع داخل نفس المجموعة يبرز في حرب الزّعامة بين يمنيّة الموصل. وهذا الصّراع، جاء في ظرفيّة تراجع حضور الدّولة بالمنطقة وعجزها في فرض منظومة الدّولة. فألتجأت للإعتراف الضّمنيّ بسلطة المتنفّذين على نواحيهم حيث أقرّت بنفوذ زعامات قيس على نواحي ديار مضر بعد إخماد ثورة نصر بن شبث العقيلي. وأقرّت بنفوذ بعض زعماء تغلب في بعض النّواحي من ديار ربيعة كآل عمر بن الخطّاب ببلد شمال الموصل وآل طوق بن مالك على جهة قرقيسياء والرّحبة. كما أقرّت بنفوذ اليمنية على منطقة الموصل فلم يعد للوالي نفوذ حقيقي على عرب الجزيرة ولقد أشرنا من خلال ما ذكره الأزدي حول والي الموصل منذ حكم الأمين بروز ظاهرةالولاة بالفعل دون رسم تولية من الخليفة بينما لم يكن للوالي أيّ نفوذ على الرّعيّة واضطرّت الخلافة منذ حكم المأمون إلى إعطاء رسم التولية للمتنفذين على غرار علي بن الحسن الهمداني والسّيّد بن أنس. وهو إقرارا من السّلطة بفقدان نفوذها الحقيقي على عرب الجزيرة واعترافا بسلطة المجموعات القبليّة على نواحيها.

الفصل الثاني :

المجموعات المستقرّة : بين الحفاظ على هويّتها والإندماج في المنظومة الإسلاميّة

I) الأصناف الإجتماعيّة بالجزيرة :

إن لم تخضع مجموعات الرّحّل الى تراتبيّة إجتماعيّة واضحة، ولم يسودها الصّراع الطّبقيّ، فإنّ المجموعات المستقرّة سواءا منها الحضريّة أو الرّيفيّة شهدت تحوّلات إجتماعيّة مرتبطة بتطوّر الأوضاع السّياسيّة والإقتصاديّة إثر الفتح الإسلاميّ.

حيث شهدت الفئة العليا الإجتماعيّة تراجعا واضمحلالا لدورها ونفوذها الإجتماعي إثر الفتح، وكانت تمتلك الضيعات الكبرى في غرب ووسط الجزيرة التّابعة لنفوذ البيزنطيين ويمثّلون فئة المحاربين البيزنطيين الذين تحصّلوا مقابل خدماتهم لجهاز الحكم على الإقطاعات الشاسعة ونفوذا على المجموعات القرويّة، لكنّ أدّى الفتح الإسلامي الى جلاءهم من الجزيرة وألحقت إقطاعاتهم إلى أراضي

الصّوافي (1) ومثّل جلاءهم فرصة للمجموعات القرويّة للتحرّر من نفوذهم ويبرز ذلك واضحا في منطقة رأس العين أمّا في شرق الجزيرة الذي كان تابعا للسّاسانيين قبل الفتح، فلقد حافظ فيه الدّهّاقون على ممتلكاتهم ونفوذهم على المجموعات المستقرّة (2) خصوصا وأن المنطقة الممتدّة جنوب الموصل إلى الأنبار تمثّل الإمتداد الطّبيعيّ لسواد العراق وتخضع لنفس الأوضاع الإدارية السّائدة بها.

كما حافظ رجال الكنيسة النّسطوريّة واليعقوبيّة على إقطاعاتهم التّابعة أساسا للأديرة وتمتدّ في أرياف شمال الجزيرة بمنطقة طور عابدين وشرق الموصل وفي منطقة تكريت بالإضافة إلى اقطاعات أخرى على الفرات الأوسط وأعالي الفرات فحافظت الكنيسة بفضل عقود الصّلح مع الفاتحين على نفوذها المادي بين جموع القرويّين بالإضافة إلى نفوذها المعنوي (3).

1) الحضريّون والتحولات الإجتماعيّة بالجزيرة :

أمّا المجموعات الحضريّة، فلقد عانت قبيل الفتح من حالة الإختناق الإقتصادي بسبب توالي الحروب السّاسانيّة البيزنطيّة بالجزيرة، وأدّى ذلك إلى تراجع دور الفئات الحرفيّة والتّجّار نظرا لتقلّص المبادلات التّجاريّة وتراجع نفوذ

(1) البلاذري : فتوح البلدان : خبر جلاء الرّوم من رأس العين ص 176 و ص 177.

(2) نفس المصدر : خبر فتح الموصل ص 331 - 334.

(3) نفس المصدر : فتوح الجزيرة بين ص 172 الى ص 181.

المدن على ظهيرها.

وساهم الفتح الإسلامي الى استفادة الفئات الحضريّة من انفتاح مجال الجزيرة وتوحّده تحت سلطة الخلافة الإسلاميّة، وفكّ العزلة على المدن.

ومع بداية القرن الثاني هجري، بدأت التّأثيرات الإيجابيّة تبرز على هذه الفئات بسبب اندماج الجزيرة في المجال الإسلامي، حيث استفادت أوّلا من النّشاط الحربي الذي كان مسرحه الأراضي البيزنطيّة والأرمينيّة المجاورة إنطلاقا من حركة الصّائفة اليمنى من ثغور الجزيرة كلّ سنة. حيث كان الحرفيّون والتجّار يجنون أرباحا طائلة في خدمته للمقاتلين. ويذكر في هذا الخصوص دنيس التلمحري أنّه كان يصطحب الجيش الإسلامي في حركة الصّائفة جموع الحرفيّين مثل حملة العبّاس بن محمّد والي الجزيرة في سنة 154هـ/770م حيث انتدب البنّائين لنقب أسوار العدوّ والنجّارين لصنع الآلات الحربيّة مقابل أجورا أسندها لهم.

كما ذكر أنّه في هذه الحملة قدم التّجّار من مدن الجزيرة حاملين المؤونة للجند قصد بيعها ومعهم الطحّانين والطّبّاخين، وقدم معهم الأرمن الذين أتوا بعرباتهم وبغالهم لحمل غنائم الحرب (4).

ويبرز هذا النّموذج لحملة العبّاس بن محمّد، أنّ هذه الفئات الحضريّة تعوّدت منذ العصر الأمويّ على تقديم خدمتها للمقاتلين الذين كانت لهم قدرات شرائيّة هامّة وللدّولة التي تسند لهم أجورا محترمة، فكوّنت ثروات طائلة في

(4) دنيس: نفس المصدر ص 73 - 82.

العصر الأموي.

واستغلّت هذه الأموال لتوسيع نشاطها في المجال المدني بسبب تراجع الأعمال الحربيّة في العصر العبّاسي نسبيّا، واكتفى التّجار والحرفيّون بانتهاز الفرص مع بعض الحملات الكبرى التي كانت تقوم به الخلافة العبّاسيّة ضدّ البيزنطيّين لتقديم خدماتهم مثل حملة العبّاس بن محمّد بينما كان نشاطها الرّئيسي في العصر الأموي ولم يكن ذلك دور اخطار حيث ذكر دنيس مصيرهم في تلك الحملة بتشفّي ظاهر نظرا لميولاته البيزنطيّة حيث تكبّدوا الخسائر الماديّة بسبب عدم شراء المقاتلين لبضائعهم واستغناء الوالي عن الحرفيين نظرا لتعثّر الحملة ، وتعرّضت أحد قوافلهم إلى هجوم لسريّة بيزنطيّة. فلحقتهم خسائر ماديّة هامّة (5).

وهذا ما جعل هذه الفئات تهتمّ بالأنشطة المدنيّة مستغلّة موقع الجزيرة في مفترق طرقات الشرق والغرب ومرور القوافل التّجاريّة على أراضيها لتقديم الخدمات لها مع توفيرها المؤونة للقوافل وبناء الفنادق على طول الطّرق العابرة لمدن الجزيرة وصناعة منتوجات محليّة كالسّروج والسّجاد والصّابون والمتاجرة في الماشية وغيرها من المنتوجات لتروّج في مجال الخلافة، فازدهرت الأسواق في المدن أبرزها أسواق الموصل ونصيبين والرّقة.

---

(5) نفس المصدر ص 80 ـ 82.

ففي مدينة الموصل، توجد إشارات لدى الآزدي تبرز توسّع أسواق الموصل بين عصر المنصور وهارون الرّشيد حيث أضيفت أسواقا جديدة ووسّعت الأسواق القديمة مع توسّع النشاط الاقتصادي للمدينة وذكر في هذا الخصوص رواية لمحمد بن إسحاق الموصلي أنّ نائب الوالي اسماعيل بن علي العبّاسي، نقل أسوارها التي كانت حول المسجد الجامع الى المقبرة ونقل المقبرة خارج الدّروب (6) كما ذكر الآزدي توسّع ثاني للأسواق في خلافة المهدي (7) وتوجد إشارة أخرى الى وجود سوق على جسر الموصل يرتبط بازدهار الملاحة على نهر دجلة (8).

وكان لتوسّع نشاط هذه الفئات وإثراء كبار التجّار والحرفيين ان جعلها ترتقي إلى مصاف الفئات العليا لكن دون ثراء ووجاهة الآرستقراطيّة العربيّة وكان لهذه الفئات الرّغبة الجامحة في الاستحواذ العقاري على الضيعات الفلاحيّة في الآرياف المجاورة على حساب جموع القرويين .

ويذكر دنيس في أحداث 154 هـ ، أنّ شعب الموصل الذي يسكن أراضي الجزيرة غنيّ جدّا لآنّهم يستفيدون من عمل الفلاّحين ويشترون أراضيهم بالعمليّات الرّبويّة، فأصبحوا أسيادا لهم العبيد والخدم وأملاك عقاريّة وكروم وأراضي، وإذا

---

(6) الآزدي : نفس المصدر ص 166.

(7) نفس المصدر ص 248.

(8) نفس المصدر ص 204.

تواصل حالهم، فإنّهم كانوا قادرين على امتلاك الارض ومن فيها ! وكانوا يقيمون في السّاحات العموميّة للمدن كمستبدّين.

فأسياد البلاد، يعتبرون أنفسهم رؤساء الكنائس لانّهم يسيّرونها ويشير في النصّ أنّ هؤلاء هم من التجّار والطّحّانين (9).

ومن أسباب نجاحهم في الهيمنة على الملكيات الزّراعيّة في الارياف المجاورة تمتّعهم بثروات محترمة جعلتهم يستغلونها لإقراض الفلاحين بفوائد ربويّة ويستولون على ملكيّاتهم في حالات عدم خلاص ديونهم أو شراءها مباشرة من الفلاّحين لكن لم تتحوّل هذه الفئة الى ارستقراطيّة لعدم إمتلاكهم ملكيّات شاسعة نظيرة ملكيات الارستقراطيّة العربيّة وكذلك لانّ الاراضي لا تمثّل بالنّسبة لهم إلاّ وسيلة للإثراء والمتاجرة بها، حيث بقي نشاطهم الرّئيسي حضريّا، وكانوا يكلّفون وكلائهم لتسييرها.

وحول فئة الطّحّانين، فلقد استغلّت الشبكة النّهريّة بالجزيرة خصوصا على نهري دجلة والفرات والخابور لإقامة نواعير ورحى تشتغل لطحن الحنطة إلى دقيق وكانوا يستفيدون في سنوات الرّخاء من توفّر الحبوب لرفع أسعار خدماتهم وأحيانا كانوا يرفضون الطّحن لصغار الفلاّحين ويقومون بخزن الدّقيق لسنوات الجدب لرفع أسعارها في أسواق المدن والإثراء السّريع مع المضاربة بها (10).

---

(9) نفس المصدر ص 92 - 93.

(10) الأزدي : نفس المصدر ص 362.

كما استفادت فئة أخرى من استغلال الأرياف وهي فئة الكتبة وأعوان الجباية والصّيارفة الذين كانوا يعملون لجهاز الدّولة وفيهم نخبة الأهالي ممّن حذقوا الكتابة السّريانيّة والعربيّة أحيانا في المدارس الدّينيّة التّابعة لأشهر بيعات الجزيرة خصوصا في الرّها والرقة وتكريت ونظرا لكفاءتهم، فلقد عملوا منذ العهد الرّاشدي في جهاز الدّولة واستغلّوا منصبهم لاستقطاع جزءا من مداخيل الجباية مقابل خدماتهم والإثراء من عملهم للسّلطة فكان لهم النفوذ بين النّصارى جعلهم يتدخّلون في سيير الكنيسة التي لم تكن تنظر لهم بعين الرّضا نظرا لعملهم لصالح بعض الولاة الظّلمة مثل موسى بن مصعب، وتورّطوا في أعمال مشينة وفعل الموبقات مع عدم تقيّدهم لتعاليم الكنيسة (11).

ولقد فسّر كلود كاهين في مقاله الذي اعتمد فيه على حوليّات التّلمحري إثراء هذه الفئة لأنّ النّظام الجبائي القائم تنجرّ عنه المضاربة في المنتوج وإثراءا سريعا لأعوان الدّولة (12).

2) المزارعون : بين التعسّف الضّريبي للدّولة وتعدّيات البدو :

امتدّ المجال الزّراعي في الجزيرة بالقيم الشمالي أساسا أين تتوفّر كميّات

(11) دنيس : نفس المصدر ص 176.

(12) Claude Cahen: Fiscalité - propriété antagonismes sociaux en Haute Mésopotamie au temps des pre--miers abbasides d'après Denys de Tell Mahré p 131-152" Arabica - T I / Fas 2 1954.

الأمطار الأساسيّة لتعاطي الزّراعة البعليّة وكذلك على الشريط النهري بالنسبة للزّراعة السّقويّة، على ضفاف دجلة والفرات وبعض روافدهما كنهر الخابور.

وفي هذا المجال، كانت تعيش مجموعات آراميّة في قرى متعدّدة تستغل الأراضي الفلاحيّة وفق نظام الملكيّة المشتركة للقرويّين نظريّا.

وحسب بعض الإشارات خصوصا في المصادر السريانيّة، فإنّ أوضاع الفلاّحين لم تتغيّر في الأوّل إثر الفتح الإسلامي، حيث كانت عقود الصّلح قد ابقت على الأوضاع السّابقة لنظام الملكيّة والنّظام الجبائي.

لكن منذ بداية القرن II هـ، أدّى تغيّر الأوضاع الإقتصاديّة وتشدّد النّظام الجبائي القائم الى تدهور أوضاع جموع الفلاّحين، حيث كانت سياسة الولاة تخدم المدن على حساب الأرياف وكان نظام المسؤولية الجماعية لأهل القرى أمام الجباة، قد جعل العلاقات بين المزارعين الأغنياء وعامّة الفلاّحين تحتدّ، كما توتّرت العلاقة بين الحضر والرّيفيين بسبب الصّراع على امتلاك الأرض والنّزوح من الأرياف الى المدن. حيث كان هاجس المجموعات القرويّة هو منع أفراد جماعاتهم من الفرار نحو المدن لأنّه ينجرّ عنه إثقال كاهلهم بمزيد من الضّرائب ومزيد العمل لتوفير المبلغ المطلوب لأعوان الجباية (13).

وأمام تزايد حجم ملكيّات الحضريّين على الأرياف المجاورة، كان القرويّون يسعون لدى السّلطة لفرض نصيب أكثر من الضّرائب على الملاّكين الحضريّين،

(13) نفس المقال لكاهين : من ص 144 إلى ص 147.

حيث ذكر دنيس قدوم القرويّين للمدن للإحتجاج لدى أعوان الجباية من تصرّفات الملاّكين الحضريّين في نهاية خلافة المنصور (14).

كما ذكر نفس المصدر قدوم القروّيين للمدن للبحث عن الفارّين من قراهم وارجاعهم بالقوّة والتجاءهم أحيانا إلى اعوان الدّولة لمطاردتهم والقبض عليهم (15).

وترجع هذه الأوضاع المتدهورة للمزارعين إلى تصرّفات أعوان الجباية التي تخدم مصالح كبار الفلاّحين والملاّكين الحضريّين على حساب عامّة الفلاّحين إذ أن المجموعات القرويّة عوض بيعها محصولها مباشرة في أسواق المدن، يجبرون على بيعها بثمن بخس لأعوان الدّولة والتي يتصرّفون في المحصول لبيعه للتجّار. أو يلتجأون إلى بيع المحصول قبل الحصاد للتجّار دون سعره الحقيقي (16). وهي وضعيّة تؤدّي إلى إفلاس صغار الفلاّحين.

وأمام مطالبة الدّولة للمزارعين بمؤخّر الضّرائب، فإنّ القرويّين يذهبون للمدن لأخذ القروض بفائض ربوي من التّجّار ينجرّ عنه فقدانهم في حالة عدم

---

(14) حوليّات التّلمحّري، ص 131.
(15) نفس مقال كاهين ص 147.
(16) نفس المصدر ص 112.

خلاص دينهم لأراضيهم ويتحدّث دنيس أنّ هذا الوضع كان وراء الثّراء الفاحش لتجّار الموصل (17).

وتبرز فئة أخرى أثرت من هذا الوضع وهم مشايخ القرى الذين يمثّلون الجماعة القرويّة أمام أجهزة السّلطة وعادة ما كانوا من كبار الملاّكين وشاركهم في نفوذهم بالقرية أفراد المجلس القروي الذين كانوا بدورهم من أبرز الملاّكين في الدّائرة القرويّة. ولقد استغلوا عدم قدرة الفلاّحين الصّغار على دفع مؤخّرات الضّرائب لرهن أملاكهم وأصبحوا شركاء الجباة في استنزاف خيرات الأرياف والتّمعّش من هذا الوضع ويذكر دنيس، أنّ هذا الوضع مكّنهم من أن يحوّلوا الفقراء من الفلاّحين الى خدم مستعبدين حيث كانوا يطالبونهم بالعمل في أراضيهم مع أفراد أسرتهم عند عدم خلاص ديونهم. وهي أعمال شبيهة بالسّخرة وتمتدّ لفترة طويلة إلى أن يتخلّص هؤلاء من الدّين (18).

ويرتبط إلتجاءهم الى مشايخ القرى وكبار المزارعين بناحيتهم وفقدانهم لحقوقهم بسبب خوفهم من تعسّف الجباة الذين يلتجئون في حالة عدم دفعهم للمبلغ المطلوب الى التعذيب الجسدي، لذلك نجد المزارع الصّغير يرهن حريّته

(17) نفس المصدر ص 141 و151 و 152.

(18) نفس المصدر ص 112 و 113.

لصالح شيخ القرية راحة له وفي مأمن من تعسّف الدّولة. بينما يتلجأ بقيّة المزارعين إلى بيع محصولهم لشيخ القرية دون أن يلحقهم أذى الجباة، فتحوّل هؤلاء المشايخ إلى جباة الجماعة القرويّة.

وهذه الوضعيّة، يبدو أنّها أزّمت الأوضاع في الأرياف الى حدّ أن جعلت ظاهرة الفرار من الأرياف إلى المدن من قبل صغار المزارعين مشكلة كأداء للدّولة لأنّها أضرّت بالانتاج الفلاحي وجعلت بعض المجموعات القرويّة عاجزة عن أداء مستحقّاتها للدّولة في عصر الخليفة المنصور الذي إلتجأ إلى تكليف والي الموصل موسى بن مصعب منذ سنة 154 هـ بعمليّة إحصاء شامل للسكّان في منطقة الموصل لتشمل بعد ذلك كامل الجزيرة عندما ضمت له في ولايته وكان هدف هذا الاحصاء هو حصر الهاربين من الأرياف إلى المدن وتكليف عونا خاصّا مكلّفا بمطاردتهم وإرجاعهم للمدن، فأقيمت الحواجز على الطّرقات لمراقبة هويّات المارّين ولم يكن ذلك دون تجاوزات من قبل الأعوان الذين أخذوا الأموال من التجّار والمسافرين دون وجه حقّ.

وقام هؤلاء الأعوان بتحقيقاتهم في المدن للقبض على الفارين ويبدو أنّ ذلك لم يكن بالنّجاعة المطلوبة ممّا دفع بأعوان الدّولة إلى وشم من أرجعوهم للقرى على أيديهم باسم ناحيتهم ولمنعهم من الهروب من جديد (19) وهذا الإجراء القاسي يعبر عن مدى إنزعاج السلطة من ظاهرة الفرار.

(19) نفس المصدر ص 123.

وهنا نتساؤل عن سبب إلتجاء القرويين للهروب من قراهم إلى المدن ولماذا لم يهاجروا إلى أرياف أخرى ؟

والإجابة ترتبط بتأثيرات التحوّلات الإقتصاديّة التي شهدتها المنطقة منذ نهاية الحكم الأموي وبداية الحكم العبّاسي، حيث تطوّرت الأنشطة الحضريّة يقابلها التشدّد الضّريبي الذي تميّزت به الإدارة العبّاسيّة حسب إشارات نجدها في كتاب الأزدي (20) وكان العديد ممّن فرّوا الى المدن نجحوا في الإثراء الفاحش بسبب ممارستهم للأنشطة التّجاريّة في المدن.

وذكر في هذا الخصوص جموع قرويّي منطقة الموصل الذين نزحوا نحو مدن الجزيرة وكوّنوا ثروات في الأعمال الحرّة التي تعاطوها لكن بقي وضعهم هشّا لعدم شرعيّة إقامتهم بها، وذكر دنيس في هذا الخصوص أنّ بعض من أثرى كان يركب البغال في موكب تسبقه خدمهم ومنهم من كان يعزف بالمزمار عند تجوله في الأسواق لإبراز ثراءهم أمام النّاس (21).

لكن كان تعديل سنة 154 هـ هونهاية لوضعهم المادي المتميّز حيث أجبروا لترك كلّ ما يملكون وهجر منازلهم عند قدوم أعوان الإحصاء وأصبح نفس الأشخاص عراة جائعين يشحذون بين الدّيار.

(20) الأزدي : نفس المصدر ص 205 ... 206 حيث قرّر المنصور قتل أهل الموصل لخروجهم عن سلطته لكن عدل عن ذلك !

(21) دنيس : نفس المصدر ص 83 يصف ثراءهم وتكبّرهم.

ويقول دنيس إنه عندما بدأ أعوان الإحصاء في مطاردتهم، ترك هؤلاء التجّار والطحّانين أرزاقهم ولم يحملوا معهم إلاّ أطفالهم للفرار في الجبال حفاة عراة وآخرون اختبئوا في السّراديب كالموتى مدّة إلى أن شحبوا ومن فرّ منهم مات جوعا ومن اختبأ مات بالحمّى. ولقد كان المنادي يبرّح في السّاحات العموميّة للمدن، أنّ كلّ من أخبأ فارا أصيل الموصل يدفع خطيّة وكلّ ما يملك متاع أحد الفارّين يباع ... وقدم أعوان الدّولة جوائز لكلّ من يقبض عليهم فترصّد لهم البدو في الطّرقات للقبض عليهم ... (22).

وفي السّنة الموالية أي سنة 155 شمل الإحصاء كلّ الفارين من نواحيهم بالجزيرة واعتقال كلّ من نزح لأحد المدن منذ 40 و50 سنة ! فجمعوا أعدادا وفيرة منهم وحجزت أملاكهم، وكان لكلّ عمالة بالجزيرة عونها للقبض على الفارّين، فكان يجتمع أحيانا في كلّ مدينة 10 أعوان ليبحث كلّ واحد على الفارّين من عمالته، ويتمّ جمع المقبوض عليهم في سراديب المنازل، ومنهم من كان يموت جوعا وبردا. ويتعرّض آخرون للتعذيب للإقرار بأملاكهم المخفيّة (23).

وممّن استغلّ هذا الوضع بعض مشايخ القبائل العربيّة الذين كان يجيرون الفارين من أعوان الدّولة مقابل تسليمهم جزءا من أرزاقهم (24).

---

(22) نفس المصدر ص 92 - 93.
(23) نفس المصدر ص 128.

(24) نفس المصدر ص 138.

وهذه الإجراءات القاسية التي قامت بها الإدارة العبّاسيّة لمقاومة ظاهرة الهروب من الأرياف. تذكّرنا بالإجراءات التي اتخذها الحجّاج في العراق ضدّ الفارّين. ويذكر دنيس أن العنف الذي اتّسم به تدخّل الدّولة كان أساس المظالم التي لحقت الأهالي نظرا إلى الأعداد الوفيرة من الأشخاص الذين تضرّروا من هذه الإجراءات.

ولا يفسّر هذا العنف في ردع ظاهرة النزوح الاّ بالأضرار الذي لحق النّظام الجبائي بالمنطقة بسبب إستنزاف قوى الإنتاج في الأرياف. ويذكر دنيس أنّ هذا الإجراء، حدث مباشرة عندما مرّ الخليفة بالجزيرة سنة 154 هـ فلاحظ ثراء المنطقة، فغضب على الوالي العبّاسي ونهره على تقاعسه في جمعه الضرائب بها (25).

لكن يبدو أنّه لاحظ نقص أعداد الفلاّحين المسجّلين في دفاتر الحساب وعجز بعض المجموعات القرويّة عن الإيفاء بمستحقّاتهم ممّا أغضبه وجعله يقرّر إرجاع الفارين إلى قراهم، وتؤكّد رواية للأزدي أنّ الوالي موسى بن مصعب كان يقوم بأجراءات ضدّ الفارّين من المدن للقبض عليهم، حيث كان المنادي يبرّح على باب موسى ابن مصعب بالموصل : أين أهل الرّقّة ؟ أين أهل حلب أين أهل دمشق ؟ وذلك سنة 157 هـ وفي ولايته الأولى ويذكر أنّه في ولايته الثانية وهي رواية أوضح حيث ذكر أنّ المنادي على باب موسى بن مصعب يقول : أين أهل الشرّ، أين

(25) نفس المصدر ص 100 و 101.

أهل الدّخنة، وغير ذلك من المدن (26) ويعني أنّ ذلك النّداء كان نفسه في غيره من المدن. وهتين الرّوايتين توضّحان ما ذكره دنيس من استهداف الفارين من الأرياف للمدن إلى حملات بوليسيّة للقبض عليهم وشملت حتى من كان من ولاية الشّام !

ولم يكن موقف الدّولة فقط معاديا لهذه الفئة بل شاركهم في ذلك جموع القرويّين ويذكر دنيس أنّه في نواحي «توتيس» التي تقع على دجلة العليا بديار بكر، فتح منجم للرّصاص والفضّة والحديد، كانت تستغلّه مجموعة هامّة من الذين فرّوا من قراهم وبنوا حول المنجم قرية عامرة، وأثروا من عملهم المنجمي واستقرّت أحوالهم، وفي سنة 156 هـ التي كانت سنة جدباء قلّت فيها الأطعمة وظهرت المجاعة في أرياف الجزيرة، فهاجرت جموع من الفلاّحين الفقراء من جنوب الجزيرة نحو منطقة دجلة العليا. وتدافعوا على قرية توتيس لنهب وقتل أهلها واغتصاب نساؤهم في فصل الشتاء المثلج، وهذا ما دفع بعامل المنطقة إلى القيام بحملة أمنيّة واسعة وقمع المهاجمين وكان المقبوض عليهم قيّدوا بالسّلاسل ووضعوا في السّراديب. وكثيرا منهم مات تحت التّعذيب وسوء المعاملة (27). وهذه الحادثة التي أوردها دنيس تبرز مدى تعمّق عداء الفلاّحين لهذه الفئة وردود الفعل الوحشيّة التي تعرّضوا لها وهو فصل من الصّراع الاجتماعي الحادّ.

---

(26) الأزدي : نفس المصدر : ص 227 وص 249.
(27) دنيس : نفس المصدر ص 173 - 175.

بالإضافة الى هذا الصّراع بين القروّيين وفئة النّازحين للمدن، فإنّه توجد فوارق بين وضع الفلاّحين في شمال الجزيرة والتي تتميّز أراضيها بخصوبتها وتوفّر كميّات الأمطار اللاّزمة لانتظامها النسبي بالنّسبة للإنتاج الفلاحي. فكان يتوفّر بها انتاجا جيّدا للحبوب والكروم مع توفّر الماشية والخيل وكان وضع جموع القرويين جيّدا بالمقارنة مع بقيّة مجال الجزيرة حيث كانت بعض المجموعات القرويّة غير قادرة على ضمان إنتاج زراعي منتظم نظرا لعدم إنتظام كميّات الامطار ونقصها وعدم خصوبة التّربة فتلتجأ في السّنوات الجدباء كما رأينا إلى مهاجمة المناطق الشماليّة والقيام بأعمال النّهب للحصول على مؤونتهم كما كانت تهاجم جموع القروّيين في الشمال بالإضافة إلى المجموعات الجبليّة من الارمن والاكراد بسبب جدب المناطق الجبليّة أو قساوة بعض المواسم الشتويّة.

ويشير كذلك دنيس إلى أن قرى الشمال كانت تهاجمها الذّئاب والسّباع القادمة من المرتفعات المجاورة وتلحق الاذى بأهلها (28).

وساهم ذلك في هشاشة الاوضاع الامنيّة لهذه الجماعات رغم تمتّعهم بإنتاج زراعي منتظم.

كما عرفت المجموعات القرويّة في الشّمال صراعا اجتماعيا حادّا بسبب ثراء الارض حيث ألهب ذلك شعور الاغنياء بالجشع بينهم حيث كثر افكتاك أرزاق

(28) نفس المصدر ص 49 ذكر نهب الارمن لشمال الجزيرة وذكر في حوليّات حالات مهاجمة السّباع للقرى.

الغير والتعدّي على أراضي الأيتام والأرامل ويذكر دنيس أنّ الرّهبان أصابهم الجشع وأصبحوا يشترون الحقول والماشيّة للإثراء السّريع (29).

وبالمقابل كان الملاّكون الكبار بالشمال يستغلّون بؤس الفلاّحين القادمين من مناطق الجنوب الجدباء للعمل كيد عاملة رخيصة مثل سنة 1551/1771م التي كانت جدباء في جنوب الجزيرة وحيث اكتفت اليد العاملة المهاجرة بالعمل مقابل حصولها على الغذاء وأضرّ ذلك اليد العاملة الفلاحيّة المحليّة، حيث عزف الملاّكون على تشغيلهم، فكثر التّسوّل بين صفوف العملة العاطلون والمهاجرين الذين لم يتحصّلوا على شغل ومنهم من تحوّل إلى لصوص كان يقطعون الطّرقات. بالإضافة إلى ما حمله المهاجرون من أوبئة أضرّت بالسّكّان في الشمال (30).

وهذه الإشارات تبرز أن أوضاع الفلاّحين كانت مختلفة بين مجال خصب شمالا وجاذب لليد العاملة الفلاحيّة من بقيّة المنطقة وبقيّة مجال الجزيرة الذي كان نافرا للفلاّحين في سنوات الجدب كما تبرز التأثيرات السّلبيّة لهجرة اليد العاملة من الجنوب إلى الشّمال على اليد العاملة المحليّة وما ترتّب عنها من انتشار البطالة بينها وتردّي أوضاعها الإجتماعيّة ويبدو أنّ الشهادات التي قدّمها دنيس هي ضمن الشّكاوي التي تحصّل عليها رهبان المنطقة في الاديرة والكنائس، وجدت صداها في حوليّات دنيس معتمدا على حوليّات معاصرين للفترة.

---

(29) نفس المصدر ص 99.

(30) نفس المصدر ص 177 و 178.

II) المسيحية بالجزيرة

1) المسيحيّة بالجزيرة والتّنظيم الكنسي :

أ) وضع النّصارى بالجزيرة :

كانت العلاقة بين أهل الذمّة بالجزيرة ودولة الخلافة منظّمة وفق أحكاما خاصّة ذكرت في معاهدات الصّلح التي أقامها الفاتحون مع نصارى المدن ولقد قدّم البلاذري مقتطفات منها في كتاب فتوح البلدان.

كما برزت أدبيّات ذكرت نصوص معاهدات الصّلح من أكثرها تفاصيلا ما ذكره ابن قيّم الجوزية في كتاب أحكام أهل الذمّة وهو مصدر فقهي متأخّر أبرز ما عرف بالأحكام العمريّة نسبة إلى عمر بن الخطّاب مع نصارى الجزيرة. ولقد ذكر رواية لابن عيّاش وكان أحد علماء الشام من القرن II هـ (توفّي في 181 هـ) حيث أبرز شهرة هذه الشروط لكن لم يذكر إسنادها بدقّة و أنّ هذه الشروط، جاءت بعد مكاتبة من أهل الجزيرة إلى عبد الرحمان بن غنم بينما ما نعرفه من خلال خبر فتح الجزيرة أنّه عياضا ! ومحتوى المراسلة كان «إنّا حين قدمت بلادنا، طالبنا إليك الأمان لانفسنا وأهل ملّتنا على أنّا شرطنا لك على أنفسنا إلا يحدث في مدينتنا كنيسة، ولا فيما حولها ديرا ولا قلاية ولا صومعة راهب، ولا نجدّد ما خرّب من كنائسها ولا ما كان منها في خطط المسلمين، وألا تمنع كنائسنا من المسلمين أن ينزلوها في اللّيل والنّهار وأن نوسّع أبوابها للمارّة وابن السّبيل، ولا نؤوي فيها

ولا في منازلنا جاسوسا، وألاّ نكتّم غشّا للمسلمين، وألاّ نضرب بنواقيسنا، إلاّ ضربا خفيّا في جوف كنائسنا، ولا نظهر عليها صليبا، ولا نرفع أصواتنا في الصّلاة ولا القراءة في كنائسنا فيما يحضره المسلمون، وألاّ نخرج صليبا ولا كتابا في سوق المسلمين، وألاّ نخرج باعوثا وقال : والباعوث يجتمعون كمّا يخرج المسلمون يوم الاضحى والفطر ولاشقّائين (عبد)، ولا نرفع أصواتنا مع موتانا، ولا نظهر النّيران معهم في أسواق المسلمين، وألاّ نجاورهم بالخنازير ولا نبيع الخمور، ولا نظهر شركا، ولا نرغّب في ديننا، وألا ندعوا إليه أحد، ولا نتّخذ شيئا من الرّقيق التي جرت عليه سهام المسلمين، وألاّ نمنع أحدا من أقربائنا الدّخول في الإسلام وأن نلزم زيّنا حيثما كنّا، وألاّ نتشبّه في لبس قلنسوّة ولا علامة ولا نعلين، ولا فرق شعر، ولا في مراكبهم ولا نتكلّم ولا نكنّى بكناهم، وأن نجز مقادم رؤوسنا، ولا نفرّق نواصينا، ونشدّ الزّنانير على أوساطنا، ولا ننقش خواتمنا بالعربيّة، ولا نركب السّروج، ولا نتّخذ شيئا من السّلاح ولا نحمله، ولا نتقلّد السّيوف، وأن نوقّر للمسلمين في مجالسهم، ونرشدهم الطّريق، ونقوم لهم عن المجالس إذا أرادوا الجلوس، ولا نطّلع عليهم في منازلهم، ولا نعلّم أولادنا القرآن، ولا يشارك أحدا منّا مسلما في تجارة، إلاّ أن يكون إلى المسلم أمر التجارة. وأن نضيف كلّ مسلم عابر سبيل ثلاثة أيام، ونطعمه من أوسط ما نجد، ضمنا لك ذلك على أنفسنا، وقبلنا الآمان عليه، فلا ذمّة لنا وقد حلّ لك منّا ما يحلّ لأهل المعاندة والشقاق...

ويكمل ابن الجوزي الرّواية بذكر أنّ إبن غنم كاتب عمر الذي وافق على

الشروط طالبا إضافة شرطين وهما ألاّ يشتروا سبايانا، ومن ضرب مسلما فقد خلع عهده» (1).

أمّا البلاذري فإنّه يذكر شروط الصّلح وتتميّز باقتضابها بالمقارنة ما ذكره ابن الجوزي في الشروط العمريّة، ومن أبرز شروط الصّلح ذكر البلاذري رواية حول صلح الرّها وقال: فصالحوه على أنّ لهم هيكلهم وما حوله، وعلى أن لا يحدثوا كنيسة، إلاّ ما كان لهم وعلى معونة المسلمين على عدوّهم، فإنّ تركوا شيئا ممّا شرط عليهم، فلا ذمّة لهم» وهو نفس صلح أهل الجزيرة الذين رضوا بصلح الرّها (2) ويشبه نصّ صلح الرّها، صلح الرّقة الذي بقي محفوظا عند أسقف المدينة إلى عصر عمر بن عبد العزيز، وكان معروفا لدى مؤرّخي العصر العبّاسي وكان نصّه «هذا ما أعطى عياض بن غنم، أهل الرّقة يوم دخلها، أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم، لا تخرب ولا تسكن إذا أعطوا الجزية التي عليهم ولم يحدثوا مغيلة وعلى أن لا يحدثوا كنيسة ولا بيعة ولا يظهروا ناقوسا ولا باعوثا ولا صليبا، شهد الله وكفى بالله شهيدا ... (3).

ويرجع البلاذري في روايتين حول صلح الرّها. والرّواية الثانيّة إلى داود بن عبد الحميد، حفيد ميمون بن مهران عالم ا لجزيرة وفقيه الرّقة في عصر عمر بن عبد العزيز، ويعتبر داود أحد أبرز رواة الجزيرة في العصر العبّاسي وكان نصّ

---

(1) لابن الجوزي: أحكام أهل الذمّة من ص 659 إلى ص 662.

(2) البلاذري: فتوح البلدان ص 172.

(3) نفس المصدر ص 173.

الصّلح بتفاصيله «هذا كتاب من عياض بن غنم ومن معه من المسلمين لأهل الرّها، انّي أمّنتهم على دمائهم وأموالهم وذراريهم ونساؤهم ومدينتهم وطواحينهم إذ أدّوا الحقّ الذي عليهم ولنا عليهم أن يصلحوا جسورنا ويهدوا ضالنا، شهد اللّه وملائكته والمسلمون» (4).

ويتميّز نصّ صلح الرّقة والرّها بالمقارنة مع ما ينسب إلى الشروط العمريّة التي كانت على نصارى الجزيرة بأنّها أكثر إعتدالا وشروطها أقلّ بكثير من الشروط العمريّة لذلك شكّ بعض المستشرقين حول حقيقة نصّ هذه الشروط ولم تذكرها إلاّ المصادر المتأخّرة (5) ويبدو أنّها ظهرت لإعطاء الشرعيّة للإجراءات القاسية التي ألزم بها بعض الخلفاء العبّاسيّين على أهل الكتاب على غرار المتوكّل.

وما يهمّنا في هذه النّصوص، أنّها اعتبرت أساسا تشريعيّا توضّح العلاقة بين السّلطة الإسلاميّة وأهل الكتاب. ولقد ذكر القشيري أنّ عمر بن عبد العزيز، رغب في معرفة عقود الصّلح مع النّصارى للتّحقيق فيها ويبدوا أنّ ذلك، كان لأخذ إجراءات في حقّ النّصارى توافق شروط الصّلح والتّثبّت إن كان النّصارى بالجزيرة قد خالفوا عقود الصّلح واختار لهذا الغرض عقد صلح الرّها لطلبه، وتقول الرّواية عن ابن عائشة : كنت عاملا لعمر بن عبد العزيز على الرّها، فجائني كتابه، أنّه بلغني أنّ عند أهل الرّها، صلح الجزيرة فابعث به إليّ حتّى

(4) نفس المصدر ص 174.

(5) مقال نصاري : $E.I_2$ ج VII ص 971 .

أنظر فيه، قال : فبعثت إلى أسقفهم حتّى أتاني به في سرج أوجرّ فقرأت فإذا فيه...» ثمّ أعاده عمر إلى أسقف الرّها بعد قراءته (6).

وهذه الحادثة تبرز إمتثال سلطة الخلافة لنصّ عقود الصّلح مع أهالي البلاد من النّصارى.

كما برزت في الحوليّات السّريانيّة والإسلاميّة مراسيم من الخلافة الإسلاميّة تعطي بعض الإمتيازات للبيع بالجزيرة حيث ذكر دنيس أنه الرّاهب إبراهيم الذي يقود إنشقاقا على السّلطة الكنسيّة لدنيس في عهد المأمون، أخرج كتب من مكتبة بيعته لعليّ بن أبي طالب تعطي لرهبانها إعفاءا جبائيا وبعض الإمتيازات الاخرى للتأثير في شيعة بغداد من أجل الحصول على اعتراف بسلطته الكنيسيّة (7).

كما توجد رواية في خبر إسحاق بن إبراهيم الموصلي أنّه خرج لدير القائم بالرقّة مع الخليفة الرّشيد فأكرمهما الرّهبان فكافئهم الخليفة بمبلغ مالي و«احتمال خراج الدّير سبع سنين» وهذه الرّواية تلمّح أن هذا الدّير تحصّل في العهد الاموي على هذا الامتياز كلّما نزل فيها أحد الامراء الامويّين. (8).

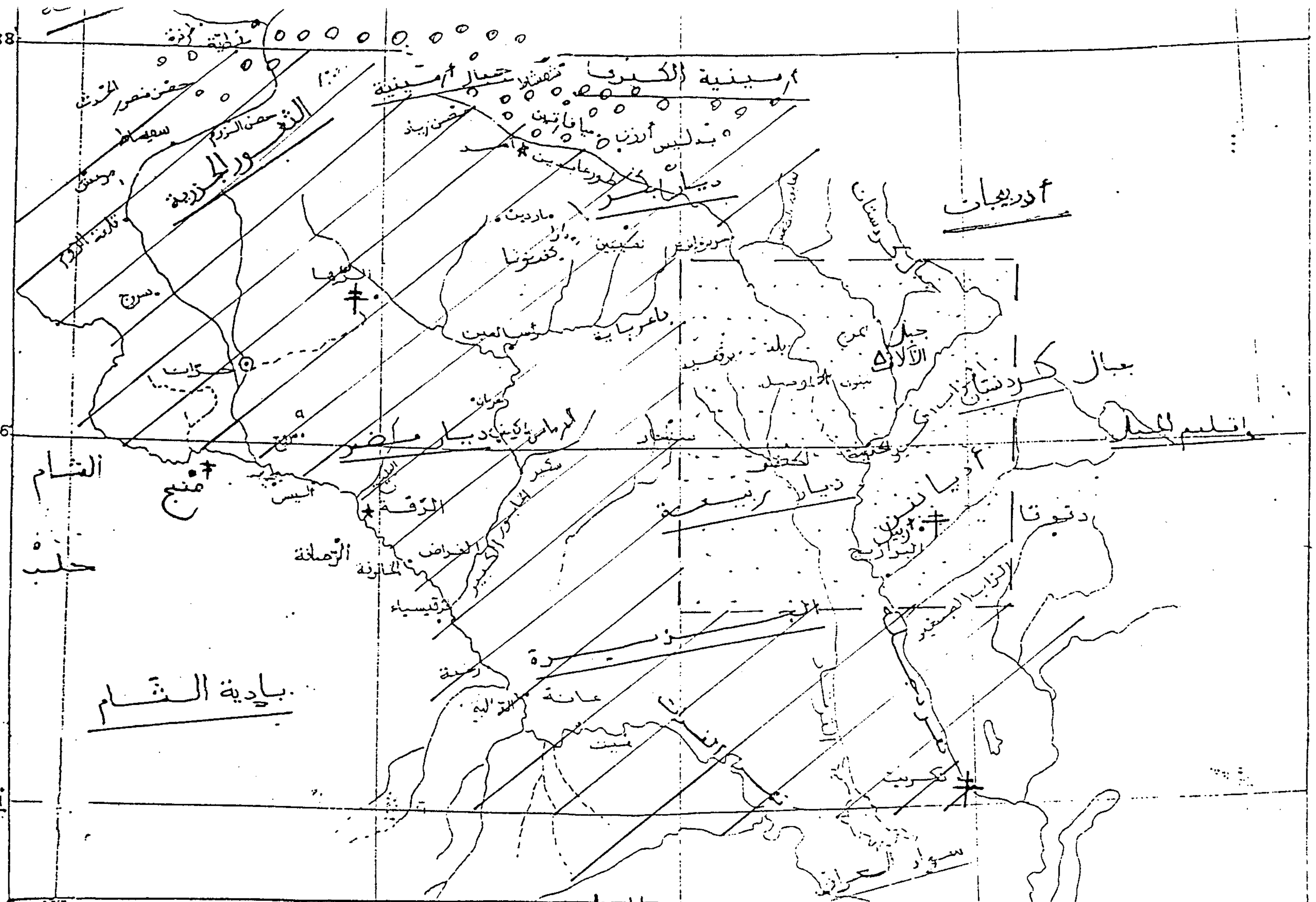
لكنّ هذه الإمتيازات تبقى وقتيّة ولا تخصّ إلاّ بعض الاديرة التي أشتهرت بضيافتها للامراء الامويّين والعبّاسيّين.

---

(6) القشيري : تاريخ الرّقة : ص 6 و 7.

(7) حوليّات دنيس : ص 15.

(8) الاصفهاني : الاغاني ج V من ص 418 إلى ص 419.



المفتاح

▨	مجال الكنيسة اليعقوبية ذات الطبيعة الواحدة
⁚	مجال الكنيسة النسطورية
° °	مجال الكنيسة الأرمينية
☨	المراكز الكنسية الكبرى

وثيقة رقم 3

مقياس الرسم: 1: 350.000

خريطة التنظيم الكنسي بالجزيرة
في بداية القرن الثالث هجري/الثامن ميلادي

ب) التنظيم الكنسي :

تتميّز الكنيسة بالجزيرة بأنّها لا تنتظم في كنيسة واحدة : حيث أنّ النّصارى كانوا منقسمين بين تنظمين كنسيّين رئيسيّين مع طوائف مسيحيّة صغيرة وهي :

- كنيسة اليعاقبة من أصحاب الطّبيعة الواحدة ونشأ هذا المذهب في منطقة الرّها من قبل الرّاهب يعقوب البرّادي أسقف بين 543 - 578 م وكان تحت حماية الحارث الغسّاني.

وتجذّر هذا المذهب قبيل الفتح الإسلامي على حساب المذهب الخلقيدوني أو الملكاني بين عرب الجزيرة والآراميّين بمعظم منطقة الهلال الخصيب ومثلت كنيسة اليعاقبة، كنيسة سريان الغرب أو السّوريّين حسب المصادر السّريانيّة تتبع كنيسة أنطاكيّة لكن كان ليعاقبة الجزيرة إستقلالا شبه كاملا على هذه الكنيسة حيث كانت تبعيّتهم لها إسميّة وكان كنيستهم في الجزيرة تحت نفوذ مطران تكريت الملقّب بالمافريان في الجزء الشرقي بينما كان الجزء الغربي تحت نفوذ مطران الرّها ويبدو أن اليعاقبة نجحوا في التّوحّد في ظلّ رئاسة موحّدة في عصر المأمون مع دنيس التلمحري، حيث أصبح مافريان تكريت خاضعا لنفوذه وأصبحت الشام خاضعة لسلطته (9).

---

(9) حول اليعاقبة : مؤلّفات فياي منها : أحوال النصارى.
مقال : نصارى EI2 ج VIII ٩٧١_٩٧٣

- النّساطرة : أو كنيسة سريان الشرق في المناطق التي كانت خاضعة للفرس والتي تعرف في مصادرهم بمنطقة أثور أو اسور حيث إمتدّت كنيستهم بين شرق الجزيرة وشرق نهر دجلة ويرجع حضورهم بها إلى القرن IV م وقد ساهم الرّاهب برصوما في نشر شبكة من الكنائس والأديرة بهذه المنطقة في القرن V م وكان مركز دعوته نصيبين ومنطقة نينوى وتكريت وكان زعيم كنيستهم يعرف في المصادر الإسلاميّة باسم الجاثليق ومركز الجاثلقيّة في المدائن ثم انتقل إثر ذلك إلى الموصل في العصر العبّاسي (10).

- الخلقيدنيّون أو الملكانيّون : وهم أصحاب المذهب الرّسمي لبيزنطا وكان معظم أتباعهم من الإغريق المقيمين بالجزيرة أو من رهبان وقساوسة المناطق الحدوديّة ومثّلوا أقليّة دينيّة بين النّصارى وأهمّ مركز ديني لهم كان في الرّها. ولقد تراجعت أعدادهم بعد الفتح الإسلامي لجلاء البيزنطيين من المقاطعة وبقاء أتباع هذا المذهب محلّ شبهة من السّلطة الإسلاميّة التي اعتبرتهم جواسيسا لبيزنطا بالجزيرة، وتمّت معاملتهم بقسوة خصوصا من كانوا على الثغور وحاولت الدّولة العبّاسيّة إجتثاثهم وإجبارهم للإلتحاق بالكنيسة اليعقوبيّة أو النّسطوريّة (11).

---

(10) حول اليعاقبة ؛ مع مقال نصارى : وحول أصل هذا المذهب : Sournier: L'orient des premiers chrétiens Devreese (R) : Le patriarcat d'Antioche. Chabot : Chronique de Denys de Tell Mahré: Introduction.

(11) فياي أحوال النّصارى يذكر في ص 72 وفي أحداث 780 م إعدام رومانوس وهو راهب ملكاني من قبل المهدي متهما بالتجسّس للبيزنطيّين.

- الموارنة : وهم نصارى لبنان يبدوا أنّ قدومهم للجزيرة وأرمينية تمّ في مرحلة الفتنة الثانيّة في العهد الاموي وما عقبها من تعسّف على هذه الطّائفة إثر قدوم الجراجمة للبنان والحرب التي خاضها الامويّون ضدّهم وشملت الموارنة فهاجروا إلى غرب أرمينية التّابعة لبيزنطا ويبدوا أنّ معظم اللاّجئين إستقرّوا إثر ذلك بمنطقة الرّها وأراضي ثغور الجزيرة ويذكر إبن العبري أنّه اشتهر بينهم تيثوفيل وكان مذهبهم مختلفا عن اليعاقبة حول طبيعة المسيح وهم أقرب إلى الكاثوليك منهم للملكانيّين أو اليعاقبة والنّساطرة (12).

- البدو النّصارى وكنيسة العرب :رغم تبعيّة النّصارى إلى الكنيسة اليعقوبيّة في معظمهم والبقيّة إلى كنيسة النّساطرة في الجزء الشرقي، فإنّهم يتمتّعون بتنظيم كنسي خاصّا بهم ويرجع تنصّر العرب خصوصا إلى القرن VI م مع جهود الأسقف اليعقوبي «أحودمه» من عرب «بلد» وكان نسطوريّا ثمّ أصبح على مذهب اليعاقبة ونجح في تنصير «عرب الخيام» في منطقة باعرباية وأقام بينهم تنظيما كنسيّا حيث عيّن على كلّ قبيلة قسّا يطلق عليه بالشمّاس وشيّد الكنائس لهم وبنى لهم ضريح مارسرجيوس قرب بلد وهذا التنظيم شمل أساسا مجموعة تغلب الشمال وإثره إمتدّ هذا التنظيم على تغلب الجنوب بمنطقة عانة مع خلفه قامشيوع (578 - 609 م) وبقيت أسقفية بيت عرباية تعرف عند اليعاقبة زمن الفتح الإسلاميّ بأسقفيّة العرب وكانت أسقفيّة عانة تابعة لمافريان تكريت وكان لتغلب أسقفها الخاصّ بها دون بقيّة عرب الجزيرة.

---

(12) حول لجوءهم إلى أرمينة Caetani: chronographia Islamica. Fas V p. 12 وابن العبري: تاريخ الزّمان ص11.

وحسب المستشرق نو وسلوى العايب فإن التنظيم الكنسي لعرب الجزيرة بقي قائم الذّات في العصر الأموي والعبّاسي الأوّل بأكثر قوّة من بقيّة المجال المسيحي العربي (13).

- طائفة البيالقة : Les Pauliciens وهي طائفة مسيحيّة متواجدة في الأصل شرق آسيا الصغرى على حدود الجزيرة غربا وتأثّروا بالدّيانة المانويّة وكانوا في العصر الأحموي يعملون لصالح الدّولة البيزنطيّة. لكن منذ نهاية القرن II هـ ونتيجة لاضطهادهم الدّينيّ، فلقد قرّروا الهجرة إلى ثغور الجزيرة وتحصّلوا على حماية أمير ملطيّة فأصبحوا بعد حكم المعتصم يعملون للمسلمين في حروبهم ضدّ بيزنطا ومثّلوا طائفة هامّة في منطقة ملطيّة التّابعة لثغر الجزيرة (14).

- الكنيسة الأرمينيّة : تتّبع الكنيسة الأرمينية كما رأينا إلى الكنيسة اليعقوبيّة ومركزها بأنطاكيّة ولم يمنع ذلك من تمتّعها بتنظيم مستقلّ بها رغم تقارب الطّقوس الدّينيّة مع الكنيسة الأراميّة بالجزيرة وامتدّ هذا التنظيم الكنسي إلى شمال الجزيرة أين توجد المجموعات الأرمينية، حيث كانت تمثّل كنيستهم الوطنيّة.

---

(13) الرّجوع إلى : Nau : Les Arabes chrétiens de Mésoptamie et de Syrie du VII au VIII. p. 19-20 .
وسلوى العايب : المسيحية العربيّة وتطوّرها ص 172 ـ 175 . مقال : نصارى EI2 III ، ص 971 - 973.

(14) مقال : بيالقة : EI.2 ج II ص 105

وما نلاحظه بالنّسبة لكلّ هذا الكنائس، أنّها أقامت شبكة من الأديرة والكنائس والخلوات في مجال نفوذها وفق تنظيم محكم. ويوافق هذا التنظيم عادة التنظيم الإداري حيث أنّ كلّ أسقفيّة كانت توافق عادة مجال الكورة.

وبالنّسبة للكنيسة اليعقوبيّة، فلقد وصلت إلى أوج إمتدادها ببلاد الرّافدين والشّام قبيل الفتح الإسلامي وكان لها حضورها التّرابي في معظم أراضي الجزيرة، وتمثّل المجامع المسيحيّة التي يجتمع فيها الأساقفة ورؤساء الأديرة في حالة إنتخاب رئيسا جديدا لهذه الكنيسة أو لخوض في أحد المسائل التّيولوجيّة وفرصة لحصر مجال إشعاعها. فمن خلال المجمع المسيحي لسنة 817 م في الرّقة برئاسة مافريان تكريت بازيل I الذي أدّى إلى إنتخاب دنيس التلمحري رئيسا لهذه الكنيسة، يتبيّن أنّ عدد الأساقفة الحاضرين كانوا 45 ولم يحضر في هذا المجمع بعض الأساقفة ورؤساء أديرة شمال الجزيرة لتمرّدهم على سلطة رئيس الكنيسة السّابق سيرياك، ممّا يجعل هذا العدد أقلّ من مجموع أساقفة ورؤساء أديرة يعاقبة الجزيرة (15).

ويمثّل هؤلاء الأساقفة :

- طور عابدين ومنطقة آمد وماردين والتي توافق منطقة ديار بكر شمال الجزيرة وهذه المنطقة تعتبر من أكثف مجالات الجزيرة على مستوى شبكة الكنائس والأديرة والخلوّات المقامة في المرتفعات وتعيش فيها مجموعات قرويّة

(15) مقدّمة شابو في حوليات التلمحري ص 11-14.

من الآرامتّيين الذين إعتنقوا هذا المذهب خصوصا في نواحي ميافارقين وطورعابدين (16).

. منطقة تكريت : جنوب شرقي الجزيرة : وهي مقرّ المافريان الذي يعتبر أعلى سلطة كنسيّة لليعاقبة بالجزيرة قبل القرن III هـ. ويمتدّ حضور اليعاقبة بهذه المنطقة على طول دجلة وفي مناطق الجزيرة التي كانت خاضعة للفرس (17).

. منطقة الفرات الأوسط جنوب الجزيرة من عانة إلى الرّقّة : وكانت عانة مقرّ أسقفيّة عربيّة للعرب النّصارى وتوجد مجموعة أديرة على منطقة الخابور وضفاف الفرات ويعتبر مزار مارسرجيوس بالرّصافة مكان حج النّصارى العرب بالمنطقة (18).

. منطقة الرّها وحرّان : ويمتدّ مجالها إلى مدينة سميساط شمالا والرّقة جنوبا وتعتبر الرّها أهمّ مركزا للمسيحيّين اليعاقبة توجد فيه الكنيسة الكبرى التي يحجّ إليها النّصارى لاعتقادهم بوجود كفن المسيح بها وتوجد بها سلسلة من الكنائس والآديرة الشهيرة من أبرزها بيعة سوبا . ورسات . تينيّه . قطارة

(16) نفس المصدر : في أحداث 750 م مع ظهور الدّولة العبّاسيّة يتحدّث دنيس عن مقاومة هذه المجموعات المسيحيّة لتعدّيات البدو العرب في ص 47-49 وفي بقيّة الحوليّات يشير الى بيعات وكنائس شمال الجزيرة وجبل حصيا. وسلوى العايب : نفس المرجع ص 60.

(17) فياي : نفس المرجع من ص 17 إلى ص 21.

(18) نو : نفس المرجع ص 173 - 175.

وحسمي ومارلازار - بيت معدى - مارحبيب ومارميلاس وسانين وكان كلّ دير من هذه الأديرة يوجد قرب أحد قرى المنطقة تسمّى بأحد القدّيسين المدفونين فيها ومزارا لنصارى الجهة الذين يعتقدون في بركاته (19).

وتتواصل سلسلة الأديرة والكنائس نحو غرب الفرات بالشّام في منطقة منبج وكان أسقف الرّها من أبرز الشخصيّات الكنسيّة بين اليعاقبة.

- منطقة بيت عربايه وتمتدّ من بلد شرقا إلى رأس العين غربا وتضمّ منطقة نصيبين شمالا وهي مجال أعالي نهر الخابور، عرفت بأنّها مجال أهمّ أسقفيّة عربيّة لأهميّة حضور العرب النّصارى وخصوصا تغلب بها وكانت نصيبين أهم مركز للنّصارى في الديار الربعيّة تتقاسم فيها الكنيسة اليعقوبيّة نفوذها مع كنيسة النّساطرة التي كان لها حضورا مُهمّا بها قبيل الإسلام ومن أشهر الأديرة دير الزّعفران على سفح جبل شرق المدينة (20).

وكانت لتغلب أسقفيّة في بيت عربايه تحت رئاسة مافريان تكريت في نخلة وبرقعيد وبلد وكانت هذه الأسقفيّة تشرف على تغالبة الشمال ومعظم القساوسة من الآراميّين ممّن مارسا الرّهبنة في أحد أديرة المنطقة وكان بعضهم قسّا على البدو الرّحّل الذين كانوا يخصّصون خيمة لممارسة الشعائر المسيحيّة

---

(19) حوليّات التلمحري ص 49 و50 وحول المنطقة : كانار : نفس المرجع 86 و 97. وحول الرّها ص 91 - 92 يتحدّث عن 300 إلى 360 بيعة بها معتمدا على ابن حوقل : صورة الأرض ص 204.

(20) حوليّات التلمحري ذكر في عدّة مواضع أسقفية نصيبين وكانار نفس المرجع ص 100 - 103 ومعجم البلدان : دير الزّعفران ج III مقال دير.

وقدّاسهم بينما كان عرب مدن بيت عرباية والآراميّين لهم كنائسهم وأديرتهم الخاصّة (21).

أمّا في مناطق الثغور وفي جهة الفرات الأعلى فإنّ الكنيسة اليعقوبيّة كانت لها شبكة من الأديرة والكنائس في سميساط وملطية وزبطرة وتشترك مع الكنيسة الأرمينية التي كانت على نفس المذهب في التأطير الدّيني للآراميّين والأرمن ويتميّز الحضور المسيحي بهذه المنطقة بأهميّة ممّا أزعج السّلطة الإسلاميّة وجعلهم يتّهمون الكنيسة في تلك النّواحي بالتعاطف مع البيزنطيين والجوسسة لصالحهم يبرز ذلك في حكم المهدي وفي أحداث 192 هـ عندما قام هارون الرّشيد بتدمير الكنائس والأديرة بها (22).

وما يبرز من خلال تتبّع شبكة الأديرة بالجزيرة، يتبيّن أنّها كانت متواجدة بكثافة في كامل أرياف الجزيرة في المناطق التي توجد فيها المجموعات القرويّة الآراميّة وامتدّت حتّى في مجال البدو النّصارى ومثّلت مراكز إشعاع ديني بين النّصارى ويقوم فيها الرّهبان بتدريس أبناء مجموعتهم الدّينيّة وممارسة العلاج الطّبّي وإيواء الغريب، فهي تقدّم خدمات جليلة للنّصارى ممّا يفسّر تجذّر المسيحيّة في المناطق التي كانت توجد بها الأديرة.

وحول عدد الرّهبان في أديرة الجزيرة فإنّها حسب فياي تحتوي بين 150 و300 راهب لكل واحد ويبدأ التّرهّب في سنّ مبكّرة لوجود مدارس بها تقرّر

(21) المزيد من التفاصيل الرّجوع إلى كتاب سلوى العايب المذكورة ص 172 وص 173.

(22) ابن العبري : تاريخ الزّمان ص 9 و 10 وص 15 و 16.

بعض العائلات إثرها أن يرجع للحياة المدنيّة أو يترهّب. وكان الرّهبان يخضعون تماما لسلطة رئيس الدّير الذي يسمّى بالآرخمندري Archimandrite ونجد مجموعة من الرّهبان تقوم بالإحاطة بالسّكان والإتّصال بهم يسمّون بالدّيرايا أو المرّاقين.

بينما يتولّى حسابات الدّير - رب - بيتا. ويتمتّع الرّهبان وفق عقود الصّلح على بعض الامتيازات كالإعفاء من دفع الجزية.

وكان سلوكهم مراقبا بدقّة من قبل رئيس الدّير فمثال يعقوب أسقف الرّها (684 - 708 م) ترك فتوى تمنع دخول النّساء للأديرة. ويطالب الرّاهب بالتقشّف الكامل في معيشته وإعانة المحتاج وإكرام الضّيف وهو ما جعل المسلمين يجعلون من الأديرة أماكن إقامتهم للترفيه في سفرهم وأخذت بعض الأديرة سمعة جيّدة في إكرامها للأمراء المسلمين.

وكانت حركة الترهّب بين هؤلاء الرّهبان والرّغبة في التّعبّد والإنزواء عن النّاس والإقامة في قلايات وكهوف في مرتفعات طور عابدين وسميساط والرّها تجعلهم في عزلة كاملة عن العالم الخارجي ولا تصل إليهم الأطعمة وحاجياتهم إلا من قبل رهبان أديرتهم ويذكر دنيس تخلّي سيمون السّمسياطي عن مسؤوليّاته الكنسيّة للإنعزال في أحد خلوات طور عابدين (23).

---

(23) لمزيد التفاصيل حول الأديرة : فياي : أحوال النّصارى من ص 47 إلى ص 57. وحوليّات التلمحري : يشير إلى حركة الترهّب وحياة في الأديرة. كما توجد قائمة أديرة الجزيرة في معجم البلدان. ج III . مقال : دير

أمّا حول عدد الأديرة فإنّها تصل إلى مئات الأديرة التابعة لليعاقبة من بينها 48 ديرا في منطقة طو عابدين حسب دراسة لكوقار وذكرنا أنّ في منطقة الرّها تصل عدد الأديرة إلى أكثر من 300 ديرا ! بينما توجد في منطقة بيت عربابة عشرات الأديرة وبنفس العدد في منطقة الرّقة وعلى طول ضفاف دجلة وخصوصا في منطقة تكريت (24) وهو ما يدفعنا إلى تقديم فرضيّة وجود أكثر من 500 ديرا تابعة لليعاقبة.

أمّا النّساطرة، فلقد إمتدّت كنسيتهم في مجال نفوذ السّاسانيين السّابق بالجزيرة وتعرف بمنطقة أشور وتمثّل مجال عمالة الموصل وشرق نهر دجلة ويتّبع نساطرة الجزيرة إلى سلطة الجاثليق بالمدائن وتسمّى كنيستهم بالكنيسة الشرقيّة تمتدّ أساسا بالعراق وكانت علاقتها بالسّلطة الإسلاميّة أكثر متانة من اليعاقبة ويسمى أتباعها بسريان الشرق ويبدو أن كنيستهم كانت مزدهرة بمنطقة نصيبين لكن قبيل الفتح الإسلامي نجح اليعاقبة في إزاحتهم منها رغم بقاء أسقفيّة لهم بها وبعد الفتح الإسلامي ومع حكم أبو جعفر المنصور استغلّ النّساطرة حضوة جورجيس الطّبيب لدى الخليفة لبناء كنيسة نسطوريّة بتكريت مركز المافريان زعيم اليعاقبة (25).

---

(24) فياي: نفس المرجع ص 52 ومعجم البلدان : أديرة بالإضافة إلى عدّة أديرة ذكرفادنيس في حوليّاته.

(25) فياي : نفس المرجع ص 50 و 51

وتنقسم كنيسة النّساطرة أو سريان الشرق بين 3 مقاطعات :

- بيت قرماية : شمال منطقة الموصل تمتدّ إلى جبل الجودي.

- منطقة أديابين شرق نهر دجلة وحدّها الشرقي أربيل وشمالا نهر زاخو وأعالي دجلة.

- بيت عرباية غربا وتقاسم فيها النّفوذ مع الكنيسة اليعقوبيّة (25).

ونجح النّساطرة في إقامة شبكة كثيفة من الكنائس والاديرة بسبب العدد الكبير للرّهبان ورغبتهم في مزيد بناء الأديرة وتمتين حضورهم في أرياف المنطقة فمثلا في جبل مكلوب قرب الموصل كان يطلق عليه جبل الآلاف حيث أقام به آلاف الرّهبان للتعبّد. وسمح النّساطرة للنّساء بإقامة أديرة للرّاهبات (26) ويقدّم فياي قائمة لرؤساء هذه الكنيسة وكان العديد منهم من الجزيرة مثل سيمون الموصلي الذي توفي في 714 م (27).

ومن أهمّ المراكز النسطوريّة أربيل التي كانت تسيّر كلّ منطقة أديابين والموصل التي أخذت الدّور الدّيني لنينوى بالنّسبة للنّساطرة وأصبح أسقف الموصل رئيس كنيسة نساطرة الجزيرة منذ القرن 9 م (28).

---

(26) Fiey Assyrie chrétienne p 13-15.

(27) نفس المرجع ص 15 ـ 18.

(28) نفس المرجع ص 66.

ومن أبرز من تولّى الجاثليقيّة تيماثيوس الذي كان من أبرز مثقفي عصره يحذق الإغريقيّة وترجم لأرسطو واشتهر بجداله للخليفة المهدي في مسائل تيولوجيّة وبجرئته في نقد المعتقدات الإسلاميّة أمامه وكان أصيل الجزيرة وممّن طوّروا الثّقافة السريانيّة في ذلك العصر بقي على الجاثلقيّة في عصر الرّشيد ويبدو أنّه تقرّب من بلاط هذا الخليفة بالرّقة وكانت له حظوة مع زبيدة وبلغ مقامه أنّه سمح له باستعمال البريد الملكي بالجزيرة للوصول إلى قصر الرّشيد بالرّقة (29).

وحول عدد الأسقفيّات التّابعة للنّساطرة بالجزيرة، يذكر دنيس إلى أحداث 765 م / 148 هـ أنّ نساطرة هذه المنطقة اجتمعوا في بيعة قويلة على جبل الثمانين شمال الموصل ويسمّى بجبل كردوس عند السّريان ومحتملا أنّ هذا الإجتماع كان مجمعا دينيّا ضمّ عدد كبيرا من رجال الدّين بلغ عددهم حسب دنيس 800 وانتهى هذا الإجتماع بنزول صاعقة على البيعة وقتل من فيها ويذكر هذا الخبر بنوع من التشفّي واعتبره غضب إلاهي على فرقة مارقة عن دين الحق (30).

وابتعادا عن الجدل في أحقيّة الخبر فإنّ عدد رجال الدّين المجتمعين في البيعة يدلّ أنّه مجمعا دينيا جمع الأساقفة ورؤساء الكنائس ويبرز أهميّة حضور الكنيسة النّسطوريّة بالمنطقة رغم انحصار مجالها في شرق الجزيرة.

---

(29) نفس المرجع ص 71 إلى ص 72 وفياي : Mossoul chrétienne ص 13 إلى ص 20.

(30) فياي : أحوال النّصارى ص 76 إلى ص 97.

2) علاقة المجموعات المسيحيّة بالسلطة : بين التقوقع على الذات والرّغبة في الإندماج :

ذكرنا عقود الصّلح التي جرت بين رؤساء الكنيسة والفاتحين المسلمين وهي عقود حدّدت طبيعة العلاقة بين الطّرفين ورأيت أنّها كانت محلّ مراجعة من قبل الخلفاء في العصر الأمويّ مثل ما حدث مع عمر بن عبد العزيز. وإنّنا سنتناول في هذا التحليل تطوّر العلاقة بين المجموعات المسيحيّة والسّلطة وتأثيراته على الحياة الدّاخليّة لهذه المجموعات.

وأوّل ما نلاحظه هو حفاظ السّلطة على مبدأ أحقيّة هذه المجموعات في التّسيير الذّاتي على مستوى الأحوال الشخصيّة والقضاء والمسائل الدّينيّة، لكن كانت السّلطة تفرض على هذه المجموعات أن يحظى رؤساؤها بموافقتها المبدئيّة إثر إنتخابهم من قبل الأساقفة، حيث كان رئيس اليعاقبة يتوجّه إلى عاصمة الخلافة ويقدّم إلى الخليفة الهدايا وولاء البيعة للحصول على مرسوم يقرّه في منصبه يبرز ذلك مع رئيس كنيسة اليعاقبة في حكم مروان بن محمد الذي توجّه لحرّان لأخذ رسم التسميّة من الخليفة أو توجّه دنيس التلمحري لبغداد لأخذ هذا الرّسم من الخليفة مقابل أموالا طائلة (32).

---

(31) دنيس : نفس المصدر ص 70 و 71.

(32) حوليات التلمحري: ص 42 و 43 ومقدّمة الكتاب ص XV .

ويمثّل رسم التّسميّة شرطا رئيسيا للحصول على الشرعيّة الضّروريّة لممارسة رئيس الكنيسة نفوذه على نصارى الجزيرة ودعم سلطته بين بقيّة الأساقفة الذين كانت لهم طموحات في رئاسة الكنيسة ومنهم من كانوا منشقّين حيث تميّزت رئاسة دنيس على كنيسة اليعاقبة بالجزيرة بمعارضة أساقفة الشمال بقيادة إبراهيم الذي تحصّل على رئاسة الكنيسة المنشقّة (33) لكن برز في تلك الفترة موقفا جديدا من السّلطة في عهد المأمون تمثّل في تبنّيه رأيا بأنّه لو اجتمع عشرة من أهل الكتاب وكوّنوا طائفة لا يمكن لأحد منعهم من اختيار رئيسا عليهم فاعتبره دنيس موقفا خطيرا يهدّد وحدة الكنيسة فطلب لقاء المأمون لتذكيره ببنود الصّلح وليس له حقّ تغيّير ما جرى عليه العهد بينهم فربح حقّ الإشراف الكليّ على كنيسة اليعاقبة ضدّ كل إنشقاق (34).

ورغم مبدأ الحياد الذي إلتزم به الخلفاء في تسيير كنيسة اليعاقبة بالجزيرة، فإنّ الخليفة المنصور برز باحتياطه من أهل الكتاب وخصوصا من نصارى الجزيرة خوفا من تعاطفهم مع بيزنطا وبرز تدخّله في رفضه رئاسة الأسقف جورج على اليعاقبة ولقي في ذلك مساندة من أساقفة حرّان وأمد وتل دكوم الذّين كانوا يعارضون عزم هذا الأسقف للقيام ببعض الإصلاحات في المسؤوليات الكنسيّة بالمنطقة فتمّ سجن جورج في بغداد وأمر الأساقفة باختيار شخصيّة ثانيّة لرئاسة كنيستهم فاختاروا داوود على رأس كنيسة اليعاقبة، وأدّى

---

(33) نفس المصدر : المقدّمة ص XIV .

(34) نفس المصدر المقدّمة : ص XX إلى ص XXIII .

هذا التدخّل من قبل السّلطة الى إفقاد القيادة الكنسية الجديدة لشرعيّتها بين نصارى الجزيرة برز بتمرّدهم في تكريت والموصل على سلطته وكان لداوود مرسوما ملكيّا يسمح له بالسّجن والتعسّف على من يعارضه لكنّه لم يستعمله ويستنتج دنيس أنّ الكنيسة أصبحت في فتنة (35).

وشمل تدخّل الخليفة المنصور كذلك كنيسة النّساطرة، حيث استغلّ عيسى طبيب المنصور مقامه في بلاط الخليفة للتدخّل في شؤون الجاثليق والأساقفة والتعسّف عليهم وقام بابتزازهم لأخذ أمـــوال الكنائس وعزل من شاء من الأساقفة (36).

وحول معاملة الخلافة للنّصارى، فإنّها كانت كذلك محدّدة بعقود الصّلح، ولا يبدو أن سوء المعاملة خصوصا في فترات جمع الضّرائب هي خاصّة بنصارى الجزيرة بل كانت شاملة لكلّ الأطراف الإجتماعيّة حيث تتفق المصادر السّريانيّة على الوصف الشّنيع لولاية موسى بن مصعب الأولى في عهد المنصور (من 154 هـ إلى 158 هـ) والثانية مع الخليفة المهدي ووصفه دنيس بالمسيح الدّجّال والتي تضرّر منها النّصارى بالجزيرة حيث سلب الكنائس والأديرة وألزم العامّة بضرائب مجحفة وأجبر الرّهبان على دفع الجزية وألزمهم بلبس القلانس ووشم اليهود والنّصارى بالحديد الحامي وتسبّب في مآسي لا تحصى في جموع النّصارى، ولكن يشير دنيس أنّ هذا الوالي القاسي لم يكن يخصّ النّصارى بمعاملة قاسيّة خاصّة

---

(35) نفس المصدر : في أحداث 767 م. 766 ص 84 إلى ص 88.

(36) فياي : أحوال النّصارى ص 55 إلى ص 56.

بهم بل أنّها شملت جموع المسلمين الذين لحقتهم الإذاية والتجبّر من سياسته التعسّفيّة (37).

وهذه الشّهادة تبرز أنّ التعسّف الذي شمل النّصارى من بعض الخلفاء يرتبط بشخصيّة الخليفة أو الوالي وهي تتجاوز في معظم الآحيان عقود الصّلح لتسلّط عقوبات وموانع غير شرعيّة. لكن ما نلاحظه في سياسة الخلفاء تجاه نصارى الجزيرة أنّها تتميّز بأكثر قسوة في معاملتهم من بقيّة أهل الكتاب في مقاطعات أخرى ترتبط لسببين رئيسيين وهما :

- وجودهم في ولاية ثغر جعلتهم عرضة للشكّ والرّيبة من إمكانيّة عملهم جواسيسا لمصلحة بيزنطا.

- بقاء قبائل عربيّة قويّة ذات حضور عسكري هامّ بالمنطقة على النصرانيّة مثل تغلب وبعض العشائر البكريّة ممّا أزعج السّلطة وجعلها تحاول منذ العصر الرّاشدي إجبارها على اعتناق الإسلام.

وتبرز هذه المعاملة الخاصّة لنصارى الجزيرة في سياسة المنصور ضدّ الملكانيّين واليعاقبة وتشجيعه للنّساطرة بها وكان خوفه من تعاطف الفرقتين مع العدوّ البيزنطي والأعداء الآمويّين السّابقين ويبرز هذا العداء في وصول خبر إختباء كنوز هشام ومروان بن محمد الآمويّان في دير مارمتي بالموصل وأخبره

(37) دنيس : نفس المصدر : مقطع طويل حول سياسة موسى في النّصارى من ص 102 إلى نهاية الكتاب وفياي : نفس المرجع من ص 57 إلى ص 60.

بذلك أحد رهبانها، فأمر بالقبض على رؤساء الآديرة والكنائس وإحصاء أموالها بالمنطقة واستهدف دير مارمتي شمال الموصل الى هذا الإجراء في الآوّل ثم شمل بعد ذلك بقيّة الآديرة والكنائس (38).

وهذا التوجّس من نصارى المنطقة برز كذلك في عهد المهدي الذي أعدم الرّاهب الملكاني رومانوس بالرّها بتهمة التجسّس لبيزنطا سنة 778 م واستغلّ مسلمو المنطقة هذا الوضع للإيقاع بالنّصارى إذ أنّ أحد الذين أسلموا منهم ويدعى يوسف تحيّل رسالة نسبها للنّصارى يذكرون فيها تعاطفهم مع بيزنطا لكن برز بعد ذلك أنّها مزيّفة (39).

ومع الرّشيد، تطوّرت سياسة الخلافة تجاه نصارى الجزيرة نحو المزيد من العداء وتوجّس الخوف منهم حيث زاد في قيمة الجزية عليهم وأكثر التعسّف على نصارى الثّغور وشجّع ذلك مسلمي الرّها الذين يعيشون أقليّة صغيرة بين جموع النّصارى بها للإدّعاء أنّ إمبراطور بيزنطا يزور الكنيسة الكبرى بالرّها سنويّا للتبرّك بمنديل عيسى، لكن تبيّن بعد التحقيق أنّها مكيدة فقام بسجن أصحاب المكيدة وضربهم بالصّوت. لكن لم يمنعه ذلك من التوجّس من نصارى الثغور حيث أخذ قرار هدم الكنائس وبيع أراضي الحدود في نهاية حكمه وهدفه في ذلك افراغها

---

(38) فياي : نفس المرجع ص 48 ـ 49 وحوليات التلمحري ص 97 إلى ص 98.

(39) فياي : نفس المرجع ص 73 إلى ص 76.

من النّصارى وإجبارهم على النزول نحو الجزيرة أو الرّحيل لبيزنطا لينهي بذلك خطر تجسّسهم لصالح بيزنطا (40).

أمّا المعاملة الخاصة للعرب النّصارى، فلقد حلّلناها عندما تناولنا بالبحث مجموعة تغلب، إذ تعرّض زعماءها منذ العصر الاموي إمّا إلى عمليّات الإحتواء أو التهديد للدّخول في الإسلام وواصل العبّاسيّون هذه السّياسة لكن بأكثر نجاح حيث كسبوا نخبة تغلب للعمل في جهاز الدّولة واعتناق الإسلام. ولا يبدو أنّ نصرانيّة تغلب كانت مقبولة لدى جهاز الدّولة رغم عهود هذه القبيلة مع الخليفة عمر بن الخطّاب وهو ما يفسّر عداوة ولاة الجزيرة لنصارى تغلب وبقاء خطّة صاحب صدقات تغلب إلى العصر العبّاسي. واستهدافهم نصارى تغلب بحملات أمنيّة دمويّة في فترة جمعه لأموال «ضعف الصّدقات»(41).

كما أنّ نصارى الجزيرة يعيشون مع مجموعات بدويّة محاربة في الارياف جعلهم عرضة لأعمال النّهب والسّلب والتعدّيات على أراضيهم الفلاحيّة خصوصا في فترات التسيّب الامني. وفي الحوليّات السريانيّة نجد ثلاثة حالات تبرز ما عانته هذه المجموعة من البدو والحالة الأولى برزت في فترة سقوط الحكم الاموي حيث تعرّض نصارى جبل صحيا قرب بلد إلى هجومات جموع ربيعة من

(40) فياي : نفس المرجع ص 87 إلى ص 95.

(41) الأزدي : يبرز ذلك في أحداث 171 هـ مع حملة روح بن صالح الموصلي على تغلب ص268 ـ 269.

الشيبانيين وتغلب القادمين من منطقة ميافارقين وأجبر ذلك سكانها إلى إقامة مجوعات مسلّحة لحماية أنفسهم من تعدّيات البدو وفي منطقة الرّها قامت جموع قيس بمهاجمة البيع لنهبها وتعرّض السّكان لتعدّيات خطيرة ويقدّم دنيس قائمة لأكثر من عشرة بيع تمّ نهبها وقتل بعض رهبانها لكن مع دعم الحضور العسكريّ للعبّاسيّين توقّفت هذه التعدّيات (42).

أمّا الحالة الثانيّة فهي ترتبط بالإضطرابات التي صاحبت حرب الأمين والمأمون وتواصلت هذه الإضطرابات في الجزيرة إلى سنة 210 هـ مع نهاية ثورة نصر بن شبث العقيلي وسيتمّ تحليلها في الباب الثاني وما يهمّنا في هذه الثورة أنّ قادة هذه الثورة في ديار مضر قاموا بتعدّيات على الكنائس والبيع وأثقلوا النّصارى بالغرامات الماليّة مقابل سلامتهم خصوصا في الرّها وحرّان. لكن يبدو أنّ نصر بن شبث كان يحترم النّصارى ويثقل كاهل من يسلم منهم بالضّرائب فترك الكثيرون المساجد وعادوا إلى الكنائس (43). وتطوّر موقف الثوّار نحو التّسامح مع النّصارى يبرز في سيرة إبراهيم القريشي الذي كان يحكم حرّان نيابة عن نصر فقرّر في الأوّل تقويض الكنائس الجديدة المحدثة بدفع من فقهاءها المسلمين كالكنيسة الكبرى وكنيسة «والدة اللّه» وكنيسة مارسرجيس وكنيسة

(42) دنيس: نفس المصدر ص 47 إلى ص 50.

(43) ابن العبري: نفس المصدر من ص 19 إلى ص 22.

الخلقيدونيين والنّساطرة ومعبد اليهود لكن تراجع عن قراره بعد ذلك واستمال إليه النّصارى وأعاد بناء ما قوّضه (44).

أمّا الحالة الثالثة فهي ما ذكره الأزدي في ولاية السّيّد بن أنس الأزدي على الموصل أن بني مالك وهم من قومه هاجموا قوما من النّصارى من بني حرنوسا يسكنون نواحي الكحيل* فخرج إليهم السّيّد فقبض على 100 محارب تورّطوا في هذه التعدّيات فتولى «ضرب أعناق جميعهم وصلبهم مكانهم وحلف لئن زال من الخشب واحدا أو فقد من الرّجال رجل لأعودنّ إليكم...» (45).

والحالات الثلاثة تبرز أن تعدّيات البدو هي ظرفيّة وتلاقي لدى أجهزة السّلطة أو الزّعامات القبليّة المعارضة وتصل إلى حدّ التنكيل بمن يتورّط في هذه التعدّيات. لكن هذا الحالات الثلاثة التي تبرز فيها حزم السّلط المحليّة ضدّ تعدّيات البدو، لا يمكن أن تخفي عنّا فارق القوّة بين مجموعات قرويّة مسالمة وقبائل بدويّة محاربة، ويبدو أنّ هذه التعدّيات هي ظاهرة مزمنة لا تتدخّل السّلطة لصدّها إلاّ في الحالات الخطيرة.

---

(44) نفس المصدر ص 22 إلى ص 23.

(*) الكحيل : نهر أسفل الموصل : معجم البلدان ج4 ص 220.

(45) الأزدي : تاريخ الموصل ص 367 في أحداث 209 هـ.

ويذكر فياي حسب بعض المصادر السّريانيّة ظاهرة التّعدّيات المستمرّة للبدو على حقول الاديرة ويبرز ذلك في ولاية محمد بن مروان على الجزيرة بعد سنة 73 هـ حيث توسّع الأزد في منطقة الزّابين في قرية دير قوقة وأخذوا بعض حقول هذا الدّير وتطوّر هذا الصّراع مع رغبة الأزد رعي إبلهم وماشيتهم على حساب بساتين الدّير (46) ويذكر كذلك تعدّي أحد بني شيبان على أراضي دير على نهر الخازر في نفس المنطقة وصل إلى حدّ قتل مقتصد الدّير والإستيلاء على بعض حقولهم (47).

وهذه التعدّيات تجعلنا نستنتج أنّه يقابل حزم السّلطة في حماية نصارى الجزيرة عداءا سافرا للعرب المسلمين المستوطنين بالمنطقة للنّصارى يبرز في وشاياتهم للسّلطة للإيقاع بهم وتعدّيات البدو العرب على النّصارى ولا يرتبط ذلك بعداء ديني بل برغبة المهاجرين العرب في التوسّع على حساب المجال الزّراعي للنّصارى وكذلك دعم مكانتهم الإجتماعيّة بالجزيرة كأقليّة محظوظة ونجد أنّ هذا العداء يتطوّر عندما يكونون أقليّة صغيرة في مناطق يتكثّف فيها حضور النّصارى مثل منطقة الرّها الذي تميّز العرب المسلمون بها في سعيهم الدّؤوب في كلّ المناسبات، للإيقاع بالنصارى ومحاولتهم إضعاف نفوذهم بها. بينما نجد أنّ في

---

(46) Fiey: Assyrie chrétienne p 144 - 149 .

(47) نفس المرجع ص 226.

المناطق التي يتكثّف فيها حضورهم تتحسّن علاقتهم مع النّصارى مثل منطقة الموصل أو الرّقّة.

ومن الأسباب التي كانت تؤدّي إلى توتّر العلاقة بين السّلطة والكنيسة هي الكنائس والأديرة المحدثة. إذ الرّجوع إلى نصّ الصّلح الذي ذكرناه وفيه «أنّ لا يحدثوا كنيسة إلاّ ما كان بهم» جعل السّلطة تردّ الفعل بقوّة كلّما ثبت أنّ النّصارى وسّعوا كنائسهم وأديرتهم أو بنوا أخرى جديدة. وشرط الصّلح يصعب تطبيقه، نظرا إلى كثافة حضور النّصارى بالجزيرة وحاجياتهم إلى أماكن عبادة جديدة إمّا في الأحياء المحدثة في المدن أو في المدن الجديدة التي برزت في العهد الإسلامي مثل الموصل والحديثة والتي برزت فيها مجموعة من الكنائس الجديدة المحدثة بعد الفتح أو ما يرتبط بحركة الرّهبنة وما تتطلّبه من بيع جديدة لقديسييها، المتوفين رغم أن عقد صلح الرّها لا يمنع إحداث بيع بينما رأينا في الشروط العمريّة منع إحداث البيع.

وصلح الرّها أقرب إلى الحقيقة التّاريخيّة من الشروط العمريّة ممّا يدفعنا أن نفترض بأنّ الأديرة لم يشرط فيها النّهي عن بناءها، حيث تبرز من المصادر السّريانيّة بأنّ منطقة شرق الجزيرة، شهدت إحداث عددا من الأديرة بعد الفتح وهو ما يتناقض مع الشروط العمريّة أن كانت حقيقيّة في كامل نصّها. لكن يبدو أنّ إحداث الكنائس بالجزيرة كان محلّ منع من السّلطة وكذلك توسيع الأديرة ممّا يفسّر موقف بعض الخلفاء الصّارم ويذكر الأزدي في خلافة المهدي أنّه عندما زار

الموصل في سنة 162 هـ تظلّم إليه النّصارى من هدم بيعة «مرتوما» وكان سبب ذلك أنّ أصحاب هذه البيعة المجاورين لمسجد بني أسباط في درب إيليا الطّبيب ويبدوا أنّه في حيّ للنّصارى، أنّهم أدخلوا في البيعة توسعة، فقام المواصلة بهدمها، فكان سبب شكايتهم للمهدي، فأحضر الخليفة من النّصارى من شهد بهدم بيعتهم وأحضر المسلمون من شهد بما أدخلوه فيها وأضافوه ممّا ليس منها فأوجب على النّصارى إخراج 400 ذراع من بيعتهم لسبب ما أدخلوه فيها من زيادة وأمر فبنى المسجد من ماله...» (48).

وهذه الرّواية من مصدر إسلامي، تبرز ترصّد المسلمين لأيّ أحداث وتوسيع لكنيسة أودير وأجبر الخليفة على معاداة النّصارى فيما فعلوه وأخذ جانبا من ديرهم لبناء مسجد.

ومن ولاة الجزيرة والموصل الذين تشدّدوا في هذه القضيّة موسى بن مصعب الذي حضر بناء الكنائس والانشاد الدّيني خارج أماكن العبادة ونزع الصّلبان من واجهات الكنائس (49) ولقد ذكرنا كذلك أن ابراهيم القرشي الذي كان يمثّل سلطة نصر بن شبث دمّر الكنائس المحدثة. وفي كلّ هذه العمليّات نجد يد الفقهاء المسلمين الذين كانوا يحثّون الولاة على الصّرامة في منع النّصارى من إحداث الكنائس والبيع من أجل حصر حضور المسيحيّة بالجزيرة والتطبيق الحرفي لعقود الصّلح.

---

(48) الأزدي : نفس المصدر ص 244.

(49) فياي: أحوال النّصارى ص 57 إلى ص 59.

كما تبرز طبيعة العلاقة بين المسلمين والنّصارى عبر فتاوى رجال الكنيسة التي تبرز العداء الخفيّ بين المجموعتين ومن هذه الفتاوي ما ذكره أحد اليعاقبة حول سؤال أحد العامّة : ما قولك في مائدة مقدّسة أكل عليها «العرب» فأفتى أنّ هذه المائدة التي أكل عليها الكفرة لم تعد مقدّسة وتستعمل في أشياء أخرى. أو حول إجبار أحد الرّهبان على الطّعام مع أمير عربي فكانت الفتوى أن الرّاهب أجبر على الرّضوخ بالقوّة لذلك ولأنّنا شعب الله حرمنا منذ أمد من النّفوذ والحرّيّة بسبب ما إرتكبناه من معاصي أو إذا أجبر راهب على تعليم أبناء المسلمين، عليه بقبول ذلك، لأنّ في ذلك منفعة لديننا !. أو رفض قبول إلى حضيرة النّصارى من أسلم ورجع إلى النّصرانيّة إلاّ بعد خضوعه إلى طقوس المغفرة لمدّة 71 يوما. أمّا إذا كانت نصرانيّة متزوّجة من مسلم وهدّدها زوجها بالتخلّي عن دينها فأسلمت فلا تقبل نصرانيّتها من جديد إلاّ بعد الخضوع لطقوس المغفرة وتعمّد من جديد وتوجد فتاوي أخرى حول علاقتهم باليهود وصابئة حرّان تتميّز كذلك بالحزم في التّعامل معهم (50).

وتبرز هذه الفتاوي بأنّها أحكام قاسية تدلّ على أنّ النّصارى كانوا في موقع دفاعي يعيشون حالة التقوقع وكان همّ آباء الكنيسة الحفاظ على أفراد جماعتهم من خطر الدّخول إلى الإسلام بالحدّ من التّعامل مع المسلمين واعتبارهم كفرة متجبّرين يكون التعامل معهم بالمقاومة السلميّة ذات بعد ثقافي وديني للحفاظ على جماعتهم.

---

(50) F. Nau: Les canons et les résolutions canoniques من ص 49 إلى ص 79 وهذه الفتاوي تخصّ نصارى الجزيرة بالذّات.

الخاتمـــــــة

إنّ النّصارى بالجزيرة تابعوا ممارسة طقوسهم الدّينيّة في أجواء من الحريّة الدّينيّة عدا بعض فترات التشدّد كما هو الحال في عهد المهدي والرّشيد. وتبرز الحرّيّة الدّينيّة في العصر الأمويّ والعبّاسي في ازدهار حياة الرّهبنة وإحداث عدّة أديرة وعقد مجامعهم الدّينيّة، وكذلك إقامة النّصارى للإحتفالات العامّة وأظهار صلبانهم مثل ما يبرز في دير زكي بضواحي الرّقّة (51) إلاّ أنّ ذلك لم يمنع العرب المسلمين المستوطنين في بعض التجمّعات المسيحيّة كمنطقة الرّها وحرّان في سعيهم لدى السّلطة والنّافذين بالجزيرة لفرض التضييقات على النّصارى والإيقاع بهم. وكما حلّلنا، فإنّ السّلطة حافظت على حيادها واتّبعت نهج التّسامح الدّيني رغم التوجّس من الأرمن ونصارى ثغور الجزيرة لخوفها من قيامهم بالتجسّس لصلح البيزنطيين وإعانة العدوّ لكن لم تتعامل مع نصارى الجزيرة خارج الثغور بنظرة التوجّس والرّيبة وحافظ مختلف الولاة في العصر الأمويّ والعبّاسي الأوّل على سياسة التّسامح الدّيني مع أهل الكتاب وردع المجموعات القبليّة التي إستهدفت التجمّعات المسيحيّة.

(51) يصف ا لصّنوبري في ديوانه إحتفالات النّصارى في الدّير ومشاركة المسلمين فيها في بداية القرنIV هـ.

III) الأقليّات الدّينيّة الأخرى

1) الحرنانية أو الصّابئة : طائفة وثنية متميّزة :

يرتبط وجود هذه الطّائفة المتميّزة بالجزيرة مع قدم المراكز الحضريّة بها وحفاظها على تراثها الشرقي القديم الذي يرجع إلى عصور ما قبل إنتشار المسيحيّة بها. حيث ترجع أصول هذه الطّائفة إلى العصور الهلينستيّة وتجمع معتقداتها بين العبادات الفلكيّة الخاصّة ببلاد الرّافدين والتّراث الإغريقي الخصب الذي جعلها وريثة التّراث الهلينستي في العصور الإسلاميّة في مرحلة تاريخية إضمحلّت فيها هذه الثقافة الشرقيّة في الشرق القديم أو صيغت وفق المعتقدات المسيحيّة في الأدبيّات السّريانيّة (1). وهو ما جعل هذه الطّائفة تساهم بدور محوري في تعريب الثقافة الإغريقيّة الى العربيّة منذ عصر المأمون مع آل ثابت بن قرّة وتساهم في نشأة النّواتاة الأولى للفلسفة الإسلاميّة ولقد إستلهم منها المسلمون جزءيّا مبادئ الباطنيّة.

وهذا التحليل يدفعنا للرّجوع إلى الخاصيّات العامّة لهذه الطّائفة التي كانت إلى عصر المعتصم متواجدة بالجزيرة فقط لكن منذ نهاية عصر المأمون

---

(1) مقال : SAB'A في E.I.2 ج VIII من ص 696 إلى ص 699 لماك أوين الذي يقدم بيبليوغرافيا ضافية حول هذه الطّائفة.

وخصوصا مع المتوكّل انتقلت نخبتها إلى بغداد لتشارك في الحركة الثقافية في عصر التدوين خصوصا مع آل ثابت بن قرّة وساهمت في دفع الحرّانية إلى الإتجاه للتّوحيد (2) وأوّل ملاحظة ترتبط بهذه الفرقة هو إسمها الذي كان محلّ نقاش سواءا في المصادر الإسلاميّة أو لدى المستشرقين نجد صداها عند الشهرستاني أو ابن النديم والمسعودي وابن الوشيحة في كتابه الفلاحة النّبطيّة وسبق ذلك أدبيّات عديدة ألّفها النّصارى السّريان لتكفير طائفتهم ورواية الفضاعات حول ممارساتهم الطّقوسيّة وفي كلّ مصدر نجد ذكرا لاسمهم الذي شهد تطوّرا في مضمونه.

فقبل عصر المأمون نجد في الأدب السّرياني ذكر تسميّة الحرّانيّة ومن أدقّ الأوصاف حول هذه الطّائفة ما ذكره دنيس التلمحري الذي كان أسقف على اليعاقبة في عصر المأمون وذكر حادثة وقعت في ولاية العبّاس بن محمّد زمن خلافة المنصور حيث تورّط الحرانيّون في خطف أحد النّصارى وقتله ثمّ قطع رأسه لعبادته على عادتهم في ذلك ولقد نجى أحد المخطوفين ليروي إلى السّلطات هذه الطّقوس فتعرّضوا إلى الإضطهاد والتغريم من قبل الوالي لكن دون منعهم من

---

(2) نفس المقال الذي يحلّل دور الصّابئة الحرانيين في حركة التدوين ببغداد بالإضافة إلى المصادر :

- الشهرستاني . كتاب الملل والنّحل
- ابن النديم : الفهرست : ص 383 ـ 385.
- ابن وحشية : الفلاحة النّبطيّة ص 257 ـ 258.
- البلاذري : فتوح ص 174 صلح الحرنانيّة مع عياض بن غنم مع النّصارى ص 174

البقاء على دينهم (3) ولذلك يذكر إبن النديم أنّ المأمون وصفهم «بعبدة الأوثان وأصحاب الرّأس» ثم يورد حكاية في الرّأس من راوي نصراني وهو أيشع القطيني توافق ما رواه التلمحري (4).

والملاحظ أنّه إلى عصر المأمون بقيت هذه الطّائفة منغلقة على نفسها تمارس طقوسها سرّا وعلاقتها بالنّصارى والمسلمين كانت تشوبها الحذر خوفا من إفشاء وثنيّتهم.

لكن مع قدوم المأمون إلى الجزيرة في طريقه الى الثغور إتّفقت الرّوايات على أنّه لاحظ وجود طائفة متميّزة في لباسها وفي إطالة شعورهم فسألهم عن ديانتهم فلم يجدهم من أهل التّوحيد فاعتبرهم من الزّنادقة واتّهمهم حسب رواية أيشع القطيني أنّهم «أصحاب الرّأس» وأنّه سيحلّ دمائهم إن لم يغيّروا دينهم ويلتحقوا بأحد الأديان التّوحيديّة قبل رجوعه من الثغور وأدّى هذا الموقف إلى تنصّر البعض وأسلمة البعض الآخر وبقي منهم من تمسّك بدينه وأرادوا إيجاد حلاّ فقهيّا للخروج من محنتهم وجدوه عند أحد أشياخ المسلمين بحرّان الذي تلقّى أموالا من بيت مال الطّائفة فطالبهم بادعاء أنّهم صابئة وهو «اسم دين قد ذكره الله في القرآن» للنّجاة من الاضطهاد. ورغم وفاة المأمون فلقد حافظوا على هذه التسمية ورجع أفراد هذه الطّائفة إلى ديانتهم ممّن تنصّر منهم لكنّ منعوا من

---

(3) الرّجوع إلى حوليّات : دنيس التلمحري من ص 65 إلى ص 70.

(4) ابن النديم : الفهرست ط. بيروت دار السّيرة 1988 ص 383 و 384.

لبس الأقبية التي كانت خاصّة بأصحاب الدولة ويرى شوولسهن أنّ المأمون أراد دعم صابئة بغداد لحمل صابئة حرّان لإتجاه للتوحيد (5).

وبذلك أصبحوا «صابئة» يميّزون عن صابئة البطائح بالعراق والذين كانوا من النّصارى بنعتهم «صابئة حرّان» وحادثة المأمون لم تؤدّي فقط إلى تغيير إسمهم بل أدّت كذلك إلى خروجهم من عزلتهم بعد ادّعاءهم أنّهم أحد أصحاب الدّيانات التّوحيديّة وأن نبيّهم إدريس هو الذي علّمهم التوحيد (6).

وساهم إنفتاحهم على العالم الخارجي إلى كشف تراثهم الحضاري الغني للمسلمين خصوصا من العناصر التي أسلمت في حرّان أو في بغداد.

أمّا الجانب الثّاني فيخصّ المميّزات الحضاريّة لهذه الطّائفة فنجدها في رواية للكندي الذي يصفهم بالحرنانيّة الكلدانيّين لتمييزهم عن بقيّة الصّابئة الموحّدين وهي توافق ما رواه الشهرستاني عن طقوسهم وعاداتهم المتّجهة لعبادة الأجسام الفلكيّة وكانت قبلتهم النجمة القطبيّة وصلاتهم كانت في مطلع الشّمس وأخرتين في غروبها فهي ثلاثة صلوات ويؤدّونها وهم على طهور. كما كانوا يصومون ثلاثين يوما موزّعة على بعض أشهر السّنة.

---

(5) نفس المصدر ص 385 والرّجوع إلى مقال : صابئة E.I2 ج VIII ص 697.

(6) نفس المصدر ص 385. ويذكر ابن وحشية في كتاب الفلاحة النّبطيّة أنّهم بقوا وثنيّن ويقول «هم يدّعون أن الكواكب تكلمهم، وأنّ الأصنام تحبّهم ويسمّونهم الأحبّاء... وذلك لفساد أدمغتهم من الجوع والصّوم.ج لص 258 و 259.

وكان سعيهم من الصّلاة وتقديم القرابين الوصول الى الأرواح العلويّة عبر «الهياكل العلويه» وهي معابدهم التي كانت توضع فيها أصناما تمثّل كلّ واحدة أحد كواكب الأرض التي كانت شفعاءهم للّه في السّماء (7).

وتقدّم الرّوايات أعيادهم وتقاليدهم بحرّان التي تبرز منها معالم أنتربولوجيّة خاصّة بهم من أبرزها المحرّمات في الأكل ولهم ثمانية أعياد تقدّم في معظمها القرابين حيث يتوجّه المحتفلون بعجولهم إلى معابدهم لذبحهم قربانا لآلهتهم.

وكانوا يتميّزون عن المسلمين بكراهيّتهم للجمل وعزل كلّ من به مرض معدي وتركهم للختان والعدل في الميراث بين الذكر والأنثى مع تحريمهم لتعدّد الزّوجات وحصر الطّلاق. كما كانوا يلبسون الأقبية وهي ألبسة طويلة كانت حكرا على أصحاب الدّولة العبّاسيّة فمنعوا عن لبسها في عصر المعتصم وكانوا يطيلون الشعور (8).

---

(7) الـ ابن النديم : الفهرست شرح يوسف علي طويل دار الكتب العلميّة بيروت 1996 ص 383 ـ 385 والشهرستاني : كتاب الملل والنّحل ط. القاهرة 1948 وابن وحشية : الفلاحة النبطيّة الذي يقدّم تيولوجيّتهم الفلكيّة التي تعتمد على أسرار فلكيّة لا يعلمها إلى آدم وأدريس وبعض انبيائهم ويعطي بعض الأصداء لخلافات صابئة حرّان مع صابئة بغداد وابن وحشيّةج I : نفس المصدر ص 257 ـ 258.

(8) ابن النديم : نفس المصدر ص 384 وص 386 و387 اين نجد وصفا دقيقا لطقوسهم في كل عيد من أعيادهم التي توافق الأشهر الشمسيّة وابن العبري : تاريخ الزّمان ص 22.

أما من أسلم منهم وبقي على دينه سرّا كحرّانية قريتي ترعوز وسلميسين بضواحي حرّان فإنهم كانوا يتزوّجون من الحرّانيات فكانوا يجعلون الذّكور مسلمين والإناث حرّانيات، إلى أن حرّمها عليهم الفقهاء المسلمين بحرّان وكان رئيس طائفتهم له نفوذ مطلق عليهم حيث كان يتولّى الإشراف على كلّ طقوسهم وجمع الأموال لبيت مال الطّائفة التي أحدث في عصر الرّشيد مع بداية إضطهادهم وكان يخطب بينهم في كانون الأوّل لمباركتهم والدّعاء بخراب المسجد الجامع الذي بناه مروان بن محمد على انقاذ أحد معابدهم ودمار كنيسة الرّوم وسوق النّساء وهي مواضع كانت فيها أصنامهم (9).

ومن خلال الوصف الأنتربولوجي لابن النّديم يتبيّن حفاظ هذه الطّائفة على التّراث الشرقي القديم التي تمزج الدّيانة الكلدانيّة القديمة والتي تقوم على عبادة الكواكب حيث حافظ بعضها على أسمائها القديمة كالإلاه سِنْ ربّ القمر وشمس أو شمس الربّ العظيم بالإضافة إلى الدّيانة الهلنستيّة ويبرز ذلك في مقام الإلاه هرمس في ديانتهم والمعتقدات الغنوصيّة المرتبطة بالأفلاطونيّة الجديدة (10).

(9) نفس المصدر من ص 387 إلى ص 389 ابن وحشيّة : نفس المصدر ص 258.

(10) نفس المصدر ص 383 ومن ص 387 إلى ص 389.

ونجد في رواية لابن النديم أسرارهم الخمسة التي تتبع طقوس صلواتهم ويذكر أنّ أحد قضاة حرّان وهو ابن إسحاق القاضي نقل أحد كتبهم المحرّر بالسّريانيّة إلى العربيّة ويبدو، أنه كان متداولا في العصر العباسي وفيه شرحا لمذهبهم ويذكر كذلك اختلاف الطّقوس الدّينيّة والمحرّمات بين فرقهم المتوزّعة في القرى المحيطة بحرّان (11) ويبدوا أن طقوس طائفتهم تطوّرت مع إتّجاههم إلى التوحيد لكن يطرح إشكالا هل أن الحرّانيّة كانوا يمارسون فعلا الاضاحي البشريّة والتي شنّعت بها المصادر المسيحيّة ؟

إنّ الإجابة على هذا التّساؤل صعبا لأنّ مصادر هذه الرّوايات كانت معادية لهذه الطّائفة الوثنية وتشبه بالخرافات التي حاكها النّصارى على اليهود قتلة المسيح. وأكثر ما حمل عليهم أنّهم كانوا يحزّون رؤوس ضحاياهم الذين يزعمون أنّها على شكل كوكب عطارد بعد وضع الجثة مدّة في الزّيت ليفصل الرّأس دون عناء ويعبد بعد ذلك أوتضحيتهم بمولود جديد ويعجن لحمه مع الدّقيق ليأكل في أقراص من قبل الرّجال فقط ! (12).

(11) نفس المصدر ص 390 ويذكر ابن وحشيّة في نفس المصدر أنّهم كانوا يتزهّدون بالصوم والجوع ج1 ص 258.

(12) نفس المصدر ص 386 و387.

ويقدّم ابن نديم قائمة رؤساء طوائفهم منذ حكم عبد الملك بن مروان في سنة 1 04 من موت الإسكندر وهو التقويم المتّبع من قبل كلّ السّريان في الشرق ويمكن نقد هذه القائمة قبل رئاسة قرّة بن ثابت في عصر المعتصم لأنها تبدو غير كاملة ولم يذكر فيها كل رؤساءهم ويبدو أنّه اكتفى بذكر أهمّ رؤساءهم منذ الحكم المرواني إلى عصره (13).

2) اليهود طائفة عريقة من أهل الكتاب

يعتبر اليهود من أقدم الطّوائف الدّينيّة في الجزيرة، حيث يرجع حضورهم حسب المستشرق ديليمان إلى العصـــر الآشوري والدّولة البابليّة الحديثة (14) وكان هؤلاء اليهود الشتات حملوا إليها أساسا مع الملك بنو خذنصر إلى بلاد الرّافدين واستقرّ بعضهم في نينوي شرق الموصل التي كانت عاصمة الآشوريين وتعتبر من الأماكن المقدّسة لليهود في العصر الإسلامي لوجود قبر النّبيّ يونس.

(13) نفس المصدر ص 390 وفي الملحق القائمة التي قدّمها ابن النديم.

(14) ديليمان : نفس المرجع ص 99.

وفي العصر الهلينستي والبيزنطي استقرّت طوائف اليهود في معظم مدن الجزيرة في الرّها وحرّان والرّقّة وآمد وقبيل الفتح الإسلامي، تعرّض اليهود للإضطهاد خصوصا مع الإمبراطور هيراقليس بسبب تعاطفهم مع الفرس السّاسانيّين الذين اعتبروا عند هجمتهم على الجزيرة والشّام محرّريهم من السّلطة المسيحيّة.

وهذا الموقف جعلهم بعد استرجاع بيزنطا لسلطتها بغرب ووسط الجزيرة، طائفة مضطهدة (15) وهو ما يفسّر مراسلتها الفاتحين المسلمين وتقديم تعاونهم لفتح الجزيرة ويبرز ذلك من خلال مطالبة يهود مدينة الرّها من المسلمين فتحها (16).

وإنّ شحّة المعلومات المتعلّقة بيهود الجزيرة، يرجع أساسا إلى تعايشهم السلمي مع المسلمين وتخلّصهم من نير الإضطهاد المسيحي واندماجهم التدريجي في المنظومة الإسلاميّة حيث كانت مصالحهم الإقتصاديّة ترتبط بخدمتهم للسّلطة المحليّة والعمل كصيارفة أو كمموّنين للوحدات العسكريّة المتواجدة في الجزيرة والعمل في النّشاط التجاري.

---

(15) نفس المرجع ص 99 ودنيس حوليّات فيها إشارات عدّة للأقليّات اليهوديّة بالجزيرة.

(16) نفس المرجع ص 99 بالإضافة.

ويوجد إشكالا حول رئاسة الطّائفة اليهوديّة بالجزيرة وتنظيمها الدّاخلي. ويبدو أنّ رئاسة الطّائفة ترجع إلى يهود الموصل حيث كانت بها أهمّ مجموعة يهوديّة ولهم حيّهم ويشرف يهودها على تنظيم الحجّ إلى قبريونس بخراب نينوي. وكان هذا المزار يجلب يهود الشرق لزيارته مع المسيحيّين والمتسلمين (17) وعلى غرار المسيحيين كان رئيس الطّائفة اليهوديّة بالجزيرة بعد إنتخابه من الرّبّانيّين يتّصل بإدارة الخلافة للحصول على مرسوم رسمي يعترف بسلطته على طائفته مقابل مبلغ مالي ويسمح له هذا المرسوم من تولّي الشؤون الدّاخليّة لطائفته وممارسة القضاء بينهم ويوكّل على كلّ مجموعة يهوديّة في مدن الجزيرة من يرئسها برضاهم. ويذكر دنيس حادثة تشير إلى التنظيم الدّاخلي لهذه الطّائفة من خلال ظهور دجّال بينهم ويقول : «ظهر دجّال بين اليهود في حكم الخليفة هشام بن عبد الملك وكان من شياطين الإنس، حيث جمع أعدادا من سكّان قرية سرفان في منطقة ماردين وحملهم لى بيت سمار غرب الفرات، وكان سبب دجله نقمته على اليهود لأنّهم اضطهدوه ونكّلوا به بسبب فحشه في أحد أبناء أعيانهم، فقام بدعايته بين اليهود وادّعى أنّه النبيّ موسى بعث لهم من جديد لحملهم إلى الصّحراء والوصول إلى «أرض الميعاد» ، فجمع بذلك أعدادا هامّة من المعتقدين بدجله إلى أحد الجبال، أين مات العديد منهم وبقي بعضهم في المغارات. وابتزّ

---

(17) المقدسي : ص 139 وابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان يتحدّث عن وجود محلّة لليهود في الموصل قبل تمصيرها من قبل هرثمة بعد فتحها ص 129.

منهم ذهبهم وثرواتهم، وعندما اكتشفوا دجله هرب منهم لكنّ قبض عليه اليهود وحملوه إلى الخليفة هشام، فسلّمه أعوانه لرؤساء اليهود الذين تولّوا قتله فتخلّصوا من دجله (18).

وهذه الرّواية تبرز أحد الحركات الشعبيّة التي نشطت بين اليهود وهي ضمن الحركات المسيانيّة التي تحدث بين يهود الشّتات منذ تدمير هيكل سليمان الثاني وتتجاوز إطار الدّجل والرّغبة الشخصيّة من هذا الدّعي للتشفّي من قومه إذ وجد بن عامّة يهود الجزيرة الإستعداد لقبول هذه الدّعاية، لأنّ اليهود كان لهم الإعتقاد في ظهور أحد ذرّيّة النبيّ داوود في نهاية العالم يقوم بجمع اليهود من جديد وحملهم إلى أرض الميعاد لإعادة بناء هيكل سليمان وأنه «المشيح» وهي إشارة إلى طقوس مسح رؤوس ملوك اليهود بالزّيت لمباركة حكمه، فكانت الإيديولوجية المسياحيّة أو المسيانيّة منتشرة بقوّة بين يهود الشتات (19).

ويبدو أنّ هذه الاسطورة، كانت قويّة بين عامّة اليهود فكان سكّان قرية سوفان من اليهود الذين رحّبوا بهذا الدّعيّ واتبعوه في هجرته إلى أرض الميعاد ومن المحتمل أنّ بعض العامّة من يهود الجزيرة اتّبعوه إلى الشّام وعبروا الفرات

(18) دنيس: الحوليات ص 25 و 26.

(19) أنّ قصّة الدّجال وقعت في عهد اليزيد سنة 105 هـ وأنّه مسيحي اعتنق اليهوديّة ولقد اعتقله اليزيد وأعدمه : Chronographica Islamica Fas V p. 1283 .

(20) دنيس التلمحري : نفس المصدر ص 19 م المقدّمة في أحداث سنة 211 هـ / 829 م ويذكر

مثل أجدادهم العبريّين. وكان دنيس تناقل خبر هذه الحركة الشعبيّة من مصادر رسميّة لليهود، لأنّ مثل هذه الحركات كانت تلاقي دائما معارضة متشدّدة من المؤسسة الرّسميّة لليهود خوفا من إستلاب نفوذها من قبل الزّعامات الشعبيّة التي كانت تحلم بالعودة «لأرض الميعاد». ومن خلال الإتّهامات الموجّهة له من أنّه تسبّب في قتل بعض أتباعه الذين رموا بأنفسهم من الجبل وبأنّ بعضهم سلّم ثروته لهذا الدّعيّ من أنّه نجح في السّيطرة على عقول أتباعه.

ومن خلال موقف الخلافة الاموّية، يبدوا حرصها على حفظ الأمن داخل الطّائفة اليهوديّة واحترام رغبة رؤساؤهم في محاكمة الدّجّال وتنفيذ حكم الإعدام فيه.

ولقد وقعت هذه الحادثة قرب الرّصافة التي كانت مقرّ الخلافة، يفسّر بحرص اليهود على حمل الدّجال إلى الخليفة هشام في قصره والرّضا بالقرار الذي سيتّخذه في حقّه.

وهذه الحادثة تبرز كذلك أزمة الطّائفة اليهوديّة بين العامّة من اليهود، حيث كانت رئاسة الطّائفة تقع دائما بين فئة الأعيان وتبقى كلمة أعيان غامضة فعل تعني فئة الاثرياء أو من جماعة اللاّويين الذين كانت لهم الرّبّانيّة والاشراف على الطّقوس الدّينيّة لليهود. لكن من خلال الاطّلاع على بقيّة الطّوائف اليهوديّة في مصر أو العراق وفلسطين يبدوا أنّ رؤساء الطّائفة كانوا من أثرياء اليهود القادرين على شراء هذه الخطّة من إدارة الخلافة وهو ما يولّد أزمة تمثيليّة هؤلاء بين عامّة اليهود الذّين بقوا مهمّشين على المستوى الإجتماعي والإقتصادي وكانت

أحد وسائل إحتجاجهم هي إتّباع هذه الحركة المسياحيّة ويبدو أنّه في العصر العبّاسي، أصبحت رئاسة الطّائفة في بغداد رغم بقاء نفوذ رئيس يهود الموصل بين يهود الجزيرة.

وحسب حوليّات التلمحري برز إشكالا في حكم المأمون حول تمثيليّة اليهود لدى الدّولة العبّاسيّة، حيث اعتبر هذا الخليفة أنّ أي مجموعة بين اليهود أو المسيحيين رغبت في تكوين طائفة يوافق على ذلك حتّى لو كانوا عشرة أشخاص ومردّ ذلك بروز قضيّة رئاسة اليهود حيث أنّهم إنتخبوا داوود من طبريّة كرئيس للطّائفة لكن، قام اليهود الانانيّين وهي فرقة منشقة من بابل بانتخاب أحدهم وهو دانيال لرئاسة طائفتهم، وقبل المأمون برئاسته. وهذا القرار، دفع دنيس رئيس كنيسة اليعاقبة للتوجّه إلى بغداد لخطورة هذا القرار على وحدة المسيحيين ! (20).

ويبدو أن قرار المأمون أحدث هزّة بين يهود الجزيرة لأنّه يهدّد وحدة طائفتهم.

---

(20) نفس المصدر: ذكر هذه الطّائفة في عدّة مواضع وذكر في ص 146 خروج اليهود مع المسلمين والنّصارى للإستسقاء بمزاميرهم في حدود سنة 156 هـ . وفي ص 163 ذكر تضررهم من التعسّف الضريبي مع بقيّة السّكان وذكر في ص 183 أن في شمال الجزيرة تعرّضت بعض مقابر اليهود إلى النّهب ويبرز ذلك تركّز طائفة اليهود في مدن الشّمال.

خاتمـــــــة

أنّ الطّائفة اليهوديّة بالجزيرة هي طائفة عريقة يعيش معظم أتباعها في أحياء خاصّة بهم بالمدن الكبرى كالرّها والموصل وحرّان ونصيبين مع وجود جماعات صغيرة كانت لها بعض القرى. ويبدو أن معظمهم يتعاطون أنشطة تجارية وحرفيّة. وهي من الطّوائف التي اندمجت في المنظومة الإسلاميّة وكان الحضور الإسلامي إيجابيا لطائفتهم حيث وفّر لهم حريّة الإعتقاد والحقّ في التسيير الذاتي لطائفتهم رغم بعض أزمات تمثيلهم وفرض سلطة رؤساؤهم على عامّة اليهود كما رأينا.

خاتمة

شهدت و لاية الجزيرة منذ القرن الثاني هجري / الثامن ميلادي تطور الأو ضاع السكانية بانفتاحها على الهجرة العربية إثر الفتح الإ سلامي مما خلق د ينـاميكية سكانية مميزة كان لها تأثير على تغير التوازنات القبلية بالمنطقة رغم هجمة الأمراض الوبائية والجوائح الطبيعية.

وكـان هـذا الـوضـع الإجـتـمـاعـي المتميز بقوة حضور البدو جعل الظاهرة الإنـقسامية متجذ رة في المجتمع وشملت معظم المكونات الإجتماعية والإثنيات المختلفة.

ومن تـأثـيـرات هـذا الـوضـع احتداد الصراع بين القبائل العربية للإستحواذ عـلـى الأرض والـنـفـوذ كـان من تـجلياته السياسية صراع مجموعة ربيعة بقيادة تـغـلـب ضـد قـيـس وصـراع ضـد جموع يمنية الموصل وانجر عن هذا الوضع في العصر العباسي الأول انقسام الجزيرة بين مناطق نفوذ لهذه المجموعات وهي د يـار مـضـر غربا وديار ربيعة في الو سط وديار بكر شمالا ومنطقة الموصل تحت نـفـوذ الـيـمنية في ظرفية تراجع نفوذ الدولة فالتجأت للإعتراف الضمني بسلطة الـمتنفذ ين على نواحيهم. وشهدت هذه الفترة بروز الأكراد في مسرح الأحداث مع تـحـالـفهم مع عرب الجزيرة و قيامهم بأعمال النهب ضد المجموعات القروية في شمال الجزيرة.

أمـا المجموعات المستقرة سواءا منها الحضرية أو الريفية فلقد استفادت من الفتح الإسلامي وانفتاح مجال الجزيرة وتوحده تحت سلطة الخلافة الإسلامية وفك العزلة على المدن وأدى ذ لك إلى إثراء فئة التجار والمضاربين في المدن على حـسـاب الـفـئـات الـحـضـرية الفقيرة والفلاحين الذين لم تشهد أوضاعهم تحسنا بـسبب التعسف الضريبي للدولة وإثراء أعوان الدولة والمضاربين على حسابهم وما يعانيه هؤلاء من فقر ومجاعات في فترات الجد ب.

وكـانـت معظم فئة المزارعين والحضريين بالمدن العريقة تدين للمسيحية على مذهب الطبيعة الواحدة لأغلبيتهم وحيث حافظ أصحاب هذه الديانة في

فترة بحثنا على حريتهم الدينية رغم انتشار الإسلام بين الفئات الحضرية مع ظهور فئة الموالي بالمدن وتعديات البدو على حساب المجموعات القروية ويرجع ذلك إلى حزم السلطة في حماية النصارى وحفظ حقوقهم ومؤسساتهم الدينية ولم نستثني في ذلك إلا القبائل العربية المتضررة وخصوصا تغلب التي تعرضت للإضطهاد والضغوط المختلفة للدخول في الإسلام.

أما طائفة صابئة حران واليهود فلقد خرجت في العصر العباسي الأول من انغلاقها حيث ساهمت الطائفة الأول في بعث حركة التدوين والنهضة الثقافية للمسلمين بينما كانت مشاركة الثانية إقتصادية بنجاح اليهود في الإثراء المادي بفضل نشاطهم التجاري بالجزيرة.

الباب الثّاني

التّحولات السياسيّة بالجزيرة: بين رفض إرادة الدّولة والنّزعات الإنفصاليّة

الباب الثاني :

التحوّلات السياسيّة بالجزيرة: بين رفض إرادة الدّولة والنّزعات الإنفصاليّة

مقدّمة :

كانت الجزيرة بعد الفتح الإسلامي من الولايات الهامشيّة المتواجدة على أطراف مركز الخلافة في الشّام. وبقي دورها منحصرا في الجانب العسكري بسبب موقعها على حدود بيزنطا. فكانت مركزا لتجمّع المقاتلة في حملات الصّوائف الموجّهة إلى أعماق الأراضي البيزنطيّة.

لكن منذ ولاية محمّد بن مروان. بدأ وضع هذه الولاية منذ فتحها سنة 17 هـ يتغيّر. فمنذ سنة 73 هـ ومع ولاية هذا الأمير الأموي، أخذت الجزيرة وضع الولاية المستقلة عن الشّام في جزءها الغربي وعن مصر الكوفة في جزءها الشرقي فتوحّدت الجزيرة بمنطقة الموصل في ولاية واحدة(1).

وهي كذلك فترة تميّزت بامتداد نفوذ هذا الوالي على ولايتي أرمينية واذربيجان المتاخمة للجزيرة من الشمال والشرق(2).

وهو إجراء طبيعي نظرا إلى الحضور القويّ لعرب الجزيرة في أراضي أرمينية واذربيجان مع وجود حاميات عسكريّة معظم أفرادها من عرب الجزيرة يقومون بحفظ الامن بها والقيام بالعمليّات الحربيّة منها ضدّ البيرنطيين نحو الغرب أو ضدّ الخزر في منطقة القوقاز واذربيجان أو ضدّ القبائل الكرديّة الجبليّة. ولقد تواصل نفوذ هذا الوالي على الجزيرة طيلة حكم أخيه عبد الملك وأبناءه الوليد وسليمان حيث برز بإشرافه على الاعمال الحربيّة ضدّ البيزنطيين وبإشرافه على الاعمال الحربيّة ضدّ البيزنطيين وتربيته لمجموعة من الامراء الامويين عسكريّا كهشام ومسلمة من أبناء عبد الملك والعبّاس بن الوليد الذين كلّفوا بقيادة حملات الصّوائف والإشراف على بعض أعمال الجزيرة(3).

---

(1) البلاذري : أنساب الأشراف ج V ص 185 مع ترجمة لهذا الأمير الاموي في المصدر.
(2) ابن الأثير : الكامل في التّاريخ ج IV ص 351.
(3) قادة حملات الصوائف في كتاب الطّبري : تاريخ الامم والملوك بين سنة 76 هـ إلى سنة 98 هـ والأزدي : تاريخ الموصل ص 24.

الفصل الأول: حضور الدّولة الأمويّة بالجزيرة إلى نهاية الحكم

I) تطوّر الدّور السّياسي للجزيرة في منظومة الحكم الأموي

1) السّياسة الإصلاحيّة لعمر بن عبد العزيز بالجزيرة :

كان لتواجد مجموعة هامّة من الامراء الاموين بالجزيرة يفسّر تطوّر دور هذه الولاية في بداية القرن الثاني هجري مع وصول بعضهم الى الحكم كهشام بن عبد الملك.

ومع حكم عمر بن عبد العزيز بدأت سياسة الإصلاح الإداري والعسكري وشملت خطّة الولاة وسير عملهم بالجزيرة، مع القيام بسياسة إصلاحية في تعامله مع السّكان بها كثورة هادئة على الأوضاع السّابقة.

ولقد حافظت لنا الحوليّات الإسلامية ونسبيّا الحوليات السّريانيّة صورة مشرقة لسياسته بهذه الولاية. حيث بدأ هذا الخليفة في مراجعة عقود الصّلح التي أمضاها قادة الفتح مع أهل الذمّة لإعطاء كلّ ذي حقّ حقّه ومنع تسليط المظالم عليهم وذكر القشيري رواية تؤكّدها بعض المصادر السّريانيّة عن ابن عائشة وهو عامل عمر على الرّها، أن عمر راجع عقود الصّلح التي توجد لدى أسقف هذه المدينة، فطلب من عامله أن يمدّه بهذه العقود للإطّلاع عليها لمعرفة نصّ صلح الجزيرة(4).

---

(4) القشيري محمد بن سعيد : تاريخ الرّقة تحقيق طاهر نعسان ط. حماه 1959 ص 6 و 7.

ولا يبدو أنّه أراد بذلك تشديد نظام الجباية وافتكاك أراضيهم بل كان هدفه هو تحديد الوضع الجبائي لأهل الذّمّة تجنّبا لكلّ تعسّف يحدث مع كلّ «تعديل» قام به سابقيه لرفع حجم الضّرائب المقرّة عليهم.

حيث تبرز من خلال بعض الإشارات التاريخية أن الجزية على أهل الذمّة ازدادت منذ خلافة عبد الملك بن مروان الذي أنهى كذلك الإعفاء الضّريبي الذي تمتعت به الكنائس والأديرة على أملاكها(5). كما حدث تعديل ثاني في خلافة الوليد سنة 90 هـ شمل السّكان والغابات والضيعات(6).

وهذه التعديلات أثقلت نظام الجباية وحرمت الكنيسة جزء من ثرواتها. لكن كانت مراجعته لعقود الصلح أن أفضت إلى إقرارها والإبقاء على مظاهر تميّز النّصارى على المسلمين(7).

ويمثّل إصلاح عمر المالي في ادخاله مسحة من الإنسانيّة في تصرّف أعوان الجباية حيث منعهم من التعدّي على حقوق أهل الذمّة وعدم إثقالهم بالضّرائب الإضافيّة والقضاء على مظاهر التنكيل والتعذيب بالمتأخّرين في دفع الجباية. وتشير المصادر المختلفة، أنه ما يعانيه أهل الذمّة لم تكن في درجة أولى الضّريبة، بل تصرّفات أعوان الدّولة الذين كانوا يأخذون «بالمظنّة» إذ يعذّب المتهمون إلى أن يقرّوا بمداخيلهم، ويعتقل المخالفون وتحجز محاصيلهم.

---

(5) أبو يوسف: كتاب الخراج المطبعة الميريّة القاهرة 1302 هـ. ص 10 و 20.
(6) كايتاني: نفس المرجع ج V ص 1043.
(7) نفس المرجع ج IV ص 927.

ولقد حدّ الخليفة عمر من هذه التصرّفات، وأكد لولاته وعمّاله بالجزيرة على ضرورة إيقاف هذه المظالم كما تبرز في رسالة بعثها إلى ميمون بن مهران صاحب خراج الجزيرة وكان من علماء عصره كما رأينا ولقد بعث إبنه عمرو يطلب إعفاءه من هذا المنصب فردّ عليه عمر في رسالة بقوله « ... يا ابن مهران، إنّي لم أكلفك تعبا في حكمك ولا في جبايتك فأجبها ما جبيت من الحلال ولا تجمع للمسلمين إلاّ الحلال الطيّب»(8) وقوله لا تجمع للمسلمين إلاّ الحلال الطيّب تؤكّد أنّ ما كان يجمع للمسلمين من أموال ، الجزية كان يتجاوز ما أقرّ على أهل الذمّة.

وتشير الرّواية إلى سوء تصرّفات أعوان الجباية وتعسّفهم على النّاس ويقول ابن يحيى «لمّا ولاّني عمر الموصل قدمتها فوجدتها من أكبر البلاد سرقا ونقبا، فكتبت إلى عمر أعلمه حال البلاد وأسأله أخذ النّاس بالمظنّة وأضربهم على التّهمة أو الآخذ بالبيّنة وما جرت عليه عادة النّاس. فكتب إليّ أن آخذ النّاس بالبيّنة في الموصل وما جرت عليه السنّة فإن لم يطلهم الحقّ، فلا أصلحهم الله. قال ففعلت ذلك، فما خرجت من الموصل حتّى كان أصلح البلاد سرقا ونقبا»(9).

كما يبرز المنزع الإصلاحي للخليفة عمر في تعديله لديّة القتلى حسب مداخيل الأشخاص لضمان العدل في دفعها، كما يبرز في رسالته لواليه على الموصل يحيى الغسّاني والذي كان من وجوه يمنيّة الشّام(10).

---

(8) القشيري : نفس المصدر ص 32.
(9) الأصفهاني (الحافظ) : حلية الأولياء وطبقات الأصفياء دار الكتب العلميّة بيروت ج ٧ ص 271 من مقطع طويل يتعلّق بهذا الخليفة من ص 253 إلى ص 353.
(10) الأزدي : نفس المصدر ص 3 و ص 10 وكان يحيى والي الموصل بين 100 هـ و 102 هـ.

وتوجد رواية أخرى ذكرها القشيري أن الخليفة بعث بعامل على الرّقّة لتوزيع صدقات المال بها وكتب إلى ابن وابصة عامله بالرقّة بخطّته ووصّاه بأن لا يوزّع المال إلاّ على شاطئ نهر جار وخاطبه بالقول «فإني أخاف أن يعطشوا وتتواصل الرّواية عندما سأل مبعوثه وهو ابن عمرو «يا أمير المؤمنين إنّك تبعثني إلى قوم لا أعرفهم وفيهم غنيّ وفقير فقال «يا هذا، كلّ من مدّ يده إليك فأعطه»(11).

وتبرز من هذه الرّواية نهج عمر في مراقبة عمل ولاته في ثلاثة أوجه وهي:

- دقّة إطّلاعه على أوضاع رعيّته بالجزيرة، حيث علم مشقتهم عند انتظارهم أموال الصّدقات.

- منزعه الإنساني حيث أمر عامله بأن يوزّع الأموال قرب نهر جار تجنّبا لعطشهم.

- رغبته في إيصال أموال الصّدقات لكلّ من يرغب فيها دون تمييز بين النّاس ولقد امتدّت إصلاحاته في اختياراته للولاّة والعمّال وأعوان الدّولة بالجزيرة حيث اختار الأكثر نفوذا والأقدر على تنفيذ إصلاحاته. ولهذه الغاية فإنه ميّز بين خطّة الحرب التي أبقيت لواليه عمر بن هبيرة وخطّة الخراج إلى ميمون وهو عالم تقيّ يحضى بالإجلال بين السكّان وعيّن إبنه عمرو في خطّة صاحب البريد ليكون عينّ الخليفة على أعوان الدّولة بالجزيرة(12) لمنع المظالم المسلّطة على السكّان.

(11) القشيري: نفس المصدر ص 6 و 7.
(12) نفس المصدر ص 32 و 52.

ولقد حاول إنهاء الإضطراب السياسي الذي أحدثه الخوارج طيلة ربع قرن منذ ثورة صالح بن مسرّح إذ تجاوز خطط سابقيه في المعالجة الأمنيّة لثورة الخوارج إلى إتخاذ سياسة التفاوض معهم لإعادة وحدة الأمّة الإسلاميّة. ومع ثورة شوذب الخارجي سنة 100هـ/718م والذي نجح في هزم جيش والي الكوفة عبد الحميد بن عبد الرّحمان، فقام عمر في الأوّل ببعث قائده الشهير مسلمة من الرّقّة لشرق الجزيرة لمواجهة الخوارج، ثمّ عدل عن ذلك، حيث راسل واليه بالموصل يحيى بن يحى الغسّاني ليفاوض الخوارج داعيا إلى وقف الحرب والدّخول في جدال ديني معهم. واستجاب شوذب إلى والي الموصل، حيث بعث برجلين من علماءهم إلى عمر في دير سمعان بالشّام. ويبدو أن هذه المناظرة خدمت عمر، حيث نجح في إقناع أحد المناظرين برأيه فانسحب من الخوارج وأقنع الثاني بضرورة ايقاف الحرب وهو ما حصل. ولقد ذكرت هذه المناظرة في بعض المصادر الإسلاميّة وأنّ الخوارج اقتنعوا أنّه إمام عدل لا يحق لهم الخروج عليه(13).

ولقد مثّل ذلك انجازا سياسيا هاما، فشل في حلّه الخلفاء السّابقون منذ واقعة النّهروان. وهذا النّجاح يبرز مدى عمق تجاوب المسلمين لإصلاحاته حتّى من الشقّ الثوري الذي يمثّله الخوارج. وكان قادرا على حلّ أكبر معظلة أمنية عانى منه ولاّة الجزيرة لكن لم يحدث هذا، لأنّ هذه المصالحة التي تمّت سنة 101هـ/719م كانت في الأيّام الأخيرة من حياته، لترجع ثورتهم أكثر حدّة بعد وفاته(14).

كما تطرح هذه الإصلاحات إشكالا حول مدى تجاوب القادة العسكريين والأمراء الأمويّين بهذه الولاية لهذه الإصلاحات.

---

(13) الأزدي نفس المصدر : ص 6 وابن الأثير : نفس المصدر : ج ٧ ص 45 - 48 وتاريخ ابن خيّاط ج II ص 382 - 388.

(14) الأزدي : نفس المصدر ص 6 و 7.

ورغم صعوبة هذه التّقييم لضعف الإشارات، فإنّه من الناحيّة الموضوعيّة، فمصالحهم، تخالف توجّهات عمر الإصلاحيّة على مستويين :

- تعارضها مع مصالحهم الماليّة بحكم خططهم العسكريّة والإداريّة والماليّة حيث تهدّد إيراداتهم الماليّة في حالة مراقبته للجباية.

- إعادة تنظيم الثغور الجزريّة وإيقاف الحملات الكبرى على أراضي بيزنطا الذي يهدّد مصالحهم المتأتيّة من غنائم الحرب وحرمانهم من مداخيل الغنائم والأموال المخصّصة لحملاتهم رغم الإبقاء على حملات محدودة صيفا(15).

لكن في الواقع، فإنّ عمر لم يمسّ من إقطاعاتهم بالجزيرة ولم يلغي تماما الصّوائف بل حدّ منها. وكان حكمه قصيرا ليكون له وقع على الجهاز الإداري والعسكري بهذه الولاية أو يحدث ردّ فعل سلبي على إصلاحاته. ويبدو من خلال بعض الإشارات، أنّ موقفهم كان مزيجا من الانتظاريّة والحيرة وعدم التحمّس لقرارت عمر. وتشير المصادر، أنّه مع علمهم بوفاته، رجعت الأوضاع بسرعة مزهلة إلى ما كانت عليه وجمّدت كلّ إصلاحاته(16).

ولم يمنع ذلك من كسب عمر تعاطف أحد أعظم الأمراء الامويين نفوذا وهو مسلمة والذي كان من المقرّبين له وأخذ دور المستشار الشخصي للخليفة وهو من أوصاه على فراش الموت برعاية عائلته(17).

(15) الطّبري : نفس المصدر : ج VII ص 457.
(16) الأزدي : نفس المصدر ص 7 و 8 والطّبري : ج VII ص 479 إلى ص 480.
(17) الأصفهاني : حلية الأولياء ج V ص 258 الى 333.

وهذه الصّداقة مع أحد أعظم الأمراء الأمويّين والذي تقلّد جيوش الخلافة في ثغور الجزيرة والشام وتولاّها مع ما تبعها من أذربيجان وأرمينية، جعل عمر يحكم ويقوم بإصلاحاته دون خوف لأنّ دعم مسلمة مثّل صمّام أمان لكل تهديد لحكمه داخل البيت الأموي.

ومن ولاّة عمر بالجزيرة عمر بن هبيرة الفزاري الذي درسناه في الباب الأول وتميّز بمقدرته العسكريّة التي برزت في عمله مع مسلمة ويحتمل أن يكون هذا القائد من اقترح اسمه على الخليفة ليسيّر الجزيرة وأرمينية رغم أنّه يحسب على مدرسة الحجّاج ومثل أحد أقطاب القيسيّة منذ خلافة سليمان بن عبد الملك(18) وبالمقابل كان على ولاية الموصل يحيى بن يحيى الغسّاني ويمثّل صنف جديد من الولاّة الذين لم يرتبطوا لا بالأسرة الأمويّة في نسبه ولا بأمراء الثّغور. وهو من يمنيّة الشام الذين لم يرتبطوا بالحزب القيسي. وكانت غاية عمر من توليته الموصل هو إجراء إصلاحاته كتعديل القتلى وإصلاح الأوضاع الجبائيّة كما رأينا في منطقة تكثر فيها أعمال الثأر والصراع القبلي والتهرّب الجبائي وكلّف كما رأينا بحلّ مشلكة الخوارج سلميّا(19).

2) تعاظم دور الجزيرة في خلافة هشام بن عبد الملك :

ومع وفاة عمر، رجعت أوضاع الولاية إلى حالتها القديمة وجمّدت كما رأينا معظم الإصلاحات في عهد يزيد بن عبد الملك ورغم قصر فترة حكمه نسبيّا بالمقارنة مع حكم هشام، فتميّز حكمه ببروز الحزب القيسي بالجزيرة، ونرى ذلك مع تكليف مسلمة بن عبد الملك وابن أخيه العبّاس بن الوليد من قبل الخليفة لقمع

---

(18) ابن الأثير : نفس المصدر ج ص 55 وص 99 ومقال :E.I2 ج V ص 825.
(19) الأزدي : نفس المصدر ص 3 إلى ص 7.

ثورة الخوارج في الأوّل ثم ثورة يزيد بن المهلّب في العراق سنة 101 هـ، حيث قاد مسلمة جند الشام والجزيرة معتمدا أساسا على قيادات قيسيّة لقمع هذه الثورة وإنهاءها وتولّي العراق(20).

كما رجعت حملات الصّوائف على نسقها قبل خلافة عمر حيث كان جند الجزيرة له دورا محوريّا في حروب التوسّع وحفظ الأمن داخل منظومة الخلافة الأمويّة مع جند الشام. وتطوّرت أهميّة جند الجزيرة مع خلافة هشام بن عبد الملك سنة 105 هـ الذي قضى شبابه في الجزيرة وكل يمتلك بها إقطاعات عديدة. وبرز ارتباطه بها باستقراره في الرّصافة عوض دمشق وهي توجد شرق الشام لكنّها ترتبط أكثر بالجزيرة لقربها من نهر الفرات(21).

وهذه النقلة النّوعية للجزيرة من ولاية هامشيّة إلى ولاية مركزية، ترتبط بشخصيّة هشام الذي كان جزريّا بحكم قضاء طفولته وشبابه بين الموصل وحرّان والثغور مع عمّه محمد بن مروان والذي كلّف بتربيته. فتدرّب بها على فنون القتال والحرب وامتلك في الموصل قصرا وإقطاعا(22).

وبقي مقيما بالجزيرة في إقطاعه بالزّيتونة بواسط الرّقّة أثناء حكم اليزيد عندما كان وليّ عهده وكان يزيد يرغب في إقالته من ولاية العهد وكان يعلم

---

(20) الطّبري : نفس المصدر ج VII ص 479 إلى ص 509 ويقدّم بعض قادته من القيسية كسعيد بن عمر الحرشي وآل زفر.

(21) تاريخ اليعقوبي : ج ص 314 والطّبري ج VII ص 542 وابن منظور : مختصر تاريخ دمشق ج XXVII ص 97 إلى 102 في ترجمة لهشام.

(22) تاريخ اليعقوبي ج II ص 314 والأزدي : نفس المصدر : ص 25 ومقال : "هشام" في E.I. ج V ص 510 الى 512 لقابريالي.

بتعلّقه بهذه الولاية، فبعث خالد القسري حسب رواية لليعقوبي يحسن له خلع نفسه من ولاية العهد على أن تكون له الجزيرة طعمة» لكن نصحه خالد بالتريّث حتّى تصير الجزيرة أحد أعماله إذا تولّى الخلافة وهو ما حصل(23) إلى أن جاءته البيعة وهو مقيما بمنزله بالزّيتونة(24).

وحول إتّخاذه الرّصافة مكانا لإقامته عوض دمشق تفسّره بعض المصادر بخوفه من الأوبئة التي كانت تطحن بسكان مدن الشام لكن يبدوا أنّه عاملا ثانويّا أمام رغبته في البقاء بالقرب من إقطاعاته بالجزيرة مع إتّخاذه الرّصافة مقرّا لحكمه(25) وتوجد إشارات طيلة حكمه أنّه كان حريصا على مراقبة إقطاعاته بها والإشراف على تنظيم حملات الصّوائف وتشييع الجند إلى الثغور واتخاذه بعض المروج لتربية أعداد هائلة من الخيل معدّة للمقاتلين بالثغور في حملاتهم على الأراضي البيزنطيّة وكذلك إنجازات مائيّة كبرى لتوسيع المجال الزّراعي والعلف في المنطقة(26).

وتوجد في سيرة هشام إشارات لإشرافه بنفسه على إقطاعاته بالجهة وخروجه أحيانا مع المقاتلة حاملا سيفه لتشجيعهم على القتال(27).

وترتبط إهتماماته باحياء الأرض وتربية الخيول بالجهة إلى غايات استراتيجية من أجل توفير البنية التحتيّة بالمنطقة وكميّات العلف والحاجيات

---

(23) تاريخ اليعقوبي ج II ص 314.
(24) نفس المصدر ج II ص 314 والطّبري : نفس المصدر ج VII ص 542.
(25) الطّبري : ج VIII ص 75 الى ص 80 والبلاذري : فتوح ص 184 الى 186.
(26) البلاذري : فتوح ص 184 الى ص 186 حيث يقدّم مختلف إقطاعاته بها وسيرة هشام في أحداث سنة 125 هـ : الطّبري : نفس المصدر ج VIII ص 75 الى 80. وكايتاني : نفس المرجع ج V ص 1338.
(27) الطّبري : نفس المصدر ج VIII ص 75 الى ص 80.

الغذائية للمقاتلين في ولاية ثغر. واعتنى بتحصين المنطقة وإعادة بناء القلاع والحصون البيزنطيّة مثل حصن الصّالحية جنوب الرّقة. وكان حصن مسلمة الذي بناه هذا القائد شمال الرّقة في طريق حرّان يقوم بدور تجميع المقاتلة قبل توجّههم للثغور وتوفّر السلطة لهم الخيول والعلف ومؤونتهم به(28). وكانت الغاية من ذلك تجنّب نكسة حملة القسطنطينية سنة 98 هـ و 99 هـ التي قادها مسلمة إذ أن المقاتلة بالأراضي البيزنطيّة عانوا من نقص المؤونة(29).

وتميّزت سياسة هشام بن عبد الملك في الجزيرة بتولية أبناءه هذه الولاية حيث ولّي تباعا على الجزيرة وقيادة الحملات معاوية وكذلك سعيد وسليمان بين سنة 110 هـ إلى نهاية حكمه(30) وكذلك كبار الأمراء الأمويّين أبرزهم مروان بن محمّد الذي كان يتولى قبل خلافته الجزيرة عمالة الموصل منذ سنة 103هـ/721م ثمّ تولّى الجزيرة مع اذربيجان وأرمينية بعد سنة 114هـ/722م إلى وفاة هشام وكانت تسند أحيانا إلى سليمان بن هشام(31).

وكان الخليفة هشام طيلة هذه السّنوات يشرف بنفسه على شؤون الجزيرة عند إقامته بالرّصافة والرّقة خصوصا عندما كان إبنه سليمان يتولّاها نظرا لإشراف والي الجزيرة على الصّائفة اليمنى وما يوليه هذا الخليفة لحسن عمله في قيادة حملة الصّوائف.

---

(28) ياقوت : معجم البلدان ج III : حصن مسلمة.

(29) الطّبري : نفس المصدر ج VII ص 457.

(29) نفس المصدر ج VII من ص 576 ج VIII (سنة 125 هـ).

(30) البلاذري : فتوح ص 184 الى ص 186 ويقدّم إقطاعاته بالجزيرة أمّا سيرة هشام : الطّبري نفس المصدر : ج VIII ص 75 - 80.

(31) الطّبري : نفس المصدر ك ج VIII ص 75 - 80.

واهتمّ الخليفة هشام بعمالة الموصل واعتنى بحاضرتها مع توليته للحرّ بن يوسف وكان صهره وتولاّها سنة 106هـ/724م حيث برز ببناءه لنهر يأتي من دجلة ويشقّ المدينة وتواصلت أشغاله إلى ما بعد وفاته وانتهت سنة 121هـ/738م مع الوالي الوليد بن تليد العبسي وكلّف 8 م درهم متأتّية من مداخيل هذه العمالة(32) وهو بذلك أعطى لحاضرة الجزيرة القدرة على لعب دور استراتيجي لحماية الجزيرة من خطر الخزر المتأتي من أذربيجان وأرمينية. فكل هذه الإنجازات المائيّة والعمرانيّة ترتبط بغايات عسكريّة حيث أنّ الجزيرة هي ولاية محوريّة في المنظومة العسكريّة للخلافة في وضع دولي متوتّر شهد نجاح البيزنطيين في التصدّي لحملة مسلمة الكبرى سنة 100هـ/718م وبروز القدرات العسكرية الفائقة للإمبراطوريون III الإزوري الذي تصدّى بنجاح للحملات الصيفية. ونجح البيزنطيون في إلحاق هزائم شنيعة بالمسلمين سنة 109هـ/727م وسنة 122هـ/739م في معركة أكريونين AKROINEN التي قتل فيها أبطال الإسلام(33).

وهذا الوضع تطلّب من الخليفة أن يكون بالجزيرة لتعزيز الدّفاعات والقدرات الحربيّة للمقاتلين بالإضافة إلى تعزيز الجبهة الشرقية بها مع تنامي خطر الأتراك الخزر حلفاء بيزنطا الذين هاجموا أذربيجان وأرمينية وشرق الجزيرة منذ سنة 107هـ/725م فأنيطت لجند الجزيرة مهمّة التصدّي للخطر الخزري حيث كلّف القائد مسلمة بتنظيم الثغور شرقا حيث أقام بمدينة الباب على بحر الخزر 40 ألف مقاتل معظمهم من الجزيرة بها تحسّبا لاي هجوم خزري يهدّد حضور

---

(32) الأزدي : نفس المصدر : ص 27 الى ص 43.

(33) كايتاني : نفس المرجع : ج ص 1374 الى ص 1543 يقدّم حملات الصّوائف بين 109 الى 122 هـ.

العرب بأرمينية وأذربيجان، وأصبح هذا التّهديد فعليّا مع قتل القائد الجرّاح بن عبد الله الحكمي سنة 112هـ/730م حيث اكتسح الخزر شرق الموصل وأصبحوا يهدّدون مركز الخلافة(34).

وتعتبر هذه الإحداث هامّة في تاريخ الجزيرة لتبعيّة أرمينية وأذربيجان لهذه الولاية وتطلّب الموقف من الخلافة بعث ثلاثة جيوش بقيادة سعيد بن عمرو الحرشي وهو من قبس الجزيرة ليردّ الخزر نحو بحر الخزر شرقا(35).

وأبرز تفاقم الخطر الخزري فشل خطط مسلمة في تأمين سلامة المنطقة وهو ما دفع هشام إلى تولية ابن أخيه مروان بن محمّد خطط مسلمة ولقد اشترط مروان من الخليفة أن يستجيب إلى شروطه لتقبّل هذه الخطّة وهي توفير الإمكانيّات لانتداب أعداد هائلة من المقاتلين من الكوفة والشام وأساسا من جند الجزيرة فبلغ مجموعهم 120 ألف مقاتل حسب المصادر لردّ خطر الخزر(36).

وهذه الإمكانيات العريضة لم تتوفّر لأي والي سابق، لأنّ الخزر لا يمثلون فقط تجمّع قبلي من الأتراك بل مملكة قويّة حليفة بيزنطا حيث كان قسطنطين مصاهرا لملك الخزر(37).

فكانت مهمّة مروان عسيرة، إذ إضافة إلى مهمّة إجلاء الخزر خارج أذربيجان وتتبعها إلى حدود نهر الفولقا شمالا وخراسان شرقا، فإنّه كان مطالبا

---

(34) الأزدي : ص 32 والطّبري نفس المصدر : ج VII ص 470 ومقال : خزر ج IV في E.I.2 . ص 1205 الى ص 1207. لقولدن.
(35) الطّبري : نفس المصدر ج VII ص 470.
(36) ابن الأثير : الكامل : ج V ص 179 وتاريخ اليعقوبي : ج II ص 318.
(37) مقالُ خزرٌ E.I.2 : ج IV ص 1205 الى 1207 وكايتاني : نفس المرجع ج V ص 1405-1380.

بإنهاء الصّراع القبلي بين جموع عرب أذربيجان وأرمينية وخلاف جند الشام مع جند الجزيرة والكوفة. وكسب رهان التحالف مع الأمراء الأرمن المعادين لحضورهم إلى صفّه لشعورهم بخطر الخزر الزّاحف واكتسب بذلك ولاء أسرة الباقرادوني ذات الزّعامة بين الأرمن الذين مثّلوا دعما عسكريا هامّا لدحر الخزر. وأثناء حملاته بين 114هـ/732م و128هـ/745م فإنّه أبرز مهارته العسكريّة وابتكر نظام الكراديس في حربه للخزر وهو ما جعله يثبت امتيازه بين الأمراء الأمويين في قيادة الجيوش، وأنّه من طينة الأبطال بفضل انتصاراته الباهرة على الخزر(38).

وهو الذي ساهم في تكوين جيشا جزريا محترفا في حملاته ضدّ الخزر وتسجيل مقاتلة الجزيرة بكثافة في ديوان الجند ليجعل منهم القوّة الضّاربة الجديدة للخلافة وساهم هذا الإنتداب في حلّ مشكلة تكاثر أعداد العرب بالجزيرة مع تكثف أعداد نواقل الكوفة والبصرة بها، فوجد هؤلاء الفرصة للإنضمام إلى هذا الجيش وربط مصيرهم بهذا الأمير. ومن أهمّ المجموعات التي تمّ انتدابها الرّبابعة من تغلب وبكر والنّمر بن قاسط. فساهم تجنيدهم في كسب هذا الأمير لولاءات هامّة بينهم حيث وجدوا في العمل العسكري مورد رزق لهم، فعاضدته مع قيس للوصول إلى السّلطة(39). ومن أبرز الأحداث في عهد هشام وفاة القائد مسلمة بن عبد الملك في حدود سنة 121هـ/738م بأرض قنسرين(40) وفقدت قيس بذلك

(38) ابن الأثير : نفس المصدر ج V ص 178 و 179 والطّبري نفس المصدر ج VII ص 614. الى الج VIII ص 28.

(39) حلّل هذه الفكرة شعبان : التاريخ الإسلامي في تفسير جديد لكن ربط مروان بالقيسيّة دون الإشارة الى دور الرّبابعة في جند الجزيرة.

(40) حول موته : ابن الأثير : نفس المصدر ج V ص 570 والبلاذري : أنساب ج V ص 148 والأزدي : نفس المصدر ص 40 وترجمة له في كايتاني : نفس المرجع ج V ص 1516 وذكر ابن الأثير نفس المصدر ج V ص 70 أنه وليّ الجزيرة سنة 95 هـ.

أحد أبرز الأمراء الأمويين الموالين لهم وكان وراء صعود عدّة قادة منهم آل زفر بن عاصم الكلابي وآل مسلم بن عقيل وكذلك آل عمر بن هبيرة الفزاري كما رأينا. لكن ورث مروان بن محمّد قيادته للحزب القيسي وربط مصيره معهم، لكن كان موته إيذانا ببداية أزمة الحكم الأموي. نظرا لدوره الحاسم في حفظ التّوازن داخل البيت الأموي والتحكيم بين أبناء عبد الملك في خلافاتهم السّياسيّة.

ورغم عدم تسييره للجزيرة أثناء حكم هشام فإنّ العديد من ولاّتها كانوا من قادته ورغم وراثة مروان القيادة العليا للجيش الأموي وإشرافه على إدارة ولايات أبيه بأذربيجان وأرمينية والجزيرة واكتسابه للحلف القيسي، فإنّه لم يقدر أن يعوّض مسلمة في صلب الخلافة الأمويّة لأنّه طمع في الخلافة ولم يحافظ على حياده في أحداث الفتنة الثالثة.

وكانت وفاة هشام، نهاية عصر، لم يدركه خلفه الوليد والذي لم يعتمد على جيش الجزيرة كبديل لجيش الشام الذي ضعف ولاءه للأمويّين وتشقّه صراعات عميقة فقتل سنة 126 هـ/ 743م

ويشير الطّبري، بأنّ مروان بن محمّد بدأ منذ قتل الوليد في الضغط على اليمنيّة وجمع القيسيّة والأمراء الأمويين المعادين لليزيد وأثناء ذلك استولى على الجزيرة كخطوة أولى قبل استيلاءه على السلطة(41).

(41) الطّبري: ج ص 150 الى ص 165 (أحداث 126 هـ و 127 هـ).

3) مروان بن محمد والحلف القيسي بالجزيرة :

ارتبطت نهاية الحكم الأموي ببروز شخصيّة مروان بن محمّد والجزيرة كمركز للخلافة الإسلاميّة. وهي فترة اضطرابات كانت نهايتها سقوط الحكم الأموي والذي حدث في معركة الزّاب شرق الجزيرة ومثل كذلك فترة اعتماد الحكم الأموي على جندها.

ولا يمكن فهم الأوضاع بالجزيرة دون التطرّق الى شخصيّة مروان بن محمّد والتي ارتبطت منذ ولاية أبيه بالجزيرة إلى نهاية حكمه بهذه الولاية.

ورغم اعتناء المصادر بهذه الشخصية، فإنّها عموما تتحامل عليه إلى حدّ التجنّي لأنّها حرّرت معظمها في العصر العبّاسي في إطار ايديولوجي معادي للأمويّين وخصوصا لآخر خلفاءهم. لكن توجد مصادر أخرى أرمينية وسريانية، تحدّثت عنه في صورة مختلفة.

وفي الفترة المعاصرة، اهتمّ المستشرقون والعرب بدراسة هذه الشخصية في نطاق دراسات عامّة أو دراسات خاصّة. وهذه المؤلّفات تهتمّ أكثر بأزمة الحكم الأموي أو صعود العبّاسيين إلى الحكم من الإهتمام بهذه الشخصية. ورغم إشارتها إلى انتقال عاصمة الخلافة إلى حرّان فإنّها لا تؤكّد كثيرا على علاقته الخاصّة بهذه الولاية ودور جندها في صعوده إلى الحكم(42).

(42) من بين المصادر : البلاذري : أنساب ج V ص 186 والطّبري : نفس المصدر ج VIII ص 345.
وحول المراجع الحديثة : مقال : مروان بن محمّد في EI ج VI ص 600 الى 610 وأطروحة :
DENNET (C) : Marwan Ibn Muhamad : The passing of Ummayad Caliphate : Thèse publiée à Edumburg 1939.

ولفهم الأوضاع بالجزيرة، علينا القيام بدراسة هذه الشخصية، حيث ولد مروان في أسرة أمويّة نافذة من صلب محمد بن مروان، وإن كان محمد من أمّ ولد فإنّه لعب دورا محوريّا في صعود أخيه عبد الملك إلى السّلطة والقضاء على أعدائه، فكوفئ سنة 73ه بولاية كبيرة تمثّل الجزيرة وأرمينية وأذربيجان متخذا من الموصل وحرّان كمقرّين لولايته الكبرى(43).

وفي خضمّ ذلك، ولدت له من جارية كردية مروان وكان قد أخذها من معسكر مصعب بعد هزمه. ويدّعي المعارضون لمروان، أنّها كانت حاملا به أثناء أسرها للشك في نسبه وهي رواية عراقية مغرضة تؤكّد أنّه ولد سنة 73 هـ لدعم هذا الافتراض(44).

وهذ المعطى يجعله من صنف الأمراء من أمّ ولد كأبيه ومسلمة والذي يقلّل من حظوظه في الخلافة لكن تجعله يعتمد على كفاءته العسكريّة فقط لإثبات جدارته داخل البيت الأمويّ.

وحسب بعض الرّوايات فإنّه عاش طفولته وشبابه في الجزيرة بين الموصل والرّقة وحرّان أين تلقّى تعليمه من عدّة مشايخ منهم الجعد بن درهم الذي أظهر الزّندقة حسب هذه الرّوايات فقتل على ذلك من قبل خالد القسري(45).

وهو تجنّي ثاني على مروان باتّهامه في دينه لأنّه أخذه من زنديق رغم الإشارات التي تؤكّد أنّه كان معاديا لمذهب القدريّة لشيخه الجعد كما سنراه في التحليل. لكن لقبَ به فكان يسمّى بمروان الجعدي.

---

(43) البلاذري : نفس المصدر ج V ص 186 والطّبري نفس المصدر : ج VIII ص 345.
(44) البلاذري : نفس المصدر ج V ص 186 والطّبري نفس المصدر : ج VIII ص 345.
(45) الأزدي : نفس المصدر : ص 66 وابن الأثير : نفس المصدر ج V ص 429.

ولقّب كذلك بالحمار، ورغم طرافة هذا اللّقب فإنّه يقدّم صورة لشخصيّة تتميّز بالصّبر والجلد وصاحب إرادة قويّة جعلته يواجه المخاطر الكبرى وهو لقب متداول في عصره كما يبرز في حصاره لحمص سنة 128هـ/745م(46).

وتبرز المصادر أنّه بدأ في عمله الحربي مع عمّه مسلمة والقائد عمر بن هبيرة في الثغور وأرمينية منذ سنة 102هـ/720م(47) ومحالفا منذ تلك الفترة للقيسية حيث كان أخ بالرّضاع لأحد من بني سليم(48).

وكان لبروزه في قيادة بعض الحملات وذكاءه في تنفيذها وبروز علامات القدرة في قيادته للجيوش، أن جعل اليزيد يكافئه بتوليته الجزيرة سنة 102هـ/720م أو 103هـ/721م ويذكر الأزدي أن عمر بن هبيرة كان واليها سنة 102هـ/720م وقام بحملة مظفّرة على الأرمن فبعث البشارة مع مروان، فغضب بنو أميّة فقالت : «فزاري يحمل البشارة والرّسالة رجلا منّا ؟ فولاّه الخليفة اليزيد مكانه بالموصل فعاد أميرا... وحسب نفس الرّواية فإنّه بقي على الموصل إلى سنة 106هـ/724م فعزله هشام وولاّها الحرّ بن يوسف(49).

وكانت ولايته للموصل أو كامل الجزيرة منطقية، نظرا إلى الولاءات التي تركها أبوه بها وهو الذي جعل من الموصل أحد الأمصار الكبرى ولعب دورا كبيرا في تنظيم الهجرة العربية من نواقل البصرة والكوفة إلى الجزيرة وما تبعها من أرمينية وأذربيجان وساهم في تنظيم ثغور الجزيرة، فترك بالجزيرة رصيدا أدبيّا،

(46) الطّبري : نفس المصدر ج VIII ص 213.
(47) الأزدي : نفس المصدر ص 5 وص 6.
(48) نفس المصدر : ص 130 الى ص 132.
(49) نفس المصدر : ص 16 الى ص 27.

استغلّه هذا الامير للوصول إلى إمارة الولاية. ومع احتداد الصّراع ضدّ الخزر كان مروان مسؤولا مباشرة بتنظيم العمليّات العسكريّة قبل تولّي الجراح هذه المهمّة. ونرجّح أن تكون جمعت له الجزيرة لإشرافه على صائفة سنة 105هـ/723م على قونيّة وحصن كمخ رغم سكوت المصادر عن ذلك(50).

ويبدو أنه منذ سنة 106هـ/724م أصبح متفرّغا للعمل الحربي مع عمّه مسلمة سواءا ضدّ بيزنطا أو ضدّ الخزر عندما كان مسلمة والي اذربيجان وأرمينية سنة 107هـ/725م (51) لكن فشله في الحدّ من خطر الخزر كما رأينا جعل الخلافة تولّي مروان الولايتين سنة 114هـ/732م نجح في القضاء على هذا الخطر فكانت هذه الإمارة اللبنة الأولى لصعوده السّياسي إلى أن فرض نفسه على البيت الأموي بعد قتل الوليد وتولّي يزيد الثالث الحكم كالقائد الأعلى لجيش الخلافة نظرا إلى تمرّسه أعمال الحرب طيلة سنوات ضدّ الخزر فتوفّرت له قوّة عسكريّة نظاميّة رهيبة وولاءات قيسيّة هامّة من آل مسلم بن عقيل وآل عمر بن هبيرة وعاصم بن عبد الله الهلالي(52) وهذه المجموعات القيسيّة مثّلت مقاتلة الجزيرة وجند قنسرين منذ الفتح الإسلامي، خدمت الامويين منذ خلافة معاوية وعاضدت ولاة الجزيرة في حملات الصّوائف وتوّلت حفظ الأمن بها ومع مروان دخلت جموع ربيعة في خدمة الخلافة وخصوصا تغلب التي بقيت كما رأينا على نصرانيّتها وكان يتزعّم جند الجزيرة محمد بن عبد الله بن علابة الذي جند لمروان أعدادا هائلة من المقاتلين عند

(50) ابن الاثير : نفس المصدر ج V ص 37 وتاريخ اليعقوبي : ج II ص 395.
(51) الأزدي : نفس المصدر ص 61 والطّبري : نفس المصدر ج VIII ص 178، ص 183 الى ص 185، ويذكر الأزدي أنّه سار إلى الشام بجند الجزيرة.
(52) الطّبري : نفس المصدر ج VIII ص 178 الى ص 185!

انقضاضه على الحكم في 127هـ/744م مع قوّات أرمينيّة وجموع الموالي من قدماء الأسرى(53).

كما فرض مروان نفسه بفضل عمله الطّويل في الثغور حيث إكتسب ولاءات حتّى بين جند الشام ويذكر الطّبري أنّ مروان أثناء تولّيه الثغور وحرب الخزر كان يزور مرّة كلّ سنتين الخليفة هشام في الرّصافة للتّحادث عن أمرها وتقديم تقرير مفصّل لأوضاعها(54).

وأثناء معارضته لليزيد يبرز مدى سهولة سيطرته على الجزيرة عندما قام ابنه عبد الملك بإقالة واليها عبدة بن رياح الغسّاني والتخلّص من ثابت بن نعيم الجذامي زعيم اليمنية في الثغور وفرضه على يزيد أن تكون له الولاية الكبرى التي كانت لأبيه من قبل(55) وكان قبل قتل الوليد مستاءا من حملة اليمنية على الوليد وإثر قتله يذكر البلاذري قول مروان «وقال أمري شبيه بأمر معاوية في طلبه بدم عثمان»(56).

وكان لوفاة اليزيد بعد ضبطه للجزيرة وتولّى إبراهيم الخلافة دفعته إلى القيام بحملة على الشام لعزله(57) وكان في ذلك انتهازيّا بمبايعة يزيد في الأوّل مقابل الولاية الكبرى على أرمينية واذربيجان والجزيرة رغم خلافهما لكن كان لتولّي ابراهيم الخلافة واعتماده على قتلة الوليد ووجوه القدريّة من الأمويين

---

(53) الطّبري: نفس المصدر ج VIII ص 178. وفي ص 164 يذكر أنّ له موالي عتاق
(54) نفس المصدر ج VIII ص 178.
(55) نفس المصدر ج VIII ص 180 و 181.
(56) البلاذري: أنساب ج V ص 187.
(57) الطّبري: نفس المصدر ج VIII ص 183.

كعبد العزيز بن الحجّاج أو وسليمان بن هشام، جعله يحرّك جنده في الشام ويشترط على إبراهيم تخلية سبيل إبني الوليد الحكم وعثمان(58) وكسب أثناء تحرّكه جند قنسرين وحمص ليهزم في عين جرّ جند إبراهيم قرب حلب في صفر سنة 127 هـ الموافق لـ 18 نوفمبر 744م وقتل من جند الشام 17 ألف مقاتل. وادّت هذه المقتلة إلى استحكام عداء جند الشام له رغم ضمّه لجزء من هذا الجيش المنهزم والسّير بهم إلى دمشق والإطاحة بحكم إبراهيم في فترة قتل اليمنيّة لإبني الوليد وليّي عهد الوليد في سجن دمشق، فتوفّرت لمروان فرصة طلب الخلافة مدّعيا أنّ الحكم بن الوليد قد ذكر شعرا قبل موته يقول فيه :

فـإن أهلك أنـا ووليّ عهدي *** فمـروان أمير المؤمنينا(59).

وهذه الرّواية التي تذكر شعرا يشرّع لمروان أخذ الحكم تبقى مشكوكة لكن اعتمد عليها مروان في نصرته لآل الوليد ضدّ قتلته من اليمنيّة للوصول إلى الحكم بعد قتل إبني الوليد. وكان في ظل الصّراع داخل البيت الأموي، صاحب النّفوذ الحقيقي، ولقد جاءته البيعة بدمشق من وجوه اليمنيّة مع وصوله في 18 صفر 127 هـ الموافق لـ 7 ديسمبر 744 م. وكان سنّه 52 وخطب بدمشق خطبة الخلافة وأخذ لابنه عبد الملك البيعة من بعده(60).

---

(58) الأزدي : نفس المصدر ص 64 والطّبري : نفس المصدر ج VIII ص 185.
(59) الطّبري : نفس المصدر ج VIII ص 196 وذكر شعرا يوصف به الجزيرة بأرض نزار وكذلك ابن الوردي : نفس المصدر ج I ص 281.
(60) الطّبري : نفس المصدر ج VIII ص 196 و 197 والأزدي : نفس المصدر ص 65.

II) انفجار الصّراع السّياسي أثناء خلافة مروان II بالجزيرة وانتقال مركز الخلافة إلى حرّان :

1) خلافة مروان بن محمّد

رغم تقرّب مروان إلى جند الشام برفع قيمة عطايا الجند وإصدار عفو شامل لتهدئة الأوضاع، فإنّه شعر بأنّ الفجوة شاسعة وخلافه مع هذا الجند كبيرة، فأدرك إستحالة إقامته بدمشق في ولاية معادية لحكمه وجندا يخشى غدره وبرز فعلا بداية اضطراب جند فلسطين وحمص. فنقل خزائن ملكه إلى حرّان بالجزيرة التي كانت حاضرتها وسط انصاره من جند الجزيرة وجموع قيس.

ويمثل هذا الإجراء أوّل نقل لعاصمة الخلافة رسميّا خارج الشام منذ ظهور الدّولة الأمويّة. وينبّأ بقطيعة كاملة مع جندها ويقول الطّبري : «بعد رجوع مروان إلى حرّان، خالفه أهل الشام»(61) وهذا الخلاف بين مروان وأهل الشام هو صراعا بين اليمنيّة والقيسية في هرم السّلطة حيث جعل الخليفة نفسه طرفا في هذا الصّراع لكنّه كان كذلك صراع نفوذ بين ولاية الشام العريقة في ولاءها للأمويين وجندها الذي كان الأداة الضّاربة للحكم، وولاية الجزيرة ذات الدّور الاستراتيجي والعسكري المتصاعد وجندها الذين أصبحوا الأداة الضّاربة الجديدة للحكم منذ خلافة هشام والقوّة التي أوصلت مروان للسّلطة. وبقاءه رهين هذا التّحالف مع هذا الجند جعله يأخذ قرار التخلي عن دمشق كعاصمة للحكم بعد أن كانت مركز

---

(61) الطّبري نفس المصدر ج VIII ص 197 وذكر رسالة لمروان إلى الغمر بن يزيد عن زيغ أهل الشام في نصرة الأمويّين وأنّهم نكثوا أمر الله بقتل الوليد : ج VIII ص 162.

استقطاب للبيت الأموي وإدارة الحكم مع شبكة كاملة من الحاشية والولاءات القديمة للأمويين. وكان نقله لخزائن الملك والإدارة لحرّان ان جعل هذه الشبكة من رجال الحاشية والكتبة وولاءات قبليّة وأعيان مدن الشام، تنهار ويتراجع نفوذها في جهاز الدّولة رغم أنّ هذا التحوّل بدأ مع الخليفة هشام الذي بدأ في نقل مقرّ حكمه إلى الرّصافة، رغم إبقاءه لجزء من ادارته في دمشق.

وكان لانتشار الولاء للمذهب القدري بين يمـنيّة دمشق. والغوطة وأجناد الشام يهدّد حكم مروان، حيث أعلن الحرب على أصحاب هذا المذهب وهو ما يفسّر سرعة ثورة معظم جند الشام على الخليفة الجديد.

ورغم وصول بيعة سليمان بن هشام مع مواليه الذكوانية من الرّقة وبيعة إبراهيم المخلوع، فإنّ تمرّد جند الشّام، بدأ مع إنتقال مقرّ الحكم إلى حرّان، حيث خلع أهل حمص بيعتهم لمروان بعد أن دعاهم ثابت بن نعيم الجذامي لذلك، وتبعتهم كلب في تدمر وحلب وكذلك أهل الغوطة بقيادة يزيد بن خالد القسري(62).

وكان أخطر تحرّك قام به سليمان بن هشام حيث جمع جند الشام الغاضبين على مروان واعتمد على مواليه بالرّقة في هذه الثورة بعد أن شاركوه القتال ضدّ الخليفة الوليد وهم يتركبون من الأعلاج قدماء الأسرى الذين أسلموا وكان قائدهم من الموالي وهو إبن ذكوان(63). ولقد كوّن سليمان هذا الجيش من خلال إشرافه على الجزيرة والصّائفة اليمنى كما رأينا. وصراعه ضدّ مروان هو صراعا بين

---

(62) ابن الأثير : نفس المصدر ج V ص 324 الى ص 330 والطّبري : نفس المصدر ج VIII ص 210-231.

(63) ابن الأثير : نفس المصدر ج V ص 331 والطّبري : نفس المصدر ج VIII ص 210.

اسرتين أمويّتين أخذتا نفوذهما من حضورهما القويّ بالجزيرة. وكان وصول مروان إلى الحكم هو إخلالا بالتوازن السّابق بين البيتين. وكان نصرة مروان للوليد عدوّ آل هشام سبب ثاني لعداءهما. فكان وصول مروان إلى الحكم هو تهديدا لهذه الأسرة لنفوذها بالجزيرة.

ولقد جمع سليمان 70 ألف مقاتل معظمهم من جند الشام، انهزمت أمام جيش مروان وبيع الأسرى كعبيد في أسواق الرّقة(64).

وكان احتماء سليمان بحمص أن أجبر مروان على حصارها عدّة اشهر، ولاحق انصاره من اليمنيّة في تدمر(65) فمثلت معارضة سليمان أحد أشدّ الأخطار التي واجهها مروان.

وهذا الحصار، عطّل مروان في إخماده ثورة الخوارج بقيادة الضحّاك بن قيس الشيباني بالعراق والجزيرة. كما كان لفرار سليمان بن هشام من مروان أن جعله يدعم كل الثورات ضدّه ولم يتورّع حتى من التحالف مع العبّاسيين أعداء بيته لإسقاط مروان عن الحكم(66) وهذه الشخصية الجزريّة لم تكن مرشّحة في الأوّل للعب دور المعارض لمروان حيث كان يشاركه حملاته الحربية في الثغور وكان مرشحا في خلافة هشام ليكون أحد ولاة العهد لكن دفعه كرهه للوليد إلى معاداته.

---

(64) ابن الأثير : نفس المصدر ج V ص 332.

(65) نفس المصدر : ج V ص 333.

(66) الأزدي : نفس المصدر : ص 72 الى ص 76 والطبري : نفس المصدر : ج VIII ص 238 و 239.

2) إمتداد الثورة بالجزيرة ضدّ مروان بن محمّد

أمّا مرحلة خلافة مروان طيلة خمسة سنوات بين 127هـ/744م و 132هـ/749م فهي فترة صراع مرير ضدّ معارضيه. وأحد مجالات هذا الصّراع كانت الجزيرة. وأبرز المعارضين كان الخوارج الذي سنحللهم في فصل لاحق وما يبرز في ثورة الضحّاك بن قيس الشيباني أنّ حركة الخوارج تطوّرت من مجموعات صغيرة ثائرة بالجزيرة إلى حركة ثورية خطيرة كادت تسقط البيت الأموي. حيث كان أتباع الضحّاك منذ سنة 126هـ/743م بعض المئات من المقاتلين لتصبح أعدادهم عدّة آلاف عندما احتلّوا الكوفة في سنة 127هـ/744م(67).

وعندما سيطر على شرق الجزيرة إرتفع عدد الخوارج إلى 120 ألف مقاتل(68) ويفسّر ذلك بعدّة عوامل :

- تحالفها مع يمنية الكوفة والموصل والهاربين من جند الشام وبعض الأمراء الأمويين كسليمان بن هشام وعبد الله بن عمر(69) .

- قوّة حضور الخوارج بين جموع ربيعة بالجزيرة وخصوصا من شيبان وبقيّة عروش بكر(70) بالإضافة إلى الحاميات اليمنيّة بالثغور وحتّى من بعض القيسيّة بقيادة مسافر عامل إسحاق بن مسلم على أرمينية(71).

---

(67) تاريخ اليعقوبي : ج II ص 404 والأزدي : نفس المصدر ص 67 الى 71 وكايتاني : نفس المرجع ج V ص 1616.

(68) الأزدي : نفس المصدر ص 70 و 71.

(69) نفس المصدر ص 70 و 71 وص 74 الى ص 75.

(70) كايتاني : نفس المرجع ج V ص 1616.

(71) الأزدي : نفس المصدر ص 67 الى ص 70.

وهذه الأحداث وقعت أثناء حصار مروان لحمص وهو ما وفّر للضحاك فرصة جمع هذه الأعداد الهائلة من الثائرين وأغراهم بعطايا هامّة فجمع أهل الطّمع إلى صفّه (72) فبنى دولة خارجيّة تمتدّ من واسط جنوبا إلى حدود ارمينية وأذربيجان شمالا وشرقا والى نصيبين غربا وضمّ إليه الموصل مع مبايعة أهلها له وقتل عاملها القطران بن أكمة الشيباني الذي كان مع قومه المخالفين لمروان بها ولا يفهم موقف أهل الموصل إلاّ بهيمنة اليمنية عليها ومؤازرتها ليمنية العراق والشام في حربها على حزب القيسيّة بقيادة مروان بن محمّد. فهو تحالف مصلحي يتجاوز الخلافات المذهبية للإطاحة بمروان. وكان مروان واعيا بخطورة الوضع بالجزيرة بعد استيلاء الضحّاك على الموصل حيث بعث ابنه عبد الله أثناء حصاره لحمص. يأمره أن يعجّل السّير بمن معه من روابط نصيبين والرّقة وحرّان في قوّة تقارب 7 الاف مقاتل لمنع تقدّم الضحّاك نحو نصيبين، لكن بسبب قلّة جنده، فلقد أصبح محصورا في نصيبين وتولّى الضحاك بعث قادته الى بقية الجزيرة للسيطرة عليها، فبعث عبد الملك بن بشر التغلبي وبدر الذكواني مولى سليمان بن هشام إلى الرّقة لاحتلالها(73) وكان بعثه لمولى سليمان، هدفه تحريك موالي واتباع سليمان في الرّقة والصّالحيّة جنوبا ليكسبهم إلى صفّه وهذا الوضع، دفع مروان بعد سيطرته على حمص للتحرّك من أجل مؤازرة ابنه عبد الله، فقصد في الأول الخوارج في الرّقة ثم توغّل في الجزيرة لخوض معركة العدّ «من أرض كفرتوثا وسط الجزيرة، انتصر فيها بسبب قتل الضحاك في المعركة والذي جازف بنفسه طلبا للشهادة »، واستغل مروان هذا الانتصار لحمل رأس الضحاك

(72) نفس المصدر ص 68 الى ص 70.
(73) الأزدي : نفس المصدر ص 69 و 70.

والطواف به في مدن الجزيرة لإضعاف حركة الخوارج بها(74) وخوفه من انتقاض بقية الجزيرة مع الخوارج مع دعم عرب الموصل لهذه الحركة.

ومثلت معركة العدّ بداية النهاية لثورة الخوارج حيث انهزم خليفة الضحّاك الخيبري في المعركة ضد مروان رغم شجاعته واستشهد بها(75).

وبسبب سهولة اقتحام الخيبري لقلب الجيش والوصول الى حجرة مروان قبل أن يقتل أن دفع الخليفة الى تغيير نظام الجيش في حربه للخوارج من نظام الصفّ إلى نظام الكراديس والكردوس هي وحدة صغيرة من الخيّالة تعدّ 2000 مقاتل يبدو أنّه استعمله في حروبه ضدّ الخزر ورجع له لدحر خيّالة الخوارج السّريعة وكانت نتيجة ذلك دحر الخوارج بزعامة شيبان خليفة الخيبري إلى الموصل وانحصار أعدادهم ويذكر الازدي أنّ أهل الطّمع خذلوه ولم يبقى معه سوى 40 ألف مقاتل وحسب رواية الآزدي فإنّ شيبان كان كذلك يكردس ككراديس مروان في الحرب(76) وأجبر مروان في حدود 129 هـ إلى حصار الموصل، حيث كان الخوارج قد وجدوا الدّعم بها من اليمنيّة ومن منصور بن جمهور الذي سيطر على إقليم الجبل وكان يمدّهم بالمال والرجال(77) وهذا الحصار كان طويلا امتد بين 6 أشهر و9 أشهر، عطّل مروان لمعالجة الأوضاع في الشرق مع ظهور الدّعوة العبّاسيّة بها، وقام أثناء الحصار بأعمال انتقاميّة ضدّ الأمويين المتحالفين مع

(74) نفس المصدر ص 71.
(75) نفس المصدر ص 71 والطّبري : نفس المصدر : ج ص 235 و 236.
(76) الآزدي : نفس المصدر ص 72 و 73 والطّبري : نفس المصدر ج VIII ص 238 و 239 ومقال مروانII : $E.I_2$. ج VI ص 107 و 108.
(77) الآزدي : نفس المصدر : ص 73 و 79 وابن الآثير : نفس المصدر ج V ص 353.

الخوارج كأميّة بن معاوية بن هشام أخو عبد الرّحمان الدّاخل والذي قتله أمام أعين عمّه سليمان(78).

وأثناء حصاره للموصل نجح واليه على العراق يزيد بن عمر بن هبيرة في السيطرة عليها بعد طول إقامته بالرّقّة ثمّ بعث لمروان بالإمدادات بقيادة عامر بن ضبارة المريّ فجلى شيبان عن الموصل وتتبّعه عامر نحو الشرق بينما فرّ سليمان مع أهله إلى السّند، فنجح مروان وقتيّا في إعادة السيطرة على الجزيرة واسترجاع الموصل لكن لم يؤذي أهلها لعلاقته الحميمة بها ولقد ذكر في رواية للأزدي «مدينة بناها أبي ما كنت لأوذي أهلها...»(79).

وعيّن عليها هشام بن عمرو التغلبي على حربها وبشر بن خزيمة الأزدي على خراجها(80) وهدفه من ذلك حفظ التوازن بين النّزارية واليمنيّة بها لضمان الاستقرار والأمن ثم رجع إلى حرّان للإشراف على العمليّات الحربيّة من العاصمة والتي احتدّت في خراسان ضدّ العبّاسيين وثورة حمزة الخارجي في اليمن والحجاز بينما سيطر على الأوضاع في القسم الغربي من الخلافة(81).

أمّا الثورة العبّاسيّة في الشرق فهي لا تهمّ بحثنا لكن كانت حادثة اعتقال ابراهيم الإمام وسجنه في حرّان من قبل مروان لها أهميّة قصوى للمعلومات التي ذكرت حول هذا السّجن في حدود سنة 130 هـ/ 747 م .

---

(78) الأزدي : نفس المصدر : ص 75.

(79) نفس المصدر ص 76 وابن الأثير : نفس المصدر ج ص 423.

(80) الطّبري : نفس المصدر ج VIII ص 238 الى ص 319 في أحداث 129 هـ الى 131 هـ.

(81) نفس المصدر ج VIII ص 337 وابن الأثير : نفس المصدر : ج V ص 422. ومقال «ابراهيم الإمام» في E.I.2 ج V ص 1012 و 1013. لفاروق عمر.

والملاحظ من خلال ما ذكرته بعض الروايات عن هذا السّجن أنّ جلّ المعتقلين من الأمراء الأمويّين المنافسين للخليفة في طلب السّلطة وبعضهم لهم حضورا قويّا بالجزيرة وهم:

- سعيد بن هشام بن عبد الملك وابنيه عثمان ومروان وهم من آل هشام اعتقلوا لتورّط سليمان وآل هشام في معارضة الخليفة.

- العبّاس بن الوليد، القائد الأموي الشهير ويبدو أنّه اعتقل لخذلانه الوليد وهو في الواقع منافس خطير لمروان لشهرته في حملات الصّوائف منذ حكم عبد الملك وولاءاته الهامّة بين عرب الجزيرة والشام.

- أبو محمد السّفياني: الذي كان وراء بيعة مروان في دمشق ولا يعرف سبب سجنه.

- شراحيل ابن القائد مسلمة ويبدو أنه سجن لولاءاته القويّة بين قيسية قنسرين والجزيرة فهو منافس محتمل.

- عبد الله بن عمر بن عبد العزيز اعتقل من قبل يزيد بن هبيرة لتحالفه مع الخوارج(82) وبالإضافة إلى الأمراء الأمويين فإنه مروان وضع في السّجن كوشان بطريق أرمنية IV ويبدو أنّه كان من بين النّاجين من السّجن وحالف بيزنطا في حملتها على الجزيرة سنة 133هـ/750م(83).

(82)- ابن الاثير: نفس المصدر: ج V ص422
و كايتاني نفس المرجع ج V ص 1651 و 1682 ويقدّم ترجمة لبعض من قتل في السّجن في تلك السّنة.

(83) كايتاني: نفس المرجع ج V ص 1664 - 1668.

وهذه القائمة من المعتقلين، تبرز سياسة مروان التي لم تكن تهدف إلى تصفية منافسيه بل إبقاءهم أحياءا للضغط على الشقّ المعارض له في البيت الأموي أو إجبار بعض القبائل والشعوب إلى موالاته مع اعتقال أهل البيوتات مثل كوشان بالنسبة للأرمن أو التدخّل في الخلافات الدّينيّة بين نصارى المنطقة كما يبرز من المصادر السّريانيّة(84).

ويندرج في هذا الإطار، اعتقال ابراهيم الإمام، حيث لم يهدف مروان في الأوّل إلى قتله بل لاستغلال سجنه للضغط على المعارضة العبّاسيّة.

ويجب الحذر من تصديق الرّوايات التي تتحدّث عن اضمار مروان قتله عند تجلّي الخطر العبّاسي في الشرق لأنّ هذه الرّوايات التي ذكرها الطّبري وابن الاثير هي عبّاسيّة معاديّة لمروان وتعتبر إبراهيم «الإمام الشهيد» ونفس الرّوايات تشكّ في موته قتلا أو بالطّاعون.

وكانت فترة اعتقاله في حرّان تشبه الإقامة الجبريّة من السّجن الإنفرادي حيث كان «السّجناء» لهم حرية التنقّل بينهم وتقبّل ذويهم وجلب الخدم معهم لخدمتهم ويبدو أنّه كان باستطاعتهم التنقّل داخل المدينة تحت حراسة موالي مروان المكلّفين بهذه المهمّة.

وتوجد رواية غريبة ذكرها الأزدي تخالف الرّوايات المتداولة وتتمثّل في أنّ الخليفة، أطلق سراح الإمام إبراهيم للحجّ سنة 131هـ/748م ويقول الأزدي : «وحجّ فيها إبراهيم ابن محمد الذي يدعى الإمام ومعه إخوته وولده فاشتهروا بالحرمين، ونفر حوله النّاس ويقول : «وكان مروان حبسه قديما ثم خلاه ثمّ حبسه مع مرجعه

---

(84) الأزدي : نفس المصدر : ص 118 الى ص 120.

من الموسم سنة إحدى وثلاثين ومائة، فلمّا حبسه خاف أبو العبّاس عبد الله بن محمّد وكان ابراهيم قد ولّاه الامر وأمره بالمسير إلى الكوفة»(85).

ورغم عدم ذكر المصدر، فإنّ في خبر إبراهيم اعتمد الآزدي على روايات حرّانية وموصليّة بالإضافة إلى الرّوايات المتداولة وتبرز أنّه حبس مرّتين وأنّه أقام في مكّة مكان تجمّع للهاشميين والدّعاة العبّاسيين للتخطيط نحو المنعرج الآخير للثورة، ويبدو أنّ مروان علم بذلك فحبسه مرّة ثانية. ولا يمكن التغاضي عن هذه الرّواية لأنّ الجزريين كانوا مطّلعين أكثر من غيرهم على قصّة ابراهيم الإمام.

فهل تغاضت المصادر العبّاسيّة عن هذه الرّواية التي أكّدت أن بيعة أبي العبّاس تمّت في الحميمة وليس في «مؤتمر مكّة» ؟

كما يبرز إشكال ثاني حول وفاته، هل قتل في سجن حرّان أم توفّى به ؟

وتوجد رواية ذكرها ابن الآثير أنّ وفاة ابراهيم الإمام كان بالطّاعون مع جملة من المساجين بحرّان. وهذا الاحتمال وارد نظرا الى أن الفترة المتراوحة بين 127هـ/744م و 131هـ/748م انتشر فيها طاعون جارف بين الشام والعراق والجزيرة كانت ذروته بين 130هـ/747م و131هـ/748م حيث توفي الكثير من سكّان المنطقة في البصرة وفي غيرها من المدن(87).

---

(85) كايتاني نفس المرجع ج V ص 1651 و 1682 ويقدّم ترجمة لبعض من قتل في السّجن في تلك السّنة.

(86) كايتاني : نفس المرجع : ج V ص 1621 الى ص 1664 و الآزدي : نفس المصدر ص 121 ويقدّم ابن الآثير : نفس المصدر ج V ص 422.

(87) كايتاني : نفس المرجع : ج V ص1621 - 1664.

وإذا كان هذا الإحتمال صحيحا، فإنّ ما أبرزته الإيديلوجيّة العبّاسية من تبريرات لقتل الأمويين تصبح واهية للثأر «للإمام الشهيد».

ويبرز الطّبري هذا الإشكال بقوله «واختلف أهل السير في أمر إبراهيم الإمام فقال بعضهم لم يقتل ولكن مات في سجن مروان بن محمّد بالطّاعون، وهي رواية لمحمّد بن زهير الذي كان جزريّا(88).

وبالمقابل، توجد روايات تؤكّد أنّ مروان قتل ابراهيم الإمام مع تؤكّد نجاح الثورة العبّاسيّة في خراسان وزحف الثائرين نحو العراق منذ سنة 131 هـ فأصبح قتله ضرورة. وتختلف هذه الرّوايات في طريقة قتله إمّا بالاغتيال أو التسمّم بقطيفة لمروان أو بتسميم طعامه أو تولّي موالي مروان بحرّان قتل المساجين عند وصول خبر معركة الزّاب(89).

ومن الأشياء التي تبقى مجهولة هي السّنتين تقريبا التي قضّاها مروان في حرّان بين 130 هـ/747 م 132 هـ/749 م حيث كان يسيّر الجيوش لمحاربة الخوارج في الجزيرة العربيّة ونحو خراسان لمواجهة الثائرين العبّاسيين ولم يمنعه ذلك من حفظ الثغور بتولية أمراء الصّوائف وتسييرهم في حملاتهم داخل الأراضي البيزنطيّة(90).

وحسب المصادر السريانية، فلقد اعتنى الخليفة بوضع النّصارى وضغط على رجال الكنيسة للحصول على دعم مادي لمصاريف الحرب، حيث يذكر ميخائيل السّرياني، أنّه بعد رجوعه من حرب شيبان، تحصّل عل هدايا ثمينة من البطريق

(88) الطّبري : نفس المصدر ج VIII ص 233 الى ص 235.
(89) الأزدي : نفس المصدر : ص 139 إلى ص 141.
(90) كايتاني : نفس المرجع : ج V ص 1665، 1666 .

يوحنّا الحرّاني مقابل الحصول على كرسي الكنيسة اليعقوبيّة وأدّى ذلك إلى احتجاج بعض الأساقفة فتم سجن بعضهم(91).

وواصل تسيير الصّوائف لحفظ الثّغور ومواصلة تسيير الولاّة في الأقاليم الخاضعة لنفوذه غربا. وكان ولاّة الجزيرة طيلة حكم هشام بن عمرو التغلبي في الموصل وابنه عبد الله على الجزيرة منذ سنة 128هـ/745م عندما قام بضبطها ومحاربة الخوارج(92) ولم يمنع ذلك من أنّ هذه الولاية كانت تسيّر مباشرة من قبل الخليفة لأنّها مركز الخلافة.

3) معركة الزّاب ونهاية الحكم الأموي

لكن في سنة 132هـ/749م ومع تأكّد هزائم جيشه في الشرق وزحف الخراسانيين نحو العراق والجزيرة. وإثر هزيمة قائد مروان في شهرزور، وهو عثمان بن سفيان أمام القائد الخراساني أبو عون الأزدي(93) فلقد أصبح الخراسانيون على مشارف الموصل، وهو ما دفع بمروان إلى التعبئة العامّة للمواجهة النّهائيّة ضدّ العبّاسيين في ظرفيّة مبايعة أبو العباس في الكوفة في ربيع I 132هـ/749م وانعزال إبن هبيرة في واسط(94). فتحرّك مروان من حرّان نحو جيش إبن عون وعبد الله بن علي في صفر 132هـ/749 حسب رواية عمر بن عبد

(91) كايتاني : نفس المرجع : ج V ص 1966.
(92) الطبري : نفس المصدر : ج VIII ص 233 الى ص 235.
(93) الإزدي : نفس المصدر : ص 117 و 118 وابن الاثير : الكامل ج V ص 424.
(94) الطّبري : نفس المصدر : ج VIII ص 338 والأزدي ص 125 و 126.

الحميد أي قبل أكثر من شهرين من معركة الزّاب وعبّأ قوّاته في منطقة الخابور لتوافيه الجيوش من الشام وأرمينية(95).

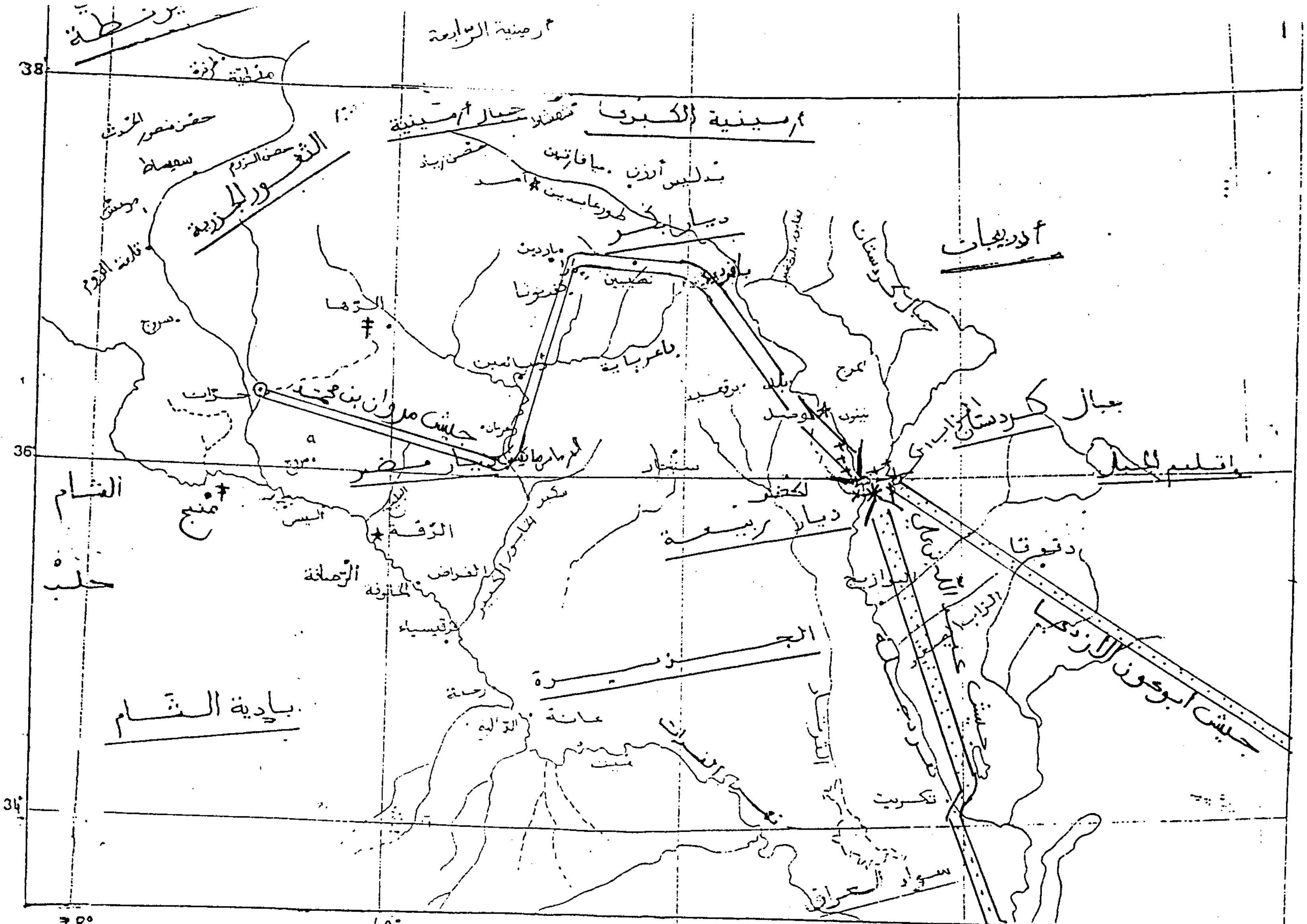
وبعد شهر من الإقامة في ماكسين، أخذ طريق الموصل في ربيع I من الشمال مرورا بنصيبين وبلد ، ونزل إثرها في الموصل حيث وضع بها خزائن ملكه(96) وهذا التحرّك الحذر في اتّجاه الشّمال، يبرز مدى حرص الخليفة على القيام بالترتيبات الأمنية قبل المواجهة، حيث قام على نهر دجلة جنوب الموصل بحفر خندق عظيم يمتدّ على ضفافه نحو الحديثة في مفترق دجلة والزّاب الكبير(97) لإغلاق المنافذ على الجيش الخراساني للتوغّل في الجزيرة في حال هجومه من الشرق أو الجنوب.

أمّا الجيش العبّاسي، فلقد تولّى قيادته عبد الله بن علي بطلب من أبي العبّاس في الكوفة وادّعى عبد الله بعد ذلك أنّه كان بمقابل ولاية العهد(98).

فوافى أبو عون على شطّ الزّاب الكبير في اليوم الثاني من جمادي II سنة 132هـ/750م ليخندق كلّ طرف في الجانب الشرقي بالنسبة للجيش الخراساني والجانب الغربي بالنسبة للأمويّين(99).

وتبيّن خطّة الجيشين خشية كلّ طرف من المواجهة العسكريّة، وحسب رواية لابن خيّاط عن شيوخ من أهل الجزيرة... خرج مروان في 100 ألف مقاتل من جند الشام والجزيرة... وحسب رواية أخرى لابن ذيّال فإنّهم كانوا أقلّ من ذلك

(95) الأزدي : نفس المصدر ص 126.
(96) نفس المصدر ص 126 ومع خريطة معركة الزّاب.
(97) نفس المصدر ص 163.
(98) نفس المصدر ص 126 و 127 والطّبري : نفس المصدر ج VIII ص 332 الى ص 337.
(99) نفس المصدر ص 127.



وثيقة رقم 4

مقياس الرسم: 1: 350.000

واقعة الزاب بين الجيش الأموي والخراساني

11 جمادى 132هـ / ≈ 750م

مسار جيش مروان بن محمد

مسار الجيش الخراساني

+++ الخندق الذي أقامه الأمويون على دجلة والزاب الكبير

* موقع واقعة الزاب 11 جمادى II 132هـ

وحسب رواية لابن معافى الموصلي فإنّهم كانوا 120 ألف مقاتل أمّا رواية النعمان بن السريّ فإنّ جيش عبد الله بن علي كانَ يعدّ 12 ألف مقاتل فقط وأخبر ذلك كاتب مروان أبو موسى بن مصعب حيث أحصاهم الخليفة بنفسه يوم المعركة وكلّ هذه الرّوايات ذكرها الأزدي. بينما يذكر الطّبري معظم هذه الرّوايات بأقلّ تفاصيل(100). وكان بين قدوم الجيشين في ساحة المعركة والحرب قد مضت 9 أيّام وكانت بداية المعركة موفقة لمروان حيث نجح الوليد بن معاوية بن مروان من الإغارة ليلا على الجيش الخراساني وهزمهم. وأخفى عبد الله بن علي خبر الهزيمة على جيشه ووجّه فجرا أبو عون وموسى بن كعب ساحة المعركة مع قوّاتهما قبل انتشار خبر الهزيمة(101).

ولقد عبر الجيش الأموي نهر الزّاب صباحا، فواجهه الخراسانيّون بنظام الصفّ يبرز في قول عبد الله «والزموا مصافكم» يقابل انتهاج مروان لنظام الكراديس في المعركة حيث اعتمد على 100 كردوس وكلّ واحد يحتوي على 1000 مقاتل(102) وكان على ميمنته ابنه عبد الله وعلى ميسرته ابن عمّه الوليد بن معاوية وبقي مروان في القلب في 30 ألف مقاتل. وكان لابسا ثيابا حمرا وهي ثيابه في الحرب(103) وكانت خطّة مروان في عبور الزّاب فيها مخاطر حيثترك خطّته السّابقة الحذرة رغم نصيحة بعض مستشاريه بعدم المجازفة بالهجوم(104).

---

(100) لازدي: نفس المصدر: ص 126 و 127 والطّبري: نفس المصدر ج VIII ص 332 الى ص 337.
(101) نفس المصدر ص 127.
(102) نفس المصدر ص 128.
(103) نفس المصدر ص 130.
(104) نفس المصدر ص 128.

وتولى مروان بنفسه تحريض الجنود على القتال بقوله «يا بني الاحرار، احملوا على هؤلاء، فإنّهم حشو من أهل شهرزور، وليس معهم من أهل خراسان من أهل البصائر كثيرا...»(105) ويبرز هذا القول احتقاره للعناصر الأعجمية محرضا العرب للدّفاع عن كرامتهم. فبدأت ميسرته في الهجوم على ميمنة الخراسانيين وهزمهم(106) وتدخّل عبد الله ليغيّر من تكتيكه الحربي، أمام تقدّم الاموبين حيث أمر جنده بالترجّل واتخاذ صفّا واحدا متماسكا ووضع أسنّة رماحهم على الأرض ووضع خلفهم الرّماة الناشبة لتكسير هجوم الخيّالة وترك في الصفّ الثالث الخيّالة الخراسانية، وأمر ميمنته بمهاجمة مقدّمة الامويّين فانهزمت وتأخّر الجنود الامويّون الى الخلف. فاستغلّ ذلك عبد الله لأمر مشاته بالتقدّم حاملين أعمدة «الكاراكومات» وهي أعمدة حديدية طويلة ورفع شعار العبّاسيين والشيعة «يا محمّد يا منصور ! يا لثارات إبراهيم الإمام(107) وحسب رواية لهارون بن صقرو فإنّ المعركة، بدأت بالمبارزة بين الفرسان ثم بدأ القتال(108).

وكان لتقدّم الجيش، رغم قلّة عددهم، أن خلق ارتباكا كبيرا في صفوف الامويّين، حيث كانت مؤخرة الجيش الاموي منحصرة بمياه الزّاب، ولم يقدر جسر القوارب على النّهر من تحمل أعباء المنسحبين، فغرق آلاف المقاتلين في النّهر(109) فتأكّدت هزيمة مروان.

---

(105) نفس المصدر ص 128.
(106) نفس المصدر ص 128.
(107) نفس المصدر ص 126 و 127.
(108) نفس المصدر ص 127،
(109) نفس المصدر ص 127.

بيما توجد رواية أخرى بأن سوء تفاهم كان وراء هزيمتهم حيث أمر مروان ابنه عبد الله بالتّراجع لحماية أموال الخليفة فأوّلها الجنود أنّها الهزيمة وأدّت إلى تراجع الأمويّين وغرق العديد منهم في النّهر(110).

والملاحظ انّ هذه المعركة حسمت في يومين لصالح العبّاسيين في منتصف جمادى II وبدأت إثرها ملاحقة فلول الجيش الأموي المنسحبة إلى الجزيرة(111).

وهذه الهزيمة تخالف موازين القوى لانّ القوات العبّاسيّة كانت بين 12 ألف و20 ألف مقاتل بينما قوّات مروان تتجاوز 100 ألف مقاتل(112).

وكان مروان، قبل المعركة واعيا بهشاشة جيشه وعدم حماسه للقتال يقابله قوّة معنويات الخراسانيين وأثناء المعركة تأكّد له ذلك مع رفض كلّ مجموعة المهاجمة مما يبرز عدم حماسهم للحرب وسرعة انسحابهم من المعركة.

وبالإضافة إلى أن مروان لم يعتمد في الحرب على النّواة القديمة التي حقق بها انتصارته السّابقة وهي جيش يزيد بن عمر بن هبيرة الذي بقي في واسط ولم يشارك مروان في معركة الزّاب وجيش إسحاق بن مسلم العقيلي الذي بقي مقيما في أرمينية لحماية الثغور البيزنطيّة(113) وكان لعدم حضورهما في هذه المعركة دورا هامّا في هزيمة مروان في الحرب وإنهاء الحكم الأموي.

---

(110) الأزدي: نفس المصدر ص 127.
(111) نفس المصدر ص 127 الى ص 130.
(112) نفس المصدر ص 126 الى ص 128.
(113) نفس المصدر ص 125 - 131 وابن الأثير: نفس المصدر ك ج V ص 435 الى ص 446.

الفصل الثاني : تطوّر الوضع بالجزيرة في العصر العبّاسي إلى نهاية حكم المهدي

I) الدّولة العبّاسيّة وارادة فرض مؤسّسات الدّولة النّاشئة على الجزيرة

1) ثورات سكّان الجزيرة على الحكم العبّاسي في بداية دولتهم.

اثر معركة الزاب، وانهزام الجيش الاموي، امتدّ نفوذ الدولة العباسيّة إلى الجزيرة، حيث تؤكد المصادر الاسلامية مبايعة أهالي مدن الجزيرة للدولة الناشئة إثر وصول انباء انهزام الجيش الاموي. فسوّد عمّال مروان بها، وتذكر المصادر انه اثر هزيمته، انسحب مروان II الى الموصل وعليها عامله هشام بن عمرو التغلبي على حربها وبشر بن خزيمة الأسدي على خراجها فمنعاه من دخولها(1) وحول الحوار الذي جرى بين أهل الموصل ومروان II ذكر ابن أثير أنهم خاطبوه بالقول : «يا جعدي، يا معطّل الحمد لله الذي أزال سلطانكم وذهب بدولتكم ! الحمد لله الذي أتانا ببيت نبيّنا»(2).

---

(1) ابن الأثير : الكامل ج 5 ص 242 والمسعودي : مروج ج 4 ص 86 والأزدي تاريخ الموصل ص 136.

(2) ابن الأثير ج 5 ص 424 والطبري ج 7 ص 439.

وتبدو أنّها رواية ملفّقة، تجعل من أهل الموصل متشيّعين ومناصرين لآل العبّاس بينما ما تؤكده الاحداث بعد ذلك يتمثّل في تأصّل عداءهم للمذهب الشّيعي وللدّعوة العبّاسيّة رغم وجود بعض المناصرين للعبّاسيين مثل وائل بن الشحاج الازدي(3) لكن يبدو أن خبر هزيمة مروان أجبرت عمّاله والمقاتلة واعيان المدن الجزريّة على التسويد ومبايعة الحكم العبّاسي، حيث فتح والي الموصل المدينة للجيش الخراساني بقيادة عبد الله بن علي وسوّد عامل مروان على حرّان وهو أبان بن يزيد وكان ابن أخ مروان II، وكان هذا الاخير أقام بها 3 أسابيع قبل فراره الى الشام(4) ولم يناصره أثناء ذلك أحدا حتى جند قنسرين من القيسيّة وأشدّ أنصاره سابقا سارعوا الى مبايعة العباسيّين عند قدوم عبد الله بن علي إلى الشام ولم يفرّ مع مروان II إلاّ قيسيّان وهما صاحب شرطته واخاه بالرضاع ولقد خاطب مروان أحدهما «أبا الرماحس، ويلك ما ترى هذا الحيّ من قيس انفرجوا عنّي انفراج الرّأس...»(5).

وهذه الاحداث تطرح تساؤلا عن سبب خذلان جند الجزيرة وقنسرين لمروان بن محمد، رغم وجود قوّات هائلة تحت تصرف يزيد بن عمر بن هبيرة في واسط واسحاق بن مسلم العقيلي الذي كان زعيم القيسيّة بقنسرين بالإضافة الى الموالي

---

(3) الازدي نفس المصدر ص 158.

(4) ابن الاثير ج 5 ص 424 و 425.

(5) الازدي نفس المصدر ص 136.

وأتباع مروان بالجزيرة(6) وتأكّد بعض المصادر أن مروان بقي 3 أسابيع ينتظر الإمدادات التي لم تأتيه وكان قادرا على جمع عشرات آلالاف من الجنود لصدّ الجيش الخراساني ولقد فكّر مروان II بالإنسحاب الى الأراضي البيزنطيّة لجمع أنصاره هناك وطلب المعونة من إمبراطور بيزنطة لكن أثناه أحد رفاقه عن فعل ذلك(7).

وهذه الزعامات القيسية التي ذكرتها هي نفسها التي ستثور على العباسيّين بعد أشهر وتبيّض بالجزيرة ! فلماذا لم تساند مروان بن محمد في تلك الظروف ؟

ولقد تفطنت المصادر الإسلامية الى هذه الإشكالية، ولقد فسّر الطّبري سبب عدم مساندة يزيد بن عمر بن هبيرة لمروان لخوفه من أن يقتله مروان إذا قدم عليه نظرا الى مخالفته الأوامر في حربه ضد الجيش الخراساني(8) لكن تبقى هذه التفسيرات غير مقنعة نظرا الى ان هذه القيادات القيسيّة ارتبطت بالخليفة الأموي في حروبه المتتالية منذ أن كان واليا على الجزيرة وأرمينية واذربيجان وعرفوا معه عدّة أخطار ومحن ولم يخذلوه لكن يبدو من خلال تتبّع أطوار معركة

---

(6) ابن الأثير : ج 5 ص 432 و 434 و 438 والطبري ج 8 ص 346 والمسعودي نفس المصدر ج 4 ص 91.

(7) المسعودي : ج 4 ص 91 و 92.

(8) الطبري ج 8 ص 354 الى 355.

الزّاب وهروبه نحو الغرب الى أن قتل ببوصير بمصر أن جند الجزيرة والقادة القيسيّة خذلوه في المعركة وفي معاضدته اثر الهزيمة رغم توفّر أعدادا هامّة من المقاتلة نظرا إلى قناعتهم بزوال الدّولة الاموية وانه حلّ زمن إنهيارها وأنّ الجيش الخراساني الذي هزم كلّ الجيوش الأموية التي أرسلت الى الشرق هي قوّة لا تقهر وأن على هذه الزعامات أن تغيّر تحالفها لصالح الدّولة العبّاسيّة الناشئة وهو ما حدث، ولقد سيطر الجيش الخراساني بسهولة تامّة على كامل الجزيرة دون مقاومة تذكر في بداية الأمر. لكن ماذا حدث اثر ذلك ليتحوّل هذا الخضوع الى عداء سافر للدّولة العباسيّة انجرّت عنه ثورات متتالية لأهل الجزيرة تبعتها حملات انتقامية من الجيش الخراساني على هذه الولاية ؟

إن التّفسيرات التي تقدمها الروايات التاريخية، تؤكّد أن أهل الجزيرة كانوا مائلين الى بني أميّة وإلى مروان بن محمد فكان سببا لثوراتهم(9) وهو ما يناقض ما تذكره المصادر نفسها من تسويد عمال وقادة مروان مع مقاتلة الجزيرة بالاضافة الى تورّط مجموعات من ربيعة بالجزيرة في ثورات خارجية ضد الخليفة مروان II كما رأينا ذلك وتخلي وجوه قيس على مساندة مروان أثناء المعركة أو بعدها. فلا يمكن تفسير هذه الثورة بولاءهم الى الأمويّين أو لخوف يزيد بن عمر من معاقبته من طرف مروان II بل يجب البحث عنه في إنهيار منظومة كاملة أقامها الأمويّون بالجزيرة متكوّنة من شبكة من الولاءات بين القبائل والسلطة وما كانت تجنيه من هذا الولاء من إمتيازات متنوّعة وتتمثل في تولّي زعامات قيس

(9) الأزدي : نفس المصدر ص 146.

وربيعة الجزيرة المناصب العسكرية العليا والمناصب الادارية السّامية في الإدارة الامويّة بالإضافة الى تمتّع الآلاف من الجنود الجزريّين من فوائد ترتبط بالسّياسة التوسّعية للأمويّين حيث كانوا يحصلون على رواتب قارّة وأرباح الفيئ من مغانم الحملات الصيفية كما يجني إقتصاد المدن الجزرية من تزويدها للمقاتلين بالمؤونة والعتاد وتشتغل اسواقها في الرّقة وحرّان والموصل من الحركيّة العسكرية المتواصلة المتّجهة إلى الثغور سنويا، بالإضافة إلى الحظوة التي كان عليها جند الجزيرة في صلب الدولة الأموية في عصر مروان II وهذه المنظومة التي كانت تخدم مصالحهم أو مصالح النّخبة القبليّة بالجزيرة، أصبحت موضع استفهام مع قدوم الجيش الخراساني الى الجزيرة بعد معركة الزاب، حيث لم يكن هذا الجيش الاجنبي يقوم بحملة عسكريّة يرجع إثرها الى خراسان، بل جاء الى الجزيرة ليستقرّ بها في روابطها بحرّان والرقّة أو في جند قنسرين في الشام(10) فأصبح يمثل بالنّسبة إلى أهل الجزيرة وخاصّة لمقاتليها جيش احتلال اجنبي يتصرّف وكأنه في أرض محتلة تبرز من خلال الحوادث التي سبقت مقتلة الموصل وفي حادثة قنسرين ضد أبناء مسلمة بن عبد الملك في بالس والنّاعورة والتي أدّت الى تبييض أبي الورد الكلابي في جند قنسرين(11).

ومع هذا العنصر يبرز سببا رئيسيا لثورتهم، وهو تهميش الدّولة العباسية الناشئة لجند الجزيرة والذي كان في خدمة الدّولة الأموية في حروبها التوسعية أو في حفظ الأمن في الداخل للاستغناء عنهم وكان ذلك اعلانا لانهيار

(10) الأزدي : نفس المصدر ص 133 و 134 والطبري نفس المصدر ج 8 ص 341 و342.

(11) الأزدي نفس المصدر ص 140.

المنظومة التي أقامها الأمويّون وتسريحا لمقاتلة الجزيرة الذين كانوا في خدمة الدّولة الأمويّة وانتظروا من تسويدهم أن تنتقل خدمتهم الى هذه الدولة الجديدة، لكن لم يحدث من ذلك شيئا، بل أنّ عمّ الخليفة عبد الله بن علي لم يحتوي جيش مروان ولم يبقى من عمّال مروان احدا رغم تقديمهم للولاء والطّاعة، بل عيّن عمالا جددا وعوّض روابط جند الجزيرة بروابط من الجند الخراساني وهو ما يمثل قطيعة حقيقية بين مقاتلة الجزيرة والدّولة العبّاسيّة الناشئة، فتندرج هذه الثورات بعد ذلك كنتيجة منطقية لهذا الواقع الجديد الذي حاولت الدّولة العباسيّة فرضه على ولاية الجزيرة والشام.

وكان بداية التحرّك من جند قنسرين حسب رواية احمد بن زهير حيث بيّض أبو الورد بن زفر الكلابي بسبب تعرّض أبناء مسلمة بن عبد الملك الى الاضطهاد من قبل طلائع من الجيش الخراساني وهو ما أجبره الى قتل هؤلاء الجنود وتبييض جند قنسرين معه(12) وهذه الثّورة تبيّن لنا عمق الرّوابط التي كانت تجمع آل زفر بن الحارث الكلابي بآل مسلمة بن عبد الملك بسبب تصاهرهما وخدمتهم الطويلة لمسلمة وللدّولة الاموية في عصر مروان II (13) ورغم قبول ابو الورد بالتّسويد رغم أنه أحد قادة مروان، فانه لم يقبل بالمسّ من هذه الأسرة الأموية نظرا الى الأسباب التي ذكرتها. لكن ما نلاحظه أنّ تحرّكه لم يكن معزولا بل أنّه نجح في أن يبيّض معه جند قنسرين وتدمر ومعظم جند الشام

---

(12) الطّبري نفس المصدر ج 8 ص 346 وابن الأثير نفس المصدر ج 5 ص 433.

(13) الطبري نفس المصدر ج 8 ص 346 والبلاذري : أنساب الأشراف ج 5 ص 307.

وجعل عليهم أبو محمد السفياني والذي كان في سجن حرّان قبل أن يطلق سراحه مروان أثناء فراره الى الشّام(14).

وثورة الشام لا تهمنا بقدر ما يهمّنا بأن هذه الثورة أدت إلى انتفاضة مقاتلة الجزيرة على الدولة العباسيّة عند بلوغ خبر هذه الثورة حسب رواية أحمد بن زهير حيث بيّضوا وأتت الجموع من كلّ الجزيرة لمحاصرة الخراسانيّين المقيمين بحرّان تحت قيادة موسى بن كعب والي الجزيرة العبّاسي(15).

وما يلفت الانتباه حسب نفس الرواية أنّه لم يدعوا للثورة زعيما واحدا أو كانوا ملتفين وراء دعوة معارضة للعبّاسيّين بل أنهم بيّضوا «وامرهم مشتّتا، ليس عليهم رأس يجمعهم»(16) فكان هدفهم من التّبييض هو اعلان المعصية على العبّاسيين المسوّدين وهذا التّبييض سيصبح بعد ذلك رمزا للإمارة الأموية بالأندلس ولكنه في هذه الحالة لم ينبع من رغبة حقيقية في إرجاع بني أميّة الى الحكم حيث لم يقتل بعد مروان بن محمد وكانوا قادرين على معاضدته، بل كان هدفهم من الثورة هو التخلّص من هذا الجيش «الاعجمي» البغيض المقيم في حرّان وكان قدومه الى أي مكان في الجزيرة والشام يتسبّب في انفجار الوضع مما يدلّ على عداء المقاتلة العرب لهذا الجيش الاعجمي، اذ تعوّدت مقاتلة الجزيرة العرب داخل المنظومة الأمويّة ان تقود وتطاع من الموالي ولم يتعوّد هذا الجند على سيادة

---

(14) ابن الأثير نفس المصدر ج 5 ص 434 و 435.

(15) الطبري نفس المصدر ج 7 ص 446 و 447.

(16) الطّبري نفس المصدر ج 7 ص 446.

الأعاجم ولم يستوعبوا بعد التّحولات الجذرية التي سيدخلها العباسيّون في تسيير الحكم وان هذا الجيش الخراساني هم الأسياد الجدد وتبرز من خلال ما ذكر في ثورة أبي الورد الكلابي ومبايعة السفياني ان الخطاب المضمر هو نهاية عالمهم وأن المشيئة الالاهية وراء هزيمة الأمويّين بالزّاب وان السّاعة قرب أجلها وتندرج مبايعة أبو محمد السفياني في الشام وفي غرب الجزيرة في نطاق قناعة لدى هؤلاء المقاتلين أنّه السفياني الذي يأتي بحلول الساعة كما يعتقد مشائخ الشّام والجزيرة(17) وهذا الشعور بحلول السّاعة يبطن شعورا بنهاية عالمهم الذي عرفوه ولم يستوعبوا بعد أنه حلّ عصر جديد يكتنفه الغموض بالنسبة لهؤلاء المقاتلين والذين بثورتهم هذه وجّهوا عدائهم إلى الجيش الخراساني الذي يمثّل الخطر الدّاهم فكانت جموع المقاتلة تأتي من كلّ صوب محاصرة حرّان الى ان تقدّم إسحاق بن مسلم العقيلي من أرمينية وقدم للجزيرة لمعاضدة الثوّار، فوجدت مقاتلة الجزيرة وخاصة من القيسيّة فيه زعيمهم الجديد، «فرأسه أهل الجزيرة عليهم»(18) فحاصر موسى بن كعب في حرّان شهرين، وهذا الاجماع على زعامة اسحاق ليس صدفة، حيث كوّن هذا القائد القيسي رصيدا عسكريّا وشهرة بين المقاتلة بسبب معاضدته لمروان II في الحملات الكبرى على الخزر وساهم في تسيير الثغور في ارمينية أو على الثغور الجزرية وله ولاءات عظيمة بين المقاتلة القيسيّة بالجزيرة وساهم تبييضه في انتشار الثورة بين بقيّة روابط الجزيرة، في قرقيساء والرّقة

---

(17) اشارة في الطبري ج 8 ص 346 .

(18) الطبري نفس المصدر ج 8 ص 351.

ومساندتها لهذه الثورة لتمتد هذه المساندة الى مجموعات ربيعة شمال الجزيرة بين دارا وماردين بقيادة بريكة الخارجي، فنجح اسحاق في جمع 60 ألف مقاتل حينما حاصره أبو جعفر المنصور أخو الخليفة في سميساط(19) وهذه الثورة ساهمت في احداث تغييرا في سياسة الدولة العباسيّة نحو التّقرب الى مقاتلة الجزيرة وعدم نصبه العداء ضدّهم(20). وحسب رواية ذكرها الطبري فإنّ حصار أبو جعفر لسميساط دام 7 أشهر بقي أثنائها إسحاق يرفض البيعة إلى أن يأتيه خبر موت مروان(21) بينما نرجّح الرّواية الثانية لأحمد بن زهير التي تذكر أنه جرت مفاوضات مع أبي جعفر حول إستسلام الثوّار مقابل عقد الصلح مع العبّاسيّين ومبايعتهم ويبدو أن اسحاق نجح في إقناع المنصور في ضم مقاتلة الجزيرة ضمن جيوش الخلافة فأصبح هذا القائد في خدمة أبي جعفر الذي أصبح والي الجزيرة وأرمينة واذربيجان وارثا بذلك جزءا من جند الجزيرة لمروان II ودليل نجاح أبي جعفر في صلحه استقامة أهل الجزيرة بعد ذلك(22) وهذا النجاح يكمن في دمجه لمقاتلة الجزيرة في المؤسسة العسكرية متجاوزا مواقفه الايديولوجية للعباسيّين المعاديّة تجاه جند الجزيرة حيث فهم أنه لم تبقى للأمويين ولاءات قويّة بالمنطقة بعد هزيمة الزّاب، بل كان هم المقاتلة بها هو الحفاظ على

---

(19) نفس المصدر ج 8 ص 351 و 352.

(20) نفس المصدر ج 8 ص 351،

(21) الطّبري : ج 7 ص 351.

(22) نفس المصدر ج 7 ص 351.

امتيازاتهم وادماجهم في المنظومة الجديدة التي بدأت تبرز مع العبّاسيين فنجح اسحاق في أخذ موقع قدم في هذه المنظومة وعقبت أحداث معركة الزّاب وثورة مقاتلة الجزيرة بين 132هـ/750م و134هـ/752م فراغا حقيقيّا على الثغور الجزرية والشاميّة، فعلى مستوى الثغور الجزريّة، كان لتورّط قادة مروان في الثورة ضد العبّاسيّين مثل اسحاق بن مسلم ومنصور بن جعونة أدّى إلى انسحاب العديد من المقاتلين من القلاع والحصون الحدودية بالاضافة الى ما صاحب انهيار الحكم الأموي وصعود العباسيّين من فوضى سياسيّة وفراغ عسكري والذي دفع بالقوّات البيزنطيّة الى القيام بحملات عسكريّة شاملة ضد النظام الدّفاعي للمسلمين من أجل تدمير القلاع والحصون والمدن الحدودية وإخلاءها من المقاتلين وتدمير ما بناه الأمويّون من منظومة دفاعية وهجومية متطورة حيث دمّرت ملطية ومرعش والحدث واخلاءها من المقاتلين في الحملة الكبرى سنة 133هـ/751م بقيادة الامبراطور قسطنطين ابن ليون وحسب ما ذكره الأزدي والبلاذري فانّ هذا الامبراطور كان مستوعبا لهذه الظرفيّة المناسبة لاضعاف الثغور الاسلاميّة وايقاف الصّوائف التي تستهدف أراضيه(23).

ولم يحاول في هذه الحملة أن يأسر المقاتلة بل سعى إلى اجلائهم نحو الجزيرة من أجل إخلاء الثغور وما نلاحظه في هذا الصّدد ان انهيار المنظومة الدّفاعية ستكون وخيمة العواقب على النظام الدّفاعي العباسيّين والذي سيجد مشاكل كبرى في إعادة تكوينها حيث تؤكّد المصادر ان حملات الصوائف بقيت

(23) الأزدي نفس المصدر ص 242 والبلاذري : فتوح البلدان ص 190 الى ص 193.

معطّلة إلى تولّي أبو جعفر المنصور الخلافة رغم شروع عبد الله بن علي في حملة تعطّلت بسبب وفاة الخليفة أبي العباس وما صاحبها من خلاف على الحكم(24).

ولم يكتمل النظام الدّفاعي على الثغور الجزرية إلا مع خلافة المهدي الذي جدّد بناء الحصون والقلاع وأعاد تشكيل روابط الثغور وبناء المدن الحدوديّة(25) وهو ما أكّد للعباسيّين أهميّة الدّور الاستراتيجي لهذه الولاية في النظام الدّفاعي للخلافة وضرورة الاعتماد على مقاتلة الجزيرة والزعامات القبلية بالمنطقة، وهو ما يفسّر وعي أبو العباس ومن بعده أبو جعفر المنصور بضرورة لاعتماد على هذه القوّة في حراسة الحدود وبداية ادماج الزعامات القبليّة في مناصب سياسيّة وعسكريّة سامية ولقد ذكرنا في هذا الصدد استعمال أبو جعفر المنصور لاسحاق بن مسلم كأحد قادته الذين استعملهم في تسيير الجزيرة وارمينية وكذلك هشام بن عمرو التغلبي الذي كان آخر والي لمروان II على الموصل ولقد سوّد مع قدوم الجيش الخراساني للموصل. وخدم الدّولة العبّاسيّة في ظلّ سلطة المنصور مع إخوته سنة 151هـ/768م في السّند(26) وكان أخوه محمد بن عمرو قد قام بإحصاء أموال أبي مسلم إثر هزيمة عبد الله بن علي(27) سنة 137 هـ/754 م

(24) تاريخ اليعقوبي ج 2 ص 365 و 390 والأزدي نفس المصدر ص 160 والطبري نفس المصدر ج 8 ص 381 الى 389.

(25) تاريخ اليعقوبي ج 2 ص 402 الى 404 والأزدي ص 242.

(26) الطبري: نفس المصدر ج 8 ص 608.

(27) الأزدي نفس المصدر وتاريخ اليعقوبي الج II ص 389.

وكلّف أخوه زهير بخطة خليفة والي الموصل جعفر ابن المنصور(28) وهو بهذه الخطة يرجع التّغالبة الى ولاية الموصل ونجح زهير في كسب ثقة أبو جعفر مما يؤكد وجود نوع من الاستمراريّة في سياسة الخلافة العباسيّة على مستوى المسؤوليات الادارية للعمال الذين خدموا الدولة الاموية ونجحوا في احراز ثقة العباسيين وتقدير كفائتهم في تحمّل المسؤوليات. وتوجد إشارة لدى اليعقوبي تؤكد أن زهير بن عمرو كان من مستشاري الخليفة(29) أي أنّه كان من حاشيته والمقربين منه مع إسحاق بن مسلم ويؤكد ذلك نجاح بعض الزعامات القبليّة في الجزيرة في التقرّب الى أبي جعفر وخدمته اثناء ولايته بالجزيرة وأثناء خلافته وأن يكونوا من خاصته.

كما نجح بعض القادة القبليّين في خدمة العبّاسيين مثل يزيد بن أسيد السّلمي الذي عيّن واليا على أرمينية وهو من زعماء قيس عمل كنائب لأبي جعفر الذي كان واليا على المنطقة(30).

وولي الموصل سنة 153هـ/770م في خلافة أبي جعفر وكلّف بحملة الصوائف لسنة 157هـ/773م ليواصل خدمته للعباسيين في عصر المهدي حينما ولّي أرمينية سنة 170هـ/786م(31). ويرجع سبب استعمال هذا القائد القيسي من بني سليم الى

(28) الأزدي : نفس المصدر : ص.

(29) تاريخ اليعقوبي ج II ص 389.

(30) نفس المصدر ج II ص 358 و 359.

(31) الأزدي ص 217 و 226 و 259.

اشتهاره بالقساوة في التّعامل مع السكان وتزخر المصادر الارمينيّة بالحديث عن قساوة هذا الوالي الذي كان يسيّر إدارة أرمينية بعنف وفرض ضرائب ثقيلة وكان يوشم بالرّصاص الآرمن وأجبى حتى الموتى وتعرّض رجال الدين في عهده للضرب بالصّوت والعصى للإقرار بمداخيلهم الحقيقيّة وترجع المصادر الآرمينيّة معاملته القاسية الى دعم الآرمن تحت أسرة بقرادوني لحكم مروان II ولقد أقال هذا الوالي المقاتلة الآرمن وحرمهم من الدّعم المالي وساهمت هذه السياسة المدعومة من قبل الوالي أبو جعفر الى هجرة جماعية لآكثر من 12 ألف أرمني إلى الآراضي البيزنطية(32) كما توجد إشارات لدى الآزدي أن هذا القائد القيسي كان شديد الإنحياز للقيسيّة أثناء ولايته الموصل وفضّا في معاملة السكان(33).

وهذا ما يدلّ على رغبة الحكم الجديد في اقرار مؤسسات الدّولة الجديدة على الولايات المتمرّدة مثل أرمينية والجزيرة بولاة قساة عرفوا بانهم من الحزب القيسي في العصر الآموي كما استعمل أبو جعفر المنصور من أعظم القبائل المحاربة والمقيمة بالعراق والجزيرة أحد زعماء بني شيبان وهو معن بن زائدة(34) وهو ما يؤكد أن الدّولة العباسيّة رغم اعتمادها على الجيش الخراساني فإنّها بدأت تستغل القدرات الحربية للقبائل الجزرية لتوكيل زعاماتها في حفظ الآمن لكن هل أن اعتماد السلطة العباسيّة على هذه الزّعامات أدّى إلى فرض مؤسسات الدولة؟

---

(32) Grousset : Hist. de l'Armenie p. 320 et 321.

(33) الآزدي نفس المصدر ص 217 و 218.

(34) الآزدي : نفس المصدر ص 146 وابن الآثير نفس المصدر ج 5 ص 443 (وهي نفس الرّواية).

إن تحليل ما وقع في الموصل سنة 133هـ/750م تؤكد هشاشة سلطتها على المجموعات العربيّة بالمدن الجزرية المعادية للايديلوجية العبّاسية.

2) مذبحة الموصل :

تمثل الموصل حاضرة الجزيرة، رغم أنها تفرد بولاية خاصة على المجال الشرقي للجزيرة وبوالي خاصا بها. وتصاعد دورها السياسي في عهد الخليفة هشام كحاضرة الجزيرة وكأهم رابطة عسكرية لتجميع الجنود في الحروب الكبرى ضد الخزر وفي حفظ الأمن من الخوارج وتمرّد القبائل وهذا ما جعل العباسيّين واعون بأهميتها حيث استهدفت حملة أبي عون شهرزور التي كانت من أعمال الموصل وكانت أول مدينة جزريّة هامة تسقط في يد العباسيّين بعد معركة الزاب، ولقد بايع مقاتلتها وسكانها بقيادة واليها هشام بن عمرو بعد أن سوّدوا ورفضوا استقبال الخليفة المنهزم كما رأينا، فكان موقفهم مؤيدا للعباسيين في الأول فلماذا تأزمت العلاقة ؟ تبرز من خلال الأحداث أن قرار الخليفة العباسي أبو العباس بتعيين محمد بن صول واليا على الموصل تسبب في تأزيم علاقتهم مع السكان فهذه الشخصية التي تعتبر من نقباء الدّعوة العباسية ومن القادة الأوائل الذين بايعوا أبو العباس في الكوفة فهو من منظور الحكم جدير بهذه الخطة لكن بالنسبة الى أهل الموصل ليس إلا أحد الموالي لآل خثعم.

ولقد قدم بن صول مع والي ارمينية الجديد وكان من آل المهلب وتبرز رواية محمد بن معافى الموصلي، لكن ما يهمّنا في هذا الموقف، أن الذين اقترحوا

المهلبي عوض عن بن صول في ولاية الموصل هم من الزعامات اليمنيّة بها وخاصّة من الأزد وسيبرز ذلك من خلال اعتقالهم وقتلهم بعد ذلك من قبل ابن صول ويدلّ هذا على تشبث سادة الموصل بعقلية تفوّق العنصر العربي على الموالي ورفضهم أن يسودهم بل يشترطون أن يكون الوالي من أحد أسياد اليمنية ومن أعرق الأسر العربية وهو من آل المهلب ومن المحتمل أنه كان عبد الرّحمان بن يزيد المهلبي الذي قتل حسب الأزدي سنة 133هـ/750م وهي سنة المقتلة(35).

ولقد اعتبر العباسيّون أن رفض أهل الموصل بن صول هو إعلان الثورة من قبلهم واستخفاف بالسّلطة الجديدة فكان قرار أبو العبّاس تولية أخاه يحيى بن محمد وبعثه مع جيش خراساني كثيف يقدر بـ 12 ألف مقاتل لمعاقبة أهل الموصل بعد أن منعوا بن صول من دخول المدينة واقنعوا المهلبي بطلب الولاية، أما الاجراء الثاني للخلافة فتمثل في طلب المهلّبي للكوفة دون جنوده وبعث فريق اغتيال قام بإغراق سفينته وقتله(36).

فنجح الخليفة في التخلّص من المهلّبي والشروع في إعداده للمذبحة حسب ما نفهمه من رواية بن معافى وحسب رواية ثانية للأزدي يتداولها مشايخ الموصل في عصره أن يحيى بن محمد كان واليا للموصل وابن صول خليفته وأنّ أهل الموصل كان فيهم عزّ ومنعة وأن البلد كان «أمويّا» وخاف يحيى ثورتهم

(35) الأزدي : ص 155.

(36) الأزدي : ص 116.

«فعاجلهم» بقتل أشرافهم ثم شرع في المذبحة(37) وتبدو الرّواية الثانية مشبوهة بالمقارنة مع الرّواية الاولى لانّها تجعل أهل الموصل مناصرين للأمويّين وهو خاطئ تاريخيّا ولقد رأينا دعمهم لثورة شيبان وتسويدهم بالاضافة أن هذه الرّواية غير منسوبة لراوي وغير دقيقة عكس الرّواية الاولى وهي الرّواية الوحيدة التي اعتمدها ابن الاثير من كلّ من الرّوايات الموصليّة والتي ذكرها الازدي عندما ذكر ولاية يحيى ومذبحة للموصل في أحداث سنة 133هـ/750م(38) نظرا لدقّتها. وكان قدوم يحيى مع جيش خراساني كثيف بداية للتخطيط لهذه المجزرة، حيث أمر بن صول في الإقامة بقصر المنقوشة الذي كان للوالي الاموي الحرّ بن يوسف وكان هذا القصر في ربض الموصل بعيدا عن دار الإمارة التي كانت وسط المدينة(39).

وبقي يحيى بها ولم تبرز نواياه ولم يناقشهم في رفضهم تولية بن صول وبقى على هذا مدّة شهر، ثم طلب أسياد الموصل للاجتماع بهم في المنقوشة وكانوا 12 شخص وكلّف بن صول بقتلهم وهؤلاء الاسياد هم حسب رواية السعدي الموصلي من بني سلمة الازديون كشريح بن شريح ومن بني الشحاج الازديون وثاق بن الشحاج ومن الازد كذلك العرام بن المختار ومن بني حمير علي بن نعيم ومن اليمنيّة كذلك الزبير بن إياس الذهلي وأحد موالي اليمنية وهو خاقان بن يزيد

---

(37) الازدي : ص 150.

(38) ابن الاثير ج 5 ص 443 و 444.

(39) عن قصر المنقوشة انظر الازدي ص 24 و 26 و 27.

الرّحبي وحسب رواية أخرىومعهم المعمّر بن أيوب الهمداني بينما في رواية أخرى فإنّه أفلت من القتل ليفرّ الى بابغيش بأذربيجان اين أملاكه بها وثار هناك على الحكم(40) فيتبيّن من خلال هذه الروايات أنّ معظم المقتولين من زعماء الموصل هم من اليمنية حيث ذكر الأزدي نصف القتلى لكن لا نعرف من هم بقيّة هل كانوا من النزاريّة ؟ أو من أفراد ثانويّين ؟

وأدت هذه المقتلة الى اضطراب الوضع في المدينة وبدأت الثورة وحسب رواية السّعدي أن إمرأة ألقت عن غير قصد وعاءا فيه خطمية وهي الحنّاء على رأس أحد الجنود الخراسانيّين فاجتمع الجنود على أهل تلك الدّار ممّا أدى إلى تشابك وتقاتل بين رجال الموصل والجنود(41) فكانت الذريعة لقتل أهل الموصل ولقد إعتمد على الخدع لقتل السكّان حيث نادى مناديه بالامان لكلّ من يدخل المسجد الجامع ويلقي سلاحه ويقول الأزدي : «من دخل المسجد الجامع فهو آمن أمان الله وأمان رسوله»، فأتى النّاس المسجد يهرعون وأثناء ذلك أمر الوالي قائده بن صول أن يتم محاصرة المسجد من جميع المنافذ وجلس على باب المسجد أين يتمّ عادة مبايعة الوالي و تم اخراج الرّجال وقتلهم فقتل 11 ألف موصلي من العرب وعدد لا يحصى من الموالي وتقول رواية بن المعافى التي ذكرها الأزدي «حتى قتل 11 ألف ممن له خاتم وممن لا خاتم له خلق كثير بينما تذكر رواية اليعقوبي أنّ

---

(40) الأزدي : ص 146 و 158.

(41) الأزدي : ص 145 و 148.

يحيى قتل 18 ألف إنسان من صلب العرب غير الموالي والعبيد ورواية ابن الأثير هي نفس رواية الأزدي حول قتلى الجامع بينما لا يذكر الطبري شيئا عن هذه الأحداث(42) ولم يكتفي يحيى بهذه المقتلة، فانه قرّر التخلّص من كلّ سكّان الموصل فتم استباحة المدينة مدّة 3 أيام لقتل النساء والأطفال والشّيوخ ونهب المساكن رغم أن النساء قاومن مقاومة ضعيفة للجنود !(43) ويؤكّد اليعقوبي ذلك بقوله «فقتل 18 ألف من صليب العرب ثم قتل عبيدهم ومواليه حتّى أفناهم فجرت دمائهم، فغيّرت ماء دجلة»(44) وكان هذا الوالي يتجوّل في اليوم الرّابع للمذبحة بعد أن قتل معظم سكّانها فاعترضته امرأة من دار الحارث بن الجارود فاعلمته أن العربيّات المسلمات إغتصبهن جنوده من الزنوج وكان هذا الوالي معه قائد في 4 آلاف زنجي فقام بتصفيتهم على ذلك الفعل(45) ! وكلّ هذه الرّوايات التي ذكرتها تحمّل الوالي يحيى المسؤولية الكاملة في ما حدث حيث أنه كان وراء التخطيط مع بن صول للمذبحة لابادة السكّان وتعدّى سفكه للدّماء الى جنوده الذين كانوا ينفذون خططه ! وهو ما يؤكّد الطابع الدّموي لشخصيّته ويضفي

---

(42) اليعقوبي ج 2 ص 357 والأزدي ص 148 و 149 وابن الأثير ج 5 ص 444.

(43) الأزدي : ص 148 و 145.

(44) اليعقوبي : ج 2 ص 357.

(45) الأزدي : ص 145.

الازدي جزئيّات هامّة لعملية استباحة الجنود للمساكن حسب شهادة أحد الخراسانيّين التّائبين وحسب بعض الناجين من المقتلة(46) رغم احترازنا لهذه الرّوايات التي تبدو فيها بعض المبالغة. أمّا عن حصيلة المذبحة فلقد قدرها الآزدي بين قتلى الجامع واستباحة المدينة بـأكثر من 30 ألف قتيل ويقول «ثلاثون ألفا من الرّجال سوى النساء والصبيان»(47) ورغم أن ابن الآتير لا يقدم الا عدد الذين قتلوا في المسجد فانه يوافق الآزدي في كثرة القتلى بعد استباحة المدينة وكما ذكرنا يتحدّث اليعقوبي عن القتلى عموما ويذكر ابن خلدون رواية الازدي في القتلى(48).

ورغم المبالغات في حجم القتلى في الرّوايات الموصليّة فإنها فعلا كانت إبادة منظّمة ومخطّطة من الدّولة المركزيّة وهي تبرز كنموذج حيّ «للاستبداد الشرقي» الذي تجسّد مع النظام الجديد في الموصل والذي مارسته الحركة العباسيّة سابقا على معارضيها في خراسان وفارس اثناء حملات أبي مسلم الخراساني وتواصلت مع تركّز الحكم العبّاسي في الأول في الشام والجزيرة خصوصا لفرض ارادة الدّولة على كل مجموعة معارضة وكانت لهذه المجزرة وقع عميق على المسلمين لعلّه أراده العبّاسيّون لإخافة كل المجموعات لسلطانهم خاصة

(46) نفس المصدر ص 152.

(47) نفس المصدر ص 150 و 152.

(48) اليعقوبي ج 2 ص 357 وابن الآتير ج 5 ص 444 وكتاب العبر لابن خلدون دار الكتاب اللّبناني ط 1956 ج 3 ص 378.

وأنّ هذا العمل تم بعد تبييض أهل الجزيرة وكانت سيطرة أبو جعفر المنصور وعبد الله بن علي هشّة على هذه المنطقة فكانت إبادة سكان الموصل كمثالا لإخافة المعارضين من أي تمرّد. وإبراز سلطة الدّولة الجديدة كسلطة لا تقهر، وهذا القرار، أحدث استياءا حتى داخل البيت العباسي سواءا من قبل زوجة الخليفة أم سلمة المخزومية والتي خاطبته «فيم قتل أهل الموصل ؟ فكان متهربا في اجابته بقوله «لا وعيشك لا أدري»(49) ويبدو أنه لم ينكر على يحيى قتل أهل الموصل بل إسرافه في القتل ! عندما عزله عن الموصل في سنة 134هـ/751م بعد أن أدّى مهمته ليعوّضه عمّه إسماعيل ابن علي وكان منكرا لاعمال يحيى وأوصاه الخليفة عند اقراره بالولاية «ارفق بالنّاس وتألّفهم»(50) وبعد تحليل مذبحة الموصل، يمكن أن نتساءل ونقيّم مدى صحّة حجم الابادة هل كانت شاملة لكل السكان أم استهدفت جزءا منهم؟

ويبدو أن هذه المجزرة شملت مقاتلة الموصل خصوصا وامتدت على من لم ينجوا من المجزرة اثناء استباحة الموصل ويبدو أن جزء من سكان الموصل نجى من المقتلة دون معرفة نسبتهم ويذكر الازدي أن امراة من بني الحارث كانت ضمن المغتصبات من قبل الجنود دون ان يقتلوا وفي مثل هذه الاوضاع لا يبدو أن

---

(49) الازدي : نفس المصدر ص 151.

(50) نفس المصدر ص 156.

الجزرة امتدّت للفتيات ممن سباهم الجنود وفي رواية أخرى لاحمد ابن بكّار أنه قتل في دارهم جماعة...(51) أي أنه لم يقتل إلا جزء من سكان المنزل بالاضافة الى أن أعداد هامّة من المواصلة تملك الضيعات في مرج الموصل واذربيجان وأرمينية وشهرزور وهم في غدوّ ورواح بين الموصل وأملاكهم يمثّلون جزءا من الذين نجوا من المذبحة وتؤكّد رواية لابن أبي المثنّي رواها الازدي أن أباه دخل وهو صبيّ دار الصباح بن الحصين المزني في اليوم الرّابع أو الخامس من قتل أهل الموصل(52) ويمثّل بن أبي المثنّي من الذين كانوا خارج الموصل أثناء المذبحة ورجعوا إليها مع بلوغهم خبر تلك المقتلة وتؤكد رواية أخرى للازدي أن المعمّر بن أيّوب لم يقتل في قصر المنقوشة بل تخفّى وهرب حين وقع القتل في أهل الموصل الى ضيعته في بابغيش باذربيجان والتي كانت على ضفاف الزاب الأعلى ودخل في ثورة مع همدانيّي الموصل المقيمين باذربيجان بسبب قتل أهاليهم بها وكانت هذه الثورة قد واجهها والي المنطقة أبو جعفر المنصور(53).

وهذه الروايات لأحداث الجزرة هي شهادة للتاريخ من علماء الموصل كما تناقلوها عن اجدادهم بما في ذلك من مبالغات في ذكر عدد القتلى ويقول الازدي في هذا المضمار «رحم الله الموحدين، وقد روينا حديثا يشهد بالشهادة، وارجوا ان يكون حقا إن شاء الله تعالى»(54).

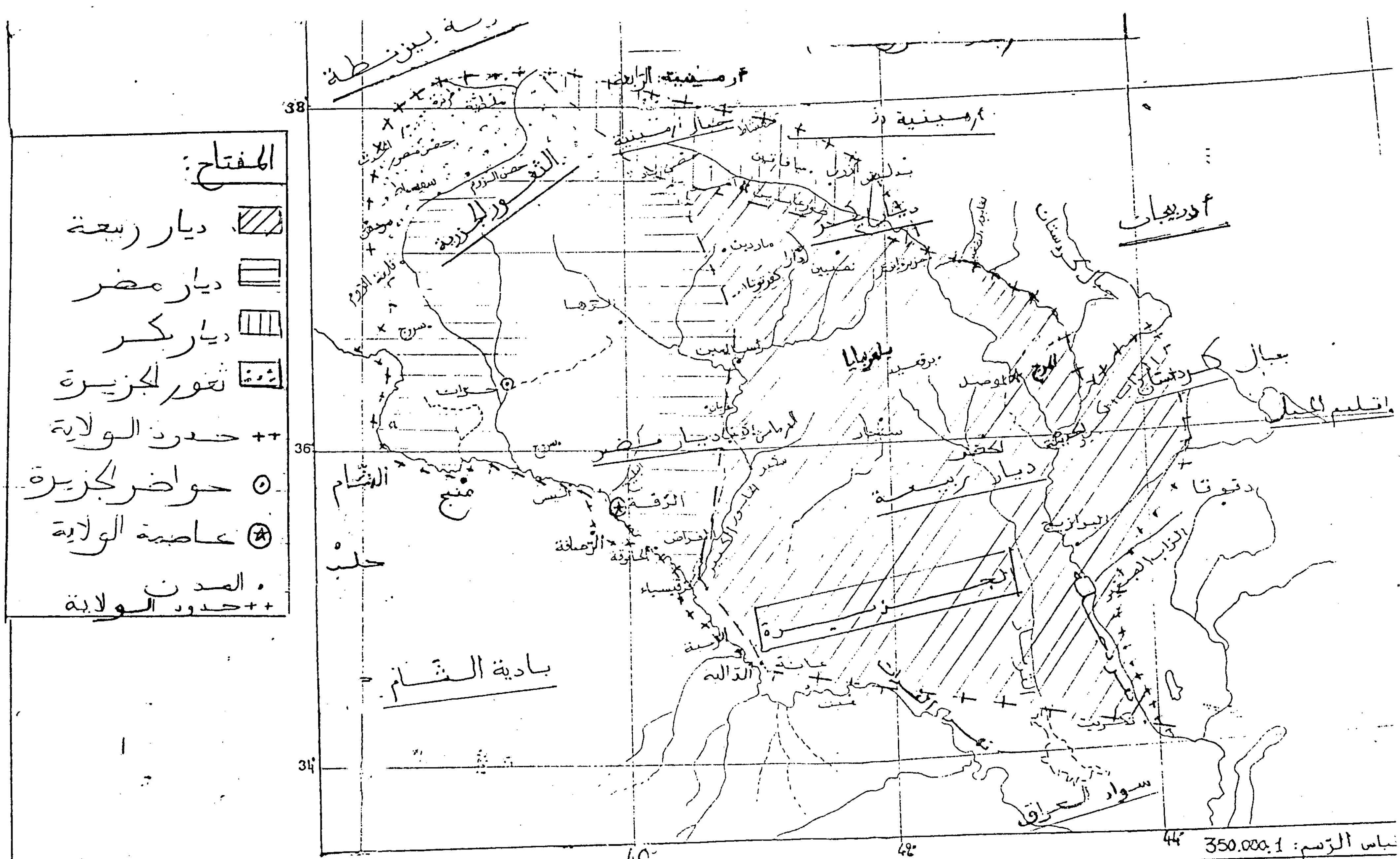
---

(51) نفس المصدر ص 149.

(52) نفس المصدر ص 149.

(53) نفس المصدر ص 147.

(54) نفس المصدر ص 153.



وثيقة رقم 5 خريطة التقسيم الإداري بالجزيرة في بداية القرن الثالث هجري / التاسع ميلادي

II) السّياسة الإداريّة للعبّاسيين في الجزيرة وإرادة فرض مؤسسات الدّولة

1) الدّولة العباسية وارادة فرض مؤسسات الدولة الناشئة على الجزيرة

بعد قمع ثورات سكّان الجزيرة كما حللناه في السابق بفضل الدّور الحاسم للوالي أبو جعفر في الجزيرة مع قضاءه على التحالف القيسي الرّبيعي بها في ما سمته المصادر حركة تبييض أهلها(1) وتحييده لزعيم الثّوار القائد المرواني إسحاق بن مسلم العقيلي والذي كان يسيّر 60 ألف ثائر من أهل الجزيرة والشام، أصبح بعد تفاوضه مع أبي جعفر حليفا لهذا الوالي ويعمل في خدمة الدّولة العبّاسيّة، فضمن له استقامة أهل الجزيرة كما رأينا سابقا. كما اتّخذ العبّاسيّون اجراءا وقائيا، تمثّل في تحطيم أسوار المدن الجزرية وإحراق أبوابها(2) لمنع الثورة وتيسير قمع الإنتفاضات.

وحافظ العبّاسيّون على حامياتهم الخراسانية في أهمّ حواضر الجزيرة خصوصا في حرّان والرّقة والموصل كما رأينا سابقا.

---

(1) الطّبري : تاريخ الامم والملوك ج 8 ص 350 الى 351 والكامل في التاريخ لابن الآثير ج 5 ص 433.

(2) حوليات دنيس التلمحري ص 53 في احداث 134 - 135 هـ.

وهذا الحضور العسكري الهام للعبّاسيّين في الجزيرة، يفسّر تمحور الصّراع المسلّح بين أطراف البيت العبّاسي في الجزيرة، مع حرب الخلافة بين أبو جعفر وعمّه عبد الله بن علي، إثر وفاة الخليفة أبو العباس حيث استغلّ عبد الله قيادته لصائفة 136هـ/753م بعد تعطّلها منذ سنة 132هـ/750م ليوجّه الجيش الخراساني وعرب الجزيرة والشام للمطالبة بحقّه في الخلافة ويخلع أبو جعفر عن الخلافة(3).

واستهدف عبد الله بن علي الجزيرة في حملته لأخذ السلطة حيث حاصر واليها وهو مقاتل بن حكيم العكّي بحرّان والذي «نزل على الأمان» وأصبح يعمل في خدمة عبد الله بن علي والذي استغل سيطرته على قسم هامّ من الجزيرة ليقلّدها أخوه عبد الصّمد بن علي الذي كان وليّ عهده ولقد فشل في السّيطرة على شرقي الجزيرة بسبب فشل حملته على الموصل ودخل في معركة حاسمة بمنطقة نصيبين ضدّ جيش أبو جعفر الذي ولّى أبو مسلم الخراساني والحسن بن قحطبة والذي وافاه من أرمينية ودامت هذه المعركة حسب بعض المصادر بين 5 و 6 أشهر بسبب تخندق جيش عبد الله بها حسب رواية لهشام بن عمرو التغلبي الذي كان في معسكر أبي مسلم، وانتهت حسب كلّ الرّوايات بهزيمة عبد الله وفراره الى البصرة(4).

ولقد برزت تحاليل تاريخية، تؤكد أنّ عبد الله بن علي اكتسب ولاء عرب الجزيرة والشام للطّلب بالخلافة، بينما كان أبو جعفر يعتمد على الجيش الخراساني

---

(3) الطّبري ج 8 ص 381 - 383 والأزدي: تاريخ الموصل ص 164.

(4) الطّبري ج 8 ص 381 الى 385 ويقدّم رواية هشام بن عمرو والأزدي: نفس المصدر ص 162 - 165.

لإنهاء هذه الثورة(5). لكن تتبّع الأحداث تبيّن أن عبد الله بن علي اعتمد اساسا على عرب الشام وجزءيا على القيسيّة بين قنسرين والجزيرة بينما اكتسب أبو جعفر بين عرب الجزيرة حلفاء هامّين لهم الزّعامة بين قومهم وهم كما رأينا إسحاق بن مسلم العقيلي بين القيسيّة وهشام ومعاويّة ابني عمرو من تغلب بين الرّبابعة وهو الذي يفسّر عدم تضخّم أعداد الثّائرين في جيش عبد الله أثناء إقامته بالجزيرة والذي جعله في موقع ضعف أمام جيش أبي مسلم.

ومع نهاية ثورة عبد الله بن علي والتخلّص من القائد أبي مسلم، بدأ الخليفة المنصور الاعتناء بشؤون ولايات الخلافة متخذا عدّة قرارات لتنظيمها، كان لها الأثر الواضح على الأوضاع اللاّحقة بالجزيرة وتهدف هذه القرارات في حرصه لبناء حكومة شديدة المركزيّة بالعراق وستبرز بوضوح من عاصمته الجديدة ببغداد وتكون الولايات تحت سيطرته الكاملة.

فكانت قراراته بالجزيرة تنحوا في هذا المنحى، وبدأها بعزل عمّه إسماعيل بن علي على الموصل بسبب تمتّعه باستقلاليّة نسبيّة طيلة ولايته وعوّضه بمالك بن الهيثم الخزاعي الذي كان أحد نقباء ودعاة بني العبّاس، عرف بوفاءه لبيتهم. وحسب الطّبري فإنّ هذا التّعيين تمّ سنة 137 هـ/754م بينما يحدّده الازدي بسنة 142 هـ/759م(6).

(5) عبد الحيّ شعبان : الدّولة العبّاسيّة والفاطميون ص 20. ومقال "عبد الله بن علي" في E.I.2 ج I ص 44 لموسكاتي.

(6) الطّبري : في أحداث سنة 137 هـ ج 8 ص 403 والأزدي : نفس المصدر ص 177 مع النّظر الى ولاية إسماعيل بن علي الأزدي ص 135 الى ص 177.

وحسب الأزدي، فلقد رفض إسماعيل تسليم المنصب لمالك ولم يتبعه في العصيان قائد شرطته ابن مشكان متّبعا لأوامر الخليفة في رسالة بعثها المنصور مع واليه الجديد بطاعته فاجبر إسماعيل على الإنحدار من الموصل رغم تكوينه لضيعات وعقارات بها وبقي في الموصل من أهله ومواليه من يشرف على الأملاك(7) فضمن المنصور بذلك طاعة الوالي بها. وفي اجراء ثاني، عيّن على الجزيرة أخاه العبّاس بن محمّد بعد أن برز مع عمّه صالح بن علي في قيادتهما لصائفة 138هـ/755م و 139هـ/756م فعيّنه على الجزيرة والثغور سنة 142 هـ واستقرّ بحران ولعب هذا الوالي دورا هامّا بهذه الولاية إلى نهاية حكم أخيه المنصور. ولمزيد السّيطرة على الولايات في ظرفيّة احتداد المعارضة العلويّة بالحجاز والعراق ولمراقبة عمل الولاة وحسن تصرّفهم، أنشأ جهاز جوسسة تابع لمصلحة البريد من أعوان يرجعون تقاريرهم إليه مباشرة تحت إمرة صاحب البريد ولقّبهم بموالي أمير المؤمنين. ومعنى الموالي لا يرجع الى معناه الأصلي بل في معنى المؤمّن على أسرار الحكم (8).

وتوجد رواية عند الأزدي، تبرز دورهم أثناء ولاية جعفر ابن المنصور على الجزيرة منذ سنة 145هـ/762م حيث ذكر رواية لمعاوية ابن بكر الباهلي من صحابة المنصور وحاشيته، أنّه بعث مع ابنه الى الموصل، كاتبا يدعى فضيل ابن غزوان

(7) الأزدي : نفس المصدر من ص 156 الى ص 177.

(8) الأزدي: تاريخ الموصل توجد رواية معاوية بين ص 197 و 198. وحول مصلحة الموالي : حلّلها شعبان : نفس المرجع ص 22 و 23 وذكرت في تاريخ اليعقوبي ج II ص 384.

من أهل الكوفة، فجعله جعفر كاتبه وولاّه امره، لكنّه تعرّض أثناء إقامته بالموصل الى مؤامرة حيكت في البلاط العبّاسي، بدفع من أمّ عبيدة، حاضنة جعفر التي أومأت الى المنصور «أنه يلعب به»، فبعث المنصور بزياد وهارون من مواليه لاغتياله واعطى رسالة الى جعفر تسلم بعد قتل فضيل، تبيّن سبب القرار. ولقد نجحا في أداء مهمّتهما وفي الأثناء بلغ مسامع المنصور عكس ما قيل على فضيل وأنّه وفيّا وعفيفا، فبعث رسولا للّحاق بالموصل قبل قتله لكن دون جدوى.

وكان مولى آخر ملحق بجعفر يعرف بسويد، تعرّض لتأنيب الوالي بسبب قتل كاتبه فكان ردّ سويد : أمير المؤمنين يفعل ما يشاء «وهذا الردّ، أغضب جعفر لأنه كلّمه بكلام العامّة» وأراد قتله ورمي جثّته في دجلة، إلاّ أنّ سويد ردّ عليه بالقول «إنّما تسأل عن فضيل ومتى سئل عنه ؟ وقد قتل عبد الله بن علي عمّه، وقتل بني عبد الله بن الحسن وغيرهم من أولاد رسول الله، وقتل أهل الدّنيا ممّن لا يعدّ ولا يحصى، وقبل أن يسأل عن فضيل، فقد جعل جرذانه تحت خصيّ فـــرعون !» فعفى عنه(9).

ويتبيّن من خلال هذه الرّواية، أنّ شخصيّات كسويد وزياد وهارون كانوا موالي تابعين للوزير عثمان بن نهيك تحت الإمرة المباشرة للمنصور، تشرف على عمليّات الاغتيال لكلّ من يمسّ بأمن الدّولة وتراقب عن كثب على غرار سويد الولاّة وتطلّع على أدقّ الأسرار كما يبرز من خلال ردّ سويد لجعفر ولا يتردّد الخليفة في التخلّص من كاتب كبير أبناءه بمجرّد الشكّ فيه دون استشارته. ولقد بقي

(9) الأزدي نفس المصدر ص 211 و 212.

جعفر على هذه الولاية بعيدا عن بغداد حيث أقام مع عائلته بها بعد أن حرم من ولاية العهد سنة 147هـ/764م لأخيه محمّد بن المنصور وتوفي بها سنة 150هـ/767م حسب ما يفهم من رواية صفوان بن عميرة.

وفي نطاق سياسته لإحكام السيطرة على الجزيرة، عزّز الخليفة دور روابط الموصل وحرّان في حفظ الأمن بالولاية ومقاومة ثورات الخوارج وهجمات القبائل على الأرياف والقرى ويبرز ذلك في تكليفه أحد قادته الكبار من الجيش الخراساني برابطة الموصل وهو حرب بن عبد الله الرّاوندي وكان على 2000 مقاتل فألحقه بابنه جعفر في الموصل سنة 145هـ/762م(10).

ويبدو أنّه مع نهاية ولاية جعفر، ألحق حرب بخدمته إلى بغداد وعوّضه بموصلي وهو الصّقر بن نجدة بن الحكم الأزدي والذي واجه ثورة الخارجي حسان بن مجالد الهمداني سنة 148هـ/765م(11). وعند حديثه على حرب والصّقر في خطّتهما يذكر الأزدي رسم الموصل «أن يكون فيها الوالي مفردا بالصّلاة والمعونة والخراج (إن ضمّ إليه) وصاحب الرّابطة متبتّلا (أي منقطعا) بحرب الخوارج ويد الوالي عليه...»(12).

وهذه الرّواية تبرز الوضع القانوني للموصل الذي هو شبيه بالوضع القانوني بالجزيرة لتبعيّة الموصل الى هذه الولاية. فكان صاحب رابطة حرّان يقوم

---

(10) الأزدي: نفس المصدر ص 194 و 195 وص 203.

(11) نفس المصدر : ص 203.

(12) نفس المصدر : ص 195.

بنفس العمل الأمني لرابطة الموصل وصاحب الشرطة وهو بنفسه في الموصل وحرّان صاحب أمر الخوارج. وهي ميزة مفردة للجزيرة على بقية الولايات بسبب قوّة الحضور الخارجي.

ولقد اعتبر المنصور ثورة حسّان بن مجالد الخارجي في منطقة الموصل سنة 148هـ/765م عملا عدائيّا، تورّط فيه المواصلة ضدّ الخلافة لأنّ حسّان كان من أهل الموصل ومعظم الخوارج من عربها على غرار جبير بن غالب الخارجي الذي كان من أهل الكار الأسفل بالموصل(13). فاعتبر أنّ أهل الموصل متورّطون في هذه الثورة فنقضوا شرطهم معه عندما كان واليا على الجزيرة بعدم الخروج عليه إثر أحداث المجزرة سنة 133هـ/750م وأراد استفتاء علماء الكوفة كأبي حنيفة وابن شبرمة وابن أبي ليلى لإجازة قتلهم، فعارضه في ذلك أبو حنيفة بقوله «شرطوا لك مالا يملكون... !»(14) فعفى عنهم. ويبدو أن موقفه المتطرّف والذي يتعلّق بإزهاق أرواح مجموع السّكّان في المدينة ناتج عن غضبه من النّزعة الإنفصاليّة لأهل الموصل ورفضهم لمؤسسات الدّولة، لما يحملوه من ضغائن بعد أن أبيد أهلهم قبل 15 سنة، فظهرت بينهم النّزعة الخارجيّة التي اعتنقها بعض عربها لمعارضة الحكم الجائر للمنصور وهذه النّزعة انتشرت كذلك في ديار ربيعة غرب الموصل. كما واجه المنصور في الجزيرة مشكلة التّهرّب الضّريبي بسبب النّزعة الانفصالية لدى عرب الجزيرة خصوصا وهي كما رأينا نزعة تواجدت في العهد الأموي. لكن الدّولة

---

(13) نفس المصدر : ص 206 و 207.
(14) نفس المصدر : ص 207.

العبّاسيّة كانت لها سياسة أكثر شدّة لإجبار سكّان الولايات الى الخضوع لمؤسّساتها ولهذا الغرض عيّن المنصور على الموصل خالد بن برمك الذي كان من موالي العبّاسيين وهو خبيرا ماليّا لدى المنصور ومن قبله مع أبو العبّاس وكان قد رافق الجيش الخراساني أثناء زحفه الى العراق لإسقاط الحكم الأموي. ولقد بيّن طيلة هذه الفترة خبرته وكفائته كمسؤول على الخراج. فولاّه لذلك الموصل لمواجهة مشكلة التهرّب الضّريبي والسّيطرة على تحرّك الأكراد شرقي الموصل واستغلّ خطّته هذه ليتولّى ابنه يحيى ولاية أذربيجان سنة 148هـ/765م(15).

ويبدو أنّ هذا الوالي نجح في إصلاح الأوضاع الماليّة في الموصل والسّيطرة على الوضع الأمني بشهادة أحد الرّواة وهو ابن سوار الموصلي بقوله «ما هبنا أحدا قطّ هيبتنا لخالد بن برمك - من ولاتنا - من غير أنّ تشتدّ عقوبته أو نرى جبريّة منه، لكن هيبة كانت له في صدورنا(16).

وإلى سنة 154هـ/770م بقي أبو جعفر يعتمد في تسيير الجزيرة أساسا على أخيه العبّاس وكان مكلّفا كذلك بالإشراف على شؤون الثغور الجزريّة، لكنّه يبدو أنّه لم يكن راضيا على سياسته المتسامحة في الميدان المالي واستغلّ زيارته لبيت المقدس لينعرج على الموصل ومدن الجزيرة للإطلاع على شؤون الولاية ويقول الأزدي «ونزل الموصل، فاستقرى الجزيرة والشام»(17).

---

(15) حول خالد بن برمك وتوليته الموصل: نفس المصدر ص 133 و ص 207.

(16) نفس المصدر : ص 209 ويذكر الطّبري هذه الرّواية في ولاية خالد الثانية على الموصل سنة 158 هـ ج 8 ص 58.

(17) الأزدي : نفس المصدر : ص 218.

ولا تفسّر الرّوايات التي تقدّمها المصادر العربيّة سبب غضبه بعد هذه الزّيارة للجزيرة وسخطه على أخيه وعلى كلّ من توسّط لصالحه من آل العبّاس ويكتفي الطّبري بذكر رواية أنّه أساء عزل الوالي السّابق للجزيرة وهو يزيد بن أسيد !(18) بينما تتميّز حوليّات دنيس التّلمحري بإعطاء تفاصيل ضافية على سبب عزله حيث يذكر في أحداث سنة 154هـ/770م أنّه جاء الأمير - أي المنصور - للجزيرة مع قادته للتوجّه الى الثّغور مع قوّات كثيرة، وقدم في الأوّل الى الموصل فاجتمع له رعيّته وأعلموه بما فعله واليه موسى بن مصعب لكن عاقبهم على وشايتهم، ولمّا علم العبّاس بن محمد وكان والي الجزيرة بقدومه، خاف من أن يرى ثراء الجزيرة بالعباد والخيرات وكان رجلا تقيّا ! فأصدر أمرا بإخلاء القرى في طريقه، لكنّهم لم يتّبعوا أمره... وأثناء مرور المنصور في شهر ماي، لاحظ الإخضرار والثراء، فلم يرى حكمة أخيه في تسيير الولاية، بل غضب عليه وقال «هل هذه صحراء الجزيرة التي حدّثتني عنها !؟ فعزله عن الولاية وحجز أملاكه ثمّ إتّجه الى نصيبين وكفرتوثا نحو الرّقة(19)...» فيبدو إذن من خلال حوليّات دنيس أنّ غضب المنصور لا يرتبط بسوء عزل أخيه العبّاس للوالي السّابق، بل كان يهدف من زيارته للجزيرة بقوّات عسكريّة هامّة هو فرض واقع جديد بدأه بالموصل مع ولاية خالد بن برمك وموسى بن مصعب (منذ سنة 154 هـ) يتناقض مع سياسة أخيه المتسامحة مع السّكّان والتي تبرز بقراره إخلاء القرى والمدن التي يمرّ بها الخليفة ليخفي عنه ثراء الولاية بعد أن كان يسعى الى إقناع أخيه

---

(18) الطبري : نفس المصدر : ج 8 ص 631.

(19) الرّجوع الى حوليّات دنيس التلمحري ص 92 و 93.

بجدب أراضيها مع نقص وفقر أهلها. فكانت نتيجة زيارته بعد ذلك هو عزل أخيه وتعويضه بموسى بن مصعب الذي جمع الموصل بالجزيرة واتخذ قرارات تخصّ الولاية لفرض إرادة الدّولة بالقوّة عبر انتهاج سياسة تعسف ضريبي لا مثيل لها وتمثّلت في تعديل الجباية نحو الرّفع من قيمتها بعد تبيّن ثراء الولاية، وهذا التعديل بدأه موسى بمنطقة الموصل ثمّ شمل منذ سنة 154هـ/770م كامل الجزيرة ويقول التلمحري حول هذا الوالي : «كان على الموصل وال قاسي يعرف بموسى بن مصعب، ولا يوجد من بين الملوك الوثنيين ولا من السّحرة والأشرار من تعسّف على أهالي الجزيرة مثله، وهو المسيح الدّجال، وإذا كان الملك ظالما فكل عمّاله ظلمة»(20).

ولقد تمّ تحليل هذه الاجراءات في الباب الأوّل، وما يهمّنا في قراراته أنّه بدأ بأهل الموصل لحمل من غادر هذه المنطقة الى نواحي أخرى بالجزيرة فتمّ حملهم قصرا الى ناحيتهم مع حجز أملاكهم وإحصاء أموال الكنائس والبيعات لنهبها مع اعتقالات بالجملة بين رجال الدّين المسيحيّين.

وفي إجراء ثالث ومع امتداد ولايته على الجزيرة عدّل الخراج حيث استعمل أعوانه بعد عزل وسجن أعوان العبّاس لمسح المدن والأرياف فتمّ احصاء السّاحات العامّة والحوانيت والطّواحين من قبل أعوان الصّوافي. بينما أحصى عمّال الخراج العقارات والأراضي الفلاحيّة بقيمة أعلى مما هي عليه وأدّى قدوم هؤلاء الأعوان الى هروب جماعي للسكّان.

---

(20) حوليات التلمحري ص 91 بتعريب شخصي من الفرنسيّة.

وارتبط هذا التّعديل بتجاوزات تمثّلت في وشم الأشخاص في يدهم اليمنى اسم الناحية وفي اليسرى الجزيرة لمنعهم من الفرار على غرار ما وقع في منطقة ماردين. كما تمّ تعذيب الأثرياء للإقرار بثرواتهم وكان هذا التعذيب يؤدّي أحيانا إلى موتهم.

ولقد إمتدّ هذا التّعديل على المسلمين حيث كان أعوان الزّكاة وصدقات المال يحصون أراضي العشر والعقارات بأعلى من قيمتها الحقيقية والمطالبة بالمتأخّرات من الضّرائب السّابقة. وكان المنصور يراقب عمل أعوان التّعديل بعد أن حمل معه في السّلاسل أعوان العبّاس الى الرّقة والشام وأشرف بنفسه في الشتاء على أعمال التعسّف الضّريبي ولم يمنع من هذه الأعمال إلاّ الفقراء من المنطقة السّفلى بالجزيرة أي جنوب الولاية والأجانب والبقيّة تعرّضوا إلى كلّ أنواع الغرامات فلحق الأذى كلّ السّكّان وانجرّ عن ذلك انتشار اللّصوصيّة وأعمال النّهب بين السّكّان(21).

وهذا التّعسّف الضّريبي، تواصل إلى موت المنصور، حيث واصل أعوان موسى إحصاء الأملاك والعقارات وتغريم السّكّان، فانتشر الفقر بالولاية وتعطّلت الحركة التجاريّة ولم ينفع أهالي الجزيرة والموصل بعث وفدا إلى بغداد لتقديم عرائض في المظالم وتعدّيات أعوان موسى بحضوره أمام المنصور لأنّه كان مؤازرا

---

(20) حوليات التلمحري ص 91 .

(21) نفس المصدر : مقطع من ص 94 إلى ص 116.

لواليه وأكرمه في حزمه على سكّان الولاية. فرجع موسى الى ولايته أكثر قساوة ومكلّفا أعوانا جددا أكثر تشدّدا من السّابقين ووضع على كلّ قرية عونا ليراقب عمل رئيس القرية في جمع المال من السّكّان والتّدقيق في قيمة الانتاج.

وأدّت هذه التجاوزات مع جفاف المناخ الى نزوح جماعي لسكّان القرى والأرياف نحو المدن التي أصبحت غير آمنة ومرتعا لأعمال اللّصوصيّة والقتلى مع انتشار الأوبئة والمجاعة التي أدّت الى تناقص أعداد السّكّان. وواصل موسى في التعسّف على كلّ من يشتكي من أعوانه، كما فعل مع أعيان مدينة نصيبين الذين اشتكوا له في الموصل من ثقل الضرائب(22).

وبخصوص المصادر العربيّة، فإنّها لم تؤكّد بهذه الدّقة لسياسة موسى بن مصعب في الميدان الضّريبي بل قدّمت إشارات مقتضبة. حيث تؤكّد الرّوايات أنّ سبب تقريب المنصور وابنه المهدي لموسى أنّه من أهل الحميمة من موالي آل خثعم. وكان أباه مصعب بن الرّبيع الحنفي، كاتبا لمروان بن محمّد، فلمّا انهزم، طلب مصعب الأمان من العبّاسيين فأمّنه عبد الله بن علي ويبدو أنّه ألحق بالبلاط العبّاسي في عهد المنصور، يبرز في أن موسى كان أخا بالرّضاع للمهدي، ومعنى ذلك أنّ عائلة موسى كانت تعيش في قصر المنصور وأدّى قربه من البلاط الى تكليفه بخطّة والي الموصل والجزيرة سنة 154ه/770م(23).

---

(22) نفس المصدر : مقطع من ص 129 إلى ص 195 والأزدي : نفس المصدر : ص 225 الى ص 227.
(23) الأزدي : نفس المصدر : ص 225 و 227.

وفي خضمّ ولاية موسى على الموصل يذكر الأزدي أنّ المنصور توجّه الى بيت المقدس ونزل الموصل فاستقرى الجزيرة والشام(24) ومعنى القرو هو القصد والتتبع. أي أن الخليفة تابع أحوال الجزيرة وقصده واضح في ذلك وهو تعديل الخراج.

كما ذكر الأزدي رواية أخرى ذكرها المعافى بن شريح الخولاني وهو قاضي موسى بالموصل «كنت أسمع المنادي على باب موسى بن مصعب يقول : أين أهل الرّقة ؟ أين أهل حلب ؟ أين أهل دمشق ؟ (25) وترتبط هذه الرّواية بما ذكره التلمحري من وجود عمليّات تمشيط في مدن الجزيرة لجمع الأجانب عنها وترحيلهم الى نواحيهم في فترة قيام الدّولة بالتعديل كما ذكر الأزدي رواية أخرى تؤكّد تشدّده على أهل الجزيرة ذكرها محمّد الهمداني أخذها عن أبيه وجدّه «كنت أسمع المنادي على باب موسى بن مصعب، ينادي أين أهل الشّرّ، أين أهل الدّخنة وغير ذلك في المدن...»(26) ورغم أنّها رواية ذكرت في ولاية موسى الثانية على الموصل في عهد المهدي، فإنّها تبدو مرتبطة بولايته الأولى. حيث تبيّن هذه الرّواية أنّ أعوان الدولة في الموصل ومدن الجزيرة كانوا يقومون بأعمال تمشيط على أهل الشرّ واللّصوص والفارين من نواحيهم في نطاق حملات الدّولة لجمع الفارّين وارجاعهم الى نواحيهم وعلى عكس ما ذكره دنيس التلمحري من أن الخليفة كان راضيا على عمل موسى، فإنّ الأزدي يذكر ترصّده لواليه بالجزيرة حيث حاسبه على

---

(24) نفس المصدر : ص 227.

(25) نفس المصدر : ص 227.

(26) نفس المصدر : ذكرها في ولاية موسى الثانية ص 249.

نقص أموال الخراج، فراسله موسى «أن المبلغ هو ضعف ما ذكره الخليفة أخبّأه» لأنّ البلد كثير الخوارج وأعددتها للرّجال متى احتجت الى محاربة خارجي...»(27) فأرجع هذه الأموال الى الخليفة.

ويبدو أنّ صمت المصادر العربيّة أو اقتضاب الإشارات ترجع الى أنّ مصدر هذه الرّوايات وهم المواصلة الذي استقرّ بينهم موسى كانوا مدينين له بالولاء لأن أعدادا هامّة من عرب الموصل كانوا في خدمته ويذكر الأزدي ومصادر أخرى أنّ ألف رجل موصلي اتّبعوه الى مصر في ولايته سنة 167هـ/783م زمن المهدي وقتلوا معه عندما أراد تطبيق الإجراءات التعسّفيّة على أهلها ويدلّ ذلك على ولائهم لهذا الوالي رغم خذلانه من قبل أهل الفسطاط حيث ثبت معه المواصلة وقتل معظمهم(28).

وكان يحسن لآل خثعم من فلسطين مثل موالي أبو عالية الختعمي(29) وترك مسجدا في الموصل كان يعرف باسمه وهو مصلى الأزدي وذويه في القرن IVهـ.

كما قرّب إليه الخولانيّين من الأزد فكانوا من أعوانه ويقول الأزدي «... وكان أكثر الخولانيّين عمّاله، قادوا وتقدّموا، فظهرت نعمتهم معه وبه، وصاهره المعافى بن شريح وتزوّج بابنته...»(31).

---

(27) نفس المصدر : ص 227.
(28) الأزدي : نفس المصدر : ص 249 وص 253.
(29) نفس المصدر : ص 229.
(30) نفس المصدر : ص 225.
(31) نفس المصدر : ص 249.

ولإحكام قبضته على الجزيرة لمنع ما يمكن أن يحدث من إنفلات أمني بسبب القرارات التي أصدرها ولتأمين حضور الدّولة القويّ، اتخذ المنصور قرارا هامّا، بعد زيارته للرقّة أثناء مسيره إلى بيت المقدس وتمثّل في بنائه لمدينة جديدة بقربها وهي الرّافقة وتكليف ابنه المهدي بالإشراف على أعمال بنائها. ويرتبط بناءها بنفس الأسباب الذي جعلته يبني بغداد بالإضافة الى ضرورة ايجاد معسكرا قارّا للخراسانيّة لحماية الثغور ضدّ العدوّ البيزنطي ويقول الأزدي أن المنصور «إرتاء موضعا لمدينته...»(32) عند زيارته للرّقة أي أنّه خطّط لبناء الرّافقة بعد «استقراءه» للجزيرة وتبيّن الحاجة الى بناء مدينة تأمّن حضور الدّولة بالولاية. ويذكر كذلك التلمحري أنّ المنصور كان يتقرّب للمنجّمين وأنّه سمع منجّما يقول أنّ ملكا عظيما سيبني بالرّقة مدينة جديدة ويملك 40 سنة ! عندما كان في الرّقة قبل رحيله الى الشام سنة 154هـ/771م(33).

وحسب الطّبري فإنّ المهدي بنى الرّقة على بناء مدينة بغداد(34) وسنرجع في الباب الآخير الى الحديث عن الرّافقة.

والسّؤال المطروح لماذا حاجة المنصور الى بناء الرّافقة رغم وجود حاميات خراسانيّة خصوصا في حرّان. فهل أنّها لم تعد تلعب هذا الدّور الآمني والدّفاعي قبالة الحدود البيزنطيّة ؟ ويبدو أنّ موقع الرّقة في مفترق أراضي العراق

(32) نفس المصدر : ص 223 و 224.
(33) نفس المصدر : ص 223 و 224.
(34) الطّبري : نفس المصدر : ج 8 ص 621.

والشّام والجزيرة ووجودها على نهر الفرات ومعرفته بدورها الاستراتيجي في منظومة الخلافة الأمويّة في عهد هشام ولم تعد تفي الرّقة بحجم الدّور الذي يريده المنصور في حفظ أمن الخلافة فقرّر بناء الرّافقة.

كما يوجد إشكالا لدى المصادر العربيّة لا نجده عند دنيس التلمحري وهو إسم الوالي الذي عوّض العبّاس، فمنهم من يذكر أنّه موسى بن كعب حسب الأزدي ومصادر أخرى كالطّبري. وهو خطأ لأنّ موسى بن كعب توفّي سنة 141هـ/758م وهو أوّل وال للجزيرة ولا يمكن أن يكون قد وّلي سنة 154هـ/770م والأقرب الى الصّواب مع ما ذكره التلمحري أنّه موسى بن مصعب الذي كان آخر والي للمنصور بالجزيرة(35).

ويقدّم الطّبري في هذا الغرض رواية تذكر أنّ المنصور وجّه المهدي الى الرّقة وأمره بالانعراج على الموصل لعزل واليها موسى ولا يقدّم سبب هذا العزل بينما تذكر في رواية أخرى أنّ سبب تولية خالد بن برمك في الولاية الثانية سنة 158هـ/774م ترتبط بانتفاض أهل الموصل وانتشار الأكراد بها»(36) رغم أنّ هذه الرّواية ذكرها الأزدي حول والي الجزيرة والموصل هل هو موسى بن مصعب أو خالد بن برمك(37). وهذا الغموض في المصادر العربيّة، ناتج عن عدم فهم دور خالد

---

(35) أنظر الأزدي : نفس المصدر ص 224 مع نقد المحقّق في هامش الصّفحة والطّبري ج 8 ص 622 ويذكر أنّه موسى بن كعب وهو خاطئ.

(36) الأزدي : نفس المصدر ص 288 والطّبري ج 8 ص 630 و 631.

(37) الأزدي : نفس المصدر : ص 228.

في الموصل والجزيرة هل كان واليا أم صاحب الخراج ؟ وتوجد في حوليّات التلمحري إشارة تدلّ أنّ موسى بن مصعب بقي واليا لكن أفرد المنصور الى «فارسي» خطّة الخراج وهو حسب التلمحري «فارسي قاسي ودموي، أضرّ بكلّ البلاد، وتضرّر منه كلّ العرب بالمنطقة...»(38). ويبدو أنّ تولية هذا الفارسي وهو بلا شك خالد بن برمك بسبب ظهور مقاومة ضريبيّه بالجزيرة فكان خالد يقوم بأعمال التعسّف والقتل عند مروره بقرى ومدن الجزيرة انطلاقا من أسفل الولاية الى الشمال في منطقة ميافارقين(39).

ويقدّم الأزدي في أحداث 159هـ/775م في أوّل خلافة المهدي تأويل الرّواة المواصلة الذين يذكرون ان موسى كان والي المهدي ورواة العراق أنّه خالد بن برمك(40) وهذا التناقض كما رأينا يرتبط بعدم فهم خطّة خالد في الجزيرة !

ولقد مثّلت فترة حكم المهدي على الجزيرة، مرحلة تواصل مع حكم المنصور على هذه الولاية، حيث واصل المهدي في إحكام سيطرته على هذه الولاية بفضل معرفته الدّقيقة بالمنطقة عندما كان وليّ عهد المنصور في السّنوات التي كان مكلّفا بها ببناء الرّافقة وقيادة حملات الصّوائف كما كانت له معرفة بالقادة الحربيّين بالثغور وبأشراف القبائل والجهاز الاداري بالولاية. وكان أوّل والي على الجزيرة الهيثم بن سعيد سنة 159هـ/775م وكان سبب توليته، أنّه كان نائبه عندما كان المهدي على الجزيرة في عهد المنصور(41).

---

(38) حوليات التلمحري ص 193 و 194.
(39) حوليات التلمحري ص 194 الى ص 196.
(40) الأزدي : نفس المصدر : ص 236.
(41) الطّبري : نفس المصدر : ج 8 ص 702.

وبقي على الموصل موسى بن مصعب الى سنة 159هـ/775م وكان أخ بالرّضاع للمهدي وله مقامه في بلاطه ومكانته بين رجال دولته وتولّى ولايته الثانية للموصل بين 167هـ/783م/168هـ/784م قبل ولايته مصر التي قتل فيها ويبدو أنّه واصل سياسة التشدّد الضّريبي على أهالي الجزيرة.

وفي سنة 159هـ/775م عزل المهدي والي الجزيرة الهيثم بن سعيد واستعمل عليها الفضل بن صالح وكان أميرا هاشميّا من رجال الثغور يرجع إلى أسرة صالح بن علي وكانت قصورهم في منبج وبرز صالح وأبنائه في قيادة الحملات زمن ولاية العبّاس بن علي وكان المهدي بحكم إقامته الطّويلة بين الرّقة والثغور له معرفة بآل صالح وكان الفضل وعبد الله وعبد الملك ينتميان الى جيله من الأسرة الهاشميّة. ولقد تواصلت ولاية الفضل على الجزيرة سنتين الى سنة 161هـ/777م(42).

وفي سنة 162 هـ قرّر المهدي إنهاء مهمّة الفضل وتولية الجزيرة عمّ أبيه عبد الصّمد بن علي مع جمعه الموصل لهذه الولاية. ويمثّل عبد الصّمد آخر عمومته الأحياء من الجيل الذي شارك في الثورة وبناء الدّولة الجديدة، حيث صاحب عبد الله بن علي أثناء فتحه للجزيرة وشاركه الثورة على أبي جعفر. ولم يمنع ذلك المهدي من توليته الجزيرة رغم كبر سنّه. لكن لم تدم ولاية إلاّ سنة، حيث عزله عنها بسبب تقاعسه في أداء مهامه ورغم غموض مصادر رواية عزله فإنّها كانت متداولة بين المؤرّخين وتمثلت في قيام المهدي بتشييع إبنه الرّشيد سنة 163 هـ/779م

(42) الأزدي : نفس المصدر : ص 240.

الى ثغور الجزيرة في حملته الأولى على البيزنطيين مرورا بالجزيرة، ولم يقم عبد الصّمد بتأمين طريقه ولا استقبله ولا أقام له نزلا فكان سبب غضبه وعزله عنها ليتولاّها زفر بن عاصم الهلالي والذي مثل أحد الأشراف القيسيّة الذين تولّوا منذ حكم المنصور خطط حربيّة متعدّدة. وكانت توليته وقتيّة حيث عزله عنها وولاّها عبد الله بن صالح أخو الفضل(43).

وفي خضمّ هذه الأحداث، تذكر المصادر إقامة المهدي بالموصل مرتين. المرّة الأولى قبل الاتجاه الى الثغور مع الرّشيد حيث أقام في قصر أخيه جعفر حيث جاءته البشارة بمولد حفيده من ابنه موسى. وكانت هذه البشارة وراء ذكر تقريب المهدي لبني حمير بالموصل الذين كانوا من أخواله وهم أوّل من أذن لهم بالدّخول للبشارة(44).

وفي إقامته الثانية بالموصل بعد رجوعه من الثغور والشام في نفس السنة، تعرّض الى قضيّة خلاف بين المسلمين والنّصارى بسبب هدم كنيستهم مارتوما وهي من أجلّ كنائسهم وسبب ذلك توسّعهم دون إذن قاضي الموصل، فحمل الفريقان الى بلد للنّظر في الخلاف فقرّر أن يحجز ما أضافه النّصارى للبيعة وبني على أرضها مسجد بني ساباط في درب بني اليا(45) وكانت هذه الحادثة

---

(43) الطّبري نفس المصدر ج 8 ص 731 و 732 والأزدي ص 243 و 244.
(44) الأزدي : نفس المصدر : ص 243.
(45) نفس المصدر : ص 244.

أثناء ولاية محمد بن الفضل بن سليمان والذي تولاّها بين سنة 163هـ/779م و 164هـ/780م وكانت ولايته الثانية في عصر الأمين بين 192هـ/807م و 193هـ/808م (46).

وفي سنة 166هـ/782م ولّى المهدي الجزيرة علي بن سليمان بن علي وكان على غرار الفضل بن صالح من الأمراء الهاشميّين الذين برزوا في العمل الحربي بالثغور في مرحلة تأجّج الصّراع ضد البيزنطيّين بسبب تواصل الحملات الحربيّة لابنه الرّشيد وتوغّله الى حدود البوسفور وتعتبر حملته لسنة 165هـ/781م من أعظم الحملات الحربيّة للمسلمين على العدو البيزنطي(47) فكان دور والي الجزيرة مؤازرة الرّشيد عسكريّا وتجنيد الإمكانيات المادّيّة والرّجال لانجاح الحملات العبّاسيّة وكان المهدي طيلة حكمه قد سخّر مداخيل الجزيرة للعمل الحربي وكثّف من تجنيد المقاتلة الجزريّين للعمل كمرابطين في الثغور وكمقاتلة في حملات الصّوائف حيث لم تكن أعداد الخراسانيّين كافية لحجم الحملات العسكريّة على البيزنطيّين. فمثّلت سنوات حكمه مرحلة احياء النّهج التّوسّعي للأمويّين والإنفتاح على عرب الجزيرة لدمجهم في منظومة الدّولة بعد تقلّص ثورات الخوارج إثر إخماد ثورة عبد السّلام الخارجي سنة 162هـ/778م ويبدو أنّ هذا العمل الإندماجي قلّص من الحركات الانفصاليّة بالجزيرة. حيث كانت سياسة ولاّة المهدي بالجزيرة مزيجا من الحزم واليقظة نظرا الى قوّة الحضور العسكري للخلافة ومراقبة المهدي عن كثب للأوضاع بالإضافة الى سياسة التقرّب من الأشراف العرب ودمجهم في منظومة الخلافة ويبرز ذلك بوضوح مع الولاية الثانية لموسى

(46) نفس المصدر: الولاية الأولى ص 241، 246 والولاية الثانية ص 313 الى ص 319.
(47) نفس المصدر: ص 246 والطّبري نفس المصدر: ج 8 ص 738.

بن مصعب، حيث تبرز الرّوايات تقريبه للخولانيّين في المناصب السّياسيّة والادخال في خدمته 1000 محارب من الموصل عملوا معه في ولايته بمصر(48) بالاضافة الى ما ذكره البلاذري من استيطان أعداد من قيس الجزيرة في الثّغور في تلك الفترة بعد إعادة بناء حصون ثغور الجزيرة(49) وكانت وفاة المهدي سنة 169هـ/785م مرحلة تأجّج نشاط الخوارج برز بثورة ياسين التّميمي في 168هـ/784م الذي نجح في هزم روابط الموصل وسيطر على ديار ربيعة ولم تنتهي ثورته إلاّ بحملة محمد بن فرّوخ بالجيش الخراساني وكان معه هرثمة بن أعين الذي قضى على الخوارج بأرض الموصل وتواصلت هذه الثّورات بأكثر حدّة مع حكم الرّشيد بالاضافة الى بروز أزمة في الثغور متأتيّة من انحراف نشاط المحاربين بها وسنحلّل ذلك في الفصل القادم.

2) السّياسة الإداريّة للعبّاسيين والتنظيم المؤسساتي بالجزيرة

تبرز من خلال المصادر الإسلامية في العهد العبّاسي، حالة من الغموض يتعلّق بالوضع الإداري للجزيرة باعتبارها ولاية واحدة أو تنفرد عنها الموصل بولاية خاصّة شرقي المنطقة. وممّا يزيد في غموض الوضع القانوني للجزيرة هو إفراد ديار ربيعة عن الجزيرة والحاقها بالموصل. أو إلحاق جند قنسرين الى والي الجزيرة في بعض الفترات.

---

(48) الأزدي : نفس المصدر : ص 253.

(49) البلاذري : فتوح البلدان بين 189 هـ و 193 هـ.

وهذا الغموض القانوني، يرتبط أساسا بإشكاليّة فتح الجزيرة التي لم تفتح كلّها في نفس الفترة وبنفس الجند. حيث فتحت الجزيرة سنة 17 هـ من قبل جند حمص أساسا والحقت به بعد ذلك. بينما فتحت الموصل من قبل مصر الكوفة سنة 20 هـ وألحقت هذه المنطقة بهذا المصر(50) وهذا التّقسيم بقي ساري المفعول الى حكم عبد الملك الذي جمع سنة 73هـ/692م الموصل بالجزيرة في ولاية واحدة لأخيه محمّد(51).

وهذا الوضع القانوني لم يتغيّر الى خلافة جعفر المنصور رغم أنّ الموصل بقيت تتأرجح منذ بداية القرن الثاني هجري الى حكم المعتصم بين الإنفراد بولاية خاصّة عن الجزيرة أو دمجها بها في ولاية واحدة خصوصا في العهد العبّاسي ليصبح والي الموصل ملحقا بوالي الجزيرة(52).

فوجود قائمتين لولاة الموصل والجزيرة، جعلت المصادر العربيّة التي هي متأخّرة عن فترة بحثنا، لا تقدر على تمييز ان كان والي الموصل ملحقا بوالي الجزيرة أو منفردا عنه ويبرز بوضوح في قائمة ولاة الموصل للأزدي وهو يعبّر على عدم وضوح مصادره لوضع الموصل القانوني بقوله «وأصحاب الموصل أو بعضهم يجعلون الموصل هي الجزيرة وهي وإن كانت ما بين دجلة والفرات لانفصالها بنفسها عن الدّهناء عند العرب والعجم...»(53).

---

(50) البلاذري : فتوح البلدان ص 173 في فتح الجزيرة وص 333 في فتح الموصل مع الرّجوع الى تفاصيل الفتح في رسالة الكفاءة بالبحث: الجزيرة وعلاقتها بالأمصار والخلافة ص 72 الى ص 74.

(51) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج 4 ص 325.

(52) قائمة ولاة الجزيرة والموصل في العهد العبّاسي يبيّن وجود عدّة ولاة لهم بالموصل.

(53) الأزدي : نفس المصدر : ص 226.

وهذا الغموض يبرز كذلك في تحديد الجغرافيّين العرب للموصل منذ القرن 4هـ/10م كالاصطخري وابن حوقل أو المتأخّرين كياقوت الحموي وابن شدّاد هل هي ولاية مفردة أو ملحقة بالجزيرة ؟ (54).

والحقيقة التي تبرز في خضمّ هذا الغموض هو وجود مركزين يسيّران الجزيرة وهما الموصل شرقا وحرّان غربا(55) يمكن تفسيره الى الامتداد الجغرافي للجزيرة واستحالة تسييرها بنجاعة من مركز واحد للولاية. بالإضافة الى اشراف الموصل على أذربيجان والقسم الشرقي لأرمينية وجبال كردستان منذ أن كانت ملحقة بالكوفة بالإضافة الى القسم الشرقي للجزيرة التي هو تابعا لها إداريّا. بينما تشرف حرّان على بقية الجزيرة لموقعها المتميّز في هذه الولاية واشرافها على الثغور قبالة بيزنطا والقسم الغربي لأرمينية.

وهذا التميّز يبرز في انفراد كلّ واحدة من المركزين منذ العصر الأموي برابطة للجنود إذ كانت رابطة حرّان مكلّفة بالمراقبة الأمنيّة لمعظم الجزيرة بينما رابطة الموصل مكلّفة بأمن شرق الجزيرة الى حدود ديار ربيعة غربا مع القسم السّفلي للجزيرة خصوصا في الشرق(56).

---

(54) الرّجوع للمصادر الجغرافية في سلسلة الى B.G.A .

(55) الرّجوع الى الأزدي : ص 3 وص 7.

(56) نفس المصدر : الرّجوع الى ص 7 وص 164 وص 251 بالإضافة الى الإشارات لابن الأثير في الكامل في التاريخ : ج 3 إلى الج 4.

وكان لكلّ مركز إدارته من بيت المال والإدارات المختلفة كإدارة الخراج والعطايا والصّوافي لتمييز عمل كلّ مركز حتّى في حالات دمج الموصل بالجزيرة(57).

أمّا الوضع القانوني للجزيرة في بداية العصر العبّاسي فهو يشابه وضعها في نهاية العهد الأموي. ورغم أنّ أهمّ الإشارات، توجد حول الموصل خصوصا لدى الأزدي فإنّه يمكن تعميم هذا الوضع على ولاية الجزيرة لأنّ الموصل ملحقة إداريّا بها رغم انفرادها أحيانا بولاية خاصّة. ويقول الأزدي حول رسم الموصل ومعناه وضعها القانوني المرسوم لدى ادارة الخلافة «كان رسم الموصل، أن يكون فيها الوالي مفردا بالصّلاة والمعونة والخراج - أن ضمّ إليه - وصاحب الرّابطة متبتّلا لحرب الخوارج ويد الوالي - فيما قيل - عليه...»(58).

ومعنى ذلك أنّ والي الجزيرة والموصل كان مكلّفا من قبل الإدارة المركزية بتسيير الشؤون العامة للولاية بينما صاحب الشرطة وهو صاحب الرّابطة يشرف على الأعمال الأمنيّة الموجّهة ضدّ الخوارج بسبب حضورهم القويّ بهذه الولاية وهو تحت امرة الوالي. بينما كانت خطّة الخراج يمكن أن تفرد الى أحد أعوان الدّولة للقيام بها مستقلا عن الوالي أو تجمع هذه الخطّة الى صلاحيّات الوالي المتعدّدة.

ولذلك يذكر الأزدي عندما يتحدّث عن تعيين والي جديد أنّه كان على الصلاة والحرب والخراج عند حديثه لخطة علي بن سليمان في ولايته للمهدي سنة

(57) الأزدي : نفس المصدر، حول الإدارة في حرّان : ، حوليّات التلمحري في ص 82 وص 100 مع وجود الإشارات حول الادارة في الموصل في كتاب الأزدي مثال ص 194 و 195 أثناء ولاية جعفر بن المنصور.

(58) نفس المصدر ص 195.

166هـ/782م بالقول «ولى المهدي علي بن سليمان بن علي صلاة الجزيرة وحربها وخراجها... وعلى صلاة الموصل وحربها وخراجها أحمد بن إسماعيل بن علي وقيل موسى بن مصعب الخثعمي...»(59).

وهذا القول يبيّن جمع والي الجزيرة والموصل خطّة الخراج ويؤكّد قطعيّا تشابه الخطط القانونية لولاية الجزيرة بالموصل.

وإذا أفردت خطة الوالي بالصّلاة والحرب دون الخراج، يذكر الأزدي في أحداث 169هـ/785م «وكان على الجزيرة حمزة بن مالك الخزاعي وعلى خراجها وصدقاتها منصور بن زياد صاحب قصر المنصور بربض الموصل وكان (أي أبو نعيم بن موسى) على روابط الجزيرة...»(60).

أمّا بالموصل فلقد ذكر الأزدي في أحداث 176هـ/792م «والوالي على الموصل وفي التي تلاها محمد بن العبّاس الهاشمي وعلى الخراج منجاب...»(61).

ولقد رأينا أنّ خالد بن برمك انفرد بالموصل والجزيرة بخطّة الخراج سنة 158هـ/774م بينما كانت الولاية لموسى بن مصعب(62).

ويبدو من خلال تتبّع مسيرة معظم الولاة، أنّهم كانوا يفردون الخراج والصّدقات لأحد أعوان الدّولة المختصّين في الشؤون المالية على غرار خالد بن برمك أو منجاب بينما تعطي الولاية في خطّة الصّلاة والحرب امّا لأحد الأمراء

(59) نفس المصدر : ص 247.
(60) نفس المصدر : ص 257 و 258.
(61) نفس المصدر : ص 279.
(62) نفس المصدر : ص 232.

العبّاسيّين أو القادة العسكريّين على غرار يزيد بن مزيد. وهذا الوضع شبيه بالوضع الإداري للجزيرة في نهاية الحكم الأموي(63).

أمّا الإدارة بالولاية فتتميّز بوجود هرميّة في المسؤوليات يمكن تقديمها اعتمادا على إشارات مقتضبة في المصادر العربيّة والسريانيّة وهي :

* الوالي : وهو مفرد بإمارة الولاية وهو المسؤول السّامي الذي يمثّل الخليفة في ولايته ولقد افرد الأستاذ راضي دغفوس في أطروحته دراسة ضافية لخطّته في اليمن وهي شبيهة بخطّة والي الجزيرة(64) وهو مكلّف بخمسة مهام رئيسيّة :

- القيادة العسكرية : وهو القائد الأعلى للجند بولايته وتأخذ هذه الخطّة في الجزيرة طابعا خاصّا الى خلافة هارون لأنّ والي الجزيرة يكون عادة القائد الأعلى لحملة الصّوائف والمسؤول المباشر على ثغور الجزيرة بالإضافة الى المهام الأمنيّة الموكولة إليه خصوصا في قمع الخوارج نظرا الى رئاسته لصاحب أمر الخوارج.

- مهام قضائيّة : وهو المسؤول على تنفيذ الأحكام القضائيّة وتعيين القضاة في بعض الحالات.

---

(63) مثال الرّجوع الى انفراد ميمون بن مهران بخراج الجزيرة : طبقات بن سعد ج 7 ص 477 و 478 أو القشيري : تاريخ الرّقّة ص أو خطّة الخراج لبشر بن خزيمة : الأزدي نفس المصدر ص 133.

(64) الأستاذ راضي دغفوس أطروحة اليمن الإسلامي جامعة تونس 1995 ج II ص 706 الى ص 736.

- مهام ماليّة : وهو المسؤول على جمع الخراج والزّكاة والصّدقات وتعيين الأعوان المكلفون بجمع الضّرائب ويمكن كما رأينا أن يحرم من هذه الخطّة.

- مهام دينيّة : فهو إمام المسلمين يأمّهم في صلاتهم وينفّذ أحكام الشريعة الإسلامية.

- الإشراف على الأعمال : إذ أنّه المسؤول على تعيين العمال في كلّ عمالة وهو رئيسهم المباشر والمسؤول عنهم أمام الخليفة.

وفي العصر العبّاسي كانت خطّة الوالي تختلف حسب مباشرته للخطّة بالولاية أو بتعيين نائبا عنه يسيّرها باسمه. وظهرت منذ نهاية حكم هارون الرّشيد وخصوصا أثناء حكم المعتصم خطّة الوالي السّامي الذي يشرف على مجموعة من الولايات له صلاحيّة تعيين الولاّة بها مباشرة دون الرّجوع الى الإدارة المركزيّة بالخلافة على غرار ولاية القاسم بن هارون أو طاهر بن الحسين أو عبد الله ابنه ... الذي كان يشرف على الولايات الغربية للخلافة وكان يتلقّى البيعة من المسلمين في ولايته إثر امامته لهم في الجامع الأكبر في مكان خاصّ أمام الباب الرّئيسي للجامع يعرف «بالبيعة»(65).

ويشرف الوالي كما رأينا على جهاز إداري كامل من كتبة وأعوان جباية ومجموعة من العمّال يسيّرهم(66) ومن أهمّ أعوانه :

- صاحب الشرطة : وهو الشخصيّة الثانيّة بعد الوالي يشرف على روابط

(65) الأزدي : نفس المصدر : ص 147.
(66) الرّجوع الى الأزدي في ولاية جعفر بن المنصور ص194 الى ص 197.

الجزيرة أي القوّات العسكريّة المكلّفة بحفظ الأمن بالولاية وهو في نفس الوقت صاحب أمر الخوارج مطالبا بمتابعتهم وإخماد ثوراتهم كما رأينا. وحتى في حالة دمج الموصل بالجزيرة، فإنّ صاحب الشرطة بالموصل يبقى منفردا عن صاحب الشرطة في حرّان وكلّ واحد يشرف على رابطة بألفي مقاتل(67).

وكان صاحب الشرطة، يتصرّف في حالات خاصّة بإذن من الخليفة حيث يوفّر له الخليفة أو الوالي بعض القوات العاملة في الثغور الجزريّة بالإضافة الى القوّات العسكريّة المستقرّة في نصيبين وآمد والرّقّة وأحيانا يعزّز بقوّات قادمة من عاصمة الخلافة لقمع ثورة خطيرة بالولاية. وهو نائب الوالي يسيّر الولاية عند غيابه ويأخذ كل صلاحيّاته.

- العمّال : كانت أعمال الجزيرة تحت إمرة الوالي الذي يكلّف أحد معاونيه بخطّة عامل ومن أهمّ أعمال الجزيرة :

* عمل امد وميافارقين : والتي تشرف على معظم ديار بكر شمال الجزيرة : وهي تمتدّ على هضبة ميافارقين ومرتفعاتها(68).

* عمل الرّقّة والذي يشرف على منطقة الفرات الأوسط الى عانة جنوبا.

- عمل حرّان : وهي تشرف على شمال ديار مضر إلى ثغور الجزيرة.

* عمل تكريت : وهي تشرف على المنطقة الجنوبية للجزيرة نحو الشرق.

---

(67) نفس المصدر، ص 195 وص 203 وص 251.

(68) حوليّات دنيس التلمحري : ص 92.

* عمل شهرزور : وهي بين الزّابين تمتدّ الى جبال كردستان وبقيت تابعة الى حكم هارون الرّشيد تاريخ عزلها عن الموصل.

* عمل باقردي وبازبدي : وهي شمال شرقي الموصل المتاخمة غربا لجبال كردستان(69) والملاحظ حول خطّة العامل، وجود ترسّبات لخطط قديمة، ظهرت في الجزيرة منذ زمن فتحها وبقيت موجودة الى العصر العبّاسي وتتمثّل في خطط صاحب صدقات بني تغلب وهو عامل يتنقّل بقوّات عسكريّة الى ديار تغلب فيمن بقي منهم على النّصرانيّة لإجبارهم على دفع ضعف الصّدقات، كما حدّده عمر بن الخطّاب لتغلب عوض الجزية، وهي ضعف الصدقات ذكرت في مصادر متعدّدة من بينها التّاريخيّة والفقهيّة. وخطّة هذا العامل ظهرت منذ سنة 15 هـ قبل فتح الجزيرة مع الوليد بن عقبة وزيد بن حدير(70).

وهذه الخطّة، بقيت موجودة في سنة 171 هـ/787م حيث يذكر الازدي، أنّ هارون الرّشيد «قلّد روح بن صالح الهمداني، صدقات بني تغلب فأغار عليهم في أراضي سنجار، وكانت تغلب تحت زعامة حرقل بن محجن وهو نصراني(71) وتدلّ الرّواية انحصار هذه الخطّة على نصارى تغلب. وبقادها إلى العصر العبّاسي.

وهذه الخطّة تؤكّد أن بعض العمّال يقومون بحملات عسكريّة على المجموعات البدوية المتنقلة لحملها على دفع الضّرائب للخلافة كبني شيبان أو المجموعات القيسية. وقد تم تحليل علاقة هذه القبائل بالدّولة في الباب الأوّل.

---

(69) لاكثر التفاصيل : الرّجوع الى أعمال الجزيرة في أعمال الجغرافيّين العرب : الإصطخرى ابن حوقل والمقدسي وابن فقيه في فصل الجزيرة.

(70) يفرد : البلاذري : في فتوح البلدان : مقطع حول نصارى تغلب بين ص 181 الى ص 183.

(71) الازدي : نفس المصدر : ص 267 الى 269.

أمّا خطّة القضاء، فرغم عدم إفراد الولاية بخطّة قاضي القضاة، فإنّ قضاة حواضر الجزيرة كان لهم دورا جليّا في إدارة الولاية، خصوصا قاضي الموصل وحرّان والرّقة. وأكثر المصادر وضوحا ما أبرزه الأزدي حول قضاة الموصل أو القشيري حول قضاة الرّقة(72).

وحسب الأزدي، فإنّ دوره يتمثّل في حفظ مراسلات الخليفة مع الوالي، والنّظر في شرعيّة الاحكام التي تصدرها الإدارة، وله نظر في صاحب الشّرطة المكلّف بتنفيذ الاحكام القضائيّة، وبالإضافة الى عمله كقاض، فهو له دور استشاري فيما يخصّ عمل الوالي وله النّظر في عقود الإقطاعات وفي الاحكام العقاريّة. وعادّة ما كان قضاة الجزيرة من فقهاء العراق خصوصا من الكوفة أو بعض علماء الموصل وحرّان والرّقة أين كانت بها مدارس دينيّة ترجع الى العصر الاموي. وترك هؤلاء القضاة أحيانا أرشيفا شخصيّا هامّا استعمله الأزدي كما ذكرنا في كتابة تاريخه والتثبّت من بعض الوقائع.

أمّا بقيّة الخطط الوظيفيّة، فأبرزها خطط الكتبة الملحقين بالوالي والذين يمثّلون مستشاري الوالي والمشرفين على الشؤون الإدارية والمراسلات، على غرار فضيل بن غزوان الذيّ كان كاتب جعفر ابن المنصور سنة 145هـ/762م عندما ولّي الموصل(73).

أمّا أعوان الجباية، فتوجد حولهم وثيقة هامّة قدّمها الأزدي من أرشيف

(72) الأزدي : نفس المصدر مثال ما ذكره في ص 199 أو 244 أو 366 والقشيري : تاريخ الرّقة ص 88.

(73) الأزدي : نفس المصدر ص 198.

القاضي الحارث بن جارود، وتتمثّل في رسالة كتبها المنصور الى واليه بالموصل سنة 152 هـ، يقول فيها «فإنّها رفعة، رفعت الى أمير المؤمنين على رجال عمّال أمير المؤمنين بكورة الموصل لسنة ثمان وأربعين ومائة، وأعوانهم وجباتهم وقساطيرهم(*) وأتباعهم، ان أموالا اقتطعوها...». ويذكر بقيّة الرّسالة، أنّه بعث له دفتر فيه أسماء المخالفين للتّحقيق في شأنهم، بعثها مع الخزّان، وهو المكلّف بإرسال أموال الولاية الى إدارة الخلافة ببغداد (74).

أما الوثيقة الثّانية، فهي من حوليّات التّلمحري الذي يقدّم بإسهاب المسؤوليّات المختلفة في إدارة الولاية زمن موسى بن مصعب وهم :

- أعوان الصّوافي : هم مكلّفون بجمع الضّرائب على أراضي الصّوافي أي أراضي الدّولة وملكيّاتها في المدن كالاسواق والسّاحات العامّة.

- أعوان الخراج : هم مكلّفون بجمع الخراج على الاراضي والعقارات من أهل الكتاب.

- أعوان صدقات المال : يجمعون أموال العشر والزّكاة على عقارات وأراضي المسلمين.

- «الوشّامون» : هم أعوان يقومون بوشم الفارّين من نواحيهم وحملهم بالقوّة الى قراهم ويوشم الفارّ في يده اليمنى إسم ناحيته وفي يده اليسرى اسم الجزيرة ويسجّلونهم في دفاترهم ويرأسهم عاملا مكلّفا بمطاردة الفارين.

(*) القسطار : مجموع قساطير : هو منتقد الدّراهم.
(74) نفس المصدر : ص 215.

- الصّيارفة : ويبدو أنهم هم نفسهم القساطير يصاحبون عمّال الخراج لاحصاء الأموال.

- أعوان البريد : كانوا يراقبون الطّرقات فترة جمع الضّرائب لمنع فرار السكان من أعوان الجباية ويمثلون عيون الخليفة على الوالي والعمال كما رأينا.

- رؤساء القرى : كانوا مطالبين بجمع الضّرائب من سكّان ناحيتهم لتقديمها الى عون الجباية عند قدومه والتّبليغ على كلّ من لم يدفع ما حقّ عليه وفق نظام الضّريبة القارّة على كلّ مجموعة قرويّة.

- شيوخ القبائل : ودورهم شبيه برؤساء القرى.

وحسب نفس المصدر فإنّ كلّ جابي تصحبه مجموعة عسكريّة هامّة تتولّى تنفيذ قراراته(75). وهذين الوثيقتين تدلان، أنّه منذ العصر العبّاسي الأوّل، ظهرت إرادة الدّولة في تجاوز التّسيّب الضّريبي وفرض المنظومة الإدارية للخلافة التي تتميّز بشدّة مركزيّتها والقائمة في العراق للسيطرة على الجزيرة منذ حكم المنصور، الذي حاول استعمال نفس التنظيم الإداري القائم في العراق لفرض مؤسسات الدّولة على السكّان رغم الفشل النسبيّ لهذه السياسة بالمقارنة مع العراق.

---

(75) يوجد مقطع هام في حوليّات دنيس التلمحري : من ص 97 الى آخر الكتاب ص 195 وحلّل هذا المقطع كلود كاهين في مقال :

Fiscalité, propriété antagonismes sociaux en Haute mesopotamie au temps des premiers Abbasides d'après Denys de Tell Mahré, Arabica T.II - Fas 2 p. 136-153.

III) الثغور الجزريّة ودورها الإستراتيجي في منظومة الخلافة العبّاسيّة

يهدف القسم الثالث من الباب الثّاني في البحث، تقديم الثّغور الجزريّة ذات الدّور الاستراتيجي الهامّ قبالة الأراضي البيزنطيّة من سنة 139هـ/756م تاريخ رجوع حملات الصّوائف إلى بداية حكم هارون الرّشيد في حدود 170هـ/786م زمن فصله للثغور الجزرية على ولاية الجزيرة وإلحاقها بما يعرف بالعواصم مع الثغور الشاميّة. وهو ما يخرج على نطاق بحثنا.

وهذه الفترة تتوفّر فيها إشارات عدّة من المصادر العربيّة والمصادر السّريانيّة والمؤلفات الجغرافيّة في العصر العبّاسي، فتوفّرت بذلك المادة لبحث هذا القسم من الجزيرة. ورغم إمتداد هذه الثّغور غربا، خارج مجال الجزيرة الجغرافي في اتّجاه شمال غربي الفرات في منطقة ملطية ومرعش واتجاه ارمينية شمالا انطلاقا من ديار بكر، فإنّ الجغرافيّين اعتبروها تابعة للجزيرة لأنّها حسب الإصطخري «... لأنّ أهل الجزيرة كانوا يرابطون ويغزون بها...»(1). كما أولى المستشرقون إهتماما بالثغور، يبرز أساسا في أعمال ماريوس كنارو فازيلياف(2) وتوجد أطروحات غربيّة، أبرزت أهميّة نظام الثغور قبالة بيزنطا في النّظام

(1) الاصطخري حول الثّغور: المسالك والممالك ص 133 و ص 72 وابن حوقل : صورة الأرض ص 189 والمقدسي وأبو الفداء : تقويم البلدان ص 273. ويئفرد البلاذري في فتوح البلدان قسما حول الثغور الجزرية من ص 183 إلى ص 192 بالإضافة إلى ابن شداد في الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة الج II.

(2) Vasiliev, et Canard : B yzance et les Arabes 2T. Bruxelles 1950 Canard : L'histoire des Hamdanides.

الحربي للمسلمين سواءا في العصر الأموي أو العبّاسي(3).

أمّا وضع الثّغور الجزريّة في العهد الأموي، فلقد حلّلتها في رسالة الكفاءة في البحث في قسم يتعلّق بالثّغور حيث بيّنت أهميّة دور الثغور الجزرية في منظومة الخلافة نظرا إلى إقامة عدّة أمراء أمويّين بها، ومشاركتهم في حركة الصّوائف التي كانت منتظمة من الفتح الإسلامي إلى نهاية الحكم الأموي، وتولّدت عن إقامتهم بهذه الثّغور وحروبهم ضدّ بيزنطا لاعتمادهم على القوى القبليّة بالجزيرة خصوصا منهم القيسيّة إلى إيجاد ما يعرف بالحلف القيسي. وأدّى هذا الوضع إلى انتقال مركز الخلافة في عهد هشام الى الرّصافة ثمّ حرّان في عهد مروان بن محمّد.

وقبل ظهور العواصم كانت الثغور الجزريّة لها دورها الهامّ في منظومة الخلافة في عهد هشام الى الرّصافة ثمّ حرّان في عهد مروان بن محمّد(4).

لكن أدّت أحداث الفتنة الثالثة وانهيار الحكم الاموي إلى تعطّل حركة الصّوائف وهو ما سمح للبيزنطيين في حملة 133هـ/750م إلى إجلاء المقاتلة من هذه الثغور وتخريب مجموع الحصون والمسالح والمدن العسكريّة بها، فبقيت الثغور معطّلة إلى سنة 139هـ/756م(5).

أمّا ثغور الجزيرة فيمكن تقديمها بأنّها «الاراضي الشمالية للجزيرة» تمتدّ غربا إلى جهة الفرات الأعلى وشرقا إلى حدود أذربيجان في جبال كردستان وأرمينية.

---

(3) لوسترانج: بلدان الخلافة الشرقية من ص 114 إلى ص 167.

(4) رضا بن حسين، «الجزيرة الفراتية وعلاقتها بالأمصار والخلافة» بين ص 108 و 118.

(5) البلاذري: فتوح البلدان ص 186 إلى ص 192.

ولقد ورث المسلمون بعد الفتح مجموعات من التحصينات والمسالح والقلاع الحربيّة تركتها بيزنطا في وسط وغرب الجزيرة كذلك الدّولة السّاسانيّة في شرق الجزيرة.

ويمكن تقسيم ثغر الجزيرة إلى 3 أقسام كبرى وهي :

1 - بشمال شرقي الجزيرة : وتمتدّ من شرق الموصل في منطقة المرج إلى أراضي باقردي وبازبدي شمالها وهي الأراضي المجاورة لحدود اذربيجان والتي كانت ثغرا لأهل الموصل ضدّ الأعداء الخزر ويشترك في الدّفاع عن هذه المناطق التي تمتدّ إلى أرمينية وأذربيجان مع حاميات هذين المنطقتين(6). وتضمّ هذه الجبهة ثغر أرمينية الأولى وعاصمتها أرّان EREVAN وأرمينية الثانية وقلاع جبال كردستان(7).

2 - جهة أعالي دجلة وثغورها بهضبة ميافارقين في آمد وشمشاط إلى حصن كمخ وحصن زياد وهي مجموعة من الحصون العظيمة أشهرها حصن آمد بسبب موقعها وحصونها الموروثة عن البيزنطيين أحد أعظم حصون الإسلام حسب المقدسي وهي حاضرة ديار بكر(8). وكان الجند المرابط بهذه الحصون مكلّفا بحملات الصّوائف على أرمينية الثالثة والرّابعة والتوغّل أحيانا إلى بلاد الأناضول(9).

3 - جهة أعالي الفرات غربا : وتبتدأ الحصون من سميساط جنوبا وتضمّ حصن الحدث وحصن منصور وطرندة ومرعش وتبقى ملطية أهمّ ثغر في الجزيرة،

---

(6) انظر البلاذري : فتوح ص 194 والبلاذري : نفس المصدر ص 32 الى ص 42.

(7) كايتاني حوليّات إسلاميّة ج II ص 73 كنار : نفس المرجع ص 254 - 258.

(8) المقدسي : أحسن التقاسيم ص 130

(9) البلاذري : فتوح البلدان ص 184 و ص 185. والحميري : الرّوض المعطار في خبر الإقطار: آمد ص 3 - 5.

وكان المقاتلون بهذه الثغور بعد قدومهم من حصن مسلمة* يتوغّلون إلى هذه الثغور للقيام بحملات الصّوائف على أراضي بيزنطا بآسيا الصّغرى إنطلاقا من ولوجهم دروبا بجبال الآمانوس(10).

وأهمّ المواقع العسكريّة في بداية الحكم العبّاسي، تعرّضت إلى التخريب من قبل الجيش البيزنطي سنة 133 هـ بقيادة الإمبراطور قسطنطين وتم إجلاء مقاتليها إلى الجزيرة وهذه المواقع هي :

- ثغر مرعش : وهو أكثر ثغور الجزيرة تقدّما غربا نحو أراضي بيزنطا، ولقد أعاد صالح بن علي في حملته لسنة 139هـ/756م تعميره وبنى له مسجدا جامعا، وحصّنها ووضع بها حامية عسكرية. ولقد زاد المقاتلة عطاءهم للإقامة بها. وقام الخليفة المهدي بإضافة المقاتلة في هذا الثّغر وتقوية تحصيناته. وكان عليها سنة 161هـ/777م عيسى بن علي مع مواليه بالإضافة الى مجموعات من القيسيّة حسب رواية الواقدي(11).

- حصن الحدث : وهي قلعة حصينة بين ملطية وسميساط شرق مرعش. ويقدّم الواقدي أصل تسمية الحدث. وحسب نفس الرّواية فلقد أعاد بناءها الخليفة المهدي سنة 161هـ/777م بعد تخريبها من قبل البيزنطيين سنة 133هـ/750م وسبب ذلك توغّل البيزنطين من دربها لمهاجمة مرعش فكلّف القائد حسن بن قحطبة بإعادة بناءها باللّبن على غرار بناءات العراق لكنّه كان بناءا غير موات لطبيعة المناخ الرّطب في الثغور. فتضرّر في شتاء تلك السّنة، فهجرها المقاتلة إلى أن أعاد

(*) حصن مسلمة : حصن بناه مسلمة بن عبد الملك في ديار مضر والرّقة ويقع غربي الجزيرة.

(10) البلاذري نفس المصدر : ص 186 و 187 والرّجوع إلى ص 248.

(11) نفس المصدر ص 188 و ص 189.

بناءها الرّشيد في خلافته فأقطع أراضيها للمقاتلة حسب نفس رواية الواقدي(12).

- ثغر زبطرة : هو حصن بيزنطي قديم يوجد بين ملطية وسميساط، يوجد في طرف ثغور الجزيرة وهدم في أحداث 133هـ/750م وأعيد بناءه في خلافة المنصور لكن خرّبه البيزنطيون ، وأعيد بناءه أيّام الرّشيد، وكان تخريبه، أيّام المعتصم، وقتل أهله وتسبّب ذلك في حملة عموريّة الشهيرة(13).

- حصن منصور : ينسب هذا الحصن إلى منصور بن جعونة العامري وهو من قيادات قيس أيام مروان بن محمّد ورمّمه وأقام فيه. ويوجد هذا الحصن بين سميساط وزبطرة ولقد أعيد بناءه أيّام المهدي من قبل إبنه الرّشيد(14).

+ ملطية : تمثّل أهمّ ثغر جزري، أبرزت مختلف المصادر دوره الهامّ في المنظومة الحربيّة للخلافة في ثغور الجزيرة وهي كذلك في موقع متقدّم من الحدود على نهر القباقب وهو رافد للفرات. وتمثّل ملطيّة مركز دفاعي شديد التحصين تتبعه مجموعة من الحصون المتقدّمة في اعماق أراضي بيزنطة على غرار طرندة التي أجلاها عمر بن عبد العزيز بسبب تقدّمها في أراضي بيزنطة بالإضافة إلى حصن قلوذيّة مع مجموعة من المسالح والأبراج لمراقبتها. ولقد أخربها البيزنطيّون سنة 133هـ/750م وأعاد بناءها صالح بن علي سنة 139هـ/756م وفي 140هـ/757م تكفّل كلّ من عبد الوهّاب بن إبراهيم الإمام والقائد الحسن بن قحطبة ببناءها وتحصينها مدّة 6 أشهر وأقيمت فيها مجموعة من المساكن للجنود واصطبلات ومسجد جامع

(12) نفس المصدر ص 189 و 190.

(13) نفس المصدر ص 191 و 192 وحملة عمورية تمّت سنة 213 هـ بقيادة الخليفة المعتصم.

(14) نفس المصدر ص 192.

ومسالح، وأسكنها 4000 مقاتل جزري وأعطيت لهم امتيازات ماليّة هامّة مع إقطاعات في منطقة خصبة زراعيّا يقطنها الأرمن والأنباط(15) وهذا الإجراء جعل من ملطية أهمّ موقع عسكري في منظومة الثغور في هذه الفترة.

- سميساط : وهي مدينة صغيرة قديمة البناء، مطلّة على الفرات وهي تقع شرق جبال اللكام تتميّز أراضيها بخصبها ولها قلعة منيعة. ويوجد خلافا في اعتبارها ثغرا للجزيرة أو مدينة لا تتبع الثغور(16).

وهذه المواقع تمثّل المنظومة الدّفاعيّة للخلافة قبالة بيزنطا في الفرات الأعلى ومواقع متقدّمة لحركة الجيش في الصّوائف بينما توجد مجموعة من المواقع العسكريّة في ديار بكر شرقا وهي :

- آمد : مثّلت قبل الفتح الإسلامي أهمّ قاعدة حربيّة بيزنطيّة في الجزيرة ضدّ العدوّ السّاساني ببلاد الرّافدين فورث المسلمون حصنا عظيما في موقع مرتفع يشرف على نهر دجلة. ومثّلت آمد حاضرة ديار بكر ويذكر المقدسي أنّها مخرج الجيش الإسلامي نحو أرمينية IV وأراضي بيزنطا من الشرق يبرز ذلك في حملة العبّاس بن محمّد سنة 149هـ/766م(17) وهو الحصن الوحيد الذي لم يقدر على تخريبه البيزنطيّون.

- شمشاط : ويوجد هذا الحصن في أرمينية IV واعتبر ضمن ثغور الجزيرة المتقدّمة حسب البلاذري وهو على نهر أرسناس ويتبعه غربا حصن زياد(18).

(15) نفس المصدر : يوجد مقطع طويل يتعلّق بملطية من ص 185 إلى ص 188.

(16) لا يذكرها البلاذري في نفس المصدر على أنّها ثغرا بينما يذكرها ابن شدّاد في «الأعلاق الخطيرة» أنّها ثغرا : الج 1 ص 194 وهو مصدر متأخّر عن الأوّل.

(17) المقدسي أحسن التقاسيم ص 130 والبلاذري : نفس المصدر ص 184.

(18) البلاذري : فتوح البلدان ص 182 و 183.

- حصن كمخ : وهو أكثر الحصون توغّلا شمالا في أرمينية IV يوجد في منطقة جبليّة ويذكر البلاذري أنّه حصن بيزنطي فتح مرّة أولى مع العبّاس بن محمّد سنة 149 هـ/ 766م .

ومرّة ثانيّة في خلافة الرّشيد سنة 177هـ/793م بينما يذكر في حوليّات التلمحري : أن الحامية البيزنطيّة في هذا الحصن صمدت في حملة المسلمين عليها سنة 149هـ/766م(19).

ومثّلت هذه المواقع العسكريّة أهمّ ثغور ديار بكر بالإضافة إلى مجموعة من القلاع توجد شرق الموصل وشمالها في جبال كردستان، كان دورها مراقبة تحرّك الأكراد الجبليّين نحو سهول الجزيرة لمنع أعمال اللّصوصيّة وقطع الطّريق كحصن حبتون والسّلق وهو حصن جبلي يشرف على نهر الزّاب الكبير وحصون أخرى على جبل التنّين شرق الموصل وجبل الجودي في نفس المنطقة مع جبل دانس بالإضافة إلى مجموعة كبيرة من القرى المحصّنة لمقاومة الأعمال الحربيّة للأكراد كالعمرانيّة وسوق الأحد وبافخارى(20).

فكلّ هذه المواقع العسكريّة، مثّلت أهمّ ثغور الجزيرة بما فيها أعداد أخرى من الحصون والأبراج والمسالح على مداخل الدّروب الجبليّة وعلى المرتفعات التي لم أذكرها.

أمّا العمل الحربي، فهو يعتمد أساسا على حملة الصّوائف، وهي حملة صيفيّة إنطلاقا من ماي إلى آخر الصّيف تتّجه إلى أراضي بيزنطا. بعد تجمّع القوّات العسكريّة بالجزيرة إنطلاقا من حصن مسلمة الذين يوجد بين الرّقّة وحرّان

---

(19) البلاذري : نفس المصدر ص 184 و 185 وحوليّات التلمحري ص 72 إلى ص 76.

(20) الأزدي : تاريخ الموصل ص 296 و 268 ص 300 وص 269.

وبناه القائد الأمويّ مسلمة بن عبد الملك لهذا الغرض. بالإضافة إلى ذلك فهو مكان للتّعبئة الرّوحية للمقاتلة قبل القتال يؤطّرهم مجموعة من المشايخ كإمام أهل الجزيرة في حدود 100هـ/718م وهو ميمون بن مهران وإبنه عمرو بن ميمون وحول عمل هؤلاء المشايخ توجد رواية لأبان بن أبي راشد القشيري قال : كنت إذا أردت الصّائفة، أتيت ميمون بن مهران أودعه، فما يزيد على كلمتين : إتّق اللّه، ولا يغيّرك طمع ولا غضب...»(21) ويذكر كذلك في كتاب الأصفهاني، أنّ عمرو بن ميمون كان يؤدّب بحصن مسلمة إلى فترة حكم المنصور ولقد توفّي هذا العالم سنة 145هـ/762م وترك أحاديث وروايات يتناقلها شيوخ الحصن(22) ويبدو أنّه كان يقوم مع شيوخ الحصن بتأديب المقاتلة وشحنهم روحيّا للقيام بعمل الجهاد والذي يمثّل الإيديولوجيّة السّائدة بين محاربي الجزيرة.

وتوجد رواية يذكرها الأزدي : أنّ المهدي شيّع إبنه الرّشيد في حملة 163 هـ وتجمّعت له القوّات في هذا الحصن قبل الخروج إلى الثغر(23).

أمّا مهام المقاتلة بالثغور فلا يقتصر على شنّ الحرب والغزوات ضدّ بيزنطا في الصّائفة اليمنى. بل كذلك مراقبة الحدود لحماية دار الإسلام من كلّ خطر داهم سواءا كان بيزنطيّا أو خزريّا أو من القبائل الكرديّة أو الأرمينيّة المتواجدة شمال الجزيرة.

---

(21) الأصفهاني : حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ج 4 ص 85 وحول تجمّع المقاتلة بهذا الحصن : يوجد مقال لعيد ضيف الهادي محقق لمخطوطة «من السّبق والرّمي وأسلحة المجاهدين» المورد مجلد XII عدد4 - 1983.

(22) الأصفهاني : حيلة الأولياء ج 4 ص 85.

(23) الأزدي : نفس المصدر ص 243 و 244.

يمتدّ هذا التنظيم الحربي في أذربيجان وأرمينية إلى حدود السّفوح الجنوبيّة للقوقاز. لذلك ورث العبّاسيّون من الأمويّين هذا التّنظيم الحربي، يبرز في الولاية الكبرى لأبي جعفر في خلافة أبي العبّاس كما رأينا حيث ورث الجزيرة مع أرمينية وأذربيجان على غرار مروان بن محمد ومن قبل أبيه محمد بن مروان والهدف من ذلك حفظ الحدود الشماليّة. ومنذ خلافته سعى أبو جعفر إلى عزل الجزيرة وثغورها على أذربيجان وأرمينية واستعمله عمّه صالح بن علي سنة 139هـ/756م لإعادة بناء الثغر وتنظيمها من جديد بعدما لحقها من التخريب من قبل البيزنطيين سنة 133هـ/750م فكان عمله طيلة حكمه تطوير العمل الدّفاعي للثغور وكانت الصّوائف في الأصل هي استرجاع للمواقع العسكريّة التي استلبها البيزنطيّون دون القيام بعمليّات هجوميّة بارزة داخل التّراب البيزنطي.

ومع خلافة المهدي تغيّرت المنظومة العسكريّة والخطط بهذه الثغور حيث أعطيت قيادة المنطقة للأمراء العبّاسيين بعد أن أفردت عن والي الجزيرة والذي كان من المفترض أن يكون المسؤول على الثغور وحملة الصّوائف، حيث كلّف إبنه هارون أو الأمير عبد الملك بن صالح بقيادة الحملات العسكريّة داخل التّراب البيزنطي حيث رجع هذا الخليفة إلى العمل الهجومي ضدّ بيزنطا.

وهذا الواقع العسكري الجديد، تسبّب في بروز أزمة سياسية ناتجة عن صراع النّفوذ في المنطقة وفي أزمة الخلافة بين حكم الهادي وبداية حكم الرّشيد وحسب نظريّة بونّار في أحد مقالاته، فلقد برز صراع النّفوذ بين «بارونات الحرب» من بني عبّاس من الذين تولّوا الثّغور يبرز في تعدّد مراكز صكّ النقود في أرمينية. وأصبح من يطمع في الحكم من أبناء المهدي يسعى لكسب ولائهم بني

صالح كعبد الملك والفضل(24) ويمكن إضافة حضور أمراء عبّاسيين آخرين في الثغور كعلي بن سليمان بن علي ومحمد بن إبراهيم الإمام(25).

وهو ما يفسّر إسراع الرّشيد إلى عزل الثغور عن الجزيرة والشام وسمّاها العواصم بهدف إضعاف بارونات الحرب ونفوذ عرب الجزيرة حفظا لسلطته وليتولّى مباشرة عمل الجهاد بنفسه بعد إقامته في الرّافقة منذ سنة 180هـ/796م إلى نهاية حكمه(26).

وللرّجوع إلى العمل الحربي في الثّغور في هذه الفترة، فلقد تميّز في عصر المنصور بعد تخلّصه من تمرّد عمّه عبد الله بن علي في محاولة إعادة إحياء المنظومة الحربيّة بالثّغور منذ سنة 139هـ/756م بعد ما لحقها من الدّمار كما رأينا.

فتميّز عمل الجيش العبّاسي سواءا كانوا من الجيش النّظامي الخراساني أو عرب الجزيرة من المقاتلة في إعادة بناء هذه المواقع العسكريّة بعد إسترجاعها من البيزنطيين. وكان المنصور مقتنعا بضرورة الإعتماد على عرب الجزيرة في حملة الصّوائف بسبب خبرتهم الطّويلة في عملهم بالثغور واحترافهم هذا العمل. بينما كان الجيش الخراساني غير قادر على تعويضهم وأداء مهمّتهم في حفظ الثغور والتوغّل في أراضي العدوّ. وينفرد التلمحري برواية حول حملة فاشلة لإبن «أمير الجزيرة» «العكي» في حدود 136هـ/753م والذي كلّف بملاحقة جيشا أرمينيا بقيادة كوشان حليف بيزنطا والذي كان يغير على الجزيرة منذ سنة 133هـ/750م وتسبب سوء تصرّفه إلى وقوع جيشه في كمين وحدثت مذبحة «فضيعة» بين

---

(24) Bonner (B.N.) : The Naming of the frontier : Awasim Thughur and the Arab geographers B.S.O.A.S. V. III. p. 17-26.

(25) البلاذري : نفس المصدر ص 190 و 191.

(26) نفس مقال بونار Bonner ص 19.

الخراسانية وكان معظمهم من المشاة ونجت الوحدات العربية التي كانت من الخيّالة وانسحبت إلى الجزيرة(27).

وهذه الحادثة أقنعت المنصور بالمحافظة على المقاتلة العرب بالثّغور مع القوّات النّظاميّة والمتطوّعة أثناء حملات الصّوائف لخبراتهم الحربيّة.

وبعد إستكمال بناء الحصون والقلاع، رجع المنصور إلى حملات الصّوائف لكن في نطاق ضيّق معظمها يستهدف إرجاع الحصون المتقدّمة في الثغور وبرز في هذا العمل واليه العبّاس والذي قاد حملة مع القائد الخراساني الحسن بن قحطبة سنة 149 هـ/766م وكان الجيش يتركّب من الخراسانيّة ومن عرب الجزيرة ومتطوّعة من العراق ومجموعة من جنود يصفهم التلمحري أنّهم من الوثنيين الاتراك والخزر ومن شعوب الشرق. وهذه الحملة خرجت من آمد بديار بكر نحو أرمينية IV ضدّ حصن كمخ البيزنطي حيث تمّت محاصرته. واستعمل العبّاس بن محمّد عمّال الجزيرة لبناء آلات الحصار على غرار الابراج المتحرّكة أو الدّبّابات وقام هؤلاء العمّال بالمخاطرة بأنفسهم لتعبئة الخنادق بالأتربة والحجارة وهذه الرّواية التي يقدّمها بتفاصيلها دنيس التلمحري يذكر أن صاحب الحصن وهو سرجيوس نجح في الحفاظ على الحصن بسبب بسالة مقاومة جنده للحصار بينما يذكر البلاذري رواية مناقضة للحدث، حيث يبرز أنّ العبّاس، فتح الحصن لكن مع تقدّم الشتاء وانسحابه، رجع الحصن إلى البيزنطيين(28).

وفي نفس السّنة، واصل الجيش العبّاسي توغّله في أراضي بيزنطا بقوّات تقدّر بـ 50 ألف مقاتل حسب حوليّات التلمحري، تعرّضت أثناء توغّلها من

(27) حوليات التلمحري ص 57 و 58.

(28) انظر حوليات التلمحري من ص 72 إلى ص 78 وتناقضها رواية الأحداث في البلاذري : نفس المصدر ص84 والأزدي : نفس المصدر ص 211.

أرمينية IV إلى أراضي بيزنطا إلى نقص المؤونة بسبب إمتداد الآراضي الجرداء صيفا في تلك المنطقة. ورغم نجاحهم في الإستحواذ على قيصريّة باسيا الصّغرى ونهبهم لها، فلقد نجحت حاميات «التّيما» Théma وهي المرابطة في الحدود البيزنطيّة في حصر الجيش الإسلامي في أحد المخانق وقتل أعداد هائلة من المسلمين وأسر عدد هام منهم ولم ينجوا إلاّ بعض الآلاف من المقاتلة الذين انسحبوا إلى الجزيرة. وبذلك فشلت الحملة وأجبر العبّاس في نفس الوقت لرفع الحصار على حصن كمخ مع قدوم الشتاء. فرجع إلى الجزيرة بقوّات منهوكة نحو حصن آمد. بنما رجع الجيش الخراساني بقيادة الحسن بن قحطبة إلى الشرق بنصف عددهم بعد أن مات بقيّة الجنود بالطّاعون وأعمال القتل التي قام بها البيزنطيون ضدّهم(29).

وهذه الهزيمة يبدو أنّها أقنعت المنصور بأن يكتفي بحملات صغيرة على أراضي العدوّ مع مواصلة جهده في بناء وحفظ المواقع العسكريّة بالثغور.

وحسب نفس الحوليّات، فإنّ الخليفة قرّر تعمير مناطق الثغور بأحد «شعوب الشرق» حيث سمح بهجرة 300 ألف شخص لا نعلم إن كانوا من «الزطّ» أو أحد الشعوب المتاخمة لخراسان شرقا... والهدف منها تعمير الفراغ البشري الذي يمثله مجال الثغور والتي تمثّل صحاري بشريّة في بعض المناطق وخلق حاجز بشري بينه وبين العدوّ إضافة إلى تقوية المنظومة الدّفاعيّة للثغور. وهذه

---

(29) حوليّات التلمحري من ص 80 إلى ص 82.

الاستراتيجيّة لم تنجح بسبب ما انجرّ عن وجودهم من ظهور أعمال قطع الطّريق واللّصوصيّة التي قامت به هذه المجموعة المهاجرة على طرق الجزيرة وشملت حتى «الطريق الملكي» الذي يمرّ منه البريد للخلافة ببغداد شمال نصبيين فتمّ ترحيلهم إلى أرمينية الرّابعة دخل التّراب البيزنطي في منطقة حصن كمخ للتخلّص من أذاهم وخلق حالة من الفوضى وانعدام الآمن في أراضي بيزنطا، لكنّ لم يتأقلم هذا الشّعب مع طبيعة المناخ البارد لهذا المجال في الفصل الشتوي حيث يذكر التلمحري أنّهم كانوا شبه عراة وحفاة منبوذين من سكّان المنطقة مع نقص المؤونة وتفشي الأمراض الوبائيّة بينهم جعل هذه المجموعة تنقرض من المنطقة بعد سنوات قليلة !(30).

ولم نجد في المصادر العربيّة تأكيدا لقدوم هذه الأعداد الهائلة من المهاجرين إلى الثغور. وكخلاصة القول، فأنّ المنصور، لم يقدر أثناء خلافته من إحياء العمل الحربي الذي قام به الأمويون إلى آخر سنوات حكمهم ضدّ العدوّ البيزنطي نظرا إلى الضّرر الهائل الذي لحق مجموع تحصينات الثغور سنة 133هـ 750م من قبل بيزنطا وإلى تقلص أعداد المقاتلة الجزريين بالثغور لما لحقهم من تقتيل واستغناء عن خدماتهم في السّنوات الأولى من الحكم العبّاسي. ولم ينجح هذا الخليفة إلاّ في إعادة بناء بعض هذه التحصينات والإكتفاء بالعمل الدّفاعي بالثغور.

---

(30) نفس المصدر ص 95 إلى ص 96.

أمّا الخليفة محمّد المهدي، فنظرا لمعرفته بأحوال الجزيرة والثغور، أثناء إقامته بها في سنوات إشرافه على بناء الرّافقة، فإنّه كان على قناعة بضرورة حصر عمل الجيش في العمل العسكري والتوسّع على حساب «العدوّ» البيزنطي. لذلك غيّر من الاستراتيجيّة العسكريّة الذي توخّاها أبوه في الثّغور للقيام بعمل عسكري يسترجع فيه المبادرة على البيزنطيين ويوفّر للدّولة العبّاسيّة شرعيّتها من العمل الجهادي خصوصا بين أوساط عرب الجزيرة والشام والعراق الذين لهم ميلا «للإيديلوجيّة الجهاديّة» وكان هذا العمل العسكري ممكنا بعد أن توفّرت له شبكة من التحصينات والمواقع العسكريّة في ثغر الجزيرة خصوصا، تكون منطلقا للتوسّع التّرابي داخل أراضي بيزنطا، فبدأ المهدي منذ سنة 161هـ/777م بتكليف ابنه الرّشيد بقيادة جيش الصّائفة بعد أن قام بنفسه بتشييعه إلى الثغور عبر الجزيرة. واعتمد هذا الجيش على قاعدة عسكريّة جديدة بالجزيرة تعتبر الأعظم بين القواعد العسكريّة الأخرى وهي الرّافقة والتي كانت مفخرة الخليفة المهدي. وكان دورها تجميع المقاتلة من كلّ حدب قبل الإنطلاق إلى الثغور مرورا بحصن مسلمة. ولإعطاء نجاعة أكبر للعمل العسكري، جعل المهدي كل مداخيل الجزيرة مخصصة للعمل العسكري بالثغور كما رأينا.

وفي سنة 165هـ/781م قام ابنه هارون بحملة كبرى على أراضي بيزنطا، تعدّ أعظم حملة عسكريّة بعد حملة مسلمة بن عبد الملك لسنة 98هـ/716م حيث سار إلى أراضي بيزنطا بجيش يعدّ 90 ألف مقاتل من الخراسانيين وعرب الجزيرة والمتطوّعة وكان الرّشيد في هذه الحملة يعتمد على القيادات القبليّة من قيس وربيعة ذات الدّور الفاعل في الثغور لتأطير عرب الجزيرة في الحملة ونجح في الوصول إلى «الخليج» وتعني به المصادر على الأقرب إمّا ساحل بحر مرمرة أو

ساحل البوسفور في ضواحي القسطنطينيّة. ولم يكن هدفه إحتلال عاصمة البيزنطيين بل إجبار بيزنطا على دفع «الجزية» سنويّا وفرض عليهم تزويدهم بالمؤونة أثناء تحرّك جيشه في أراضيهم. ونجح في ضرب نظام الدّفاع البيزنطي والذي يتمثّل في نظام «التّيما»(31).

وفي فترة حكم الهادي القصيرة، ظهرت أثناء ولاية يزيد بن أسيّد السّلمي على أرمينية ثورة خطيرة من الأرمن والمهاجرين القدامى من العرب ضدّ المهاجرين الجدد منهم وكان معظمهم من قيس قدموا طمعا في الإمتيازات التي أعطاها العبّاسيّون منذ حكم المنصور إلى المقاتلة بالثغور من امتيازات ماليّة وإقطاعات، نظر إليها الأرمن والعرب القدامى كمظلمة من قبل الخلافة تمسّ من مصالحهم في منطقة أرمينية وأعمال الثغور والتي تتواجد فيها أعداد هامّة من الأرمن بالإضافة إلى الأنباط. ويبدو أنّ إسناد الإقطاعات جعلتهم يتحوّلون من مالكين إلى شبه أقنان يعملون لهؤلاء المقاتلة الذين أثروا على حسابهم. وهو ما يبرز في حوليّات التّلمحري الذي يذكر قبل هذه الثورة تضرّر الأرمن والأنباط من حضور المقاتلة بالثغور وامتيازاتهم المسندة والتجاءهم سنة 149هـ/766م إلى الهروب للبيزنطيّين وطلب اللّجوء إلى صاحب حصن كمخ(32).

وتسبّب هذا الوضع سنة 169هـ/785م في ثورة عارمة شجّعت الخزر للرّجوع إلى عملهم الحربي ضدّ الخلافة وتعريض الثغور الشرقيّة للجزيرة إلى الخطر

---

(31) حول عمل المهدي في الثغور وحملة الرّشيد: الأزدي : نفس المصدر ص 242 إلى ص 247 بالإضافة إلى الطّبري ج 9 ص 736 - 738.

(32) حوليّات التلمحري ص 176 إلى ص 78.

الدّاهم لهذه القبائل التّركيّة(33) ويبدو من خلال ما رأيناه من أجراءات المهدي والتي تواصلت مع حكم الهادي أنّ الإمتيازات الماليّة للمقاتلين والإعفاء الجبائي للنّشاط الاقتصادي، جعل عمل المقاتلين يتحوّل عن غايته من العمل الحربي إلى التمعّش من الإمتيازات العديدة الممنوحة إليهم والذي حال عن أداء مهّمتهم الحربيّة والمتاجرة مع العدوّ البيزنطي بخلق بوادر لعلاقات اقتصاديّة يمكن أن تهدّد عمل الثغور وبالإضافة إلى استغلال بعض الأمراء العبّاسيّين كما رأينا لهذه الامتيازات الماليّة وإثراءهم من خططهم كقادة عسكريين في الثغور من أجل التحوّل إلى بارونات حرب لهم النفوذ العسكري والمالي والقدرة على التدخّل في شؤون الحكم كما يبرز في صراع الرّشيد والهادي لخلافة المهدي. وهو ما يفسّر إسراع هارون الرّشيد بعد صعوده للحكم في عزل الثّغور الجزريّة عن هذه الولاية، حيث أصبح العمل الحربي بها تابع لعمل العواصم منذ سنة 171ﻫ/787م فانتقل بذلك إلى الغرب نحو ما كان يعرف بالثغور الشّامية في أنطاكية وطرسوس ومنبج غرب الفرات(34).

وبذلك نجح هذا الخليفة في إلغاء الإمتيازات الجبائيّة والماليّة لمقاتلي الجزيرة الذين فقدوا نفوذهم الحربي بالمنطقة وأجبروا للعمل الحربي خارج الثغور الجزريّة خصوصا في أنطاكية وطرسوس. ورغم حفاظ المواقع العسكريّة بالجزيرة على دورها العسكري فإنّها أصبحت مواقع عسكريّة ثانويّة في منظومة الثغور.

---

(33) Grousset: l'histoire de l'Arménie p. 315-318.

(34) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج 6 ص 108 وحول العواصم : معجم البلدان ج 6 ص 237 بالإضافة لى الأزدي ص 262.

الفصل الثالث :

فشل الدّولة العبّاسيّة في السيطرة على الجزيرة : من حكم هارون الرّشيد الى نهاية حكم المعتصم

I) هارون الرّشيد ونقل عاصمة الخلافة الى الرّقّة ـ الرّافقة :

أثناء الحكم القصير للهادي بين 169هـ/785م و170هـ/786م، واصل هذا الخليفة سياسة أبيه المهدي وجدّه المنصور في التشدّد الضّريبي والامني على أهل الجزيرة والولايات التّابعة لها.

ومن أهمّ المشاكل التي واجهته مشكلة المهاجرين الجدد الذين شجّعهم المنصور والمهدي للإقامة في ثغور الجزيرة وأرمينية للزّود على دار الإسلام. وتسبّب وجودهم في ثورة خطيرة بأرمينية أثناء ولاية يزيد بن أسيّد، قام بها الأرمن والمهاجرون العرب القدامى من أصل جزري، من الذين لم يقبلوا أن تمنح لهؤلاء عدّة عطايا واقطاعات لاستغلالها زراعيّا وما تولّد عن هذا الوضع من تهميش الأهالي، واستغلال هؤلاء المهاجرين الوضع للاثراء الفاحش بالمتاجرة مع البيزنطيين(1)، وكانت لهذه الثورة نتائج وخيمة على الوضع الأمني بأرمينية كان لها الأثر في رجوع الخطر الخزري طيلة حكم هارون الرّشيد. لكن لم يقرّ الهادي اجراءات حاسمة في الثغور على غرار الرّشيد.

أمّا في الجزيرة، فإنّ الهادي تعرّض الى انتشار خطر الشّراة، مع ثورة حمزة الخارجي وكان فشل والي الموصل حمزة بن مالك الخزاعي في اخمادها، نظرا لفشل رابطة الموصل في حصر الثورة، جعل الخلافة تكلّف صاحب أمر خوارج الجزيرة للقضاء على الثورة مع قتل حمزة وتعويض والي الموصل بأمير هاشمي شهير وهو عبد الملك بن صالح على الجزيرة(2).

ويمثل هذا الأمير الهاشمي شخصيّة فذّة، وكان من بين أبناء صالح بن علي الذي ارتبط مع أبناءه بالعمل الحربي في الثغور وتسيير ولاية الشام ومصر

(1) البلاذري : فتوح البلدان ص 191 واليعقوبي ج II ص 426 و 427.

(2) الأزدي : نفس المصدر ص 258 و 259 ويوجد مقال لـ Zitterstein حول عبد الملك بن صالح في EI_2. ج I ص 80.

والجزيرة. وكان تعيين عبد الملك على كلّ الجزيرة، هدفها ارجاع الاستقرار الأمني بها. ويبدو أنّه كانت له الولاية السّامية على الجزيرة وأبقى حمزة بن مالك الخزاعي كنائب لعبد الملك بالجزيرة وأذربيجان وكانت حظوة حمزة ترتبط بأبيه مالك بن الهيثم الخزاعي، الذي كان أحد نقباء بني العبّاس وتولّى سابقا ولاية الموصل في عهد المنصور(3).

أمّا فيما يخصّ الخليفة هارون الرّشيد والذي كان وليّ عهد الهادي، فتذكر المصادر أنّ الخليفة الهادي أراد خلعه لتعيين ابنه جعفر عوضه، وعرض عليه أن يمنحه اقطاعات هشام بالجزيرة وهي الهنيّ والمريّ في واسط الرّقة مقابل ترك الخلافة، ولقد نصحه يحيى بن خالد البرمكي بالتريّث وعدم قبول العرض ورغم تأكيد هذه الحادثة من قبل المستشرق سوردال فإنّ تفاصيل الرّواية، تبدو مفتعلة، لأنّها تشابه كثيرا مع رواية ولاية عهد هشام بن عبد الملك الذي نصحه خالد القسري برفض ولاية الجزيرة الذي عرضها عليه اليزيد، وعدم خلع نفسه عن ولاية العهد. كما رأينا في الفصل السابق. وهذا لا يمنع أنّ الرّشيد سجن وضغط عليه الهادي لإنهاء ولاية عهده. وحتّى وإن كانت هذه الرّواية ملفّقة، فإنّها تربط الرّشيد بالجزيرة حيث كان أثناء خلافة أبيه مقيما بها في فترات عدّة منذ سنة 163هـ/779م مع حملاته على أراضي بيزنطا وكان مقيما بالرّافقة التي بناها المهدي زمن خلافة المنصور. فتكوّنت له علاقات متميّزة مع القادة الخراسانيين والأمراء الهاشميين والزّعامات العربيّة العاملة بالثغور. ولا ننسى أنّه تزوّج زبيدة التي قضت شبابها

(3) نفس المصدر ص 259 و 260 وحول مالك الخزاعي الرّجوع الى ص 178.

بالموصل مع استقرار جعفر بن المنصور بها وقضت سنوات زواجها الأوّل بالرّافقة في فترة حملات زوجها على الثغور(4).

وكان نجاح الرّشيد في الوصول الى السّلطة، بداية لمرحلة مصيريّة في تاريخ هذه الولاية. وكانت خطّته السّياسيّة العامّة التي تخصّ الولايات، تبرز في خطبة البيعة، حيث ذكر «وما لعلّه يحدث في الضّواحي والأقطار من العصاة المارقين الى بيوت الأموال، حتى تعود الأموال الى جمامها وكثرتها والحال التي كانت عليها...»(5).

فالرّشيد، كان حريصا على إحكام قبضته على الولايات، والتشدّد الضريبي على الأهالي إقتداءا بسياسة جدّه المنصور، ومنع كلّ تسيّب ضريبي أو عمل انفصالي يقوم به العصاة المارقين. وفي خطبته هذه يبدو أنّه كان واعيا بالتحدّيات التي تعترضه في فرض مؤسسات الدّولة ببعض الولايات، على غرار الجزيرة.

---

(4) حول ولاية عهد الرّشيد الطّبري ج 9 ص 51 - 53 والأزدي : نفس المصدر ص 260 الى ص 270.

(5) الطّبري، نفس المصدر ج 9 ص 76 و 77، [illegible] و مقال فاروق عمر في EI2 ج V ص 239 - 241 ويشير فيه أنّ حكم الرّشيد هو بداية أفول الحكم العباسي في الولايات وهو نفس رأي عبد الحي شعبان في كتابه الدّولة العبّاسيّة والفاطميّون. وكذلك أندري كلو : هارون الرّشيد وعصره تعريب الرّزقي ط. دار سيراس للنشر تونس

ومن أولى قراراته السّياسيّة الجريئة، هو عزل الثغور عن الجزيرة وقنسرين، وجعلها في ثغر جديد شمال الشام الى قليقيّة والذي عرف باسم العواصم(6).

ولقد فسّرنا وضعيّة ثغور الجزيرة في الفصل السابق. إذ بحكم إطّلاع الرّشيد على أوضاعها لإشرافه أثناء ولاية العهد على هذه المناطق، جعله يكتشف انحراف عمل المقاتلين بالثغور للاثراء وامتلاك الاقطاعات والحصول على امتيازات عدّة مستغلين الاعفاء الضّريبي التي تتمتّع به أراضي الثغور. وهي وضعيّة خطيرة تهدّد بفقدان الثغور طابعها الحربي خصوصا مع بروز علاقات تجاريّة بين البيزنطيين وأهالي الثغور ومصالح مشتركة بينهم تفقد الدّور الحربي للمقاتلين. بالاضافة الى بروز «بارونات الحرب» استغلّوا نفوذهم العسكري وثراءهم من الأعمال الحربيّة للتموقع في جهاز الحكم وتهديد نفوذ الخلافة. وهو ما يفسّر اتخاذه هذا القرار.

أمّا اجراءه الثاني الهامّ، فتمثّل في اعتقاله والي الجزيرة أبو هريرة محمّد بن فروخ ومن المحتمل أن يكون نائبا لعبد الملك بن صالح، حيث حمل الى بغداد مقيّدا وضرب عنقه سنة 171هـ/787م دون توضيح المصادر التّهم الموجّهة ضدّه.

وهذا الوالي هو قائد خراساني من موالي تميم بالمنطقة ممّن كلّفهم المهدي مع القائد هرثمة سنة 168هـ/784م بإخماد ثورة ياسين التميمي الخارجي بأرض الموصل

---

(6) الطبري : نفس المصدر ج 9 ص 79.

التي امتدّت الى بقية الجزيرة، فنجح هذا القائد مع هرثمة في إخماد هذه الثورة(7).

ولذلك ولّي الجزيرة كوالي أو نائب عبد الملك بن صالح ويبدو أن خطأه تمثل في تولية ابنه عبد الله عمالة سخنة عرفت بقوّة حضور الخوارج وهي منطقة سنجار وبلد ونصيبين بديار ربيعة وتسبّبت عدم كفائته في ظهور ثورة خارجية للصّحصح الحروري والذي هزم رابطة الجزيرة بقيادة علي بن حرب وامتدّت ثورته الى أراضي الموصل، حيث هزم رابطتها وأحكم السيطرة على ديار ربيعة. فتبيّن للرّشيد فشل العمل الامني لابي هريرة، فكلّف قائده الخراساني نصر بن عبيد الله الضبّي بمتابعة الخوارج وقتل الصحصح فأرجع الآمن بالجزيرة(8).

وتكتفي الرّوايات التي ذكرت سبب قتله أنّه سخط عليه دون توضيح. لكن من خلال تحليلنا يتبيّن أن خطة أبي هريرة، كانت أمنيّة لقمع الخوارج الذي رجع نشاطهم بقوّة منذ نهاية حكم المهدي فاعتبر فشله في أداء هذه المهمّة، تهاونا من قبله وهو ما جعل الرّشيد يقرّر قتله وهو دليل على شعور الخلافة بالوضع العصيب لحضورها بالجزيرة، ممّا جعله يتّخذ هذا القرار المتعصّب الذي لم يسبق أن حدث لاحد ولاة الجزيرة في السّابق.

---

(7) الآزدي : نفس المصدر ص 262 و 263 وص 252.
(8) تفاصيل الحادثة في نفس المصدر ص 267.

ويبدو أن عبد الملك بن صالح عوّضه، أو تولّى خطّته مباشرة دون نائب في الجزيرة أو نوّاب في الموصل الى سنة 175هـ/791م وهم على التّوالي اسحاق بن محمد وسعيد بن سلم الباهلي من زعماء القيسية بغرب الجزيرة وعبد الله بن مالك الخزاعي أخو حمزة الوالي السّابق على الموصل أو الحكم بن سليمان مع جمع الجزيرة بالعواصم(9) ويبرز الغموض في قائمة ولاّة الموصل بسبب تكليف هذا الأمير لنواب له يسيّرونها باسمه وتوجد إشارة لدى الأزدي، تذكر أن تولية عبد الملك الجزيرة والموصل كان بوساطة من الوزير الفضل بن يحيى البرمكي بطلب ملحّ من هذا الأمير(10).

أمّا فيما يخصّ سياسة الرّشيد بالجزيرة فيمكن تقسيمها طيلة حكمه الى طورين متميّزين طور أوّل قبل سنة 180هـ/796م يتميّز بعدم قدرته على فرض مؤسسات الدّولة بالجزيرة وطور ثاني بعد 180هـ/796م الى سنة 193هـ/808م يتميّز بانتقاله الى الرّقّة- الرّافقة واتخاذها عاصمة للخلافة وتتميّز بسيطرته على الأوضاع بالولاية.

امّا المرحلة الأولى، فتتميّز كما قلنا بضعف حضور الدّولة لقوّة الحركة الانفصالية بالجزيرة بفعل تنامي النّشاط الخارجي وسنحلّل ذلك في الفصل الثالث. لكن ما يهمّنا من خلال هذه الثورات هو ضعف روابط الموصل والجزيرة في حصر الحضور الخارجي يبرز من خلال أحداث ثورة الصحصح الحروري والفضل الرّاداني والوليد بي طريف الشاري.

---

(9) نفس المصدر ص 275 و 269 و 270 ، 273.

(10) توجد تفاصيل الرواية في مقطع هامّ بين ص 262 - 266 من نفس المصدر

وحسب الأزدي، فانه يقدّم رواية ليحيى بن عبد الملك العبدي وهو أحد رواة الجزيرة، أنّ الفضل بن سعيد الزّاداني خرج سنة 173ه/789م ولم تخمد ثورته إلاّ سنة 175ه/791م نجح خلالها في هزم روابط الموصل والجزيرة وسيطر على ديار بكر وربيعة، حيث فرض غرامات ماليّة على مدن المنطقة كمدينة بلد ونصيبين وآمد وأرزن في نواحي أرمينية(11).

وما يجدر الإشارة إليه، أن نجاح الخوارج في تغريم مدن تتواجد فيها حاميات عسكريّة هامّة وذات مواقع منيعة على غرار آمد، أحد أهمّ قلاع الإسلام أو نصيبين التي كانت مشتى المقاتلة العرب بأرمينية لدليل على ضعف حضور الدّولة وعدم قدرتها على توفير أمن السكّان ولم يقتل الخارجي إلاّ بخروج قوّات خراسانية هامّة هزمت الخوارج وقتل زعيمها قرب نهر الزّاب الكبير شرق دجلة(12).

وما تجدر الإشارة إليه كذلك، رجوع الصّراع القبلي بين النّزاريّة واليمنيّة بالجزيرة على غرار ما حدث في تلك الفترة بالشّام، وممّا غذى هذا الصّراع هو اعتماد الخلافة في الأوّل على الزّعامات اليمنيّة بالموصل لقيادة روابطها الموصل وبعض نواحي الجزيرة لفرض إرادتها على القبائل النزارية من ربيعة أساسا فغذى هذا الصراع. وحسب رواية علي بن حرب قاضي الموصل، وصاحب تاريخ حول عرب المنطقة، فإنّ روح بن صالح الهمداني أحد زعماء اليمنية، كلّفه الرّشيد بخطّة

(11) نفس المصدر ص 252 و 275 وص 281 و 282.
(12) نفس المصدر ص 272 و 275.

عامل صدقات بني تغلب الذين بقوا نصارى، وكان لغاراته على هذه القبيلة جعلت تغلب بقيادة حرقل بن محجن تكمن لروح وتقتله. وأدّى قتله الى استغلال اليمنية لمواقعها في السّلطة للانتقام من تغلب بالجزيرة في حملات عسكريّة قادها حاتم بن صالح الهمداني والحصين بن الزبيّر من آل الحسن بن عبادة الهمدانيين مع يمنية الموصل ضدّ «مدن نزاريّة» يبدو أنّها مدن تغلب الكثيرة على الخابور نظرا لأنّ حاتم كان على رابطة في السّكير عبّاس التي كانت على الخابور. وهذا الوضع كان له الأثر السلبي بعد وفاة الرّشيد(13).

فكان اعتماد السّلطة على مجموعة قبليّة دون أخرى للقيام بأعمال أمنية، يدلّ على ضعف الخلافة وعدم قدرتها على الاكتفاء بالجيش النّظامي لحفظ الأمن وجمع الضّرائب وأدّى ذلك الى إنتقال الظاهرة الإنقسامية الى الأطراف المسؤولة في إدارة الولاية.

أمّا أهمّ مظاهر ضعف السلطة في الطّور الأول من حكم الرّشيد فيبرز في كسر الخراج بالموصل حيث ذكر الرّاوي علي بن حرب والمعافى بن شريح الخولاني الذي كان زعيم يمنية الموصل أنّ سبب توقّف وصول الضّرائب يرجع الى نجاح الخوارج في السيطرة على مناطق الموصل وجمع الأموال لصالح الثوّار وأدّى ذلك الى تراجع مداخيل الدّولة من الخراج سواءا الضّرائب العشريّة في منطقة البريّة شرق الموصل و«الربعيّة» في منطقة نينوى والمرج. ويقول الأزدي «وكانت الخوارج تخرج ولا يصل أصحاب السّلطان الى شيء الاّ دون الرّبع، فإذا طولبوا

(13) نفس المصدر ص 268 و 269.

احتجّوا بالخوارج»(14). ويبدو أنّ هذا الوضع كان سائدا كذلك في ديار ربيعة كما أبرزناه في ثورة الرّاداني وهي وضعيّة سادت المنطقة مع بداية ولاية العبّاس بن محمّد على المنطقة ابتداءا من سنة 175هـ/791م(15) فالتجأ الرّشيد الى استدعاء أعيان الموصل لمناظرتهم في بغداد من قبل الوزير يحيى بن خالد البرمكي، حيث رفض تعلّة ثورة الخوارج وقال لهم : «إذا جاءت الغلات نصبتم قصبة وجعلتم على رأسها خرقة وأخذتم الغلاّت وقلتم فعل المارق. والله لا فارقتموني إلاّ على أمر بيّن وعلى ما تؤدّونه كان مارق أو لم يكن...»(16).

وبسبب ضغط السلطة على الزّعامات القبليّة بالموصل، وحبسهم اثناء مناظرتهم للإقرار بالضّرائب التي حدّدتها السلطة واثقال عرب المنطقة بمتأخّرات الضّرائب التي لم يدفعوها إلتجأ بعضهم الى التمرّد والعصيان سنة 177هـ/793م ومعظمهم من يمنيّة الموصل، كالعطّاف بن سفيان الأزدي، وعبد العزيز بن معاوية بن جابر من نواقل أزد البصرة، وبدرويه الرّحبي ومنتصر وحسب رواية للأزدي، فإنّ العطّاف جمع صعاليك البلد، فقام العطّاف بجمع الخراج وحبس عمّال الخليفة، وحول العطّاف تذكر الرّواية أنّه كان من فرسان أهل الموصل وقوّادهم. أي أنّه تقلّد مسؤوليات في قومه ومتقدّم بين الأزد قبل الثورة.

ونجح في تكوين مجموعة هامّة من 4000 متمرّد كانت تسيطر على منطقة الموصل وجنوب أرمينية لتنشر التمرّد في هذه المنطقة(17).

---

(14) نفس المصدر ص 275 - 276 و 279.

(15) نفس المصدر ص 277.

(16) نفس المصدر ص 276.

(17) نفس المصدر ص 279 و 280.

وهذا الوضع تواصل أكثر من ثلاثة سنوات، تورّطت في الثورة الزّعامات القبليّة بالموصل والجزيرة كالمعافى بن شريح الخولاني والذي يمثل زعيم يمنية الموصل وقاضي المدينة أثناء ولاية موسى بن مصعب كما رأينا. وهو الذي ترأّس وفد الموصل عند مناظرتهم في بغداد حول خراجها. ويبرز هذا التورّط في إهدار دمه من قبل الرّشيد سنة 180هـ/796م عند حملته على الموصل(18). ومعنى ذلك أنّ شخصيّات هامّة ذات مسؤوليّات سياسيّة وإداريّة في الولاية، إلتجأت أمام عدم قدرة الدّولة على منع الخوارج في إجباء السّكّان مقابل تعسّفها عليهم على المستوى الضّريبي، إلى الثورة والتمرّد للتخلّص من الأعباء الماليّة الثقيلة في نطاق نظام التّكافل القبلي في دفع الضّرائب والذي أضرّ بقادتهم. ومن الملاحظ، أن من بين المتمرّدين كما ذكرنا، نجد مجموعة من نواقل أزد البصرة على غرار عبد العزيز الذي كان حفيد جابر بن جبلة ابن أخ أبو حمزة الخارجي !

ورغم أنّ جدّ معاوية خارجي، فإنّ أسرته اعتنقت المذهب السّنيّ عند إستقرارها في الموصل، يبرز في وجود مجموعة من المحدّثين السنّة من إشهرهم المعافى بن عمران كبير فقهاء الموصل(19) ورغم انتشار المذهب السّنّي بين نواقل أزد البصرة فلقد بقي تأثير المذهب الخارجي قويّا يبرز في روح التمرّد والخروج على السّلطة كما فعل العطّاف وعبد العزيز. لكن لا يمكن إدراجها ضمن ثورات الخوارج رغم اعتقاد الرّشيد أنّ عرب الموصل خوارج بينما ترتبط ثورتهم باحتجاجهم على الثقل الضريبي، وشعورهم بعجز الدّولة علي فرض مؤسسّاتها

(18) نفس المصدر ص 286.

(19) نفس المصدر : يوجد مقطع طويل حول هجرة أزد البصرة الى الموصل من ص 77 الى ص 101 وحول المعافي بن عمران: ص 301

بالمنطقة بالاضافة الى الضّغائن ضدّ العبّاسيّين التي بقت حيّة بين عرب الموصل بعد مجزرة سكّانها سنة 133 هـ وبقاء روح الثأر متأجّجة في نفوسهم.

وفي نفس الفترة، ظهرت ثورة خارجيّة خطيرة، اعتبرتها المصادر أحد أخطر الثورات في خلافة الرّشيد، وهي ثورة الوليد بن طريف الشاري سيتمّ تحليلها بأكثر افاضة في الفصل الرّابع. وخلاصة القول أنّ هذه الثورة وقعت أثناء ولاية محمد بن العبّاس الهاشمي بين سنة 176هـ/792م و 179هـ/795م (20) وكانت غاية الرّشيد تكليف عمّ أبيه بخطّته القديمة زمن خلافة المنصور لولاءاته القبليّة بالجزيرة خصوصا بين القيسيّة وكان يحضى بالاحترام بين المجموعات الحضريّة والنّصارى كما رأينا. وهو صاحب خبرة ولا يقل قيمة عن عبد الملك بن صالح الذي كلّف بالعواصم. لكن لم يمنع ذلك من انتشار هذه الثّورة والتي تتجاوز إطار الثورة الخارجية فقط كما تبرزها المصادر بل ترتبط بنتائج سياسة الرّشيد بالجزيرة بعد عزل الثغور عنها ونقلها الى العواصم غربا. فأصبحت مقاتلة الجزيرة والمجموعات المهاجرة من العرب الى أرمينية ومناطق الثغور كمجموعة تغلب والقيسيّة، قد فقدت امتيازاتها الماليّة وإقطاعاتها التي تحصّلت عليها من الخلافة مقابل خدماتها الحربيّة ويبدو أنّ الخلافة أنهت الإعفاء الضّريبي عنهم، وتحرّك أعوان الجباية لجمع الضّرائب بينهم، وأحدث ذلك الثورة وجعل هذه المجموعات تتمرّد تحت لواء الخوارج بقيادة الوليد بن طريف التّغلبي. وهي ثورة عارمة امتدّت بين أرمينية والجزيرة وأعالي الفرات حيث ربط الثائرون خروجهم

(20) نفس المصدر ص 279 الى ص 281.

برفضهم «الظّلم» وذكر بيتا للوليد يقول فيه :

أنا الوليد بن طريف الشّاري *** ظلمكم أخرجني من داري (21)

وهذه الثورة ابرزت نجاح عمل «القعدة» من الخوارج في الجزيرة، في نشر دعايتهم بين مقاتلة العرب بسبب إغراء إيديلوجيّتهم الجهاديّة لهؤلاء وتجنيدهم ضدّ الدّولة العبّاسيّة مع إنتهاء المصالح التي تربطهم بها.

ولقد تركّز عمل الخوارج على مجال تغلب وبكر بالجزيرة وأرمينية ولقي مساندة هامّة من عشيرته من بني عمرو بن بكر بن حبيب التغلبيّة ومعظم ديارهم في منطقة الخابور وسط الجزيرة وفي منطقة نصيبين بديار ربيعة ويبرز ذلك في تحرّك الوليد بن طريف في هذا المجال.

واستهدف عمله العسكري مدينة نصيبين التي تعتبر مدينة تغلبيّة وتتواجد بها حامية عسكريّة هامّة من الجيش الخراساني بقيادة إبراهيم ابن خازم وهو ابن القائد الشهير خازم بن خزيمة وكان واليا لأرمينية سنة 178هـ/794م ولم يتواصل هذا الحصار، حيث اتجهت قوّات الخوارج الى أرمينية لنشر الثورة بها وتعزيز قوّاتهم والرّجوع الى الجزيرة من جديد سنة 179هـ/795م للتخلّص من الحضور العبّاسي بالمنطقة، ونجح الوليد إثر حصاره الثاني لنصيبين في اقتحامها وارتكاب مجزرة بين حامية المدينة حيث قتل ابراهيم بن خازم وأعدادا من أهالي المدينة مع إجبارهم على دفع الغرامات الماليّة. ولم يتخلّص السّكّان من أذاهم إلاّ

(21) هذا البيت ذكر في الأزدي : نفس المصدر ص 280 وأحداث الثورة ذكرت في ص 280 - 283.

بتدخّل زعيم التغالبة بها وهو معاوية بن عمرو التّغلبي لفداء أهل المدينة(22) ثمّ جمع الوليد في الجزيرة عشائر تغلب المسلمة لمواجهة القوّات العبّاسيّة.

وأمام خطورة الوضع الأمني بالجزيرة بين عصيان ضريبي في منطقة الموصل وانتشار الثورة الخارجيّة ببقيّة الجزيرة، اتّخذ الرّشيد قرارا فرديّا دون مشاورة البرامكة والمتمثّل في الاعتماد على أحد زعماء قبيلة شيبان وهو يزيد بن مزيد ابن أخ معن بن زائدة والي اليمن السّابق، وكلّف بن مزيد بقمع ثورة الوليد(23).

وكان اختيار بن مزيد الشيباني دون القادة الخراسانيّين يرتبط بفشل الحكم في حصر ثورات عرب الجزيرة، فاختار الرّشيد زعيم أحد أقوى القبائل البدوية المحاربة المقيمة بالجزيرة وأطرافها وهي ترتبط مع تغلب وبقيّة عروش بكر بن وائل والقيسيّة بحلف قبليّ في المنطقة ضمن النزاريّة. ورغم انتشار المذهب الخارجي بين محاربي هذه القبيلة، فإن الرّشيد اعتمد على أحد أبرز قادتها الموالي للعبّاسيين والذي عمل مع عمّه معن بن زائدة زمن المنصور في خدمة هذه الدّولة. وكان توليه هذه المسؤوليّة ترتبط برغبة الخليفة أن يضبط هذا القائد المجموعة النزاريّة في المنطقة وبفرض طاعة الدّولة بينهم.

---

(22) الأزدي نفس المصدر ص 281 و 282.

(23) نفس المصدر ص 282 وتاريخ اليعقوبي ج II ص 411 و 412 والطّبري ج 9 ص 104 والأغاني: ج XII ص 93 الى ص 95.

وهذا النّهج عارضه البرامكة الذين كانوا لا يثقون في هذا الزّعيم القبلي، خوفا من إضعاف حضور الدّولة وتهميش دور القوّات النّظاميّة من الخراسانيّين بالمنطقة.

وهذه المعارضة برزت عند تباطئ بن مزيد في مواجهة الخوارج وحذره الشديد اعتبرها البرامكة تواطئا منه مع الثّائرين لأنّهم من قومه(24)، لكن أصرّ الرّشيد على توليّته واستعجله بالمواجهة. وهو ما حدث في معركة «هيت» التي تقع في أقصى جنوب غربي الجزيرة. وكانت المعركة على النّمط العربي التقليدي، بدأت بالمبارزة بين كبار المحاربين ومنها مبارزة الوليد الخارجي لخصمه اليزيد بن مزيد، انتهت بقتل الخارجي واستسلام الثائرين رغم سعي الفارعة أخت الوليد أخذ ثأر أخيها لكن دون جدوى.

فنجح بن مزيد في اقرار الأمن وإنهاء الخطر الخارجي بالجزيرة وتقول الرّوايات، أنّ الرّشيد اعتمر في تلك السنّة شكرا لله على نهاية هذه الثورة(25) ويدلّ ذلك على الأهميّة القصوى التي أولاها الخليفة لإنهاء هذه الثورة. وفي خطوة ثانية وكحلّ راديكالي لإنهاء الثورات وقمع الحركات الانفصاليّة بالجزيرة، قرّر الخليفة، نقل عاصمة الخلافة من بغداد الى الرّافقة وارتبط نقل مقرّ الخلافة الى

---

(24) نفس المصدر ص 282 و 283.

(25) الطبري : نفس المصدر ج 9 ص 114 ويذكر الأصفهاني في كتاب الأغاني : تفاصيل المعركة في خبر مقتل الوليد بن طريف الشاري ج XII ص 93 الى ص 95.

الرّافقة بنجاح جعفر بن يحيى البرمكي في إنهاء الفتنة القبليّة بين النّزاريّة واليمنيّة بالشّام سنة 180هـ/796م وأراد الرّشيد التفرّغ للحركة الانفصاليّة بالجزيرة.

ونستبعد رأي فاروق عمر في مقاله حول الرّشيد بالموسوعة الإسلاميّة والذي يربط نقل مقرّ الحكم الى الرّافقة بسبب التدهور الأمني بالشّام(26) لأنّ هذا القرار تمّ مع إنهاء جعفر للفتنة القبليّة ولأنّ الأحداث التي ارتبطت بتحرّك الرّشيد الى الرّافقة، تثبت أنّه كان يستهدف بهذا القرار السيطرة على الأوضاع الأمنيّة بالجزيرة. ولقد تحرّك الرّشيد نحو الرّافقة بقوى عسكريّة رهيبة استهدفت في الأوّل مدينة الموصل بسبب ثورة محاربيها على الخلافة وكان قراره الأوّل هو إبادة سكّانها على غرار عمل يحيى بن محمد سنة 133 هـ الفظيع على أهل الموصل(27).

ورغم عدم ذكر الطّبري لهذه الأحداث، فإنّ الأزدي، يذكر شخوص هارون للموصل فلمّا وصل بقواته الى الحديثة جنوبا، أراد العطاف ورفاقه أن يهاجموا المعسكر ليلا إذا نزلت قوّات الرّشيد مرج جهينة شرق الموصل، لكن تدخّل مشايخها لاثنائه عن هذا العمل الطّائش واتّجه وفدا منهم الى معسكر الخليفة يترأسهم إمام الجامع الكبير العبّاس بن الفضل الأنصاري وموسى بن مهاجر صاحب سفيان الثوري وقابلوا وجوه اليمنية في الجيش والقاضي أبو يوسف

(26) مقال هارون الرّشيد في EI2. ج III ص 239 - 240. لفاروق عمر.
(27) الأزدي : نفس المصدر : ص 285 و 286 ونفس الرّوايات في ابن الأثير: الكامل ج VI ص. 151 - 152

ليشفعوا لأهل الموصل أمام الرّشيد. وهذا المسعى، نجح في اثناء الخليفة عن ارتكاب المجزرة بين السّكان. واستعمل أبو يوسف الحيل، بأن أسمعه بجوار الموصل أصوات مؤذنيها وأقنعه بدخول المدينة ليلا وقتل من يعترضه في شوارعها فنجى أهلها من الابادة واستثنى الخليفة من هذا القرارالبعض منهم وقرّر إهدار دم زعماء الثورة وهم العطّاف وعبد العزيز بن معاوية وقاضي الموصل السابق المعافى بن شريح وبيرويه ويعلى الثقفي. ومعظمهم كما بيّناه زعماء اليمنيّة بالمنطقة. أمّا المعافى، فلقد شفع عنه وجوه اليمنية من حاشية الرّشيد ليستبدل هذا الحكم بسجنه طيلة سنة. وبقيّة الثوّار تمت مطاردتهم وحجز أملاكهم(28).

ولم يمنع قرار عفوه عن السكّان من أن يعيّن على الموصل والي مشدّد من القيسيّة وهو يحيى بن سعيد الحرشي وكان من بني عامر وتولّى منطقة يسيطر عليها اليمنيّة!

وكان هدفه من هذا التعيين كسر شوكة القبائل اليمنية والانتقام من محاربيها، وقام بعزل القاضي إسماعيل بن زياد «لهواه مغ أهل الموصل» كما يقول الأزدي. وهدم سورها(29) لمنع أي تمرّد في المستقبل.

واتجه اثرها للرافقة للاستقرار بها بقوّاته العسكريّة وأراد بذلك تحقيق هدفين بعد كسر حركة التمرّد :

---

(28) نفس المصدر : ص 286.

(29) الأزدي: نفس المصدر ص 286 و 287 وخبر هدم صور الموصل ذكره الطّبري : نفس المصدر ج 9 ص 114 وذكر سبب الهدم لثورة الخوارج دون توضيح.

ـ ارجاع الأمن بالجزيرة ولقد تحقق هذا الهدف مع حملة بن مزيد على الخوارج واخضاع أهل الموصل وبقي للخليفة اخضاع المنطقة الى مؤسسات الدّولة والتفرّغ الى بقيّة القوى الانفصاليّة بالجزيرة والشام. وتبدو هذه الغاية واضحة في سياسة الرّشيد طيلة إقامته بالرّافقة. وكذلك في أقواله، أبرزها ما ذكره لأحد الأبناء في بغداد سنة 189هـ/804م عندما سأله سبب إسراعه في مغادرة بغداد عند قدومه من الرّيّ وارتحاله للرّافقة فكان ردّ الرّشيد «ولنعم الدّار هي (أي بغداد) ولكنّي أريد المناخ على ناحية أهل الشقاق، والنّفاق، والبغض لأئمة الهدى، والحبّ لشجرة اللعنة بني أميّة مع ما فيها من المارقة والمتلصّصة، ومخيفي السّبيل ولولا ذلك ما فارقت بغداد ما حييت ولا خرجت عنها أبدا...»(30).

وفي هذا القول، يبين الرّشيد أنّ سبب مقامه بالرّافقة يرتبط بوجود معارضة قويّة من أهل الجزيرة للحكم العبّاسي، يصفهم بنفس أوصاف الحجّاج لأهل العراق، بأنّهم أهل الشقاق والنّفاق، مع بقاء حبّهم وولائهم لبني أميّة، ويبدو أنّ الحكم شعر ببقاء هذا الولاء للأمويّين حيّا بين السّكان يتذكّرونه، لأنّه يمثّل العصر الماضي الذّهبي لعرب المنطقة، حيث كانوا أصحاب نفوذ وحظوة في الخلافة. ورغم عدم وجود تيّار سياسي بالجزيرة والشّام، سعى الى إرجاع الحكم الأموي، فإنّ بروز الإمارة الأمويّة بالأندلس في أسرة عبد الرحمان بن معاوية بن هشام، يمثّل خطرا محدّقا بالجزيرة، وقنسرين، حيث كانت لبني هشام بن عبد الملك عديد الموالي خصوصا بالرّقّة مع بقاء تعاطف الزّعامات القيسية، لهذه الأسرة وانتقال البعض

(30) الطّبري : نفس المصدر ج 9 في أحداث 189 هـ ص 166 و 167.

منهم الى الاندلس، استعملهم أمويّوها لبناء إمارة قويّة في الغرب الإسلامي وهذا ما أخاف الحكم العبّاسي من إمكانيّة استقطاب أتباع الامويّين للمعارضة بالجزيرة في ظلّ وجود علاقات بين الإمارة الاموية وبعض الاطراف النّافذة من عرب الجزيرة والشام رغم غموض تفاصيل هذه العلاقة بسبب سكوت المصادر عنها، فإنه تبرز هذه العلاقة كهاجس خفيّ لدى الخلفاء العبّاسيين منذ حكم المنصور وتكرّر إتّهام عرب الجزيرة والشّام بحبّهم للشجرة الملعونة ! والعنف الممارس على كلّ من يتّهم بولاءه لبني أميّة.

كما يشير الخليفة هارون الى انعدام الأمن بالمنطقة لقيام بعض المحاربين من العشائر البدوية بعمليّة الصّعلكة. ويبدو أنّهم من المقاتلة الذين لم يندمجوا في صفوف الجيش النّظامي ولم يجدوا حظّهم بين عشائرهم فالتجأوا الى أعمال اللّصوصيّة وقطع الطّرق للاضرار بالحركة الإقتصاديّة بالمنطقة وتهديد المسالك التجارية الكبرى التي تمرّ بالجزيرة.

كما يشير إلى عمل المارقة وهم الخوارج الذين جعلوا من الجزيرة مركز نشاطهم ضد الخلافة. وهذه الاسباب كانت وراء انتقاله الى الرّافقة.

وتذكر المصادر أنّ خطّة انتقاله الى الجزيرة والبحث عن موطن له ترجع الى السّنوات الاولى من حكمه، حيث خرج الرّشيد سنة 174هـ/790م إلى منطقة باقردي وبازبدي شمال الموصل والتي عرفت في القرن IIIهـ/9م بجزيرة ابن عمر،

وبنى هناك قصرا ومسجدا ويذكر الأزدي شعرا، يبرز فيه أنّ الرّشيد كان منزعجا من حرّ بغداد واختار هذا الموقع لاعتدال طقسه لكن عدل عن هذه الإقامة(31).

وتوجد محاولات أخرى كانت واحدة منها خارج الجزيرة في الحيرة جنوب العراق. ليختار الإستقرار بالرّافقة سنة 180هـ/796م التي أشرف على بناءها أبوه المهدي أيّام خلافة المنصور كما حلّلناه.

أمّا السّبب الثّاني الذي دفعه الى نقل الخلافة الى الرّافقة، فهو يرتبط برغبته في التفرّغ الى الأعمال الحربيّة ضدّ العدوّ والبيزنطي ليواصل ما قام به أثناء خلافة المهدي ولقد ترك شؤون الحكم جزءيا الى البرامكة. وكان طيلة إقامته بالرّافقة يقوم بحملات شبه سنوية إمّا بقيادته المباشرة أو تحت إشراف كبار قادته وأبناءه داخل الأراضي البيزنطيّة. ويعتبر عبد الحيّ شعبان، أنّ سبب نقله عاصمة الخلافة الى الرّافقة يرتبط أساسا بهذا المعطى بالإضافة الى خوفه من نفوذ «الأبناء» ببغداد رغم أنّنا نستبعد هذا الرّأي الثاني(32).

ويبدو واضحا أنّ مع الهاجس الأمني بالجزيرة وأطرافها كان الرّشيد منشغلا بوضع الثغور بعد الإصلاح الجذري الذي اتّخذه في بداية حكمه ورغبته في إضفاء شرعيّة للحكم العبّاسي وبريقا لحكمه لاستغلال الإيديولوجية الجهادية لتوطيد سلطته ولرجوع الخطر الخزري وطموحات الأسرة الإيزورية ببيزنطا لدعم

---

(31) الأزدي : نفس المصدر : ص 274.

(32) كتاب عبد الحيّ شعبان : الدّولة العبّاسيّة والفاطميّون ص 46 و 47.

نظامها الدّفاعي ضدّ المسلمين. وتمثّل فترة إقامة الرّشيد بالجزيرة نقلة نوعية في حضور الدّولة بها.

وعلى غرار ما فعل بالموصل، فلقد عزل الخليفة عمّ أبيه العبّاس بن محمد عن الجزيرة بسبب كبر سنّه وعدم نجاحه في السّيطرة على الوضع الأمني بالولاية، ليصبح من حاشية الرّشيد في الرّافقة الى وفاته سنة 186 هـ ويبدو أنّه كان مستشارا في الشؤون العسكريّة ضدّ بيزنطا وأمور الجزيرة لقدم تجربته وتمّ تعويضه بسعيد بن سالم من 180هـ/796م الى 183هـ/799م ثمّ والي قيسي وهو خازم بن خزيمة الذي كان على الجزيرة وقنسرين(33).

وهدفه من ذلك التشدّد الضّريبي على أهالي الجزيرة وتوفير قوّات عسكريّة نظاميّة مرابطة بالرّافقة لكلّ من والي الموصل والجزيرة للقيام بمهام أمنيّة وكبح جماح القبائل الثائرة وفرض حضور الدّولة وما أقرّته الإدارة المركزيّة من ضرائب كما قام به موسى بن مصعب مع أهالي المنطقة في عهد المنصور.

وتوجد معلومات ضافية لهذا الوضع في منطقة الموصل، حيث يذكر الأزدي، أنّ الحرشي «عسف على البلاد» وأدّى تشدّده الضّريبي، وأعمال الإعتقال للثّائرين الى إجلاء جزء من القبائل العربيّة عن الجزيرة وهروبها إلى أذربيجان. وهذا الوضع وصل الى حدّ أن قرى ومدن معمورة بالمنطقة بادت كسطرنيّة

---

(33) حول خبر موت العبّاس الرّجوع الى الأزدي نفس المصدر ص 303 وحول ولاة الرّشيد ص 289 و 303 ويذكر الأصفهاني في الأغاني ج XVIII ص 218 و 219 أنّ سعيد بن سلم كان من خاصّة الرّشيد في الرّقة.

وعرستاباد و«هاعلة» و«باتليّ» وغيرها من القرى الكثيرة التي تمتدّ شرق الموصل. وكانت نتيجتها جمعه مبالغ ضخمة من أعمال الحجز للأملاك والتعسّف الضّريبي والتي تشبه كل ما ذكره التّلمحري في عمل بن مصعب في عهد المنصور. ووصل الى جمع ثلاثة أضعاف أموال الخراج السّنويّة في سنة واحدة ! وكانت في حدود 6 ملايين درهم حملها الوالي الى الرّافقة للخليفة(34).

وتواصل عمل والي الجزيرة وعمّاله لاستئصال الحركة الخارجيّة من المنطقة واليقظة الكاملة لأيّ تحرّك لقوّاد هذه الحركة المعارضة. ونجح سعيد بن سلم في التخلّص من جماعة خارجية بقيادة خراشة، والقضاء على ثورة أبو عمرو الشاري في منطقة شهرزور التي كانت تابعة للموصل وفصلت عنها في فترة إقامة الرّشيد بالرّافقة، كما تمّ القضاء سنة 187هـ/802م من قبل قوّات الخليفة على ثورة خارجيّة بمنطقة آمد(35).

أمّا الرّشيد، فلقد استغلّ إقامته في الرّافقة لتوسيعها لتكون مدينة ملكيّة. ورغم أنّنا سنرجع للحديث عن الرّافقة والرّقة، فإنّ ما اكتشفه المؤرّخ ماينكي Meinecke من حفريّات الرّقة ـ الرّافقة عن وجود آثار مركّبات عسكريّة وملكيّة شمال الرّقّة تثبت أنّ الرّشيد تجاوز حدود الرّافقة التي بناها أبوه ليتوسّع شمالا وبنى منشآت ضخمة تجعل من الرّقة ـ الرّافقة، أكبر حجما من بغداد، قادرة على جمع قوّات عسكريّة ضخمة تتجاوز 100 ألف مقاتل ! من أجل

---

(34) الأزدي نفس المصدر ص 286 الى 288.

(35) نفس المصدر ص 291 وص 299.

تحقيق الغاية الأمنيّة بالمنطقة والعمل العسكري الموجّه ضدّ البيزنطيين(36).

أمّا على مستوى سياسته في المنطقة، فلقد كان هدفه إنهاء ثورات الخوارج كما رأينا وإنهاء التسيّب الأمني، ولقد نجح نسبيّا في ذلك بفضل قوّة الحضور العسكري. واستهدف في منطقة الموصل، إضعاف نفوذ اليمنية بها التي تورّطت كما رأينا في الثورة الضّريبيّة على حكمه. وكان نفوذها يمتدّ على أجزاء من أرمينية وأذربيجان. ولتحقيق هذه الغاية، فلقد غيّر الوالي سعيد الحرشي بسبب عدم حظوته بين حاشية الرّشيد في الرّافقة، رغم ما قام به من أعمال انتقاميّة على أهل الموصل وعوّضه بأحمد بن يزيد بن أسيّد السّلمي الذي عرف بانحيازه وتعصّبه للنّزارية. وكان وراء تعيينه في هذه الخطّة الوزير يحيى بن خالد البرمكي. وتمثّلت سياسته في تأليب النّزاريّة في الموصل الذين كانوا أقليّة على سلطة اليمنيّة ودفعهم لمواجهتهم عسكريّا. ولم يجد بين النّزاريّة حسب روايات الأزدي من يتورّط في حرب قبليّة فلم يجد بدّا إلاّ القيام بحملة إعتقالات على زعماء اليمنية وشنّ حملات عسكريّة على حصونهم ومعاقلهم بالجهة كحصن السّلق (وهو حصن على جبل يشرف على الزّاب الكبير) وحبتون وهو على جبل بنواحي الموصل وكان لهمدانيّة الموصل بقيادة حاتم بن صالح الهمداني(37).

---

(36) مقال E.I.2 : ج VIII ص 425 الى ص 428 واعتمدماينكي أساسا على أعمال الحفريّات دون استغلال جيّد للمصادر ويذكر الأزدي أنه كان مع الرّشيد 100 ألف مقاتل من أهل الشام والجزيرة والخراسانية نفس المصدر ص 309.

(37) الأزدي : نفس المصدر ص 286 - 288.

وممّا يدلّ على تورّط الحكم في هذا العمل وجود هرثمة بن أعين صاحب الحرس الخاصّ للرّشيد بالرّقة - الرّافقة، بالموصل مع قوّات عسكريّة هامّة من الخراسانيّة. ووجوده جعل الأزدي يدرجه ضمن ولاة الرّشيد على الموصل في سنة 182هـ/798م وسنة 185هـ/801م وكان نائبيه بها أحمد بن يزيد السّلمي وعمرو بن الهيثم ويبدو، أنّه كان متواجدا لقمع ثورات اليمنية بالجهة وتوجد رواية لمحمد بن المعافى بن طاوس أنّ جدّه دخل على هرثمة والي الموصل فلم يحسن مخاطبته فقال: وكانت بيده عمود حديد يقلبه، فرأيت الموت....»(38) وهذه الرّواية تبرز قساوة هذا الوالي في التّعامل مع يمنيّة الموصل. وكانت سياسة إضعاف الحضور اليمني لم تقتصر على منطقة الموصل بل امتدّت الى أرمينية، حيث عيّن الخليفة والي قيسي وهو يوسف بن راشد السّلمي الذي نقل إليها القيسيّة ثمّ ولّي من بعده يزيد بن مزيد الذي نقل إليها بنو شبيان والرّبابعة، فأصبحت اليمنية في أرمينية في وضع أقليّة بعد أن كان لها نفوذا وحضورا قويّا جنوب أرمينيّة(39).

ومع ولاية يزيد بن مزيد على الموصل وأرمينية سنة 184هـ/800م على أقرب تقدير، سلك سياسة إضعاف الحضور اليمني بالموصل لكن بأكثر اعتدال من ولاة الرّشيد الذين سبقوه على هذه المنطقة خوفا من حدوث مواجهة شاملة بين النّزاريّة واليمنيّة حيث فاوض حاتم بن صالح الهمداني ووجوه اليمنية في شهرزور لإقامة صلح معهم بعد سلسلة من المعارك التي خاضها ضدّ هذه المجموعة.

(38) نفس المصدر ص 252 وحول ولاية هرثمة وأحمد بن يزيد السلمي وعمرو بن الهيثم الرّجوع الى ص 295 الى ص 303 .
(39) تاريخ اليعقوبي ج II ص 426.

لكن رفض الرّشيد في الرّافقة هذا الصّلح وردّ عليه عسكره ليتولّى جيش الخليفة أعمال الحرب ضدّ اليمنيّة بقيادة القائد المسّيب حيث دارت معارك طاحنة بين الطّرفين وكان المسيّب راغبا في اعتقال حاتم وإبادة محاربي المجموعة اليمنية. فالتجأ يزيد بن مزيد الى الانتقال للرّقة الرّافقة مع وفد من اليمنيّة فيهم حاتم، ليقدّموا الولاء والطّاعة للخليفة وإبداء حرصهم لخدمة الدّولة العبّاسيّة بعد وساطة قام بها وجوه اليمنيّة من حاشية الرّشيد على غرار يزيد بن حاتم الهلبي. ونجحت في إثناء الرّشيد عن اضطهاد اليمنيّة وإرجاع زعمائهم إلى مهامهم السّابقة، حيث أكرم الخليفة في مقامه بالرّافقة حاتم الهمداني ووهب له خراج سنة(40).

أمّا الطّبري، فإنّه يركّز في حديثه عن سنوات إقامة الرّشيد في الرّقّة الرّافقة على عمله الحربي ضدّ البيزنطيّين والخزر مع رجوع الحرب ضدّ هذه القبائل التركيّة سنة 182هـ/798م أثناء ولاية الفضل بن يحيى البرمكي على أرمينية واضعاف النّظام الدّفاعي البيزنطي مع إفشال الحلف الخزري - البيزنطي. وهذا العمل بقي متواصلا، الى نهاية حكم الرّشيد حيث تواصلت حركة الصّوائف سنويّا، وبنيت معاقل جديدة غرب الثغور الجزريّة في شمال الشام وأشرف بنفسه في حملة 181هـ/797م على فتح حصن الصفصاف وفي حملة 190هـ/805م فتح حصن هرقلة. وكلّف لقيادة الحملات في بقية السّنوات أبناءه المأمون والقاسم والأمير عبد الملك بن صالح قبل سجنه في سنة 187هـ/802م وكذلك ابن عبد الملك عبد الرّحمان الذي كلّف ببعض الصّوائف(41).

---

(40) نفس المصدر ص 299 الى 300.

(41) الطّبري - نفس المصدر : ج IX ص 117.

ولمنع الخزر من التوغّل في الجزيرة، فلقد عزّز الحضور العسكري بها مع ولاية يزيد بن مزيد سنة 183هـ/799م وكلّف خزيمة بن خازم بقيادة قوّات عسكريّة احتياطيّة مقيمة بنصيبين، ردءا لأي طارئ، ويبدو أنّ ابن مزيد نجح في صدّ هذا الخطر، وكان مقيما ببرذعة مع جموع هامّة من محاربي قبيلة شيبان وعند وفاته بها سنة 185هـ/801م عوّضه ابنه أسد في نفس الخطّة(42) وهي نفس السّنة التي توفّي فيها عبد الصّمد بن علي الذي كان عمّ جدّ الخليفة هارون ! وكان واليا على الجزيرة في خلافة المهدي وهو شيخ بني هاشم(43).

وأثناء إقامة هارون بالرّقّة - الرّافقة، أقام بها جهازه الإداري المركزي، ولا يمكن أن نتحدّث عن ولاة حقيقيين بالجزيرة. لأنّ إدارة الولاية، أصبحت تسيّر مباشرة من قبل الإدارة المركزيّة وأصبح ولاتها يتبعون مباشرة الخليفة كما كان سائدا في العراق قبل انتقال الخلافة الى الجزيرة.

ولقد أقام الرّشيد مدينة ملكيّة وحاشية لنا رجوعا إليها في فصل لاحق.

ولقد أطنبت المصادر في وصف مجالس الآدب واللّهو التي تبرزها المصادر لكن تخفي عنّا حقيقة نشاط الخليفة الذي كان يستهدف الحركات الإنفصاليّة بالجزيرة ويعمل من أجل سيطرة الدّولة على الأوضاع بالمنطقة، وتوجد بعض الإشارات التي تؤكّد الطّابع الدّموي لسياسة الرّشيد بالجزيرة حيث ذكر الإصفهاني في خبر الشاعر أشجع السّلمي الذي كان بصريّا ووافى الرّقة لمدح

---

(42) نفس المصدر ج IX ص 120.

(43) الأزدي : نفس المصدر ص 271 الى ص 273.

الخليفة. أنّه دخل على الرّشيد في قصره مع بعض الشعراء والمغنّين لمدحه حول إنتصاراته ضدّ البيزنطيّين، فوجد الخليفة محاطا بالجند من أصحاب الأعمدة، وكان قد ضرب أعناق قوم قرب عرشه، فجعل أشجع يتخلّل الدّماء لكثرتها حتّى اقترب منه. فمدح الخليفة في قصيدة يهجوا فيها نقفور الإمبراطور البيزنطي(44).

ولا توضّح الرّواية صفة المقتولين، والأقرب أنّهم من المعارضين الذين قبض عليهم بهذه المنطقة. وإشراف الرّشيد المباشر على أعمال القتل والتنكيل بمعارضيه تدلّ على الطّابع الدّموي لنشاطه بالجزيرة.

كما توجد رواية ثانية في نفس المصدر، تبرز حرص الخليفة على التّنكيل ببعض العشائر المتمرّدة حيث ذكر الحسين بن داود الفزّاري وهو من رواة الجزيرة، أنّ أخوين من فزارة كانا يخفران قرية بين آمد وسميساط يقال لها : تلّ حوم. واتّفق بعض المحاربين من ربيعة على قتلهما لأنهما يخفران في مجال مجموعتهم فقتل أحدهما. ونجى الثاني، فقام بالتشكّي بهم عند والي الجزيرة عبد الملك بن صالح ويبدو أنّ ذلك حدث أثناء ولايته الثانية على الجزيرة عندما كان نائبا للقاسم على الجزيرة والعواصم سنة 186هـ/802م فكلّف عبد الملك أحد قوّاده وهو أبو عصمة «لتجريد السّيف في ربيعة» فخرج وقتل منهم مقتلة عظيمة. وكان هذا الحادث وراء نعي العتّابي التغلبي قومه في بلاط الرّشيد(45) وترتبط هذه الرّواية مع رواية ثانية ذكرها الاصفهاني تبرز تنكيل الرّشيد بمجموعات ربيعة

---

(44) نفس المصدر : ص 290 الى ص 313 حيث يبرز غموضا في قائمة الولاة ومعظمهم قادة عسكريّون يتولّون هذه الخطّة بعض الأشهر.
(45) الأصفهاني : نفس المصدر ج XVIII ص 231 - 215.

* الضرائب الشائعة (المجبى ، الهوى ، الضيافة ، خيل العادة) :

– المجبى : تبين الوثائق أن مدحول المجبى بالوطن القبلي مقسم بين القرى و العروش و يدفع لدار الباشا فقط في شكل رواتب محددة . فمثلا قدم مشائخ أولاد محمد لهذه الخزينة 1½ 1713½ ريال باسم "المجبه" في 1181ه ، بينما سدد "شراعية الدحلة" 248½ ريال في نفس العام (193) . و استخدم الكتبة أحيانا عبارة "مطالبهم" ، لكن المقدار المذكور لا يشمل باقي الأداءات . و كون "الخلاصة" و المشائخ همزة وصل بين الرعية و السلطة ، إذ سدد الشيح علي بن الحاح و الخلاص فرح الكلبوسي 748¾ ريال من "النصف الأول" لمجبى بني حيار في ربيع الأول و الثاني 1181ه ، و دفع المبروك شيخ الجالة 166½ ريال من «...بقية دار الباشا...» أثناء شهر صفر . بينما قدم بوبكر شيخ عرش زياد 10 1872¾ ريال في أربعة أقساط «...من النصف الأول من مطالبهم...» في العام المذكور (194) .

و في عام 1181ه بلغ مجبى الحمامات آلف ريال و سدده الشيخ علي العري على ثلاث "رواتب" (محرم ، ربيع "الأول" ، جمادى الأولى) متساوية ، باعتبار 3 333⅓ ريال للقسط الواحد . و حدد مجبى دار شعبان آنذاك ب 600 ريال ، مقابل 2 162 ريال بالسبة للصمعة و 121 ريال لأهل القصر (قليبية) . بينما كان مقدار مجبى المعمورة 224¾ ريال حسبما دفعه الخلاّص أحمد بن عبدالله . و قبض كتاب دار الباشا في هذه السنة المبالغ الآتية مبوبة على ثلاثة "رواتب" : 12. 484¾ ريال من أحمد القلال "خلاص المرجع" و 1087½ ريال من قاسم ثراية "حلاص بوغدير" 10 3½ ريال ، مقابل 907½ ريال فقط بالنسبة لعلي الأحمر "خلاص الزاوي" . كما سدد علي البغلي شيخ قربة في ذلك العام 682 ريال باسم المجبى (المطالب) ، و أعطى محمد بوسامة شيخ منزل تميم 176 ريال «...من المجبا هذا العام...» (195) .

يبدو أن المجبى بالوطن القبلي وزع استنادا إلى عدد أفراد القرى أو العشائر ، لأن هنالك ضرائب أحرى تتعلق بممتلكاتهم العقارية و غيرها . فمثلا بلغ مجبى "طياش" أولاد سعيد بالمنطقة 13083¾ دينار أي ما يساوي قرابة 90% من جملة مطالبهم (14583¾ ريال) ، و قسم ذلك المبلغ بصفة متفاوتة على 26 عشيرة مثلا البياضات (561 دينار) و لواتة (260½ دينار) و القيطان (809 دينار) و أهل حميع (581 ريال) و البعيرات (440¼ دينار)...إلخ (196) . و يبدو أن المجبى لم يتشكل العبء الأكبر من مطالب أهالي القرى : فمثلا كان مجبى المنزل 1076¾ ريال سنة 1182ه أي ما يساوي قرابة 16,50% من جملة مطالبهم ، و هو مقسم إلى سبعة رواتب يساوي كل منها 5 153¾ ريال (197) .

–"**محصول الهوا**" : لقد ورد هذا الأداء في صيغة "**الهوى**" و "**محصول الهوى**" . و يمثل ضريبة قديمة غير واضحة في مفهومها و كيفية توزيعها ، و لعل العثمانيون ورثوها عن النظام المالي الحفصي . إن "الهوى" متعارف منذ العهد المرادي و يصنف ضمن المطالب العادية لأغلب القيادات ، لكن دلالته غير

موحدة . و استند الأستاذ البشروش في تفسيره له إلى ما قاله ابن أبي الضياف في القرن التاسع عشر ، إذ يعرفه بكونه "أداء يدفعه السكان عن طيب خاطر" (198) . و هذا لايبدد الغموض الذي يكتنف الضريبة المذكورة ، و سنحاول الآن توضيحها بالنسبة للوطن القبلي .

إن كافة قرى المنطقة تؤدي "محصول الهوى" ، و كلمة المحصول تعني المدخول الناتج عن جباته هذا الأداء . فقد بلغت عائداته في 1181ه بالحمامات 90 ريال سددها الشيخ علي الفري في مناستين (24 صفر ، 21 شوال) ، و 15 ريال في بني حيار على يد الشيخ علي بن الحاج احمد . و دفع الحاج علي الشلي 7 313½ ريال باسم تلك الضريبة بنابل في أربع كرات (4 ربيع الثاني-22 شعبان) ، مقابل 19 ريال أداها سالم شيخ الصمعه و محمد برينيص "خلاّص" المكان في جمادى الثانية . بينما ارتفع "هوى" المنزل إلى 3 420¼ ريال خلال فترة 1181-1183ه ، منها 10 170¾ ريال تخص العام الأول دفعها الحاج رمضان الصندلي في خمسة أقساط . و كانت عروش الدخلة تؤدي نفس الضريبة ، إذ بلغ "محصول هوا" عرش زياد 74¼ ريال في 1181ه (199) .

تلمح الوثائق إلى كون "الهوى" ضريبة جماعية تحملتها المجموعات ، و يتولى المشائخ توزيعها على أفراد القرية أو العرش . إذ بلغ "محصول هوى" منزل تميم 3 29¾ ريال في 1181ه على يد شيخهم محمد بوسامة ، مقابل 125 ريال بالنسبة لأهل قليبية (200) . و لا ندري ما هي المقاييس التي اعتمدها البايليك في ضبط قيمة ذلك الأداء و كيفية توزيعه . و لعله راعى الوزن البشري و الثراء المادي عند تقسيم "الهوى" مثلما هو الحال بالنسبة للمجبى . فمثلا سدد محمد بن سلامة شيخ المعمورة 16 ريال باسم «...محصول هوا من الحاج محمد الزياني و ولده و بن بعطوط...» في الخامس حمادى الثانية 1181ه ، و دفع الوكيل علي الدبابي 20 ريال في 18 حمادى الثانية تخص"محصول هوا" هلال النواي من بني حلاد . إن جباية هذا الأداء تبدو غير مقيدة زمنيا ، إذ يحاسب المشائخ على مدخولها تقريبا كل شهر . فمثلا نمت دفوعات الحاج أحمد اللونقوا شيخ سليمان سنة 1181ه باسم "الهوى" (442 ريال) كالآتي : 106 ريال في غرة صفر «...محصول الهوى عن ثلاثة أشهر تمامهم محرم...» ، 100 ريال في 24 جمادى الأولى «...محصول هوا عن شهرين فارطين...» ، 185 ريال في الخامس رمضان عن «...محصول هوا عن جمادى الثاني و رجب و شعبان...» ، و 51 ريال في 23 شوال «...محصول هوا عن رمضان...» (201) .

-"**الضيافة**" : تعرف أيضا باسم"**الضيفة**" أو "**ضيافة الباشا**" ، و لعلها فرضت خلال العهد الباشي . و هي أداء قار بالمنطقة : إذ سدد علي الفري شيخ الحمامات 54 ريال في 24 صفر 1181ه باسم "ضيفة الباشا" ، مقابل 6 40½ ريال قدمها أحمد زقيدة شيخ الهوارية في آخر ربيع الأول (202) . و كانت المبالغ المدفوعة "من الضيفة" في العام المذكور : 359 ريال من الحاج علي الشلي شيخ نابل ، و 108 ريال

بالاضافة الى أن قتل جعفر بن يحيى واعتقال افراد هذه الأسرة مع المقرّبين لهم تمّ في نفس الأيام الذي اعتقل فيها عبد الملك صالح (51) وهو ما يدفعنا الى ربط الحدثين باكتشاف الرّشيد هذه المؤامرة. فهل في شهادة قمامة الكاتب وعبد الرّحمان ابن عبد الملك، ذكر فيها تورّط البرامكة ؟ تبدو أنّها فرضيّة قويّة، تضيء الغموض الذي يحيط بهذه النكبة.

وفي خبر غضب الرّشيد على عبد الملك يذكر مآخذ أخرى وهي :

- غروره وطموحاته الكبيرة في الحصول على مزيد من النّفوذ داخل جهاز الحكم، حيث سعى لتولّي العواصم والجزيرة، وأصبح يقود حركة الصوائف في بعض السنوات هو وابنه عبد الرحمان، ويتصرّف بقوّات عسكريّة رهيبة مع ربطه لشبكة علاقات هامّة مع عرب الجزيرة والشام(52).

- إيقاعه بين الأمين والمأمون بشهادة صاحب الشرطة عبد الله بن مالك، وكان وراء فرض القاسم كوليّ عهد ثالث وكان كفيله(53).

- إتّهام الرّشيد، عبد الملك بتقرّبه الى عرب الجزيرة والشام حسب رواية لليعقوبي وقرّب إليه القيسيّة ممن عرف عنهم حبّهم لبني أميّة كآل زفر بن الحارث الكلابي وآل مسلمة بن عبد الملك، إضافة الى شعبيّته بين عرب المنطقة. وقد ذكر الرّشيد لعبد الملك عندما كان يحقق معه بالقول :

---

(51) الطّبري : نفس المصدر ج 9 ص 145 و 146.
(52) الطّبري : نفس المصدر ج 9 ص 86 و 88 و 102 و 116 و 17 والاصفهاني ج ٧ ص 408 الى ص 410.
(53) الطّبري : نفس المصدر ج 9 ص 122.

ما أنت لصالح : قال لمن أنا ؟ قال : لمروان الجعدي ولم ينفي عبد الملك التهمة وقال : ما أبالي أيّ الفحلين غلب عليّ ! فذكر الرّشيد أنّه لولا قرابته لأعدمه في الحال ! (54).

وتمّ اعتقال البرامكة في الأوّل في دير القائم، التابع للكنيسة اليعقوبيّة بالرّقّة ثمّ شدّد عليهم وحملوا الى سجن في الرّقّة بينما بقي عبد الملك مسجونا في قصر الخليفة، يبرز في الحوارات الكثيرة التي أجراها معه في القصر الملكي(55).

وأدّت نكبة البرامكة وسجن عبد الملك الى اعتقال وعزل عدد هائل من المسؤولين والقادة العسكريّين ومن بطانة الرّشيد ممّن كان يجالس البرامكة بالرّقّة. وتوجد قائمة كبيرة من هؤلاء ذكرت في بعض السّير لشعراء وندماء الرّشيد في كتاب الأغاني أو من ذكرهم الطّبري في نكبة البرامكة. وأبرزهم إبراهيم بن عثمان بن نهيك الذي كان ينوب الرّشيد أثناء غيابه على الرّقة حيث أشرف على قصوره وحرمه وخزينة المال سنة 186 هـ وولي الجزيرة لفترة(56) أو أنس ابن أبي الشيخ وهو من ندماء البرامكة في الرّقة(57) أو المغنّي إسحاق بن إبراهيم الموصلي الذي اتّهم بميله للبرامكة ثم عفى عنه الرّشيد(58) كما يذكر الطّبري أنّ يوم قتل جعفر بعث الرّشيد قادته لاعتقال من في قصر البرامكة، حيث

---

(54) الطبري : نفس المصدر ج 9 ص 154 وذكر ذلك الأزدي من ص 264 الى ص 266 وتبرز في أحداث صراع الأمين والمأمون ميولاته لعرب المنطقة في نفس المصدر ج 9 ص 154 وفي تاريخ اليعقوبي ج II ص 424.

(55) الأزدي : نفس المصدر ص 264 الى ص 266.

(56) الطّبري : نفس المصدر ج 9 ص 276.

(57) نفس المصدر ج 9 ص 161.

(58) الأصفهاني : ج V ص 373.

اعتقل يحيى بن خالد وأولاده ومواليه، ومن بقي منهم في بغداد، وتكفّل رجاء الخادم بقبض أموالهم بالرّقة، وأخذ من كان من رقيقهم ومواليهم وتولى سجنهم. وبعثه مسرور الخادم الى منزل جعفر بالرّقة لقبض أمواله، ورشيد الخادم الى منزل يحيى ثانية. ولم يستثني من السجن الاّ محمد بن يحيى وأبناءه لبراءتهم من المؤامرة وتمّ اقتياد البرامكة كما رأينا الى دير القائم ثم في سجن المطبّق بالرّقة اين بقوا فيها الى أن توفّي فيه يحيى ثمّ الفضل (سنة 193 هـ) وصلّى عليه إخوانه في القصر الذي كانوا فيها ودفن بالرّقة(59).

واثر نكبة البرامكة، تولى الرّشيد تسيير الحكم بنفسه في الرّقة. فقام بتغيير الطّاقم الإداري والعسكري بالجزيرة ممن كانوا يدينون لمناصبهم الى البرامكة أو لعبد الملك بن صالح(60).

وكان معظم ولاة الجزيرة بين 187 هـ الى 193 هـ من القادة العسكريّين، ممّن يتولى الحرب والصّلاة وأعوان دولته لمن يتولى الخراج. وكانت الولاية السّامية في هذه الفترة للقاسم بن الرّشيد مع العواصم ومن أبرز هؤلاء القادة، خزيمة بن خازم الذي كان مع عبد الله بن مالك كنواب للقاسم(61) وكان خازم بن خزيمة من آل خزيمة الذين اشتهروا بخدمتهم للدّولة العبّاسية منذ حكم المنصور فتولى نيابة الجزيرة والعواصم كما رأينا.

---

(59) الطّبري : ج 9 ص 191 وص 341 والأزدي: نفس المصدر ص 316.
(60) نفس المصدر : ج 9 من ص 145 الى ص 162.
(61) الطّبري : نفس المصدر ج 9 ص 157.

أمّا ولاة الموصل، فإنّ قائمتهم تبقى غامضة حسب الأزدي، حيث لم يكن واثقا من ولاية ندال بن رفاعة على الموصل سنة 189 هـ (62) وكذلك هارون بن صدقة بن دينار الأزدي الذي مات فرحا لولايته الموصل ! سنة 192 هـ وولاية سعيد بن عتّاب التميمي، ولم يكن الأزدي يعلم سنة ولايته(63).

وتفسير هذه الضّبابيّة في من تولّى الموصل، أنّها الموصل على الأقرب، ألحقت بولاية الجزيرة مع خازم بن خزيمة نيابة عن القاسم بن الرّشيد.

أمّا خالد بن يزيد بن حاتم المهلبي، فإنه تولّى الموصل بالحاق أو مستقلّة عن الجزيرة سنة 188 الى 191 هـ وهو من الشخصيّات اليمنيّة البارزة في عصره وهو من آل المهلّب الأزديون الذين اشتهروا في التاريخ الأموي وأوّل التاريخ العبّاسي بتوليهم مسؤوليّات ولايات عدة في إفريقيّة أو في اليمن والجزيرة وهو من جلساء الرّشيد وصاحب رأي في البلاط العبّاسي بالرّقّة وذكر بأنّه شفع ليمنيّة الموصل لمنع اضطهادهم من قبل الرّشيد سنة 184 هـ/800 م(64).

ويبدوا أن تعيينه بهذه المنطقة، كان لحرص الخلافة على تهدئة الأوضاع بالموصل، وكسب اليمنية بهالى صفّ الخلافة بالاضافة الى حضوته لدى الرّشيد. وفعلا لم تسجّل طيلة ولايته ثورات أو أحداث تذكر بها.

أمّا بالجزيرة، فلقد واصل الخليفة، تكليف قادته العسكريين بالحملات الأمنيّة على ربيعة كما رأينا بسبب تفشّي المذهب الخارجي بينهم، ويبرز ذلك في

(62) الأزدي : نفس المصدر ص 307.
(63) نفس المصدر ص 312.
(64) نفس المصدر ص 310 ويذكر الأزدي أنه من وجوه اليمنية في البلاط في ص 299.

حملة يحيى بن سعيد العقيلي على خوارج ربيعة في منطقة آمد وهو من آل عقيل، ومن أصحاب الزّعامة في القيسيّة، ولقد نجح في قتل زعيم الخوارج بها وهو عبد السّلام الخارجي سنة 187 هـ/802م(65).

أمّا أبرز حدث، فتمثّل في رجوع الحرب ضدّ البيزنطيّين مع عزل إيرينا من قبل نقفور وتوليه العرش البيزنطي. وإبرازه لتوجّه عدواني ضدّ المسلمين، تبرز في رسالته للرّشيد التي يعلن فيها مواصلته الحرب ورفض دفع الجزية. وهو ما أغضب الرّشيد فقام بحملة عسكرية على أراضي بيزنطا، وفتح حصن هرقلة ورواية هذه الحملة، توجد لدى الطّبري بتفاصيلها كما يوجد مقطعاها حول هذه الحرب، ذكره الاصفهاني في أخبار أشجع السّلمي، حيث يذكر مختلف القادة الذين شاركوه في الحملة الثانية ونكتشف، أنّهم قادته على الجزيرة كخزيمة بن خازم وهرثمة بن أعين وعبد الله بن مالك وأبناء يزيد بن مزيد(66).

وبرزت اثر هذه الحملة، أدبيّات شعريّة وغنائيّة في بلاط الرقّة. تمجّد هذا العمل وتعطي تفاصيل هذا الحدث. لكن أهمّ النتائج التي ارتبطت بهذه الحملة، هو قرار الرّشيد، هدم كنائس الثغور(67). وهو قرار خطير، لأنّه يمسّ الطّائفة المسيحيّة المتواجدة بأعداد كبيرة شمال الجزيرة والشام على خطّ الثغور. وهي من المجموعات السريانيّة والأرمينيّة. وسبب هذا القرار، هو تأثر الرّشيد بالدّعاية

(65) الطّبري : نفس المصدر ج 9 ص 151 في أحداث سنة 187 هـ/802م
(66) نفس المصدر ج 9 ص 156 الى 158 وص 196 (خبر فتح حصن هرقلة) والأغاني ج XIII ص 240 الى ص 246.
(67) الطّبري نفس المصدر ج 9 ص 173 (في سنة 191 هـ).

التي كانت منتشرة بين العرب المسلمين بالجزيرة، بأنّ هذه الطّائفة تدين بالولاء للامبراطور البيزنطي، ويقوم بعضهم خصوصا منهم التجّار الارمن بأعمال التجسّس لصالح العدوّ وتمسّ هذه الدّعاية بعض الرّهبان في أديرة المنطقة الذين كانوا متّهمين بإيواء بعض الجواسيس البيزنطيين والدّعاء للإمبراطور. ولا يبدو أنّ هذا القرار، أثّر كثيرا في الطّائفة المسيحيّة ولم تهدّم إلاّ عددا قليلا من الكنائس. لتواصل نشاط الاديرة والكنائس بعد ذلك.

ومن القادة الذين دخلوا في خدمة الدّولة العبّاسية طوق بن مالك التغلبي الذي حلّلنا شخصيّته وما يهمّنا في عمله للدّولة أنّه كلّف بحملة على الخوارج بناحية حولايا بالسّواد العراقي فهزمهم، وجرح قائدهم ثروان بن سيف سنة 191هـ/806م(68).

ويرتبط عمله للعبّاسيين بسبب إقامة قومه في المنطقة بين الرّقة وقرقيسياء(69) فكان مقام الرّشيد بالرّافقة فرصة لمحاربي تغلب لتقديم خدماتهم للدّولة العبّاسيّة بالجزيرة وكان طوق بن مالك من جيل جديد للرّبابعة اندمج في منظومة الدّولة رغم الصّراع المفتوح الذي كان بين ربيعة وجيش الخلافة وهو ما يفسّر غضب قومه لعمله لصالح الرّشيد(70) كما بدأ في خدمة الدّولة العبّاسيّة، عجيف بن عنبسة الخراساني والذي فارق الثائر رافع بن الليث والتحق بالقائد هرثمة بن أعين بالرّقة سنة 192هـ/807م فبدأ بتولّي مسؤوليّات في حرس الخلافة وفي ولاية الجزيرة في عهد المأمون والمعتصم(71).

(68) الطّبري ج ص 172 في أحداث سنة 191 هـ.
(69) الاصفهاني : الاغاني ج XIII ص 117.
(70) الأزدي : نفس المصدر ص 395 و 396 في أخبار ولاية مالك بن طوق على الموصل سنة 214 هـ.
(71) الطبري : نفس المصدر ج XI ص 190.

خاتمة

مثّلت مرحلة حكم الرّشيد بالرّقة والرّافقة في سنواتها الأخيرة، بداية نهاية حركة الصوائف مع تعطيل أعمالها سنة 191هـ/806م وتواصل ذلك الى سنة 215هـ/830م مع الفداء العام بين المسلمين والبيزنطين(72). وكان إيقاف العمل الحربي ضدّ البيزنطيين، يندرج ضمن فرضية توجّه الرّشيد نحو التخلّي عن الإقامة بالرّقة والرّجوع الى بغداد، بعد أن أثبت الوضع الأمني بالجزيرة، واستخلف إبنه القاسم عليها مع العواصم، وجعل في خدمته خازم بن خزيمة(73) قبل التوجّه الى الشرق نحو خراسان لقمع ثورة رافع بها لكن عاجلته المنيّة سنة 193هـ/808م(74)، فانتهى بذلك طور تركز الخلافة بالجزيرة حيث كانت وفاته وتولى الخلافة من قبل محمد الأمين، نهاية لدور الرّقة - الرّافقة كعاصمة للخلافة، وتراجع دور الجزيرة من ولاية مركزيّة الى ولاية أطراف. لكن أهمّ معطى، هو انسحاب جزء هام من تلك القوّات العسكريّة النّظاميّة المرابطة مع الخليفة بالرّقة وبالثغور.

وأدّى هذا الإنسحاب الى رفع الطوق الأمني على الحركات الانفصالية القبليّة والمعارضة الخارجيّة بها ليرجع عملها بأكثر قوّة، مستغلّة صراع الأمين والمأمون لدعم مواقعها بها. فبرزت ظاهرة المتسلّطين على الأعمال والنّواحي منذ هذه الفترة.

---

(72) الطّبري : نفس المصدر ج XI ص 190 و 488.

(73) نفس المصدر ج XI ص 192 و 193.

(74) نفس المصدر ج XI ص 227 والأزدي نفس المصدر ص 318 وتاريخ اليعقوبي ج II ص 343 و 435.

II) تراجع حضور الجزيرة في منظومة الخلافة العبّاسيّة ورجوع الحركات الإنفصاليّة

ومن الظّواهر السياسيّة الجديدة منذ حكم الامين هو تولّي زعامات محليّة من الموصل خطّة الوالي وقبول السّلطة بالامر الواقع حيث كانت الخلافة تلتجأ الى مباركة سلطة من له النفوذ الفعلي في المنطقة، فبرزت ظاهرة الولاّة بالفعل ! دون رسم التّولية من الخلافة.

ورغم تمحور الصراع بين الامين والمأمون بالعراق، فإنّه امتدّ الى الجزيرة إثر خطّة محمد الامين للتحالف مع عرب الجزيرة عندما ولّى عليها عبد الملك بن صالح بعد أن أخرجه من السجن.

وأدّى ذلك الى انفجار الصّراع في الرّافقة بين الابناء والزّواقيل من عرب الجزيرة والشام الذين دعّموا الامين بفضل عمل والي الجزيرة عبد الملك بن صالح لكن كانت نهايتها فشل الزّواقيل أمام الابناء ووفاة عبد الملك(75).

وهذه المواجهات، أثّرت في قلب موازين القوى ضدّ الخليفة الامين، نظرا لدور الابناء في الرّافقة بقيادة علي بن الحسن بن سهل في دعم المأمون مع انحدارهم بقوّات عسكريّة هامّة نحو بغداد وتأليب الابناء بها على الامين وتسيير مهمّة القائدين طاهر بن الحسين وهرثمة في التخلّص من الامين(76).

---

(75) الطبري : نفس المصدر ج XI ص 286.

(76) نفس المصدر ج XI ص 284 الى ص 286.

أمّا المعطى الثاني الذي يهمّنا في صراع عرب الجزيرة والشام ضدّ الخراسانية هو شعور الطّرف الأوّل بضعفه في مواجهة الخراسانيّة حيث يذكر الطّبري أنّ أحد المحاربين من كلب ندم على قدومه مع الزّواقيل من الشّام إلى الجزيرة وقال: «الموت الفلسطيني خير من العيش الجزري»(77). ويرجع ذلك الشعور الى ما وجدوه في الرّافقة من تحصينات عسكريّة كبيرة واستحالة السيطرة عليها وأهميّة حضور القوات الخراسانية بها وانضباطها. ولم تكن كل القوات الرّبيعيّة مستعدّة لدعم القيسيّة في نطاق الحلف النّزاري ضدّ الأعاجم. حيث كان أحد التّغالبة المحالفين لقيس رغب في الحصول على الدّعم من طوق بن مالك.

ويبرز ذلك زعامة طوق في تغلب في تلك الفترة كما رأينا سابقا وشعور قيس الجزيرة وبعض الرّبابعة، بأنّ صراع الأمين والمأمون هو صراع بين العرب والعجم ووقوفهم المبدئي مع الأمين ونصرته بقبول التحالف مع الأمير عبد الملك بن صالح لنصرة قضيّة العرب ودفعا لجور الأعاجم على عرب الجزيرة. وكان رفض طوق الدّخول في الحلف مع قيس لحفظ قومه من «الهلاك» وشعورا منه بضعف التحالف القائم وراء عبد الملك بن صالح وكذلك رغبة منه في حفظ حظوظه السّياسيّة في حالة وصول المأمون للسّلطة لكن ما لم يذكره طوق يتمثّل في أنّ ربيعة الجزيرة كانت تحمل الضّغائن والعداوة لعبد الملك بن صالح لتورّطه أثناء حكم الرّشيد في أعمال القتل ضدّها كما رأينا ممّا جعل زعاماتها غير متحمّسة لمثل هذا التّحالف.

---

(77) نفس المصدر ج XI ص 284.

ولقد دخلت الجزيرة مرحلة جديدة في تاريخها مع ولاية طاهر بن الحسين باستقلاليّة شبه تامّة عن الخلافة. وكان هذا الوالي يميل الى يمنيّة الموصل لأصوله القحطانيّة حيث راسل علي بن الحسن الهمداني بها وقلّده أمرها(78). وهو اعتراف من ممثل السّلطان في المنطقة لنفوذ المتسلّطين كروح وحاتم ابني صالح والحسن من آل عبادة التي كانت لهم السبق في العمل لصالح الدّولة العبّاسيّة وقتل منهم روح والحسن عند خدمتهم للسّلطان(79) ولقد قام طاهر بن الحسين بالحاق الموصل بأعمال الجزيرة(80).

ولقد أجبر طاهر للاعتراف بنفوذ المتسلّطين وأجّج ذلك الصّراع السياسي - القبلي بين اليمنيّة والنزاريّة بسبب انهاء السّلطة لحيادها بين طرفي الصّراع ودعم طاهر المفضوح لليمنيّة(81) وحسب رواية لأحمد بن الحسن الهمداني، يذكر أنّ مجموعة من الرّبابعة والقيسيّة المقيمين بالموصل التجأوا الى غرب الجزيرة بين قومهم على غرار عثمان بن نعيم البرجمي هروبا من اليمنية لأنّهم «يتهمونهم وينقصوهم» وبعد سنوات جمعت القيسيّة 20 ألف محارب بدعم تغلب واستهدفوا في حملتهم يمنيّة الموصل لكسر شوكتهم(82).

ولقد تدخّل بعض وجوه النّزاريّة المواصلة لمنع المواجهة كأحد التّغالبة وهو علي بن الحسن العبدي وبعض من ذهل الموصل لتكذيب خلافهم مع اليمنيّة أمام

---

(78) نفس المصدر ج XI ص 284 و 285 وتاريخ اليعقوبي ج II ص 444.
(79) الأزدي : نفس المصدر ص 331 و 332.
(80) نفس المصدر ص 313 الى ص 317.
(81) نفس المصدر ص ص 332 و 333.
(82) نفس المصدر ص 332 و 333.

زعماء القيسيّة ولم يمنع ذلك من حدوث واقعة الميدان التي حللناها سابقا انتهت بهزمهم أمام جموع اليمنية. وهذه الرواية تبالغ عندما تتحدّث عن 20 ألف قيسي واجهت بعض الآلاف من اليمنيّة بسبب عصبية الرّاوي لقومه(83).

ويرجع الأزدي واقعة الميدان في سنة 198هـ/813م كما رأينا الى آثار صراع اليمنيّة والنّزاريّة منذ حكم الرشيد وما يهمّنا في هذه الواقعة أو الوقائع هو حفاظ اليمنيّة على نفوذها بالمنطقة رغم تكتّل ربيعة وقيس. فالتجأ أحمد بن عمر أخو الحسن بن عمر التغلبي والي الموصل السّابق الى عقد الصلح مع آل عبادة سنة 199هـ/814م(84).

وفي أرمينية الرّابعة ومع تأكّد سيطرة طاهر على الأوضاع في الجزيرة، بعث الأمراء الأرمن والمتنفّذين العرب بها بولاءهم الى الأمير القيسي عبد الملك بن جحاف السّلمي الذي بقي محالفا لنصر. وحاول تأسيس إمارة مستقلّة بها، ولقي الدّعم في ذلك من قيسيّة الجزيرة ومقاتلتها في الثغور(85).

وكانت إقامة طاهر في الرّقة ـ الرّافقة ترتبط برغبة المأمون في الحفاظ عليها خوفا من سقوطها في يد نصر الذي كانت له طموحات تأسيس إمارة مستقلة بعد فشل دعمه للأمين، وسبق له أن تحصل على ولاية الجزيرة سنة 197هـ/812م حسب

---

(83) نفس المصدر ص 332 و 333.
(84) نفس المصدر ص 332 و 333.
(85) تاريخ اليعقوبي : ج II ص 444 و 445.

رواية للأزدي(86) وبقي طاهر معزولا بها مع سيطرة النّزارية على معظم مجال الجزيرة دون قدرته على ردّهم(87).

ورغم رفض نصر بن شبث مبايعة الشّيعة العلويّين بزعامة محمد بن ابراهيم ابن طباطبا بالكوفة فلقد وجد العلويّون ضالتهم في أحد الزعماء الشّيبانيّين بالجزيرة أصيل رأس العين وهو السّريّ بن منصور ويعرف بتسمية أبو السّرايا وينتمي لآل قبيصة وكان سيّدا في قومه ومن أسباب فشل هذه الثورة، هي محاولة نقلها الى الجزيرة بين قومه سنة 200هـ/815م حيث بقي معزولا من أيّ مساندة نظرا الى معاداة العرب المسلمين بها للشّيعة ورفض نصر كما رأينا مساندتهم(88).

وأمام إنعزال طاهر بالرّقة - الرّافقة وضعف الإمداد العسكري من بغداد اضطرّ الى اقرار نفوذ المتسّلطين على نواحي الجزيرة، فاعترف بنفوذ ابراهيم القرشي على حرّان وعبد العلا على الرّها وأمدّ البعض الآخر بالعطاء لكسبهم الى صفّ الخلافة(89) .

في نفس الفترة، ومع مطلع القرن الثالث هجري، كان المأمون منشغلا بالتخلّص من ابراهيم ابن المهدي الذي بويع له بالخلافة، وبعد ارجاع نفوذه بها سنة 204هـ/819م ارجع طاهر الى بغداد ليتولّى خراسان وعوّضه في مرحلة اولى

(86) الأزدي نفس المصدر : ص 328.
(87) نفس المصدر : ص 334 وابن العبري : تاريخ الزمان من ص 21 الى ص 25.
(88) الأزدي نفس المصدر : ص 338 و 339 والطبري : ج IX ص 395 و 396.
(89) ابن العبري : نفس المصدر : ص 20 الى ص 22.

بيحيى بن معاذ على الجزيرة، لكن توفّي هذا الوالي بعد 6 أشهر من تولّي مهامه، فعوّضه بعبد الله بن طاهر في نفس خطّة أبيه أي الجانب الغربي للخلافة وكانت مهمّته الرّئيسيّة هو التخلّص من ثورة نصر(90).

وفي منطقة الموصل وأثناء صراع المأمون ضدّ ابراهيم ابن المهدي، بقيت هذه العمالة تحت نفوذ آل عبادة ولقد كلّف المأمون أبو يزيد الخراساني على هذه العمالة ملحقا بطاهر وكان محابيا للأزد وشجّع السيّد بن أنس الأزدي الذي كان يتولّى حصن حبتون وصاحب الرّئاسة في أزد الموصل على مجابهة علي بن الحسن الهمداني بسبب سعي بني عبادة للاستفراد بالنّفوذ والاستحواذ على الإقطاعات بالمنطقة. ويذكر الأزدي أن علي وأخوه محمد خرجا يتصيّدان ومعهما أسياد الأزد، فأشارا من أعلى جبل التنّين الى أملاكهم في مرج الموصل، فقال أحد الهمدانيّين : «تلحقون بعمان»(91) وأدّى هذا الموقف الى تدهور العلاقة بين يمنيّة الموصل وإندلاع المواجهات، فأراد علي بن الحسن اخراج الأزد من مدينة الموصل، فأتاهم السّيّد في جموع تليد فاستحوذ على الجانب الشرقي من المدينة بينما استعان الهمدانيّون وبعض حلفاءهم من اليمنية ادخال الخارجي المهدي بن علوان للموصل في قومه من تغلب وسيطر على الجانب الغربي للمدينة(92).

---

(90) نفس المصدر : ص 19 الى ص 21 والأزدي : نفس المصدر : ص 359 والعيون والحداق ص 447 والطبري : ج IX ص 499 ويقول : قلّده حرب مضر ونصر.
(91) الأزدي : نفس المصدر ص 344.
(92) نفس المصدر : ص 346 و 347.

ورغم تحالفهم مع الخوارج، فلقد نجح السيّد في هزمهم، حيث لم يجد علي بن الحسن الدّعم من قومه في أذربيجان بزعامة بني مسعود الهمدانيّين لرفضهم محاربة قومهم من اليمنيّة(93) فنجح السيّد في التخلّص من حاتم بن صالح مع استيلاءه على حصن السّلق وقتل علي بن الحسن وأخوه أحمد في الحديثة جنوب الموصل فأصبح سيّد اليمنية في الموصل(94). وأدّى قتل آل عبادة الهمدانيّين الى غضب طاهر واشرف على قتل السّيّد لكن أعرب هذا الآخير عن ندمه وعدل طاهر في قراره لحفظ وحدة اليمنيّة ونفوذها على الموصل ويقول طاهر :"والله لولا خوفي أن يكون قد ذهب وتذهب أنت بعد مع الفضل الذي فيك، فتذهبان مع العشيرة معا لقتلتك» ويقول «وتولّى أمر البلد ودعى للمأمون وانتظم أمره(95).

أمّا بقيّة بني عبادة، فلقد أجارهم الحسن بن عمر التغلبي وحملهم الى برقعيد التي كانت قلعته وهي من نواحي نصيبين وممن هاجروا معه ابني علي محمود وخنيس وأحمد بن روح الهمداني الذي أصبح برأس هذه الأسرة. و مكثوا ببر قعيد 7 سنوات، طيلة ولاية السّيّد ورجعوا إثرها إلى الموصل(96).

وحول الرّوايات التي يقدّمها الآزدي حول صراع السّيّد مع آل عبادة فهي تتّصف باضطرابها وعدم تسلسلها، حيث يصعب متابعة الخبر، اذ أنه تارة يتحدّث

(93) نفس المصدر : ص 346 و 347.
(94) نفس المصدر : ص 349 و 350 وص 422 و 423.
(95) نفس المصدر : ص 346.
(96) نفس المصدر : ص 349 و 350 و 422 و 423.

على قتل بني عبادة ثم يتحدّث عنهم وهم متولّين الموصل أو يتحدّث عن قتل حاتم في أحداث 208 هـ/ 823 م

ولقد تولّى السيد أمر الموصل سنة 202هـ/817م ولم يزل إبراهيم ابن المهدي خليفة في بغداد ولم يمنعه ذلك من مبايعة المأمون بسبب ولاءه لطاهر بن الحسين(97).

وفي سنة 204، وقبل ان يتولّى عبد الله بن طاهر أمر الجزيرة، بدأ المأمون يعدّ لمواجهة ثورة بابك التي استفحلت في أرمينية وأذربيجان منذ سنة 200 هـ/815م بسبب أعمال العنف والاستغلال الذي قام بها مهاجرة الموصل بالمنطقة وفشل يحيى بن معاذ في هذه السنة من هزم بابك(98) وكان تكليف والي الجزيرة لوعي الخلافة بارتباط هذه الثورة بالأوضاع في الجزيرة نظرا لتبعيّة اذربيجان وأرمينية لهذه الولاية.

وكان المأمون مطالبا بأخذ موقف من قتل بني عبادة من قبل السيّد، فاستدعي الى بغداد في هذه السنة مع تشكّي محمد بن الحسن الهمداني لقتل اسرته من قبل السيّد وكان دفاع السيّد بقوله «صدق يا أمير المؤمنين، ولو كان معهم لقتلته، هؤلاء شقّوا للعصا وأدخلوا الخارجي (أي مهدي بن علوان) بلدك وأعلوه منبرك وأبطلوا الدّعوة لك...»(99).

---

(97) نفس المصدر : ص 342.
(98) نفس المصدر : ص 353 و 354.
(99) نفس المصدر : ص 354.

فأقرّه المأمون على عمالة الموصل وتحصّل من السّيّد على ملخّص لثورة بابك بسبب عمل عرب الجبال من مهاجرة الموصل اليمنية، حيث استحوذوا على المناجم وحقول المنطقة وأصبحوا يتصرّفون في 40 معدن، قدّمهم للخليفة كالذّهب والرّصاص والحديد وبيّن له عمل زريق بن صدقة الخطير في المنطقة الذي أضرّ بمصالح الخلافة وأجّج حقد أهالي الجبال على العرب. وكان صدقة قد استولى على جبال أرمينية وأذربيجان في خلافة الرّشيد، ولم يمنع هذا الخليفة من محاربته الا موته سنة 193هـ/808م حيث بدأ إبنه زريق يستولي على رساتيق أرمينية واذربيجان والموصل وأصبح يغير على عرب الموصل بقوّات تعدّ 30 ألف مقاتل» وتحصّل السّيد بمقتضى ذلك على حرب زريق(100) .

لكن كانت هزيمة يحيى بن معاذ أمام بابك ثمّ عيسى بن محمد، أن جعل المأمون يعدل عن حرب زريق ويكلّفه بحرب بابك نظرا لنفوذه بين عرب المنطقة الذين بدأوا يتأذّون من هذه الثورة التي تهدّد مصالحهم. ولقد استنجد زريق بقومه من الموصل وحليفه محمد بن حميد الهمداني باذربيجان زعيم يمنيّة المنطقة والذي نصحه بعدم الإنسحاب الى أرمينية ليشتّي بقوّاته، لكن كان تراجع زريق عن حرب بابك وتشتّيه ببرذعة أن جعل بعض القوّات للمأمون التي أرسلت لدعم زريق وفيها 2000 محارب من موصل برئاسة محمد بن جنيّد تسقط في كمين جبلي ويأسر قائدها(101) فاعتبرها المأمون خيانة من زريق بسبب ترك حرب بابك فاستدعى الخليفة السيّد ثانية، وروى له ما ذكرنا من عمل زريق ضدّ السلطة

(100) نفس المصدر: ص354
(101) نفس المصدر: ص 356 - 357.

منذ تمرّد أبيه على الرّشيد. فكلف السيد ثانية بحرب زريق لتوحيد صفّ عرب الموصل واذربيجان وارمنية لمواجهة خطر الخرميّة(102).

وفي سنة 206هـ/821م حدثت المواجهة بين انصار السيّد وفيهم أكراد المنطقة بقيادة دلويه بن مرزوق بن ملاعب من عشيرة اليحامد ضدّ زريق وحلفاءه الكثيرون منهم بعض أزد الموصل لان زريق من الازد وكان منهم آل عمران من بني سليمة كسليمان وخالد بن عمران وانهزم السيّد في هذه الحرب بسبب نقص قواته(103).

أمّا بالنّسبة لولاية عبد الله بن طاهر في 206هـ/821م على الجزيرة، فانه كان يسيّر من الرّقة - الرّافقة هذه المنطقة وباقي الولايات الغربيّة. وكان يسيّر الجزيرة مباشرة تاركا أعمال الموصل الى السيد بن أنس الازدي الذي لم يقدر على إعادة وحدة عرب المنطقة أمام الخطر الخرمي بسبب نفوذ زريق على أذربيجان والموصل وأرمينية.

ولقد قدم عبد الله بن طاهر سنة 206 هـ لمواجهة تمرّد عرب الجزيرة والشام بقيادة نصر ومعه قوى عسكرية هامّة تعدّ 20 ألف مقاتل وحسب اليعقوبي فلقد أمره المأمون بمحاربة المتغلّبين فيها...(104) ولقد أعطاه أبوه طاهر رسالة في طرق تسيير عمل الوالي اعتبرها معاصروه نموذج عمل الولاة ومن محتويات

(102) نفس المصدر: ص358

(103) نفس المصدر: ص 365 و 366،

(104) نفس المصدر : ص 359 ويقول الازدي أنّ طاهر هو الذي قلده وتاريخ اليعقوبي ج II ص 455 والطّبري ج IX ص 449 يقول أنّه المأمون الذي كلفه حرب نصر ومضر ويذكر ولاية يحيى بن معاذ قبل ذلك وموته حيث عزل ابن يحيى أحمد وقلّدها عبد الله بن طاهر.

هذه الرّسالة «اجعل في كلّ كورة من عملك أمينا يخبرك أخبار عمالك، ويكتب إليك بسيرتهم وأعمالهم، حتّى كأنّك مع كلّ عامل في عمله، معاين لأمره كلّه وإن أردت أن تأمره بأمر فانظر في عواقب ما أردت في ذلك...»(105) وهي رسالة طويلة يفهم من خلالها حرص طاهر بن الحسين على نجاح ابنه عبد الله فيما فشل فيه في ولايته للجزيرة واتخاذ سياسة اللّين والتقرب الى الأهالي لإعادة وحدة الأمّة وراء الخليفة ببغداد.

ومن أبرز المهام الذي كلّف بها عبد الله وعمّاله هو ارجاع الامن ومنع اعمال الغزو المدمّرة التي يقوم بها البدو الثائرون على المناطق الحضرية والقرى ويبرز ذلك في تكليف المأمون السيّد والي الموصل بمحاربة شيبان وحلفاءها الّذين قطعوا طريق خراسان بنواحي الدّسكرة شرق بغداد الى نواحي تكريت فأرجع السيّد الأمن في هذا الطّريق(106).

وهذه الرّواية هامّة، لأنّها تبرز اعتماد الخلافة على جند الجزيرة، لارجاع الأمن بالعراق مقابل عجز القوّات النّظامية على ذلك نظرا لخبرتهم في مقاومة مثل تلك الأعمال. ويذكر الأزدي خبر نشاط السيّد أثناء عمله بالموصل وأدرج ذلك في أحداث 209هـ/824م رغم انها وقعت قبل سنة 205هـ/820م عندما كان طاهر والي الجزيرة والسيّد عامله على الموصل وهي رواية لعبد الله بن الاصبغ، أنّ بني مالك

(105) يوجد المحتوى الكامل هذه الرّسالة الطويلة في الطّبري : نفس المصدر : ج 9 ص 447 الى ص 457. وكانت متداولة بين النّاس وتبنّاها المأمون وأمر بنسخها.
(106) الأزدي : نفس المصدر : ص 364.

من يمنيّة الموصل غزوا قوما من نصارى المنطقة يعرفون ببني خرنوسا في جهة الكحيل(*) جنوب الموصل فخرج إليهم السيّد بجموع عرب الموصل وفرض عليهم تقديم 100 رهينة، اعدمهم صلبا وحجز الأموال التي نهبوها(107).

ويدلّ هذه العمل حرص السيّد على توفير الأمن بحزم بعد أن فقد في الجزيرة لانهاء أعمال الغزو.

وفي سنة 208هـ/823م إنتفض بعض الأكراد على العرب زاعمين ظهور المهدي كما رأينا فسيّر المأمون للأكراد الحسن بن عمر التغلبي الذي كان مكلّفا بعمالة طور عابدين فقتل مهدي الأكراد(108).

ويبرز ذلك حرص الخلافة على حصر نشاط الأكراد خارج سهل الجزيرة وكسب المنتفذين من تغلب وعرب الجزيرة مقابل إعطائهم عمالة نواحيهم.

وتواصلت الحروب بين الطّرفين وظهرت الفتنة داخل الموصل ومما أذكى هذه الأزمة هو تنامي معارضة قسم من السّكان لسلطته بسبب تغطرسه واخذ اموال الناس ظلما حسب رواية للأزدي ومن مظاهر هذه المعارضة أنه حينما ولّى أحد أعوانه المدعو محلّى على خراج الموصل أخرج إليه أهل الموصل ديكا منتوفا يريدون أنه أساء إلينا»(109).

(*) الكحيل : رافد لدجلة جنوب الموصل : معجم البلدان ج III ص 228.
(107) الأزدي : نفس المصدر ص 367.
(108) ابن العبري : نفس المصدر ص 27.
(109) الأزدي : نفس المصدر : ص 364.

وهذه الوضعية المتأزّمة شجّعت زريق للقدوم الى الموصل سنة 208هـ/823م في 20 ألف محارب فنزل شرق الموصل فحاربه زريق، وهذه الوضعيّة الخطيرة دفعت بأحمد بن عمر العدوي أخو الحسن للتدخّل عسكريا بالموصل بـ 14 ألف فارس فنزل دير الاعلى ليفرض على الطّرفين الصّلح وخاطبهم القول «أنا جاركم، ما كنت لاترككم على هذه الحال، وقد جئت لاصلح بينكم... فاصطلحا...»(110) وتدخّل هذا القائد التغلبي يفسّر بوجهين : فإمّا أنّه كان يقوم بالصّلح بأمر من والي الجزيرة عبد الله بن طاهر حيث كان آل عمر بن خطاب في خدمة الخلافة كما رأينا، أو وعيا من عرب الجزيرة لخطورة الإنقسام في ظرفيّة يهدّد فيها بابك نفوذهم بشرق الجزيرة.

لكن لم يدم هذا الصّلح طويلا، حيث أدّى اعتقال السيّد بالموصل لحلفاء زريق بها على غرار سليمان وزيد ابني عمران بن سليمة الأزد الى طلبهم زريق للتدخّل ضدّ السيّد. وهو ما حصل حيث تدخّل بقوى عسكريّة تفوق قوى السيّد 10 مرّات، ودارت معركة في سوق الاحد شرق الموصل ادّت الى قتل السيّد في مبارزة لاحد الفرسان سنة 211هـ/826م(111).

ويؤكد قتله خذلان يمنية الموصل للسيّد بسبب نقص الدّعم العسكري في مواجهة زريق والسّهولة التي تمّ بها قتله ودفعت هذه الوضعية بالمأمون الى

---

(110) نفس المصدر : ص 365 و 366.

(111) نفس المصدر : ص 374 و 375.

تكليف أحد القادة اليمنيّة الذين يعملون للعبّاسيّين بحرب بابك وهو محمّد بن حميد الطّوسي وأبوه حميد كان في خدمة المنصور وهو من طيء خراسان الذين قدموا الى العراق لخدمة السلطان واعتبر محمد من سادات طيء اليمنيّة. وتمثّلت خطّته في تولّي الموصل واذربيجان وارمينية في مجال ثورة بابك، وتقدّم للموصل في قوى خراسانية هامة ونجح في كسب عرب الجزيرة والموصل لدعمه في حرب زريق وبابك سنة 212هـ/827م(112).

ومن حلفاءه العرب بالمنطقة محمد بن السيّد في تليد الأزديّين وطمثان وهمدان وطيء وبنوا الحارث بن كعب وهي جموع يمنيّة الموصل(113) وليس لنا فكرة عن حلفاءه الرّبابعة.

وقبل محاربة بابك شرع بن حميد في محاربة زريق وجموع عرب الجبال. ورغم محاولته التفاوض معه لاجباره على الطّاعة فلقد رفض زريق الصلح ودخل في معركة قرب الزّاب ضدّ قوى الخليفة فانهزم وأجبر على الهروب نحو الجبال بين قومه لكن مع بقاء قوى الخليفة في المنطقة، قبل الاستسلام حيث أرسله بن حميد الى المأمون للنظر في أمره(114) وبذلك نجح هذا القائد في اعادة وحدة عرب المنطقة تحت راية الخلافة للمواجهة الشاملة ضدّ الخرميّة سنة 212 هـ/ 827م

(112) نفس المصدر : ص 378 و 379.
(113) نفس المصدر : ص 378 و 379.
(114) نفس المصدر : ص 380 و 381.

ولقد رفض هذا الوالي حجز اقطاعات زريق بالمنطقة لصالحه حيث تركها لأهله(115) رغبة منه في كسب عرب الجبال الى صفه. ثم راسل عرب اذربيجان والمقيمين في مراغة عاصمة هذه المنطقة لكسبهم في صفّه ولكن رفض المأمون الاعتماد عليهم لمعصيتهم السابقة لأنهم سبب الأزمة، فلقد إلتجأ هذا الوالي للقبض على رؤسائهم وحملهم أسارى الى دينور ثم بغداد كضمانة لولاءهم ودعمهم في حرب بابك(116).

وفي نفس الفترة ومن أجل أن يتفرغ هذا القائد لحرب بابك فلقد عيّن المأمون على الموصل هارون بن أبي خالد وهو أخ الوزير أحمد بن أبي خالد ويبدو انه كان نائبا للعبّاس بن المأمون الذي خلف عبد الله بن طاهر على الجزيرة والذي استدعى الى بغداد ليأخذ خطّة أبيه في الشرق(117) ويبرز نجاح بن حميد في حربه ضد بابك مع جمعه كما يقول عنهم الازدي «صعاليك اليمن وربيعة ومضر من الجزيرة وكور الجبل والمطوّعة...»(118) واستعماله كلمة صعاليك ربيعة تدلّ على انّهم محاربين يعملون لصالحهم خارج اطارهم القبلي من أجل المغنم بسبب صيت بابك في جمعه لكنوز كثيرة أو تعني معنى اخر هو قدومهم للدّفاع عن مصالح قومهم باذربيجان وأرمينية التي تضرّرت من عمل بابك ولقد رسم منهم هذا

---

(115) نفس المصدر ص 382 .
(116) نفس المصدر : ص 380 الى ص 383.
(117) نفس المصدر : ص 386.
(118) نفس المصدر : ص 386.

القائد 300 فارس من «الصّعاليك» في ديوانه وأطلق علهيم تسمية فتيان الطّاعة. مع عدد من موالي أبيه وكان البقية من القعد وتعني من لم يرسّموا في الدّيوان (119) ومن قوّاده محمد بن يوسف الطّائي القائد الشهير والمعروف بأبي سعيد المطوّعي والذي كان من أبرز وجوه اليمنيّة في الجيش العبّاسي وعرف بعمله في الجزيرة والثغور وهو في هذه الحالة الرّاوي، حيث تميّزت روايته بدقّة المشهد واعطاء معلومات جيّدة على طرق الحرب المتّبعة، وما يهمّنا في هذه الحرب ،قتل بابك للقائد محمد بن حميد في كمين بأحد المضائق الجبليّة(120) وأدّى قتله الى تكليف المأمون عبد الله بن طاهر بحرب بابك وولاية الجبل وأذربيجان وقزوين قبل أن يتوجّه لولايته بخراسان ويذكر اليعقوبي في روايات اضافية حول هذه الحرب ان عبد الله بن طاهر وعلي بن هشام فشلا في حرب بابك فكلّف خالد بن يزيد بن مزيد الشيباني بحربه، وهو من وجوه الجزيرة بديار بكر من أسرة يزيد بن مزيد الشهيرة، ولقد جمع من في الحبس بالعراق من قومه وشخص الى الجزيرة، فانضمّ اليه خلق عظيم من ربيعة ثم صار بهم الى بلد حيث حالفه محمد بن عتّاب التغلبي(121) وهذا النصّ الذي يذكره اليعقوبي هام جدّا لأنّه يذكر أنّ بعد فشل يمنيّة الموصل مع قتل بن حميد في هزم بابك وفشل قوى الخلافة في الحدّ من هذه الثورة، أراد أن يحارب بابك بجموع شيبان وربيعة وفي نفس الوقت

(119) الأزدي : نفس المصدر ص 386 .
(120) الأزدي : نفس المصدر : ص 386 و 387.
(121) تاريخ اليعقوبي : ج II ص 214.

التخلّص من أذاهم في العراق كما رأينا، ووفّر بذلك للشيبانيّين الفرصة لتعزيز حضورهم بديار بكر لشيبانيّي العراق الذين كان لهم دورا هامّا في تاريخ الجزيرة مع القرن III هـ/9م ودخل عديد محاربيها في الخدمة العسكريّة.

أمّا في الموصل، فلقد تواصلت ولاية هارون بن أبي خالد نيابة عن العباس، وكان محمد بن السيد بن أنس مع إخوته كان صاحب النفوذ بالموصل ويقول عنه الازدي : «أن المأمون قلّده البلد» وكان عنده صاحب حضوة في أحداث 213هـ/828م (122) وقلّده البلد، لا يعني أنّه ولاّه بل اعترف ضمنيّا بنفوذه على أهل الموصل.

ولقد كلّف العبّاس بن المأمون عامله هارون بانهاء ثورة خارجيّة في منطقة السّواد والموصل يقودها الصّنابي حسب رواية للأزدي وبلال الضّبي بالنّسبة لرواية ذكرها الطّبري وبلال السريّ حسب رواية ثالثة لليعقوبي. وحدثت حسب الرّوايات الثلاث سنة 214هـ/829م مع الولاية الشّامية للعبّاس بن المأمون على الجزيرة ونجح في إنهاء هذه الثورة [illegible] بقتل بلال الشاري(123).

ومن عمّال العبّاس بالجزيرة طوق بن مالك الذي ولي طريق الفرات وهي خطّة تولاّها منذ خلافة الرّشيد ولقد حلّلنا دور هذا القائد وزعامته بين تغلب في الباب الأوّل ويبدو أنّه عزل قبل وفاته من قبل العبّاس لاستحواذه على ضيعة لقوم من قريش في تلك الجهة(124).

(122) الازدي : نفس المصدر : ص 406 و 407.

(123) نفس المصدر : ص 395 الى ص 398.

(124) الازدي : نفس المصدر : ص 394 و 395 والطّبري : نفس المصدر ح IX ص 488 وتاريخ اليعقوبي ج II ص 214.

لكن لم ينهي ذلك دور هذه الأسرة في خدمة العباسيين حيث عيّن ابنه مالك على ولاية الموصل سنة 214هـ/829م إلى سنة 216هـ/831م ولقد رأينا أنه وجد الدّعم من أصهاره آل عمر بن الخطّاب العدويين التي كانت لم خطط ونفوذ بها واستغلّ صراع النفوذ بين اليمنية ليسيّر الموصل طيلة سنتين دون مواجهة تذكر ضدّهم(125).

وهذا الصراع يرتبط بحروب الثأر التي دارت بين الأزد وبقية اليمنية منذ قتل السيّد لآل عبادة الهمدانيين. حيث نجح إحمد بن روح بن عبادة الهمداني في جمع يمنيّة اذربيجان وبعض يمنية الموصل ضدّ عبد الله بن السّيّد الذي ورث زعامة أبيه بعد قتله ودارت هذه الحرب قبل سنة 223هـ/837م وأدّت إلى خسائر بشرية هامّة بين الطّرفين ويبدو أنّ عبد الله بن السيّد شعر بآثار هذه الحرب في إضعاف نفوذ اليمنية بالجهة فسعى الى الصلح مع بني عبادة وهو ما تمّ في تلك السنة(126).

ومع خلافة المأمون وبداية حكم المعتصم كان الحسن بن عمر التغلبي عاملا لعبد الله بن طاهر والعبّاس بن المأمون على بلد وباقردي وبازبدي وله نفوذ قويّ بين نزاريّة الموصل ولقد بعث عبد الله بن طاهر الى الحسن رسالة ذكر فيها «أمّا بعد فقد بلغني ما كان من قطع الفسقة الطّريق، فلا الطريق تحمي ولا اللصوص تكفي، ولا الرغبة ترضي وتطمع بعد هذا في الزّيادة انك لمنفسح الأمل !...»(127)

---

(125) نفس المصدر ص 395 الى ص 407 .

(126) نفس المصدر : ص 428 وص 429.

(127) تاريخ اليعقوبي ج II ص 441 الى ص 442.

وهي إشارة الى وجود أعمال نهب وقطع طريق تقوم بها جموع البدو ويحتمل أن تكون من شيبان وبعض بطون تغلب بها.

واتخذ الحسن مركزا جديدا لنفوذه حيث نقل سلطته من برقعيد شرق منطقة بيت عرباية الى منطقة باقردي وبازبدي حيث أنشأ بها مدينة جزيرة ابن عمر في موقع ستراتيجي على نهر دجلة قريب من سفوح جبال كردستان(128).

ولقد رأينا سابقا انه يرتبط بعمل المتسلّطين في نواحيهم لاضفاء الشرعية على نفوذهم كآمد بالنسبة لآل الشيخ الشيبانيّين والرّحبة لآل طوق التغالبة وغيرها من مراكز نفوذ القيسيّة واليمنية بالجزيرة. وبدأت تتكوّن شبه إمارات محليّة تحضى بالقبول من قبل السّلطة في بداية القرن III هـ مقابل تقديم هذه الزّعامات الجديدة خدماتها للدّولة وهي الظّاهرة الرّئيسيّة التي برزت في القرن III هـو مثال على ذلك مالك بن طوق وابناءه والذي بقي في خدمة العباسيّين الى النصف الثاني من القرن III هـ ونفس الشيء بالنسبة لآل عمر بن الخطّاب ولقد أدّى استقرار الأوضاع نسبيّا بعد القضاء على ثورة نصر الى قرار المأمون الرّجوع الى الجزيرة والعواصم لاستئناف العمل الحربي ضدّ البيزنطيّين والاستقرار بالثغور مع توضّح مؤامرة البيزنطيّين على الخلافة ويبرز في دعمهم لثورة بابك الخرمي في أذربيجان، فقدم المأمون الى الموصل في محرّم سنة 215هـ/830م فأقام بها مدّة لا نعلم ماذا فعل بها لتنظيم هذه العمالة(129).

---

(128) غندور : تاريخ جزيرة بن عمر ص 59 الى ص 66.
(129) الأزدي : نفس المصدر ص 399،

لكن يبدو أنّه اراد تنظيم الوضع المالي لكلّ الولاية بالجزيرة والموصل لتجاوز التسيّب الضّريبي الذي ساد في فترة الاضطرابات ويذكر الأزدي أن المأمون عندما صعد للثغور «استقرى الجزيرة والشام»(130).

وغايته في ذلك هو متابعة الأوضاع تعديل الخراج كما رأينا في سنة 154هـ/770م حيث قام بمحاسبة الجهاز الإداري بالولاية على الأوضاع الجبائيّة ويذكر الأزدي في أحداث 217هـ/832م أن أهل الموصل طولبوا بأداء الخراج في يوم واحد وهي رواية لسليمان بن عمران الأزدي الذي كان أحد أعوان الدّولة بالموصل. وهذا الطّلب جاء من المأمون مباشرة وكان الطّلب في الأوّل شفاهيّا، فراسله أهل الموصل أنّه غير واجب عليهم، فجاءتهم مراسلة ثانية مكتوبة تعطيهم مهلة الى فترة لقاح النحل، فاتصل وفد يقوده سليمان بن عمران وسفيان بن عبد الملك الخولاني بالمأمون وقدّموا حججهم. حيث ذكره سفيان الخولاني أنّه كان مع وفد الموصل زمن الرّشيد، فشرط عليهم أداء الخراج سنة في سنة. وأن هذا الشرط مكتوبا في ديوان الخلافة، فأمر وزيره بإخراج الشرط فوجده قد كتب فيه إسم سفيان فأمضى المأمون الشرط على ما وجده في الرّسم(131).

وهذا الاجراء يبدو أنه شمل كامل الجزيرة حيث تمت مراجعة دفاتر الماليّة والجباية في فترة ولاية ابنه العبّاس.

---

(130) نفس المصدر : ص 399.
(131) نفس المصدر : ص 410 و 411.

وفي سنة وفاته، نزل المأمون الرّقّة، وأراد تخلية الرّافقة لحشمه لكن عارضه أهلها، وهذا ما جعله يعيد ترميم مباني المدينة الملكيّة التي سكنها أبوه سابقا وأقام به حريمه وحاشيته قبل التوجّه الى الثغور لمحاربة البيزنطيين(132).

ولقد اهتم اثناء صعوده الى الثغور بالحرنانيّة في حرّان كما رأينا حيث أراد انهاء وجود مجموعة وثنية وساهمت هذه الحادثة كما رأينا في إدّعائهم أنّهم صابئة وفك عزلتهم السّابقة ليساهموا في دفع حركة التدوين ببغداد(133).

وتميّزت فترة إقامة المأمون بالثغور في اتخاذه قرارا خطيرا تمثّل في فرض مذهب المعتزلة والقول بخلق القرآن على المسلمين. ومن خلال اهتمام الأزدي بخبر «المحنة» يبرز تمسّك علماء الجزيرة وخصوصا منهم المواصلة بالمذهب السنّي ورفضهم القول بخلق القرآن. ويبرز ذلك من خلال التعاطف الكبير مع أحمد بن حنبل في محنته بين محدّثي الموصل، عندما حمل الى الرقة لامتحانه في دينه اثناء خلافة المأمون والى بغداد لامتحانهم أثناء خلافة المعتصم وكان من بينهم أحد علماء الرقة من نسل ميمون بن مهران وهو محمد بن حاتم بن ميمون(134).

وفي السنوات الثلاثة التي قضاها المأمون بين الرقة ودمشق ومدن الثّغور، أراد ارجاع المنظومة الحربيّة التي أقامها الرّشيد في الثغور، وواصل الحملات العسكرية ضدّ البيزنطيين وحسب المسعودي فلقد فتح 14 حصنا ورفض

---

(132) نفس المصدر ص 412.
(133) ابن النديم : الفهرست : ص 385.
(134) الأزدي : نفس المصدر : ص 412 و 414.

الصلح الذي عرضه سفير البيزنطيين عليه(135). ويذكر المسعودي خبرا غريبا انه كان أثناء اقامته بالجزيرة والثغور يتجنّب المكوث طويلا بالرّقة رغم أنها توفّر كل التجهيزات الضّروريّة لإقامة الخلفاء وهي رواية للقاضي الدمشقي وسبب ذلك أنه أخبر من قبل المنجّمين انّه سيتوفّى في مكان يعرف بالرّقة، وكانت وفاته ببدندون في مكان يعني بالاغريقية الرّقة حسب الرّواية(136).

وهذا التفسير الغيبي لتجنّب المأمون الإقامة الدّائمة في الرّقة يخفي الأسباب الحقيقيّة لقراره. ويبدو، أن تهرّبه يرتبط بأسباب ذاتيّة. يمكن أن تكون تهرّبا من ذكريات الماضي عندما كان مقيما مع أخيه الأمين زمن خلافة أبيهما الرّشيد. ولقد خرج من حرب طاحنة ضدّ أخيه انتهت بقتل هذا الأخير فكان يتجنّب الإقامة الطّويلة رغم تمركز قوّاته العسكريّة بالثكنات التي أقامها أبوه بالرّقة. ويمكن أن توجد أسباب أخرى غامضة.

ومع وفاة المأمون في الثغور، كان العبّاس بن المأمون بفضل تولّيه الجزيرة والثغور يشرف على معظم القوات العسكريّة ويحظى بينها بالتقدير. لذلك حدث خلاف بين الجند حول مبايعة أبو إسحاق المعتصم بوصيّة من المأمون ولم تتمّ مبايعته الا بعد خروج العبّاس واعلانه أمام الملإ مبايعته للمعتصم. فسكن الجند لمبايعته ومن القادة من احتقر العبّاس لعدم حرصه في السّعي للخلافة(137).

(135) المسعودي : نفس المصدر ج V ص والطّبري : نفس المصدر ج 9 ص 496 و 497.
(136) نفس المصدر ج V ص 340 الى ص 342 وخبر وفاة المأمون كذلك في الطّبري ج IX ص 516 و 517..
(137) الطّبري : نفس المصدر ج IX ص 536.

ولقد ولّى المعتصم في الثغور غسّان بن عبّاد في خطّة العبّاس بن المأمون وجمع له «الجزيرة والموصل والثغور والعواصم وقنّسرين» (138) ولا توجد معلومات ضافية حول هذا الوالي، لكن يبدو أنه كان يحظى لدى الخليفة بثقة كبيرة وبنفوذ هام داخل البلاط ليأخذ خطّة العباس الخطيرة والمتمثّلة في الإشراف على المنظومة الحربيّة وعلى ولاية الجزيرة. ومن المستجدّات الجديدة التي حدثت في تسيير الولاية على غرار بقية مجال الخلافة هو اعتماد هذا الخليفة على القوات التّركيّة ،من الشرق بكثافة في روابط الجزيرة وثغورها لتأخذ دور القوّات الخراسانية والمقاتلة العرب. ويبرز ذلك مع اشراف عجيف بن عنبسة على هذه القوى بالمنطقة ولم يكن الاعتماد على جنود من الشعوب التركيّة كمرتزقة بأمر مستجدّ حيث نجد في حوليّات التلمحري اشارات الى اعتماد القادة الخراسانيّين على مرتزقة من الشرق كانوا يجلبون من خراسان في فترة احتداد الصراع ضد البيزنطيين ويبرز ذلك مع حملة العبّاس بن علي في 147هـ/764م مع قدوم مرتزقة وثنيّين يعبدون الشمس من أمم مختلفة قدموا من الشرق(139).

لكن كان وجود هذه القوى وقتيّا، حيث تنسحب قواهم الى خراسان والشرق بعد نهاية الحرب مع بيزنطا ولم تكن اقامة دائمة فبقيت ظاهرة المرتزقة عارضة في المنطقة.

لكن منذ حكم المعتصم، أصبحت وحدات المماليك متواجدة بكثافة خصوصا على أراضي الثغر في فترات الحرب يبرز ذلك في تكليف القائد الافشين أصيل

(138) الأزدي : نفس المصدر : ص 424.
(139) حوليات التلمحري ص 73 و 74.

واحة أشروسنة بقيادة حملة عسكريّة على بابك الخرمي باذربيجان وأرمينية سنة 220ه/835م (140) وهي أوّل مرّة تكون فيها القيادة العليا على أحد ثغور الجزيرة لمملوك. ومن ضمن القادة الذين كلّفوا بمحاربة بابك تحت قيادة الافشين نجد أبو سعيد محمد بن يوسف الطائي صاحب أهمّ رواية للحرب ضدّ بابك(141) ويبدو أنّه كان مكلّفا بجند الجزيرة وعرب اذربيجان وارثا نفوذ محمد بن حميد الطائي الذي قتل في حرب بابك وكان في تلك الحرب كما رأينا مساعدا لهذا القائد ومشرفا على جموع ربيعة. لكن يبدو أنه مع الإفشين، أصبح يشرف على جموع عرب المنطقة بينما كان الإفشين مع اشرافه على القيادة العليا المسؤول المباشر على جيش المماليك الذين كانوا يحاربون للخلافة.

وهذه الحرب تبيّن الدّور الثانوي التي أصبحت فيها قوّات المقاتلة العرب بالجزيرة في عهد المعتصم، حيث لم تعد تلعب الادوار الرئيسية في الحرب بثغور الجزيرة.

ومن أسباب تراجع دورها في عهد المعتصم تبرز رغبة الخلافة في بناء جيشا محترفا ينئ عن انقسامية المجتمع بالاضافة الى النزعة الانفصالية لعرب الجزيرة منذ خلافة المأمون والذي جعله يكتفون بتسيير نواحيهم باستقلالية نسبيّة عن الخلافة. أمّا السبب المباشر فيبرز بحالة الانقسام الذي عليه عرب المنطقة نتيجة للصراع القبلي الممتدّ حيث يضاف لصراع الصّفّ اليمني ضدّ

(140) الطبري ج IX ص 542.
(141) الطبري ج IX ص 542 و 543.

الصّفّ النّزاري صراعا داخليا بين بطون القبيلة الواحدة ومن أهمّ الأمثلة على خطورة هذا الوضع أنّه في فترة تهديد بابك الخرمي لعرب أذربيجان وشرق الموصل لمصالحهم . وقتله أعدادا وفيرة منهم في المناطق التي مسّتها الثّورة. نجد أنّ صراع يمنية أذربيجان ضدّ بني تليد من أزد الموصل تواصل بعد قتل السّيّد من قبل زريق بن صدقة سنة 221هـ/836م كما رأينا.

ويخبر الأزدي أنّ في فترة حمله الإفشين على بابك سنة 221هـ/835م قام يمنيّة أذربيجان بقيادة يوسف بن رحمة وأحمد بن روح الهمداني واتباعهم بحملة على بني تليد المقيمين بحبتون وكانت الزعامة لابن السيّد عبد الله الذي نجح في التصدّي ليمنيّة اذربيجان وارجاعهم على ادراجهم خارج المنطقة(142).

لذلك قام بدور الدّفاع على ثغور الجزيرة غلمان الخليفة حيث نجح الافشين في القضاء على أخطر ثورة هزّت الخلافة بالقبض واعدام بابك الخرمي سنة 223هـ/836م(143) وتولّوا محاربة تيوفيل امبراطور بينزنطا بعد قتله لأهل زبطرة وهي من مدن الثغور وارتبط تحرّك تيوفيل نحو ثغور الجزيرة في عمليّة إلهاء للقوات الاسلاميّة لتفكّ حصارها على البذّ عاصمة بابك في اذربيجان، لكن نجح المعتصم بفضل قضاء غلمانه على بابك في تحريك جيش الخلافة نحو أراضي بيزنطا والتوغّل فيها الى أن فتح عمّورية ثاني مدينة بيزنطية وعاصمة منطقة فريجيا

---

(142) الأزدي : نفس المصدر : ص 422 و 423.
(143) الطّبري : نفس المصدر ج IX مقطع طويل للحرب بين ص 554 وص 584.

837م
وسط الأناضول سنة 223ﻫ(144) ولم يقم فيها مقاتلة الجزيرة الا بدور ثانوي حيث تكفّل جيش الاتراك بمعظم العمليّات العسكريّة ضدّ البيزنطيين في آخر عمليّة توغّل هامّة داخل أراضي بيزنطا.

وارتبطت هذه الحملة بظهور مؤامرة كبرى تزعّمها العباس بن المأمون الذي كان والي الجزيرة في خلافة أبيه وتورّطت في هذه المؤامرة قيادات قديمة عملت في ثغور الجزيرة وفي جيش الخلافة كعجيف بن عنسبة ويبدو أنّ عبد الله بن طاهر والي الجزيرة السّابق والذي أصبح والي خراسان كان وراء دعم هذا التحرّك ومن الاحتمالات التي دفعت هذه الأطراف الى التآمر لقتل المعتصم، غضبهم من اقصاء القوى الخراسانية والأبناء من العمل العسكري في جيش الخلافة والاعتماد عل جيش من الغلمان بالاضافة الى مكانة العبّاس بن المأمون في صلب جيش الخلافة ويبدو انه غيّر من موقفه بعد أن رفض بيعة جنده عند موت أبيه المأمون احتراما لوصيّته. فتمّ القبض على الأطراف المتآمرة وقتل العبّاس في منبج وقتل عمرو الفرغاني بنصيبين في بئر حفربستان، وقتل عجيف بن عنبسة في باعيناثا بالجزيرة(145) .

وبعد سنة من حملة المعتصم على عمّورية، نجحت القيادات اليمنيّة بمنطقة الموصل واذربيجان من الوصول الى الصلح وحقن دماءها حيث سعى عبد الله بن السّيّد حسب رواية لأحد بني تليد للصّلح مع أحمد بن روح الهمداني في

(144) نفس المصدر : ج IX ص 589 الى ص 604.
(145) الطّبري : نفس المصدر : ج IX ص 612.

فترة اجتماع انصار الطّرفين للحرب، حيث جازف عبد الله انصاره بالتحوّل الى قصر أحمد بن روح وخاطبه بالقول «قد جئتك لأنّي خفت أن نفنى نحن وأنتم»(146).

خاتمـــة :

ويبرز هذا القول اختيار اليمنية ايقاف نزيف الحرب بينها والتي أدّت الى خسائر بشرية فادحة وكان لتواصل الحرب تهديدا لنفوذهم بالمنطقة في ظرفيّة تعرّض عرب أذربيجان الى مجازر فظيعة من قبل الخرمية ونموّ نفوذ الاكراد بالجبال المجاورة للموصل الذين دخلوا في حلف مع بعض بيوتات العرب الكبيرة. وتقوّت في عصر المعتصم النزعة الإنفصاليّة للزّعامات المحليّة والتي وجدت في القدرات الحربيّة لقبائلها خير سند لتفرض نفوذها بجهاتها بينما أصبحت الخلافة تعتمد في حروبها ضدّ بيزنطا وفي عمليّات حفظ الامن على القوّات التركيّة من مماليك المعتصم كما برز في حملتي الإفشين ضدّ بابك وفي حملة عموريّة ضدّ بيزنطا، ولعبت المجموعات العربيّة المقيمة بالجزيرة والثغور دورا ثانويّا في ذلك وهو ما يبرز فشل السلطة في عملها الإندماجي وتعزّز النّزعة الإنفصاليّة التي كانت سائدة طيلة القرن الثالث هجري إلى بروز الدّولة الحمدانيّة في نهاية ذلك القرن.

---

(146) الازدي : نفس المصدر : ص 429.

الفصل الرابع :

المعارضة والحركات الانفصالية بالجزيرة

I) الجزيرة وقوّة حضور الخوارج بها :

1 - الخوارج الى نهاية الحكم الأموي بالجزيرة :

رغم نشأة حركة الخوارج بالعراق وتركزها بالبطائح الى أن نسبوا الى الحروريّة(1) فإنّ المذهب الخارجي انتشر منذ نهاية حكم معاوية نحو الأقاليم المجاورة للعراق انطلاقا من البصرة سواءا نحو الشرق بالنسبة الى الأزارقة أو

(1) الطّبري : ج III ص وللنّظر الى الحركة الخارجيّة منذ نشأتها الى نهاية الحكم الأمويّ الرّجوع الى أطروحة الدّكتوراء القيّمة للطيفة البكّاري : حركة الخوارج : نشأتها وتطوّرها الى نهاية العهد الأموي : ومقال : خوارج لدلافيريا في E.I2 ج III ص 1106 الى 1109. ومقال صفريّة E.I2 ج IX ص 799-801 لوينشتاين.

نحو الجزيرة بالنسبة للصّفرية منذ أحداث الفتنة الثانية مع صالح بن مسرّح التميمي الذي اتخذ من أرض الموصل دار هجرة لدعوته مع اشتداد تعسف الحجّاج على خوارج العراق(2).

وكانت منطقة الموصل تتبع إداريا مصر الكوفة منذ الفتح الإسلامي، هاجرت إليها نواقل الكوفة والبصرة. وكان إجراء عبد الملك بن مروان مع سيطرته على العراق، أن فصل الموصل عن الكوفة وجمعها بولاية الجزيرة والتي تولّاها أخوه محمد بن مروان مع ما يتبعها من ولاية اذربيجان وأرمينية(3). فأصبحت الموصل ملجئا لخوارج العراق، الذين فرّوا من اضطهاد الوالي الحجّاج والمهلّب بن أبي صفرة في البصرة. وبلغ هذا الاضطهاد حدّا، أصبح فيه وجودهم بالعراق صعبا، بينما كانت منطقة الموصل المنفتحة على مجال واسع، كان فيه حضور السلطة ضعيفا. وتوفّر فيها هامش حرّية كبير لنواقل البصرة والكوفة والتي حافظت على تنظيمها القبلي وقدراتها الحربيّة ووفّرت للخوارج الإجارة والحماية اللازمة لنشاطها بعيدا عن عيون السلطة.

ولا ننسى أنّ قبائل الكوفة والبصرة، كانت لها أحيائها بالموصل ومزارع ومراعي شاسعة بالمنطقة وهو ما يوفّر للخوارج نفس جديد لنشر دعوتهم والانتقال الى وطن جديد لهم(4).

---

(2) ابن الأثير : الكامل ج IV ص 41 و 42.

(3) الطّبري نفس المصدر : ج 6 ص 200 - 216.

(4) يقدّم عبد الحيّ شعبان في كتابه صدر الإسلام والدّولة الأمويّة الأصليّة للنشر والتوزيع بيروت 1987 هذه النّظريّة حول نشأة الحركة الخارجيّة بالجزيرة .

ولا ننسى أنّ المنطقة، شهدت حالة من الفوضى القبليّة وصراع على الأرض طيلة مرحلة الفتنة الثانية الى ولاية محمد بن مروان، برز خصوصا في القتال الناشب بين قيس وتغلب تبيّن أثناءها عجز الدولة الأمويّة على توفير الأمن بالجزيرة.

وتقدّم رواية ابن مخنف لمحة عن اختيار الخوارج الموصل دار هجرة ويقول «بأنّ صالح بن مسرّح التميمي، كان رجلا ناسكا مخبتا، مصفرّ الوجه، صاحب عبادة، وأنّه كان بدارا(*) وأرض الموصل والجزيرة وله أصحاب يقرئهم القرآن ويفقّههم ويقصّ عليهم...(5).

ويمثل صالح أحد آخر الزّعامات الخارجيّة التي بقيت حيّة وناشطة من جيل أبو بلال التميمي وعروة بن أديّة وعبد الله بن الصفّار ونافع بن الأزرق في منطقة البصرة. وحسب ابن مخنف فهو رأس الخوارج منذ 20 سنة أي منذ سنة 56 هـ ./ 675 م !

وتركيزنا على ثورة سابقة لفترة بحثنا هو عمل أساسي لفهم ثورة الخوارج اللاّحقة بالجزيرة، إذ يمثّل صالح حسب العديد من المصادر إمام خوارج الجزيرة، ورغم اعتباره من الصّفريّة فإنّ خوارج الجزيرة خصوصا يعدّونه صاحب مذهب خاصّا بهم(6) وكان مقدّسا، يتّعظون بمواعظه ويزورون قبره سنويا

(*) دارا : مدينة بين نصيبين وماردين وسط الجزيرة. ياقوت : معجم : ج II ص 418 - 419.

(5) الطّبري ج 6 ص 218 - 222 وحول ثورة صالح بن مسرّح انظر كتاب العبر لابن خلدون ج III ص 324 الى 325.

(6) مقال : صفريّة : في EI . ج IX ص 799 الى 801.

ويحلقون رؤوسهم في مزاره حسب ما ذكره ابن قتيبة (7).

ويؤكد ابن خلدون خصوصيّة الحركة الخارجيّة بالجزيرة(8).

وحسب رواية ابن مخنف، فإن الرسالة التي كان يبعثها صالح الى أصحابه هي من أهم رسائل الخوارج التي تقدّم تاريخ الأمّة بنظرة خارجيّة وتبرز إيديلوجيتهم الجهادية ومن أقواله «فتيسّروا رحمكم الله لجهاد هذه الأحزاب المتحزبة، وأئمة الضّلال الظّلمة، وللخروج من دار الفناء إلى دار البقاء، واللّحاق بإخواننا المؤمنين، الموقنين الذين باعوا الدّنيا بالآخرة... هذا الجور قد فشا وهذا العدل قد عفا، ولا تزداد هذه الولاة على النّاس إلاّ غلوّا وعتوّا وتباعدا عن الحق...»(9).

وهذه الرّسائل، تدعو للشهادة في سبيل الله والخروج ضدّ جور السّلطان. وفي كلّ ثورات خوارج الجزيرة، ومن خلال أدبيات الثوّار سواءا من خلال شعرهم أو خطبهم أو رسائلهم، يبرز تأثير دعوة صالح في تكوينهم السياسي ونشاطهم.

والمسألة الثانية التي تهمّنا في ثورة صالح سنة 76هـ/695م هي نجاح دعوته في كسب محاربين من بين أهمّ قبائل الجزيرة وهي شيبان البكريّة التي ارتبط اسمها بمعظم ثورات خوارج الجزيرة.

---

(7) ابن قتيبة : المعارف ص 410.

(8) ابن خلدون : العبر ج 3 ص 324 الى 340.

(9) الطّبري : نفس المصدر ج 5 ص 220 و 221 ورسائله توجد كذلك في العبر: ج ص 324 - 326.

وكان صالح واعيا ومقدّرا لقدرات أحد أتباعه الشيبانيّين وهو شبيب بن شيبان الذي كان أصيل منطقة الكوفة وكانت قبيلته مستقرّة أساسا بشرق الموصل. وفي أحد رسائله الى شبيب خاطبه بالقول «فإنّك ممّن لا يستغني عن رأيه، ولا تقضى دونه الأمور...»(10).

ولقد خرج مع شيبان جماعة من بني يشكر وبني تيم من شيبان ومن بني محلم من بكر بن وائل وبعض من أزد الموصل وجمعهم في دارا بالجزيرة فجمع فلول خوارج العراق ومن كسبهم صالح لدعوته بالجزيرة(11).

ويتابع أبو مخنف ثورة صالح ويجمع شهادات مباشرة لأقوال صالح وأعماله أثناء هذه الثورة والتي تحوّلت اثر استشهاده، النّموذج الأمثل للثورة والاستشهاد عند الخوارج وليتحوّل إلى أحد أشهر شهداء دعوتهم. وكانت فتاويه، أحد الأسس الفقهيّة التي اعتمد عليها خوارج الجزيرة على غرار فتواه لرجل من بني حليم حول ضرورة مقاتلة البغاة. أو فتواه الى فروة بن لقيط الأزدي حول رأيه في سيرة الظلمة، هل يقاتلونهم مباشرة دون انذارهم، أم يدعوهم للهدى، فإنّ أبوا فقتال وكان رأي صالح دعوتهم قبل قتالهم. أو رأيه في قتل من ظفر به، فكان رأيه «إن قتلنا وغنمنا فلنا، وإن تجاوزنا وعفونا، فموسّع علينا...»(12).

---

(10) الطّبري : نفس المصدر ج 5 ص 220 و 221 والعبر ج 3 ص 235 و 326.

(11) الطّبري : نفس المصدر ج 5 ص 222 ومقال Shabib شبيب EI2 لروبنسن ج IX ص 169 الى ص 170 وكان أبوه يزيد بن نعيم شارك جند الكوفة في فتح أرمينية وأقام بالموصل وعوّضه ابنه في العمل العسكري ثم ألغي إسمه من الدّيوان في خلافة عبد الملك.

(12) الطّبري : نفس المصدر ج V ص 222.

وهذه الفتاوي التي أصبحت مذهبا لخوارج الجزيرة، تمثّل أهمّ فتاوي الصّفريّة التي تتميّز باعتدالها بالمقارنة مع آراء الآزارقة.

أمّا ما ذكره أبو مخنف حول مراحل الثّورة، فلقد بدأت بمحاربة أصحاب صالح والي الجزيرة محمد بن مروان والاستيلاء على خيول الرّوابط بدارا. فبعث الوالي برابطة حرّان لمحاربة 120 خارجي لكن كان الظّفر للخوارج(13).

لكن كان تدخّل جيش الحجّاج مع توغّل الخوارج في السّواد، ان أدّى الى استشهاد صالح وخلفه شبيب من بني شيبان على إمامة الخوارج(14).

وإنّ تلميحنا لثورة شبيب السّابقة لمرحلة بحثنا، ترتبط في أهميّتها، على مستوى انتشار المذهبي الخارجي بين قبيلة شيبان بالجزيرة(15) وكلّ ثورات الخوارج بهذه المنطقة، كان يشارك فيها محاربيها من الخوارج الصّفرية.

والأهميّة الثّانية لهذه الثورة، تكمن في انشاء الخلافة الأمويّة بعد ثورة شبيب لجهاز أمني مكلّفا بمتابعة وقمع الخوارج بالجزيرة. ويبدو أنّ صاحبي أمر الخوارج بالموصل وحرّان وهما صاحبا الشرطة بهما، ظهرت خطّتهما منذ تلك الفترة. ولعبت رابطة الموصل وحرّان دور الدّرع الواقي ضدّ ثورات الخوارج طيلة العهد الأموي والعهد العبّاسي الأوّل.

---

(13) كتاب العبر : ج III ص 325، ويذكر نفس مقال صفرية E.I.2 في أنّ خوارج الجزيرة على مذهب الصّفريّة.

(14) الطّبري : نفس المصدر : ج V ص 219 .

(15) حول ثورة شبيب ونشاطه بين شيبان الجزيرة : الطّبري نفس المصدر : ج V ص 226 الى ص 281.

و يبدو من الوثائق أن آل بن عياد كانوا في جملتهم معدودين من وجهاء البلاط و عمال البايليك ، خاصة منهم الحاج علي و ابني أخيه حميدة و رجب . و بالتالي يمكن القول إن ورثة الشيخ قاسم تمتعوا بهيمنة سياسية واضحة داخل النخب المحلية ، خصوصا أيام حكم علي باي . و استطاع أولئك القياد توسيع دائرة عملهم الإداري-السياسي ، الذي لم يبق منحصرا في حدود جزيرة جربة . فقد التزموا قيادتي الوطن القبلي و الأعراض ، و تحكموا في تلك القيادات الهامة لسنوات طويلة . و أشرفوا على جباية مطالبها و تنفيذ سياسة البايليك داخلها ، كما رسخوا حضور عائلتهم بتلك المناطق .

و يبدو أن آل بن عياد واجهوا مزاحمة متزايدة بعد سنة 1782م من قبل وجهاء المخزن ، سواء الأعيان الجدد أو أبناء العائلات العريقة . فعلى سبيل المثال فإن أسرة نويرة التي برزت على الساحة السياسية منذ عام 1175ه الموافق ل 1761-1762م راقبت منطقة المنستير في أغلب الأحيان زمن علي باي ، و استفاد أفرادها من تجارة الزيوت . و بلغت مجابي تلك القيادة في ذلك العصر 44855 دينار أي ما يقابل حوالي 27603 ريال ، فهي تفوق مطالب صفاقس لكنها دون ما يؤديه أهالي سوسة و خاصة الوطن القبلي و جربة (297) . و كانت هذه العائلة ممثلة أول الأمر في شخص القايد محمد نويرة الخروبي الذي صار عاملا على المنستير من 1175ه إلى غاية 1179ه و من رمضان 1181ه حتى 1186ه ، ثم تولاها ابنه خليفة خلال فترة 1187-1188ه و 1190-1191ه . و اشترك القايد خليفة و شقيقه أحمد في تسيير تلك القيادة من 1192ه إلى 1195ه ، و استعاد القايد محمد هذه اللزمة أثناء فترة 1196-1202ه بعد أدائه فريضة الحج (298) .

و دعم أبناء نويرة مكانتهم في الفترة الأخيرة من حكم علي باي : فقد وسعوا نفوذهم السياسي إلى منطقة سوسة التي التزمها القايد خليفة بداية من شهر ربيع الأول عام 1193ه ، و بقي في خطته حتى سنة 1199ه . لكن نفوذ هذه الأسرة تقلص فيما بعد أثناء مرحلة 1203-1215ه ، و لم يسترجع أبناؤها دورهم المعهود إلا في 1216ه و اكتفوا أساسا بقيادة المنستير . و بالتالي فإن أسرة نويرة تعتبر نموذجا

أمّا الرّابطة الثانية، فهي رابطة حرّان، حيث كلّف والي الجزيرة عمر بن هبيرة الفزاري أحد زعماء قيس وهو تميم بن حبحاب وكان أخ عمير بن الحبحاب الذي اشتهر بقتاله لتغلب في حكم عبد الملك وكان تميم في جموع قيس سنة 101هـ 719م وقتل بدوره في أحد معارك ضدّ الخوارج.

ويقول في ذلك الشاعر الخارجي ثعلبة :

وقد أسلمت قيس تميما ومالكا *** كما أسلم الشحاج أمس أقاربه

وأقبل من حرّان يحمـــل راية *** يغالب أمر الله والله غالبه(18)

ويبدو أنّ فشل روابط الجزيرة والعراق في إنهاء الخطر الخارجي، دفعت القائد مسلمة بن عبد الملك والذي كان مكلّفا بالثغور ويستعدّ لمحاربة الثائر يزيد بن المهلّب، أن بعث بالمقاتلة من جموع قيس بقيادة عمرو الحرشي، فقتل شوذب واستبعد الخطر الخارجي(19).

ورغم صمت المصادر عن ثورات الخوارج بالجزيرة بعد ذلك باستثناء بعض الثورات الصّغيرة من فعل مجموعات محدودة منهم الى حكم مروان بن محمد، فإنّ النشاط الخارجي تواصل بالجزيرة وتركّز على جانب الدّعاية وتأطير المتعاطفين لدعوتهم من «القعدة». وكان امتناعهم من القيام بثورة شاملة، يرجع

---

(18) الأزدي : نفس المصدر ص 7 و 8 وكتاب العبر ج III ص 347 و348.
(19) ابن الأثير : نفس المصدر ج V ص 119 و 120.

إلى يقظة رابطتي الموصل وحرّان المكلّفين بمتابعتهم خصوصا أثناء خلافة هشام بن عبد الملك. فاختار الخوارج أن يكونوا من القعدة وانتهاز فرصة سانحة «للخروج» والثورة.

وهذه اليقظة، تبرز في إفشال الرّابطتين لبعض تحرّكات الخوارج على غرار ثورة الخارجي مصعب بن محمّد الوالبي قرب الخورنق جنوب الجزيرة وكان من رؤساء الخوارج سنة 105هـ/723م ولقد أبادت جماعته رابطة الموصل بقرية حزّة وهي من القرى التابعة للموصل وخلفه الخارجي مالك بن الصّعب وأخوه جابر بن الصّعب لكن قتلا بدورهما(20).

وهذه اليقظة، لم تمنع الخوارج كما قلنا من تركيز دعوتهم بين أهالي الجزيرة، وكسب عديد المحاربين من القبائل العربيّة، ويبرز ذلك بوضوح في نجاح الخارجي سعيد بن قيس اليشكري، وبهلول الشيباني وهما على الأقرب من رفقاء الدّرب لشوذب، من كسب عديد الأنصار لدعوتهم بين سنة 105هـ/723م و106هـ/724م على غرار الخارجي المشهور الضحّاك بن قيس الشيباني والذي كان من قومهم. وكانت هذه المجموعات الخارجيّة لا تتجاوز 500 خارجي، كانوا يقاومون السلطة دون هوادة منذ حكم هشام لكن كان تأثيرهم محدودا(21) وشارك الضحّاك بهلول بن بشر الشيباني في جماعته وعرف بهلول بتسمية كثارة والذي خرج على والي العراق خالد القسري سنة 119هـ/737م وقتل قرب الكحيل بأرض الموصل وخلفه على

(20) كايتاني : Chronographia Islamica ص 1318 ولقد تابع الثورة بهلول وابن بحدل منذ سنة 105 وابن الأثير : نفس المصدر ج V ص 120.

(21) كايتاني : نفس المرجع ص 1318 ولقد تابع ثورة بهلول وابن بجدل منذ سنة 105 هـ/723م والكامل: ج V ص 120،

هذه الجماعة دعامة الشيباني والذي أجبر على الهروب من رابطة الموصل. ويبدو أنّ دعامة توفّي أو قتل بعد ذلك فرثاه الضحّاك. ومنذ سنة 120ه/737م خلفه دعامة على رأس الخوارج بالجزيرة سعيد بن بحدل لكبر سنّه. ومن ضمن رؤساء المجموعات الخارجيّة الخيبريّ وكانت هذه الجماعة مع جماعة الضحّاك تنشط في منطقة كفرتوثا بديار ربيعة. وأشتهر الخيبري بأن بعثه ابن بحدل سنة 126ه/743م الى أحد الخوارج المنشقّين وهو بسطام البيهسي فقتله(22).

أما القاسم المشترك بين هذه الزّعامات الخارجيّة هو إنتماءها الى مجموعات ربيعة، خصوصا من شيبان وعرش يشكر البكريّون. ويمثلون جيلا جديدا من الثوّار الذين ولدوا وشبّوا بالجزيرة ولم يكونوا من خوارج البصرة أو الكوفة الذين نقلوا الثورة الى الجزيرة كالجيل السّابق.

ولم يعش هؤلاء ثورات الخوارج الكبري أثناء الفتنة الثانية. ولم تمسسهم الإنقسامات المذهبية التي عرفتها هذه الجماعة في العراق وفارس. فحافظوا نسبيّا على وحدتهم المذهبيّة، ولم يندمجوا مثل خوارج البصرة في الحياة الحضريّة في حواضر الجزيرة، بل حافظوا على بداوتهم وقدراتهم القتاليّة واستعدادهم للثورة. فاستغلّوا هذه الفترة لتوسيع قاعدتهم بين سكّان الجزيرة.

وهذه الزّعامات بقيت طيلة حكم هشام مجنّدة لأعداد قليلة من الخوارج تنشط بعيدا عن يد السلطة ومنقسمة الى مجموعات صغيرة يصعب للسّلطة حصر

(22) ابن الأثير : نفس المصدر : ج V ص 209 و 211 + العبر : ج III ص 350 وتاريخ ابن خيّاط ج II ص 390.

نشاطها وتركّز حضورها في منطقة شهرزور لكن مع أزمة الحكم الأموي منذ مقتل الوليد بن يزيد، بدأت تكثّف من نشاطها لتجني ثمار دعايتها بين المحاربين وتجنّد أعداداً غفيرة منهم للقيام بثورتهم الكبرى منذ سنة 126 هـ/ 743م .

حيث بدأت الثورة الخارجيّة الكبرى، مع خروج ابن بحدل سنة 126هـ/743م على الحكم. وابن بحدل هو من النّمر بن قاسط الرّبيعيّة والمقيمة وسط الجزيرة. ونزل مع جماعته منطقة الموصل، أين لقي بها جماعة خارجية أخرى بقيادة أبو الحرب الحميري وبايع هذا الخارجي ابن بحدل الذي ضمّ 500 مقاتل، سار بهم الى شهرزور شرق الموصل، أين انضمّ إليه شيبان بن عبد العزيز من بني يشكر، فجمع بذلك خوارج الجزيرة لأسبقيّته في الخروج عن أبي حرب وشيبان(23).

ولقد شرع في خطّة الإستيلاء على الكوفة، لكن توفّي بالطّاعون الذي انتشر بالشّام والعراق في تلك السنوات، فخلفه على رأس الخوارج الضحّاك بن قيس الشيباني في حدود سنة 127هـ/744م(24).

وممّا هو جدير بذكره حول ابن بحدل، أنّه أثناء احتضاره، إعتمد على مبدأ الشورى لخلافته في «خاصّته» ويبدو أنّهم من قادة الجماعات الخارجيّة التي إلتحقت به ومن أهل الرّأي الذين كانوا من فقهاءهم. وتمّت عمليّة الشورى بتقديم ابن بحدل قبل وفاته لقائمة من 10 خوارج. فاختار منهم أربعة. ثمّ تمّ الاختيار على إثنين منهم وهما الضحّاك وشيبان، لينحني الثاني لإمرة الضحّاك. فرضي

(23) الأزدي : نفس المصدر ص 60 وتاريخ ابن خيّاط ج II ص 395.

(24) الأزدي : نفس المصدر ص 67 وتاريخ ابن خيّاط ج II ص 395 و تاريخ ابن خلدون ج III ص 350.

بذلك الفريقين(25). وعمليّة المبايعة، تبرز الخوارج كمجموعات صغيرة تعدّ كلّ واحدة بعض العشرات من المحاربين، تتحالف في حالة الثورة وتبايع إماما من بين قادتهم. وهؤلاء القادة، يمثلون أعضاء مجلس الشورى الذي يعمل في حالة احتضار «أمير المؤمنين» لمبايعة خلف له. وعمليّة الشورى التي تصحب مبايعة الإمام، تتكرّر في مجموعات الخوارج بالجزيرة بنفس الشكل تقريبا، من أجل الحصول على إجماع بين الجماعات الصغيرة على إمامة أحدهم وعمليّة الشورى، ترتبط بأحكام النصّ القرآني واتباع السيرة النبويّة. لكن بالإضافة الى ذلك فهي عمليّة ضرورية للحفاظ على وحدة هذه الجماعة الهشّة التي عرفت حالات إنقسام وصراع طيلة تاريخها.

ويبدو أنّ نجاح خوارج الجزيرة في إحداث ثورة عارمة طيلة 4 سنوات منذ سنة 126هـ/743م تكمن في توصّل هذه المجموعات الصّغيرة إلى الإذعان لإمامة بن بحدل والضحّاك و الخيبري وشيبان، وهذه المبايعة في تطبيق لمبدأ الشّورى، حدثت في خلافة الضحّاك بالخيبري وخلافة هذا الآخير بشيبان بينما كانوا قبل ذلك جماعات صغيرة منقسمة بينها يسّرت لروابط الجزيرة الحدّ من نشاطهم.

أمّا الضحّاك الخارجي فذكرته المصادر بإسمه الكامل هو الضحّاك بن قيس بن حصين من بني كهل بن شيبان. ولقد واصل خطّة ابن بحدل في السّيطرة على العراق لاستغلال الصّراع القائم في جهاز السّلطة بين القيسيّة واليمنيّة. ونجح في السيطرة على الكوفة. وهذه الخطّة تؤكّد طموح الخوارج في السّيطرة على مهد ثورتهم الأولى رغم هجرتهم للجزيرة.

---

(25) تاريخ ابن خيّاط ج II ص 395 ونفس الرّواية لدى الأزدي : نفس المصدر ص 67.

وما يستهوينا في ثورة الضحّاك، هو نجاحه في جمع كلّ تلك الأعداد الهائلة من الخوارج والمعارضين تحت لواءه. وتتحدث المصادر على جمعه 120 ألف محارب ! وحسب رواية للسيّار، فإنّ جماعة من أهل الشّام قالوا للضحّاك : إنّه والله، ما اجتمــع الى داع دعى الى هذا الـــرأي منذ ان كان الإسلام ما اجتمع معك ... (26). وهذه الرّواية تؤكّد قناعة المعاصرين لثورته، أنّها أهمّ ثورة خارجيّة في تاريخ هذا المذهب وأشدّها خطورة على الدّولة الأمويّة.

فما هي أسباب نجاحها بالجزيرة في جمع المعارضين للحكم الأموي وتهديد الخلافة في أسسها ؟

يقدّم عبد الحيّ شعبان، تفسيرا لثورة الخوارج، بأنّهم من عرب الجزيرة، اتّبعوا المذهب الخارجي الصفري وهم أساسا من القعدة، لكنّهم ثاروا لأنّهم يرفضون السّياسة التوسّعيّة لمروان بن محمد. وأدرك هؤلاء القعدة أنّهم فريسة سهلة لمروان بن محمّد بالجزيرة فاقتحموا الكوفة لجمع الغاضبين على الحكم بالعراق والجزيرة والثورة على مروان (27).

وهذا التفسير رغم صحّته في بعض الجوانب يبقى جزئيا لا يفسّر كلّ جوانب هذه الثورة. فإن كانت القاعدة من الثائرين تضمّ عرب الجزيرة والغاضبين على السلطة فهي تبقى أساسا ثورة خارجيّة تواصل ثورات الخوارج السّابقة، حيث

---

(26) تاريخ ابن خياط : ج II ص 399 ونفس الرّواية لدى الأزدي : نفس المصدر ص 70.
(27) عبد الحيّ شعبان : صدر الإسلام والدّولة الأمويّة ص 178 الى ص 180 ويعتمد شعبان على مصدر ابن خيّاط لتقديم تحليله.

كان جيش الضحّاك يضمّ نواة قديمة للخوارج متميّزة عن بقيّة الثّائرين يرجع نشاط بعضهم الى ثورة شوذب قبل ربع قرن. وممّا يؤكّد رأينا، أنّه بعد قتل الخيبري ومبايعة شيبان على رأس الخوارج يذكر الأزدي «وتفرّق كثير من أهل الطّمع عنهم وخذلوهم وحصلوا في نحو 40 ألف»(28). وحسب هذه الرّواية فإنّ ثلثي من كانوا يحاربون مع الضحّاك خذلوا الخوارج بعد تؤكّد فشل ثورتهم مع مقتل الضحّاك والخيبري. ولم يبقى معهم إلاّ اتباع سليمان بن هشام من الذكوانيّة وبعض المحاربين من قبائل ربيعة وعددا من محاربي الموصل من اليمنية والرّبابعة بها مع النّواة الأصليّة للخوارج(29).

وهذه النّواة الأصليّة تمثّل أقليّة ساهمت في تأطير الثّائرين للثورة على الأمويّين وهي لا تعدّ الاّ بعض المئات من المحاربين، نجدهم مع الخيبري عندما هاجم معسكر مروان بـ 400 فارس «من الشراة» معهم أعلامهم وكانوا ينادون يا خيبري - يا خيبري ...!»(30) وأثناء إمامة شيبان نجد مجموعة من الخوارج الجدد الذين التحقوا بهم وهم خوارج الموصل تخلّى بعضهم عن شيبان لما اشتدّ حصار مروان عليهم على غرار القاسم بن حبيب العبدي، وكان على بيت مال شيبان فبايع الخليفة الأموي الذي عرضه بين خوارج الموصل إثر إستسلامهم وقال : «يا معشر الخوارج هذا القاسم بن حبيب، فقالوا «يا عدوّ الله، أكفر بعد إيمان وردّة بعد إسلام؟ » فقال لهم القاسم، يا أعداء الله، أنا بريء منكم ومن دينكم... (31).

(28) الأزدي : نفس المصدر ص 73.
(29) نفس المصدر ص 73 الى 77.
(30) نفس المصدر ص 71 وأخذ الأزدي هذه الرّواية عن تاريخ ابن خيّاط ج II ص 400، حيث نجد تفاصيل ضافية لقتل الخيبري.
(31) نفس المصدر ص 75.

أمّا زعماء الخوارج كالضحّاك وشيبان والخيبري وابن بحدل، فلقد ثاروا على الأمويّين وشاركوا ثورات الخوارج طيلة أكثر من ربع قرن !. ولم يكن إتّباعهم المذهب الخارجي وليد ظرفيّة صعود مروان للحكم ووصول الحزب القيسي ذو النّهج التوسّعي الى السّلطة. بل تدعّم حضورهم في ظرفيّة مواتية، ساعدتهم ثورتهم على أخذ بعد أوسع من ثوراتهم السّابقة.

ويبقى إشكال آخر في دراسة طبيعة ثورة خوارج الجزيرة بالمقارنة مع ثورات الخوارج في العراق وفارس أو اليمن. إذ نجد أنّ خوارج الجزيرة، تميّزوا بعدم تخلّيهم عن العصبيّة القبليّة رغم تعارض الخطاب الخارجي ظاهريّا لهذا التوجّه !. ويبدو أنّ إتّباع العصبيّة القبليّة ليس مجرّد استغلال للقوى القبليّة التي ينتمي إليها الخوارج لدعم ثورتهم بل يبرز من خلال تعلّقهم بعشائرهم وافتخارهم بها في أشعارهم وخطبهم ومواقفهم. فثورة خوارج الجزيرة بأكثر دقّة تبرز كثورة الرّبابعة على القيسيّة في عهد مروان بن محمّد وثورة على أحقيّة قريش في الخلافة سواءا في العهد الأموي أو العبّاسي. ويلاحظ ذلك من خلال شعر لسنبل بن عروة حسب الأزدي وشبيل بن عزرة حسب الطّبري بقوله :

ألم تر أنّ اللّه أظهر دينه *** وصلّت قريش خلف بكر بن وائل(32)

ويبرز هذا التوجّه في شعر الضحّاك عندما ابتهج لدخوله الموصل بقوله :

رائعة تحمل شيخا رائعا *** مجرّبا قد شهد الوقائعا

(32) نفس المصدر ص 68 والطّبري ج 8 ص 213 وتاريخ ابن خيّاط ج II ص 398.

قد صـــادفت شيبـــــان *** مـــلكـــا ضائعـــا(33)

وكانت الخلافة واعية لتعصّب خوارج الجزيرة لقومهم من عشائر ربيعة حيث ذكر الخليفة المأمون العبّاسي والذي كان مطّلعا على الوضع بالجزيرة بقوله : «وأمّا ربيعة فساخطة على الله منذ بعث نبيّه محمّد من مضر ولم يخرج إثنان إلاّ خرج أحدهما شاريا ! ...»(34).

3) أهمّ خصائص خوارج الجزيرة في العصر الأموي

ورجوعا إلى ثورة الضحّاك والخيبري وشيبان، يتبيّن لنا من أحداث الثورة، أنّها اصطبغت بطابع قبلي وطموحاتها في السّيطرة على الخلافة. وهذه العناصر، تطرح إشكال الخطاب الإيديولوجي للخوارج وواقع الثورة حيث نجحت هذه الدّعوة في استقطاب كلّ تلك الأعداد الوافرة من الغاضبين على الحكم الأموي. فهل جماهيريّة ثورة الضحّاك تكمن في اعتدال الخطاب الخارجي بالمقارنة مع تطرّفه في تحرّكات الخوارج السّابقة ؟.

فهل عدّل الخوارج استراتيجيّتهم في الجزيرة لكسب الأنصار دون التخلّي على مواقفهم في تكفير بقيّة المسلمين ممّن يخالفهم في مذهبهم ؟

وكيف تحالفت معهم اليمنية من جند الشّام وأنصار سليمان بن هشام ومواليه ويمنية العراق والموصل من أتباع بن عمر ومنصور بن جمهور ؟

---

(33) الأزدي : نفس المصدر ص 70 .
(34) نفس المصدر ص 409.

إنّ هذه التّساؤلات تطرح إشكالا هامّا لمعرفتنا إلتزام الخوارج بما هو ديني ورفضهم الحسابات السّياسيّة لاعتقادهم الرّاسخ أنّهم على حقّ وهم مجاهدون يحاربون الفئة الباغية، وكلّ مسلم لا يقبل آرائهم في التحكيم. فموقعهم يدلّ على تحكّم الدّين على المعطى السّياسيّ. فكلّ ما يشتمّ منه مصلحة سياسيّة أو التوفيق مع الواقع في نطاقات حسابات سياسيّة ضيّقة مرفوضا لديهم. فهم خاضعون تماما الى أحكام الدّين الإسلامي ويحاولون التّطبيق الحرفي للقرآن في كلّ المسائل البشريّة. فكلّ تنازل سياسي هو تنازل على النصّ القرآني(35).

لكن يبرز من خلال تتبّع ثورة بن بحدل والضحّاك والخيبري وشيبان، أنّه رغم التّحالف مع أطراف عديد للثورة على الأمويين، فلقد بقيت النواة الأولى للخوارج المتشبّعة بالمذهب الخارجي منذ أمد طويل، يبدو أنّها اندفعت في خضمّ الأحداث المتسارعة مع إنتشار العداء للحكم الأموي في أوساط المسلمين الى التأقلم مع الأحداث، لانتداب أكثر ما يمكن من الأشخاص مقابل «التحقيق» إن صحّ القول من إجراءات «تحكيم الأشخاص لامتحانهم في دينهم قبل قبولهم في صفّهم. وتوجد إشارة يبرزها الطّبري في طريقة إنضمام منصور بن جمهور إلى الخوارج حيث ناداهم» إنّي جانح أريد أن أسلم وأسمع كلام الله... قال وهي محنتهم وبايعهم بعد ذلك...»(36). وهذه الرّواية تبرز التّساهل الذي أصبح يتمّ فيه امتحان الأشخاص في دينهم ممّن كانوا قبل ذلك معادين للمذهب الخارجي وحاربوهم ضمن القوّات الأمويّة على غرار بن منصور وأنصار سليمان بن هشام.

(35) الرّجوع الى تحليل حفيظ لطبيعة الإيديلوجيّة الخارجيّة : Djaït la grande discorde p 271-273 .

(36) الطّبري نفس المصدر ج ٧ ص 209.

وهذا التّساهل يخفي توجّه الخوارج الى التكتيك السّياسي للتحالف مع المعارضين للحكم الأمويين لتوسيع قاعدتهم. وممّا يؤكّد أنّه مجرّد تحالف سياسي وقتي هو بقاء هذه المجموعات الجديدة من جند الشّام المعارض واليمنيّة وبعض المحاربين الذين التحقوا بهم بعد مبايعتهم للخوارج متميّزين عنهم سواءا في خوضهم المعارك دونهم على غرار معركة كفر توثا حيث هاجم الضحّاك جيش مروان بمجموعته الخارجيّة دون بقيّة الأطراف المحاربة معه، أو مهاجمة الخيبري لمعسكر مروان بمقاتلته فقط. ويبدو أنّهم في الصّلاة كانوا يصلّون بمعزل عن الخوارج !. ويبرز كذلك في تخليّهم عنهم بعد هزيمة الخيبري ممّا يؤكّد عدم إيمانهم بالإيديلوجيّة الخارجيّة ! وهذه الخيانة برزت حتى بين القادة العسكريين الذين بايعوا الخوارج انسحبوا منهم . كعبد الملك بن بشر التغلبي الذي بشّر مروان بن محمّد بمقتل الضحّاك بعد أن هرب من معسكر الخوارج(37). أو القاسم بن الحبيب الذي كان على بيت مال الخوارج والذي بايع مروان مع دخوله الموصل(38).

والاستنتاج الأخير الذي يبرز من خلال هذه الثورة الخارجيّة هي ما صاحبها بالجزيرة من انتشار حالة الفوضى وانعدام الأمن. وكما ذكرنا فإنّ هذه الثورة منذ خروج بن بحدل على الأمويين، إستندت على بعض القبائل كبني شيبان. وهذه القبيلة كما رأينا حافظت على بداوتها ونزغتها الى الغزو والنّهب. فاستغلت هذه الثورة وحالة الفراغ السّياسي للتوسّع الجغرافي شمال الجزيرة

(37) نفس المصدر ج ٧ ص 233.
(38) الأزدي نفس المصدر : ص 75.

فيها سيعرف في العهد العبّاسي بديار بكر على حساب المجموعات المستقرّة والقيام بأعمال النّهب واللّصوصية في غزواتهم. ونجد ذكرا لغزواتهم في نهاية الحكم الاموي والسّنوات الاولى من الحكم العبّاسي في حوليات التلمحري والذي ذكرهم باسم عرب ميّافارقين وهي هضبة تمتدّ شمال الجزيرة، حيث اجتاحوا المنطقة منذ سنة 130هـ/747م وأذوا السّكان في هذه الهضبة وفي منطقة بلد التي كانت تحت هيمنة الخوارج. وامتدّت أعمال الغزو الى غرب الجزيرة حيث شاركهم حلفاءها من قبائل ربيعة كعروش بكر الاخرى وتغلب والنّمر بن قاسط في غزواتها على مجموعات الفلاّحين بسبب تعطّل عمل الحاميات العسكرية بالجزيرة أو تورّط المقاتلين من الجيش الاموي في مساندة قبائلهم في هذه الاعمال(39).

أمّا الخوارج الجزيرة فلقد كان يتفاخرون ببطولاتهم الحربية ضدّ الجيش الامويّ ومن أبرز أشعارهم تلك الاراجيز التي ينشدونها في الحرب لإلهاب شعور المقاتلين وحثّهم على القتال والاستشهاد. ومن هذه الاشعار :

نحن الشراة لا شراة غــزّة *** ولا شــراة الكــوفة المبترّة

نحن بني شيبان أهل الجنّة *** نقتلكم على هدى لا ظنّة(40)

وهذه الارجوزة فيها افتخارهم على بقيّة الخوارج في العراق والشام واعتزازهم لانتماءهم لبني شيبان. وتوجد أدبيّات شعريّة كثيرة من أجملها رثاءهم لمقتل صالح بن مسرّح أو شوذب الخارجي أو بقيّة رفاقهم في الحرب. وفي هذا الشعر تعظيم للشهادة التي هي الغاية الاسمى في حربهم. ومن أجمل المرثيّات

(39) حوليّات دنيس التلمحري ص 52 - 56.
(40) إحسان عبّاس : شعر الخوارج ص 114 وتوجد عدّة أشعار لخوارج الجزيرة في هذا المرجع.

قصيدة لخوارج قتلوا في منطقة دقوقا بالجزيرة :

شباب أطاعوا الله حتى أحبّهم *** وكلّهم شاريا يخاف ويطمع

فلّما تبوّؤوا من دقوقا بمنزل *** لميعاد إخوان تداعوا فأجمعوا

دعوا خصمهم بالمحكمات فبيّنوا *** ضلالتهم والله ذو العرش يسمع

بنفسي قتلى في دقوقا غودرت *** وقد قطعت منها رؤوس وأذرع(41)

ويبرز من هذا الشّعر إيمانهم الشديد بقضيّتهم وتركيزهم على مسألة التّحكيم الذي يحدّد انتماءهم لمذهبهم أو تكفير الخصم إذا ما لم يوافقهم في رأيهم في التحكيم بين علي ومعاوية. والرّفض يعني إيذان الحرب لأنّ قبوله هو كفرا بالإسلام في رأيهم !.

كما تبرز في الشعر مشاهد للمعارك التي خاضها الخوارج ضدّ الأمويّين وشهادة حيّة لأعمالهم الحربيّة. ومن أبرز أشعار الخوارج التي اشتهرت في المصادر والتي قيلت عندما صلّى والي العراق المخلوع ابن عمر والأمير الأموي سليمان بن هشام وراء الضحّاك وفيها بيت :

ألم تر أن الله أظهر دينه *** وصلّت قريش خلف بكر بن وائل(42)

وحول المصادر التي قدّمت الرّوايات التي يتحدّث عن عمل الخوارج بالجزيرة في العهد الأموي نجد في مقدّمتها كتب أبو مخنف وهو لوط بن يحيى

(41) نفس المرجع ص 61.
(42) الأزدي : نفس المصدر ص 68.

بن سعيد بن مخنف الأزدي من مدرسة الكوفة وجدّه من أصحاب علي، ذكره ابن نديم في الفهرست. واستعمل رواياته خصوصا الطّبري وجمع من المؤرّخين ومن هذه الكتب :

* كتاب شبيب الحروري وصالح من مسرح ونجد منه مقتطفات في كتاب الطّبري.

* كتاب الضحّاك الخارجي واستعملـــه الطّبـــري في أحداث 126 هـ و127 هـ. 743 ـ 744 م .

وأبو مخنف، عراقي الأخبار، لذلك يركّز أكثر على ثورة خوارج العراق أو عمل خوارج الجزيرة بهذه المنطقة. ولا يهتمّ كثيرا بعملهم في الجزيرة.

كما إعتمد المؤرّخون على كتب دوّنت ثورات خوارج الجزيرة وهي ضائعة حاليّا على غرار :

* كتاب الخوارج للمدائني.

* كتاب الخوارج للهيثم بن عديّ (43).

واعتمد الأزدي وخليفة بن خيّاط على هؤلاء الإخباريين بالإضافة الى رواة جزريّين من مدرسة الموصل وحرّان أساسا كأحمد بن زهير أو عمر بن عبيدة. وتتلاقى رواياتهم مع روايات كبار الاخباريين مع بعض الجزئيّات الخاصّة بهم.

---

(43) إبن النديم : الفهرست ص 110 و 112 وص 116.

4) الخوارج بالجزيرة في العصر العبّاسي : من حكم أبو العبّاس الى نهاية حكم المعتصم :

أ) تواصل ثورة الخوارج في العصر العبّاسي الأوّل :

مثلت حركة الخوارج بالجزيرة في العصر العبّاسي تواصلا مع حركتهم في العصر الأموي. ومثلت ثوراتهم في هذه الفترة من أهمّ مميّزات الجزيرة إلى أن اعتبرت المنطقة «بلاد الشراة»(44).

وعلى غرار ثورات الصّفريّة في بلاد المغرب، فإن ثوراتهم بالجزيرة، تواصلت بها منذ بداية الحكم العبّاسي، نظرا للاختلاف الايديلوجي بينهم وبين العبّاسيين، يبرز من خلال خطب خوارج الجزيرة في هذه الفترة، حيث عابوا على العبّاسيين ما عابوه على الأمويّين وأنّهم بغاة ظلمة، حصروا الخلافة في قريش في آل بني هشام، لذلك وجب الخروج عليهم ومحاربتهم.

وبدأ تحرّك الخوارج بين مجموعات ربيعة في نفس السّنة التي بيّض فيها أهل الجزيرة ضدّ العبّاسيّين سنة 133هـ/750م وقاد ثورتهم «بريكة» والذي ترأّس جموع ربيعة حسب الطّبري، وتحالف مع فلول جيش مروان الثاني بقيادة زعيم قيس إسحاق بن مسلم العقيلي. وكان مجال الثورة بين دارا وماردين بديار بكر. لكن نجح والي الجزيرة أبو جعفر العبّاسي في قتله في معركة طاحنة وإخماد ثورته(45).

(44) ابن عبد ربّه : العقد الفريد ج 7 ث 280 يقول ك «والجزيرة خارجيّة...ش.

(45) الطّبري ج VII ص 445 - 448.

وما يهمّنا في هذه الثورة، هو تحالف الخوارج مع أنصار وموالي الامويين، أعداء الأمس بسبب وعيهم بخطورة وجود جيش أعجمي محتلّ يهدّد وجودهم. وتقول رواية بن زهير «وبحرّان يومئذ موسى بن كعب (والي الجزيرة) في ثلاثة آلاف من الجند، فتشبّث بمدينتها، وساروا إليه مبيّضين من كلّ وجه وحاصروه ومن معه وأمرهم مشتت وليس عليهم رأس يجمعهم !»(46).

وهذه الرّواية، تؤكّد أنّ ثورة أهل الجزيرة وتبييضهم لا ترتبط باتّباعهم المذهب الخارجي بل في رفضهم للحضور الخراساني. وفي ظلّ هذه الأوضاع، رأست ربيعة خارجي وهو بريكة، يبدو أنّه ممّن حارب مع الضحّاك والخيبري وشيبان. ويبدو، أنّ محاولة إسحاق بن مسلم للتّحالف مع بريكة حيث بعث أخاه بكّار لتوحيد جهودهم لمقاومة العبّاسيين لكن دون جدوى، حيث نجح أبو جعفر كما قلنا في التخلّص من بريكة.

ورغم أنّ هذه الثورة تندرج ضمن الثورة العارمة لجموع أهل الجزيرة على الحكم النّاشيء، فإنّ وقوف الخوارج مع الثائرين يبيّن عداءهم للدّولة العبّاسيّة، وهو بداية للحرب الطّويلة التي شنّها الخوارج على هذه الدّولة بالجزيرة.

وتواصلت أنشطة الخوارج بين مجموعات ربيعة وخصوصا في شيبان، حيث برزت إثر أحداث الحرب بين المنصور وعمّ عبد الله، ثورة خارجيّة خطيرة بقيادة ملبّد بن حرملة الشيباني سنة 137هـ/754م بناحية الجزيرة، لتمتدّ ثورته إلى أرض الموصل. وتوجد جزئيات هامّة لأحداث هذه الثورة في الطّبري، إعتمد ابن

---

(46) الطّبري ج VII ص 446.

أثير في ذكر أحداثها. ويقدّم الطّبري روايتين، الاولى تذكر ابتداء الثورة سنة 137هـ/754م دون ذكر الرّاوي والثانية رواية الواقدي يحصرها في سنة 138 هـ.

وتختلف رواية الأزدي للثورة بعض الشيء، عن الرّوايتين التي يقدّمهما الطّبري.

لكن تجمع هذه الرّوايات على أنّها ثورة خطيرة بعض الشيء لناحيتين على الاقلّ وهما :

- حدوثها بعد خروج الخلافة من أزمة حادّة كادت أن تؤدّي الى حرب أهليّة شاملة بين المنصور وعمّه عبد الله وما عقبها من قبل أبو مسلم.

- عدم نجاح المنصور في هزم ملبّد والذي تمكّن من هزم 8 جيوش ! ممّا يدلّ على فشل الخطّة الامنيّة القائمة بالجزيرة.

وتدلّ روايتي الأزدي، إبقاء العبّاسيّين على رابطتي الموصل وحرّان الموروثة عن الامويين لحفظ الأمن بالولاية ضدّ الخوارج وهما رابطتان لهما مهاما محدّدة لقمع حركة الخوارج كما رأينا. ولكن لم تنجح كلا الرّابطتين في هزم الخوارج وتكبّدتا هزائم منكرة لقواتهما(47) وهذا ما دفع بالخليفة الى بعث جيش بقيادة يزيد بن حاتم المهلبي، فهزمه ملبّد، وقتل أحد قادته. وأمام خطورة هذه الثورة، بعث المنصور بنخبة جنده من حرسه الخاصّ عليهم المهلهل بن صفوان وألفين مقاتل، وهزمهم ملبّد، وكان نفس المصير لجيش الخراسانية بقيادة نزار

(47) الأزدي : نفس المصدر ص 166.

فاختار المنصور بعد هزم نخب جيشه، أن يكلّف صاحب أمر الخوارج بالجزيرة وهو ابن مشكان في جمع هامّ من المقاتلة من حاميات الجزيرة على ما يبدو لمواجهة الخوارج، لكن نجح ملبّد في هزمهم(48). وأصبح الخوارج في وضع قوّة سمح لهم بمحاصرة والي الجزيرة حميد بن قحطبة في حرّان وأجبر على دفع إتاوة للخوارج للكفّ عنه !. لذلك بعث الخليفة بجيش جديد تحت قيادة عبد العزيز بن عبد الرّحمان وضمّ إليه بن مشكان في بقيّة جيشه المنهزم فكان مصير هذه الحملة هو الفشل. ويبدو أن الخليفة كان واعيا لطموحات الخوارج في السّيطرة على الجزيرة واستهدافهم الموصل في خطّة للهيمنة على هذه البلاد على غرار ما قام به الضحّاك الخارجي سابقا. وهو ما دفع بالمنصور الى تكليف أحد أعظم قادته وهو خازم بن خزيمة في جيش كبير من المروروذيّة، يعدّ 8 آلاف مقاتل لتتبّع ملبّد الى أن يتمّ القضاء على جيشه وهو ما تمّ لخازم، حيث نجح في استدراج ملبّد للحرب من بلد الى أرض حزّة فقتله مع معظم الخوارج(49). وتكتشف من خلال رواية المعركة، أنّ جيش الخوارج لم يكن كبيرا ولا يتجاوز 2000 مقاتل، على ما يبدو، في مواجهة أكثر من 8 آلاف مقاتل يفوقهم عتادا وعدّة. ولا نعلم ان كان ملبّد، من فلول جيش الضحّاك، وهو إحتمال قائم، حيث أن الخوارج، كانت تأمّر عليها من كان يعرف بورعه، وقدم خروجه على «السّلطان». وترعرعت حركة ملبّد في قبيلة شيبان حيث كان بعض محاربيها من المناصرين الكبار للدّعوة الخارجيّة.

---

(48) نفس المصدر ص 166 و 167.

(49) ابن الأثير نفس المصدر ج V ص 485 و 486 والأزدي نفس المصدر ص 167.

ويبدو أنّ المنصور، انبهر بالقدرات القتاليّة للشيبانيين، حيث حاربهم قبل ذلك في ثورة بريكة وارتبط بصداقة مع أحد زعمائها وهو معن بن زائدة. ولذلك عيّنه على اليمن وكلّف ابن أخيه يزيد من مزيد كما رأينا على عمل الجزيرة وأرمينية.

ولقد قام المنصور بعد إخماد هذه الثورة بتعزيز دور رابطة الموصل. وحسب رواية أوردها الأزدي حول شخصيّة حرب بن عبد الله الرّاوندي والذي كان من كبار قادة الجيش «أنّه كان في 2000 فارس مقيما بالموصل على روابطها... ويكمل الرّواية بذكر أنّ رسم الموصل، أن يكون صاحب الرّابطة «متبتّلا» لحرب الخوارج. ويعزّز ذلك برواية ثانية لابن سيّد من أحد القادة الخراسانيين واسمه داود بن سليمان قال «كنا بالموصل مع حرب الرّاوندي، رابطة في ألفين لمكان الخوارج»(50) وتعيين شخصيّة في حجم حرب الرّاوندي، تدلّ على حرص الخليفة في تعزيز الجانب الأمني بالجزيرة لمنع ثورة الخوارج. ويبدو أنّ هذه الإجراءات، توصّلت الى إخماد ثوراتهم وقتيّا طيلة أكثر من عشر سنوات الى أن ظهر بشرق الموصل خارجي من منطقة بافخّاري في مرج الموصل يدّعي حسّان بن مجالد الهمداني في سنة 148هـ/765م(51).

وثورة حسان الهمداني طريفة ومفيدة لمعرفة نشاط الخوارج بدقّة في منطقة الموصل حسب الرّواية التي أوردها الأزدي، حيث يقدّم سيرة هذا الخارجي

---

(50) الأزدي : نفس المصدر : ص 195.
(51) نفس المصدر ص 203 الى ص 205.

لمعرفته الدّقيقة لسير يمنية الموصل حيث يبرز إنتماءه لهمدان الكوفة الذين هاجروا الى بافخّاري شرق الموصل. وأخذ هذا الخارجي مذهبه من جدّه يحيى بن مالك الأجدع الذي كان من أصحاب علي بن أبي طالب والذي خرج عليه بعد التّحكيم. وكوّن حسّان بالجهة، فرقة خارجيّة إلتزمت بآراء جدّه والذي كان من قدماء الخوارج الذين لهم إجتهاداتهم وأخذ هذا المذهب كذلك من خاله حفص بن أشيم والذي كان أحد فقهاء الخوارج المجتهدين كان مقيما ببافخّارى وكان الخوارج يعقدون العقود عنده قبل خروجهم للقتال على عادتهم، لمكانته وأمانته عندهم، ويتناظرون عنده في الفقه وأمور الدّين، فأثّر خاله كذلك في تكوينه، وذكر في الرّواية أنه اجتمع على حسّان رأي الجدّ والخال !»(52).

وكان خروجه محلّ إستغراب الخليفة المنصور، لاعتقاده الرّاسخ أنّ الهمدانيين هم من الشيعة العلويين(53). واعتمد الأزدي على رواية من آل الصّقر بن نجدة والذي كان في تلك السّنة صاحب أمر الخوارج بالموصل، وكان متطلّعا على أحداث الثورة. وتمثّلت هذه الأحداث في محاربة حسّان للصّقر بن نجدة الذي كان كذلك همدانيّا، فهزمه حسّان، وقام الخوارج بمهاجمة سوق الجسر الذي يوجد على دجلة شرق الموصل وأحرقوه، ونقل الخوارج إثر ذلك نشاطهم الى غرب الجزيرة بجهة الرّقة لكن يبدو أنّ رابطة حرّان شدّدت الخناق عليهم، فقرّر حسّان نقل النشاط الخارجي الى مناطق أخرى، حيث انحدر الى البصرة وانتقل مع بعض رفاقه الى السّند، حيث راسل هناك أهل عمان يدعوهم الى مذهبه ويستأذنهم في

(52) الرّجوع الى الأزدي : نفس المصدر ص 204 الى ص 206.
(53) نفس المصدر ص 206 وابن الأثير : نفس المصدر ج ٧ ص 584 الى 586.

الهجرة إليهم، فلم يجيبوه، ويشبه ما قام به حسّان عمل شيبان بعد هزيمته في الموصل حين عمل إلى الجوء لعمان بعيدا عن عيون السّلطة، لكن فشل حسّان في الحصول على «دار هجرة» فأجبر للرّجوع الى وطنه بالموصل، فعاود محاربة رابطة الموصل بقيادة الصّقر بن نجدة والذي استنجد بالقوات الهمدانيّة تحت لواء الحسن بن صالح ولكن هزمه الخوارج واعتقلوا أحد القادة القيسيّين والحسن بن صالح. لكن كان لقرار حسّان قتل القيسي والإبقاء على الهمداني، أن جعل فقهاء الخوارج يستنكرون عمله ويتّهموه بالتعصّب لقومه فانصرفوا عنه، فضعف جانبه (54) ولم تذكر بقيّة رواية الآزدي مصير حسّان بعد ذلك، لكن تؤكد أنّ نتائج خروج حسّان في منطقة الموصل ومناصرة بعض المواصلة له، جعل الخليفة العبّاسي يفكّر في ارتكاب مجزرة جديدة في أهل الموصل كما رأينا سابقا ولم يشفع لهم إلاّ تدخّل فقهاء الكوفة وابن حنيفة لاثناء الخليفة عن هذا العمل(55).

وإثر ثورة حسّان ورغم بقاء الحضور الخارجي بالجزيرة، فلم تذكر خروج ثورات أخرى إلاّ في عهد الخليفة محمّد المهدي، حيث خرج على العبّاسيين عبد السّلام بن هاشم اليشكري في جموع من ربيعة سنة 160هـ/776م الى سنة 162هـ/778م فتواصلت الثورة بأرض الموصل قرابة السّنتين، وامتدت في تلك الفترة الى غرب الجزيرة وأرض قنسرين، وكان موقف الخليفة قبل محاربته هو مراسلة الثّائر

(54) الآزدي : نفس المصدر ص 204 و 205 .
(55) نفس المصدر ص 204 و 205.

ليقنعه بضرورة التخلّي عن الثورة والتحكيم وموادعة السلطان ويتوعّده عواقب مواصلته مروقه.

وهذه الرّسالة ليست موجّهة فقط لهذه الغاية بل هي كذلك رسالة دعائيّة، توضّح موقف الخلافة العبّاسيّة من الخوارج، وهي تشبه بذلك رسالة المنصور الى محمد بن النفس الزّكيّة في الرّد على خصومهم، وتندرج بذلك ضمن الحملة الدّعائيّة التي قام بها العبّاسيّون لخدمة شرعية حكمهم. ومحتوى هذه الرّسالة تتمثّل في دفاع المهدي عن أحقيّة أسرته في الحكم، لأنّه من آل البيت وأبرز غضبه من تجرّأ الخوارج في شتم علي بن أبي طالب ومروقهم على الحكم(56).

ويقول في الرّسالة «إنّي قد عجبت من إقدامك في بغيك، حيث تكلّمت بكلمة حقّ تريد به باطلا، ما اللّه مجزيك به وسائلك عنه، مع مناوئتك خليفته ونزعك يدك من طاعته وشتمك أبا الحسن علي بن أبي طالب صلوات اللّه عليه ووقوعك فيه وتنقصك إيّاه، وولايتك لمن عاداه الله عزّ وجل. فاللّه عزّ وجلّ عصيت ونبيّه صلّى اللّه عليه وسلّم عاديت، فقد أتاك يقينا ماضيا، وحديثا صادقا عن النبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم : من كنت مولاه فعليّ مولاه. فكنت المكذّب بذلك

(56) حول مراسلة المنصور لمحمد بن النفس الذّكية العلوي : الأزدي نفس المصدر ص 182 - 187 ورسالة المهدي لعبد السّلام الخارجي في نفس المصدر : ص 238 وكذلك ابن خياط في تاريخه ذكر رسالة الخارجي للخليفة ج II ص 476 و 477 وتوجد في قسم الملاحق.

والحائد عنه، حتى إنقطعت مدّتك وتماديت في غيّك، فأقسم لأغزينّك أجنادا مطيعة وقوّاد منيعة، هم الذين يفضّون جمعك، ويهتكون بناك، فاعمل لنفسك، أودع»(57).

ويبدو أنّ روابط الموصل والجزيرة، لم تتمكّن من محاصرة الثورة طيلة سنتين، فنجح عبد السّلام في جمع الخوارج بالجزيرة والسّيطرة على بعض النواحي: وتتطلّب ذلك من الخلافة توجيه أحد كبار القادة العسكريين وهو شبيب المرورذي الذي تعقب بجيشه الخوارج الى منطقة قنسرين ونجح سنة 162هـ/778م في هزمهم وقتل أميرهم عبد السّلام اليشكري(58).

وفي نفس المنطقة بين الموصل وديار ربيعة، خرج في نهاية حكم المهدي سنة 168هـ/784م ياسين التميمي الذي نجح في هزم روابط الموصل وسيطر على ديار ربيعة وأنحاء أخرى من الجزيرة، وكان ياسين من القائلين بمذهب صالح بن مسرّح وشوذب الخارجي. وتتطلّب إخماد هذه الثورة، توجيه المهدي جيشان، واحدا بقيادة محمد بن فرّوخ والثاني بقيادة هرثمة بن أعين، وخاضا حربا شديدة لم تذكر تفاصيلها في مختلف الرّوايات، لكن كانت نتيجتها، هزم الخوارج وقتل ياسين(59).

وبعد سنة واحدة في 169هـ/785م وبمنطقة ديار ربيعة، خرج حمزة بن إبراهيم، وواجه روابط الجزيرة في ولاية حمزة بن مالك الخزاعي وكان على هذه

(57) الأزدي نفس المصدر ص 238 وابن الأثير: نفس المصدر ج VI ص 57.
(58) الأزدي نفس المصدر ص 238 241-.
(59) الأزدي نفس المصدر: ص 258 + ابن الأثير: أخطأ عندما ذكر أنّ الخارجي هو حمزة بن مالك الخزاعي الذي كان والي الجزيرة والموصل في تلك السّنة في ج VI ص 95.

الرّوابط أبو نعيم بن موسى ودارت بينهما معركة كبيرة في باعربايا بنفس المنطقة فهزم حمزة روابط الجزيرة. وهذا ما جعل صاحب أمر الخوارج وهو بليل الذي لم يكن صاحب روابطها، يخطّط لاغتيال الخارجي ببعث رجلين من أصحابه، قاما بقتله(60) وإنّ إلتجاء صاحب أمر الخوارج الى عمل الاغتيال، يدلّ على إحساس والي الجزيرة بفشل العمل العسكري في حصر هذه الثورة والاغتيال كان يستهدف أمير الخوارج لقناعته بهشاشة وحدة الجماعات الخارجيّة الصّغيرة تحت إمرة حمزة. وأدّى التخلّص منه، الى إخماد هذه الثورة والذي يبدوا فيه عدم نجاح الخوارج في الإتّفاق على إمرة أحدهم ليواصل الثورة.

ودخلت الحركة الخارجيّة منذ تولّي هارون الرّشيد الخلافة منعرجا جديدا بالجزيرة، في مرحلة برزت فيه الإمارة الرّستميّة ببلاد المغرب، فأصبح الخوارج الصّفريّة بالجزيرة لهم طموحات للهيمنة على هذه الولاية، يبرز في تعدّد الثورات وخطورتها قبل انتقال الرّشيد الى الرّقة الرّافقة. واتّسمت حركة الخوارج في هذه الفترة بثلاثة ظواهر وهي :

- رفض سلطة العبّاسيّين بحدّة، لأنّها تقوم بالنّسبة لهم على الجوروالّلامساوات.

- عجزهم على إقامة هياكل إمارة على أنقاض الهياكل الإداريّة العبّاسية بالجزيرة في مجال نفوذهم قادرة على تأطير البنى الموجودة آنذاك في مجتمع الجزيرة.

(60) الأزدي : نفس المصدر 267 والطّبري ج VI ص 236 وابن الأثير : نفس المصدر ج VI ص 112 له نفس رواية الأزدي.

- توسّع قاعدة الخوارج في اتّجاه المجموعات المحليّة بفضل توسيعهم رقعة الإسلام في أوساط أهل الذمّة، خصوصا بين العرب النّصارى من مجموعات ربيعة كتغلب والنّمر بن قاسط وبعض عروش بكر لميلهم الى التبليغ والدّعوة والنّقاش في المسائل العقائديّة، ممّا أصبغ حركة الخوارج بالمنطقة طابع محليّ متميّز لا نتوفّر على تفاصيله لكن يبرز هذا النّشاط في كسب مجموعات جديدة الى الإسلام.

وكان أوّل ثورة، واجهها الرّشيد هي ثورة الصّحصح الحروري سنة 171هـ/787م في ولاية محمّد بن فرّوخ على الجزيرة والذي كان مكلّفا سابقا بقمع ثورة ياسين. وكان خروج الصّحصح في منطقة بلد وسنجار بديار ربيعة إلى أن إمتدّت الثورة شمالا إلى أرض نصيبين. ورغم انهزام الخارجي أمام جيش علي بن حرب فإنّه نجح في نقل عمله الحربي الى أرض الموصل، حيث هزم رابطتها ورجع لديار ربيعة ليسيطر على بعض نواحيها. فكلّف الخليفة أمام عجز والي الجزيرة نصر بن عبد الله الضّبّي بملاحقة الخوارج ونجح في قتل الصّحصح (61) وذكرنا، نتيجة هذه الثورة في إعدام بن فرّوخ بسبب تهاونه في قمع الثورة. وهو دليل على حرص الخلافة في عدم التّسامح مع أيّ خطأ يرتكبه أعوانها في تتّبع عمل الخوارج الذي يمثّل أوّل خطر بهذه المنطقة.

ورغم صرامته مع ولاته والقادة العسكريّين المكلفين بمهام أمنيّة بالجزيرة، فلقد تواصل خروج الشراة مثل الفضل بن سعيد الرّاداني سنة 173هـ/789م لتتواصل

(61) الأزدي : نفس المصدر ص 272 - 275 وابن الأثير : نفس المصدر ج VI ص 133، يضع الثورة سنة 176 هـ وهي لنفس رواية الأزدي.

ثورته سنتين الى 175هـ/791م في ديار ربيعة، حيث هيمن على بعض نواحيها طيلة هذه الفترة، حيث أجبر سكّان مدنها على دفع الأموال له، والتجاءه الى تصفية من يعارض نفوذه، على غرار ما فعله في سكّان قرية من قرى نصيبين، قتل منهم 12 رجلا وذكرنا سابقا الآثار السلبيّة لهذه الثورة على هذه المدن وامتدادها الى جنوب أرمينية. ونجحت رابطة الموصل في ملاحقته الى منطقة الزّاب وهزم الخوارج بعد قتل الفضل(62).

ووعيا من الخلافة بأهميّة الحضور الخارجي بين الزّبابعة بديار ربيعة، فلقد عزّز حامية نصيبين بقيادة ابراهيم بن خازم بن خزيمة وعزّز كذلك رابطتي حرّان والموصل لحصر الحضور الخارجي(63) لكن لم تقدر هذه الرّوابط في حفظ الأمن، حيث ظهرت بمنطقة الموصل حركة عصيان ضريبي بقيادة العطّاف شارك فيها خوارج المنطقة بالموازات مع بروز أحد أخطر الحركات الخارجيّة بالجزيرة وهي حركة الوليد بن طريف التغلبي الشّاري والذي خرج محكّما بالجزيرة سنة 177هـ/793م حسب الأزدي وسنة 178هـ/794م حسب الطّبري. واستهدف حامية نصيبين نظرا لوجود القيادة العسكريّة بزعامة إبراهيم بن خازم وبسبب قوّة حضور تغلب بهذه المدينة ونواحيها واعتبارا أنّ نصيبين تعتبر عاصمة ديار ربيعة التي تسيطر فيها تغلب على عديد النّواحي من قرى ومدن بمنطقة الخابور وحول نصيبين وبين هذه الجهة

---

(62) ابن الأثير نفس المصدر ج VI ص 141 والأزدي : نفس المصدر ص 280.

(63) الأزدي : نفس المصدر : ص 280 وكذلك تاريخ ابن خيّاط ج II ص 485 حيث يعطي تفاصيل دقيقة للثورة 485 - 487.

وسنجار. وكان تخلّصه من هذه الحامية يعتبر، انتصارا باهرا للخوارج بالمنطقة، جعل الوليد ينقل العمل الحربي الى أرمينية طيلة أكثر من سنة(64).

واستغل الوليد كما رأينا حالة النّقمة من أعمال التعسّف والظّلم على السّكان التي مارستها الدّولة كما رأينا في فصل سابق. وحسب الأزدي، فإنّ قوم وليد تعرّضوا قبل سنوات إلى أعمال الإغارة والتقتيل من قبل روابط الموصل بقيادة روح بن صالح الهمداني والذي شغل خطّة صاحب صدقات بني تغلب فيما بقي منهم على النّصرانية. ولقد واصل أخوه حاتم بعد قتله حملاته على بني تغلب(65).

واستغل الخوارج الذين كان معظمهم من الرّبابعة، هذه الأرضية السّانحة لجمع الغاضبين على السّلطة والشروع في هذه الثورة الخطيرة التي امتدّت على مجال أرمينية والجزيرة والجزء الغربي من أذربيجان وجنوبا الى أرض السّواد بالعراق. ولقد تعرّضت المجموعات الحضريّة الى أعمال القتل والسّلب، كماحدث في نصيبين على الارامئين والتّغالبة النّصارى حيث قتل فيها 5 آلاف شخص ! وامتدّ القتل الى أعيان المدينة على غرار المعافى بن صفوان التّغلبي. ولقد تدخّل جعفر بن عبد الله بن هشام بن عمرو التّغلبي وهو من أحد أعظم بيوتات تغلب ومن المحتمل أن يكون زعيم تغلب في عصره في إرضاء الخوارج بفدية ماليّة ثقيلة لينسحب الخوارج من نصيبين. أمّا والي الجزيرة عبد الملك بن صالح فلقد حاصره الخوارج في الرّقّة(66).

(64) الأزدي : نفس المصدر : ص 280.

(65) الأزدي : نفس المصدر ص 299 وحول أعمال التعسّف على تغلب الرّجوع الى ص 268 و 269.

(66) الأزدي : نفس المصدر ص 282 + ابن الأثير : نفس المصدر ج الأزدي : نفس المصدر ص 141 والعيون والحدائق ص 410 والأغاني ج XII ص 93 الى 95.

ومع تدهور الوضع بالجزيرة، بدأت تحرّكات السّلطة لاستئصال الخوارج والمتمرّدين عليها فكلّف يزيد بن مزيد بحرب الخوارج بعد إنهزام جيش يونس بن خازم ومعمّر بن عيسى العبدي، ونجح كما رأينا في التخلّص من الوليد بن جشم(67).

وفي فترة انتقال الخليفة الى الرّقّة - الرّافقة، تكثّفت الاعمال الامنيّة برز في قرار تخريب أسوار الموصل وإهدار دماء العديد من المواصلة. ولقد رأينا ما قاله الرّشيد في سبب إقامته بالرّقة أنّه «يريد المناخ على أهل الشقاق والنّفاق». ويشير إلى وجود المارقة والمتسلّطة ومخيفي السّبيل(68) وهذا الحضور الامني القويّ لجهاز الحكم بالجزيرة، جعل تحرّكات الخوارج تخمد في المهد حيث سيطر في الاوّل على أرض الموصل وتعقّب فيها الخوارج الى المناطق الجبليّة شرقا بمنطقة شهرزور.

وفي سنة 184هـ/800م نجح جيش الخلافة في القضاء على ثورة أبو عمرو الشّاري وسبق لجيشه أن قضى على ثورة خراشة الشيباني الذي كان يغير على السّواد(69) وفي كلّ من ثورة أبو عمرو وخراشة يتولّى الخليفة بنفسه إدارة الاعمال الحربيّة ضدّ الخوارج بتكليف قادته بهذا العمل ولا يبرز دور رابطتي الموصل وحرّان واضحا في هذه الاعمال الامنيّة، حيث أصبح قمع ثورة الخوارج من

(67) الازدي : نفس المصدر ص 282 وابن الاثير : نفس المصدر ج VI ص 141.
(68) ابن الاثير : نفس المصدر ج VI ص 69 والطّبري نفس المصدر ج VI ص 318 و 319.
(69) الازدي : نفس المصدر ص 291.

مهام جيش الخلافة المركزي وذكرنا أخيرا من كتاب «الأغاني» حول أخبار أشجع السّلمي أنّه كان حاضرا على عمليّات الإعدام في قصر الرّشيد بالرّقّة(70).

ويبدو من خلال الرّواية أنّ المقتولين هم إمّا خوارج او قاطعي السّبيل. تولّى جلّاده قتلهم وذكرنا أنّ الإضافات المعماريّة التي أقامها الرّشيد في الرّقّة تدلّ على الدّور الأمني الموكول لهذه المدينة بالجزيرة.

كما توجد إشارة أخرى يذكرها الطّبري في خبر محنة البرامكة، أن الرّشيد قدم بعد قتل وزراءه من البرامكة الى بغداد فأخرج من السّجن شخصا يعرف بالوليد بن جشم الشاري وإسمه يشابه إسم الوليد الشاري الذي قتله بن مزيد. وتمّ قتل هذا الأسير في 187 هـ/802م(71).

ونجح في نفس السّنة في القضاء على ثورة خارجيّة بآمد في ديار بكر، يقودها عبد السّلام الخارجي بعد أن قتله يحيى بن سعيد العقيلي(72).

وذكرنا إشارات في الأغاني، تدلّ على تجريد الرّشيد السّيف في ربيعة ويبدوا أنّ أعمال القتل هذه ترتبط بانتشار المذهب الخارجي بينهم.

لكن هذا النّظام الأمني الذي أقامه الرّشيد، ذهب سدى مع اندلاع الحرب الأهليّة إثر وفاته بين ابنيه الأمين والمأمون وما انجرّ عنه من انخرام الوضع الأمني بالجزيرة كما حلّلناه، حيث انتهز الخوارج هذه الظّرفية، للخروج على

---

(70) الأغاني: ج XVIII ص 147 في أخبار أشجع السّلمي.
(71) الطّبري: نفس المصدر ج VIII ص 302.
(72) نفس المصدر ج VIII، ص 306.

السّلطة، وتنفرد المصادر السّريانيّة كما رأينا بإبراز عمرو الخارجي الذي تحالف مع نصر التي اعتبرته هذه المصادر خارجيّا لكن استبعدنا هذا الرّأي. واعتمد السّريان على رواية مباشرة للأحداث من دنيس التلمحري نقلها ابن العبري يذكر فيها أنّ عمرو كان مسجونا بالرّقّة بسبب إرتكابه أعمال القتل والفتك بسميساط، ونجح في فترة اضطراب الأوضاع بين أنصار الأمين والمأمون بالرّقّة في هروبه من السّجن، وتعزيز أنصاره وتمّ الفتك بأمير سميساط في حدود سنة 196هـ/811م ثمّ نقل عمله الحربي من الجزيرة الى شرق الشّام وفي فلسطين، ثمّ تحالف مع نصر لمهاجمة مناطق الجزيرة ليرتكب هؤلاء الثّوّار أعمال القتل والسّبي خصوصا ضدّ أهل الذّمّة، وحاصرا حرّان والرّها. وكان عمرو الخارجي مسيطرا على سميساط وابتنى بها قلعة حصينة لتكون مركزا لعمله الحربي(73).

وسأحلّل في الفصل القادم هذه الثورة التي تتجاوز إطار الثورة الخارجية الى ثورة عربيّة ضدّ نفوذ الأعاجم على الخلافة.

أمّا ثورة المهدي بن علوان التغلبي الخارجي بجهة الموصل، فهي ترتبط أكثر بالنّشاط الخارجي كما تبرزها الرّوايات التي قدّمها أساسا الأزدي. ورغم عدم ذكر سنة خروجه، تبرز رواية صدقة بن محمّد عن قاضي الموصل علي بن حرب، أنّه في سنة 202هـ/817م كان بن علوان يشرف على مجموعة خارجيّة هامّة منذ سنوات، يبدو أنّها تكوّنت في فترة الحرب الأهليّة، ولقد كاتبهم بنو الحسن الهمدانيون الذين كانوا في حرب ضدّ السّيد بن أنس الأزدي للسيطرة على الموصل، ليعينوهم على خصمهم.

(73) الأزدي: نفس المصدر ص 344 و 345.

وكان جزءا من أهل الموصل على المذهب الخارجي ممّا يفسّر سهولة سيطرة بن علوان على هذه المدينة وفرض نفوذه بها وذكر في «رواية أنّه دخل المسجد الجامع وخطب على منبره في جموع كبيرة من الخوارج ويقول : ورأيت دواب الشراة في المسجد ...»(74).

ويذكر علي بن حرب محنة أبيه، لمّا كاد له بنو الحسن لتعاطفه مع السّيد بن أنس، فقبض عليه وحمل للمحاكمة من قبل الخوارج، فذكّرهم أنّ جدّه كان صاحب مدينة بأردبيل وكان خارجيّا ومات على ذلك. فعفى عنه وأكرمه بن علوان(75) وتدلّ هذه الرّواية أنّ الجدّ كان خارجيّا وابنه وحفيده من المحدّثين السّنة ممّا يؤكّد على تعايش أهل السّنة والخوارج بالموصل دون قطيعة مذهبيّة. وحسب رواية ثانية، يذكرها الازدي، يبيّن عمل هذا الخارجي بنواحي الموصل والجزيرة، ويبدو أنّه كان قبل دخوله المدينة مستقرّا بديار ربيعة بين قومه من تغلب الذين ناصروه واتّبعوه في هذه الثورة (76) ويدلّ ذلك على انتشار المذهب الخارجي بين تغلب ممّن أسلم منهم مند عهد الوليد بن جشم الشاري. وكانوا يعتبرون بن علوان أمير المؤمنين ! وواجه هذا الخارجي يحيى بن مروان وميسرة بن صقر الذي كان على خطّة أبيه كصاحب أمر الخوارج الموصل ودارت معركة كان معظم المقاتلة فيها من قيس في جانب الخلافة ومعظم الخوارج من تغلب وكان المكان ماكسين وهو بلد

(74) نفس المصدر ص 350 و 351.

(75) نفس المصدر ص 345.

(76) نفس المصدر ص 350 و 351. وهذه الرّواية تبرز توطّد الحضور الخارجي في ولاية الجبل واذربيجان بين ما يعرف بعرب الجبال وعلاقتهم الوطيدة بخوارج الجزيرة.

على الخابور كان لتغلب وانتصر فيها الخوارج على جموع قيس(77).

وهذه الثورة، تؤكّد هيمنة الخوارج على جموع ربيعة، رغم أنّ المهدي قد جمع العديد من الشراة من قبائل مختلفة مثل قوم من الطّائيّين، وكانوا نحو من 70 رجلا ومن بني ذهل الشيبانيين وحلفاءه الهمدانيين ومن يمنية الموصل(78).

ويبدو أنّ هذه المعركة تمّت قبل دخول بن علوان للموصل. وكان لسيطرته على هذه المدينة بداية لنشر عمله الحربي في اتّجاه السّواد، حيث كانت له طموحات للسيطرة على هذه المنطقة من العراق مستغلاً صراع المأمون وابراهيم بن المهدي وانشغال طاهر بن الحسين في محاربة نصر بن شبث غرب الجزيرة. وهذا الوضع دفع ابراهيم ابن المهدي من بغداد إلي توجيه حملة عسكريّة بقيادة أبو إسحاق بن الرّشيد في عدّة من قوّاده(79) ولا تبرز الرّواية مصير المعركة ولا بقيّة نشاط الخوارج لكن يبدوا أنّ جيش الخلافة تخلّص منهم، ورجعت سيطرة الحكم على الموصل، يبرز في سيطرة السّيد بن أنس على هذه المدينة وقتل بني الحسن الّذين فقدوا نفوذهم بنهاية دعم الخوارج لهم.

ولا نجد، طيلة حكم المأمون والمعتصم ثورات خارجية هامّة. ومن هذه الثورات، خروج بلال الشاري أو الصتّابي سنة 214هـ(80) والذي تحرّك بين منطقة السّواد والموصل، وتكفّل العبّاس بن المأمون والي الجزيرة بإعانة من أخيه أبو

---

(77) نفس المصدر ص 350 و 351.
(78) نفس المصدر ص 344 و 345 وص 350 و 351.
(79) نفس المصدر ص 352.

إسحاق، وجماعة من القوّاد، فظفروا بالخارجي فقتلوه(80) ويؤكّد ذلك نجاح جهاز الحكم في حصر تحرّك الخوارج، والقضاء عليه في المهد، بفضل وجود قوّات عسكريّة هامّة في الثغور في نهاية حكم المأمون. ولنجاح عبد الله بن طاهر بعد القضاء على ثورة نصر في معاهدة المتغلّبين على الجزيرة لطاعة الخليفة ومنع تحرّك المعارضة، مقابل الاعتراف بنفوذهم على نواحيهم وضيّق ذلك الخناق على تحرّك الخوارج بالمنطقة.

وهذا الهدوء، لا يفسّر بضعف الحضور الخارجي، بل لاختيار هذه الجماعة القعود وتحيّن الفرص للخروج على الحكم. وهو ما سيحدث بعد عصر المأمون والمعتصم مع الثورة الكبرى لمساور الخارجي في ربيعة مع منتصف القرن الثالث هجري وثورة هارون الشاري والتي نجحت في فصل الجزيرة عن الخلافة طيلة سنوات مع نشأة إمارة خارجيّة بها. فدخلت هذه الحركة بعد حكم المعتصم في طور النّضج مع بروز طموح الخوارج في بناء إمارة بالجزيرة مع بروز مظاهر الضّعف والوهن في الحكم العبّاسي.

ب) تميّز الحركة الخارجيّة بالجزيرة عن الثورات الخارجيّة الأخرى :

وكخلاصة القول، فإنّ حركة الخوارج بالجزيرة، نجحت طيلة العهد الأموي والعصر العبّاسي الأوّل في الحفاظ على وجودها وتميّزها عن بقيّة الحركات الإنفصاليّة بالجزيرة سواءا كانت قبليّة أو حركات إجتماعيّة وتميّزها يبرز في عدّة أوجه :

(80) نفس المصدر ص 395 والعيون والحدائق ص 464.

- على مستوى الخطاب الايديولوجي : حيث تميّز الخطاب الخارجي بالوضوح والتّواصل في مواقفه تجاه الخلافة، حيث اعتبروها غير شرعيّة وباغية يحلّ الخروج عليها. فباستثناء الهدنة التي أقرّوها مع الخلافة في عهد عمر بن عبد العزيز، فإنّ علاقتهم ببقيّة الخلفاء، تميّزت بثورتهم على بغيهم مع تغيّر استراتيجيّتهم القتاليّة حسب كلّ ظرفيّة.

- على مستوى القدرات القتاليّة : يتميّز الخوارج بقدراتهم القتاليّة الكبيرة رغم انحصار أعدادهم وتحقيقهم انتصارات باهرة ضدّ جيوش الخلافة التي تفوقهم عددا وعدّة. فباستثناء ثورة الضحّاك الخارجي فإنّ الخوارج لم يجمعوا إلاّ بعض المئات من المقاتلين ونادرا ما تجاوز عددهم 2000 مقاتل وأحيانا لم يكن عددهم يتجاوز عشرات المقاتلين عند بدء ثورتهم. وترجع هذه القدرات الى استبسالهم في القتال وطوقهم للشهادة مع خصوصيّة خوارج الجزيرة الذين ينتمون في معظمهم الى المجموعات البدويّة التي حافظت على قدرات قتاليّة هائلة ولها تراث حربي حافظت عليه وهذا ما أعطى المقاتلين الخوارج المنحدرين من هذه المجموعات تلك الرّوح البطوليّة في القتال.

- على المستوى التّنظيمي : يتميّز الخوارج بانتظامهم في مجموعات قتاليّة صغيرة متلاحمة منقادة الى إمام الجماعة والذي له حقّ دعوتهم «للجهاد» أوقعودهم عن الثورة. وفي حالات استثنائيّة عندما تكون الظّرفيّة ملائمة، تتجمّع هذه المجموعات لتبايع أمير المؤمنين ليقودها في العمل القتالي ضدّ الفئة الباغية. ورغم أنّ هذا التنظيم هشّ ولا يسمح بقيام جماعة متلاحمة قادرة على بناء مؤسسات حكم، فإنّه تنظيم ملائم لوضعيّة هذه الحركة الثوريّة. يصعب على

الخلافة استئصالها أو تطويقها. حيث يمكن لجماعة خارجيّة صغيرة تنظيم صفوفها والالتحام مع جماعات أخرى للقتال بعد قضاء السّلطة على ثورة خارجيّة سابقة لها.

- اعتماد الخوارج على القبائل البدويّة المحاربة وخصوصا من مجموعات ربيعة لتحقيق النّجاح في ثوراتهم وهذا التّحالف مع هذه القبائل تحوّل الى انضواء هذه القبائل وخصوصا منها الرّبيعيّة الى المذهب الخارجي رغم وجود مجموعات ربيعيّة معادية للخوارج.

- تمحور تحرّكات الخوارج في مجال جغرافي بالجزيرة يمتدّ بين ديار ربيعة وشرق الموصل وهو مجال يمتدّ من سنجار جنوبا الى ديار بكر شمالا وارض الموصل شرقا. وقلّت حركة الخوارج في ديار مضر لعداء المجموعات القيسية للمذهب الخارجي. ومن النواحي التي اشتهرت في ديار ربيعة بأنّها معقل الخوارج هي منطقة دارا ونصيبين وبرقعيد التي كانت مجال القبائل الرّبيعية. ولقد نشر الخوارج نشاطهم الحربي من الجزيرة الى أذربيجان وأرمينية لتبعيّة هاتين المنطقتين لعرب الجزيرة.

- نجاح الخوارج في كسب اثنيّات غير عربيّة لدعوتهم بسبب طبيعة الدّعوة الخارجيّة التي تتجاوز ظاهريّا العصبيّة للعرب ولمجاورة بعض العروش العربيّة المساندة للخوارج لهذه الإثنيّات فلقد كسب الخوارج منذ ثورة شبيب بعض المجموعات الكرديّة في شرق الموصل، ويرتبط هذا النجاح بوجود الخوارج بقوة بين بني شيبان التي كانت تتجاور في هذه المنطقة الأكراد وتشاركها المرعى والأرض

وتحارب معها في غزواتها. ومع أسلمة الأكراد، انتشر المذهب الخارجي بينها على غرار ما حدث غربا بين البربر.

- كسب الخوارج لدعوتهم بعض المحاربين في الثغور، نظرا الى تشبّع هؤلاء بالايديلوجيّة الجهاديّة والقتال في سبيل الله ومعظمهم من المتطوّعة الذين هاجروا هناك بسبب ورعهم وفي هذه الأوساط تيسّر للخوارج إنتدابهم الى مذهبهم. ورغم هذا التميّز لخوارج الجزيرة، فيبقى سؤالنا لماذا لم ينجح الخوارج بها في بناء إمارة كخوارج المغرب الذين أسسوا الإمارة الرّستميّة.

والإجابة على هذا الإشكال يصعب لأن خوارج الجزيرة لهم حضورا قديما بالمنطقة ولهم قاعدة إجتماعيّة صلبة بها. وشهدت المنطقة أخطر الحركات الخارجيّة طيلة العصر الأمويّ والعبّاسي الأوّل. لكن ما أعوز خوارج الجزيرة عن خوارج بلاد المغرب لتحقيق مشروعهم في بناء إمارة مستقلّة عن الخلافة هو وجود الجزيرة قرب مركز الخلافة أو في مركزها أحيانا. فكانت يقظة الخلافة لهذه الثورات متواصلة. وأقامت هياكل أمنيّة مكلّفة بمتابعة وحصر النّشاط الخارجي. بينما نشأت الإمارة الخارجيّة الرّستميّة في بلاد المغرب بعد ثورات عديدة استغلّت بعض الفراغ الأمني لتنشأ بمنطقة تاهرت الإمارة الرّستميّة وتجمع الخوارج بها كما تدلّ أدبيّاتهم. وفشل بذلك مشروع خوارج الجزيرة في إنشاء إمارة في مجال نفوذهم فبقيت حركة الخوارج بالمنطقة حركة ثوريّة معارضة للخلافة، وكان حضورها بالمنطقة بقوّة أحد السّمات الرّئيسيّة لولاية الجزيرة.

II) ظهور الحركات الإنفصالية بالجزيرة :

ثورة نصر بن شبث العقيلي وانفصال الجزيرة عن الخلافة :

إن المتمعّن في ثورة نصر بن شبث العقيلي تجعله يخرج بمجموعة من الاستنتاجات الهامة، من بينها ارتباط هذه الثورة بعرب الجزيرة والثغور والذين رفضوا توجّه الدّولة العبّاسيّة الى العجم في عهد المأمون.

أ- أسباب ظهور الحركة الإنفصاليّة لنصر بن شبث :

وترجع هذه الثورة مع تحليل الإحداث الى فترة سابقة لموت الامين، لأنها بدأت منذ بروز الصراع على الخلافة بين الامين والمأمون، حيث بدأ الأمين في الاعتماد على القوات العربية مع زحف قوّات طاهر بين الحسين من خراسان نحو العراق. ولقد نصح عبد الملك بن صالح الخليفة الأمين ليعتمد على أهل الشام والجزيرة في صراعه ضدّ الأمين. وكان عبد الملك والي الجزيرة والعواصم في عهد هارون الرّشيد والذي غضب عليه لطمعه في السّلطة بسبب نفوذه بين عرب المنطقة وسجنه على ذلك. ولقد أخرجه الامين من سجنه سنة 193هـ/808م أي بعد

سنتين من وفاة الرّشيد بسبب نفوذه وحضوره القويّ بين عرب الشام والجزيرة ونزل الرّقة ليكوّن تحالف عربي يدعم الأمين في صراعه ضدّ المأمون(1).

وكانت الحامية الخراسانية المتواجدة في الرّقة عاصمة الخلافة في عهد الرّشيد والمتكوّنة من الأبناء يمثّلون قوّة ضاربة بالجزيرة تحت قيادة الحسين بن علي بن عيسى بن ماهان ابن زعيم الأبناء في بغداد واجهت مخطط عبد الملك بن صالح بدخولها في صراع مسلّح ضدّ حلفاء الأمين من العرب والتي سمّتهم المصادر باسم الزّواقيل سنة 196هـ/811م والتي تعني لغويّا «رجالا يلقّون عماماتهم بطريقة معيّنة ويتركون أطرافها تتدلّى حول رؤوسهم» أخذت تسمية الزّواقيل لدى الأبناء معنى الاحتقار للجند العربي(2).

وما يهمّنا في المعارك التي دارت حول الرّقة والتي كانت لصالح الأبناء هو بروز زعامة نصر بن شبث العقيلي والذي قدم من كيسوم لنجدة الزّواقيل وانهزم بدوره وكان نصر من القيسيّة وهو من بني عقيل وكان معقله حصن كيسوم شمال حلب وهي من مجموعة الحصون التي كانت تستعملها العرب للقيام بالحملات على أراضي بيزنطا.

ورغم جهلنا لماضيه قبل معاضدته للزّواقيل وعبد الملك بن صالح فهو يبرز كأحد زعامات قيس كعمرو بن عبد العزيز السّلمي والعبّاس بن زفر الكلابي الذي كان مكلّفا بالثغور(3).

---

(1) ابن الأثير الكامل ج 6 ص 257.

(2) انظر معنى زواقيل في لسان العرب أمّا أحداث الثّورة : ابن الأثير : نفس المصدر ج 6 ص 258 الى 260.

(3) ابن الأثير : نفس المصدر ج 6 ص 259 والعيون والحدائق ص 445 و 446.

ويبدو أنّه تولّى خطط قياديّة أثناء ولاية عبد الملك بن صالح للجزيرة والثغور في عهد الرّشيد ليكون من بين هذه الزّعامات القيسيّة.

وما يهمّنا في معركة الرّقة، أنّها كانت وراء ثورة عرب الجزيرة والشام والثغور بعد هزيمتهم حيث تؤكّد هذه الرّوايات أنّه «كان في عنقه بيعة الأمين وله فيه هوى فلمّا قتل الأمين أظهر نصر الغضب في ذلك»(4).

وهذه الرّواية تؤكّد، أنّ حلف نصر والعرب لابن صالح كان لموالاتهم الأمين الذي يمثّل التّوجّه العروبي في الخلافة. بينما يمثّل المأمون وحلفاءه من الأبناء في الرّافقة وبغداد، النّزعة الفارسيّة في الخلافة. ولا تمثّل معارك الرّقّة حدث محلّي في الجزيرة بقدر ما تمثّل صراع بين توجّهين داخل الخلافة. ولقد عبّر عبد الملك عن عدائه للأبناء ومواليه للعرب بقوله «واذلاّه تستضام العرب في دورها وبلادها ؟» (أي الجزيرة)(5).

وكانت هزيمتهم أمام الخراسانيّة غيّرت من موازين القوى لصالح الأبناء حيث عاضد الخراسانيون بالرّافقة بقيادة الحسين بن علي بن ماهان الأبناء في بغداد لإسقاط الأمين. ومعاضدة جيش طاهر بن الحسين أثناء حصاره لبغداد الى أن قتل الأمين. فكانت نصرتهم لقضية المأمون هو إعلان القطيعة بين العرب والخلافة العبّاسية.

---

(4) ابن الأثير : نفس المصدر ج 6 ص 297 ينفرد الأزدي بذكر أن الأمين ولّى نصر الجزيرة سنة 198هـ/813م وعزله بعبد الله بن سعيد. نفس المصدر : ص 328.

(5) ابن الأثير : نفس المصدر ج 6 ص 258.

فاعتبر نصر وحلفاءه العرب أنّ الخلافة العبّاسيّة قدّمت عليهم العجم وهمّشت دورهم في السّلطة كما يبرز في قول نصر لوفد من الطّالبيّين الذين جاؤوا في وفد طلبا لمبايعته للعلويّين بقوله: «... إنّما هواي في بني العبّاس، وإنّما حاربتهم محامات على العرب لانهم يقدّمون عليهم العجم...»(6).

ب) ثورة نصر بن شبث الإنفصاليّة :

فبدأ منذ قتل الامين سنة 198هـ/813م ثورته الشهيرة، حيث جمع في الثغور بين الشمال والجزيرة وفي منطقة سميساط «خلق كثير من الاعراب وأهل الطّمع».

وكلمة الاعراب تعني هنا جموع عرب الجزيرة وبادية الشّام وهي مشابهة لتسمية الزّواقيل. من أجل الحصول على الغنائم. لكن يبدوا أنّ تجمّع المتمرّدين الذين كانوا وراء نصر الذين عادوا الدّولة العبّاسيّة منذ نشأتها لتقديم العجم على العرب. ويمكن أن توجد فرضية ثانية هي أنّه جمع خوارج الجزيرة الساخطة على الحكم العباسي بعد أن اعتنق مذهبهم وتذكر بعض المصادر، أن كان من الخوارج الصفريّة محالفا لعمر الخارجي(8).

ونجاح ثورته ودوامها طيلة عدّة سنوات تفسّر على مستويين :

- جمعها لخلق عظيم من المتمرّدين، كما تبرز في الرّواية خصوصا مع عبوره للجانب الشرقي من الفرات (أي الجزيرة) فكثرت جموعه(9) وتتواصل

(6) نفس المصدر ج 6 ص 308.
(7) نفس المصدر ج 6 ص 297.
(8) ابن العبري : تاريخ الزمان ص 19 الى 21.
(9) ابن الاثير : نفس المصدر ج 6 ص 308.

الرّواية للحديث عن ثورته سنة 199هـ/814م، وفيها قوي أمر نصر بالجزيرة، وكثر جمعه وحاصر حرّان(10) ولقد تواصلت هذه الثورة الى سنة 209هـ/824م حافظ خلالها على أهمّ المواقع في الجزيرة والشّام طيلة أكثر من 12 سنة، بقي فيها ثائرا من سنة 196هـ/811م إلى سنة 209هـ/824م أي بين 13 سنة و14 سنة. وهي من أطول الثّورات التي عرفتها الخلافة العبّاسية.

أمّا استهدافه للجزيرة في ثورته، فكانت لها غايات واضحة من بينها :

- الهيمنة على ديار مضر غرب الجزيرة، حيث كان له العديد من الأنصار كما يبرز من الرّواية المذكورة حيث حلفاءه بها من جموع قيس وعرب الجزيرة بعد أن هيمن على حصون شمال الشام ككيسوم ومنطقة قنسرين منذ سنة 196 هـ. وكانت ديار مضر من الجزيرة تتبّع الثّغور وكانت عناصر قيس بها من الفاتحين الأوائل، وهم عماد جيش الجزيرة في نهاية العصر الاموي.

فكان نصر يستهدف من خلال سيطرته على ديار مضر، إعادة جمع عرب الجزيرة وخصوصا قيس تحت لواء ثورته بعد أن تخلّى العبّاسيّون عنهم.

- استهدافه للحاميات الخراسانيّة القويّة المتواجدة خصوصا في حرّان حيث استهدفها للحصار كما أبرزناه في السّابق. خصوصا الرّافقة التي كانت تجمع أهمّ حامية خراسانيّة موروثة من عهد الرّشيد، نجحت في إفشال خطّة عبد الملك بن صالح في معاضدة الخليفة الامين، وكانت تتميّز بأعظم التحصينات في

---

(10) نفس المصدر ج 6 ص 308 حول ثورة نصر وموقف الخلافة منها انظر مقال «المأمون» ج E.I2 من ص 317 - 329. لرقيّة Rekaya.

منظومة الخلافة، فكانت غايته محاصرتهم وإنهاء وجودهم بالجزيرة.

وهذه الوضعية الخطيرة، دفعت بالمأمون سنة 199هـ/814م الى تكليف قائده طاهر بن الحسين بعد أن خلّصه من الامين بالتوجّه الى الرّقة لإخماد هذه الثورة وقبل طاهر ذلك عن مضض وحسب رواية قدّمها اليعقوبي يقول طاهر «ما انصفني أمير المؤمنين ! ...»(11).

ويؤكّد الدّكتور منجي الكعبي في أطروحته حول الطّاهريين أنّ غضبه كان بسبب تكليفه بمحاربة ثائر غير معروف ! بعد أن قتل خليفة واعتبر حربه لنصر هي مؤامرة من الحسن بن فضل لإبعاده عن بغداد والإنفراد بالخليفة المأمون(12).

لكن نستبعد رأي الدّكتور عندما يؤكّد أنّ ثورة نصر كان هدفها طلبه للسّلطة التي كانت عند أجداده لانّ عمّه طلحة بن زريق هو الذي نصح أبو مسلم الخراساني بقتل جدّه عقيل لولاءه للامويّين(13). إذ أنّ ثورة نصر بدأت منذ أن كان طاهر في الشرق يحارب قوّات الامين. ولم يكن له عداء شخصي لطاهر بل عداءه للعجم عموما ولتوجّهات المأمون المعادية برأيه للعرب.

أمّا قرار المأمون بتكليف طاهر محاربة نصر، فإنّه يتجاوز فرضيّة وجود مؤامرة من الحسن بن فضل لإبعاده عن البلاط العبّاسي بل لخطورة الوضع في الجزيرة، كما يبرز في رواية دنيس التلمحري والتي نقلها ابن العبري، وكان شاهد

(11) تاريخ اليعقوبي ج 2 ص 446.

(12) المنجي الكعبي : Les Tahirides ج 1 ص 110 الى 123 - مقال طاهر بن الحسين : E.I. ط قديمة ج 5 ص 641.

(13) نفس المرجع ج 1 ص 125.

عيان لهذه الثورة بسبب محالفة عرب المنطقة لهذا الثائر. ويذكر دنيس أنّ عبد الله بن هشام أحد قادة نصر استولى على حرّان وتولّى شريكه في الثورة عمر مدينة تلّ موزن، والقائد حبيب رأس العين وعبد الله ماردين وعثمان قنّسرين وانطاكية. وهيمن ثابت على ثغور قليقيا منذ حكم الأمين(14).

وهذا ما يجعل نصر وحلفاءه يهيمنون على كامل مناطق الثغور من أرمينية الى الجزيرة والى الشّام. وهذا ما جعله، يعطّل أعمال الدّفاع ضدّ العدوّ البيزنطي ويعرّض أمن الخلافة الى الخطر المحدق. بالاضافة الى ما تؤكّده المصادر، أنّه استولى على معظم الحصون بالجزيرة والشام وأعاد بناء الحصون التي خرّبها العبّاسيّون أثناء قضاءهم على الحكم الأموي مثل حرّان وسميساط وعزّز نصر تحصينات كيسوم وسروج والرّها(15).

وكان في خطط نصر جمع الغاضبين على الخلافة ومحالفته الخوارج المتواجدين بالمنطقة رغم اسبعادنا أن يكون خارجيّا رغم ما ذكرته بعض المصادر التي أشرنا إليها. ومن بين هؤلاء الخوارج عمر الخارجي. وهذه الاعتبارات لم تخفي على بال المأمون عندما كلّف طاهر بمتابعة نصر والقضاء على ثورته لما تمثّله من تهديد حقيقي للخلافة وتقويض لعمل بدأه الرّشيد بالجزيرة لإخضاع عربها للسّلطة المركزيّة. لكن لا يمنع ذلك من اعتبار أنّ طاهر لم يكن متحمّسا لهذه المهمّة التي أبعدته عن مركز الخلافة حيث كان يحبّذ أن يتولّى هذه المهمّة أحد قادته

(14) ابن العبري: تاريخ الزّمان ص 20 - 22.
(15) نفس المصدر ص 19 - 21.

ولم يكن مرتاحا للامكانيّات الضعيفة التي وفّرها له الوزير الحسن نظرا لضآلة القوّات التي كانت بحوزته والتي كانت في حدود 4 آلاف مقاتل ولم يوفّر له الإمكانيّات المالية والمادية لانجاح مهمّته(16).

وما نلاحظه أنّ إقامته تواصلت بالجزيرة 5 سنوات لم ينجح فيها في القضاء على ثورة نصر وعرب الجزيرة والأهالي الذين رفضوا التعسّف الجبائي الذي أرساه طاهر بن الحسين مع قدومه للمنطقة(17). وما تذكره رواية دنيس هي حالة الفوضى التي عمّت الجزيرة حيث أجبر النّصارى في الرّها على دفع غرامات ماليّة لنصر لمنعه من تهديم كنائسهم(18).

بينما قام طاهر أمام انفلات الأمر من يده بعد فشل حملاته الأمنية ضدّ المتمرّدين ببناء سور بين الرّقة والرّافقة لمنع أصحاب نصر الذين استولوا على الرّقة من مهاجمة الرّافقة وتحصّن فيها. وبقي منقطعا الى المطالعة والتحدّث مع العلماء والاتّصال بالزّعامات القبليّة المحالفة لنصر لاستمالتهم والقبول بالأمر الواقع، حيث أقرّ نفوذهم على المناطق والمدن التي استولوا عليها، فأقرّ ابراهيم القرشي على حرّان وعبد العلا على الرّها وأمدّ البعض الآخر بالعطاء(19) ويبدو أنّ سياسته بالمنطقة التي هادنت بعض الزّعامات القبلية مثّل تجاوزا وتهديما لعمل الرّشيد في الجزيرة كما رأيناه سابقا وتكريسا للظّاهرة الإنقساميّة وغياب شبه كلّي لنفوذ السّلطة بالمنطقة، حيث تؤكّد نفس رواية دنيس، أن نفوذ نصر

(16) منجي الكعبي Les Tahirides ص 118 - 126 وابن العبري ص نفس المصدر 22.
(17) ابن العبري : نفس المصدر ص 22 و 23.
(18) نفس المصدر ص 23.
(19) نفس المصدر ص 24 و 25.

تقوّى بالجزيرة فهيمن على قلعة بالس، وبلغ نفوذه نهر الهنيّ بجانب الرّقة، وفتك بالفلاحين وغزى القرى وسبى الأهالي(20).

وباعتماده على بعض الزّعامات القبليّة دون أخرى، أجّج طاهر الصّراع القبلي ويبرز ذلك بوضوح من خلال ما ذكره الأزدي في رواية عندما تحدّث عن واقعة الميدان سنة 198هـ/813م وهي من أخطر الأحداث التي شهدتها منطقة الموصل كما حلّلناه سابقا.

وما يهمّنا في واقعة الميدان، أنّ طاهر كان يميل الى اليمانية دون النّزاريّة في الموصل وكاتب بني الحسن بن صالح الهمدانيين والذين كانوا يملكون ضيعات شرق الموصل وولّى على الموصل علي بن الحسن بن صالح بعد أن تولاّها أحد الزّعامات النّزارية وهو الحسن بن عمر بن الخطاب العدوي التغلبي(21) فشعرت النّزارية انّهم مهضومي الجانب في الموصل فخرج أحد النّزاريّة الى ديار مضر فاتّصل بالمضريّة طالبا نصرتهم على اليمنيّة فجمعت مضر 20 ألف مقاتل لمحاربة علي بن الحسن الهمداني فحدثت بينهم واقعة الميدان نجحت فيها اليمنيّة في الحفاظ على سلطتها بالموصل(22) وهذه الحادثة تدفعنا الى بعض الاستنتاجات وهي :

- عدم قدرة طاهر بن الحسين في تعيين والي الموصل من جهاز السلطة لرفض عرب الجزيرة أطراف من جهاز السّلطة المتّهمة بمحابات الأعاجم.

(20) نفس المصدر ص 24.
(21) الأزدي : تاريخ الموصل ص 327 - 332.
(22) نفس المصدر ص 332 و 333.

- انتشار حالة الفوضى القبليّة نحو شرق الجزيرة بعد أن كانت هذه الحالة سائدة في غربيّها.

وأمام هذا المأزق، أجبر الخليفة المأمون الى بعث تعزيزات من الجند تضمّ 7 آلاف مقاتل بقيادة شبيب، ونجح نصر للمرّة الثّانية في هزم جيش الخلافة ولاحقهم الى أنطاكية وقبض على 3 آلاف خراساني(23).

فكانت حصيلة 5 سنوات من حضور طاهر بالجزيرة سلبيّة. لم يقدر فيها للقضاء على تمرّد العرب بها فأصبحت الحياة الحضريّة والنشاط الفلاحي ووضع أهل الذمّة في خطر محدق أمام أعمال التعصّب واللّصوصيّة التي تقوم بها المجموعات البدويّة.

وتشير بعض المصادر أنّ الحامية الخراسانيّة بالرّافقة وأمام تعطّل عطاياها وطول مقامها بالجزيرة قد ثارت على طاهر وساهم ابعاده عن بغداد في ثورة الأبناء بها ضدّ سلطة المأمون بسبب تجاوزات وزيره الحسن بن سهل في العراق ورفضهم إبعاد طاهر الى الجزيرة فعوّضوه بإبراهيم بن المهدي كخليفة جديد. وهذا ما دفع بالمأمون الى استدعاء طاهر لبغداد بعد التخلّص من وزيره الحسن ومن آل الفضل وإقالة إبراهيم بن المهدي من الخلافة لكنه ترك الوضع بالجزيرة والشام على حاله دون تغيير وعوّض طاهر في الجزيرة بيحيى بن معاذ كوالي جديد لكنّه توفّي بسرعة بعد 6 أشهر من ولايته فأجبر بتعويضه بعبد الله ابن طاهر(24).

---

(23) ابن العبري : نفس المصدر ص 24.

(24) الكعبي Les Tahirides ص 134 وكتاب العيون والحدائق ص 447.

وكان قرار المأمون باستدعاء طاهر على شرطته ببغداد ثمّ توليته خراسان بعد استتباب الأمن، قد حلّ مشكلة الخلافة لكن أبقى الوضع بالجزيرة على حاله دون تغيير. فكان دور عبد الله هو مواصلة جهد أبيه في المنطقة بأكثر فاعليّة وبإمكانيّات من الجند والمال يتجاوز بكثير ما توفّر لأبيه حيث قدم بـ 20 ألف مقاتل. وما يلاحظ في خطّة التوليّة حرص طاهر على نصح ابنه في سياسته كوال على الجزيرة والشام ومصر في رسالة طويلة اعتبرت لدى معاصريه مثالا لسيرة الحكّام ولقيت إعجاب الخليفة فنسخت على نطاق واسع وكان ذلك سنة 206هـ/821م ولقد أعطاه المأمون راية سوداء عليها شعار «يا منصور»(25) على أن يرجع الأمن بالجزيرة والشام ومصر.

وتمثّلت خطّته أثناء حصاره لحصون بالس وكيسوم، في عزل نصر عن حلفاءه العرب بالجزيرة والشام ومراسلتهم لكسبهم في صفّ الخلافة. ونجحت خطّته مع قبول الزّعامات القبلية بسلطته على المنطقة على أن يبقى لهم نفوذهم على مناطقهم. ولم يبق له إلاّ إخضاع نصر. وتمثّلت سياسته في مزج التفاوض مع نصر للإستسلام مع إبقاءه لحصاره لكيسوم التي تموقع فيها الثائر وأقام عليها الابراج وضربها بالمنجنيق حتّى طلب نصر الأمان وبدأ يفاوض على استسلامه. وكلّف المأمون محمد بن جعفر العامري وهو مضري لمفاوضة نصر لكنّ هذا الأخير رفض قبول الأمان على أن يطأ بساط المأمون ومن أقواله «ويلي عليه، لم يقدر على اربعمائة ضفدع تحت جناحه» (أي الزطّ في البطائح)(26).

---

(25) الطبري ج 7 ص ابن العبري نفس المصدر ص 24 والأزدي تاريخ الموصل ص 359.
(26) الكامل ج 6 ص 389 والعيون والحدائق ص 456.

مثّلت مرحلة ما قبل الفتح الإسلامي لمنطقة الجزيرة فترة احتلال خارجي من قبل السّاسانيين الفرس والبيزنطيّين ومجال صراع عسكري نظرا لوجودها في حدود الإمبراطوريّتين، إنجرّ عنه ركود اقتصادي وتجاري للمنطقة.

وكان الفتح الإسلامي بالنسبة لهذه المنطقة هو بداية خروجها من عزلتها اتّبعه ازدهار المنطقة إقتصاديّا وتعزّز الحضور البشري بها من نتائجه تدعّم دور هذه الولاية في منظومة الخلافة الإسلاميّة بالإضافة إلى دورها الاستراتيجي والعسكري الهامّ كأحد ثغور الإسلام. ولذلك أصبحت في بعض الفترات في العصر الأموي والعبّاسي الأوّل مركزا للخلافة الإسلاميّة.

وهذه التحوّلات أثرت علي الوضع القانوني لهذه الولاية إذ كانت بعد الفتح الإسلاميّة ولاية ملحقة بجند الشّام غربا ومصر الكوفة شرقا ثم استقلّت عنهم أثناء حكم المروانيين في العصر الأموي وألحقت بها ولاية الموصل رغم بقاء تميّزها القانوني عن بقيّة الولاية وكان المجال الأرميني والإذربيجاني ملحقا بها في عدّة فترات من بحثنا.

وما نلاحظه في «عهد الولاة» هو انتشار الإسلام في صفوف الأهالي والذي أخذ طابعا سلميا في أغلب الأحيان باستثناء القبائل العربيّة المنتصرة التي لحقها التعسّف أحيانا بسبب تميّزها الدّيني عن بقيّة القبائل العربيّة،

وأمام تنامي النّزعة الإنفصاليّة بين عرب الجزيرة أصبحت الخلافة تعتمد في حروبها ضدّ البيزنطيين وفي العمل الأمني على المماليك الأتراك منذ خلافة المعتصم مقابل ترك النّفوذ الفعلي للزّعامات المحليّة بنواحيهم مقابل ولاءها للخلافة.

الباب الثّالث

الظّاهرة الحضريّة بالجزيرة

الباب الثالث :

الظّاهرة الحضريّة بالجزيرة

مقـــدّمة :

تمثّل الجزيرة القسم الشمالي لمنطقة ما بين النّهرين وهو مجال حضاري عريق ظهرت فيه ممالك قديمة كمملكة ماري في الألفيّة الثانيّة قبل الميلاد في منطقة الفرات الأوسط والممالك الآراميّة في منطقة الرّها وحرّان في نفس الفترة وعلى ضفاف نهر دجلة وبقيت منذ ذلك العهد السحيق مجموعة من المدن القديمة ولم تبقى منها إلاّ تلال وآثار كمدينة نينوى عاصمة الإمبراطوريّة الآشوريّة.

وبرزت مع الحضارة الهلينستيّة والرّومانيّة مجموعة من المدن في منطقة الرّها والفرات الأوسط مثلت مجالا لتمازج الثقافة الآراميّة القديمة مع الثقافة الإغريقيّة حيث تطوّرت بها الثقافة السّريانيّة التي مثّلت أرضيّة لانتشار المسيحيّة في المنطقة.

وهذا المجال العريق حضاريّا كان عرضة لهجوم البدو العرب من الجنوب القادمين لمنطقة «المعمورة» هروبا من جدب الصّحراء وكذلك مجال جذب للشعوب الجبليّة من أكراد وأرمن نحو سهل الجزيرة الفسيح الأكثر خصوبة ودفئا من الجبال الوعرة وهذا ما جعل المجال الحضري والزّراعي يتقلّص كلّما ضعف حضور الدّولة وتقوّت تعدّيات هذه المجموعات القبليّة على المجموعات القرويّة من الآراميين والأنباط وعلى ظهير مدن المنطقة وهذا ما أعطى للشبكة الحضريّة بالجزيرة طابع الهشاشة حيث تضمحل المدن الصغيرة والمتوسّطة بسرعة وترجع للنّمو والإزدهار كلّما توفّرت ظروف الإستقرار والأمن طيلة الأحقاب الزّمنيّة المتعاقبة(1) وهذا الوضع تواصل بنفس السّمات بعد الفتح الإسلامي.

---

(1) DILLEMAN: La haute mesopotamie. orientale: مقدّمة الجزء الأوّل من البحث.

الفصل الأول

الشبكة الحضريّة بالجزيرة

لقد ذكرنا في المقدّمة عراقة الشبكة بالجزيرة يقابلها هشاشة المدن الصّغيرة حيث تضمحلّ بسرعة وتنموا حسب حدّة حضور البدو بالمنطقة والوضع الأمني السّائد بها. وإنّ دراسة الشبكة الحضريّة بالجزيرة في بداية القرن الثالث هجري يطرح إشكالا لأنّ معظم الجغرافيين العرب الذين وصفوها يرجعون إلى القرن IV والقرن V هـ وأشار بعضهم إلى إضمحلال مدن وقرى كانت موجودة في فترة بحثنا وظهور أخرى جديدة. ونجد إشارات جيّدة في مصدر الأزدي لجهة الموصل في فترة بحثنا الذي أشار إلى تطوّر الشبكة الحضريّة.

وسنتناولها بالبحث وفق التقسيم الإداري السّائد في بداية القرن III هـ وهي ديار ربيعة بما فيها منطقة الموصل وديار بكر وديار مضر ونستعين بعمل المعاصرين الذي أجروا بحوثا ميدانيّة للمنطقة كمرجع لوسترانج في دراسته بلدان الخلافة الشرقية أو ماريوس كانار في كتابه تاريخ الحمدانيين أو موسيل وغيرهم من المستشرقين بالإضافة إلى أعمال الحفريّات التي قام بها العراقيّون والسّوريّون بالمنطقة.

وتناول الشبكة الحضريّة وفق التقسيم الإداري الذي ذكرناه مجديّا فبالاضافة أنّه يوافق التقسيم القبلي نسبيا فإنّ حدود كلّ الدّيار الثلاثة قد حدّدتها الفواصل المائيّة.

فديار بكر تسقيها مياه أعالي دجلة من منبعها إلي يسار النّهر، وديار مضر إلى الجنوب الغربي هي الأراضي المجاورة للفرات من سميساط إلى الفرات الأوسط وحدّها مدينة عانة جنوبا مع السّهول التي يسقيها نهر البليخ أمّا ديار ربيعة فهي في شرق نهر الخابور إلى غرب دجلة وتمتدّ على الأراضي التي يسقيها الزّابان شرق دجلة.

I) ديار ربيعة :

تعتبر ديار ربيعة كما رأينا في الباب الأول أهمّ قسم إداري في الجزيرة تمتدّ من سفوح هضبة طور عابدين شمالا إلى نواحي تكريت ونهر الثرثار جنوبا.

وكانت الموصل حاضرة ديار ربيعة واستقلّت في فترات من بحثنا عن ولاية الجزيرة وهي عمالة كبيرة على المستوى الإداري امتدّت شرقا نحو جبال همدان خارج مجال ديار ربيعة.

وخصّصنا فصلا في البحث لدراسة هذه المدينة الهامّة.

وتتبع الموصل 602 قرية ذكر بعضها الأزدي وتوجد معظمها شرق نهر دجلة ومن أبرز القرى والمدن :

- نينوى : وهي عاصمة الآشوريّين السّابقة وكانت في معظمها خرابا في بداية القرن III هـ وهي قبالة الموصل شرقا يربطها بها جسرا واشتهرت في تلك الفترة برستاقها الخصب وهو رستاق نينوى يحاذيه رستاق المرج حيث كان يمتلك ضياعه أشراف عرب الموصل ولا يبدو أنه كان بها مشهدا يرتبط بالنبيّ يونس في تلك الفترة(2).

(2) الأزدي : نفس المصدر ص 84 وتوجد الإشارة في تعليق المحقّق. وابن حوقل : صورة الأرض ص 196.

- سوق الأحد : وهي تتبع رستاق المرج ولها دورا اقتصاديّا حيث توجد بها أسواقا ولها موعدا يجتمع فيه التجّار وينزل لها أكراد الجبال للتّسوّق وكانت عرضة لصراع بين أشراف عرب المنطقة للاستحواذ عليها وهي قريبة من نهر الزّاب الكبير وعلى طريق أذربيجان(3).

ويذكر الأزدي مجموعة من القرى ذات تسميات سريانيّة توجد شرق الموصل وهي باسحاق ونسطرانينة ونرستاباد وهاعلة وباتلّة في رستاق الخازر وحرّة قرب مدينة إربل الحاليّة والعوجاء وبارستق وباجباري وباصيدي وباشبينا وباعوثا وبابيرى وتتبع القرى الأخيرة رستاق المرج مع باعشيقة وبافخّارى وباجلدا وباعذرا.

وهذه القرى تتميّز بوجود مجموعات من الفلاحين الأنباط يدينون للمسيحيّة(4) وخضعوا إلى سلطة أشراف عرب الموصل الذين كانت لهم حصونها بها كقصر عريب(5) وكانت هذه المجموعات معرّضة لخطرين وهما خطر غزو البدو الأعراب وتعدّياتهم على أراضيهم وخطر نزول القبائل الكرديّة من جبالهم لنهب متاميرهم وكانت تجد الحماية إمّا من مقاتلة الموصل أو من حماية أحد الأسياد كما رأينا ذلك في الباب الأوّل.

وتوجد جنوب الموصل مدينتان هامتان رغم ضعف الشبكة الحضرية بالمقارنة مع المناطق الشرقية للنهر وهاتين المدينتين هما :

---

(3) الأزدي : نفس المصدر ص 372 وابن حوقل : نفس المصدر ص 196.

(4) نفس المصدر ص 203 و204 وص 279 وص 287 - 313 - 339 - 350 - 372 و373.

(5) نفس المصدر ص 336.

- الحديثة وتقع في مصبّ نهر الزّاب الكبير في دجلة وهي على طريق أذربيجان وموقعها الاستراتيجي جعلها أوّل مدينة تمصّر في المنطقة قبل الموصل وكانت مصرا لجند الكوفة في حروب الفتح باذربيجان وأرمينية وكانت مقاتلتها يشتون بالحديثة(6).

لكن بداية من القرن II هـ بدأت هذه المدينة تفقد دورها العسكري الهامّ لصالح مدينة الموصل وحافظت على حامية هامّة وسجنا كان والي الموصل يسجن فيه المعارضين لسلطته ويقيم فيها أحيانا لأنّها كانت أئمن من الموصل ويمكن منها مراقبة ولاية أذربيجان التي كانت ملحقة بالجزيرة في عدّة فترات وهي أقرب إلى العراق من الموصل(7).

واتخذها مروان بن محمد موقعا متقدّما في مواجهة الجيش الخراساني في واقعة الزّاب الشهيرة حيث حفر على شاطئ الزّاب خندقا عظيما وكانت هذه المدينة في العصر العبّاسي تحت نفوذ اليمنية(8).

- تكريت : تمثل تكريت الحدّ الجنوبي للجزيرة ومدخل العراق وهي على السّاحل الغربي لدجلة وهي عريقة في التّاريخ ترجع إلى العصر الآشوري والكلداني وتكريت في الآراميّة تسمى «تاجريت» بمعنى المتجر وهو يحيلنا إلى دورها التجاري الهامّ في التجارة النّهريّة بمنطقة الهلال الخصيب.

---

(6) البلاذري : فتوح ص 332 ولوسترانج : نفس المرجع ص 119 يذكر أن مروان الثاني أعاد بناءها زمن خلافته.

(7) الآزدي : نفس المصدر ص 130 و 211 و 258 و 296 و 346 و 422.

(8) نفس المصدر ص 130 و ص 246 و 422.

وأصبحت قبل الفتح الإسلامي أهمّ مركزا للسّريان اليعاقبة ومقرّ المافريان الذي له رئاسة كنيسة اليعاقبة بالعراق والجزيرة منذ القرن VI م(9). وبقيت هذه المدينة تحت نفوذ الكنيسة اليعقوبيّة رغم وجود مجموعة نسطوريّة صغيرة ولم يكن في فترة بحثنا للمسلمين حضورا هامّا كما برز ذلك في الرّوايات السّريانيّة والجغرافيين العرب حيث ذكر ابن حوقل والاصطخري أنّ أغلب أهلها نصارى وعملهم في التجارة النّهريّة وخدمة القوافل المارّة بها وتميّز أهلها النّصارى بهجرتهم بكثافة إلى الموصل والمدن الكبرى الجزريّة حيث كانت لهم بها أحياءهم وكان لنخبهم دورا هاما في الحياة العلميّة والدّينيّة بالجزيرة حيث كان أساقفة ورؤساء الأديرة بالجزيرة إمّا تكريتيين أو ممّن درسوا بها في معظمهم واشتهر أهلها بحذقهم لحرف البناء والزّخرفة حيث كان الحرفيّون بها يهاجرون إلى الجزيرة وغيرها من المناطق بسبب الطّلب الهامّ لخبراتهم وأخذت هجرتهم للموصل في القرن الثامن والتاسع ميلادي طابعا مكثفا(10).

أمّا أهمّ معالم المدينة : فهي قلعة تكريت وهي أشهر معلم بها ترجع إلى العصر الآشوري جدّد بناءها البيزنطيّون لتكون موقعا متقدّما في صراعهم ضدّ السّاسانيين وكانت المدينة زمن الفتح حول القلعة ومحصّنة وبني المسجد الجامع بها سنة 20هـ/640م وتوسّعت إثر ذلك خارج الأسوار لكن كانت قليلة العمارة سواءا في البريّة غربا أو شرق نهر دجلة أو نحو العراق(11) ويذكر ابن حوقل كثرة كنائسها

(9) لمزيد من التفاصيل : مقالات موسوعة مدينة تكريت ج II حيث نجد وصفا ضافيا للمدينة عبر التاريخ وبيبليوغرافيا هامّة حول المدينة وابن حوقل : نفس المصدر ص 205 و 206.

(10) نفس المرجع : من مقال : تكريت في العصر العبّاسي ص 113 إلى ص 135 لمحمد ياسين التكريتي.

(11) ابن حوقل : نفس المصدر ص 205 إلى ص 206.

وأديرتها وقدمها أعظمها الكنيسة الخضراء ومارجرجس ودير العذارى ودير ماريوحنّا ودير العجاج وغيرهم وكان النصّارى بها من الانباط ومن عرب تغلب(12).

وتقابل مدينة تكريت في البريّة خراب مدينة الحضر الشهيرة(13) وتوجد في منطقة البريّة بين دجلة ومدينة سنجار بعض القرى تتواجد على بعض الأودية الشهيرة كقرى نهر الثرثار كقرية الكحيل والشرعبيّة التين اشتهرتا بواقعتين بين تغلب وقيس وكانت هذه المنطقة منازل تغلب ونحو الشّمال نجد المحلبيّة والشحاذيّة وتلّ أعفر(14).

أمّا أهمّ مدينة في البريّة فهي مدينة سنجار ترجع إلى العصور الاشوريّة ويشرف عليها جبل سنجار وتتبعها مجموعة قرى ومزارع ونخيل وهي على طريق الموصل وقريات الخابور وسكنتها مجموعات أراميّة من تغلب ومن الفرس ولم يكن لها دورا سياسيّا هامّا في فترة بحثنا(15).

ثمّ تبدأ بعد ذلك منطقة باعربابة ومنطقة الخابور، حيث توجد شمال الموصل في غربي دجلة مدينة بلد وهي «بلط» الاشوريّة تكمن أهميّتها في وجودها على طريق الموصل نصيبين وكانت كما رأينا في الباب الأوّل تحت نفوذ أسرة العدويّين من بنى تغلب في بداية القرن III هـ(16).

---

(12) موسوعة تكريت : من مقال تكريت في كتب الجغرافيين والرّحّالة العرب المسلمين لبهجت كامل ص 49 - 75.

(13) ابن خرداذبة : نفس المصدر ص 296 ولوسترانج : نفس المرجع ص 129.

(14) البلاذري : أنساب ج V من ص 301 الى 314 ولوسترانج : نفس المرجع ص 128 و 129.

(15) لوسترانج : المرجع نفسه ص 128 و 129.

(16) الحموي : معجم ج I ص 398 والازدي نفس المصدر ص 88.

ونحو الشمال وفي طريق نصيبين نجد مدينة ثانية للعدويّين وهي برقعيد وكانت مدينة واسعة ومسوّرة وبها ثلاثة أبواب وهي محطّة هامّة في طريق القوافل وهي قصبة آل عمر بن خطّاب العدويّين وأحد أهمّ مدن تغلب في المنطقة(17).

أمّا أذرمة : فهي تقع في نصف الطّريق بين برقعيد ونصيبين يشقها نهرا وعليه رحى ماء وسوران وخندق يحيط بالمدينة وهي من أعمال الموصل وتتبع كورة بين النّهرين(18).

أمّا ثاني أهمّ مدينة في ديار ربيعة فهي نصيبين التي تقع في أعالي نهر الهرماس وهي أهمّ محطّة في طريق القوافل نحو الشام وتوجد بها أحد أهمّ الحاميات في ولاية الجزيرة وبها وبقراها أربعون ألف بستان وعرفت بسورها العظيم وتعرف برخص أسعارها ولولا أذى العقارب الكثيرة لكانت أعمر مدن الجزيرة حيث يقول ابن حوقل أصيل هذه المدينة «وهي من أطيب المدن لولا الخوف من عقاربها»(19) وتعتبر نصيبين حاضرة منطقة باعرباية وهي مركز ديني هامّ لليعاقبة وهي من أوّل الحواضر التي مصّرت بالجزيرة وتعتبر من أعظم مدن الجزيرة من حيث عدد السكّان والقرى التابعة لها كثيرة وتعرّضت طيلة فترة بحثنا إلى هجمات الخوارج عديد المرّات خصوصا في العصر العبّاسي الأوّل وكانت تغلب تهيمن عليها ومعظم عشائرها بها على دين النّصرانيّة ومن أبرز أشرافهم آل

---

(17) الحموي : نفس المصدر : ج I ص 387 ولوسترانج : نفس المرجع : ص 130 والأزدي : نفس المصدر ص 350 وابن حوقل : نفس المصدر ص 199.

(18) الإصطخري : نفس المصدر ص 73 وابن حوقل 148 و 149 وذكر المقدسي : ص 139 أنّها تحوّلت إلى قرية !.

(19) ابن حوقل : نفس المصدر من ص 193 إلى ص 194 وهو أهمّ من وصفها من الجغرافيين العرب.

هشام بن عمرو الزّهيري وكانت تضرب بها السكّة خصوصا أثناء ولاية إبراهيم بن خازم بن خزيمة(20).

أمّا رأس العين فهي تقع في أعالي نهر الخابور ومعظم بناءاتهم رومانيّة وهي مشهورة بكثرة عيونها البالغة 360 عينا وماءا كثيرا يصبّ في نهر الخابور وذكر ابن حوقل أنّها ذات سور من حجارة وداخله بساتين وطواحين والعرب المسلمون بها معظمهم من ناقلة العراق قدموها زمن خلافة عثمان بن عفّان وهم من عرب تميم وشيبان وتغلب بينما بقيّة أهلها نصارى(21).

وبين رأس العين ونصيبين توجد القلعة الصّخريّة العظيمة لماردين . وهي على مرتفع يشرف على سهل الجزيرة من أمنع مدنها ودور أهلها كالدّرج وكلّ درب يشرف على ما تحته من دور وشربهم من صهاريج وأسفل ماردين توجد مدينة دنيسير وكانت قرية صغيرة في القرن الثالث هجري توجد على طريق القوافل المتّجهة إلى الشّام(22).

أمّا مدينة دارا فهي على سفح جبل طور عابدين وهي تابعة لأعمال نصيبين وبها قلعة بيزنطيّة عظيمة وفقدت دورها الاستراتيجي في العصر الإسلامي حيث كانت مدينة صغيرة تسقيها قناة تجري فوق سطوح المنازل وتقرّ في الجامع ثمّ تنحدر إلى الواد(23).

---

(20) الأزدي : نفس المصدر ص 267 و 272 و 275 و 280 و 282 ولوسترانج نفس المرجع ص 124 و 125 والرّجوع إلى فصل أشراف تغلب في الباب الأول من البحث.

(21) ابن حوقل : نفس المصدر ص 192 و 193 وص 200 والبلاذري : فتوح ص 179.

(22) ابن حوقل : نفس المصدر ص 200 و 201 والمقدسي : نفس المصدر ص 140.

(23) ابن حوقل : نفس المصدر ص 143 (مع النّظر للملحق).

وتقع كفرتوثا جنوب غرب ماردين وهي على ملتقى الطّريق المنحدر من آمد وتكمن أهميّتها في وجودها على طريق القوافل وهي من الحصون البيزنطيّة وتقطن بها مجموعة تغلب مع مجموعة من الآراميّين النّصارى(24).

وفي اتّجاه الجنوب وعلى طول نهر الخابور الذي يصبّ في الفرات وفي مستوى مدينة قرقيسياء تمتدّ المدن والقرى وهي من الشّمال إلى الجنوب الجحشيّة، الجدل، تنانير، المطريّة ،عربان ماكسين وسكير عبّاس وتعنى سكير السّداد الّتي تسدّ به النّهر(25) وهذه القرى تعرف بإنتاجها للقطن الذي يصدّر إلى الموصل وإلى مدن الشّام وبوجود الرّحى على النّهر خصوصا في عربان وماكسين وسكير عبّاس مع كثرة البساتين ووجود صناعة نسيج القطن وهذه المدن والقرى تسكنها جموع الآرامين والنّصارى وتسودهم قبيلة تغلب التي حافظت بتلك المنطقة على نصرانيّتها في جلّ عشائرها(26).

ويتبيّن من خلال التحليل عراقة المدن الكبرى بديار ربيعة وأهميّتها كالموصل ونصيبين ونلاحظ أنّ المدن الواقعة على دجلة جنوب الموصل تتبع ثقافيّا أكثر العراق من الشّام خصوصا في العصر العبّاسي من خلال تأثّر نخبتهم الإسلامية بالمدارس الفقهيّة بالعراق وتتلمذ جلّ مشائخها عن فقهاء الكوفة والبصرة وبغداد بينما ترتبط المجموعة المسيحيّة بها بالكنيسة اليعقوبيّة وبمافريان تكريت التي تمتدّ إشعاعها على نصارى العراق.

---

(24) نفس المصدر ص 143 والبلاذري : فتوح ص 176 والاصطغري : نفس المصدر ص 73 ، 74.

(25) ابن حوقل نفس المصدر ص 200 و 201 ولوسترانج : نفس المرجع ص 127 و 128.

(26) البلاذري : أنساب الأشراف ج V ص 302 الى 308.

ويوجد اختلاف ثقافي بين الجموع الحضريّة القاطنة على نهر دجلة وبقيّة مجال ديار ربيعة وبقية الجزيرة في تأثر الأولى بالماضي السّاساني حيث أن التنظيمات الاقتصاديّة والاجتماعية ووحدات القياس التي توجد بها تشبه ما يوجد في سواد العراق بينما تتأثر بقيّة المدن بديار ربيعة بالماضي البيزنطي على مستوى التنظيمات الاقتصاديّة والاجتماعيّة والتخطيط الهندسي للمدن.

II) ديار مضر :

تمثّل ديار مضر المجال الغربي للجزيرة وهي كما رأينا تمتدّ غرب نهر الخابور وعلى طول ضفاف نهر الفرات.

وأجلّ مدنها مدينة الرّقة التي سنحلّلها في فصل لاحق وفي اتجاه الشمال نجد جسر منبج وهي أهمّ نقطة عبور على الفرات قبل الوصول الى مدينة منبج الشاميّة وكان به حصنا لمراقبة العبور(27).

وقبله يوجد ميناء بالس وهو أقرب ميناء فراتي لمدينة حلب حيث تجمع السّلع القادمة من الجزيرة نحو الشام ويعتبر جسر منبج وميناء بالس تابعين للجزيرة رغم وجودهما في الضفّة الغربيّة للفرات(28).

وفي اتجاه الشمال الغربي، نجد مدينة سروج وهي مدينة تابعة لحرّان وهي كثيرة المياه والبساتين وهي على طريق القوافل من حرّان إلى جسر منبج وهي مدينة يغلب على أهلها النّصرانيّة(29).

---

(27) الاصطخري : نفس المصدر ص 62 و 71 و 76 وقدامة : نفس المصدر ص 233.

(28) مقدسي : نفس المصدر ص 155.

(29) لوسترانج : نفس المرجع ص 134 و 135 وابن خرداذبة نفس المصدر ص 97 وقدامة نفس المصدر ص 246.

أمّا مدينة الرّها فهي إديسا البيزنطيّة التي توجد على منبع نهر البليخ وسنحلّلها عند حديثنا عن حرّان حيث تعتبران من أعرق مدن بلاد الرّافدين وأجلّ مراكز الأدب السّرياني وتلعب دورا استراتيجيا هامّا في منظومة الخلافة لقربها من ثغور الجزيرة. ولقد ذكرت في الباب الثاني بقية المدن التابعة للثغور.

أمّا نحو جنوب مدينة الرّقة فإنّ المدن والقرى تمتدّ على ضفتي نهر الفرات. وأبرزها مدينة قرقيسياء وهي «كركيسيوم» البيزنطيّة وهي في مصبّ الخابور على نهر الفرات ولها ميناء نهري هامّ يجمع منتوجات منطقة الخابور قبل أن يصدّر إلى الشّام والعراق واشتهرت في القرن الأوّل هجري بالتجاء القيسية بقيادة زفر بن الحارث الكلابي إليها وهي تشرف على طريق الفرات المتجه جنوبا نحو العراق.

ويشقّ طريق الفرات وادي ضيّق تحدّه الصّحراء من جانبي النّهر وتكمن أهميّة الطّريق على المستوى السّياسي والعسكري لأنّه أقصر طريق من بغداد إلى الشام(30).

أمّا الرّحبة فلقد أنشأها طوق بن مالك لغاية مراقبة طريق الفرات في ظرفيّة إقامة الرّشيد بالرّافقة وواصل إبنه مالك خطّة عامل طريق الفرات وحسب الإصطخري فهي أكبر من قرقيساء، وهي غزيرة العيون وبها بساتين كثيرة حسب ابن حوقل وتعرف حسب المقدسي بعظمة قلعتها وهي ذات الأصل الاشوري جدّد بناءها مالك بن طوق وللمدينة سور وربض(31).

---

(30) المقدسي : نفس المصدر ص 142 وابن حوقل : نفس المصدر ص 204.

(31) الاصطخري : نفس المصد : ص 77. وابن حوقل : نفس المصدر ص 205 والمقدسي نفس المصدر ص 149 وموسيل : منطقة الفرات والأوسط ص 551 - 559.

ولم يكن في طريق الفرات بعد الرّحبة مدينة ذات شأن إلاّ مدينة عانة والتي تمثل الحدّ الجنوبي للولاية وهي أناتو الآشوريّة وهي شبه جزيرة يحيط بها نهر الفرات وبها حسب ابن حوقل قلعة حصينة وبها البساتين ويبدأ جنوبها مجال النخيل وهي في معظمها نصرانيّة وهي في فترة بحثنا تحت نفوذ قبيلة تغلب و بها أسقفيّة يعقوبيّة تشرف على طقوسهم بجنوب الجزيرة(32).

ويتبيّن من خلال تحليل مدن ديار مضر سواءا المدن الواقعة على الفرات الأوسط أو أعالي الفرات بأنّها عريقة طوّرت بها الكنيسة اليعقوبية الأدب السّرياني خصوصا في مدينة الرّها التي كانت حاضرة منطقة الرّها البيزنطيّة وكانت هذه الثقافة المسيحية تشعّ على كامل بلاد الرّافدين والشام ولقد تراجع دور الرّها في الفترة الإسلامية لحفاظها على طابعها المسيحي لصالح مدينة حرّان والرقة التي أخذت في فترة بحثنا أهميّة سياسيّة وعسكريّة إعتبارا بأنّهما حاضرتي الجزيرة ولوجود إدارة الحكم بهما. وكانت مدن ديار مضر متأثرة أكثر على مستوى النّخب الحضريّة المسلمة بالمدرسة الفقهيّة للشّام حيث تتلمذ مشائخها على فقهاءها وكانوا متأثّرين بالايديولوجية الأمويّة التي تواصلت حيّة الى القرن الثالث هجري. ورغم كثافة هجرة العرب المسلمين بالمنطقة واستيطانهم العديد من المدن فلقد حافظت الجموع الآراميّة بها على مسيحيتها بفضل كثافة شبكة الأديرة والكنائس خصوصا في شمال المنطقة.

كما ساهم موقع هذه المدن على طرق القوافل الكبرى والموانيء نهريّة على الفرات في أزدهارها الإقتصادي. كما ساهم في هذا الإزدهار الإستثمارات الكبرى

---

(32) الاصطخري : نفس المصدر ص 78 وابن حوقل : نفس المصدر ص 206 ولوسترانج : نفس المصدر ص 138.

التي قام بها الأمويّون في تطوير البنية التحتيّة للزّراعة السّقويّة والذي وفّر لمدن المنطقة ظهيرا فلاحيّا كافيا لانماءها اقتصاديّا.

III) منطقة ديار بكر

تتميّز منطقة ديار بكر رغم صغرها بالنّسبة لبقيّة أقسام الجزيرة بأنّها المجال الوحيد الذي يمكن تعاطي فيه فلاحة بعليّة مستمرّة لرطوبة المنطقة ولذلك تميّزت هذه المنطقة رغم ضعف الشبكة الحضرية بها بوجود مجموعات قرويّة من الآراميين تدين بالنّصرانيّة خصوصا في هضبة طور عابدين وبسبب قساوة شتاءها البارد فإنّها لم تستوطن مدنها مجموعات العرب المسلمين ولم تنشأ بها أمصارا كبرى كبقيّة مناطق الجزيرة ومعظم المدن بها بيزنطيّة تتميّز بحصانتها ووجود قلاع عسكريّة هامّة بها حيث كانت في فترة الصّراع السّاساني البيزنطي مواقع دفاعيّة متقدّمة لحماية بيزنطا من الخطر الفارسي.

وكانت قصبة ديار بكر مدينة آمد وهي أميدا البيزنطيّة (AMIDA) وتقع في غربي أعالي دجلة ويطلّ عليها جبل وحسب ابن حوقل وعليها سور أسود من حجارة الأرحية وحسب المقدسي فهي من أحصن قصبات الإسلام ولأسوارها خمسة أبواب وبين السور والحصن فضاءا يزرع وتنبع بها عديد العيون فكانت تحتمل الحصار الطّويل ومكانا منيعا، ويوجد بالمدينة شارعين رئيسيين وفي مفترقهما يوجد المسجد الجامع الذي كان الكنيسة الكبرى للمدينة وترتبط المدينة بسهل الجزيرة في الأسفل بجسر يعبر دجلة وكانت ترتبط بطريق القوافل الرّابطة بن أرمينية والمجال العربي الإسلامي (33) ولقد حلّلت في الباب الثاني دورها الدّفاعي الهامّ في منظومة الثغور الإسلاميّة.

(33) ابن حوقل : نفس المصدر ج I : ص 201 ، 202 والمقدسي : نفس المصدر : ص 136 الى ص 140 ولوسترانج : نفس المرجع ص 140 الى 142.

أمّا المدينة الثانية في أعالي دجلة فهي مدينة ميافارقين واسمها البيزنطي Martyropolis أي مدينة الشهداء وهي مدينة جدّ محصّنة وكان سورها ينفتح على 8 أبواب ذكرهم ياقوت وهي مثل آمد محميّة بسور أمامي وهي مبنيّة بالحجر الابيض الصّلب ولها عدّة عيون وتتميّز مثل مدن المنطقة بكثرة الوحول في فصل الشتاء ومعظم سكّانها من النّصارى واعتبرها ابن حوقل تابعة لأرمينية وهي في مفترق الطّرق الرّابطة بين أرمينية ومنطقة الفرات العليا وهي على طريق المجاهدين نحو الاراضي البيزنطيّة وأرمينيّة(34).

أمّا مدينة حاني فهي مدينة منجميّة يستخرج منها معدن الحديد ويجلب منها إلى سائر البلاد وتقع شمال آمد في شرق أعالي دجلة(35).

أمّا مدينة أرزن فهي غير بعيدة عن ميافاقين ولأرزن حصن عظيم منيع وهي في حدّ الجزيرة وأرمينية وتسكنها أغلبيّة من الأرمن(36).

وعلى الضفّة الجنوبيّة للفرات الأعلى يوجد حصن كيفا تتميّز بحصانته وبقي يتأرجح بين نفوذ البيزنطيين والمسلمين طيلة فترة بحثنا(37).

أمّا تلّ فافان فهي على ضفة دجلة الشمالية وهي مدينة عامرة وبها عدّة أسواق مسقّفة وفوق هذه المدينة توجد مدينة سعرت وهي ليست محصّنة وليس

---

(34) ياقوت : معجم : ج IV ص 235 - 238. وابن حوقل : نفس المصدر : ص 202.

(35) لوسترانج : نفس المرجع ص 142.

(36) لوسترانج : نفس المرجع ص 144.

(37) لوسترانج : نفس المرجع ص 144 و 145.

لها تاريخ ولا تعرف إلاّ بدير أحويشة يسكنه 400 راهب واشتهر بخمره وتمثّل سعرت الحدّ الشمالي للجزيرة وتعتبر في الغالب من أعمال أرمينية وبقربها منجم نحاس شهير وغابة من شجر البلوط(38).

وتتميّز كلّ هذه المنطقة وخصوصا في هضبة طور عابدين بوجود عدّة أديرة تعيش فيها مجموعات هامّة من الرّهبان ساهمت في حفاظ مدن المنطقة على نصرانيّتها رغم سيطرة جموع قبائل شيبان وعشائر بكر خصوصا منذ القرن الثالث هجري على النّفوذ بها حيث بقي الحضور الإسلامي ضعيفا ومنحصرا في المدن الكبرى بينما كانت المدن الصغيرة والقرى التي لا تتحدّث عنها المصادر كثيرا مسيحية تعيش فيها مجموعات أرمينية وأراميّة متأثرة بالثقافة السّريانيّة التي نشرها رهبان المنطقة كما رأينا.

وكانت مدن المنطقة مهدّدة بخطرين وهما خطر هجومات البيزنطيين وحلفاءهم الأرمن وخطر هجومات البدو خصوصا من جموع بكر.

(38) لوسترانج : نفس المرجع ص 145 إلى 146.

الفصل الثاني :

الموصل : حاضرة الجزيرة

مقدّمة :

مثلت مدينة الموصل منذ بناءها وتمصيرها بعد الفتح قاعدة ديار ربيعة والجزيرة في بعض الفترات وفي أخرى عاصمة ولاية منفردة عن الجزيرة.

وتقع هذه المدينة على الضفّة الغربيّة لنهر دجلة وتتبع السّهل السّباسبي الفسيح للجزيرة في مرتفع عن حوض دجلة. ويجري هذا النّهر في اتجاه شمالي غربي - جنوبي شرقي وكان الجزء المحاذي لدجلة من المدينة في اتجاه شمالي شرقي.

وتتميّز المدينة بانحدارها نحو دجلة من الكار الأعلى شمالا الى الكار الأسفل جنوبا حيث ينزل أهلها النهر عبر المدارج لعلوّ المدينة عن دجلة وكانت المدينة في شكل طيلسان شبيهة بشكل مدينة البصرة(1) وتقابلها في الضفّة اليمنى خراب مدينة نينوى التي كانت عاصمة الآشوريين ترتبط بها بجسر من بناء مروان بن محمد عندما كان واليا عليها وتنفتح نينوى على سهل فسيح يعرف بالمرج الى حدود جبال زاغروس شرقا وكان عامرا بالقرى اكثر من بريّة الموصل غربا التي كانت مجال رعي للبدو(2).

وهي مدينة محدثة بعد الفتح الإسلامي، ولم تكن قبل ذلك إلاّ مكانا لحصن قديم يعرف باسم الحصن العبوري أو عبرايا قبالة حصن نينوى شرقا(3). ويدلّ معنى الإسم أنّ هذا الحصن يشرف على مكان عبور السّكان لنهر دجلة في الاتجاهين ويبرز دوره الاستراتيجي في المنطقة ولذلك : عمّرت نواحي الحصن واتخذها النّصارى اليعاقبة مركز أسقفية مقاطعة آشور عوض نينوى وأنشأ اليعاقبة في

---

(1) Canard M: Histoire des Hamdanides p. 117-118 Herzfeld (E) "Mawsil": E.I.2 Vol. VI p. 890-894
والرّجوع الى الجغرافيين العرب في B.G.A. في وصفهم للموصل.

(2) لمزيد التفاصيل الآزدي : تاريخ الموصل مع تعليقات الدّكتور على حبيبة وفيها وصف لقرى الموصل ومناطقها.

(3) ديوه جي: تاريخ الموصل ص 11 - 13 ومقال يوسف حبّي: «الموصل في المصادر السريانيّة» : مجلة سومر عدد 1 1978.

سنة 570 م بيعة قرب الحصن ومقرّ الآسقفيّة وعني بتعميرها السّاسانيّون في القرن VI م وبداية القرن VIIم بينما بقيت نينوي مقرّ الآسقفيّة النّسطوريّة وكانت المنطقة تتبع السّاسانيين وتعرف باسم نوذ ـ ارديشراكان(4).

فيتبيّن لنا أنّ قبل الفتح، بدأ العمران يمتدّ على الضفّة الغربيّة لدجلة. فكان بناء هذه المدينة وتمصيرها من قبل المسلمين، يدخل في نطاق تكريس هذا التطوّر العمراني بعد تحوّل نينوى الى خراب.

ويبرز إشكالا حول اختيار الفاتحين اسم الموصل لهذه المدينة فإذا أخذنا المعنى اللغوي الذي يرجع الى فعل وصل، فيحتمل أنّه يقترب من معنى العبور الذي نجده في حصن عبرايا، فهل اشتقوا من تسمية هذا الحصن اسم المدينة ؟

أمّا المستشرق هرزفيلد فهو يرجع التسميّة الى الإسم القديم لموسيلا الذي ذكره المؤرّخ كزينوفون XENOPHON لكن هذه الفرضية خاطئة لآنّ موقع موسيلا هو على الضفّة الشرقيّة.

كما نقل بعض المؤرّخين المسلمين خرافات حول تأسيسها قبل الإسلام تتناقض مع الحقائق التاريخيّة(5).

---

(4) نفس مقال الموصل : في Vol. VI EI.2 ص 891 ولوسترانج: بلدان الخلافة الشرقيّة ص 115 و 116.

(5) هرسفيلد : نفس المقال في EI;2 ص 890 و891.

وهناك من الجغرافيين العرب من ذكر أنّ الموصل سميّت بذلك لأنّها وصلت الشّام بالجزيرة حسب ابن الفقيه ولأنّها وصلت العراق والجزيرة أو وصلت دجلة والفرات وبلد سنجار والحديثة(6) بينما يذكر وستنانفيلد أنّ هذه التسميّة مشتقّة لغويّة من وصل لأنّ أذرع دجلة تجتمع في ذلك الموقع ليصبح مجرى واحد(7).

ولقد ناقش أصل التسميّة عدّة مستشرقين مثل ساشو ونولدكي وهرزفيلد ولوسترانج وكذلك مؤرخو العراق(8).

وبعيدا عن متاهات أصول التسميّة، فإنّه من المحتمل، بأن الفاتحين مع استيلاءهم على الحصن الغربي أو حصن عبرايا سنة 20هـ أطلقوا على المكان الذي تمّ تمصيره اسم الموصل مشتقّا من فعل الوصل لدور الموقع الاستراتيجي في وصل ضفّتي دجلة حيث أنّ الحصن الغربي غير قادر على القيام بهذا الدّور مع توحّد المجال الشرقي والغربي في ظلّ الخلافة الإسلاميّة فأصبح من الضّروري بناء مصرا لجند الكوفة الذين تولوا فتح المنطقة لمواصلة الفتح نحو الشرق في اتجاه اذربيجان وشمالا في اتجاه أرمينية فكانت الموصل مصرا متقدّما لجند الكوفة لتعوّض المركز الإداري السّاساني السّابق.

---

(6) ابن الفقيه : كتاب البلدان ص 128 وياقوت : معجم ج V ص 223.

(7) هرسفيلد : نفس المقال ص 890 ولقد اعتمد على ما قاله لوسترانج: نفس المرجع ص 115 و 116.

(8) نفس المقال ص 890 و891 قدّم الكاتب بإيجاز آراءهم في المقال حول أصل تسميّة الموصل حدث جدال في مجلّة سومربين يوسف حبّي عدد 291 سنة 1976 وسعيد ديوه جي مجلّد 39 / 1983 أصل تسميّة الموصل انطلاقا من المصادر السّريانيّة القديمة.

إذ أن الموصل هي على مشارف جبال كردستان وأذربيجان التي كانت خارج نفوذ الخلافة. ويمكن لهذا الموقع على المستوى التجاري أن يشرف على حركة النقل النّهري والبرّي بين العراق وأرمينية وأذربيجان والجزيرة والشام. فهو موقع قادر على وصل هذه المجالات ولعب دور اقتصادي متميّز.

وكلّ هذه لاعتبارات من المحتمل أن جعلت القائد القيسي هرثمة بن عرفجة البارقي خليفة الفاتح عتبة بن فرقد يقوم بتمصيرها بعد سنة 20 هـ وتوطين جند الكوفة وبعض من قومه من بني سليم مع مجموعات من محاربين من قبائل شتّى وبنى بها دار الإمارة والمسجد الجامع ومنح العرب بها الدّور والأراضي(9).

وبقيت الموصل، تمثّل مع مدينة الحديثة موقعا متقدّما لجند الكوفة في فتح أذربيجان وأرمينية وساهم هذا المعطى طيلة فترة بحثنا هويّة المدينة، حيث كانت الموصل في القرن الأوّل الهجري تابعة للكوفة يكلّف أميرها عادة بتسيير ولاية أذربيجان أرمينية وكان مقاتلتها يمثلون أساس العرب المستوطنين بهذين الإقليمين النائيين(10).

---

(9) البلاذري : فتوح ص 323

(*) الحديثة : أو حديثة الموصل: وهي مدينة مصّرت بعد الفتح تقع في مفترق نهر دجلة والزّاب الكبير: انظر : معجم البلدان ج II ص 232.

(10) نفس المصدر : عندما يتحدث البلاذري عن فتوح أرمينية وأذربيجان يشير بوضوح الى تبعيّتهما للجزيرة والموصل.

المعروف بالشبار...» (231) . و لهذا فإن احتلال جربة في أواخر سبتمبر 1794م يعد انتكاسة في تاريخ آل بن عياد . **فماهي الإجراءات العملية التي اتخذها الباي إزاء ذلك الوضع الطارئ ؟**

كانت حادثة جربة حاسمة في تحديد موقف الباي حمودة باشا و حكومته من والي طرابلس الجديد ، و أفضت المشاورات إلى اجماع حول ضرورة اعتماد الحل العسكري لتحرير جربة و القضاء على حكم علي برغل و إعادة القرمانليين إلى عرشهم السابق . و في هذا الإطار جهز البايليك من جهة محلة قادها الوزير مصطفى خوجة بها 1752 رجلا غالبهم من العسكر (1513 رجلا) ، و من جهة أخرى حملة بحرية قوامها «...أربعة آلاف مقاتل ، انتخبهم الباي من أبطال الجند ...» بقيادة الحاج علي الجزيري . و غادر ذلك الأسطول المكون من «...أربعين مركبا...» ميناء حلق الواد باتجاه جربة في الرابع عشر من ربيع التاني عام 1209ه . و يقدم أبوراس الجربي تقديرا آخر لتلك القوة البحرية التي وجهها حمودة باشا نحو جربة إذ يقول ما نصه : «...و جهز في البحر ثمانين مركبا كبارا دون الصغار التي من تونس و صفاقس و غيرهما عدد كتير...و رحلوا من مدرسة حلق الوادي صحوة يوم السبت...و دخلوا صفاقس و اجتمعت عليه (أي قائد الأسطول) سفن صفاقس...» (232) .

و تمكنت تلك القوة البحرية من الإستيلاء على جربة في اليوم التاسع من شهر جمادى الأولى سنة 1209ه ، بعد أسر حوالي أربعمائة جندي من رجال قارة محمد الذي فر بنفسه إلى طرابلس . و بذلك لم يدم احتلاله للجزيرة سوى ثمانية و خمسين يوما ، و عمل قائد الأسطول التونسي على الإنتقام من الأهالي بسبب خيانتهم و تآمرهم مع الغزاة . و لهذا أباح لجنوده نهب الزوايا و حوانيت حومة السوق ، «...فنهبوها و لم يرتقبوا زاوية الجمني و لا غيرها و نهبوا معقل جامع تاجديت و معقل جامع المحبوبين و ملكوا كل ما وجدوا من عبيد أهل الجزيرة الذين منهم من اشتراه سيده و منهم من سافروا به إلى تونس...» حسبما رواه أبوراس الجربي (233) . **و لكن كيف تصرف حميدة بن عياد أثناء المدة المنصرمة ؟**

إن حميدة بن عياد مطالب كغيره من عمال الدولة بتنفيذ الأوامر الواردة إليه من حاضرة تونس ، و ليس بامكانه اتخاذ مبادرات فردية حصوصا إن تعلق الأمر بوحدة الإيالة و استقلالها . و انطلاقا من الأخبار التي أوردها محمد أبو راس الجربي و صاحب كتاب الإتحاف ، يمكن استنتاج أن القايد حميدة عاد من صفاقس إلى قيادة الأعراض التي كانت تتبعه قصد فرض الأمن و حضور السلطة بها و تجنب الإضطرابات التي قد تحدث بها من جراء تطورات الوضع بجربة و الإشاعات التي راجت حولها . و يعتبر ذلك أمرا حيويا بالنسبة له حتى لا يتهم بالخيانة أو التخلي عن مهامه المخزنية في متل تلك الظروف الحرجة ، لأنه يعلم جيدا عاقبة ذلك في الأنظمة المطلقة .

وتجميلها وبنى بها سوقا وهو هامّا في التبادل التجاري بين ضفتي دجلة وكان سعيد متزهّدا، مكتفيا بهذه العمالة وتقرّب الى النّصارى حيث سمح لهم ببناء ديرا عرف باسمه ويبدو، أنّه وطن النّصارى بالمدينة(14).

ويبدو أنّه في الولاية الطّويلة لمحمد بن مروان على المنطقة بني بالمدينة حيّا ملكيا أقام فيه الأمراء الأمويّون ويقع في الكار الأسفل قرب ضفاف دجلة حيث يقع قصر هشام بن عبد الملك وما يعرف برحى أمير المؤمنين وقصرا لمروان بن محمد وكانت هذه الرّحى على النّهر ملكا للخلافة يطحن فيها الحبوب ويوجد في هذا الحيّ كذلك حمّام يعرف بالجذّالين وبحمّام أمير المؤمنين وبناءات أخرى لم تذكر(15).

وعندما تولّى ابنه مروان الموصل سنة 103هـ/721م واصل هذا الجهد العمراني، حيث بنى جسرا على دجلة وسوقا شرقي النّهر يعرف بسوق الجسر. ووسّع دار الإمارة التي كانت على سفح تلّ قليعات وهي بقرب المسجد الجامع ويصف الصّابي هذا الانجاز بأنّ دار الإمارة بقرب الجامع وبينها وبين الجامع باب في ممرّ طويل قد فرش بالبلاط. وفي نهاية البلاط ستر، يحجز المصلّين عن دار الإمارة (16).

---

(14) حول دور الوالي محمد بن مروان ونائبه سعيد [illegible] ابن الأثير: الكامل ج ٧ ص 185 و 186. والأزدي نفس المصدر ص 25 الذي ذكر أن سور الموصل بناه محمد في 80 هـ بينما يذكر البلاذري في فتوح ص 327 أن بانيه سعيد بن عبد الملك.

(15) الأزدي : نفس المصدر ص 24 ص 75 وص 172 وفي ص 158 يصف قصر هشام بأنّه من لبن وطين.

(16) ديوه جي: نفس المرجع ص 50.

ومن أهمّ انجازاته توسعة المسجد الجامع الذي يقع في الكار الأسفل يصعد إليه من دجلة بالدّرّج ويبدو أنّه أضاف إليه منارة الجامع ويعرف بالجامع العتيق(17).

ويقول ابن حوقل «ثم كان أوّل من عظّمها وألحقها بالأمصار العظام وجعل لها ديوانا يرأسهم ونصب عليها جسرا، ونصب طرقاتها وبنى عليها سورا هو مروان بن محمّد...(18) ويبدو أنّ ياقوت خلط بين الإبن وأبيه محمد حيث يؤكد الأزدي أنّ سور الموصل هو من عمل أبيه ومروان نفسه يعترف بأنّ المدينة هي من بناء أبيه ويعني هنا أنه هو الذي وسّعها ويقول: «مدينة بناها أبي ما كنت لأوذي أهلها» في حوادث 128هـ/745م(19).

وبرز إشكالا في التّوسّع العمراني للمدينة، حيث كانت مرتفعة عن نهر دجلة ولا تتوفّر بها الآبار أو الصّهاريج، فيجد أهلها مشقّة في جلب الماء من النّهر إلى المدينة ويمثل ذلك عنصرا يحدّ من توسّعها ويقول الأزدي أنّ الحرّ بن يوسف والي الموصل منذ سنة 106هـ/724م كان جالسا ينظر في مناظر له، فرأى امرأة على عاتقها جرّة، قادمة من دجلة، وهي تحملها ساعة وتضعها ساعة، تستريح، فسأل

---

(17) نفس المرجع : ص 182 وللكاتب : كتاب ثاني وهو جوامع الموصل في مختلف العصور: وصفه في ص 8، 9.

(18) ياقوت معجم : ج ٧ ص 223.

(19) الأزدي : نفس المصدر ص 25 وص 75.

عنها، فقيل امرأة حامل جاءت بماء من دجلة وقد أجهدها حمله، فاستعظم ذلك، فكتب الى هشام بن عبد الملك يخبره بذلك وببعد الماء على أهل البلد، فكتب إليه يأمره أن يحفر نهرا في وسط المدينة، فابتدأ بحفره(20).

فبدأ هذا الوالي في إنجاز أحد أعظم الأشغال التي أقيمت في الجزيرة وهي قناة تربط دجلة بوسط المدينة وتتجه القناة جنوبا لتلتقي خارج المدينة بالنّهر وكان الخليفة هشام مدركا لأهميّة هذا الإنجاز للمدينة التي عاش فيها طفولته وشبابه حيث سخّر مداخيل ولاية الموصل لمصاريف الأشغال التي تواصلت من سنة 107 هـ الى سنة 121 هـ الى ما بعد وفاة الحرّ ويقول الأزدي أنّ الحرّ : «جمع الصّناع وأهل الهندسة لحفر النّهر، واتّخذ له الآلات وجدّ في حفره وعمله» ويذكر الأزدي في حوادث 121 هـ أنّ هذا الإنجاز كلّف الخلافة 8 ملايين درهم ودام حفره 14 سنة(21) ويقول الأزدي عندما تمّ إنجازه، وفيها فرغ من عمل النّهر المكشوف وذكروا أنّه أنفق عليه 8 آلاف ألف درهم، وجعل عليه 18 حجرا تطحن، وأنّهم وزنوا الماء من فوهة النّهر وطرحوا لكلّ رجل علامة قد عملوها وقعدوا في زورق في جوف النّهر والعلامات تسير بين أيديهم حتى خرجوا إلى آخر النهر.

---

(20) الأزدي : نفس المصدر ص 26 و 27 في أحداث سنة 108 هـ وابن الأثير الكامل ج V ص 95 و 96.

(21) نفس المصدر ص 27 الى ص 43 والقول في ص 28.

فجاءت كلّ علامة الى الرّحا التي عملت لها حتّى دخلت في سيب الرّحا* وذكروا أنّ هشاما وقف هذه الأرحاء على نفقة هذه النّهر وما يحدث فيه»(22).

ويبرز من خلال هذا القول، أنّ الخلافة لم تكتفي بحفر النّهر لتوفير مياه الشرب بل أقامت أشغالا وفّرت 18 رحا وهو رقم كبير يجعل المدينة أهمّ مركز في بلاد الرّافدين لرحي الطّحين، لكن من أهمّ نتائج هذه الأشغال العملاقة هو توفير بنية تحتية للمدينة تتجاوز معضلة نقص المياه للتوسّع العمراني للمدينة التي إمتدّت عمرانيّا في نهاية الحكم الأمويّ وأصبحت من أعظم أمصار الإسلام. ويذكر ديوه جي أنّ نهر الحرّ الذي عرف في العهد العبّاسي بنهر زبيدة زوجة الرّشيد تمّ تشجيره وأقيمت على ضفافه المنتزهات للمواصلة فهو حسب هذا الكاتب أوّل كرنيش في الإسلام ! (23).

وعرف الحرّ كذلك، ببناءه قصرا بعيدا عن دار الإمارة وكان في الرّبض الأسفل خارج الأسوار في بريّة الجزيرة حيث لم يصلها البناء في تلك الفترة

(*) السّيب مجرى الماء : انظر المعاجم اللغويّة.

(22) نفس المصدر ص 43 ويذكر ابن حوقل : نفس المصدر ص 194 وفيها نهر يقطعها اتخذه بنو أميّة في وسطها...» ويذكر في ص 198 «وكان بالموصل في وسط دجلة مطاحن تعرف بالعروب يقلّ نظيرها في كثير من الآراضي لآنّها قائمة في وسط ماء شديد الجرية موثقة بالسّلاسل الحديد في كلّ عربة منها أربعة أحجار ويطحن كلّ حجرين في اليوم واللّيلة خمسين وقرا وهذه العروب من الخشب والحديد...».

(23) ديوه جي : ص 24 وص 178.

ويذكر الأزدي أنّ القصر سمّي المنقوشة «لأنها كانت منقوشة بالسّاج والسّفاسف وما شاكل ذلك»(24).

وكان له في البريّة جنوب الموصل إقطاعات وضياع وهي رأس الأيّل والعبيديّة وباوردا وغير ذلك وكان له مع قصر المنقوشة عدّة دور لأبنائه ومواليه وفنادق ويذكر الأزدي أن ابنه يحيى كان يخرج للصّيد مع غلمانه ومواليه في نحو من مائة فارس ومعه الفهودة والصّقورة والبزاة وبقي آل الحرّ ومواليهم مقيمين بها في العصر العبّاسي (25).

كما كان الخليفة هشام بن عبد الملك يمتلك في الرّبض الأسفل قصرا ويمتلك جزيرة في نهر دجلة كان لبني بريضة من الأزد فاشتراها منهم بـ 70 ألف درهم وغرس فيها النّخل والأشجار، وعند زوال الحكم الأموي قام المواصلة بقطع الأشجار والنّخل وحجزها العبّاسيّون واعطوها إقطاعا لوائل بن الشحّاج الأزدي(26).

ولا نعلم هل أنّ هشام امتلك الجزيرة عندما كان أميرا أو أثناء خلافته لكن يبرز من خلال اقطاعات الحرّ وامتلاك هشام سعي الامويين الى الاستثمار في الأرض لاحيائها، فكان إنجاز النّهر والتوسّع الزّراعي مع انشاء البساتين وغراسة الأشجار المثمرة غايته توفير حاجيات مقاتلة الموصل الذين يقومون بالأعمال الحربيّة في أرمينية وأذربيجان وكان قصدهم كذلك الإثراء وهنا تتشابه إنجازات

(24) الأزدي : نفس المصدر ص 24 و 25.

(25) نفس المصدر ص 156 و 157.

(26) نفس المصدر ص 172.

هشام بإنجازاته في الرّقة لتوفير حاجيات المقاتلة في ولاية ثغر ويشابه نهر الحرّ إنجاز قناتي الهنّي والمرّي بالرقة.

كما يشير الأزدي الى وجود فسقيّات وقناطر لجمع الماء بالمدينة حيث ذكر قناطر شريح وجيّة الحبحاب والجيّة تعني الموضع الذي يجتمع فيه الماء(27). ويبدو من أسماءها أنها كانت ملكا لأسر عربيّة كبيرة، يحتمل أنّها كانت في خدمة الأمويين. ولا ننسى أنّ هذه الأشغال جاءت في ظرفيّة تنامي الحروب ضدّ الخزر زمن الخليفة هشام، حيث كان يتجمّع بها 120 ألف مقاتل تحت إمرة مروان بن محمّد للحرب ضدّ هذ العدوّ في أرمينية وأذربيجان، وكانت الموصل قاعدة انطلاق العمليّات الحربيّة(28) وتطلّب ذلك كلّ هذه الأشغال والمصاريف لتوسّع المدينة التي أصبحت قادرة على قبول هذه الأعداد الوافرة من المقاتلين مع عائلاتهم. وتموينهم بالمواد الغذائيّة والمنتوجات الحربيّة واعطى بذلك لهذه المدينة دورا عسكريّا كان له أثره في تمحور أحداث نهاية الحكم الأموي وصعود العبّاسيين الى السلطة كما رأينا سابقا.

أمّا خطط المدينة في نهاية الحكم الأموي فكانت قد أخذت أهمّ معالمها التي ستعرف في العصر العبّاسي رغم بعض التّوسّع لاهتمام الأمويين بهذه المدينة وكان المحور الأول ككل مدينة إسلاميّة هو المسجد الجامع ودار الإمارة من بناء عتبة بن

(27) نفس المصدر ص 146 وص 149.

(28) ابن الأثير : الكامل : ج ٧ ص179 .

بن فرقد وتوسّع الجامع ثانية ، مع خلفه عرفجة بن هرثمة سنة 22هـ/742م ثمّ توسّع مرّة ثالثة مع مروان بن محمّد الذي أضاف للجامع منارة وله قدرة على قبول 12 ألف مصلّي واتّخذ فيه مقصورة يصلّي بها الوالي كما أضاف مطابخ مع الجامع للطّبخ في رمضان صدقة للفقراء وكانت دار الإمارة والجامع على سفح تلّ قليعات(29).

أمّا الأسواق في الموصل، فكانت مجاورة للمسجد الجامع ودار الإمارة ومن أهمّ الأسواق :

- سوق الشعّارين : يباع فيه الصّوف والشّعر لما يحتاجه الجيش والسكّان ويقع في شارع نينوى.

- سوق القتّابين : وينخذ به أقتاب الإبل وهو في شرق سوق الشعّارين.

- سوق السرّاجين : يقع جنوب المسجد الجامع قبل أن يلحق إلى الجامع مع المهدي 167 هـ/ 783 م .

- سوق البزّازين : ويعرف بسوق الدّاخل وألحق كذلك الى الجامع مع المهدي.

- سوق الطّعام : قرب سوق الحشيش والسّوقان يقعان جنوب الحصن الغربي.

---

(29) ديوه جي : تاريخ الموصل ص 50 وجوامع الموصل ص 7 الى ص 9 والأزدي : نفس المصدر : ص 248.

- سوق الدّواب : ويقع في ربض المدينة قرب مقابر قريش.

- سوق السّقط : يقع جنوب المسجد الجامع وأضيف مع المهدي للجامع.

- سوق سعيد : أنشأه سعيد بن عبد الملك وبنى به مسجدا.

- سوق الاربعاء: ويقع على الأرض التي بين باب الجسر وسوق القتابين وهو من أشهر أسواقها وأوسعها.

- سوق الجسر : ويقع في الجانب الشرقي للنّهر كما يبرز في أحداث 148 هـ للأزدي وهو سوق يقصده الأكراد والفلاحين لبيع منتوجاتهم(30).

فكانت أكثر الأسواق حول المسجد الجامع وهي توفّر حاجيّات الجيش والسّكان ولوازم الدّواب ويذكر الأزدي عندما نقل إسماعيل بن علي العبّاسي في سنة 137هـ/754م هذه الأسواق الى مقبرة أهل الموصل أن بها الفنادق والخانات والحمامات. أمّا المحلات والأسواق الوسخة فهي تقع خارج الأسوار كسوق الدّباغين والقصّابين والجصّاصين (31) وكانت الطّرقات كما ذكرنا مبلطة والمدينة محميّة بسور منيع يحيط بها حتّى على ضفاف دجلة مع إقامة الحصون والقلاع لحمايتها من الأخطار الخارجيّة وكانت أساسا في العصر الأموي، الخطر الخزري الذي وصل

(30) ذكر هذه الأسواق ديوه جي : تاريخ الموصل ص 51 و 52 وأخذ بعض المعلومات من الأزدي : نفس المصدر : الرّجوع الى الفهرس.

(31) نفس المصدر ص 166 و ص 167 والرّجوع الى خريطة الموصل.

إلى مشارف المدينة سنة 112هـ/730م(32).

وكانت المقابر تنقسم وفق الانتماء الدّيني حيث نجد مقبرة المواصلة للمسلمين التي ستعرف في العصر العباسي بمقبرة قريش ومقبرة للنّصارى يبدو أنّها كانت على يسير الحصن الغربي ومقبرة أخرى في نينوى ومقبرة لليهود في حيّهم. وتوجد مقابر أخرى خاصّة بكلّ قبيلة في أحياءها كحيّ تغلب وكندة وطيء وهمدان والأزد. ويبدو أنّ الموالي نفسهم كانت لهم مقبرتهم(33).

أمّا أهمّ الجوامع والمساجد فهي :

- المسجد الجامع ولقد تمّ ذكره.

- مسجد سعيد بن عبد الملك وقد تقدّم الكلام عنه.

- مسجد خزرج : وهو في حيّ خزرج أقدم من نزل الموصل من القبائل ويقع غرب المدينة.

- مسجد ثقيف : ويقع في محلّة ثقيف حيث كان لهم مسجدهم.

- مسجد تلّ عبادة ويحتمل أن يكون هو نفسه مسجد باب سنجار وهو كذلك من أقدم مساجد المدينة.

---

(32) نفس المصدر ص 32.

(33) نفس المصدر ص 166 و ص 167 مع الرّجوع إلى خريطة المدينة.

- مسجد ابن أكمه الشيباني : ويقع في الرّبض الأعلى من الموصل وهو والي مروان بن محمد سنة 127هـ/744م أقام خطّة ومسجد وأقام بعض من قومه بها.

لكن يبقى المسجد الجامع هو الوحيد الذي تقام فيه صلاة الجمعة وله طاقة استيعاب تصل الى 12 ألف مصلّي بينما تقام في بقيّة المســاجد الصّلوات الخمسة(34).

وتوجد في المدينة عدّة بيع وكنائس للنّصارى تقع حول الحصن الغربي وهي أقدم من البناءات الإسلاميّة. وظهر حيّ للنّصارى بعد بناء الموصل في العهد الأموي في درب بني إيليا الطّبيب وكانت لهم بيعة مارتوما يذكر الأزدي أنّها محدثة(35) واشتهر النّصارى بها بدير الأعلى وهو على مرتفع يطلّ على نهر دجلة وكان من أشهر أديرة النّصارى في الجزيرة(36) مع وجود أديرة عديدة حول الموصل.

II) الموصل في العصر العبّاسي الأوّل :

وشهدت هذه الخطط تغيّرا مع بداية الحكم العبّاسي إثر المذبحة الشهيرة التي أتت على جزء هامّ من أهلها كما رأينا، حيث بقيت عدّة دور وأحياء فارغة

(34) حول مساجد الموصل الرّجوع الى الأزدي نفس المصدر وديوه جي: نفس المرجع ص 53.
(35) نفس المصدر ص 244 ونفس مقال يوســف حبيّ : وكذلك
. FIEY: Mossoul chrétienne Imp. Catholique - Beyrouth 1957

(36) نفس المصدر ص 334 ومعجم البلدان ج II ص 496.

ويذكر الأزدي أنّ أحد المواصلة ذكر أنه قتل في دارهم ثمانون رجلا وامرأة وصبيّا(37) ومع تولّي إسماعيل بن علي سنة 134هـ/751م الموصل لاحظ أنها مضطربة وأعمالها منتقصة وعمارتها ناقصة فكاتب الخليفة فأمره بالرّفق بالنّاس ومع خلافة المنصور أمره بأن لا يرفع إليه طول ولايته الموصل درهما وإنفاق المال على إصلاح المدينة وجلب الناس إليها وعمارتها(38).

ويبرز الأزدي أنّ أعداد وافرة من أزد ويمنية البصرة من سليمة ومعن بن مالك نزلوا بها بين سقوط الحكم الأموي وبداية الحكم العبّاسي بين قومهم بسبب الفراغ السكّاني الذي حدث بها (39).

ويبدو، أنّ هذا الوالي استغل الفراغ السّكاني وتعطّل الأسواق لتوسعة المدينة ويذكر الأزدي «أنّ أسواق الموصل كانت حول جامعها. وفي سوق الدّاخل فنقلها إسماعيل بن علي إلى مقبرة أهل الموصل، ونقل المقبرة الى الصحراء خارج الدّروب، وأبتنى المسجد المعروف بأبي حاضر الذي في وسط الأسواق وأنشأ في سوق الطّعام فندقا وحمّاما ويذكر عن تراجع النّاس الى الموصل وصلاح حالها(40).

---

(37) الأزدي : نفس المصدر ص 148.

(38) نفس المصدر ص 156 وص 161 وص 166.

(39) نفس المصدر : مقطع حول من هاجر منهم الى الموصل بين ص 77 وص 101.

(40) نفس المصدر ص 166 وص 167.

وهذه الإشارات تبرز سعي إسماعيل الى توسعة الموصل لسببين رئيسيين:

- رغبة الخلافة في إرجاع عرب المنطقة إلى الموصل بعد فرارهم من المذبحة وتعميرها من جديد لحفظ دورها كقاعدة متقدّمة للخلافة في مراقبة أرمينية،وأذربيجان ولقد بيّنا كيف رجع عرب الموصل لخدمة الحكم الجديد في رابطتها مع إقامة حامية خراسانية بالمدينة كانت تتولّى حماية الوالي وكان توسيع المدينة يهدف الى توفير المزيد من الأراضي للمستوطنين الجدد وإقامة أحياء جديدة لمن نزل فيها من مهاجرة البصرة والكوفة.

- غاية أمنيّة، حيث أن توسّع المدينة وإبعاد الأسواق عن دار الإمارة والمسجد الجامع يقلّل من خطر الثورات حيث تمثّل الأسواق مكان تجمّع السكّان وبقاءها بقرب دار الإمارة يمثّل خطرا محدقا على الوالي.

لكن لم يجرأ هذا الوالي على هدم أسوارها مثل ما فعل العبّاسيّون في بعض مدن الجزيرة نظرا الى المجزرة المرتكبة والتي جعلت أعداد سكّانها يتقلّص وما خلّفته من رعب في قلوب بقيّة الأحياء فلم يكن داعيا لتهديم سورها !

أمّا إنشاء الفنادق من قبل هذا الوالي وفندق جدّ مساور الخارجي وفندق في سوق الحشيش فكان هدفه جلب التجّار إليها بعد تعطّل أسواقها سنوات عدّة.

وعلى غرار العصر الأموي، فإنّ جمال هذه المدينة وطيب الإقامة فيها جعل الأمراء الهاشميين يقبلون للإقامة بها والاستقرار حيث سكنها آل اسماعيل بن علي وكان لهم بها قصورا وفنادقا واقطاعات معظمها من أملاك آل الحر بن يوسف

وكذلك أقام بها جعفر ابن المنصور الى وفاته حيث بنى له قائده حرب الرّاوندي قصرا في الكار الأسفل قرب قصر هشام وولدت له بها ابنته زبيدة التي ستكون زوجة هارون الرّشيد بعد ذلك ويبدو أنه احتوى اقطاعات وأملاك هشام بالمدينة وأصبح نهر الحر يسمّى باسم ابنته(41).

وأصبح قصر جعفر بعد وفاته مقرّ ملكي ينزل به الخلفاء، حيث نزله الخليفة المهدي عندما شيّع ابنه الرّشيد في الغزو مع حرمه وبقيّة أبناءه وأنجب الهادي له إبنه جعفر واطعم فيه أهل الموصل الأخبصة بهذه المناسبة وهي حلويّات من التّمر والسّمن(42).

ويبدو أنّ سياسة تعمير الموصل وتوسعتها أتت أكلها فتضاعف عدد سكّانها بين حكم أبي العبّاس والمهدي ويبرز ذلك من خلال عمليّة التّوسعة الثالثة للمسجد الجامع سنة 167 هـ/783م ويقول الأزدي «وفيها زاد المهدي في المسجد الجامع للموصل الصّفاف الدّائرة بالصّحن، وبلغني أنّ موضع الصفاف كانت حوانيت للمسجد وسوقا لأهل المدينة، فما كان يلي سوق الدّاخل للبزّازين وما يلي باب جابر للسرّاجين، وما يلي درب القبلة للسقط ومواضع المطابخ التي كان يطبخ للنّاس فيها في شهر رمضان، فأمر المهدي بهدم جميع ذلك وأدخله الى المسجد، وأجرى عمل ذلك على يد موسى بن مصعب عامله على الموصل، وقد نقب في ذلك

(41) نفس المصدر ص 157 و 167 وديوه جي: تاريخ الموصل ص 45. ويعرف بنهر زبيدة.

(42) نفس المصدر ص 243 مع الهوامش.

حجرا مقابل الدّاخل من باب المسجد الذي يلي سوق الدّاخل فإني قرأت فيه «بركة من الله لعبد الله الإمام محمّد المهدي فأجرى على يده عامله موسى بن مصعب(43).

وهذا المقتطف، يبرز أهميّة التوسعة للصحن التي شملت أسواق مجاورة ومواضع الطّبخ للفقراء ويبرز كذلك سعي الكاتب للتحرّي حول أشغال التوسعة إذ وجد في عصره حجر التّدشين. فأصبح الجامع يرفع الى أكثر من 12 ألف مصلي. لكن كانت كثرة ثورات أهلها خصوصا في سنة 148هـ/765م حيث دعم جانب منهم الخوارج مع التمرّد الضّريبي الذي قامت به يمنية الموصل منذ سنة 177هـ/793م دفعت الخليفة الرّشيد الى مداهمة الموصل 180هـ/796م وكاد يبيد أهلها لولا وساطة بعض من حاشيته وشفاعتهم فيهم وحسب الأزدي : «أمر بهدم سور المدينة ونادى مناديه : من هدم ما يليه من السّور فهو آمن، فهدم النّاس سورهم بأيديهم» وفي رواية ثانية ذكر أنّ الرّشيد أشرف بنفسه على هدم السّور (44).

وهذين الرّوايتين لا تبرزان إن كان هدم أسوار الموصل جزءيا أم كاملا كما يبرز إشكالا في الرّواية الأولى حول تولّي كلّ حيّ هدم ما يليهم من السّور، هل كان للموصل سورا واحدا يحيط بالمدينة، أم توجد أسوار أخرى بين أحياء المدينة ؟ ويبدو، أنّ الفرضيّة الثانية أصحّ لما نعلمه من تعدّد الصّراعات القبليّة دخل المدينة

(43) نفس المصدر ص 248.

(44) نفس المصدرحول ثورة 148 هـ ص 206 و ص 207 وحول ثورة 177 هـ ص 279 و 280 وفي ص 285 ذكر الأزدي هذا القول في أحداث 180 هـ.

بين قبائلها، فمن المحتمل أن تكون بين الأحياء بعض الأسوار ويبدو أنّ الخليفة أمر بهدمها لتيسير مراقبة أهلها ومنع تمرّدهم ويبدو أنّ جيشه تولّى هدم الأسوار الخارجيّة لأنّ الرّواية من شاهد عيان. وحول عمليّة الهدم الجزئي للأسوار لا يبدو أنّ الخليفة هدّم كلّ أسوار الموصل والأقرب إلى الاحتمال أنّه هدّم أجزاء منه لترك فتحات فيه تسهل عمليّة الإنتشار العسكري بها في حالة تمرّد جديد نظرا لاتّساع الأسوار وحاجة الخلافة الى الابقاء على الأبراج والأسوار المطلّة على دجلة لمراقبة الملاحة النّهريّة وتحرّك السّكّان بين ضفّتي النّهر وكذلك حفظ الأبراج المطلّة غربا على البرّيّة خوفا من غزوات البدو على المدينة مثل ما حدث بين البدو والمواصلة من مواجهات سنة 167هـ/783م (45) وغيرها من الوقائع وحول الحركة العمرانيّة والتشييد بعد خلافة الرّشيد، فإنّه تغيب الإشارات حول قيام السّلطة بتوسيع الأسواق أو أشغال كبرى بالمدينة نظرا لحلول عصر الاضطرابات والصّراع القبلي بين عرب الموصل رغم حفاظ المدينة على دورها التجاري الهامّ.

أمّا خطط المدينة في العصر العبّاسي الى نهاية حكم المعتصم فلقد رأينا توسّع المدينة في بداية الحكم العبّاسي ونقل أسواقها الى المقبرة القديمة ونقل المقابر خارج الأسوار في الميدان غربا وأهمّ المعالم التي برزت في تلك الفترة هي بعض المساجد من أبرزها :

(45) ابن الأثير : الكامل ج VI ص 26.

- مسجد أبي حاضر وسط الأسواق الجديدة في موقع المقبرة القديمة(46) وكان ذلك مع ولاية اسماعيل بن علي والغاية منه توفير مصلى لمن يأمّ هذه الأسواق.

- مسجد موسى بن مصعب في سكّة خاقان ابتناه هذا الوالي (47).

- مسجد بني أسباط أو مسجد المهدي : بناه هذا الخليفة سنة 162 هـ على حساب ما هدمه من بيعة مارتوما في درب إيليا الطّبيب واتخذ قرار الهدم بعد ما نظر المهدي في خلاف النصارى والمسلمين في الموصل حول ما أحدث من البيعة، فكان قراره اخراج 400 ذراع منها وبناء مسجد على نفقته(48) ويندرج هذا العمل فيما عرف عن المهدي من التشدّد على النّصارى.

- مسجد المعافى بن عمران في السّكّة الكبيرة وهو بناء لجدّه جابر بن جبلة الذي نزل الموصل في أوّل الدّولة العبّاسيّة والمعافى حفيده وكان فقيه أهل الموصل وأبرز محدّثا به كما رأينا ويبدوا أنّه كان كذلك يسمّى مسجد بني سليمة الأزديين الذين كانوا مقيمين بالسّكّة الكبيرة شرق الموصل(49).

- مسجد علي بن الحسن الهمداني وهو على القنطرة المطلّة على سوق الداخل المجاور للمسجد الجامع ويبدوا أنّ بناءه يرجع الى فترة بداية خدمة بني

(46) الأزدي نفس المصدر ص 167.

(47) نفس المصدر ص 147 ذكر في أحداث قتل أهل الموصل

(48) نفس المصدر ص 244.

(49) نفس المصدر ص 113 وحول المعافى الرّجوع الى ص 80 والى ص 89.

عبادة الهمدانيين للدّولة العبّاسيّة واشتهر باسم علي بن الحسن لتزعّم قومه بالموصل أثناء ولايته بها(50).

وحول المعالم الدّينيّة في العصر العبّاسي فبالاضافة الى المساجد المحدثة فلقد برزت معالم دينية جديدة ترتبط بالاعتقاد في الأولياء الصّالحين وهم من العبّاد النّسّاك، أقام لهم المواصلة مشاهد يزورنها من أبرزها :

- مشهد حمزة بن السّريّ الخولاني والذي توفّي في 183هـ/799م ودفن في سور نينوى ويقول الأزدي «وكان زاهدا قد احتفر في سور نينوى بيتا يأوي إليه، والبيت الى هذا الوقت يأتيه الناس هناك(51).

- مرقد فتح بن الوشاح الموصلي وتوفّي في 165هـ/781م ويذكر الأزدي أنه عند وفاته، غلقت الأسواق وخرجوا مثل يوم العيد يبكون ويصرخون ... وكان أهل القرى يأخذون من تراب قبره فيذهبون به إلى منازلهم يتبرّكون به !»(52).

- مرقد عبد الرّحمان الخثعمي وهو من شيعة علي بن أبي طالب.

- مرقد عمرو بن الحمق الخزاعي وهو صحابي من شيعة علي كذلك(53).

---

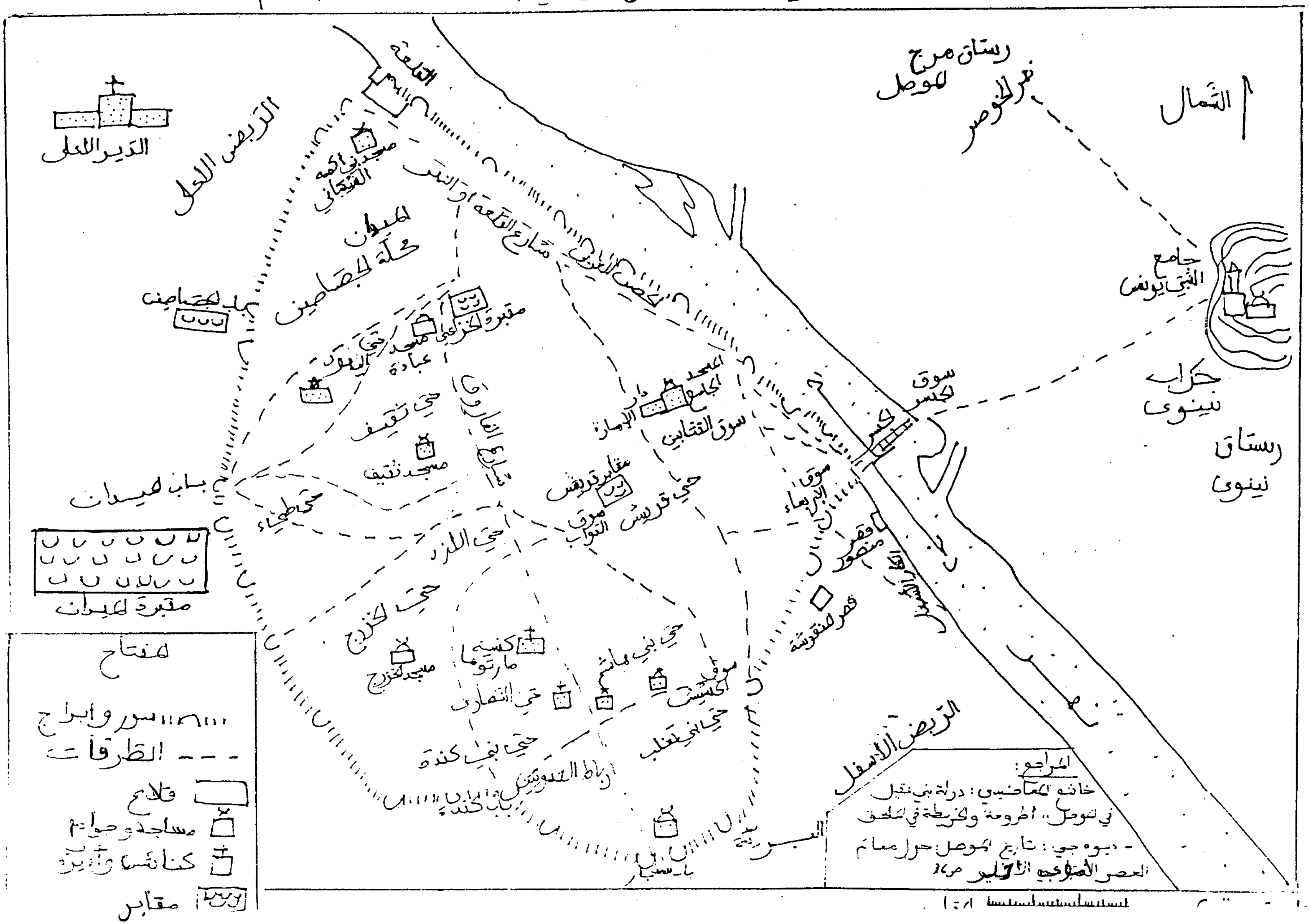
(50) نفس المصدر ص286 والرّجوع الى الباب الثاني وما ذكرته حول بني عبادة الهمدانيين.

(51) نفس المصدر ص 295.

(52) نفس المصدر ص 246 و 247.

(53) ديوه جي : نفس المرجع ص 182.

خريطة مدينة الموصل في بداية القرن III هـ / IX م



وهذه المشاهد والمراقد كانت محلّ زيارة من أهل الموصل للاعتقادهم في بركة أصحابها ولم تكن هذه الاعتقادات دارجة في العصر الاموي حيث تغيب الإشارات الى وجود هذه الاعتقادات بالموصل في ذلك العصر.

أمّا خطط الشوارع والدّروب فلقد اكتملت ملامحها مع بداية الحكم العبّاسي لانتهاء أشغال توسعة المدينة ومن أبرز الدروب والشوارع التي ذكرت :

- درب دير الأعلى : ويؤدّي الى باب الرّبض الأعلى والدّير الأعلى شمالا.

- درب الجصّاصين : ويؤدّي الى غرب المدينة حيث تكثر أحوار الجصّ يبدأ بباب الجصّاصين ويمرّ بحيّ اليهود.

- درب إيليا الطّبيب ويشقّ هذا الدّرب كلّ الموصل من الشمال الى الجنوب ويمرّ ببيعة مارتوما وبعض أحياء العرب وينتهي عند حيّ تغلب.

- درب رحى أمير المؤمنين: ويؤدّي الى شرق المدينة نحو ساحل النّهر أين توجد الرّحوب والرّعوب والميناء النهري للمدينة.

- درب بني ميدة : يؤدّي الى الرّبض الأسفل وباب العراق وكان الولاة العبّاسيّون يدخلون منه نحو وسط المدينة مع قوّاتهم العسكريّة كما يبرز مع الوالي خالد بن يزيد سنة 190 هـ/ 805م .

- درب الدّبّاغين : وهو على دجلة جنوب المدينة خارج السّور.

- درب بني هزيل : ويوجد غموض حول موقعه في المدينة.

ـ شارع نينوى: ويشقّ المدينة من الغرب الى الشرق وينتهي قرب جسر الموصل على ضفاف النّهر الذي ينزل إليه بدرّج.

ـ شارع النّهر ويحاذي هذا الشارع الأسوار الشرقية للمدينة ويمرّ على نهر الحرّ بن يوسف حيث ينتزه به المواصلة.

ـ شارع القلعة وبدايته وسط المدينة بالمسجد الجامع الى قلعة الموصل شمالا كما توجد دروب أصغر كدرب درّاج في السّكة الكبرى ودرب جميل (54).

ويبرز وصفنا لهذه الدّروب وجود تخطيط هندسي شطرنجي للمدينة يجعلها منقسمة الى محورين رئيسيين : محور أوّل يمثّله شارع نينوى له اتجاه غربي شرقي ومحور شمالي جنوبي ممثلا في شارع درب دير إيليا أو شارع الفاروق لكن لم تكن الدّروب والأنهج التي تشقّ الأحياء مستقيمة حيث نجد الأنهج الضيّقة والملتويّة والأزقّة.

وحول عمارة الموصل، فيتّفق الجغرافيون العرب منذ نهاية القرن III هـ إلى القرون اللاّحقة بأنّها ذات أبنيّة فاخرة وتختلف عن معظم مدن بلاد الرّافدين

(54) حول هذا الدّروب والشّوارع الرّجوع الى هوامش الأزدي : نفس المصدر ص 487 وخريطة مدينة الموصل وما ذكره ديوه جي في نفس المرجع ص 180 و 181 ويذكر المقدسي أسامي الدّروب لكن في فترة متأخّرة (4 هـ) المقدسي ص 138 : وهي : درب دير الأعلى ـ درب باصلوت ـ درب الجصاصين ـ درب بني ميدة ـ درب الجصّاصة ـ درب رحى أمير المؤمنين ـ درب الدّبّاغين ـ درب جميل.

بأنّ بيوتها ومعالمها مبنية بالحجارة والجصّ ويقول ابن حوقل «وابنيتها بالجصّ والحجارة»(55) وقول ياقوت «فأمّا ابنيتهم فهي حسنة جيّدة وثيقة بهيّة المنظر لأنّها تبنى بالنّورة والرّخام ودورهم كلّها آزاج وسراديب مبنيّة ولا يكادون يستعملون الخشب في سقوفهم البتّة»(56).

وبينما ذكر الجغرافيّون حسن مساكنهم بينما معظم المساكن في الجزيرة تبنى بالطّوب والآجر لغياب الحجارة والجصّ في معظم السّهل الفسيح للجزيرة لكن يتوفّر في نواحي الموصل شمالا الرّخام من جبل مقلوب شرقا وفي الجبال الشرقيّة وشمالا كجبل تنّين وتوجد غرب المدينة مقاطع الجصّ التي يستعملها المواصلة بكثرة في بناءاتهم. ولكثرة الرّخام فإنّ منازلهم كانت تبلّط به ويستعمل في واجهاتها ومداخل الأبواب والشبابيك وكان الرّخام على الواجهات ينقش في أشكال هندسيّة جميلة كما يبرز في قصر المنقوشة وكما ذكر ياقوت فإنّ معظم الأبنية كانت بالأقبية(57).

ويبدو أنّ المواصلة كانوا يطلّون منازلهم بالجصّ الأبيض ولذلك نجد من الشعراء من وصفها بالموصل البيضاء حيث يقول أحد الشعراء اليمنية بها :

---

(55) ابن حوقل : نفس المصدر ص 195.

(56) ياقوت : معجم ج ٧ ص 223.

(57) لمزيد التفاصيل الرّجوع الى ديوه جي : أعلام الصناع المواصلة ص 132 الى ص 144. وياقوت : معجم : ج ٧ ص 223 الى ص 224

عــن الموصـــل البيضـــاء قــد ردّ تغلــبا

وقـــد أشرفت منهـــا علـى شرّ مرقب (58)

أمّا النشاط الإقتصادي للمدينة في العصر العبّاسي الأوّل، فلقد شهد ديناميكية ترتبط أساسا بانتقال عاصمة الخلافة الى بغداد على دجلة فأصبحت هذه المدينة تتزوّد بحاجياتها من الموصل عبر النّهر في مسافة لا تتعدى اليوم الواحد ويقول المقدسي أنّ ميرة بغداد من الموصل وإقليم آقور(59).

فازدهرت بها الحرف والحركة التجاريّة. ومن أبرز صناعاتها النّسيج الذي يعتمد على الانتاج القطني والذي يزرع غربيّها حول نهر الثرثار والخابور حيث يصدّر الى نواحي الموصل ويغزل بها كما كانوا يغزلون النسيج الكتّاني والصّوفي واشتهرت الموصل بستورها وتباع هذه المنتوجات في سوق الشعّاربين والعتّابين أقتاب الإبل وبرادع الدّواب وفي السرّاجين تباع سروج الخيل وكان في ربض الموصل سوق الدّبّاغين أين تدبغ الأقمشة(60).

وتبقى أشهر حرفها في ذلك العصر هي طحن الحبوب وكانت المطاحن ثلاثة أنواع :

- المدار : وبها حجر واحد للطّحن تدار بالبغال.

---

(58) الأزدي : نفس المصدر ص 333.

(59) المقدسي : نفس المصدر ص 136.

(60) ديوه جي : تاريخ الموصل ص 222 و ص 223.

- الرّحى : وجمعها الأرحية وتدور بواسطة تيّار ماء العيون أو يتّخذ لها ساقية من ماء دجلة فينحصر الماء فيها ويصبّ في حفرة واسعة تسمّى بئر الرّحى ويصبّ ماء البئر على دولاب خشبي دونه فتدور حجر الرّحى التي فوقه وكان كما قلنا 18 رحى على نهر الحرّ.

- العروب : ومفردها عربة : وهي سقية وسط النّهر يديرها تيّاره ويكون فيه حجر أو أكثر يصبّ الماء على دواليب ذات عنقات تدور وتقوم بتدوير دواليب أخرى متّصلة بالطّواحين وكانت العروب موثّقة بالسّلاسل والحديد ويذكر ابن حوقل أنّ كلّ عربة في الموصل بأربعة أحجار ويطحن كلّ حجرين في اللّيل والنّهار خمسين وقرا من الطّحين وكانت حجارة الأرحية تجلب حسب نفس المؤلف من الشمال من جهة آمد وتجلب منها حجارة أرحية الجزيرة كلّها(61) ويبدو أنّها تطحن دقيق كلّ المنطقة ويصدّر الفائض عبر النّهر الى العراق في بغداد والبصرة.

أمّا بالنّسبة للنّشاط التجاري بالمدينة فنظرا لما ذكرناه أنّها على طريق خراسان الذي يعبرها جنوبا من الحديثة وطريق آمد الذي يربطها بأرمينية مع الطّريق الملكي الذي يربطها بالشّام والعالم المتوسّطي بالإضافة الى أهميّة النقل النّهري بدجلة فإنّ عدّة بضائع تصدّر خاما للمدينة لتصنع كالقطن والدّواب والأغنام من أرمينية وأذربيجان وتأتي المواد الفلاحيّة كالعسل واللّوز والجوز من الأقاليم الشمالية. وكانت تنحدر من النّهر الأكلاك والسّفن محمّلة ببضائع جزيرة

(61) وصف الرّحى والنواعير في ابن حوقل ج ٧ : نفس المصدر ص 198 وص 201 وديوه في تاريخ الموصل ص224.

ابن عمر وخلاط كالجوز والفواكه الجافّة ويجلب إليها من الجزيرة الزّبيب والعنب والرّمّان وصابون الرّقة والجبن. وكانت الموصل تنتج للعراق الحبوب والرّمان والسّمك النهري المجفّف ومن المنتوجات الحرفيّة الآلات الحديدية والذي يجلب من أذربيجان كالأرطال والسّكاكين والثياب والطّريخ والسّلاسل. وكانت القوافل والسّفن النّهريّة تتوقف بها في فنادقها وخاناتها الكثيرة بسبب رخص أسعارها حسب المصادر الجغرافيّة وكثرة أسواقها ويذكر ابن حوقل سوكان بها لكلّ جنس من الأسواق الإثنان والأربعة والثلاثة مما يكون في السّوق المائة حانوت وزائد وبها من الفنادق والمحال والحمّامات الرّحاب والسّاحات والعمارات ما دعت إليها سكّان البلاد النائيّة، فقطنوا بها وجذبتهم إليها رخصها وميرها وصلاح أسعارها، ويقول في موضع آخر وفيها أسواق ولها موعد لأوقات يحضر فيها السّوق، يجتمع فيه المتاع وسائر التجارة والاكره والأكراد»(62).

ولقد ذكرت في الباب الأول أنّ التجّار المواصلة كانوا أثرى الفئات الإجتماعيّة في الجزيرة وسيطروا على النشاط التجاري بها سواءا في تجارة الأغنام والدّواب أو المنتوجات الحرفيّة وكان نشاطهم قد امتدّ الى بغداد حيث كانت تنزل سفنهم في باب الشّعير وكان لهم بها درب المواصلة أو الموصليّة(63).

أما خطط العرب بالموصل، فلقد أشرت في الباب الأوّل الى الطّابع العربي للمدينة منذ نشأتها لأنها كانت مصرا يتبع جند الكوفة وحافظت طيلة فترة بحثنا

(62) ابن حوقل ج V : ص 195 وص 196، وحول النشاط التجاري : ديوه جي : نفس المرجع من ص 225 الى ص 226 ويقول المقدسي ص 138 : ومنها ميرة بغداد وقوافل الرّحاب.

(63) ديوه جي : نفس المرجع ص 226 والأزدي : نفس المصدر ص 414.

على طابعها العربي بينما ذكر في حوالي 375هـ/985م أنّ جانب هامّ من سكّانها أكرادا(64) ومرّ الاستيطان العربي بها بعدّة مراحل الى اكتماله في المدينة في بداية القرن III هـ. حيث كانت التركيبة القبليّة إثر تمصيرها من قبل عرفجة بن هرثمة البارقي من جموع قيس وخصوصا من بني سليم وقوم من الأزد وطيء وكندة وعبد القيس وبعض من أسلم من تغلب تكريت أمّا في خلافة عثمان ومع ولاية حكيم بن سلام الخزاعي فلقد وطّن نواقل الكوفة والبصرة من قيس واليمن وتواصلت هذه الهجرة من العراق في خلافة علي مع الوالي معقل بن قيس الرّياحي ونظرا الى امتداد الاستطان العربي على البريّة غربا فإنّ هذا التوسّع لقي مقاومة من تغلب الذين قتلوا والي علي عبد الرّحمان الخثعمي سنة 39 هـ (65) وكما رأينا في الباب الثاني فإنّ توسّع استيطان عرب الموصل نحو البريّة كان يجد دائما المقاومة من تغلب ذات الحضور القويّ في المنطقة. وأثناء أحداث الفتنة الثانية ومع ولاية ابراهيم ابن الأشتر للمختار الثقفي وطّن قومه كندة بها. ومن قبله وطّن والي المختار عبد الرّحمان بن سعيد الهمداني بعض من قومه الهمدانيين الذين توسّعوا نحو أذربيجان وأصبحوا من أهمّ القبائل المستوطنة بها. كما عزّز الحضور اليمني بالموصل محمد بن الأشعث عامل ابن الزبير الذي عزّز حضورهم بها وأصبحت هذه المدينة طيلة فترة بحثنا تحت نفوذ اليمنية بها(66).

---

(64) ابن حوقل ج V : نفس المصدر ص 195.

(65) البلاذري : فتوح : ص

(66) حول وضع الموصل أثناء الفتنة الثانية الرّجوع الى البلاذري : أنساب ج V من ص 229 الى ص 255.

وتبقى أهمّ هجرة لنواقل العراق في ولاية محمد بن مروان منذ سنة 73هـ/692م حيث نقل إليها الأزد وربيعة البصرة وعيّن بها خططهم ومنازلهم(67).

ورغم عدم تحدّث المصادر بوضوح عن حضور تغلب بالمدينة، فإنّ حضورهم القوي غرب المدينة جعلهم يستوطنونها تدريجيا في الجانب الجنوبي حيث كان لهم حيّهم ومعظم من أقام بها كان ممن أسلم منهم(68).

وفي خلافة مروان بن محمّد أقام الشيبانيون في الرّبض الأعلى مع ولاية القطران بن أكمة الشيباني سنة 128هـ/745م(69).

أمّا موجة الهجرة الأخيرة في فترة بحثنا فكانت مع بداية الحكم العبّاسي حيث هاجرت جموع الأزد واليمنية وبعض من ربيعة من البصرة الى الموصل(70) وأدّت هذه الهجرة التي تواصلت الى عصر المنصور الى تعزيز الحضور اليمني نهائيّا على المدينة. ولقد رأينا أنّ القيسيّة وربابعة الموصل تحالفوا ليكوّنوا صفّ النّزاريّة في مواجهة صفّ اليمنية بزعامة الأزد منذ خلافة الرّشيد للسيطرة على الموصل ونواحيها. وفي بداية القرن III هـ برزت خطط العرب وأحياءها على

---

(67) نفس المصدر ج V ص 185 و 186.

(68) خريطة الموصل - الباب الثاني في فصل تغلب.

(69) الأزدي : نفس المصدر ص 68.

(70) نفس المصدر : مقطع من ص 80 الى ص 114.

النحو التالي - حيّ قريش : يمثّلون أرستقراطيّة العرب لهم خطّة ومسجد بها وينقسمون الى أمويّين كآل الحرّ والهاشميين كآل إسماعيل بن علي(71).

حيّ بني تغلب : أقامت تغلب جنوبا قرب باب العراق في درب بني ميدة ويسمّى حيّهم بمحلّة التغالبة ولهم بها أسر كبرى كالعدويين الذين يمتلكون بها رباط(72).

- حيّ قضاعة : استقرت منذ الفتح الإسلامي وهي من العناصر العربية القديمة التي استوطنت الجزيرة واندمجت في الموصل مع اليمنية فينتسبون إليهم(73).

- حيّ ثقيف : سكنت الموصل بعد الفتح في محلة باب المسجد ولهم حضيرة ثقيف(74).

- حيّ شيبان : كان حضور الشيبانيين هامّا شرق الموصل بين الزّابيين والمرج وكما رأينا أحدث لهم بن أكمة خطّة بالموصل في الرّبض الأعلى.

---

(71) ديوه جي : نفس المرجع ص 19.

(72) خريطة الموصل وديوه جي : نفس المرجع ص 17.

(73) نفس المرجع ص 17.

(74) نفس المرجع ص 18.

ـ بنو عبادة بن عقيل : من عقيل بن كعب سكنوا الموصل في محلّة تل عبادة(75).

أمّا اليمنيّة التي نزالت الموصل فلهم أحياءهم بها :

* حيّ الآزد : نزلت في أفواج عدّة كما رأينا وهي أهمّ مجموعة قبليّة بالمواصل ومعظمهم سكن شرق الموصل ومن أهمّ بطونهم التي نزلت بها :

ـ سليمة : نزلت الموصل مع جابر بن جبلة البصري ولهم محلّتهم في السّكّة الكبيرة(76).

ـ الخزرج : ولهم محلّة بها وجامع نزحوا للموصل مع محمد بن مروان(77).

ـ بنو فراهيد ويقول الآزدي عن علي بن حرب «منازل فراهيد عمان ومهاجرهم الموصل (78).

ـ بنو تليد : وكان لهم الشرف في الآزد مع ولاية السيد للموصل في بداية القرن III هـ (79).

---

(75) نفس المرجع ص 20.

(76) الآزدي نفس المصدر : حول سليمة مقطع من ص 80 الى ص 92.

(77) ديوه جي : نفس المرجع ص 21.

(78) الآزدي : نفس المصدر ص 92 و 93.

(79) نفس المصدر من ص 343 الى ص 378.

- معن بن مالك : وكانت منازلهم بباب سنجار يقاسمونها مع بني سليمة(80).

ويذكر الأزدي عشائر أخرى من الأزد نزلت الموصل بأعداد ضعيفة أو سكنتها ثمّ هاجرت الى أذربيجان أو سكنت قرى مجاورة لها(81).

أمّا بقيّة اليمنية الذين سكنوها فلهم أحياءهم ومنها :

- حيّ بنوكندة : سكنوا جنوب الموصل بجوار تغلب ولهم باب كندة ومحلّة حضرموت(82).

- حيّ حمير: ويقع في الكار الأسفل وذكر الأزدي أنّ منهم خوارج وعلى مقامهم بالموصل في خلافة المهدي لأنّهم أخواله(83).

- حيّ طيء : استوطنت طيء الموصل منذ الفتح كما رأينا وكان لهم حيّهم قرب باب الميدان غرب المدينة وكان لهم الشرف والزّعامة منذ بداية القرن III هـ(84).

---

(80) نفس المصدر ص 92.

(81) نفس المصدر من ص 93 الى ص 96.

(82) ديوه جي : نفس المصدر ص 21 وخريطة الموصل.

(83) الأزدي : نفس المصدر : ص 206 وص 243.

(84) نفس المصدر من ص 378 الى ص 383.

. محلّة همدان : وكان معظم من أقام بالموصل من الحارثيين وأصولهم كوفيّة وكانت لهم الزّعامة في الموصل منذ سنة 198هـ/813م الى سنة 202هـ/817م مع بني صالح بن عبادة ويبدو أنّه كانت لهم محلّة غرب المدينة حيث كان مستقرّهم بحصن السّلق واذربيجان(85).

ويقول ابن حوقل حول عرب الموصل أن «أهلها عرب ولهم بها خطط وأكثرهم ناقلة الكوفة والبصرة ويذكر كذلك أنّ من أهمّ بيوت العرب بها بنو فهد وبني الجارود وبني أبي خداش والصّداميّين والعمرانّيين وبني هاشم وغير ذلك...»(86).

كما يذكر الأزدي احتقار أم حكيم زوجة هشام تولية أخاها الحر الموصل فقال لها «يا بنت يحيى أما يرضى أخوك أن يصلّي خلفه الهراثمة ؟ ويعني ولد هرثمة بن عرفجة البارقي...»(87).

وحول الحياة العلمية بالموصل تبرز من خلال تاريخ الأزدي لوجوه العلم والحديث بها في كتابه تاريخ الموصل أنّه لخّص عمله في كتابه «طبقات المحدّثين» وهو كتاب ضخم مفقود ترجم لمحدّثي الموصل ذكره، المتأخّرون كالذّهبي وابن الاثير وكان الثاني موصليّا(88).

---

(85) الأزدي : نفس المصدر من ص 343 الى ص 347.

(86) ابن حوقل : نفس المصدر ص 195.

(87) الأزدي : نفس المصدر : ص 24.

(88) نفس المصدر : مقدّمة المحقق ص 14 وص 15.

وما يبرز من خلال ترجمات الأزدي، أنّه اعتمد على التّراث الشفوي للمواصلة وعلى مخطوطات خاصّة لكبار أسر الموصل كآل علي بن حرب الذي كان محدّثا وأرّخ لعرب الموصل ويذكر أنّه كتب من مخطوط لهاشم بن أحمد بن الحسن الهمداني الذي كان عالما بأمر العرب بالموصل واستغلّ كذلك أرشيف قضاة الموصل أو ما كتبه محمد بن معافى بن طاوس الذي أرّخ للمواصلة(89).

وتبرز من مختلف التّراجم خصوصيّات الحياة العلميّة للموصل عن بقيّة مدن الجزيرة حيث ترتبط ارتباطا وثيقا بأمصار العراق وخصوصا البصرة حيث يختلط لدى الكاتب أحيانا ترجمة العلماء البصريّين بالمواصلة عند ذكر من توفّى منهم في أحداث كلّ سنة وكذلك كان لا يؤرّخ إلاّ للعلماء والمحدّثين اليمنيّة دون ذكر غيرهم من النّزاريّة وتنقسم طبقة العلماء بها الى ثلاثة أصناف :

المحدّثون السّنة ومن أبرزهم :

- المعافي بن عمران : وهو كبير محدّثي أهل الموصل ينتمي لبني سليمة من الأزد وجدّه جابر بن جبلة من أزد البصرة قدمها في بداية الدّولة العبّاسيّة وتتلمذ المعافى عن سفيان الثوري وعلماء البصرة واستقرّ للحديث في بغداد والموصل أين توفّي بها سنة 185هـ/801م(90) وأسّس هذا المحدّث مدرسة للحديث بها.

---

(89) نفس المصدر : الرّجوع الى هوامش الكتاب فهرست الاعلام وحول علي بن حرب تاريخ بغداد ج XI ص 419.

(90) نفس المصدر من ص 81 الى ص 83 وص 300 وص 301 تاريخ بغداد ج XIII من ص 226 الى ص 229.

- بكار بن شريح الخولاني : وكان قاضي الموصل منذ سنة 153هـ/770م الى وفاته سنة 163هـ/779م وكان محدّثا لها وكان الخولانيّون قادوا وتقدّموا في ولاية موسى بن مصعب كما رأينا وكان أخوه معافى مصاهرا للوالي.

- علي بن مسهر بن عابدة القريشي يقول عنه الأزدي أنّه كثير الحديث، كتب عنه المواصلـــة وتولّى القضاء طويلا بهـا من سنة 166هـ/782م الى سنة 175هـ/791م(91).

- إسماعيل بن زياد وكانت له رواية الحديث روى عنه المواصلة وكتب النّاس عنه بالموصل وعزل عن القضاء في 181هـ/797م من قبل الرّشيد «لهواه مع أهل الموصل»(92).

أمّا الصنف الثاني والثالث فيشمل فقهاءها وقضاتها وتؤكّد كلّ تلك الترجمات التبعيّة العلميّة الى البصرة والكوفة وبغداد منذ العصر العبّاسي حيث اتّجه العديد منهم الى هذه المدن للتحصيل العلمي ومنهم من استقرّ ببغداد لاشتهاره برواية الحديث أو للعمل في سلك القضاء والفقه(93).

---

(91) نفس المصدر من ص 248 الى ص 274.

(92) نفس المصدر ص 288.

(93) نفس المصدر الرّجوع الى فهرس الأعلام وتاريخ بغداد فيها قائمة لمن نزلها من أهل الموصل.

بينما تبرز علاقة علماء الموصل بالشّام ضعيفة نظرا الى تبعيّتهم لمدرسة البصرة والكوفة وللإختلاف المذهبي عنهم. كما أنّ علاقتهم بعلماء الجزيرة تبدو ضعيفة حيث لا نجد في كتاب القشيري وهو تاريخ الرّقة ترجمة لمواصلة نزلوها لطلب الحديث أو التدريس والقضاء. كما نلاحظ أنّ العلماء المواصلة كان يشتغلون بالتدريس والقضاء في أرمينية وأذربيجان نظرا لتبعيّة عربها الى الموصل وذكر الأزدي أنّ عبد الله بن إدريس بن قادم الهمداني تولّى القضاء في أذربيجان مع المنصور وكانت داره بالموصل وهو مولى لبني عبادة الهمدانيين ويبدو أنّ ابنه إدريس تولّى نفس الخطّة في أذربيجان في عصر المأمون(94).

وتبرز الموصل من خلال تركيبتها السّكانيّة أنّها حافظت على طابعها العربي في بداية القرن III هـ ولا يعني ذلك أنّ أغلب سكّانها من العرب بل أنّ العرب المسلمين كانت لهم الهيمنة والنفّوذ خصوصا منذ خلافة الأمين حيث أصبحت الأسر النافذة منهم تتولّى حكمها كما رأينا.

وكانت تعيش ضمن نظم الولاء والذّمّة جموع النّصارى من الانباط والأكراد وبعض الأسر من جنسيّات مختلفة سواءا من الأرمن أو الخزر كأحرار أو كعبيد. ويسود الغموض حول عدد سكان هذه المدينة. إذ يشير المقدسي في القرن IV هـ أنّ عدد سكانها هو ثلث عدد سكّان البصرة أي بين 30 ألف و50 ألف ساكن(95). وهذا

---

(94) الأزدي : نفس المصدر ص 181 وص 202.
(95) المقدسي : نفس المصدر : ص 138.

العدد يبدوا هو الأقرب الى الحقيقة في بداية القرن III هـ حيث نجد إشارات بين الأزدي وابن الأثير. الأولى حول مذبحة أهل الموصل حيث ذكر الأزدي أنّها أتت على كلّ سكّانها الذين كانوا 30 ألف نفرا وذكرنا مبالغة الرّواية في عدد القتلى لكن تعطي فكرة على عدد السكّان المحتمل للمدينة. وذكر ابن الأثير في حوادث 132هـ/750م فيضان دجلة الذي أتى على 100 ألف إنسان ويبدوا أنّ هذا الرّقم يشمل القرى والمدن المجاورة لهذه المدينة وذكر أنّ الوالي أشرف على كفن 30 ألف ميّتا سوى من بقي تحت الرّدم وما حمله الماء(96).

وأشار ابن الأثير أنّ سكّان الرّبض الأسفل وشاطئ النّهر هم من حملهم الماء ويعني أنّ سكّان الرّبض الأعلى نجوا من الغرق ويعني ذلك أنّه قبل سنة 232هـ/846م كان عدد سكّان الموصل يناهز 50 ألف نسمة يبدوا أنّ ثلثيهم غرقوا في هذه الفيضانات نظرا لتركّز نسبة هامّة من السكّان في الكار الأسفل وعلى طول ضفاف النّهر كما ذكرنا وبقيّة العدد غرقوا في النواحي المجاورة للموصل.

وبين سنة 133هـ/750م تاريخ المذبحة وسنة 232هـ/846م تاريخ فيضان دجلة تطوّر عدد السّكّان تدريجيّا من 30 ألف ساكن الى حدود 50 ألف ساكن أو أكثر. ولقد ذكرنا في بداية الباب الأوّل للبحث الى تعرّض سكّان المدن الى الأوبئة القاتلة ولم يمنع ذلك من تطوّر عدد سكّان المدينة تدريجيّا طيلة فترة بحثنا نظرا لرخص الأسعار بها والازدهار الإقتصادي ولم تعرف مصير بعض المدن الصغيرة بالجزيرة التي انقرضت او تراجع عدد سكّانها رغم ما تعرّض له سكّانها من كوارث وفواجع

---

(96) الأزدي: نفس المصدر ص 148 وص 154 وابن أثير: الكامل ج VII ص 180.

قلّ نظيرها في مدن أخرى من أراضي الخلافة الإسلاميّة. ويبرز الجغرافيون العرب الذين زاروا المدينة في النّصف الثّاني من القرن III هـ النّهضة العمرانيّة وازدهار اقتصادها وكثافة أعداد سكّانها بعد أقلّ من جيل من حدوث هذا الفيضان القاتل. وهو ما حدث بعد مذبحة سنة 133هـ/750م حيث رجعت عمارتها ونمى سكّانها بعد سنوات من هذه الفاجعة لبقاءها قطبا جاذبا لسكّان بلاد الرّافدين للأسباب التي ذكرتها آنفا.

الفصل الثالث:

الرقّة وحرّان عاصمتين للجزيرة وللخلافة

مقدّمة

تتبع مدينتي الرّقّة وحرّان منطقة ديار مضر بغرب الجزيرة، وهو مجال عريق حضاريّا نظرا لوجود المنطقة في مفترق الطّرق للتجارة البريّة الرّابطة بين الشرق والمجال المتوسّطي وحيث تلتقي في منطقة حرّان والرّها طريق آمد نحو جسر منبج على نهر الفرات والطّريق القادم من منطقة الفرات الأعلى.

تمتدّ الثّغور الإسلاميّة نحو سميساط والرّها والرّقة بينما يبدأ من الرّقة طريق الفرات البريّ المتوازي للنّهر وميناء نهري هام، ومثلت كلا المدينتين مصرين استوطنت بهما المقاتلة العرب منذ الفتح الإسلامي في مجال عرف بقوّة حضور الكنيسة المسيحيّة(1).

(1) Marius Canard : La dynastie des hamdanides p. 90-93 والبلاذري: فتوح ص 173 - 175.

I) الرّقّة : عاصمة الخلافة الإسلامية أثناء حكم هارون الرّشيد

1) تطوّر الرّقة قبل خلافة هارون الرّشيد

من خلال تحليلنا للتحولات السياسية والاجتماعية، برزت لنا المكانة المرموقة التي كانت للرقّة ضمن حواضر الجزيرة.

وكانت مع حرّان والموصل، أحد مراكز القرار في مجال الجزيرة والخلافة. حيث عرفت منذ نهاية الحكم الاموي وبداية الحكم العبّاسي بأنّها حاضرة ديار مضر بغرب الجزيرة وارتقت مع خلافة هارون الرّشيد الى عاصمة الخلافة وفي بداية القرن الثالث تحوّلت الى عاصمة ولاية الجزيرة.

وترتبط أهميّة هذه المدينة أساسا الى موقعها في منطقة الفرات الاوسط على الضفة اليمنى لنهر الفرات في القسم الجزري وتتحكم في طريقه وهو أحد الطّرقات الرّئيسيّة الذي يربط العراق بالشام و المجال المتوسّطي وكذلك طريق الثغور الجزرية عبر مدينة سميساط فكان معبرا رئيسيا لمرور القوافل التجاريّة نحو الشام وللقوات العسكرية المتجهة الى الحدود البيزنطيّة(2).

---

(2) الاصطخري : المسالك والممالك ص 61 وص 71 الى ص 76.

وتسمية الرّقة، أطلقها العرب الفاتحون لمدينة قالينقوس CALLINICUS كما يسمّيها السّريان(3) والرّقّة لها معنى لغوي محدّد لأرض الى جنب واد ينبسط عليها الماء أيّام المدّ ثمّ ينضب وجمعها رقاق أو كلّ أرض تكون على الشطّ ملساء مستوية فهي رقّة ولا أظنّ أنّ الفاتحين المسلمين هم أوّل من سمّاها الرّقّة بل يحتمل أن تكون مجموعة تغلب التي تعيش في الأراضي المجاورة لها، كانت تطلق عليها هذه التسميّة وهذه المدينة ينبسط عليها الماء في فترة فيضان الفرات وهي ذات تربة رملية ملساء كما توصف في بعض الأشعار.

ويبدو أنّ الفاتحين أخذوا هذه التّسمية وتركوا التسمية السريانيّة. ويتميّز موقعها بتعاقب الحضارات عليها منذ الألفيّة الرّابعة قبل الميلاد منذ عصر مملكة أروك الى العصور الإسلاميّة(4).

وشهدت عصر مجدها مع تأسيس مستوطنة مقدونيّة بها عرفت بنيقفوريوم NIKEPHORION وأصبحت مع الحضارة الرّومانية موقعا عسكريا قبالة الحدود الفارسيّة يعرف بتسمية كالينيكوم وهو الاسم الدّارج في المصادر السّريانيّة عندما يتحدّثون عن الرّقّة في العصر الإسلامي(5).

---

(3) مقال : الرّقتان: لمصطفى حسون : مجلة BEO دمشق 1993 من ص 31 - 46. كانار : نفس المرجع ص 87 - 91.

(4) لسان العرب : مقال : رفاق ومعجم البلدان ج III ص 58 الى ص 60. ومقال : «المواقع الأثرية العربية الإسلامية في الجزيرة السّوريّة» قاسم طوير و"الرّقتان" حيث يذكر شعرا لابن قيس الرّقيّات فيه وصف فيضان الفرات على الرّقة ص 31 - 36 والمجلة B.E.O. دمشق 1993 من نفس العدد

(5) حوليّات التلمحري أو ابن العبري : تاريخ الزّمان.

وكانت مركز أسقفية يعقوبيّة وبجوارها وعلى بعد 3 كلم شرقيّها يوجد دير زكّى الشهير في الأدبيات الإسلامية حيث تفنّن الشاعر الصّنوبري في القرن 4 هـ في وصف رياضه وزيارة نصارى الجزيرة له في موسم أعيادهم ووصفه كذلك الشابشتي في كتاب الدّيارات وأشهر من نزله من الخلفاء والأمراء كما ذكر الأصفهاني في كتاب الدّيارات كرم ضيافة رهبانه وهو أحد أديرة السّريان الكبرى، شيّد في القرن الخامس ميلادي اشتهر بمدرسته اللاّهوتيّة تواصل عملها الى القرن العاشر ميلادي (6).

كما اشتهرت الرّقّة بدير القائم الذي كان مرقب من مراقب الرّوم في ضواحي هذه المدينة وكان رهبانه قد اشتهروا منذ العصر الأموي بكرم ضيافتهم ولقد نزله الرّشيد عندما كان مقيما بالرّقّة(7).

وهذه الأدبيّات تبرز حياة نصارى الرّقّة وخروج الزّائرين الى دير زكّى ومهرجاناتهم التي تقام حول الأديرة في الأعياد والرّبيع وإقبال المسلمين عليها للترويح عن النفس.

تحقيق إحسان عبّاس . بيروت 1970.

(6) ديوان الصّنوبري ٧ والشّابشتي: كتاب الدّيارات تحقيق كوركيس عوّاد. المعارف بغداد 2ج 1966. وعبد القادر عيّاش حضارة وادي الفرات ص 241.

(7) الأصفهاني : الأغاني ج ٧ ص 418 الى ص 420.

وكان فتح الرّقة تمّ على يد القائد عياض بن غنم سنة 17 هـ ورضي أهلها بصلح أهل الرّها، فأقرّ عليهم الخراج ودفع الجزية وما يهمّنا في صلح الرّقة بالنسبة لفترة بحثنا، أنّه اعتبر من قبل نصارى المدينة وكنيستهم مرجعا أساسيا يحدّد علاقتهم بإدارة الخلافة وتمّ حفظ صلحهم لدى اسقف الرّها إلى زمن عمر بن عبد العزيز الذي طلبه لمراجعة عقود صلح مدن الجزيرة وأرجعه إليه بعد ذلك حسب رواية للقشيري(8).

لكن عندما نقارن صلح الرقة بصلح الرّها، نلاحظ أنّ الصّلح الأوّل فيه تضييقات أكثر على النّصارى في إظهار شعائرهم ويشترط عليهم إقامة المسلمين سوقا على باب الرّها الشمالي(9).

فهل كان الفاتحون مقرّون من الأوّل على تمصير الرّقة بفرض إقامة المسلمين بها والتّضييق على النّصارى بسبب مقاومة أهاليها للفاتحين وعدم خضوعهم بسرعة لسلطة الفاتحين مثل نصارى الرّها ؟

لكن ما يهمّنا في تأثيرات نصّ الصّلح، أنّه قابل حفاظ مدينة الرّها على طابعها النّصراني وحضور كنسيّ قويّ ومكثف، وقع أسلمة الرقّة تدريجيا منذ ولاية سعيد بن عامر بن جذيم سنة 20 هـ الذي بنى بها مسجدا جامعا وأقام بها حامية من الجنود مثلت النواة الأولى للجماعة الاسلاميّة بها(10).

(8) القشيري : تاريخ الرقة : ص 6 وحول فتح الرقة البلاذري : فتوح ص 173 و 174.
(9) حول نصّ الصّلحين : الرّجوع الى البلاذري : نفس المصدر ص 173 و 174.
(10) نفس المصدر ص 178 والحميري : الرّوض المعطار في خبر الأقطار : الرّقة : ص 270 - 271 وفيها ذكر لفتحها.

ويبرز إشكالا آخرا منذ الفتح الإسلامي حول تسمية المدينة بالرّقة البيضاء كما جاء في أدبيّات القائد الفاتح سهيل بن عدي وذكر الرّقتان حيث ميّزت عنها الرّقة السّوداء التي تقع شرقيّها. وكأنّ الرّقة البيضاء هي قالينيقوس نفسها وصفت بالبيضاء بسبب طلي جدرانها بالجصّ الأبيض(11).

ومن المرجّح أنّ الأحياء الإسلاميّة نشأت بجوار الرّقة البيضاء. أمّا الرّقة السّوداء فهي تقع شرق الرّقة البيضاء على مصبّ نهر البليخ وتعرف حاليّا باسم رقّة سمرة. ويذكرها ابن خرداذبه باسم الرّقة العوجاء وترتبط هذه التسمية بتعرّجات نهر البليخ ويبدو، أنّها قرية للفلاحين ذكرها البلاذري بأنها حاضر للرّقة فيها عرب وفلاّحين ويذكر الحسّون في مقاله أن تسميتها بالرّقة السّمراء ترجع لكثرة أشجار البساتين التي حولها(12).

وعلى الضفّة الغربيّة مقابل الرّقة البيضاء توجد رقّة واسط بناها الأمير هشام بن عبد الملك قبل خلافته. ويحتمل أن تكون هي نفسها قرية الزيتونة(13) لكن كانت تعني لفظة الرّقتان في القرن I هـ. الرّقة البيضاء والرّقة السّوداء. بينما منذ بداية القرن II هـ مع إحداث واسط الرّقة مع هشام والرّافقة في خلافة أبو جعفر المنصور في 154هـ/770م أنّنا أمام رقاق وليس رقّة واحدة.

(11) حول شعر بن عدّي : مقال : الرّقة : في معجم البلدان ج III ص 58 ومقال الحسّون "الرّقتان" ص 33 وكتاب الفرات الأوسط لألواموسيل : ص 595 و 599.

(12) الحسّون : نفس المقال ص 45.

(13) حول واسط الرّقة: مقال الرّقة: في معجم البلدان ج III ص 58 و 60 والبلاذري فتوح ص 179 و 180.

ومن الأحداث التي أثّرت بالرّقة البيضاء في القرن I هـ الفتنة الكبرى إذ أنّها اعتبرت عثمانيّة معادية لعلي بن أبي طالب، نظرا الى تأثير العثمانيّة الذين نزلوها في تلك الفترة ومنهم الوليد بن عقبة قريب عثمان مع أسرته ومواليه وأنصاره كزبيد الطّائي الشاعر وأصهاره من تغلب وبعض وجوه قيس البصرة العثمانيين فرّوا منها بعد هزيمة واقعة الجمل كزفر بن الحارث الكلابي وسالم بن وابصة الأسدي والجحّاف بن حكيم السّلمي ومالك بن سمع وسمّاك بن مخرمة الأسدي الذي ساهم في توطين قومه بها يبرز من خلال الحضور المكثف لأسد بها(14).

وما يهمّنا في هذه الأحداث، أنّها جعلت أهل الرّقة عثمانيّين معادين للعلويين حيث بقي أهلها الى بداية الحكم العبّاسي يلعنون علي بن أبي طالب في المنابر ويطلقون عليه تسمية أبي تراب(15) والنتيجة الثانية هو الطّابع القيسي للاستيطان العربي بها وأنّ طبقة المحدّثين والرّواة بها من القيسيين.

والنتيجة الثالثة للفتنة الكبرى، هي وقوع معركة صفّين في الضفّة الغربية للرّقة في القسم الشامي في سهل صفين حيث أدّت وفاة عدّة صحابة إلى اعتبار المكان مزارا للمسلمين في العصر العبّاسي، ومن أبرز القبور قبر الصّحابي عمّار بن ياسر(16).

---

(14) طبقات ابن سعد ج VII والقشيري : تاريخ الرقة ص 3 و ص 20 وعبد القادر عيّاش : نفس المرجع ص 252 الى ص 253 والبلاذري فتوح ص 179.

(15) الرّجوع الى محدّثي ورواة الرّقة في كتاب القشيري: نفس المصدر أو في البلاذري : أنساب الأشراف ج V ص 305 (صراع قيس وتغلب).

(16) المقدسي : أحسن التقاسيم ص 141 الى ص 143 وياقوت : ج III ص 58 - 60.

وحول عمارة الرّقة البيضاء وخططها في بداية القرن II هـ ، فإنّ الإشارات قليلة، لكن تتوفّر بعض المعلومات عن معالم ترجع إلى الفترة اللآحقة للفتح ومعظمها أمويّة.

وكما ذكرنا، بأنّ التوسّع العمراني بعد الفتح، تمّ حول مدينة الرّقة البيزنطيّة CALLINICUM التي كانت مدينة صغيرة، محصّنة بسور ذو أربعة أبواب وخندق، وذكر الباب الشمالي بباب الرّها وذكرنا أنّ الفاتحين اشترطوا أن يقام في ربضها سوقا للمسلمين ويحتمل أن يكون التوسّع العمراني، بدأ من ذلك المكان، وجنوبا يوجد الباب الثالث، فيحتمل أن يكون باب الحجرين الذي ذكره القشيري ويطلّ شرقا على مقبرة المسلمين والخندق كما يحتمل أن يكون الباب الرّابع هو باب توما ويقع غرب المدينة ذكره القشيري بأنّ في نواحيه قنطرة سنان(17).

وكانت النّواة الأولى للتوسّع العمراني للمسلمين هو المسجد الجامع الذي بناه الوالي سعيد بن حذيم في سنة 20 هـ ويحتمل أنّه بنى معه دار الإمارة وحسب مقال مصطفى الحسّون، فإنّ الوالي استعمل لبناءه الآجر وانقاض الرّخام القديم، المتواجد في الخرائب البيزنطيّة الكثيرة ويبدو أنّ عدّة معالم بنيت من الخرائب المجاورة(18) ويذكر المقدسي أن جامعها في محلة البزّازين ويذكر

---

(17) حول أبواب الرّقة : القشيري : تاريخ الرّقة ص 18 وص 164 مع مقدّمة الناشر والبلاذري : فتوح البلدان ص 178.

(18) حسّون : نفس المقال ص 38 والقشيري : نفس المصدر تحدّث في عدّة مواضع حول المسجد الجامع.

القشيري قائمة من أشهر من تولّى إمامة الجامع ومن حدّث فيه(19) ويعتبر من المساجد الأولى في الإسلام وحسب دراسة الدكتور الحسّون فإنّه يعرف حاليّا بمسجد، المنيطير وقد زالت مؤذنته(20) ويعتبر أوّل عمل عمراني يدخله الفاتحون الى الرّقة، وحسب رواية البلاذري لفتح الجزيرة، فإنّ بن جذيم الوالي الثاني، بدأ ببناء مسجد الرّقة ثم مسجد الرّها وإثر وفاته بنى الوالي الثالث عمير بن سعد المساجد في بقيّة مدن الجزيرة(21).

واعتنى العالم الألماني هرزفيلد في بداية القرن بآثاره، حيث حدّد موقعه بالرّقة البيضاء ورسم مخططه ولقد بني باللبن وبقايا المرمر القديم ولاحظ أنّ البناء لم يبقى على شكله وأساسه القديمين ثم يصف مؤذنته التي أخذت شكل برج. ويرى أن بناء القاعدة يعود عهده الى زمن تأسيس البناء وجاء شكلها متأثّرا بأبراج الكنائس المنتشرة في المنطقة زمن الفتح الإسلامي(22).

وبنيت في الرّقة عدّة معالم أخرى من أبرزها :

- المسجد المعلّق : وكان مجاورا للمسجد الجامع وترجع هذه التّسمية لأنّه بني حسب المقدسي على عمد(23) ويحتمل أن يكون شكل هذا البناء المعلّق مرتبطا بأخطار الفيضانات التي تغمر المدينة أحيانا عندما يفيض الفرات فبني المعلم على عمد لكي لا تغمره المياه.

(19) المقدّسي : أسس التقاسيم ص 141 والقشيري : نفس المصدر والبلاذري : فتوح ص 178.
(20) الحسّون : نفس المقال ص 381.
(21) البلاذري : فتوح ص 178.
(22) الحسون : نفس المقال ص 230 و 231 ويقدّم أعمال هرزفيلد حول الرّقة.
(23) المقدسي : نفس المصدر : ص 141.

- مسجد قريش : ولا يترتبط هذا المسجد بالمجموعة القريشية التي كانت مقيمة في المدينة بل باسم شخص كان يسمّى قريشا بنى هذا المسجد ويبدو أنّه بني قرب المسجد الجامع ويشير القشيري أنه قرب دار الرّماح(24).

- مسجد بني وابصة: وهو بناء لوابصة بن معبد الأسدي، الصحابي الذي أقام مع قومه بني أسد بالرّقّة واشتهر بعض أبناءه بتولي الخطط في الجزيرة حيث كان أحد أبناءه عاملا للخليفة عمر بن عبد العزيز على الرّقّة(25) ونستبعد ما ذكره القشيري أنّه كان على الجزيرة ويحتمل أن يكون مسجده لبني أسد في المدينة.

- مسجد الجنائز : وكان على مقربة من باب الحجرين ومقبرة المدينة ويحتمل أنه تقام فيه صلاة الميّت(26).

- مسجد ابن صبّاح : وهو يقع كذلك قرب باب الحجرين وكان أحد الأروقة التي ترجع الى العصر البيزنطي هدمت، فحوّلت إلى مسجد ويرجع هذا المسجد حسب نفس الرّواية الى العصر الأموي(27).

- مسجد حرّان : ويرتبط هذا المسجد بأهل حرّان المقيمين بالرّقّة ويحتمل آنه بني في نهاية العصر الأموي حيث كانت تقيم مجموعة من المحدّثين والفقهاء ترجع الى ذلك العصر بالمدينة(28).

---

(24) القشيري : نفس المصدر ص 140.
(25) نفس المصدر ص 154 وحول آل من وابصة ص 10.
(26) نفس المصدر ص 164.
(27) نفس المصدر ص 140.
(28) نفس المصدر ص 103.

كما ازدهرت في القرن الأوّل هجري، الحياة الاقتصاديّة وخصوصا النشاط التجاري المرتبط بالملاحة النّهريّة في اتجاه العراق واستقطاب الرّقة بدور المموّن بالمواد الغذائية والأسلحة والعلف للمقاتلين، المتجهين الى الحدود البيزنطية في فترة تكثّف النشاط القتالي للخلافة وأحدثت الأسواق منذ الفتح كما رأينا من خلال صلح الرّقة، ومن أهمّ الأسواق التي برزت الى نهاية العصر الأموي.

- سوق هشام: ويبدو من خلال تسميته أنّه أحدثه هشام بن عبد الملك وذكره ياقوت بأنّه سوق الرّقة الأعظم، يعرف بأنه سوق هشام العتيق(29).

ورغم عدم وضوح نشاطه، فمن المحتمل أنه ارتبط بالنشاط الحربي من تموين للجيوش بمختلف حاجياتهم وبيع غنائم الحرب والعبيد من أسرى الحروب مع بيزنطا، حيث اشتهرت الرّقة منذ العصر الأموي ببيع عبيد الحرب والمتاجرة في الغنائم. والإشارة إلى أنه سوق الرّقة الأعظم ولو في فترة زمنيّة متأخرة يحيلنا على النشاط الرّئيسي لهذه المدينة في ميدان المتاجرة بغنائم وأسرى الحرب والتّموين.

- كذلك سوق البزّازين وكان نشاطا نبيلا ومربحا يبرز في مجاورته للمسجد الجامع(30).

- سوق الأحد(31) وذكره القشيري دون توضيح نشاطه الحقيقي، لكن

---

(29) معجم البلدان : ج III ص 58 - 60.
(30) المقدسي : نفس المصدر ص 141.
(31) القشيري : نفس المصدر ص 63.

الإشارة إلى أنه يقام يوم الأحد يجعلنا نفترض أنّه أحد الأسواق القديمة، ترجع إلى العصر البيزنطي، يقام من قبل النّصارى يوم راحتهم الأسبوعية للتزوّد بالمنتوجات الغذائية من الأرياف والقرى المجاورة ومن بعض المنتوجات الحرفية، وتواصل إلى العصر الأموي.

+ سوق العطّارين(32) وذكره الأخطل في شعره ويبدو أنّه مجاورا لسوق البزّازين قرب المسجد الجامع لنبالة هذا النشاط.

كما توجد معالم أخرى ارتبطت كما قلنا بالنّشاط الحربي مثل دار الرّماح(33).

وذكرت أنّها مجاورة مسجد قريش لدى القشيري ويبدو أنّها كانت دارا لصنع الأسلحة وخزنها المعدّة للمحاربين. ويحتمل أن تكون هذه الدّار تعمل على نفقة الدّولة الأمويّة لتوفير الأسلحة للمقاتلين حيث أن استعمال كلمة الدّار تحيلنا إلى مؤسسة عسكرية تابعة للدّولة مثل دار المضرب التي ذكرت في نفس المصدر والتي كانت مؤسسة لصكّ النّقود، حيث اشتهرت الرّقة والرّصافة في عصر هشام بإصدار الدّراهم والدّينارات ويذكرها القشيري أنّها كانت في مكان وضيع نزله أحد علماء العراق فاستدعاه القاضي لإثنائه عن الاقامة بالمكان حيث ذكره القشيري على موضع لا يحمل فيه النزول على مثلهم (أي العلماء)(34).

(32) الحسّون : نفس المقال ص 36.
(33) القشيري : نفس المصدر ص 140.
(34) نفس المصدر ص 108.

ويبدو أنّ دار المضرب كانت تقع في حيّ للعامّة بينما يوجد حيّ آخر كان لوجهاء المدينة. ورغم أنّ الرّواية ترجع الى عصر العبّاسيين الأوّل فإنّه يحتمل أن تكون دار المضرب قد أحدثت في العصر الاموي، حيث كان هشام قبل خلافته وبعدها مقيما بها(35).

ومن أبرز الأنشطة التي اشتهرت بها الرّقة هو عصر الزّيتون وصناعة الصّابون ويبدو أنّ هذا النشاط كان يوجد في ربض المدينة ويذكر المقدسي أنّها معدن الصّابون والزّيت(36) مما يدلّ على أهميّة هذا النشاط نظرا الى امتداد غابات الزّياتين في ظهيرها وهو نشاط قديم يرجع الى العصر البيزنطي على الأرجح وبقية المعالم ترتبط بالنشاط الترفيهي المميّز للمدن الرومانية والبيزنطية ومنها الحمّامات الذي وصفها المقدسي بالطّيبة(37) وكانت الحمّامات متواجدة في معظم مدن الجزيرة وتواصل إنشاءها بعد الفتح الإسلامي نظرا للوظيفة الدّينية التي تلعبها بالنسبة للمسلمين فيما يخصّ طهارة الجسم للصّلاة. ومن الوظائف الترفيهية الاخرى التي كانت بالرّقة ميدان سباق الخيل كان موجودا في خلافة هشام(38) وكانت رياضة سباق الخيل تجد رواجا لدى الامراء الامويّين في منطقة اشتهرت بتربية الجواد الأصيل المعدّ للمقاتلين في الثغور وتذكر المصادر أن في منطقة الرّقة يوجد مرج عبد الواحد وهو من الامراء

(35) البلاذري : فتوح ص 187 و 188.
(36) المقدسي : نفس المصدر ص 141.
(37) نفس المصدر : ص 141.
(38) القشيري : نفس المصدر : ص 47 والبلاذري. فتوح ص 187 و 188.

الأمويين الذين مدحهم عبد الله بن قيس الرّقيات وكانت تربّى فيها أحسن الجياد(39).

وباستثناء هذه الإشارات عن أهمّ معالم مدينة الرّقة البيضاء في بداية القرن II هـ فإنّنا لا نجد معلومات أخرى واضحة عن التّركيبة السكّانية للمدينة من خلال المصادر الرّئيسية لكن يمكن تقسيم السكّان بها الى 3 أصناف :

- النّصارى : وتبقى أهمّ مجموعة سكنيّة، توجد أحياءها داخل أسوار كالينيكوم، ولا يبدوا أنّها انتقلت الى الأحياء الجديدة المحدثة بعد الفتح و خارج الرقّة البيضاء تتواجد مجموعات من المزارعين الآراميّين النّصارى التّابعين لأسقف الرقة في الرّقة السوداء(40) المجاورة للرّقة البيضاء وغيرها من القرى التّابعة لها.

- اليهود : توجد الجالية اليهوديّة منذ العهد السلوقي في منطقة الرّقة وخصوصا في مدينة دورا -أروبوس جنوب الرّقة على الفرات وكان لهم كنيس بالرّقة احترق في 393 م وأعيد بناءه وبقيت هذه الجالية متواجدة بها بعد الفتح الإسلامي(41).

---

(39) أخبار عبد الله بن قيس الرّقيات في الأصفهاني : الأغاني : ج V ص 73 ـ 74 والبلاذري : فتوح: ص 181 يقول أن مرج عبد الواحد كان حمى للمسلمين.

(40) البلاذري : فتوح ص 173.

(41) عيّاش : نفس المرجع ص 239 وموسيل : الفرات الأوسط ص 526.

- العرب : لم تكن القبائل العربيّة النّصرانيّة تقيم في الرّقة نظرا لطابعها البدوي وكانت تتبع أسقفية عانة أكثر من أسقفية الرّقة، فكان حضورها بالرّقة ضعيفا، لكن مع الفتح الإسلامي، استوطنت بها مجموعة عربية اسلامية هامّة بنت أحياءا جديدة في ربض الرقة ورغم عدم وضوح التركيبة القبليّة للأحياء العربيّة بها فإن أبرزها :

- حيّ قريش : وضمّت الأسر الأمويّة النافذة سواء من السّفيانيين كآل الوليد بن عقبة أو المروانيّين مثل آل عبد الواحد مع بضع أسر قريشية أخرى(42).

- بنو أسد : ويمثّلون أهمّ مجموعة مستوطنة بالمدينة، قدموا بكثافة أثناء الفتنة الكبرى مع إمارة سمّاك بن مخرمة الأسدي الذي استقدم بنو أسد الغاضبين على خلافة علي بن أبي طالب(43) بالإضافة الى من قدمها زمن الفتح. كذلك بنو سليم وترجع إقامتهم بها إلى زمن الفتح وكانت لهم بجوار الرّقة قرية دامان(44).

كذلك أقام بها بنو كلاب عندما قدم إليها زفر بن الحارث الكلابي من البصرة مغاضبا لعلي، ويبدو أنّه قدم لقومه بها وكان لهم بجوارها قرية زفر ولهم دورهم بالرّقة وتعزّز حضورهم بها بعد واقعة مرج راهط عندما وفدت قيس

(42) القشيري : نفس المصدر والبلاذري : فتوح ص 179 يتحدّث في اقطاع بعين الرومية في ضواحي الرّقة كان للوليد بن عقبة وأعطاها لأبي زبيد.

(43) البلاذري : أنساب ج V ص 305 والقشيري : نفس المصدر ص 10 وص 154 .

(44) القشيري : نفس المصدر ص 145 : يتحدّث عن بني سليم ومواليهم.

الى غرب الجزيرة بين الرّقة وقرقيسياء التي أصبحت موطنهم وامتلكوا على البليخ عدّة قرى وكان زعماء بنو كلاب وقيس مقيمون بالرّقة(45).

- بنو عقيل : وقدموا الى الرّقة بعد مرج راهط وذكر القشيري : أنّ زنكل بن علي كان يتولّى بني عقيل في الرّقة وكان توفي في 129هـ/746م(46).

وكانت لقيس بالإضافة الى أحياءها وقراها بضواحي الرّقة عدّة حصون تمثّل مصدر قوّتها ونفوذها بالمنطقة.

ونظرا لأنّ الرّوايات التي ذكرتها المصادر هي قيسيّة، فإنّها لم تذكر من استوطنها من غير قيس حيث يبدوا أنّه أقامت بها مجموعة تغلب والنّمر بن قاسط وبعض اليمنيّة بها بسبب الحضور القوي للمجموعة الأولى في منطقة البليخ والرّقة وحضور اليمنية القوي في الشام ووجود حامية من جند الشّام بها والمتركبة معظمها من عناصر يمنيّة.

ويبرز إشكالا حول عمران الرّقة حيث يذكر الشاعر ابن قيس الرّقيّات في ديوانه أنّه في حوالي عام 690م/71هـ كانتا بلدتا الرقة والقلس مهجورتين كأن لم يسكن بهما أحد، وحتى الدّير بالقرب من بليخ كان خاليا والأقرب أنه دير زكى وكأنه باد أهلها(47).

---

(45) نفس المصدر : يذكر وآله زفر في ص 14 الى 15.
(46) نفس المصدر ص 119.
(47) ديوان ابن قيس الرّقيّات :

فهل هي مبالغة الشعراء أو أن القرى المتعدّدة حول الرقّة كانت مهجورة ولذلك هاجر أهل الرّقة البيضاء المدينة وسكنوا هذه القرى الخالية. فكانت أعداد أهلها متقلّصة. ونستنتج من خلال هذه الإشارات أنّ الرّقة البيضاء بقيت مدينة صغيرة في بداية القرن II هـ وكان أهلها موزّعون بين القرى والمدن المجاورة للضفة اليمنى واليسرى للفرات وتوفّرت للمجموعات القيسيّة مجموعة من الحصون البيزنطية القديمة التي كانت مهجورة، فبرزت حول هذه الحصون تجمّعات سكنيّة ذات طابع قبلي مع بقاء مدينة الرّقة كمركز إداري رئيسي توزّع فيه السلطة العطايا على المسلمين ويدرس فيه أبناءهم في مسجدها الجامع(48).

ويبدو أنّ سبب بقاء الرّقة مدينة صغيرة، ترجع الى أخطار الفيضانات التي تهدّدها وعدم وجود بنية تحتيّة قادرة على نهضتها عمرانيّا ونعني بذلك أنّه لم تتوفّر أشغال مرويّة قادرة على توسيع مجال ظهيرها الزّراعي على غرار سواد العراق لنهضة مدن الفرات الأوسط رغم توفّر الأراضي الخصبة وهو ما شعر به الخليفة هشام بن عبد الملك الذي كانت إقامته كما رأينا سابقة لاعتلاءه الحكم. حيث كان مقيما في قرية الزّيتونة وله إقطاعات بها ومنزل بسيط بهذه القرية التي تقع غرب الرّقة(49).

(48) القشيري : نفس المصدر ص 10 وص 18 ومن ص 60 الى ص 62 تبرز دور جامع الرّقة الديني وفي ص 154 يذكر أن عامل عمر الثاني كان يوزع العطايا بالرقة.

(49) القشيري : نفس المصدر ص 157 وابن الأثير : الكامل ج ٧ يتحدّث عن وصول بيعته وهو في هذه القرية والبلاذري : فتوح ص 179 و 180 والأزدي: تاريخ الموصل ص 21 يقول أنها دويرة !

ومع إقامته بالرّصافة في الجانب الشامي والتي تبتعد عن الرّقة مسافة 23 كلم اهتمّ بعمران المنطقة والتوسع العمراني لهذه المدينة حيث لم يكتفي بالتجديد العمراني وتوسيعه في الرّصافة بل عنى ببناء القصور والحصون المحاذية للفرات لتوفير الأمن بالمنطقة ولتكون محطّات لراحته وراحة حاشيته وجنوده في تنقله بين الشام والجزيرة والحدود البيزنطيّة التي كان يغزوها هو أو أبناءه وعني خصوصا بالمجال الزّراعي في ظهير الرّقة حيث بنى التّرع ووسّع في الزراعة لتأمين حاجة جيوشه الى الغذاء وتأمينه للسكّان. ومن أبرز الأشغال التي قام بها كان في الجانب الغربي من الفرات قبالة الرّقة في قرية الزّيتونة وعرفت باسم واسط الرّقة كان ينزلها عندما يأتي من الرّصافة الى الرّقة حيث أقام بها قناتان هما المري والهني ترتبطان بالفرات لسقي البساتين والأشجار المثمرة ويذكر ابن حوقل أن ضيعة واسط الرّقة أحدثها هشام ﷺ حفر قناة الهني والمري لجلب ماء الفرات وأحدث حنايا لسقي بساتينها، وبنى بها قصران(50).

وكان اعتناءه بالرّقة على مستوى توفير البنى التحتيّة لنهضتها حيث بنى على الفرات جسرا لربطها بالجزء الشامي ولتصبح مركز عبور للقوافل التجاريّة وكان قبل ذلك جسر قوارب أصغر وذكر في المصادر أثناء أحداث الفتنة الكبرى(51) وعني بتوسيع أسواقها ورأينا أنّه أحدث سوق هشام الأكبر ويبدو أنّه أنجز قصرا بالرّقة حسب رواية لابراهيم الشيباني الذي ذكر أنّ عالم الجزيرة ميمون بن مهران زاره في قصره بالرّقة(52).

---

(50) ابن حوقل : نفس المصدر ص 204 - 205 ومقال Rusafa E.I.2 ج VIII ص 648 ـ 652 CP Haase .
(51) ابن أثير : الكامل ج III ص 281 يتحدّث عن الرّقة زمن الفتنة الكبرى.
(52) القشيري : نفس المصدر ص 33.

وكان لآل هشام بن عبد الملك حصن الكامل بضواحي الرّقة وهو يتبع مجموعة الحصون الذي رمّمها هشام أثناء حكمه وأسكنها أهله ومواليه وموالي أبناءه فعرفوا في المصادر بالهشاميّين وذكرتهم المصادر في ثورة سليمان بن هشام سنة 127هـ/744م حيث قام مروان الثاني بمحاربتهم وهدم حصونهم وكان في حصن الكامل 300 من الهشاميين(53).

ويذكر دنيس التلمحري أنّ الخليفة هشام أمر بحفر قناة بقرية الزيتونة وبنى على ضفافها مدنا وقلاعا وعدّة قرى وأقام البساتين(54) وهي إشارة إلى الجهد العمراني الذي أقامه بضواحي الرّقة وجعلها في نهاية الحكم الاموي أحد أهمّ مدن الجزيرة تتجمع فيها الجيوش الاموّية قبل الغزو مثل جيش يزيد بن عمر بن هبيرة قبل غزوه العراق منذ سنة 127 هـ. وجعلها عرضة لاطماع الخوارج مع الضحّاك بن شيبان الحروري لاهمّيتها العسكريّة بالنسبة للحكم الاموي(55).

لكنّه لم يذكر قناة المريّ وكأنّها قناة الزّيتونة هي نفسها قناة المريّ، ويبدو أنّ الطّراز المعماري للبناء في قصوره بضواحي الرّقة هو نفسه المستعمل في بناء الحير الشرقي في بادية الشام حيث استعمل في بناءه الآجر والحجارة وأعمدة الرّخام ويحيط بالمركّب الملكي البساتين والمزارع وتزوّد بقناة ماء. واعتبر الرّيحاوي في مقاله أنّ هشام أقام لابناءه في الحير الشرقي والرّصافة والزّيتونة وبالس وحصن مسلمة إقطاعات ومباني على شاكلة الحير الشرقي الذي تمّت فيه

---

(53) الطّبري : ج VIII ص 211 و212.
(54) دنيس : حوليات ص 23 الى ص 24.
(55) الطّبري : ج VIII من ص 208 الى 215.

أعمال التنقيب ووجدت فيه نقيشيّات ترجع الى سنة 110هـ/728م تاريخ إتمام بناءه وبقيت ذريّته بهذه المركبات إلى عصر هارون الرّشيد الذي دعى في الرّقة سنة 190هـ/805م من ذرّيّة هشام الاموييّن إلى وليمة (56).

فساهم هشام بإنشاءه إقامات ملكية حول الرّقة في تحقيق الازدهار العمراني لهذه المدينة.

وتبقى أهمّ فترة للتوسّع العمراني مع حكم الخليفة العبّاسي الثاني أبو جعفر المنصور وحسب رواية ذكرها الازدي فإنّ نيّة بناء مدينة بجانب الرّقة ترجع الى فترة توجّه أبو العبّاس وأبو جعفر الى الكوفة لاخذ البيعة للعبّاسيين حيث دار حوارا بينهما عندما نزلا دير القائم قرب الرّقة حيث كلّم أبو جعفر أخوه بقوله : «إن أفضى الامر إلينا، وصدقت الرّواية لم تنتفع بالجزيرة إلاّ إذا بنينا الى جانب الرّقة مدينة ونحيا بشيعتنا فنقمع هؤلاء، وإنّ هذا الموضع مدينة وأومأ إلى موضع الرّافقة»(57).

ولقد ذكرت في الباب الثاني أنّ للعبّاسيّين عداءا لجند الجزيرة الذي مثّل مع مروان الثاني العمود الفقري لجيش الخلافة وكانت ديار مضر مركز القيسية وكان يعني بقمع هؤلاء بالقيسية. ولقد تأكد كما رأينا هذا الخطر مع تبييض أهل الجزيرة والصّعوبة التي لقيها العبّاسيون للسيطرة على هذه الولاية، لكن أرجأ المنصور مشروع بناء مدينة «لشيعته» كما ذكره في النصّ الى سنة 154هـ/770م

(56) مقال الريحاوي : اسهام في دراسة قصر الحير الشرقي في الحوليات الاثرية العربية السوريّة ج 26 مجلة I و II ص 65 - 72.
(57) الازدي : نفس المصدر ص 223 و 224 والحميري : نفس المصدر : الرّقة : ص 270 و 271.

عندما كان متّجها الى بيت المقدس واستقرى الجزيرة كما رأينا، حيث تذكر الرّوايات أنه عزم على بناءها منذ 145 ه/762 واستشار بعض المنجّمين وراهب من المنطقة(58).

وكانت الرّافقة لا تبعد عن الرّقة الا 200 م في اتجاه الغرب وكان اختيار الموضع من قبل الخليفة ووجّه شخصان هما معاوية بن صالح ومعاذ بن مسلم فخطّطا موضع السوربرماد، وصيّرا موضع كلّ برج علما وكان بناءها على طراز بناء بغداد في أبوابها وفصولها ورحابها وشوارعها وهي في شكل نصف دائري وكلف ابنه المهدي منذ سنة 155 ه/771م بالاشراف على البناء(59) وكان لها سوران سورا داخليا وسورا خارجيا وبينهما فصيل وحفر خارج السّور خندقا ومن أبدع الآثار للرّافقة أبوابها وتعلوا كلّ منهما برجا مستديرا ولقد ذكرت المصادر أسامي أبوابها ومساحة المدينة التي تتجاوز بكثير مساحة الرّقة البيضاء(60) وكانت مناعة أسوارها التي لا تضاهيها أسوار أخرى في الجزيرة نظرا الى الدّور الموكول إليها في جمع الحامية الخراسانية للقيام بمهمّتين :

- دور حفظ الأمن في ولايتي الشام والجزيرة معاديتان للحكم العبّاسي كما رأينا.

---

(58) دنيس : نفس المصدر ص 101 والطبري : ج VIII ص 537 في أحداث 145 هـ. ويكتفي الأزدي : في نفس المصدر ص 218 بذكر أنه إرتاد موضعا لمدينته.

(59) الأزدي : نفس المصدر ص 224 ومقال ماينكي: الرّقة ج E.I.2 III ص 423 - 248. وحول شكل الرّافقة الطّبري ج VIII ص 46.

(60) الطّبري نفس المصدر ج VIII ص 46 وقاسم طويّر : المواقع الأثرية العربية الإسلامية في الجزيرة السوريّة من ص 13 الى ص 20 مع بيبليوغرافيا شاملة لأعمال التنقيب بالرّافقة.

- دور الغزو في حركة الصوائف ضدّ الأراضي البيزنطيّة.

وحسب الطّبري فإنّ بناءها خطط له سنة 154هـ/770م لكن لقي ذلك معارضة أهل الرقة وأرادوا الثورة عليه لخوفهم من انتقال أسواق مدينتهم الى الرّافقة فتتعطّل تجارتهم، لذلك سعى والي الجزيرة مع بناء الرّافقة بعد ذلك في 154 هـ وهو علي بن سليمان الى نقل أسواق الرّقة الى الرّبض الفاصل بينهما وبين الرّافقة فاتصل البناء بين المدينتين(61).

وتبيّن أعمال التنقيب أن الرّافقة في عهد المنصور كانت أقلّ امتدادا ممّا ستكون عليه في عهد الرّشيد وكانت تشتمل على قصر ملكي أقام فيه المهدي بين 154هـ/770م و158هـ/774م بالاضافة الى المسجد الجامع وسط الرّافقة ومركبات سكنية للجند الخراساني وتمثّل معالمها التي ترجع الى عصر المنصور هي الآثار الوحيدة التي تعوضنا عن بغداد المنصور التي زالت معالمها نهائيا فيكون سور الرّافقة وأبوابه ومعالمها هو النّموذج الباقي حتى الآن يشهد على تخطيط المدن وتحصينها خلال العصر العبّاسي الأوّل لكنّها لم تتوسّع في هذه الفترة الى تلك المساحة العظيمة التي ستعرفها في عصر الرّشيد حيث بقيت منحصرة وراء الأسوار المنيعة لأنها لم تتخذ في عصر المنصور والمهدي طابع المدينة الملكيّة بل كانت مدينة عسكريّة يقيم فيها الخراسانيون دون غيرهم وبقيت الرّقة تجمع بقية الأهالي وبدأ أهلها يتضرّرون اقتصاديا مع انتقال أسواقها الى الرّبض الفاصل بين الرّقة والرّافقة(62).

---

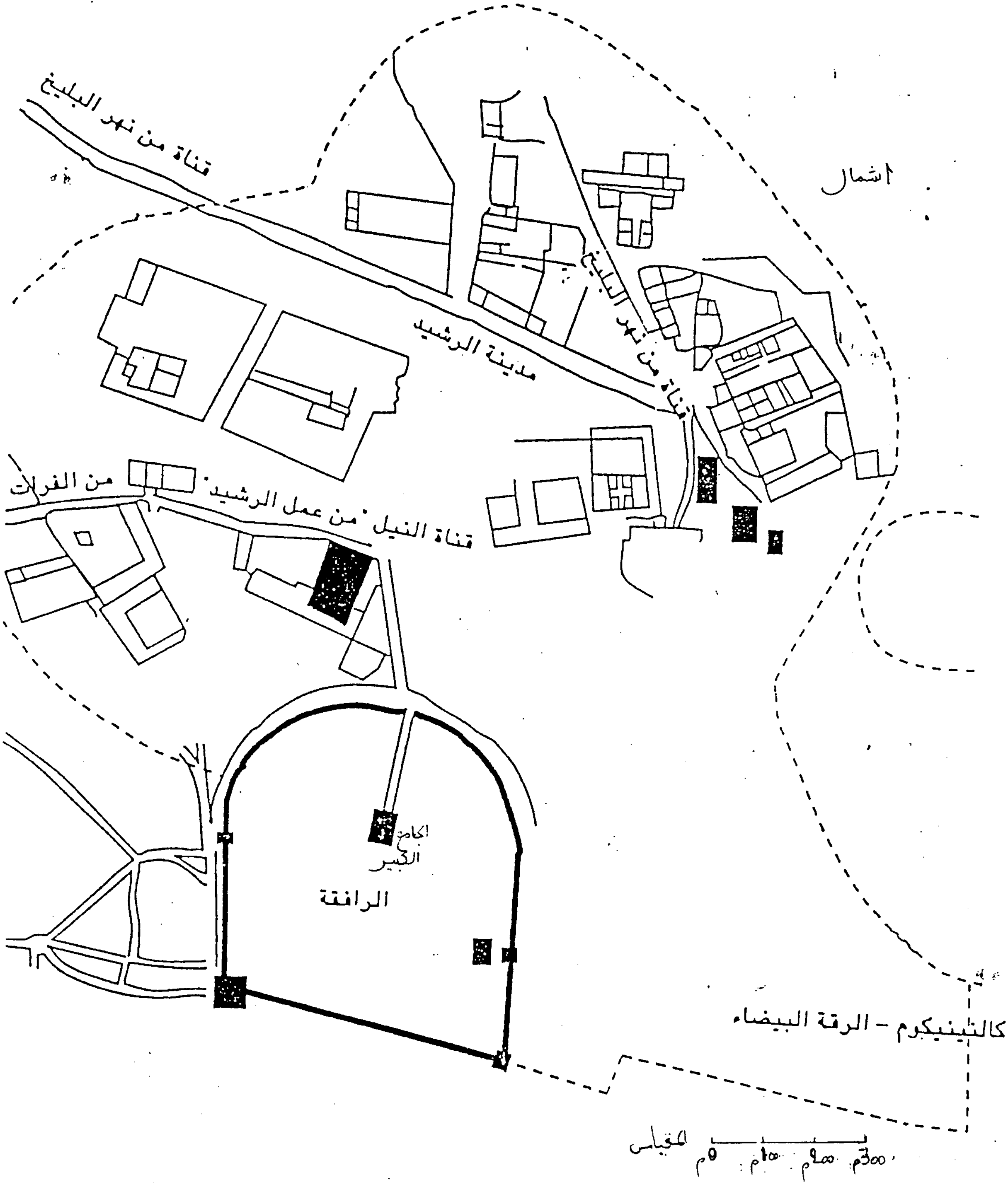
(61) الطّبري ج VII ص 537 وكتاب عيّاش : نفس المرجع ص 272.

(62) طوبّر نفس المقال من ص 16 الى ص 22 ويذكر أن القصر الملكي من المحتمل أن يكون قصر البنات الذي بني داخل الرّافقة منذ خلافة المنصور وفيه وصف للقصر.

2) الرّقّة في عصر هارون الرّشيد

لقد حللنا في القسم الأول سبب انتقال الرّشيد الى الرّافقة واتخاذها عاصمة للخلافة سنة 180 ﻫ/796م في ظرفيّة استعصاء سيطرته على الجزيرة وتنامي الأعمال الحربيّة ضدّ البيزنطيّين ولم يكن اتصاله بالرّافقة يرجع الى تلك الفترة، حيث سبق له أن أقام بها في شبابه عندما كان مكلّفا من قبل أبيه المهدي بالإشراف على الأعمال الحربية ضدّ البيزنطيين كما رأينا وكان يحبّ الإقامة في منازه الهني والمري بواسط الرّقة ويستطيبها على الإقامة ببغداد لذلك شرع في بناء مدينة ملكيّة شمال الرّافقة ومركب عسكري ضخم مع قدومه ببغداد بقوّات عسكريّة تتجاوز 100 ألف مقاتل بالاضافة الى الحامية الخراسانية المقيمة بها وتتطلب ذلك التوسّع خارج الرّافقة نحو الشمال لتكون مدينة ملكيّة قادرة على أداء مهام تسيير امبراطورية ويتطلب ذلك بنية تحتيّة فائقة تتجاوز ما انجز في عصر هشام بن عبد الملك، حيث ربطت الرّافقة بشبكة طرقات نهريّة وبريّة مكثّفة لخدمة الإدارة المركزيّة وتأمين مصالح الدّولة بسرعة من قبل أصحاب البريد عبر تكثيف النقل النّهري على الفرات نحو العراق أو الطريق البري للفرات الذي ترتبط بثغور الجزيرة عبر سميساط وجنوبا يرتبط بالعراق عبر عانة أو الطّريق الملكي الذي يمرّ على الموصل عبد تكريت ثم يتجه الى نصيبين وحرّان ثم جنوبا نحو الرّقة(63) وكان الهدف من ذلك أيضا تأمين تنقل الرّشيد نحو العراق والحج جنوبا بأكثر سرعة أو التوجه نحو الثغور شمالا ويذكر الاصفهاني الاجراءات الأمنيّة التي كانت تقام أثناء تنقلات الرّشيد في البرّ للاصطياد أو التنزه أو

(63) الرّجوع الى الاصطخري: المسالك والممالك ص 71 و 76.



<u>مخطط الرقة - الرافقة في فترة إقامة الخليفة هارون الرشيد</u>

المراجع: مقال ماينكي في EI_2 ج VIII ص 421 - 476 | 180هـ - 193هـ يوافق 796م - 808م |
حيث يقدم خريطة مفصلة بحدود الآثار

- مقال حستون "الرقتان"، مع خريطة في ص 47 من مجلة B.E.O عدد خاص شمال شرقي سوريا..
TXLI - XLII سنة 1989 - 1990

التوجّه للحرب أو الحج حيث كانت تصحبه مع جنوده مجموعة من الخدم يسميهم النّمل! يتقدّمونهم وبأيديهم قسي البندق! يرمون بها من يعارضه في الطريق(64).

وكان لبناء مدينة ملكيّة ومنتزهات كبيرة مع ظهيرها الزراعي لتموين حاجيات الجيش الغذائية تتطلب من الرّشيد القيام بأشغال مائية تتجاوز في حجمها مما أقامه هشام بواسط الرّقة حيث شيّد قناة النّيل تأتي من الفرات تتجه شمالا الى بساتين المركب الملكي وقناة ثانية تجلب مياهها على بعد 80 كلم ! من سروج حيث اشترى مياه قراها من أصحابها حسب ما ذكره ابن العبري بينما ذكر «ماينكي» في مقاله في الموسوعة الإسلامية أن حسب أعمال الحفريّات توجد قناتان :

- قناة أولى تحمل ماء الفرات على بعد 15 كلم وهي توافق ما ذكره ابن العبري.

- قناة ثانية تجلب بها المياه على بعد 100 كلم من جبال الاناضول الشمالية ! بينما رسم حسون في خريطة بمقاله الرّقتان أنّ نهر النّيل يأتي من الفرات بينما يأتي النّهر الثاني من نهر البليخ !(65).

ثم شرع طيلة 13 سنة من إقامته بالرّافقة في بناء القصور الملكية حيث تم انجاز 20 قصرا أكبرها القصر الملكي ويمسح 350 م / 300 م ويحتمل أن يكون

---

(64) الاصفهاني : الاغاني ج ص 90 ويذكر الأزدي نفس المصدر ص 245 أنه في سنة 164 هـ أن الرّشيد قدم من الرقة الى بغداد عبر حرّان في أيّام يسيرة ويبرز ذلك أنّ طريق البريد أو الطريق الملكي اعتنى به الرّشيد منذ أن كان وليّ عهد المهدي.

(65) ابن العبري : تاريخ الزّمان ص ومقال ماينكي نفس المقال ص 426 ونفس مقال حسون ص 47.

قصر السّلام التي تحدّث عنه ياقوت الحموي وذكره الاصفهاني باسم القصر الابيض حيث تغنّى الشعراء ببهاء قاعاته وفخامة بناءه وانجز حسب نفس الرّواية في 189 هـ (66) مع قصور أخرى أقل إتّساعا كانت معدّة لإقامته بينما نجد مجموعة قصور أعدّت لأفراد عائلته والأمراء الهاشميين ووزراء وكتبته وضيوفه وكلّ القصور لها مساحات شاسعة تتجاوز مساحتهم 100 م / 400 م محاطا باسوار وابراج دائرية غير كاملة ويبدو أنّه توقّف بناءه مع وفاة الرّشيد وكلّ هذه القصور استعمل في بناءها الآجر وهي مطلية بالجصّ الابيض ودواخلها منقوشة وتنفرد القصور الملكية باحتوائها على باحة شرف مشابهة لباحة الشّرف في قصر الأخيضر الأموي في الشام وبزخرفتها الدّاخلية المتطوّرة ولم تكن تضاهي هذه القصور إلاّ مسكن الطّاهريين والذي يقع شرق الرّافقة في الرّبض الفاصل بينهما وبين الرّقة واكتشفت في الحفريّات عملات ترجع الى عصر الرّشيد(67).

أمّا بقيّة المنشآت فهي مركبات عسكريّة وورشات لصنع الأسلحة ومخازن للجيش مع ملعب لسباق الخيل واحتوى أحد القصور الملكية على سجن المطبق الشهير الذي سجن فيها البرامكة(68).

(66) ياقوت معجم ج III ص 58 والاصفهاني : أخبار أشجع : ج XVIII ص 214.

(67) نفس مقال مايّنكي ص 425 و 426 وطوير : نفس المقال ص 13 الى ص 20 مع الرّجوع الى الخريطة المصاحبة في مقال ماينكي وكذلك الطّبري: ج IX ص 139 يذكر أنّ جعفر البرمكي انفق 20 م درهم في بناء داره في الرّقة.

(68) الطّبري نفس المصدر ج IX ص 136 وخريطة مقال ماينكي ويذكر أن مركّبا في شمال الرّافقة كان مسكنا للجند ص 425. والأغاني أخبار ابراهيم الموصلي ج V ص 154 الى ص 265 يذكر سجن المطبّق ومنشآت ملكية بالرافقة.

فجمعت الرّافقة مقرّ الحكم ومقرّ القيادة العامّة للجيوش ومقرّ الأسرة البرمكية التي كانت تسيّر دواليب الإدارة منها وخزينة أموال الخلافة وازدهرت بهذه القصور الحياة الأدبية والفنية برعاية الخليفة والبرامكة والبلاط العبّاسي ولقد أبدع الطّبري في وصفها، حيث ذكر نشاط الرّشيد في سنوات إقامته بها حيث عاش مع زوجته زبيدة وأبناءه الأمين والمأمون والقاسم والمعتصم حيث حصلا الأوّلان بها على بيعتهما وتدرّب أبناءه على فنون القتال وقيادة الجيوش، وذكر الطّبري أنّ جمع بها حرمه وخزائن ملكه والأموال والعسكر(68).

ولقد وفّر بالأشغال التي ذكرناها بنية تحتيّة قادرة على توفير المستوى المعيشي الرّاقي لساكنيه وقدرة على التموين الغذائي لأسرته وحاشيته الكبيرة والجند الملكي المصاحب له وكانت هذه المدينة الملكيّة التي كانت تضمّ حاشية الرّشيد والطّاقم الإداري والأمراء الهاشميين وقادة الجيش في حاجة الى اعداد هائلة من الخدم والعبيد، تمّ توفيرهم من الأعمال الحربيّة التي كانت سائدة شمالا ضدّ الأراضي البيزنطية وغربا ضدّ الجزر المتوسطيّة المسيحيّة ككريت وقبرص، حيث جلب العبيد الى سوق الرّقة من الأعمال الحربية مع ما يجلبه الأرمن من الرّقيق، فازدهرت هذه التجارة، نظرا الى القدرات الشرائية الضخمة لمثل هؤلاء الحرفاء(69).

---

(68) الطّبري ج VIII ص 57 حيث ذكر هذا القول الى نفس المصدر بين سنوات 181 هـ الى 193 هـ.

(69) الطّبري : ج VIII ص 320 و321 يشير الى سبي 16 ألف قبرصي حملوا الى الرّقة لبيعهم من قبل القاضي أبو البحتري سنة 150 هـ مع إشارات الى بيع الأسرى إثر حملات الصّوائف وفي الأغاني ج ص 219 يذكر أنّ الرّشيد كان على خدمته 400 خادم أبيض !

ومن الوافدين على الرّقة والرّافقة الشعراء والمغنين وحتى علماء الفقه، جلبتهم مجالس الأدب والعلم التي أقامها الرّشيد في قصوره بها. من أبرزهم ابراهيم الموصلي المغنّي الشهير. وكان نديم الخليفة وتحصّل على عدة اقطاعات حول الرقّة من أبرزها اقطاع الهني والمريّ التي كانت للرّشيد ووهب له الخليفة هذه الضيعة اثر غضبه على إبراهيم وحبسه بالرّقة في المطبّق فاقطعه إيّاها لترضيته بعد العفو عنه(70).

وتحصّل على إقطاع ثاني عندما غنّى له شعرا يصف إقامته في أحد خمّارات النّصارى بالرّقة وقال الرّاوي أنّ الرّشيد كان شغوفا به وفي رواية أخرى أنّ ذلك كان مع ابنه اسحاق الذي أقام في خمّارة بتلّ عزّاز بنواحي حلب وانشد حول إقامته شعرا أعجب الرّشيد(71).

وفي خبر اسحاق الموصلي مع الرشيد يوجد وصفا لتنزّههما للصّيد ونزولهما دير القائم حيث لقيا الحفاوة والكرم والاطعام وكانت زيارة الرشيد للدّير عندما أطنب إسحاق في وصف جماله وطيب نزهته وحسن شرابه(72).

والرّوايات التي قدّمها الاصفهاني حول ابراهيم الموصلي وابنه اسحاق تبرز مدى تطوّر النشاط الترفيهي للخلافة في الرّقة وما جلبه من شعراء ومغنين ذكرت اسماءهم في عدّة روايات وميزتها أنها تقدّم حياة القصر والحشم والتنزّه

---

(70) الأصفهاني : نفس المصدر ج ٧ ص 156 وص 171.
(71) نفس المصدر ج ٧ ص 176 و 373 الى ص 374.
(72) نفس المصدر ج ٧ ص 418 و 419.

في بساتين المنطقة ومشاهد الصيد بها، لكن لا تذكر كثيرا حياة أهالي الرّقة باستثناء وصف الخمّارات والاديرة بها حيث كان خمر المنطقة يجد رواجا لدى الحاشية والخليفة.

وكانت حياة الرّفاهة واغداق الخليفة ورجال دولته على الشعراء والنّدماء الأموال قد أغرت عرب الجزيرة للانضمام الى هذه الحاشية وما يشدّنا في الرّوايات التي ذكرت بعض هذه الشخصيات والتي تعرفنا عليها في الباب الثاني هو الفارق الكبير بين بساطة وبداوة معيشتهم والرّقي الهائل الذي كانت عليه حياة القصر ففي خبر الشاعر كلثوم بن عمرو التغلبي المعروف بالعتّابي، أنّ الرّشيد استدعاه من رأس العين عندما بلغه شعرا يذمّ فيه أحد قادته تورّط في قتل قومه ويذكر الرّاوي أنّه قدم قصر الرّشيد و«عليه قميص غليظ وفروة وخفّ، وعلى كتفه ملحفة جافية بغير سراويل، فأمر الرّشيد أن تفرش له حجرة وتقام له وظيفة، ففعلوا، فكانت المائدة إذا قدمت إليه أخذ منها رقاقه وملحا وخلط الملح بالتراب ! فأكله بها، فإذا كان وقت النّوم، نام على الأرض والخدم يتفقدونه ويتعجّبون منه فعله» فأطرده الرّشيد لذلك(73).

وكان حياة التّرف في المدينة الملكيّة تلاقي المعارضة والغضب من عرب الجزيرة الذين يعيشون حياة الشغف يبرز في رواية للمواصلة حول والي الرّشيد بها الذي حمل أموال جباية الموصل بعد تعسّفه على أهلها الى الرّشيد بالرقّة فأمر بدفعها الى الجارية خالصة «فلمّا بلغ الحرشي ذلك قال : إنّا لله وإنها إليه راجعون،

(73) الأصفهاني : نفس المصدر ج XIII ص 121 الى 124.

هلك النّاس والصّبيان على يدي وتدفع الى مملوكة، فبلغها فلم تقبلها منه شهرا، ثم أمرت، فابتيع ببعضه جوهرا نفيســا وسحق في هاون وأحضرته فنفخ في لحيته !(74).

وهذه الرواية الغريبة التي تتهم جارية الرشيد بالتهاون والدّلال الشديد تجعلنا نستنتج بعيدا عن تصديقها أو تكذيبها موقف عرب الجزيرة المعادي لحاشية الرّشيد. لكن، ساهمت إقامة الرّشيد بالرّافقة كما رأينا في الباب الأول والثاني في إدماج عرب الجزيرة في جهاز الدّولة وإثراء لتجار الجزيرة الذين وجدوا سوقا رائجة لبضائعهم. كما سعى الرّشيد الى الانفتاح على مشاكل وقضايا أهالي المنطقة، حيث كان يقام ديوان المظالم بقصره فيقبل المتظلمين(75).

وليس لنا معلومات واضحة حول التوسع العمراني لأهل الرّقة في تلك الحقبة لكن ما تؤكده بعض المصادر أن الرّبض الفاصل بين الرّافقة والرّقة، توسعت فيه الأسواق الجديدة والسّكن فالتصقت المدينتان حيث يذكر البلاذري أنّ الرّشيد استزاد في الأسواق التي ظهرت في ذلك الرّبض وكان ياتيها ويقيم فيها(76).

فأصبحت الرّقة الكبرى في عصر ازدهارها الى منتصف III هـ مدينة واحدة يمكن اعتبارها من حيث امتدادها الذي وصل الى 50 كلم2 حسب قاسم

(74) الأزدي : نفس المصدر : ص 287 و 288.
(75) الأصفهاني : نفس المصدر ج XIII ص 113 في خبر العتابي.
(76) البلاذري : فتوح ص 184.

الدولة حتى سنة 1211ه ، و لا ندري بالضبط الأسباب الكامنة وراء ذلك . و لعل هذا يعود إلى سوء المحاصيل الفلاحية و عواقب الوباء الذي ظهر من جديد في تلك الفترة خاصة في 1783-1784م (136) .

و يذكر كتاب القصر أن القايد حميدة بن عياد احتكر لزمة هنشير سيدي سعيد الشوشان خلال فترة 1212-1216ه ، مقابل قيمة نقدية ثابتة حددت ب 250 ريال . و هو من هناشير الوطن التونسي «...التي بالدراهم...» حسبما ورد بالوثيقة (137) . و ابتداء من سنة 1217ه ارتفعت قيمة ذلك الهنشير ، حيث صارت 600 ريال على يد المسمى عبد الرحمان بن علي شيخ ورشفانة . لكن عياد بن عياد القمرقجي استعاد لزمة الهنشير المذكور بقيمة ثلاثمائة ريال في شتاء 1218ه . و انتقلت هذه اللزمة منذ شتاء 1219ه إلى علي بن صالح السبعي الصبايحي مقابل 325 ريال ، و احتفظ في الأعوام اللاحقة بلزمة ذلك الهنشير الذي هبطت قيمته إلى 200 ريال فقط في 1221ه (138) .

لقد انخرط محمد بن عياد في ميدان اللزمة الريفية ابتداء من عام 1217ه ، حينما التزم ثلاث مواشي و نصف أي حوالي 35 هكتار بهنشير بني نحيم بالوطن التونسي «...حسب القوام القديم...» . و تؤكد الوثيقة أن بقية مساحة الهنشير تبقى تحت تصرف الوكيل (139) . و تقدر قيمة الماشية به بعشرة أقفزة شعير و خمسة أقفزة قمح في 1138ه . و أبقى في السنتين المواليتين على لزمة ثلاث مواشي (≅ 30 هكتار) فقط بنفس الهنشير ، و انتقلت تلك اللزمة منذ شتاء 1220ه إلى حسن الدحاحي الخانبة الذي أخذ ثلاثة مواشي و ربع (≅ 32½ هكتار) (140) .

و يبدو أن محمد بن عياد كان طموحا منذ بداية عهده بالخدمة المخزنية و الأنشطة المالية : فقد كان نظره متجها نحو سهول مجردة الوسطى المعروفة بخصوبتها و ملاءمتها للزراعات الكبرى خاصة الحبوب . فقد سعى إلى عقد تحالفات مع ممثلي المخزن بقيادة باجة قصد التزام بعض المساحات الزراعية ، و في هذا الإطار تشير الوثائق إلى كونه التزم في شتاء عام 1218ه بمعية علي بالضياف كاهية باجة و علي آغة صبايحية الترك بها خمس مواشي أي حوالي 50 هكتارا بهنشير الهوارية (141) . و من هنا نتبين أن هذا الإبن المتميز بحيويته هو الذي سيحمل مشعل عائلته خلال المرحلة اللاحقة ، و هو الذي سيواجه امتحانا صعبا في ثلاثينات القرن التاسع عشر مثلما سنراه في الجزء الثالث من هذه الدراسة .

إن الوثائق لم تحدد المساحة التي التزمها آل بن عياد في كل من هنشير بجره و تامزراط و سيدي سعيد الشوشان ، فهي لم تذكر عدد المواشي التي كانت على ذمتهم بالهناشير الثلاثة أثناء مدة لزمتهم . و هذا مغاير لما عهدناه في عقود لزمة الهناشير منذ عهد حسين بن علي ، حيث اعتاد كتاب القصر على توضيح التاريخ و المساحة الملتزمة و القيمة باعتبار الماشية . فهل يعني ذلك أن المساحة بقيت على حالتها مثلما كانت على يد من سبقهم من اللزامة ؟ أم هل أنهم التزموا الهنشير بأكمله ؟

للمأمون أقام بها عندما رجع الى العمل الحربي ضدّ البيزنطيين وفي خلافة المعتصم، تبرز بعض الحفريات، انّه جدد بناء القصور ورمّمها نظرا للاهمال الذي لحقها بعد وفاة الرّشيد وأقام بها مع الخراسانيين والجند الاتراك ووجد علماء الحفريّات أنّ ما اصطلح عليه باسم قصر -ب- أعيد ترميمه مع المعتصم، حيث توجد نقوش باسمه في القصر واشتهر هذا الخليفة بأنه حمل سنة 223هـ/837م من مدينة عمّورية البيزنطية بعد فتحها أبوابها الى الرّافقة واقامهم بها فكانت من أشهر أبواب المدن في العالم الإسلامي(80).

(80) ماينكي: نفس المقال ص 426 وابن حوقل: نفس المصدر ذكر عظمة ابوابها ووصف المدينة ص 119.

II/ حرّان : عاصمة الخلافة في حكم مروان بن محمد

تناولنا من خلال الباب الثاني التنظيم الإداري للجزيرة وأبرزنا أنّه منذ القرن الأول هـ، كانت حرّان مقرّ والي الجزيرة وبقيت على ذلك إلى عصر الرّشيد أين انتقل مركز الولاية إلى الرّقة.

وحضيت بذلك منذ الفتح الإسلامي باهتمام السّلط المتعاقبة على هذه الولاية. وأصبحت مع الخليفة مروان بن محمّد آخر الخلفاء الأمويين عاصمة الخلافة الإسلامية طيلة 5 سنوات إلى زوال الملك الأموي. واعتبرت طيلة العصر العبّاسي الأوّل المدينة الثانية من حيث الأهميّة بعد الرّقة في ديار مضر.

وتعتبر حرّان حسب المؤرّخين من أقدم المدن الرّافدية اشتهرت في التّوراة بإقامة النبي إبراهيم بها قبل هجرته مع قومه إلى فلسطين واعتبرتها بعض المصادر الإسلاميّة أنّها أوّل مدينة بنيت على الأرض بعد الطّوفان(1).

وبعيدا عن الخرافات الكثيرة التي ذكرت في المصادر عن حرّان، فهي مدينة عريقة وكانت منذ الألفية الثانية قبل الميلاد قاعدة لإقليم كبير وظلّت عامرة إلى القرن الثالث عشر ميلادي (السابع هجري) حكمتها في الأوّل إمارات أراميّة قويّة، وخضعت بعدها للأشوريّين ثمّ الفرس والمقدونيّين والرّومان وكانت محلّ صراع بين السّاسانيين والبيزنطيين قبل أن يفتحها المسلمون سنة 18 هـ(2) وكانت تعرف في ظل النّفوذ المقدوني بتسمية كَرْهَا (CARRAHAE)، وكان رجال الكنيسة يطلقون عليها كذلك تسميّة HELLENOPOLIS أي مدينة الكفرة لوجود طائفة وثنيّة بها وبقراها المجاورة والرّها ويعرف الوثنيّون بها باسم الحرنانيّة أو صابئة حرّان كما رأينا ذلك ورغم وجود أسقفيّة يعقوبيّة بها، فإنّ المسيحيّة لم تنتشر بها إلاّ جزءيّا وكانت تعيش بها زمن الفتح الإسلامي طائفتان كبيرتان وهما الحرنانيّة والنّصارى الذين يتّبعون كنيسة الرّها وكان صلح الرّها حسب رواية الواقدي مع كلا الطّائفتين وعاشت بجوارها القبائل العربيّة قبل الإسلام ومنهم من إستوطن في المدينة(3) وتقع حرّان في سهل فسيح يتميّز بكثرة عيونه جنوب المدينة منها

---

(1) لوسترانج : بلدان الخلافة الشرقية ص 134 ومقال: حرّان ج III من E.I.2 ص 327-235. وكانار : Histoire des Hamdanides ص 93 ويقول ابن الأثير ج I ص 94 أنّ ولد إبراهيم بها !

(2) مقال : حرّان : في ج E.I.2 III ص 236 والبلاذري : فتوح : ص 174.

(3) البلاذري : نفس المصدر ص 174 و Dussaud : Topographie de la Syrie antique et médiévale p. 375 وذلك أن أمير عربي سرحيل بن ظلمو في تاريخ 567 م ترك تذكارا في كنيسة يوحنّا المعمدان بحرّان ممّا يحتمل أن تكون طائفة عربيّة مسيحيّة تعيش بها منذ القرن VIم.

عين الدّهبانيّة تتجمّع لتكوّن نهر البليخ الذي يصبّ في الفرات جنوب الرّقة، لكن يسقي أهلها لزراعتهم من الآبار وكانت مياه الشرب في المدينة قليلة ممّا دفع الرّشيد إلى إنشاء قناة مائيّة من نهر جلاب لتزويدها بالماء(4) وتتميّز حرّان بوجودها في ملتقى الطّرق التجاريّة في شرق الفرات ولا سيّما الطّريق الملكي الذي يربط الموصل بطريق الفرات كما يبرز في خريطة الجزيرة.

1/ حرّان في العصر الأموي:

ويسود الغموض في المصادر حول من إستوطن من العرب بها بعد الفتح الإسلامي، وحول تطوّر خطط المدينة في القرن الأوّل هجري. ويرجع عدم إهتمام المصادر بها إلى أنّها لم تكن مصرا للمسلمين إذ كان صلح حرّان على صلح الرّها الذي ذكره البلاذري ولم يشترط الفاتحون على أهل الرّها وحرّان السّماح باستيطان العرب بمدينتهم وكان شرطهم إصلاح الجسور والطّرق وإهداء الضّال ونصيحة المسلمين حسب روايتي الصّلح(5).

فلم تكن حرّان قبل الفتنة الثانية مفتوحة للهجرة. وبقيت المدينة محافظة على خططها القديمة. وليس لنا إشارة واضحة إلى بناء مسجد جامع مع الوالي الثالث للجزيرة من قبل عمير بن سعد حيث يذكر البلاذري أنه بنى المساجد بديار مضر وديار ربيعة(6).

ومن المحتمل أن القلعة الحصينة التي تشرف على المدينة كانت تقيم بها حامية عسكرية هامّة ومن المرجّح أن يكون بالقلعة مسجد للصّلاة. حيث يذكر ابن الأثير أن عياض بن غنم جعل عليها حامية بعد فتحها عليها صفوان بن معطّل

(4) نفس مقال الموسوعة الإسلامية E.I.2 ج III ص 236.
(5) البلاذري : نفس المصدر ص 174.
(6) نفس المصدر ص 178.

السّلمي وحبيب بن مسلمة الفهري(7) ويبدو أنّهم أقاموا بالقلعة البيزنطيّة التي تشرف على المدينة.

ومع الفتنة الثانيّة، تعزّز الإستيطان القيسي على حساب تغلب على ضفاف البليخ إلى حرّان حيث نزلت جموع قيس بقيادة عمير بن الحباب السّلمي بهذه المنطقة وكان عمير يعمل لصالح صفوان بن معطّل في حامية حرّان ويقوم بغزو الصّائفة(8) ونجحت قيس في السّيطرة على حرّان نظرا لقدم حضورها في حاميتها منذ الفتح الإسلامي واستيطانها بنواحيها بعد واقعة مرج راهط حيث تحصّل حاتم بن النعمان الباهلي كما رأينا على حرّان والرّها وسميساط من إبراهيم ابن الأشتر نسة 67 هـ ويبدو أنه أنزل باهلة في نواحي حرّان مع بقية قيس(9).

وكان لتغزّز الإستيطان العربي بها أن جعلهم يبنون أحياءا جديدة أقام فيها العرب المسلمون. وكانت ولاية محمد بن مروان منذ سنة 73هـ/792م الذي كان مقيما بين الموصل وحرّان في ولايته للجزيرة. وعزّز الحضور العربي بالمدينة من نواقل البصرة والكوفة وأدخل العناصر القيسية المقيمة بنواحي حرّان في خدمته كتميم بن الحباب أخ عمير والذي أشرف على مقاتلة الجزيرة بها إلى زمن يزيد بن عبد الملك(10) ومن جند الكوفة عدي بن عدي الكندي الذي برز بحروبه ضدّ شبيب الخارجي وصالح بن مسرّح سنة 76هـ/795م(11) وكذلك عبد العزيز بن حاتم بن نعمان

---

(7) ابن أثير : نفس المصدر ج II ص 534.
(8) نفس المصدر ج IV ص 309 والبلاذري : فتوح ص 184.
(9) ابن الأثير : نفس المصدر ج IV ص 265.
(10) نفس المصدر ج V ص 69 والأزدي : نفس المصدر ص 7.
(11) نفس المصدر ج IV ص 393.

الباهلي الذي ورث نفوذ أبيه بين قيس وعمل لمحمد بن مروان(12) ونظرا إلى تركز إدارة الولاية بها وحاجة الوالي إلى الكتبة والأعوان وإقامته لمجالس أدبيّة وفكريّة فلقد تعزّز حضور علماء العراق والحجاز الذين نزلوا حرّان ونسبوا إليها في النصف الثاني من القرن I هـ ومنهم من كان من العرب وآخرون كانوا من الموالي(13).

ومن أبرز من نزلها الجعد بن درهم وهو من علماء العراق الذين دخلوا في خدمة مُحمد بن مروان وكان مدرّس مروان بن محمد إلى أن نسب له وعرف باتّباعه مذهب القدريّة كما رأينا وقتل على ذلك في الكوفة على يد خالد القسري(14).

واشتهرت حرّان مع بداية القرن I هـ. بأنها العاصمة الدّينية والفكريّة للجزيرة نظرا إلى مقام علماء الحديث والفقه المقيمين بها وإشرافهم على ميدان الفتوى والحديث وكان علماء الجزيرة يتّبعون علماء حرّان والعديد منهم كانوا حرّانيين(15).

ويذكر الأزدي فتوى زيد بن أنيسة إمام الرّها في طلاق إمرأة حيث عارضه علماء حرّان أمام سليمان بن عبد الملك والي الجزيرة سنة 120 هـ/ 737م

وكان هؤلاء العلماء هم الحصين بن عبد الرحمان الذي كانت له الرّياسة بين العلماء وتولّى عدّة خطط في إدارة الولاية منها بيت المال وعلي بن بذيمة وهو

(12) البلاذري: أنساب ج V ص 261 وص 297.
(13) القشيري: تاريخ الرّقة ص 5 إلى ص 65.
(14) الرّجوع إلى ترجمته في الباب الأول.
(15) القشيري: نفس المصدر.

من كبار علماء الأمصار وسالم بن عجلان الأفطس والجرّاح بن منهال وغيرهم من العلماء ويقول حصين للوالي سليمان : نحن «حملة العلم وأهل التقدّم فيه» وشبّه التنظيم الدّيني للمسلمين بالجزيرة بالتّنظيم الكنسي القائم بها لأنّه توجد تراتبيّة بين العلماء وأنّ على الوالي أن يتّبع من لهم الرّياسة والتقدّم(16).

وهذه الرّواية تبرز رئاسة علماء حرّان لعلماء الجزيرة. كما تبرز تأثّرهم بالوسط المسيحي السّائد في الرّها وحرّان حيث كان حصين له معرفة جيّدة بالتنظيم الكنسي وتراتبيّة رجال الدّين.

ورغم نقص الإشارات التاريخيّة في المصادر الإسلامية والسّريانيّة، فإنّ المدينة شهدت بين سنة 73 هـ تاريخ بداية ولاية محمد بن مروان على الجزيرة وبداية القرن II هـ توسّعا عمرانيّا نظرا لنموّ أعداد سكّان الطّوائف الثلاثة الكبرى التي تعيش بها وهي:

- الحرنانيّة : حيث تحصّلت وفق عقود الصّلح على المساواة في التّعامل كأهل الكتاب وانتهى مع قدوم المسلمين الإضطهاد الدّيني الذي تعرّضوا له من قبل البيزنطيين وأدّى ذلك إلى تنامي أعدادهم في وسط حرّان وفي القرى المجاورة والتي تعيش فيها طوائف أخرى من الحرنانيّة يختلف مذهبها عن حرنانيّة المدينة.

- النّصارى : إنّ تراجع مكانة الرّها بعد الفتح الإسلامي وتركّز إدارة الولاية بحرّان جعل النخبة المثقفة من الرّها وبين النّصارى تنتقل إلى حرّان للعمل في دواوين الولاية فتنامت أعداد الرّهاويّين بالمدينة لكن بقيت كنيسة

---

(16) الأزدي : نفس المصدر ص 41 و ص 42 وص 161 وص 162 في ترجمة لحصين بين بذيمة.

اليعاقبة بحرّان تتبع كنيسة الرّها التي كانت لها الرّياسة في المنطقة.

- المسلمون : ارتبطت هجرة واستيطان العرب المسلمين بحرّان بالعمل العسكري حيث كانت حامية حرّان مكلّفة بحفظ الأمن بالجزيرة وكان عليها منذ ولاية محمد بن مروان صاحب أمر الخوارج ويتصرّف في 2000 مقاتل كما رأينا بالإضافة إلى الجند المكلّف بحملة الصّوائف ولقد استقرّ بعضهم مع أهلهم بالمدينة وكانوا يعيشون على عطاء ديوان جند الجزيرة. وكان الصّنف الثالث الذي حللناه فيهم علماء الأمصار الذي قدموا إلى حرّان للعمل في القضاء والفتوى والتأطير الدّيني للمقاتلة.

وشهدت مدينة حرّان مع ولايتي مروان بن محمّد مواصلته للجهد العمراني الذي بدأه أبوه محمّد ويرتبط ذلك بتنامي أعداد مقاتلة الجزيرة وإقامتهم بحرّان ويبرز التوسّع العمراني من خلال بناءه للمسجد الجامع القديم ولا نعلم إن كان بناءا قديما أم جديدا. ويقول المقدسي أنّ هذا الجامع كان متطرّفا عن المدينة ويحتمل أنّه بني في الرّبض الفاصل بين القلعة والمدينة وصرف على بناءه 10 ملايين درهم ويصفه ابن جبير في فترة متأخّرة أنّ له صحن كبير و19 بابا وفيه قبّة قد قامت على سوار من رخام ويؤكّد المستوفي من بعده شساعة هذا الجامع، كما تؤكّد من خلال أعمال الحفريّات لآثار هذا الجامع شساعته وهو بناء مربّع يمتدّ علىٔ 103م / 100م له 3 أبواب وليس له باب من الجهة القبليّة وصحن الجامع محاطا بأروقة وله صومعة طويلة علوّها 26 م(17).

---

(17) لوسترانج : نفس المرجع ص 134 ومقال E.I.2 ج III حيث يذكر الكاتب أعمال الحفريّات التي قامت بها البعثات الغربيّة في خراب حرّان : ج III ص 236 الى ص 238.

وإنّ عظمة بناء الجامع وبعده النّسبي عن أسوار المدينة يبرز إشكالا حيث أنّ عدد سكّان المدينة ضعيفا والجماعة الإسلاميّة فيها أقليّة ولم يكن المسجد الجامع وسط المدينة كغيره من جوامع ذلك العصر. وهو ما يدفعنا إلى إبراز فرضيّتين :

- إنّ هذا البناء العظيم والأموال الطّائلة المخصّصة له لم يكن لأهالي حرّان بل أعدّ لمقاتلة الجزيرة الذين يتجمّعون للقيام بحملة الصّوائف فيجدون جامعا كبيرا قادرا على احتواءهم في الصّلاة.

- إنّ غاية مروان من بناء جامع كبير، تكمن في رغبته في التوسّع العمراني لحرّان كعاصمة للولاية وأن يجمع أعدادا أوفر للمسلمين والمسجد الجامع كان اللبنة الأولى لمشروع مدينة إسلامية كبيرة تكون في حجم الموصل ونصيبين.

كما توجد إشارة ذكرها ابن جبير أن الجامع كان محاطا بالأسوار(18) وتوجد إشارة أخرى أن سجن حرّان الكبير كان خارج المدينة وكان قصر مروان في مكان يقال له دباب البين وهو مجاور للمسجد الجامع حيث كان الوالي يقيم بجوار المسجد الجامع لإمامة النّاس في صلاتهم(19) وهذا ما يدفعنا إلى القول بأن مروان بن محمّد بنى مركب ملكي وسّعه بعد إعتلاءه الخلافة مع قراره باتخاذ حرّان عاصمة للخلافة الإسلاميّة.

ولقد واصل مروان II أثناء ولايته وسليمان بن هشام من بعده بجلب الشعراء والأدباء للمجالس الأدبيّة الذين كانوا يقيمون بها أو لإدخالهم في خدمتهم حيث نجد في أخبار بشّار بن برد البصري أنّه قدم لسليمان لمدحه بحرّان لكن لم يحصل على المال المرغوب فهجاه(20).

(18) لوسترانج : نفس المرجع ص 134.

(19) تاريخ اليعقوبي : ج II ص 338،

(20) الأصفهاني : الأغاني : ج III ص 217،

كما كان في خدمة مروان بن محمد سالم الأفطس وكان مولى أبيه وكان صاحب تفسير شهير في عصره ومحدّث بارز وكان كاتبه ويحظى لديه بالتقدير لعمله الطّويل في حرّان في إدارة الولاية(21).

كما كان في خدمته عبد الحميد الكاتب والذي عمل كذلك في إدارة الولاية ويعتبر ظاهرة في عصره في ميدان الأدب والتأليف وهو الذي ابتكر أدب المراسلات وهو من أبرز علماء حرّان بها(22). وكذلك سليمان بن سالم الذي كان يعمل في إدارة مروان بحرّان وأبو السّاج مولى عثمان الذي كان صاحب سالم الأقطس(23).

وتبيّن هذه الرّوايات أنّ مروان بن محمّد جمع خيرة أدباء وعلماء عصره لخدمته بالإضافة إلى نخبة من النصارى كانوا يعملون في الجهاز الإداري وتتفق هذه الرّوايات أن قتل بعضهم من قبل العبّاسيين كان خسارة كبيرة للعلم في ذلك العصر.

ونظرا إلى تنامي طموحات هذا الأمير، فلقد نجح سنة 127 هـ في أخذ البيعة للخلافة بدمشق وذكرت من خلال رواية لدنيس التلمحري أنه خاف غدر أهلها فنقل خزائن الملك إلى حرّان. واختار الإقامة بين أنصاره من قيس(25) ورغم سكوت المصادر على السّنوات الخمسة التي كان فيها في حرّان وما قام به من

---

(22) الأزدي : نفس المصدر ص 134 حيث يقول الأزدي في أحد روايات قتله من قبل العبّاسيين أنّه في يده أموال لمروان وفي رواية أخرى تبرز ثراءه كما ذكر أن مروان كان يستشيره في الحرب.
(23) نفس المصدر ص ، والمسعودي : مروج ج IV ص 90.
(24) الأزدي: نفس المصدر ص 134.
(25) حوليّات التّلمحري ص 41 وابن الأثير : نفس المصدر ج V ص 325.

توسّع عمراني نظرا إلى أنّها ترجع إلى العصر العبّاسي واتفاقها في عدائه والتقليل من شأنه. فإنّ إقامة إدارة ملكيّة وجيش الخلافة بحرّان يحتّم على الخليفة بناء أحياء جديدة يبدوا أنّها بنيت حول المسجد الجامع نظرا لوجود أسواق حوله وإلى تصخّم أعداد الموالي العتاق فلقد أقام لهم حيّهم بالمدينة ومسجدهم الجامع كما رأينا(26).

وحول سجن حرّان، فلقد ذكرته الرّوايات عند قتل إبراهيم الإمام وما كان فيه من أمراء أمويين والمعارضين لسلطته ويبرز أنّ الخليفة شيّد فيه منازل للإقامة الجبريّة وكانت تحت حراسة مواليه ولم يكن سجنا حقيقيا حيث كان سجناءه يتزاورون بينهم ولم يكونوا تحت القيود ويسمح لذويهم بزيارتهم كما ذكر نفس المصدر أنّ لمروان منازل بحرّان حمل إليها زوجاته وبناته العبّاسيون بعد قتله في بوصير بمصر(27).

ومن خلال هذه الإشارات المقتضبة تبرز خطط حرّان على النحو التالي:

- المدينة البيزنطية التي كانت محاطة بأسوار منيعة وفيها حيّ للنّصارى وآخر للحرنانية وحيّ صغير لليهود وحسب أعمال الحفريّات فإنّ بأسوارها أبراج عالية(28).

---

(26) الأزدي : نفس المصدر ص 121.

(27) ابن الأثير : نفس المصدر ج V ص 422 و 424 ويذكر قتل أهل حرّان ومن فيها من الغوغاء للمحبوسين بعد معركة الزّاب ويقول الأزدي : نفس المصدر ص 120 أنّه كان يتولاّهم موالي لمروان. وكذلك المسعودي: مروج ج IV ص 265. ص 86 و 87 يذكر أنّهم موالي من العجم وغيرهم.

(28) ابن الأثير : نفس المصدر ص 428 والحميري : الرّوض المعطار في خبر الأقطار : حرّان ص 191 - 192 وفيه وصف للمَدينة وأبوابها.

- القلعة الكبرى وهي بيزنطيّة بنيت لمراقبة الحدود من هجوم الفرس والأعراب ولقد وصفها المقدسي ويبدو أنّها أصبحت مقرّ الحامية الإسلامية بحرّان وأدخلت عليها تحسينات على الأقرب في عصر مروان II ويضمّ 150 غرفة حسب أعمال الحفريّات(29).

- ربض حرّان بين المدينة والقلعة وظهرت به أحياء إسلامية والمسجد الجامع وبلغ أقصى توسّعه في خلافة مروان II .

- المسجد الجامع : ولقد سبق أن وصفناه.

- مسجد الموالي وحسب رواية ناصح الحرّاني فإنّه يقع بقرب دار خالد بن نوفل بن فارع التّميمي(30) ولقد تناولنا ظاهرة الموالي في الباب الأول وما نستغربه أن يكون لهم مسجدا خاصّا بهم والإحتمال الوحيد أنهم كانوا موالي عتق لهم حيّهم ومسجدهم. لأنهم إذا كانوا من أهالي حرّان ممن أسلم ودخل في موالاة العرب لما تميّزوا بمسجدهم عن مساجد العرب المسلمين.

ويحتمل أن يكون لحرّان مساجد أخرى لمن نزلها من باهلة وأسد وبني تميم وبني عامر وتغلب، لكن لا تتحدث المصادر عنهم وعن أحياءهم.

وتوجد إشارة لدى ابن العبري لأهم الكنائس بحرّان في نهاية القرن II هـ لكنّها تبدوا كنائس قديمة ترجع إلى ما قبل زمن الفتح رغم ما أحدث فيه من توسع وتجديد وهي :

---

(29) نفس مقال E.I.2 ج III ص 235.
(30) نفس مقال E.I.2 ج III ص 236.

- الكنيسة الكبرى ويبدو أنّها مقرّ أسقف حرّان وتتبع الكنيسة اليعقوبيّة.

- كنيسة والدة الله ويذكر أنّها تقع في قوبا التي يمكن أن تكون أحد ضواحي حرّان. وهي كذلك تتبع اليعاقبة.

- كنيسة مارجرجيس St. Gregoris ويبدو أنّه أحد شهداء اليعاقبة.

- بعض كنائس الخلقيدونيين وتتبع طائفة الملكانيين المقيمة بالمدينة والرّها كما رأينا ويحتمل أن تكون كنيسة الرّوم التي بنيت على أنقاذ معبد حرّاني في العهد البيزنطي حيث أنّ انتسابها للرّوم تشير إلى أن أتباعها هم الملكانيّون وتوجد كذلك كنيسة يوحنّا المعمدان تتبع الملكانيين(31).

- كنيسة أو أكثر للنّساطرة(32) وكان لهذه الطّائفة حيّها وكنائسها بالمدينة لكن بأقلّ عدد من اليعاقبة والخلقيدونيين.

وتوجد كذلك محلة لليهود وكنيسهم وهي جالية قديمة لا نعلم إن كان لها أكثر من كنيس وكانت لهم كذلك مقبرتهم(33).

أمّا المعالم الآخرى فترتبط بالطّائفة الحرنانيّة حيث توجد إشارات إلى وجود 7 معابد على عدد الآجرام السّماويّة التي كانوا يعبدونها ويوجد جانب منها في حيّهم بحرّان والبقيّة في القرى المجاورة يخرجون إليها للحجّ وأبرز معبد كان يقع خارج المدينة على بعد ميل وأحدها كان مقرّ رئيس طائفتهم وبعضها هدّم من

---

(31) ابن العبري : تاريخ الزّمان : ص 20 الى ص 22 وابن النديم : الفهرست ص 387 الى ص 388.

(32) ابن العبري : نفس المصدر ص 22،

(33) نفس المصدر ص 22 وحوليّات التلمحري ص 135.

قبل البيزنطيّين لبناء كنيسة الرّوم وآخر جعل على موضعه المسجد الجامع في موقع يسمّى «دباب البين» وآخر أقيمت عليه أحد أسواق المدينة(34).

أمّا أسواق حرّان فلم تكن كثيرة ومزدهرة على غرار الموصل والرّقة لأنّ معظم حاجيات الجند كانت تشرى من الرّقة ويكتفي دنيس في خبر عن الحرنانيّة بذكر سوقا واحدة في الأحياء القديمة البيزنطيّة بذكرها بتسمية سوق حرّان(35) ومعنى ذلك أنّ المدينة القديمة كانت لا تحوي على نشاط تجاري هامّ. ويبدو أنّ إقامة العرب المسلمين بها، أحدث حركيّة تجاريّة ونهضة إقتصاديّة لحرّان نظرا إلى ما يحمله المقاتلون عند رجوعهم بغنائم الحرب وقدراتهم الشرائية العالية وهو ما يفسّر قيام مروان بن محمّد إمّا أثناء ولايته أو خلافته بإحداث أسواق جديدة حول المسجد الجامع كما رأينا وتوجد إشارة أخرى أنّه أحدث سوقا للنّساء على أنقاذ معبد للحرنانيّة على الأرجح في ظلّ خلافته(36).

ويبرز لنا من خلال هذا التّحليل، توسّع المدينة نحو ربضها مع إقامة المسلمين والتّوسّع العمراني الذي أحدثوه بالمدينة لكن كانت هذه الإنجازات العمرانيّة مهدّدة بعدّة أخطار، كانت تمثّل عوامل نفور لاستيطان بالمدينة تشترك معها مدينة الرّها في ذلك وهي :

- خطر الفياضانات حيث تعرّض سهل الرّها وحرّان إلى فيضان نهر ديسن وهو أحد فروع الفرات من أخطرهما ما حدث في عصر هشام وأدّى فيضانه إلى إنهيار أحد القنوات فغرق السّهل في المياه والأوحال وتضرّرت مدينتي الرّها

(34) ابن النديم : نفس المصدر ص 383 الى 387 وحوليّات التلمحري : ص 68 الى ص 70.
(35) حوليّات التلمحري ص 69.
(36) ابن النديم : نفس المصدر ص 387.

وحرّان وتهدّمت عدّة منازل بهما(37) ويتحدّث بن العبري عن فيضان خطير سنة 227 هـ / 840 م «أخربت من جرّاءه حرّان»(38).

- خطر الزّلازل، من أبرزها سنة 679 م وسنة 718 م تخرّبت منها بعض الكنائس والمنازل(39).

- تأثيرات الطّاعون ومن أخطرهم ما حدث في نهاية حكم الخليفة هشام حيث كثر الموتى في الرّها وحرّان ويقول أنّ أحياء من المدينتين أفرغتا من سكّانها وبقيت المنازل خالية دون أهلها(40).

وكانت حصيلة تحوّل حرّان إلى عاصمة للخلافة هزيلة على المستوى العمراني، نظرا لقضاء الخليفة مروان II معظم سنوات حكمه في قمع الثورات واكتفى بإنجاز مركب ملكي في ربض المدينة لكن لم يتوسّع طيلة حكمه ولم يجلب أعدادا هامّة من النّدماء والعلماء مثل ما حدث في الرّقة في عصر الرّشيد نظرا لانصراف هذا الخليفة إلى الحرب كما رأينا واكتفى ببعض الاعوان للعمل في إدارته الملكيّة ممّن ذكرناهم وبعض قادة الجيش من القيسيّة، فلم تتأثر المدينة كثيرا بإقامته بين أهلها وبقيت طوائفها المتعدّدة متقوقعة على هويّاتها.

٤/ حرّان في العصر العبّاسي

ورغم ضعف الإشارات عن حرّان في العصر العبّاسي، فإنّ بعض المصادر تذكر أنّ أهلها سوّدوا مع قدوم عبد الله بن علي من الموصل وكان أوّل من سوّد

(37) حوليات التلمحري ص 30.
(38) ابن العبري : نفس المصدر ص 32.
(39) حوليات التلمحري ص 7 وص 22.
(40) نفس المصدر ص 31.

عامل مروان بن محمد بالمدينة فأمّنهم الأمير العبّاسي إلاّ بعض أعوان مروان الذين ذكرناهم سابقا(41).

وكانت حرّان من المدن القليلة في ديار مضر التي لم يهدم سورها نظرا لاختيارها من قبل العبّاسيّين كعاصمة للولاية مع موسى بن كعب والذي قدم بحامية خراسانية إلى المدينة(42) ويرجع ذلك إلى حصانة أسوارها التي كانت تشبّه بأسوار القدس في فلسطين ولعدم تغيير العبّاسيين للوضع القانوني للجزيرة فأبقيت حرّان عاصمة للولاية. ورأينا تعرّض المدينة إلى حصار دام 4 أشهر من قبل عرب الجزيرة الثائرين ولم يتمكنوا منها نظرا لمتانة الأسوار وهو ما برز لعبد الله بن علي عندما حاصرها سنة 137هـ/754م وعليها مقاتل بن حكيم العكّي مدّة 40 يوما إلى أن نزل في الأمان(43) كما حاصر نصر بن شبث العقيلي المدينة سنة 199هـ/814م ولم يقدر على احتلالها لكن مع سيطرته على الجزيرة وتضرّر مصالح أهلها فلقد سلموا المدينة لأحد قادته وهو عبد الله بن هشام ثمّ تسلّمها إبراهيم القرشي الذي حصل على الاعتراف من والي الجزيرة طاهر بن الحسين على العمالة بحرّان والرّها(44).

وأدّت هذه الإحداث إلى سعي عرب حرّان وكان معظمهم من قيس إلى إضعاف الحضور المسيحي بالمدينة على غرار ما فعله عرب الرّها فطلبوا من إبراهيم تقويض الكنائس المحدثة وفعل ذلك ليتراجع إثرها ويسمح للنّصارى

(41) الأزدي : نفس المصدر ص 134 و ص 139 وابن الأثير : نفس المصدر ج ٧ ص 424.
(42) ابن الأثير : نفس المصدر ج ٧ ص 434 وذكر أنّه قدم بـ 3000 خراساني.
(43) نفس المصدر ج ٧ ص 434 وص 464.
(44) ابن العبري : نفس المصدر ص 22 و 23.

بإعادة بناء ما هدّم(45) وبعمليّة ربط بين ما حدث في الرّها منذ عصر الرّشيد إلى ثورة نصر، يبرز أنّ فقهاء المدينتين كانوا لا يرضون بأن يعيش المسلمون كأقليّة بهما ودأبوا في مطلبهم لتقويض ما أحدث من إضافات في الكنائس إتباعا لشروط الصّلح لكن لم ينجح جهدهم في قلب موازين القوى في المدينتين حيث كان تراجع نصر وابراهيم على اضطهاد النّصارى إلى إحداث عمليّة إرتداد لمن أسلم حديثا ورجوعهم إلى حضيرة المسيحية ورجع الصّابئة بها الى الاحتفال بأعيادهم الدينية علنا(46).

ولقد أشرت عند حديثي عن الحرنانيّة أنّ قدوم المأمون الى حرّان عند توجّهه إلى الثغور جعله يلتفت إلى هذه الطّائفة ويجبرها على اعتناق الإسلام فادعوا أنّهم صابئة لكي لا يلحقهم الإضطهاد. وأدّت هذه الحادثة إلى انفتاح هذه الطّائفة على الخارج وساهمت حرّان منذ عصر المأمون في نشر ترجمة التراث الإغريقي الذي كان مكتوبا بالسّريانيّة لدى هذه الطّائفة وكان للملكانيّين بحرّان والرّها معرفة جيّدة لهذا التّراث ويبدو أنّهم ساهموا بدورهم في نشره بين المسلمين.

ورغم غموض المصادر حول المساهمة الثقافية لمختلف طوائف حرّان في النشاط الفكري منذ عصر المأمون. فإنّ ما ذكره ابن النديم يبرز إزدهار الأدب السرياني لدى هذه الطّوائف ويبدو أنّ نخبة المسلمين وكان معظمهم من الموالي وممن أسلم من النّصارى يتقن السّريانيّة وكانوا مطّلعين على أدبيّات الحرنانيين والنّصارى(47).

(45) نفس المصدر ص 22 - 23.

(46) نفس المصدر ص 22 - 24

(47) ابن النديم : نفس المصدر ص 390 يذكر أنّ ابن إسحاق قاضي حرّان نقل أحد كتب الحرنانية المحرّرة بالسّريانيّة الى العربيّة.

وهو ما يلقي الأضواء على دور النّخب من حرّان في الإزدهار الفكري بالجزيرة وخصوصا ببغداد عاصمة الخلافة لكن في مرحلة لاحقة لحكم المعتصم(48).

وكخلاصة القول، تبرز حرّان من خلال تحليلنا، كمدينة عريقة حافظت رغم التقلّبات السياسية منذ الصّراع السّاساني البيزنطي إلى حكم المعتصم على تنوّع ديني واثني. وهي المدينة الوحيدة في بلاد الرّافدين التي حافظت على التراث الكلداني القديم لهذه المنطقة والذي امتزج بالتّراث الهلينستي التي تشاركه فيه طائفة الملكانيين وامتزج التراثين مع انتشار الإسلام بين سكّانها بالتّراث الإسلامي وهو ما يفسّر الحركيّة الفكريّة التي لاحظناها منذ بداية القرن II هـ لكن لم يصاحب هذا الإشعاع الفكري لحرّان نموّا عمرانيّا في العصر العبّاسي وبقيت مدينة ثانويّة فقدت دورها السّياسي مع انتقال عاصمة الجزيرة إلى الرّقة كما رأينا.

(48) [illegible] مقال صابئة E.I.2 ج VIII ص 696 و 699 و Segal : Medieval Harran.

خـــاتمـــة

شهدت الشبكة الحضريّة بالجزيرة منذ القرن الثاني هجري تطوّرا ملحوظا نظرا لتطوّر الأوضاع الإقتصاديّة والإجتماعيّة بعد الفتح الإسلامي. حيث استفادت المدن القديمة بانفتاح مجالها على بقيّة الأقاليم الإسلاميّة وما تدرّه الأعمال الحربيّة من غنائم وأسرى وكذلك تحسّن الأوضاع الأمنيّة نسبيّا.

وساهم الفتح الإسلامي في ظهور مدن جديدة استوطنها المقاتلة العرب المسلمون وأبرزها مدينة الموصل التي أصبحت أحد أهمّ حواضر الجزيرة والعاصمة الإقتصاديّة إن صحّ القول للجزيرة ولقد برز لنا من خلال تحليل الشبكة الحضريّة إختلافا ثقافيّا بين مجال حضري شرقي متأثر بالمجال العراقي وبالماضي السّاساني ومجال غربي متأثّر بالشّام وبالماضي البيزنطي.

وبرز هذا الإختلاف في التنظيمات الإقتصاديّة والإجتماعيّة والإنتماء المذهبي للمسلمين في كلا المجالين وامتدّ هذا الإختلاف الى وحدات القيس والبناء العمراني وهو ما أعطى للمجال الحضري بالجزيرة طابع التنوّع والإختلاف.

كما تميّز المجال الحضري باتّساع ظهير بعض المدن نظرا لاتّساع المجال السّقوي وأهميّة الاستثمارات في المجال الزّراعي الذي قام بها الأمويّون في بداية القرن الثاني هجري وبرز ذلك بوضوح في التّوسّع الزّراعي لظهير الرّقّة حيث استفاد منها العبّاسيّون بعد ذلك لبناد الرّافقة ومواصلة جهد الأمويّين في التوسّع

الزّراعي. وارتبط ذلك بحرص الخلافة على توفير المواد الغذائية والعلف للجند المحارب في الثغور. ولقد امتدت حركة البناء طيلة فترة بحثنا نحو أراضي الثغور لتوفير الحصون والقلاع وترميم ما تركه البيزنطيون واستفادت المدن بالثّغور بتواصل الحركة الإستيطانيّة للعرب المسلمين وأهالي الجزيرة رغم الأخطار المحدقة بسبب الأعمال الحربية للبيزنطيين.

وتبرز الشبكة الحضريّة في بداية القرن الثالث هجري في توسّع رغم الثورات والحركات الإنفصاليّة التي شهدتها الولاية حيث لاحظنا الإزدهار العمراني في الموصل والرّقّة رغم تخلّي الخلفاء عن الإقامة فيها وإحداث مدن جديدة كجزيرة ابن عمر نظرا لأنّ مجال الجزيرة هو مجال جاذب كما يبرز في أدبيّات الجغرافيين العرب بسبب رخص الأسعار وازدهار التجارة وقربها من العراق والشّام.

الخاتمة العامّة

مثّلت مرحلة ما قبل الفتح الإسلامي لمنطقة الجزيرة فترة احتلال خارجي من قبل السّاسانيين الفرس والبيزنطيّين ومجال صراع عسكري نظرا لوجودها في حدود الإمبراطوريّتين، إنجرّ عنه ركود اقتصادي وتجاري للمنطقة.

وكان الفتح الإسلامي بالنسبة لهذه المنطقة هو بداية خروجها من عزلتها اتّبعه ازدهار المنطقة إقتصاديّا وتعزّز الحضور البشري بها من نتائجه تدعّم دور هذه الولاية في منظومة الخلافة الإسلاميّة بالإضافة إلى دورها الاستراتيجي والعسكري الهامّ كأحد ثغور الإسلام. ولذلك أصبحت في بعض الفترات من العصر الأموي والعبّاسي الأوّل مركزا للخلافة الإسلاميّة.

وهذه التحوّلات أثرت علي الوضع القانوني لهذه الولاية إذ كانت بعد الفتح الإسلامي ولاية ملحقة بجند الشّام غربا ومصر الكوفة شرقا ثم استقلّت عنهم أثناء حكم المروانيّين في العصر الأموي وألحقت بها ولاية الموصل رغم بقاء تميّزها القانوني عن بقيّة الولاية وكان المجال الأرميني والأذربيجاني ملحقا بها في عدّة فترات من بحثنا.

وما نلاحظه في «عهد الولاة» هو انتشار الإسلام في صفوف الأهالي والذي أخذ طابع سلمي في أغلب الأحيان باستثناء القبائل العربيّة المتنصّرة التي لحقها التعسّف أحيانا بسبب تميّزها الدّيني عن بقيّة القبائل العربيّة،

أمّا على المستوى الإجتماعي فإنّه يوجد تواصل مع الأوضاع السّابقة على المستوى السكّاني حيث بقيت أغلبيّة السّكّان المستقرّين من العناصر الآراميّة بينما تواصلت الهجرة العربيّة بعد الفتح ممّا عزّز العنصر العربي بها لكن أصبحت هذه الهجرة أكثر تنوّعا على المستوى الإنتماءات القبليّة حيث كانت الهجرة السّابقة للفتح تخصّ أساسا جموع ربيعة وبالخصوص مجموعة تغلب، لكن بعد الفتح وإلي العصر الأموي تنوّعت أكثر هذه الهجرة إذ عزّزت جموع قيس حضورها غرب الجزيرة وخصوصا إثر أحداث الفتنة الثانيّة وعرفت هذه المنطقة بعد ذلك باسم ديار مضر.

بينما عزّزت المجموعات اليمنيّة حضورها في منطقة الموصل إنطلاقا من قواعدها بالعراق. بينما عزّزت جموع بكر بن وائل حضورها شمال الولاية لتبرز ديار بكر بها. بينما بقي المجال الأوسط للولاية في يد تغلب وحلفاءها وعرف بتسميّة ديار ربيعة رغم ما لتغلب من حضور في بقيّة مجال الجزيرة إلى بداية القرن الثالث هجري.

وساهمت المجموعات القبليّة الكبري في الاحداث الكبرى في فترة بحثنا وذكرنا الثورات الخارجيّة الكبيرة بها منذ ثورة شوذب إلى ثورة الضحّاك والخيبري وشيبان في العصر الأموي والتي تواصلت في العصر العبّاسي الأوّل لكن بأقل حدّة.

وأخذت ثورات القبائل .طابع سياسي في شكل حركات انفصاليّة ورفض لحضور الدّولة وحركة عصيان جبائي وهذه الاعتبارات دفعت بالخليفة هارون الرّشيد للإقامة بالرّقة - الرّافقة لضرب العمل الإنفصالي لعرب الجزيرة.

كما لعبت الجزيرة دورا محوريّا في نظام الثّغور مع شمال الشّام حيث كانت تخرج منها حركة الصّائفة اليمنى السّنويّة والتي كانت أكثر إنتظاما في العصر الأموي وكانت مدرسة لتكوين الأمراء الأمويّين والعبّاسيّين لفنون الحرب وقيادة الجيوش. وساهم هذا الدّور العسكري الهامّ في عناية الخلفاء بهذه الولاية وتعيين ولاّة مقتدرين الذين كان لهم دور تسيير الولاية. والإشراف على العمل الحربي ضدّ الدّولة البيزنطيّة.

وأثناء فترة بحثنا من عصر الولاّة، بقيت الجزيرة تحت النّفوذ المباشر للخلفاء الأمويّين والعبّاسيين وكانت مساهمة أشراف عرب الجزيرة ضعيفة في تسيير إدارة موطنهم. وكانت لتعيين ولاّة مساندين أو معادين لأحد المجموعات القبليّة القائمة بها أن أجّج الثورات القبليّة ورفضها الخضوع لنفوذ الدّولة.

وكان لبروز زعامات محليّة من البيوتات الكبرى للقبائل العربيّة بها منذ نهاية القرن الثاني هجري أن عزّز الدّور السّياسي لمجموعاتها القبليّة وأصبحت تمثّل السّلطات المحليّة ذات النّفوذ الحقيقي في جهاتها على حساب نفوذ الوالي فظهرت سلطة المتنفّذين بنواحيهم في بداية القرن الثالث هجري، أجبرت الخلافة على الإعتراف ضمنيّا بنفوذها وإعطائها العمالات التابعة لها. لكن لم يتطوّر ذلك إلى إمارات مستقلّة رغم الحركة الإنفصاليّة لنصر بن شبث العقيلي في ديار مضر وشمال الشام مع بداية القرن الثالث هجري والتي أجهضت من قبل السّلطة العبّاسيّة لكن لم تنهي سلطة المتنفّذين بالجزيرة.

وكان هذا المعطى قد تعزّز أكثر بعد الرّبع الأوّل من القرن الثالث هجري حيث أدّى الإعتماد المتزايد للسّلطة على الجند الأتراك وتراجع العمل الحربي ضدّ الأراضي البيزنطيّة إلى التخلّي عن خدمات جند عرب الجزيرة وهو ما عزّز العمل

الإنفصالي للمجموعات القبليّة سواءا من جموع قيس في غرب الجزيرة أو بكر بشمالها وتغلب ببقيّة الجزيرة مع اليمنيّة في الموصل.

وشهدت هذه الولاية حضور الأكراد في أطرافها الشماليّة والشّرقيّة على سفوح جبال زاقروس. وهذا الشّعب الجبلي، دخل في تحالفات مع الزّعامات العربيّة لدعم نفوذها بالمنطقة ولم تقدر السّلطة في بعض الفترات كبح جماح عروشهم للغزو والنّهب للمجموعات المستقرّة خصوصا في بداية القرن الثالث هجري. أمّا المجموعات الأرمينيّة فلقد دعّمت حضورها شمال الجزيرة باستقرار المزارعين الأرمن في السّهول الشماليّة للولاية مع المجموعات الآراميّة العريقة، ولم يمنع ذلك من بروز تعدّيات المحاربين الأرمن الذي تدفعهم المجاعات والخصاصة بهضاب وجبال أرمينية أو بدفع من السّلطة البيزنطيّة للإغارة على أراضي الجهة لنهبها.

ورغم قوّة حضور البدو العرب في سهل الجزيرة والمجموعات الجبليّة في أطرافها، فإنّ النّواتاة الحضريّة القديمة وظهيرها الزّراعي حافظ على وجوده. وتعزّز النّسيج الحضري القديم بتعزّز حضور المجموعات الإسلاميّة الحضريّة التي ساهمت في إعطاء طابع التنوّع الإثني والدّيني لمدن الجزيرة وفي دفع الحركة العلميّة بفضل هجرة فقهاء العراق والشام لهذه المدن لنشر الإسلام بها والتأطير الدّيني للعرب المسلمين بها. كما ساهم إزدهار الإقتصاد وتطوّر الأنشطة التجاريّة بها في تطوّر الحياة الحضريّة بصفة جليّة وفي الإشعاع الإقتصادي للمدن على أرياف المنطقة وخصوصا لحواضرها الكبري كالموصل التي كانت العاصمة الإقتصاديّة للجزيرة وكذلك الرّقة ونصيبين وحرّان التي كانت مع دورها السياسي كعاصمة الولاية فهي العاصمة

العلميّة للجزيرة بفضل التنوّع الدّيني بها. إذ أنّ علماءها المسلمون وصل إشعاعهم إلى الشام والعراق وكانت الرّها المجاورة لها الحاضرة الكبرى للكنيسة اليعقوبيّة بالمنطقة. وكانت صابئة حرّان قد كشفت في العصر العبّاسي الأوّل ثراء تراث الشرق والثقافة الإغريقيّة للمسلمين مع خروجهم من عزلتهم منذ عصر المأمون.

أمّا علي المستوي السّياسي، فلقد أخذت هذه الإعتبارات الإجتماعيّة والأوضاع العامّة بالجزيرة دورها في سياسة الخلافة الأموية والعبّاسيّة تجاه هذه الولاية، حيث تمّت توليّة ولّاة يتمتّعون بنفوذ كبير في معظم الاحيان وكانوا من الأمراء الامويّين والعبّاسيين أو من قادة الجيش، وكان همّهم كما رأينا هو إخضاع البلاد عسكريّا وضرب نفوذ القبائل العربيّة الكبرى بها والتعسّف الجبائي على الأهالي.

وكان حضور الدّولة السياسي والعسكري تقوّى عندما أصبحت الجزيرة مركز الخلافة الإسلاميّة في نهاية العصر الاموي وفي خلافة هارون الرشيد لكن منذ بداية القرن الثالث هجري تطوّر ظاهرة المتسلّطين على نواحيهم. والتجأت السلطة إلى الإقرار بنفوذهم مقابل الإعتراف بنفوذ الخلافة وسلطة الوالي الإسميّة.

وأخذت هذه النّزعة الإنفصاليّة طابع المعارضة السّياسيّة بدعم الحركة الخارجيّة منذ منتصف القرن الثالث هجري إلى نهاية ذلك القرن يبرز خصوصا في ثورة مساور الخارجي وكان هذا الدّعم أساسا من ربيعة في ثورة الخارجية

لكن لم يمنع ذلك من حفاظ الدّولة على خدمات كبار بيوتات ربيعة وبكر

يبرز في سلطة مالك بن طوق التغلبي علي طريق الفرات وغرب الجزيرة ونفوذ آل عمر بن الخطّاب بديار ربيعة وآل عيسى بن الشيخ بديار بكر حيث كانت لهم القدرة علي تجنيد آلاف المقاتلين من عرب الجزيرة لدعم الخلافة الإسلاميّة في حروبها الخارجيّة أو لقمع الثّورات الخطيرة(1).

لكن كان لتراجع نفوذ هذه البيوتات بين عرب الجزيرة وتأجّج الصّراع القبلي مع تدعّم الحضور الخارجي على حساب نفوذ الدّولة أن أجبر الخلافة في عصر المعتضد إلى محاولة إسترجاع نفوذها بالجزيرة بقمع الحركة الخارجيّة والأعمال الإنفصاليّة(2).

ولم يمنع ذلك من إقرار السّلطة في نهاية القرن الثالث هجري بسلطة الاسرة الحمدانيّة علي الجزيرة التي تنتمي لمجموعة تغلب والتي كوّنت أوّل إمارة مستقلّة بالمنطقة مقابل اعترافها بنفوذ الخلافة الإسمي رغم أنّ هذه الأسرة كانت قبل ذلك مع حمدان بن حمدون قد دعّمت الحركة الإنفصاليّة ضدّ الخلافة.

كما برز من أحداث نهاية القرن الثالث هجري تصاعد نفوذ جموع الأكراد على شرق الجزيرة وشمالها والتي إستفادت من تحالفها مع عرب الجزيرة لتعزيز حضورها بالمنطقة بعد ذلك.

---

(1) ابن الأثير الكامل : ج 6 ص 328 - 340.
(2) نفس المصدر ج 6 ص 466 - 470 في أحداث سنة 281 هـ.

جمهرة أنساب العرب
ط القاهرة 1962
- إبن حوقل :
صورة الأرض المكتبة الجغرافية ج II ليدن 1967
- إبن خرداذبه : كتاب المسالك والممالك
ج 4 المكتبة الجغرافية ليدن 1967
- إبن خياط (خليفة)
تاريخ تحقيق أكرم ضياءِ العمري جزأين
المجمع العلمي العراقي ط 1 1967
- كتاب الطبقات تحقيق سهيل زكار
دمشق وزارة الثقافة والإرشاد القومي 1966
- إبن دريد : الإشتقاق
ط بغداد 1979
- إبن عبد ربه بن محمد
العقد الفريد : تحقيق ـــحمد أمين القاهرة 7 ج 43 - 1940
- إبن عبد المنعم الحميري :
الروض المعطار في خبر الأقطار
تحقيق إحسان عباس مؤسسة ناصر بيروت ط 2 1988
- إبن العبري أبو الفرج :
تاريخ الزمان : تقديم فياي (جم) ونقلة إلى العربية إسحاق رملة
بيروت دار المشرق 1986 416 ص
- تاريخ مختصر الدول : تحقيق أنطوان الصالحي
بيروت دار الرائد اللبناني 1983 623 ص
- إبن عساكر :

تاريخ دمشق الكبير

تهذيب وترتيب عبد القادر بدران ط2 بيروت دار المسيرة 1979

- إبن الفقيه الهمذاني :

كتاب البلدان ليدن المكتبة الجغرافية ج5 1967

- إبن قتيبة أبو محمد بن مسلم المعروف بالدينوري

كتاب المعارف : تحقيق محمد إسماعيل الصاوي

دار إحياء التراث بيروت 1980

- عيون الأخبار

وزارة الثقافة دمشق 1977

- الإمامة والسياسة

2 ج القاهرة 1963

- إبن قيس الرقيات

ديوان حسب رواية السكري

تحقيق وشرح محمد يوسف نجم

دار صادر بيروت 1958 231 ص

- إبن قيم الجوزية أحكام أهل الذمة

تحقيق صبحي صالح 2 ج دمشق 1961

- إبن الكلبي : جمهرة النسب

رواية السكري تحقيق ناجي حسن مكتبة النهضة العربية ط 1 بيروت 1986 736 ص

- الإصطخري

كتاب المسالك والممالك ج1 ليدن 1967

- إبن منظور أبو الفضل جمال الدين محمد

لسان العرب

دار المعارف القاهرة 6 ج

- إبن نديم أبو الفرج

الفهرست

شرح يوسف الطويل بيروت دار الكتب العلمية 1986

- إبن وحشية : الفلاحة النبطية

تحقيق توفيق فهد

المعهد العلمي الفرنسي للدراسات العربية دمشق ج 1 759 ص 1993

- أبو فرج الأصفهاني

كتاب الأغاني تحقيق علي محمد البجاوي

مؤسسة جمال للطباعة والنشر بيروت 24 ج

- أبو تمام

ديوان

تحقيق محمد عزام دار المعارف القاهرة 5 ج 1987

- أبو يوسف القاضي (يعقوب بن إبراهيم)

كتاب الخراج

بولاق المطبعة الميرية القاهرة 1302 هـ

- الأخطل غياث بن غوث

ديوان شرح السكري

تحقيق فخر الدين قباوة

حلب دار الأصمعي 2ج 944 ص 1971 ط 2

- الأزدي : أبو زكرياء يزيد ين محمد
تاريخ الموصل
دار التحرير القاهرة 1967 526 ص تحقيق علي حبسية
- الأصفهاني : حلية الأولياء وطبقات الأصفياء بيروت دار الكتب العلمية 10ج
- البحتري
ديوان تحقيق وشرح حسن كامل الصيرفي
دار المعارف 3 ج القاهرة 1963
- البكري أبو عبيد عبد الله
معجم ماستعجم من أسماء البلاد والمواقع
تحقيق مصطفى السقا
القاهرة 1945
- البغدادي (الخطيب)
تاريخ بغداد
دار الكتاب العربي 13 ج بيروت
- البلاذري (أحمد بن يحيى)
فتوح البلدان
ط ليدن مطبعة بريل 1968 511 ص
- أنساب الأشراف
ج 1 - تحقيق حميد الله
دار المعارف القاهرة 1959
ج 2 - تحقيق محمد باقر المحمودي
مؤسسة الإعلامي للطباعة بيروت 1974
ج 2 ب - تحقيق عبد العزيز الدوري
ج 4 تحقيق إحسان عباس بيروت 1978

ج 5 تحقيق قويتن القدس 1936

- الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر

البيان والتبيين

تحقيق عبد السلام محمد هارون ،

القاهرة 4 ج 1975

- الجهشياري

كتاب الوزراء والكتاب

- الخالدي أبو بكر : ديوان الخالديين

تحقيق ساعي دهان بيروت دار صادر 1992 279 ص

- الدينوري : الأخبار الطوال : مطبعة السعادة القاهرة جزأين

- الشابشتي : كتاب الديارات : تحقيق كوركيس عواد

مطبعة المعارف بغداد 2 ج 1966

- الشهرستاني :

كتاب الملل والنحل

ط القاهرة 1948

- الصنوبري :

ديوان : تحقيق إحسان عباس بيروت 1970

- الطبري (محمد بن جرير)

تاريخ الأمم والملوك

دار الفكر 13 ج بيروت 1987

- الفارقي بن الأزرق

تاريخ الفارقي : تحقيق عبد اللطيف البدوي

القاهرة 1959

- قدامة بن جعفر :
الخراج وصنعة الكتابة
تحقيق محمد حسين الزبيدي
بغداد 1981
- القشيري (محمد بن سعيد) : تاريخ الرقة
تحقيق طاهر نعسان
ط حماة 1959 181 ص
- العيون والحدائق في أخبار الحقائق لكاتب مجهول مكتبة المثنى بغداد 1969
- المبرد محمد بن يزيد : الكامل : باب الخوارج
دمشق دار الحكمة 1972 224 ص
- المسعودي علي بن الحسين :
مروج الذهب ومعادن الجوهر
تحقيق شارل بيلا
ط بيروت 6 ج 1976
التنبيه والإشراف
ط بغداد 1938
- المقدسي :
أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم
المكتبة الجغرافية ج 3 ط ليدن 1967
- الهمداني أبو الحسن : صفة جزيرة العرب
تحقيق محمد النجدي مطبعة السعادة القاهرة 5 1953 438 ص
- ياقوت شهاب الدين الحموي
معجم البلدان بيروت 5 ج 1955
- اليعقوبي أحمد بن أبي يعقوب
تاريخ دار صادر بيروت 2 ج 1960
كتاب البلدان
المكتبة الجغرافية ليدن 1967

المراجع العربية والمعربة

- أبونا ألبار :

تاريخ الكنيسة بغداد 1985

جزأين بغداد 1985

- أبو النصر عمر : الأيام الأخيرة للدولة الأموية

منشورات المكتبة الأهلية : بيروت ط 1 1962

- أبو حبيب سعدي : مروان بن محمد وأسباب سقوط الدولة الأموية

دار الفكر دمشق ط 1 1982

- إحسان عباس : شعر الخوارج بيروت دار الثقافة 213 ص 1923

- عبد الحميد بن يحيى الكاتب وما تبقى من رسائله 219 ص

عمان دار الشروق 1958 339 ص

- بابو إسحاق روفاييل : تاريخ نصارى العراق

بغداد 1948

- التكريتي (محمد جنيل) : تكريت الحاضرة في بقايا الذاكرة

مطبعة الراية بغداد 1981

- خاشع معاضيدي : دولة بني عقيل في الموصل : بغداد 1968

- حسين علي صافي : مسلمة بن عبد الملك : حياته العسكرية والأدبية

الدار القومية للطباعة والنشر القاهرة 1964 96 ص

- الخطاب (محمد شيت) : قادة فتح العراق والجزيرة

القاهرة 1964 502 ص 4 1977

- دائرة المعارف الإسلامية

- أحمد الشنتناوي وإبراهيم زكي خورشيد وعبد المجيد يونس القاهرة ج 1 1933

- الدقدوقي (وفيق) : الجندية في عهد الدولة الأموية

بيروت مؤسسة الرسالة 1985 287 ص

– ديوه جي (سعيد) : أعلام الصناع المواصلة : ط 1 وزارة التربية والتعليم
بغداد 1970 263 ص
– جوامع الموصل في مختلف العصور : وزارة المعارف العراقية
بغداد 1963 282 ص
– تاريخ الموصل : مطبوعات المجمع العلمي العراقي
بغداد 1982
– السامر فيصل : الدولة الحمدانية في الموصل وحلب
بغداد مطبعة الإيمان 1970
– شعبان رجب الشهاب : سلمى التغلبية أو قصة الفتح الإسلامي لتكريت
مطبعة الديوان بغداد 20 1986 1970 428 ص
– شعبان محمد : صدر الإسلام والدولة الأموية
الأهلية للنشر والتوزيع بيروت 1987 210 ص
– التاريخ الإسلامي في تفسير جديد : بين 600 م ← 750م
ترجمة عبد المجيد القبسي : بيروت دار الدراسات الخليجية 1982
273 ص
– الدولة العباسية والفاطميون : بيروت الأهلية للنشر والتوزيع 1981 254 ص
– شميساني حسن : مدينة سنجار من الفتح العربي الإسلامي حتى الفتح العثماني
دار الآفاق الجديدة : بيروت ط 1 1983 459 ص
– الصائغ سليمان : تاريخ الموصل : ج 1 : المطبعة السلفية بمصر 1923
ج 2 : المطبعة الكاثوليكية : بيروت 1928
ج 3 : مطابع الكريم جونيه : بيروت 1958
– صالح أحمد العلي دراسات في الإدارة في العهود الإسلامية الأولى وتقسيمات العراق الإدارية
المجمع العلمي العراقي بغداد 1989 355 ص

- العايب سلوى : المسيحية العربية وتطورها
دار الطليعة بيروت 1997
- عبد البديع لطفي : فتوح الجزيرة والخابور وديار بكر طبعة القاهرة 1957 ط 1
- عثمان فتحي : الحدود الإسلامية البيزنطية : بين الإحتكاك الحربي والإتصال الحضاري 3 ج دار الكاتب العربي للطباعة والنشر القاهرة 1966
- العش : حضارة الفرات الأوسط
إعداد وليد مشوح : مؤسسة الأهالي سوريا ط 1 1989
- عواد كوركيس : مصادر التراث العسكري عند العرب
مطبوعات المجمع العلمي العراقي 2ج بغداد 1981
- غندور : تاريخ جزيرة إبن عمر تقديم جون موريس فياي : بيروت ط 1 1990
- فياي جان موريس : أحوال النصارى في خلافة بني عباس
سلسلة نصوص ودروس :
دار المشرق بيروت 1986 424 ص
- كروي إبراهيم سلمان : طبقات مجتمع بغداد في العصر العباسي الأول
مؤسسة الشباب الجامعة الإسكندرية 1989 ط 2
- كحالة عمر رضا : معجم القبائل العربية القديمة والحديثة
دار العلم للملايين بيروت جزأين 1968
- كلو أندري : هارون الرشيد وعصره تعريب محمد الرزقي دار سيراس للنشر تونس 1997
- لوسترانج : بلدان الخلافة الشرقية
تعريب كوركيس عواد وبشير فرنسيس
مؤسسة الرسالة بيروت ط 2 586 ص

- المشهداني محمد جاسم : الجزيرة الفراتية والموصل : دراسة في التاريخ السياسي والإداري بغداد 1977

- موسوعة مدينة تكريت جزأين

سلسلة موسوعة مدن العراق بغداد 1993

- موسوعة الموصل الحضارية : جزأين

سلسلة موسوعة مدن العراق بغداد 1992

- موسيل ألوا : الفرات الأوسط : رحلة وصفية ودراسات تاريخية ترجمة صدقي حمدي وعبد المطلب داود : مراجعة صالح العلي وعلي محمد المياج مطبوعات المجمع العلمي العراقي بغداد 1990

- ويلهاوزن (ي) : - أحزاب المعاوضة السياسية والدينية في صدر الإسلام : الخوارج والشيعة مطبعة جامعة دمشق

- الدولة العربية وسقوطها : تعريب يوسف العش مطبعة جامعة دمشق 1956

المراجع الأعجمية

- Basri Konyar : Diar bekri- tarikh 3T édit
Dyiar bekir 1936
- Bonte (P) et conte (E) : Al Anŝâb : la quête des origines Anthropologie historique de la société tribale arabe édit CNRS Paris 1ère édit 1991 260 p
- Caetani (L) – Annali del Islam
Edit Milan 10 vol 1905 1926
- Chronographia Islamia
Librairie Gueutner 5 vol Paris 1912
- Canard (M) : - Histoire de la dynastie des hamdanides de Djazira et de Syrie Publié à l'université d'Alger 1951
- Byzance et les musulmans du proche orient : compilations d'articles variorium reprints London 1973 1°édit
- Chabot (JB) ; - Chronique de Denys de Tell mahre4ème partie bibliothèque des hautes études des sciences philologiques et historiques fas 112 Paris 1895
- Chronique de Michel le syrien (1116 – 1192 apjc) 4t Paris 1899 1924
- Chapot : (v) la frontière de l'Euphrate : De Pompée à la conquête arabe 2° édit l'Erma Rome 1967 399 p
- Cornu : Atlas du monde Arabo islamique à l'époque classique édit (CNRS Paris, 1983)
- Daghfous (RI) : Le yaman Islamique des origines jusqu'à l'avénement des dynasties autonomes thèse de doctorat 2 T université Tunis 1995
- Devreese (R) Le Patriarchat d'Antioche, depuis la paix de l'église jusqu'à la conquête arabe Paris 1945 340 p
- Djait (H) La grande discorde : religion et politique dans l'Islam des origines édit Gallimard Paris 1986
- Dictionnaire de l'Orient chrétien Kruger (P) et Asfolg édit Brépols Paris 551 p
- Dilléman : La haute mesopotamie orientale et les pays adjacents : contribution à la géographie historique de la région du 7ème siècle avjc au 6ème siècle apjc
Institut Français d'archéologie de Beyrouth Paris 1962
- Dussaud (R) Topographie historique de la Syrie Antique et médiévale Paris 1927
- Ducellier (A) Kaplan (M) Martin (B) : Le proche orient médiévale édit PUF Paris 1978
- Duval (R) Histoire politique religieuse et littéraire d'Édesse jusqu'à la première croisade Paris 1892
- Encyclopédie de l'Islam Ancienne édition 4 vol + supplément Leyde 1908 – 1934 et 1938

Nouvelle Edition T1 – T9 de 1954
- Fiey (JM) Assyrie Chrétienne Imprimerie Catholique Beyrouth 1965 320 p
- Mossoul Chrétienne imprimerie Catholique Beyrouth 1952
- Gabrieli Il Califato di Hisham : Studi di storia ommeyade Alexadrie 1935
- L'eroe Maslama Ibn abd al malek Alexandrie 1950
- Ger trud bell : Amorath to Amura : The churches and Monasteries of the tur – Abdin and neighboring district London 1982
- Grousset (R) l'histoire de l'arménie Paris 1944
- Kaabi (M) Les Tâhirides : thèse de Sorbonne de volume Paris 1983
- Kennedy (H) The early Abbasid Caliphate : A political history London 238 p 1981
- Lammens (H) Etude sur le siècle des ommeyades Beyrouth Imprimerie catholique 1930
- Lombard (M) L'Islam dans sa première grandeur du 8ème siècle au 11ème siècle apjc Paris flammarion édit CNRS 1ère édition 1971
- Morony (M) Irak before the muslim conquest prisenta university Press 1986
- NAU : Les arabes chrétiens de mésopotamie et de Syrie du 7ème au 8ème siècle apjc Paris 1933
- Les canons et les résolutions canoniques Paris 1908 112 p
- Sournier (JM) L'orient des premiers chrétiens Paris Fayard 1986
- Rabbath (E) L'orient chrétien à la veille de l'Islam Beyrouth Librairie orientale 1986
- Sarre (F) et Herzfeld (E) : Archéologishe reise in Euphrate und Tigris gebeit 4 vol Berlin 1911 1920
- Oates (D) Studies in the ancient history of northern Irak Oxford 1968
- Vasiliev et canard (M) Byzance et les arabes : La dynastie d'Amorium (820 – 867) T2 451 p Bruxelles 1935
- Von Berchem (M) : Opéra Minora édit slaktine Genève 1978 2T 1187 p
- Zambour Manuel de Généalogie et de chronologie Hanovre Librairie orientaliste 1927 388 p
- Witakowski : The Syriac chronicle of Denys de tell mahré Acta universitus upsalensis Suede 1ère edition 1987 182 p

المقالات العربية

- أبو بكر محمد عقمان : الكرد في كتابات المسلمين الأوائل

مجلة كلية الآداب عدد 24 سنة 1979 ص 237 – 351

- جابر خليل إبراهيم : تكريت من خلال المصادر الأثرية المؤرخ العربي عدد 34 السنة 13 1988 ص2384 – 296

- الحسون (مصطفى) " الرقتان"

BEO 47 – 23 ص TXLI XLII Damas 1993

- الخطاب محمد شيت : العباس بن الوليد بن عبد الملك فاتح شطر الأناضول

مجلة المورد عدد 8 بغداد 1979 ص 55 – 80

- مسلمة بن عبد الملك : فاتح ثغر الأناضول ومحاصر القسطنطينية

مجلة المجمع العلمي العراقي عدد 28 القسم الأول والقسم الثاني ص 71 93 سنة 1978

- بلاد الجزيرة قبل الفتح الإسلامي وفي أيامه

مجلة المجمع العلمي العراقي مجلد 36 ج 1

- الريحاوي عبد القادر إسهام في دراسة الحير الشرقي

الحوليات الأثرية العربية السورية مجلد 26 ج 1 و 2 1976 ص 65 – 76

حضارة الجزيرة والفرات في العهد العربي الإسلامي

الحوليات الأثرية العربية السورية مجلد 19 1969 ص 49 – 76

- سليمة عبد الرسول : الشيبانيون في إقليم الجزيرة : دورهم السياسي خلال القرن الثالث هجري

مجلو كلية الآداب جامعة بغداد 1979 ص 610 – 658

- صليبي (نسيب) : نتائج التنقيب في قصور الرقة

الحوليات الأثرية العربية السورية مجلد 4 – 5 ص 69 – 76

– طوير قاسم : نتائج التنقيب في هرقلة بين سنة 1976 – 1981

الحوليات الأثرية العربية السورية مجلد 33 ج 1 ص 19 – 68 1983

المواقع الأثرية العربية الإسلامية في الجزيرة السورية TXLI BEO XLII ص 13 – 22

– عقيل نبيه : ملاحظات حول نمط الحكم في ولايات الطخوم في الطور العباسي الأول

دراسات تاريخية عدد 17 و 18 1984 ص 88 – 114

– عيد ضيف الهادي : من مخطوطة "من السبق والرمي وأسلحة المجاهدين" المورد مجلد 12 عدد 4 سنة 1983

– فرح نعيم : العلاقات الإقتصادية والإجتماعية في منطقة ما بين النهرين في القرنين الخامس والسادس ميلادي

مجلة دراسات تاريخية عدد 49 1983 ص 103 130

– المحمود أسعد : تحديد المواقع الأثرية على نهر الخابور

BEO 29 – 23 ص TXLI XLII Damas 1993

المقالات الأعجمية

- Ayalon (D) "The military reform of al mutasim : their back ground and consequences" oriental and African Studies London 1964
- Bianquis (T) « La mission archeologiques Franco Syrienne de Rahba – Mayadin » BEO Numéro spécial : Le Nord est Syrien 1993
- Brooks : « Byzantins and Arabs in the time of the early abbasides" the English historical review T15 p 728 747 1900
- Bosworth (E) "The City of Tarsus and the Arab Byzantine frontiers in early and middle Abbasid times" Oriens 1991 p 268 285
  - "Byzantium and the Syrian frontier in the early Abbasid period" 5ème Conference d'histoire Amman 1990
- Bonner (BN) : the naming of the frontier : Awasim Thughur and the Arab geographers BSOAS vol III p 17 – 26
- Cahen (C) : « Fiscalité – Propriété – antagonisme sociaux en haute Mésopotamie au temps des premiers abbasides d'après Denys de tell mahré » Arabica T1 Fas 2 1954 p 131 – 152
- Donner (M) : The Grouth of military institutions in the early caliphate and their civilian authority" Al Quantara vol XIV Fas 2 1993 p 311 -326
- Al ali Salah "A new version of ibn al Mutarifs history of revenues in the early times of Harun al Rachid" JESHO vol XIV – III 1971 p 303 – 310
- Kennedy : (H) : Central government and provincial elites in the early abbasid caliphate" BSOAS N° 44 fas 1 1981 p 26 – 38
- Lassner (J) : "Provincial administration under the early Abbasids : The ruling family and the amsar of Irak" Studia Islamica Vol 50 1979 p 21 - 36
- Lowick (N) : "The religious, the royal and the popular in the figural coinage of the Lazira" dans raby (J) : The art of Syria and the Jazira 1100 – 1250 Oxford 1985
- Meinecke (M) : "Der Palast des Haroun – ar – Rachid in Rakka" Publikation des Deutschen – archeologishen in Instituts damas 1969
- Poidebard (A) : « les routes anciennes de hautes Djezira » Syria fas 8 1927
- Rice : « Medieval Harran » Anatolian Studies vol 42 N° 7 1952

- البكاري لطيفة : حركة الخوارج : نشأتها وتطورها إلى نهاية العهد الأموي (132 ه 749 م)

شهادة دكتوراه جامعة تونس 1995

- بن حسين بثينة : بناء الدولة الأموية وتطروها من عهد الخليفة معاوية بن أبي سفيان إلى عهد الخليفة الوليد بن عبد الملك : 41 ه 69 ه

ش ك ب جامعة تونس سبتمبر 1991

- بن حسين رضا : الجزيرة الفراتية وعلاقتها بالأمصار والخلافة من الفتح الإسلامي إلى نهاية الحكم الأموي

ش ك ب جامعة تونس 1990

- بن فرج لطفي : الأسرى في العلاقات العباسية البيزنطية : من قيام الدولة العباسية إلى واقعة ملازركرد : 231 ه – 463 ه

ش ك ب جامعة تونس 1994

- الجاسم هشام إسماعيل : دراسات تاريخية عسكرية عن الثغور البيزنطية العربية : منذ الفتح العربي للشام حتى نهاية العصر العباسي الأول

ماجستير جامعة القاهرة 1977 248 ص

- رضوان يمنى رضوان : الحياة السياسية وبعض مظاهر الحضارة في الموصل والجزيرة من بداية العصر العباسي حتى نهاية القرن الرابع هجري

ماجستير جامعة القاهرة 277 ص 1988

- العايب سلوى : تغلب بين المسيحية والإسلام 9 ه – 235 ه 631 م – 850 م

ش ك ب جامعة تونس 1988 190 ص

- المسيحية العربية وتطوراتها : من نشأتها إلى القرن الرابع هجري العاشر ميلادي

دكتوراه موحدة جامعة تونس 1995

- السلمان عبد الماجود أحمد : الموصل في العهدين الراشدي والأموي

ماجستير جامعة الموصل 259 ص 1983

البحوث الجامعية الأعجمية

- Ali (Jasem Sukban) : "The Christiams of the Jazira (638 – 750 apjc)

  Unpublished thesis Edumbourg 1982

- Dennet : Marwan ibn Mohamed : The passing of the ummayad caliphate"

  Thèse à Harvard en 1939

- Gunduz Sinasi « The Origines and early history of the Sabeen of the Quran and the Harranian"

  Thèse publié à Manchester Institut du monde Arabe Juin 1993

- Hillenbrand (C) ; The History of the Jazira (1100 – 1150)

  "The contribution of ibn Al Azrak al Fariki" Thèse inedit Edimbourg 1979

- Paillet (JL) : "Le Château de Rahba : Etude d'architecture militaire Islamique et medievale » Manuscrie thèse Université de Lyon II 1983

فهرس الأعلام

«...من حق ريت الوطن القبلي...» ، و مبلغ ألف ريال «...من حق القمح الذي على يده...» في شهر ذي القعدة...إلخ (108) . كما سدد 96 ألف ريال في جمادى الأولى 1187ه ثمن 1000 قفيز قمح و 1500 قفيز شعير من العشر باعها بسعر 60 ريال بالنسبة للقمح و 24 ريال بالنسبة للشعير . و دفع ابن أخيه القايد صالح في شعبان سنة 1190ه مبلغ أربعة عشر ألف ريال «...من حق الزيت...» الذي تولى ترويجه ، كما أدى «...من حق القمح...» الذي باعه 17277 ريال في عام 1192ه و 670¼ ريال في السنة الموالية...إلخ (109) .

. ب = تصدير الزيت :

تفيد الأخبار المتوفرة أن البايليك كان يراسل أبناء أسرة بن عياد حول سير تجارته و كيفية تنظيمها . و كانت تصلهم تذاكر الباي التي تحتوي على عدة تفاصيل منها : ضبط نوعية المنتوجات و كميتها و وضعية الأسعار سواء في مستوى التصدير أو التوريد ، و ذكر الوجهة الجغرافية و السفينة التي ستنجز الرحلة ، و تبيان مجالات الصرف عن طريق تحديد قائمة الإحتياجات المطلوبة . و للدلالة على ذلك نسوق المثال التالي :

«...أعطينا لإبن عياد ألف مطر زيت من سوسة بمعيارها يطلع فيهم ألف و مايتين مطر تونسي ليوسق ذلك في المركب التي كانت حملت الزيت للجزاير و يبيعهم على ذمتنا في اسكندرية و تقضى لنا بهم مصالح و كذلك أذناه يشتري مايتين قنطار صابون و يبيعهم مع الزيت كذلك و قيد هنا أواخر حجة سنة 1180 . جملة الصابون مايتين و تسعة قناطر و نصف . و أعطينا من كراء المركبماية محبوب و هي أصلها اكتريناها للجزاير ثم إلى اسكندرية و أعطينا حق الصابون 1927 ريال بمصروفه في سوسه . القمرق على علي بن عياد...» (110) .

تتبين من خلال هذا المثال أن القايد علي بن عياد كان من بين العاملين في تجارة البايليك مع مصر ، التي ارتكزت على تصدير المواد الفلاحية و الشاشية من جهة و استيراد بعض المصنوعات و القهوة و الأرز من جهة أخرى . و شملت هذه العملية التي تخص الباي تصدير 1200 مطر زيت تونسي و 209½ قنطار صابون نحو ميناء الإسكندرية باستخدام ناقلة أجنبية . لكن الوثيقة لم تحدد نوعية الواردات التي أطلقت عليها عبارة «...مصالح...» ، و أعتقد أن هذا القايد على بينة مما تعنيه تلك العبارة ، و لعله تسلم قبل سفره توضيحات حول تلك الشراءات .

و كان آل بن عياد و أعوانهم يستظهرون بتذاكر الباي لدى وكلاء الدولة و عمالها قصد استلام كميات الزيوت الموجهة للتصدير ، و أحيانا يأخذون ذلك من محصول المشترى و اللزمة أو عشر قياداتهم خاصة منها الوطن القبلي . فعلى سبيل المثال لا الحصر فإن المسمى

ج = ترويج الشاشية :

تجمع كافة المصادر على أهمية دور الدولة في تصدير مصنوعات القطاع الحرفي و استيراد ما يلزمه من ضروريات ، و قد حرص حمودة باشا على تقوية صناعات الإيالة و حث الأعيان على استهلاك المنتوح المحلي . و اعتمد البايليك على التجار الأجانب قصد احتكار عدة واردات حيوية ، متلا الصوف الإسباني و الورق و مواد الصباغة و غيرها . و قد لاحظ الطبيب فرانك عند إقامته بتونس أن ذلك البـاي و وزيره يوسف صاحب الطابع قد فرضا احتكارا على واردات المواد الأوليـة ، و أجبروا الشواشين على اقتنائها مقابل أداء كمية محددة من إنتاجهم باعتبار السعر الذي يحددانه (115) .

و في هذا الإطار فإن «...الواحد و الأربعين بالة صوف و الستة برامل قرمز...» التي اشتراها الباي «...من النصراني الماعوني...» تم بيعها لأصحاب الشاشية في شهر رمضان 1187ه بمبلغ 22455¼ 3 ريال (116) . و كان الأمناء و غيرهم من الأعوان كاليهودي لياه يدفعون الأموال للشواشين على وجه السلم لإقتناء قسم من متوجهم لفائدة الدولة ، فمثلا وزع الأمين 10 36320 ريال «...على أنفار الشواشية...» خلال فترة 1188-1190ه ، كما وزع الحاج حميدة الغماد شيح المدينة في 16 جمادى الثاني 1212ه مبلغ 26796¼ ريال لمشترى الشاشية (117) . و بالتالي استحوذت السلطة على جزء هام من إنتاج الحرفيين عن طريق المشترى و مدهم بالمادة الأولية .

و تشير الوثائق إلى كون علي بن عياد شارك في ترويج الشاشية بالمشرق الإسلامي لفائدة البايليك ، و اعتمد في ذلك على أتباعه من التجار و"جرانة الشتاة". و انخرط في تلك العملية أعيان الإيالة و التجار الأجانب مثلا الفرنسي أرنوص و القبطان فليج و الذمي يعقوب جرافة و غيرهم (118) . فعلى سبيل المثال لا الحصر فإن الدولة اقتنت «...من عند معلمين الشواشية بأسعار مختلفة...» 3201 دزينة في فترة 1187-1188ه ، و أوكلت إلى الحاج علي مهمة تصدير «...ستة صنادق شاشية بهم 750½ طزينة...» أي ما يقارب 23,50% من المجموع . و ارتفعت قيمة هذه الصفقة إلى 10603¾ ريال (119) . و تولى القايد علي توجيه تلك الكمية إلى «...جماعة اسلامبول...» في العاشر رمضان عام 1188ه الموافق ل1774-1775ه «...في أمانة الحاج عمر بن يحيى...» و هو من تجار جربة العاملين في مبادلات آل بن عياد في تلك المرحلة . و يتضح من خلال نفس الوثيقة أن تلك العملية دون الصفقة التي أشرف عليها المسمى محمد الغرياني «...على يد أخيه سي ابراهيم...و سي مصطفى شاوش...» أثناء شهري ربيع الثاني و شوال عام 1189ه ، و شملت تصدير 2450½ دزينة قيمتها 33371 ريال باتجاه مدينة ازمير .

فهرس الشعوب والقبائل والعشائر والأسر

فهرس البلدان والأماكن المختلفة والأنهار

- أ -

27 26 25 24 23 22 21 20 19
36 35 34 33 32 31 30 29 28
45 44 43 42 41 40 39 38 37
55 53 52 51 50 49 48 47 46
71 70 69 64 63 62 61 60 59
82 81 79 78 77 76 74 73 72
92 91 89 88 87 86 85 84 83
104 103 100 98 96 95 94 93
110 109 108 107 106 105
116 115 114 113 112 111
123 122 121 120 118 117
129 128 127 126 125 124
135 134 133 132 131 130
143 142 139 138 137 136
152 151 150 149 148 145
158 157 156 155 154 153
165 163 162 161 160 159
178 172 171 169 168 167
190 185 183 182 180 179
196 195 194 193 192 191
203 201 200 199 198 197
209 208 207 206 205 204
215 214 213 212 211 210
221 220 219 218 217 216
227 226 225 224 223 222

233 232 231 239 229 228
240 239 238 237 236 235
246 245 244 243 242 241
258 256 250 249 248 247
265 264 263 261 260 259
272 270 269 268 267 266
279 278 276 275 274 273
286 285 283 282 281 280
293 292 291 290 289 287
299 298 297 296 295 294
305 304 303 302 301 300
311 310 309 308 307 306
317 316 315 314 313 312
324 323 321 320 319 318
330 329 328 327 326 325
336 335 334 333 332 331
342 341 340 339 338 337
348 347 346 345 344 343
356 355 353 352 351 349
363 362 361 360 358 357
370 368 367 366 365 364
376 375 374 373 372 371
382 381 380 379 378 377
388 387 386 385 384 383
394 393 392 391 390 389

الملاحق

قطيعة لوائل بن الشحّاج الازدي

الرّاوي: مسرور بن حمدويه عن ابيه عن جدّه قال :

اقطع ابو جعفر المنصور وائل بن الشحّاج هذه القطيعة واخرج الى مسرور نفس الكتاب الّتي كتب له ابو جعفرلوائل وجده الكاتب دالا على صدقه بعتقه وخواتيمه والخطوط التي فيه نسخته :

- بسم الله الرحمان الرّحيم -

من عبداله امير المؤمنين(1) لوائل بن الشحّاج الازدي من اهل الموصل ابن امير المؤمنين اعطاه ارضا من الصّوافي بالموصل الى جانب ارضه وقصره الذي كان ابو العبّاس رحمة اللّه عليه اعطاه(2) ايّاه باسفل الرّبض تكون مساحته52 جريبا حدّها الاوّل ياخذ من الطّريق الذي اسفل دار زياد الحدّاد في ربض الحضر الاسفل ثمّ يلزم دجلة منتصبا حتّى ينتهي الى الخليج الاسفل الذي جزيرة بن الحبحاب حتّى ينتهي الى جزيرة ابي ثوروحدّها ممّا يلي القبلة في وسط دجلة بين الطّريق الذي اسفل دار زياد الحدّ اد ثمّ ياخذ مع البستان وحائطه ممّا يلي ارض المدينة الاسفل حتّى ينتهي الى ركن الحائط الذي عند تلّ المصلوب وحدّها الغربي من عند رحى امير المؤمنين مع النّهر مقابل ارض عمران بن عطاء يلزم الجبل حتّى ينتهي الى جزيرة ابي ثور قاعدا في الخليج الاسفل حتّي ينتهي الى دجلة بحدود ذلك ومعالمه فان بدا لامير المؤمنين فيما اعطاه منها بداء فهي له وهو احقّ بها وان احدث بامير المؤمنين حدث . وهي بيده فهي له ولعصبته من بعده ولم يعطه امير المؤمنين حقّا لمسلم ولا معاهد شهد على ذلك الشّهود يحيى بن سعيد وسفيان بن معاوية القرشي وسليمان بن مجالد وسليمان بن سليمان وكتب في شهر ربيع الاخر سنة 139 ه وسفيان بن معاوية ويحيى بن سعيد موصليان .

- المَصدر الأزدي تاريخ الموصل:ص 171

(1) يعني به جعفر بن المنصور والي الموصل سنة 145 ه
(2) الرّجوع لنصّ الاقطاع الاوّ ل زمن ابو العبّاس في سنة 136 ه نفس المصدر:ص:158

مراسلة الخليفة ابو جعفر المنصور الى واليه على الموصل اسماعيل ابن عبد ا لله القصري للتنكيل ببعض الاعوان الفاسدين

الراوي ابو زكرياء الازدي

وجدت في كتب الحارث بن الجارود قاضي الموصل القديمة اخرجها الي بعض اولاده

بسم ا لله الرحمان الرحيم

من عبد ا لله امير المؤمنين الى اسماعيل بن عبد ا لله اما بعد

فانها رفعة رفعت الى امير المؤمنين بكورة الموصل لسنة ثمان واربعين ومائة واعوانهم وجباتهم وقساطيرهم 1 واتباعهم ان اموالا اقتطعوها وامير المؤمنين يحب الشدة على اهل الخيانة والتنكيل بهم وقد بعث اليك امير المؤمنين بدفتر فيه اسماءهم ومن رفع عليه من العمال والكتاب والاعوان والقساطرة ومنازلهم وما شرح عليهم بعد هذا الذي كان يحيى بن عمران رفع انه استخرج منهم من ذلك فاقبض ما اعلمك امير المؤمنين في ذلك الدفتر مما رفع عليهم ثم احمله الى بيت المال بمدينة السلام مع من تثق به من الخزان وتكتب لهم منه البراءة وان اعتل عليك احد منهم بما قبله فابسط يدك عليه ولتكن منك في ذلك اشد الشدة ومن اعطاك ما قبله واداه فلا تعرض له الا بخير له ان شاء ا لله وكتب لثلاث خلون من شوال سنة اثنتين وخمسين ومائة

المصدر الازدي تاريخ الموصل ص 214—215

1 القسطار منتقد الدراهم

رسالة الخليفة محمد المهدي الى الخارجي عبد السلام ابن هاشم اليشكري

من عبد الله محمد المهدي الى عبدالسلام ابن هاشم اليشكري .

ان الله عز وجل احفص بالسعادة واحفص بالمهدي خدمه وامكن من اجاب جنته واسبغ على من خشيه نعمته واحل من عصاه نقمته اني عجبت من اقدامك وبغيك حيث تكلمت بكلمة حق تريد بها باطلا ماا لله مجزيك به وسائلك عنه مع مناواتك خليفته ونزعك يدك من طاعته وشتمك ابا الحسن علي ابن ابي طالب صلوات الله عليه ووقوعك فيه وتنقصك اياه وولايتك لمن عاداه الله عز وجل فا لله عز وجل عصيت ونبيه صلى الله عليه وسلم عاديت فقد اتاك يقينا ماضيا وحديثا صادقا عن النبي صلى الله عليه وسلم من كنت مولاه فعلي مولاه فكنت المكدب بدلك والحائد عنه حتى انقطعت مدتك وتماديت في غيك فاقسم لاغزينك اجنادا مطيعة وقواد منيعة هم الدين يفضون جمعك ويهتكون بناك فاعمل لنفسك اودع

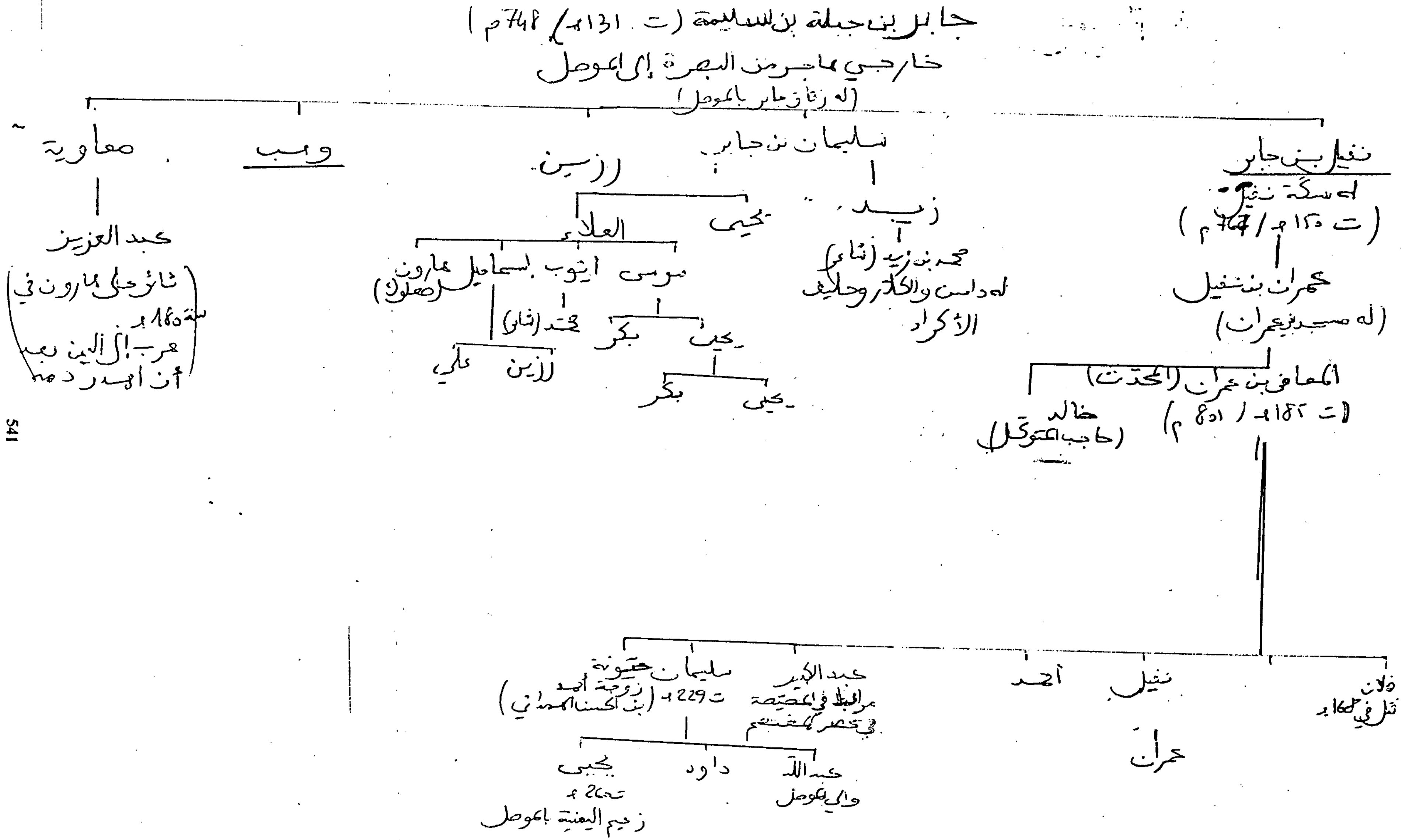
المصدر الازدي تاريخ الموصل ص 238

رسالة الخارجي عبد السلام بن هاشم اليشكري الى الخليفة محمد المهدي العباسي

من عبد السلام بن هاشم الى محمد بن عبد ا لله

سلام على من اتبع الهدى واجتنب الغي وقام بالحق فلا الهدي اتبعت ولا الغي اجتنبت ولا بالحق قمت اما بعد فان ا لله بحوله وقوته ورحمته وعونه سيد السادات شديد النقمات التي يتعاهد منهم ماينبغي لهم تعاهده اتاني كتابك تعجب مما نقمت ادا حكمت فلست بتاركك في عمياء مما انت فيه مع انك خدعت عن هدا نفسك وقد علمت اني انما انفت وحكمت حين تركت الامة تائهة مائجة لا حدودها اقمت ولا حقوقها اديت واشتغلت بامائك وتنوقت في بناءك مع ادمانك الصيد ادا تغدوا معك البداة والفهود والجنائب والكتائب فادا انثنيت من صيدك ودخلت بهوكواتبعك اخوانك فتغديت وغنيت فيمين ا لله ما افحش هدا ممن يدعي خلافة ا لله قد كانت لاعاجم تنقم مما دون هدا ثم انت ادا خطبت كدبت وادا عاهدت نكثت وقد زعمت في كتابك انك ستغزيني اجنادا مطيعة وقواد منيعة فا لله يقضي جمعك ويهزني غيظا اتك تسميت بالمهدي وابعد من سماك فنعم المهدي انت ادا سعيت الناس بيعا واوسعت الناس غيا خدعك يعقوب ابن داود اخا اخيت وخدنا صافيت دعاك فاجبت فخدعك فطاوعت ففي أي دين يسعك وفي أي كتاب اصبت اد تعدوا وظيفة او تنقص مساحة او تصطفي بستانا او تبدغ في مركب او ترمي به في نزهة او تغامض من جند او تجسس عطا ء او تنسى من غزى وتعاقب بالسوط سالما للدم وانما السافك يقاد والزاني يقام حده واللص تقطع يده ولا تعاهد السجون بنفسك ولا تزعجها بعينك فهدا نسيت وعن هدا سهوت ايها الطاغية افمن بعد هدا حياة فانظر انا بالعازم الفتح بيد ا لله يحكم ما احب انما انا عبد من عباده ولا استطيع منه امتناعا ولا من نفسي دفاعا ولا حول ولا قوة الا با لله

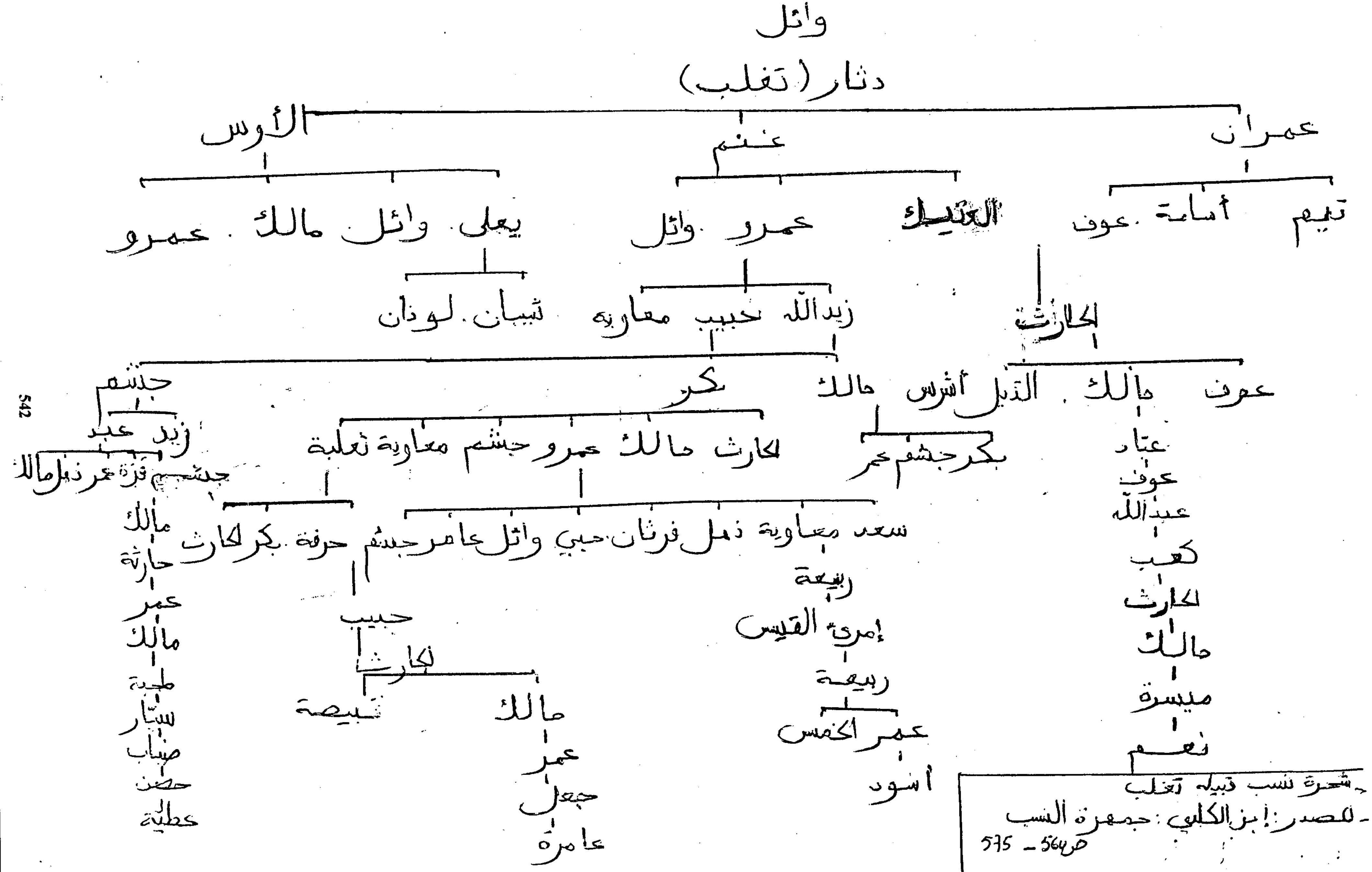
المصدر تاريخ ابن الخياط 476 477



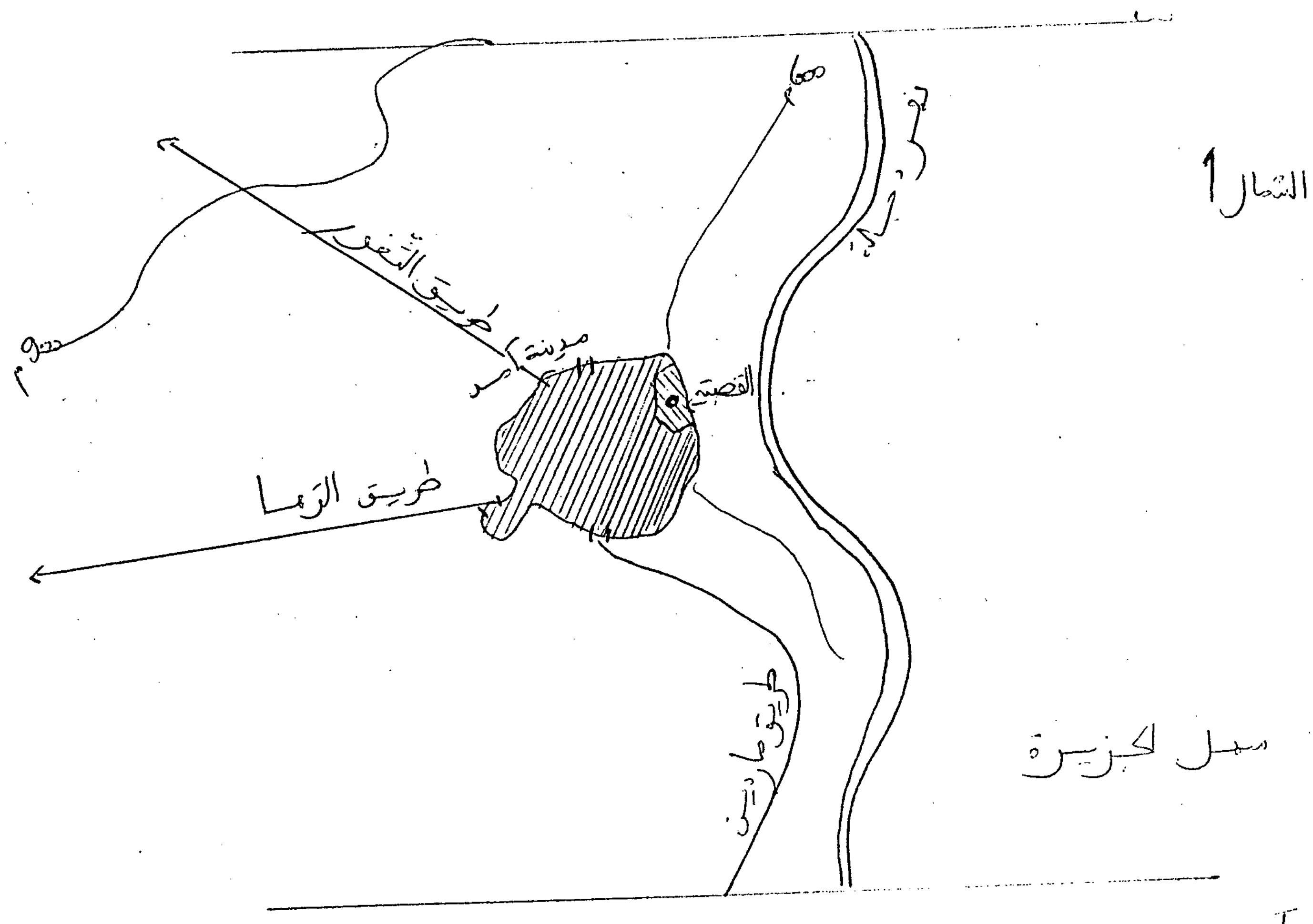
المصدر ابو زكرياء الازدي

تاريخ الموصل مقطع من ص 80 ---90

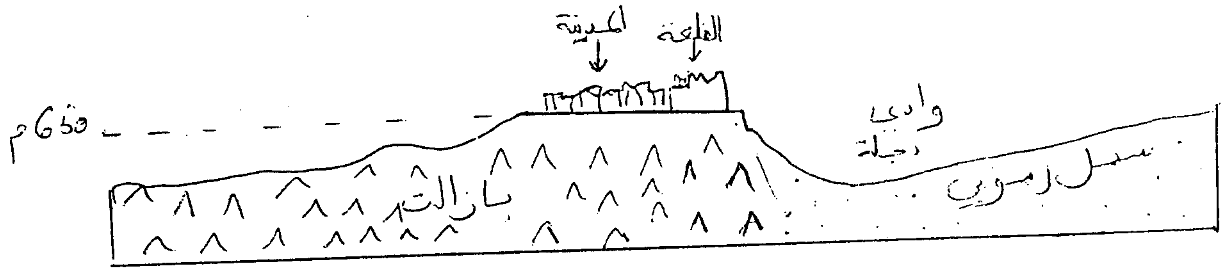
ال جابر بن محاسن من بني سليمة الزديون من نواقل البصرة بالموصل



وائل
دثار (تغلب)
الأوس
غنم
عمران
عمرو . مالك وائل . يعلى
وائل . عمرو
العتيك
عوف . أسامة
تيم
ثبيان . لوذان
معاوية حبيب زيدالله
الحارث
جشم
بكر
مالك
أشرس
التيل . مالك
عوف
زيد عبد
جشم قرة عمر ذبل مالك
ثعلبة معاوية جشم عمرو مالك الحارث
بكر جشم عمر
عباد
عوف
عبدالله
كعب
الحارث
مالك
ميسرة
نعم
مالك
حارثة
عمر
مالك
طجة
سيار
ضباب
حصن
عطية
الحارث بكر . حرفة
جشم عامر وائل حبي فرثان ذهل معاوية سعد
ربيعة
إمرئ القيس
ربيعة
عمر الخمس
أسود
حبيب
الحارث
نبيصة
مالك
عمر
جعل
عامرة
شجرة نسب قبيلة تغلب
- المصدر: ابن الكلبي: جمهرة النسب
ص 564 - 575

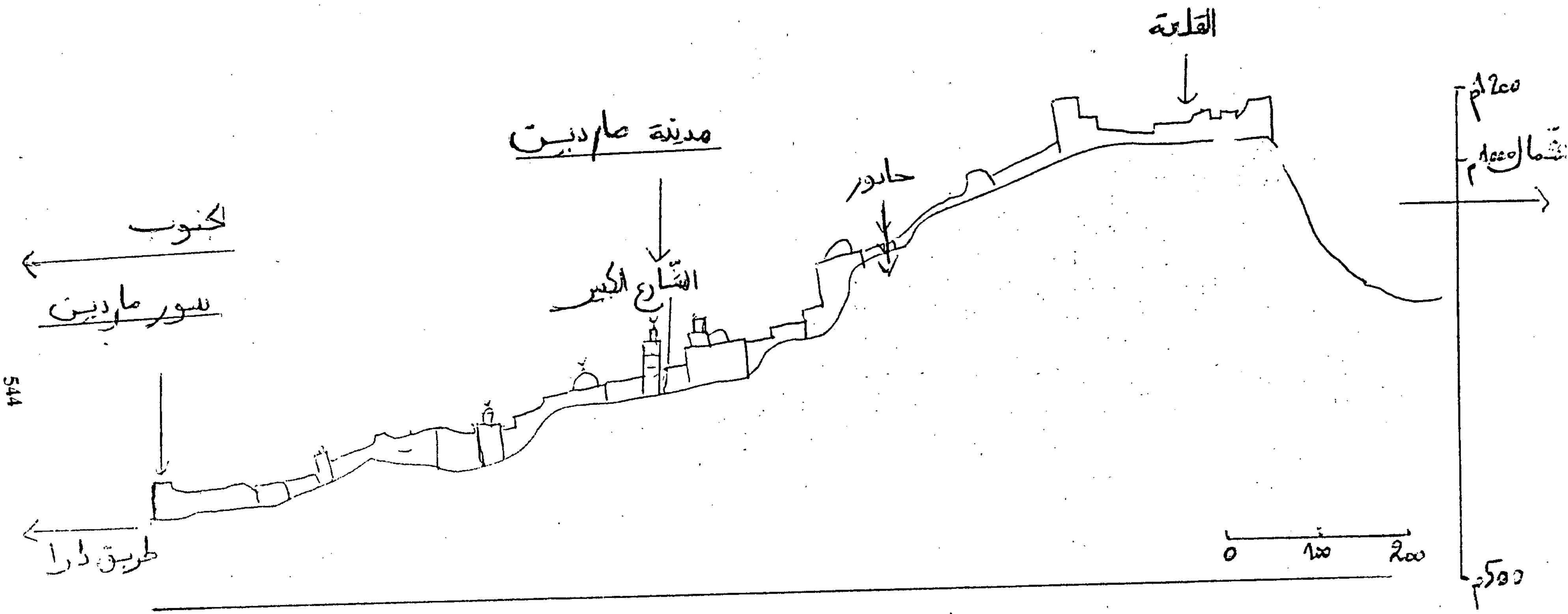


آمد



موقع مدينة آمد

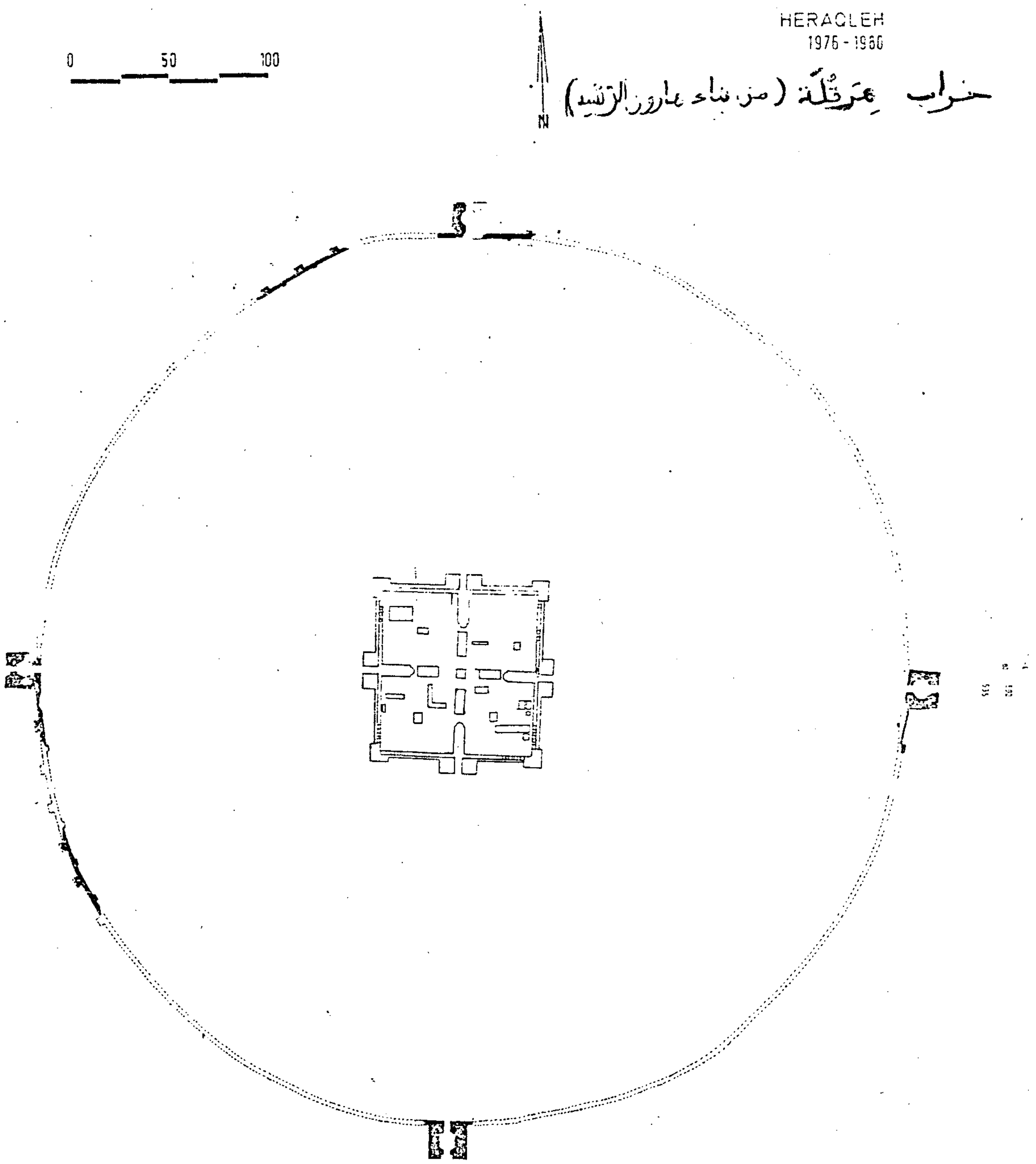
المرجع: Albert Gabriel : voyages archéologiques dans la Turquie orientale p136



١ موقع آثار مدينة ماردين وقلعتها

المرجع
Albert Gabriel
Voyages archéologiques dans la Turquie orientale. - 134

مقال : قاسم الطويـر



قائمة ولاة الجزيرة وما جاورها من ولايات

الخلافة	ولاة الجزيرة	ولاة الموصل	ولاة قنسرين	ولاة أرمينية	ولاة أذربيجان	أمراء الصوائف اليمنى
عمر بن عبد العزيز 100 – 101 هـ 718 – 719 م	عبد العزيز بن حاتم الباهلي عمر بن هبيرة الفزاري (الحرب) ميمون بن مهران (الخراج)	يحيى بن يحيى الغساني	هلال بن عبد الأعلى الوليد بن هشام المعيطي			ابراهيم بن الكولر الغنوي جعونة بن الحارث العامري
يزيد بن عبد الملك 101-105هـ 719-723م	عمر بن هبيرة مروان بن محمد		الوليد بن هشام المعيطي	ثابت النهرواني الجراح بن عبد الله الحكمي		عمر بن هبيرة سعيد بن هشام بن عبد الملك مسلمة بن عبد الملك العباس بن الوليد
هشام بن عبد الملك 105-125هـ 723-742 هـ	مروان بن محمد	الحر بن يوسف بن الحكم بن العاص الوليد بن تليد العبسي أبو قحافة المزني	الوليد بن قعقاع يزيد بن عمرو بن هبيرة	مسلمة بن عبدالملك الحارث بن عمرو. الطائي الجراح الحكمي سعيد بن عمرو الحرشي مسلمة بن عبد الملك مروان بن محمد		مسلمة بن عبد الملك معاوية بن هشام سعيد بن هشام سليمان بن هشام مسلمة بن هشام عبد الله الأنطاكي البطال
الوليد بن يزيد 125-126هـ 742-743 م	أبو قحافة المزني		مسرور بن الوليد	مروان بن محمد		النعمان بن يزيد بن عبد الملك
اليزيد III 126هـ/743م/	سليمان بن عبد الله بن علاثة	عبد الملك بن مروان II		مروان بن محمد		الغمر بن يزيد و عبد الملك بن مروان
ابراهيم بن يزيد 126-127هـ 744-749 م	سليمان بن عبد الله بن علاثة	عبد الملك بن مروان II		مروان بن محمد		عبدة بن رياح الغساني
مروان بن محمد 127-132 هـ 744-749 م	عبد الله بن مروان II	القطران بن أكمة الشيباني سيطرة الضحاك الخارجي زهير بن عمرو التغلبي	عبد الملك بن كوثر الغنوي	إسحاق بن مسلم بن عقيل		عبد الملك بن كوثر الغنوي سعيد بن عبد الله بن علاثة

معركـــــــة الــــزاب وبدايـــــة الحكـــــم العباســـي

أبو العبـــاس السفـــاح 136-132 هـ 753-749 م	أبو جعفـــر موسى بن كعب المقاتل العكـي اسماعيل بن علـــي	محمد بن صـــول 133-132 هـ يحي بن محمـــد 134-133 هـ العبـــــاسي (نائبـــه الأول) (نائبـــه الثاني) (نائبه إلى 136)	عبد الصمد بن علي إلى 134) زفر بن عاصم الهلالي	عاصم بـــن يزيد 133 محمد بـــن صول134 أبو جعفـــر صالح بن صبيح (نائبــه)	العباســي محمد بن صول (نائبه)	موسى بن كعـــــب
أبو جعفر المنصـــور 158-136 هـ 774-753 م	عبد الله بن علـــي حميـد بـــن منصور بـــن نائبه يزيد بن أسيد العبـــــاس 155-142 موســــى -158 عبد الوهاب بـــن ابراهيم (نائبه)	إسماعيل بن علـــي 137 قحطبــــــة جعونـــــــة مالك بن هيثم الخزاعي (نائبه إلى 145هـ) بن محمـــد 144-142 مالك بن الهيثـــــم نائبه إلى 141 جعفر بن المنصـــور 147-145 خالد بن برمـــــك 152-148 بن مصعـــب 152	صالح بن علـــي	الحسين بـــن قحطبة يزيد بن أسيـــد بكار بن مسلـــم	يحي بن خالـــد البرمكـــــي	صالح والعباس بني محمـــد 138 و 139 جعفر بن حنظلة البهـــراني 146 هـ العباس بن محمد والحســن بـــن قحطبة 149 هـ عبد الوهاب بن ابراهيم الإمـام 152-151 هـ زفر بن عاصم الهلالـــــي 158-156 هـ
المهدي بن العباس 169-158 هـ 774-753 م	موســـى بن الفضل بن سعيد 162-159 عبد الصمـــد زفر بن عاصـــم الهلالـــي إلى 165 عبد الملك بن	مصعـــــب إلى159 حسان الســـروي 162-160 بن علـــــي 163-162 محمد بن الفضـــل إلـــــى 164 صالـــــح168-165	موسى بن سليمان 158 علي بن سليـــمان بن علي (168- 163)		يحي بن خالـــد البرمكي 158-161 بسطام بن عمـــرو التغلـــبي إلى 171	يزيد بن أسيد 158 العباس بن محمد 159 هـ ثمامة بن وليد العبسي 160 و 161 هـ الحسن بن قحطبة 162 هـ هارون الرشيد 165 و 163 هـ
الهادي 170-169 هـ 786-785 م	عبد الملـــك علي بن سليمان(نائبه)	بن صالـــــح هاشم بن سعيد(نائبه)			بسطام التغلبي	معيوف بن يحي 169
هارون الرشيد 193-170 هـ 808-786 م	عبد الملـــك علي بن سليمان نائبه إلى 171 أبو هريرة 171 القاسم بن هارون أبو هريرة نائبه إلى 178 (أعدم)	بن صالـــــح إسحاق بن محمد (نائبه إلى 172 سعيد بن مسلم الباهلي173 عبد الله بن القاسم مالك الخزاعي175 الحكم بن سليمان إلى 176	خازم بن خزيمة			

	محمد بن 179-178 سعيد بن مسلم 183-180 ابراهيم بن خازم بن خزيمة إلى 186 عبد الملك بن صالح 186 هرثمة بن أعين إلى 187	العباس 179-176 يحي الحرشي 180-183 هرثمة بن أعين 182-184 نائبه عمرو بن الهيثم يزيد بن مزيد 184-190 نوابه أسد بن يزيد إلى 186 علي بن شريك 186-187 نداك بن رفاعة إلى 189 خالد بن يزيد الباهلي إلى 191 محمد بن الفضل إلى 193				
الأمين 193-198 هـ 808-813 م	القاسم نائبه يزيد بن خزيمة 193-194 عبد الملك بن صالح 196	ابراهيم بن العباس 195 خالد بن يزيد إلى 196 هرثمة بن الأعين نائبه الأول المطلب الخزاعي إلى 197 نائبه الثاني الحسن بن عمر التغلبي 197				
المأمون 198-218 هـ 813-833 م	**طاهر بن حسين 198-204** نوابه : يحي بن معاذ 204 عبد الملك بن طاهر إلى 206 **عبد الله بن طاهر** محمد بن حميد الطوسي 211 نائبه العباس بن المأمون إلى 218	نوابه : (ثورة نصر بن شبث العقيلي) علي بن حسن الهمداني 202 محمد بن سعيد بن مالك 204 السيد بن أنس 206 السيد بن أنس نائبه إلى 211 محمد بن حميد الطوسي 213-211 نائبه 1 هارون بن أبي خالد نائبه 2 محمد بن السيد إلى 214 مالك بن طوق التغلبي 216-214	العباس بن المأمون 218-213 إسحاق بن ابراهيم (نائبه)	**ثورة بابك 200 -222** **حاتم بن هرثمة 200 -202** **عيسى بن محمد بن خالد إلى 205**	علي بن صدقة بن زريق ابراهيم بن الليث 209 محمد بن حميد الطوسي قتل في 213 علي بن هشام (أعدم 214) عجيف بن عنبسة 217	العباس بن المأمون 213 المأمون 217-215 العباس بن المأمون218
المعتصم 218-227 هـ 833-841 م	غسان بن عباد 218-222 مات	منصور بن بسام 218-219 عبد الله بن السيد 224-219	عبد الله بن عبد العزيز	غسان بن عباد 221-219	عجيف بن عنبسة الأفشين نهاية ثورة بابك 222 منكجور نائب الأفشين	حملة المعتصم على عمّورية 223

المصادر والمراجع الاساسية

الازدي تاريخ الموصل ص 494_ 496

الطبري تاريخ الامم والملوك ج 7 الى الج 9

زمباور تاريخ الاسر الحاكمة.قائمة ولاة الموصل

قائمة رؤساء الحرنانية منذ حكم عبد الملك بن مروان

المصدر ابن النديم:الفهرست ص391

اسماء الرؤساء	عددسنوات حكمهم	فترة حكمهم	الخلفاء
ثابت بن احوسا	14 سنة	66ه—— 80	عبد الملك
ثابت بن طبون	16	80——96	من الوليد الى سليمان بن عبد الملك
ثابت بن قرثيا	17	96——123	من سليمان الى هشام بن عبد الملك
ثابت بن ايليا	20	123——143	من هشام بن عبد الملك الى المنصور العباسي
قرة بن ثابت ا	21	143——154	المنصور
جابر بن قرة	20	154——174	من المنصور الى الرشيد
سنان بن جابر	9	174——183	الرشيد
عروس بن طيبا	17	183—— 200	من الرشيد الى المامون
ميخائيل بن بقراريس	13	200 ——213	المامون
تنين بن قصرونا	5	213——218	من المامون الى المعتصم
مغليس بن طيبا	5	218——223	المعتصم
عثمان بن مالى	24	223—— 247	منالمعتصم الى المتوكل

ملاحق البحث

	الصفحات
ملحق 1 خريطة موقع الجزيرة في منطقة الشرق الاوسط	بين ص 8——9
ملحق 2 خريطة مواطن القبائل العربية بالجزيرة	بين ص 42——43 وص ١٠٠ (تغلب)
ملحق 3 خريطة التنظيم الكنسي بالجزيرة في بداية القرن 3ه	بين ص 157——158
ملحق 4 خريطة واقعة الزاب	بين ص 233——234
ملحق 5 خريطة التقسيم الاداري بالجزيرة في بداية القرن 3ه 9م	بين ص 257——258
ملحق 6 خريطة مدينة الموصل في بدايةالقرن 3ه 9م	بين ص 463——464
ملحق 7 مخطط الرقة الرافقة في فترة اقامة الرشيد	بين ص 503——504

عرفت تجارة البلاد التونسية انطلاقة واضحة خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر نظرا لملاءمة الظرفية الداخلية و الخارجية . فقد أدى نمو القطاعات المنتجة خاصة منها الفلاحة إلى توفير فوائض أكثر للتصدير ، و شجع البايليك فئة التجار بصفة عامة إعتبارا لما تقدمه له من خدمات مفيدة سواء في السوق المحلية أو المتوسطية (1) . و كان"القياد–اللزامة"خاصة بالجهات الساحلية مثل آل بن عياد مهيئين أكثر من غيرهم للإنتفاع من هذه الظرفية ، نظرا لطبيعة السلطة التي انبنت على التداخل بين السياسي و الإقتصادي–المالي من جهة و انفتاح تلك القيادات على البحر من جهة أخرى .

و تطالعنا وثائق الأرشيف الوطني بأخبار كثيرة حول كميات المواد الفلاحية و المصنوعات الحرفية التي صدرتها الإيالة ، و قيمة السراح الذي دفعه المنتفعون من ذلك ، و الشركات و عمليات القراض ، بالإضافة إلى المراسلات التي كان يتبادلها الوكلاء التونسيون بالخارج (2) . و أكدت تقارير القناصل و انطباعات الرحالة على تنامي صادرات البلاد زمن حمودة باشا نظرا لزيادة الطلب الخارجي على المواد الفلاحية ، و يقدر محمد الهادي الشريف مساهمة التجارة البحرية في مداخيل الدولة سنة 1799-1800م بنسبة 29½% (3) .

و بالتالي تدعم الإقتصاد النقدي مقارنة مع الفترة السابقة خاصة بالمناطق الساحلية ، و أضحت فئة التجار ضمن الشرائح الإجتماعية الصاعدة . و يقول ابن عبد العزيز أن التجار و غيرهم كانوا «...قبل هذا (أي عهد علي باي) يتبرءون من نسبة الغنا إليهم خوفا من تطرق الأيدي إلى أموالهم حتى جاءت هذه الدولة الغراء فصاروا يتفاخرون بالغنا و ينتسب إليه الفقير منهم و يتزيدون فيه و اتسعوا في أحوالهم أمنا على أموالهم...» (4) . و سعت هذه الفئة إلى تقوية حركة التبادل وإرساء علاقات سلمية مع الأوجاق العثمانية المجاورة و العالم المسيحي . و يبدو أن هذه التوجهات لقيت مساندة كبيرة من قبل حكومة الباي و أعيان البلاط خاصة أيام وزارة مصطفى خوجة الذي عرف بمساندته للمصالح الفرنسية بتونس .